



علي مولا

القومية في السياسة والتاريخ

فروريك هرتز

مراجعة
و. إبراهيم صقر

ترجمة
عبد الكريم أحمد

القومية فى التاريخ والسياسة

تأليف: فردريك هرتز
ترجمة: عبد الكريم أحمد
مراجعة: د. إبراهيم صقر

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
مدير إدارة النشر
على عفيفي
الإشراف الفني
د. خالد سرور

• القومية في التاريخ والسياسة
• ترجمة: عبد الكريم أحمد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2011م
24 x 17 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور.
• رقم الإيداع: ٢٠١١/٤١٠٠
• المراسلات:
باسم / إدارة النشر
على العنوان التالي: ١٦ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريد 11561
ت: 27947897
البريد الإلكتروني:
elnashr@yahoo.com
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

القومية فى التاريخ والسياسة

هذا الكتاب دراسة للطبيعة البشرية والمجتمع البشري . ويتطلب موضوعه مزيجا من البحث التاريخي بأساليب سيكلوجية واجتماعية . وبرغم ان نطاق الكتاب قد يبدو أكثر شمولاً من الكتابات السابقة التي عالجت المشكلة ، فيجب أن نؤكد أنه لم يقصد به أن يكون مناقشة شاملة لجميع الجوانب وكل المادة المتاحة . فمثل هذه المناقشة تملأ دائرة معارف كاملة وتتطلب تعاون عدد كبير من المختصين . فضلا عن أن ظروف الحرب تفرض قيودا مشددة على حجم الكتب . فقد اضطرت الى اغفال عدة فصول مهمة والاقتصاد في المساحة كلما أمكن . ومن ثم ينبغي ألا يفترض أن المسائل التي لم تعالج بالتفصيل أو لم تعالج أصلا قد فاتت على أو اعتبرتها غير هامة . وكان من بين القواعد الرئيسية في اختيار المادة تجنب المعالجة التفصيلية للمسائل التي نوقشت على نطاق واسع من قبل والتي يفترض في معظم القراء معرفة كافية بها، الا اذا كنت قد اضطرت لعرض تفسير جديد أو حجج اضافية مهمة . وبالإضافة الى أن كثيرا من مشاكل الجنسية سبق أن عالجتها في كتاباتي فاني ازمع أن أنشر قريبا كتابا أخرى وبحوثا تنطوي على استمرار لبحاث هذا الكتاب . وقد اقتصدت في المساحة أيضا بالإشارات الكثيرة الى مؤلفين آخرين حيث يستطيع القارئ أن يجد مناقشات أكثر تفصيلا لبعض القضايا مما استطعت أن أقدمه .

وماكنت لأستطيع أن أتابع دراساتي وكتابة هذا المؤلف لولا المساعدة السخية التي تلقيتها من « جماعة حماية العلم

والمعارف « في كامبردج وكلية «أول سولز» في اكسفورد .
وانى أنتهز هذه الفرصة للتعبير لهما عن عميق شكرى . وانى
مدين بالفضل بصفة خاصة لدكتور و.ج.س. آدامز ، عميد
«أول سولز» ، وسير وليم بفريدج وجورج ب.جوش ومستر
الكسندر فاركوهارسون ، السكرتير العام لمعهد الدراسات
الاجتماعية ، لما أبدوه من اهتمام وعطف على عملى . كما انى
مدين أيضا لأصدقاء قرءوا فصولا من هذا الكتاب واقترحوا
بعض تصحيحات ، وبخاصة مستر سيريل فوكس و د. ر.
لافان ومس كاترين مارشال ومس أ. ت. آشتون ومستر
أ. ت. تيرنر . كما أدين أيضا بشكر خاص للدكتورة مارجريت
آيزن التى كرست وقتا طويلا لطبع المخطوط على الآلة الكاتبة
ومراجعتة .

لندن ابريل ١٩٤٣ .



صَوَرُ الوَعْيِ القَوْمِي وَتَكْوِينُهُ

١ - لغز الشعور القومي

لوحظ في بعض المناقشات الدينية التي أدت الى اضطرابات خطيرة في الامبراطورية البيزنطية أن الجدل حول موضوعات قد لا يققها العقل البشري ، بله عقل الرجل العادي ، كثيرا ما أثارت انفعالات الجماهير الى أقصى حد . ويمكننا أن نقول نفس الشيء الى حد ما عن كثير من الصراعات السياسية في عصرنا . ويعد الشعور القومي بصفة خاصة ، وهو أقوى عامل في السياسة الحديثة ، أكثر هذه العوامل غموضا . إذ أثبت الشعور القومي أنه أقوى من أى مذهب سياسى آخر . فقد تحطمت تحت وطأة هجماته امبراطوريات كبرى ، وقامت باسم القومية حروب وثورات غيرت معالم العالم . ولم تستطع المصالح الاقتصادية ولا الاخلاق ولا الدين أن تحد من اندفاع التيار الذى يبدو انه يدفع مدينتنا كلها نحو الهاوية .

ومع ذلك فان قلة من الناس «فقط» هى التى تهاجم الشعور القومي صراحة ، فالانجليز درجوا على اعتباره والوطنية شيئا واحدا ، ولا يميلون الى استئصاله تماما بل ونجد أن مثل هذه المحاولة تقابل بمقاومة على نطاق واسع . والاتجاه السائد أن «الجنسية» «والشعور الوطنى» أو «القومى» لهما قيمتهما ولكن يجب أن يظلا داخل نطاق محدود . بل ان موقف التشكيك فى قيمة الشعور القومي أو العداء نحوه يكاد يعتبر جريمة فى بعض البلاد . ومع ذلك فلا يوجد بلد يستطيع الشخص المتوسط فيه أن يعطى تعريفا ملائما للشعور القومي أو أن يحدد بالضبط الخط الفاصل بين الشعور القومي الضار والمفيد . ومن الواضح أن أكثر وجهات النظر انتشارا هى أن القومية لاتعنى سوى حب الأمة أو الشعب والتحمس



لمصالحهما الحقيقية والولاء للدولة والتعلق بالوطن ، وأن «القومية» هي نفس الشيء «كالوطنية» تقريبا . وإذا كان ذلك صحيحا فانه يكون من العسير أن نفهم لماذا أدت مجرد المغالاة في الحب أو الحماسة في بعض الحالات الى سياسة انتهت بمذبحة للشعب وتدمير ثروته ومدنيته واسمه الطيب . ويفسر آخرون القومية بأنها سياسة تدفع اليها الانانية القومية، أو بأنها وجهة نظر خاطئة وضيقة الأفق في المصالح القومية . ومثل هذا التفسير أيضا لا يساعدنا كثيرا على فهم طبيعة القومية . فمن الواضح أن القومية ليست مجرد جهل وسوء تقدير . والا فانه لا يكون هناك تفسير لواقعة أن القومية المدمرة بالذات ظهرت في عصر انتشرت فيه المعرفة السياسية بصورة لم تعرف من قبل ، وأن دعايتها ومؤيديها كانوا في الغالب من بين الطبقات المثقفة ثقافة عالية في بعض البلاد .

واستخدام لفظ القومية للتعبير عن الشعور القومي ، الذي تفرد به العرف الانجليزي ، والذي درج عليه أيضا كثير من علماء الاجتماع والمؤرخين ، يؤدي الى بلبلة شديدة . ونجد مثلا ذا مغزى في خطاب ألقاه رامساي مكدونالد ، رئيس الوزراء ، في ١٣ من مايو ١٩٢٤ . فقد قال، طبقا لما جاء في صحيفة «التايمز» ، ان عواطفه مع الأمم الصغيرة في أوروبا وأنه يؤمن بالقومية ايمانا لا يتزعزع ، وأنه يحترم الظروف القومية والسمات القومية . وأنه يكون من سوء طالع العالم أن يقضى على كل تلك الفوارق بين البشر التي خلقتها التجارب العديدة للأجناس والمذاهب والأجواء المختلفة ، وأن تصب في قالب منمط واحد . ثم قال ان ذلك

ليس مثله الأعلى ، وليس مثله الأعلى كذلك المغالاة في القومية بحيث تصبح عقبة كأداء في سبيل أى شخص يعمل من أجل السلام . فالشعور القومى ليس شعورا عدوانيا اذ القومية هي احترام الذات ، وأكثر الناس احتراما لأنفسهم هم أكثرهم احتراما للغير .

وبهذه العبارات يعتبر مكدونالد نفسه من دعاة القومية بمعنى ثقافى واخلاقى بحت ، فهو يريد الإبقاء على السمات القومية لكل أمة ومراعاة احترام الذات كشرط للاحتواء المتبادل . وهو يسلم بأن هناك أيضا عقليات أقل حبا للسلام تحمل اسم القومية ولكنه يعتبرها مجرد مغالاة في القومية الحقيقية ، بل انه يذهب الى حد انكار حقها في هذا الاسم حيث ان القومية ليست عدوانية . ونظرية أن « القومية الشرسة » هي مجرد مغالاة في « القومية الوديدة » واضح انها تؤدي الى اعتبار أن هتلر يمثل أساسا نفس الأهداف التي يعمل من أجلها مكدونالد ولكنه أكثر تطرفا أو يعمل على تحقيق أهدافه بوسائل خطأ لا يمكن أن تؤدي الى النتائج المطلوبة . ومثل هذه النظرة تثبت بالتأكيد عدم فهم قومية هتلر، وهي قمينة بأن تضلل الرأي العام فيما يتصل بأخطار القومية .

بيد أن عدم الوضوح يشمل أيضا مفهوم «الامة» وتعبير «القومى» وتركيب ألفاظ مثل الشعور أو الوعي القومى والطابع القومى وتقرير المصير القومى وهكذا . فعندما نسال ماهي الامة يجيب معظم الناس : الامة هي الشعب ، والواقع أن الاستعمال المألوف في اللغة الانجليزية يوحد بين المصطلحين . وفي الديموقراطيات ، بصفة خاصة ، الامة هي صاحبة السيادة ، والدولة هي أداة تنفيذ إرادتها ، والحكومة هي أداة ادارة شئون الدولة التي تعينها الامة . وفي اللغة الانجليزية يعنى لفظ « قومى » شيئا مشتركا بين الشعب كله ، كاللغة القومية مثلا ، فضلا عن أنه لما لم يكن في اللغة الانجليزية صفة مشتقة من «دولة» ، فان لفظ قومى يستعمل أيضا للتعبير عن أى شئ تديره الدولة أو تسيطر عليه ، مثل الدين القومى « والتأمين الصحى القومى » . بل ان لدينا الآن « الزبد القومى » « والرغيف القومى » كناية عن الزبد أو العيش اللذين تحدد الحكومة مواصفاتها للمصلحة العامة في وقت الحرب . و « تأميم » السكك الحديدية يعنى أن الدولة تصبح المالكة لها والمسيطرة عليها . وتبعا لهذا الاستعمال تأخذ كلمة « قومى » بسهولة دلالة « الشعبى » أو « الديموقراطى » ومن ثم فان الرأي العام في البلاد الديموقراطية اتجه منذ مدة طويلة الى العطف على الحركات التي تطلق على نفسها اسم الحركات القومية في

الخارج . ونادرا ما يدرك الناس أن لفظ «قومي» لا يعنى نفس الشيء فى كل مكان . وكثيرا ما استعملت الأحزاب لفظ «قومي (١)» عنوانا فى عبارات مركبة مثلا كالحزب «الليبرالى القومى» و «الديموقراطى القومى» والاشتراكى القومى (٢) ويتوقف على ظروف كل بلد ما اذا كان لفظ قومى يعنى تأكيد للفظ الثانى أم وصفا له ؟ وفى الاستعمال الالماني ينطوى لفظ «قومى» على جانب عاطفى أكثر بكثير مما فى الاستعمال الانجليزى . فلفظ «أمة» تحمل النسبة للعقل الالماني فكرة شعب عظيم قوى بلغ شأوا كبيرا من المدنية وله دولته الخاصة به ، ولا يستخدم لفظ «قومى» الا فى مفاهيم سامية مثل «الشرف القومى» و «الوحدة القومية» و «اللواء القومى» . ان تعبير «الزبد القومى» شيء مستحيل فى المانيا فاللغة الالمانية تستخدم تعبيرات أخرى فيما يطلق عليه فى الانجليزية لفظ «قومى» مثل « اللغة الأم» بدلا من «اللغة القومية» و «دين الدولة» بدلا من «الدين القومى» و «صحة الشعب» بدلا من «الصحة القومية» .

وسنبين فيما بعد أن لفظ «أمة» أيضا يستخدم بمعان مختلفة تماما ولا يعنى دائما نفس الشيء «كالشعب» وهذا الاختلاف فى الاستعمال كثيرا ما تكون جذوره فى تضارب الايديولوجيات أو المصالح ، وكثيرا ما يرجع الى نقص ملكة النقد . بيد أنه حتى الكتاب المدققين كثيرا ما يضطرون الى استخدام مصطلحات غير دقيقة لأن الجمهور قد ألف استعمال نفس الالفاظ للدلالة على أشياء مختلفة بحيث لا يقبل الالتجاء الى مصطلحات جديدة لمجرد الدقة العلمية . وايا كان الأمر فإن عدم وضوح المصطلحات وثباتها يسهم كثيرا فى اختلاط الأفكار ، بالإضافة الى أن هناك جماعات قوية لها مصلحة فى غموض اللغة . والقوميون بصفة خاصة لابد أن يرغبوا فى الإبقاء على شيء من الغموض فى أهدافهم . فالبرامج التى تنطوى على عدوان قومى صراحة ، وسياسة السيطرة والهيبة بلا موارد ، لا تجتذب جماهير الناس فى الأمم الحديثة . ولكن تأكيدات أن القومية تعنى حب الشعب بحماسة القتال الذى لا هوادة فيه من أجل مصالحه الحقيقية وحمايته ضد العدوان والمؤامرات الخارجية والمحافظة على اللغة القومية

(١) فى هذا المقام يستخدم لفظ «وطنى» فى اللغة العربية ، ولكننا سنتجنب كما أشرنا من قبل - استخدام هذا اللفظ حتى تستقيم الترجمة مع النص الانجليزى - المترجم .

(٢) وما يدل على أن الاحزاب التى تحمل نفس الاسم قد تمثل أفكارا مختلفة تماما ان حزب دكتور بينز وحزب هتلر يطلقان على نفسيهما اسم «الاشتراكى القومى» .

والمدنية والتقاليد والعادات القومية وتأكيد الوحدة والتضامن القوميين
واخضاع المصالح الخاصة لمصالح الشعب ككل - هذه التأكيدات وما
يمثلها لها دائما قوة سحرية .

وسر نجاح القومية انها تجنذب الى حد ما حتى خصوم أهدافها
العدوانية وتضلّلهم فتجعلهم يقعون في أخطاء مميّنة . وكان المحافظون
يجنّسون كثيرا الى الترحيب بالقومية كحليف ضد الديمقراطية وهم
مقتنعون بأنهم سيستطيعون دائما السيطرة عليها . ولم يدركوا الا بعد
فوات الأوان أن ذلك وهم وأن القومية تنطوي على عناصر ذات طابع ثوري
ضد الاتجاه المحافظ تماما . وكثيرا ما أشاد التحرريون بالحركات القومية
بوصفها كفاحا من أجل الحرية ، وكانوا مقتنعين بأن الشعب الحر سيكون
مسالما وعادلا ويكن نوايا طيبة نحو الشعوب الأخرى . وعندما أظهرت
هذه الأمم بعد تحررها أنها في حالات كثيرة متعصبة ومعتدية ضد
الأقليات في داخل أقاليمها أو عدوانية بالنسبة لجيرانها عزا التحرريون
ذلك الى نقص التربية السياسية لديها والى تأمر الحكومات والطبقات
المتميّزة . وعندما ظهر أخيرا تعصب القومية واتجاهها ضد التحررية بما
لا يدع مجالا للشك ظل كثيرون من التحرريين يعزّون أنفسهم بوهم أن
كل ذلك ليس سوى مرحلة عابرة أو انه نتائج الضيق الاقتصادي وسرعان
ما سيختفي عندما تتحسن الأحوال والأعمال . وكان الاشتراكيون عادة
مقتنعين بأن القومية مجرد ستار يخفي وراءه المصالح الرأسمالية ، أو
وسيلة لتحويل الشعب عن الكفاح في سبيل التحرر الاجتماعي . وكانوا
يعتقدون أن الطبقات العاملة على الأقل محصنة ضد الشعارات القومية وأن
أيديولوجية القومية لا تكاد تحتاج الى ما يدحضها . واعتقد الماركسيون
السنينيون أن الحرب الطبقيّة العنيفة هي العلاج الأمثل . بيد أن البلاشفة
حاولوا أيضا استخدام القومية ، وبخاصة بين الشعوب الآسيوية ، على
أساس أن مضطهديها الرأسماليين هم أيضا أعداؤها القوميون .

فهل يستطيع البحث العلمي الاسهام في الحل العملي للمشاكل
الضخمة التي أثارتها القومية ؟ من المستحيل الاجابة على هذا السؤال
اجابة مؤكدة ، ففوة الانفعالات والتحيزات والمصالح من الشدة بحيث قد
لا يكون التحليل العلمي لمشكلة تتعلق بعلم الاجتماع السياسي مجديا
بالنسبة للسياسة العملية . بالاضافة الى أنه حتى البحث العلمي تعترضه
عقبات كبرى . وقد قال أحد العلماء البارزين الذين كرسوا جهدا كبيرا
لهذه المشكلة ، وهو الأستاذ كارلتون هيز ، مايلي : « ما الذي منح القومية

تلك القوة الكبرى في العصر الحديث ؟ نحن في الحقيقة لا نعلم» (١) .
وهذا الاعتراف من جانب واحد من أكبر الخبراء في هذا الميدان يبين مدى
تعقيد المشكلة .

٢ - تعبير « أمة » مستعمل في معان كثيرة مختلفة

هناك خلط كبير سببه أن لفظ «أمة» يستعمل في عدة معان مختلفة .
فقد تغير معناه مع الوقت ، وكثيرا ما يرتبط لدى الأمم المختلفة ، والأحزاب
المختلفة داخل الأمة الواحدة بأفكار متباينة ، بل وحتى نفس السياسي
أو الكاتب كثيرا ما يغير مضمونه تبعاً لمقتضيات بعض المصالح الخاصة
التي يدافع عنها . ونادرا ، طبعا ، ما يصاغ المفهوم بوضوح ، فهو لا يتحدد
أساسا الا ضمن مستخلصات عملية . والتحليل الناقد يبين أن هناك
اتجاهات كثيرة مختلفة ارتبطت بمصطلح « أمة » ، وأن هذا الخليط
المحير من المعاني نما عن طريق أن الأمم والأحزاب والفلسفات المختلفة
تؤكد هذا العنصر أو ذلك من العناصر بصفة خاصة . ومما يساعد على
توضيح هذا الخليط ان نشير أولا الى الخطوط الرئيسية للمداخل المختلفة
الى هذا المصطلح .

ولنبداً بالقاء نظرة على النمو التاريخي للأفكار المتصلة بلفظ «أمة»
والخطوة التالية هي بحث المفاهيم الحالية للأمة ، وسيظهر بوضوح أن
القانون العام يفهمها باعتبارها شيئا مختلفا تماما عن فهم علم النفس
الاجتماعي أو علم الاجتماع لها . فهناك مفهوم قانوني وآخر اجتماعي
للأمة ، الأول كما يعبر عنه مثلا جواز السفر ، والثاني كما يعبر عنه
الوعي القومي . ولكن ماهو الوعي القومي ؟ ان التحليل يبين أنه يتضمن
أربع تطلعات رئيسية تظهر في صور ومزائج عديدة ويرتبط ارتباطا
وثيقا بالعوامل الموضوعية مثل الاقليم القومي واللغة القومية والتاريخ
القومي . ويمكن تعريف الوعي القومي بأنه العمل على تحقيق الشخصية
القومية ، ويشير هذا موضوع التركيب ، أى علاقات الأمة بكل من أعضائها
مثل الكنائس أو الأسر الحاكمة أو المراتب أو الطبقات أو الأحزاب ،
وبالأفراد الذين تتألف منهم الأمة ، وسنبين في الفصل الخاص «بالارادة

(١) كارلتون هيز ، «التطور التاريخي للقومية الحديثة» ١٩٤١ ص ٣٠٢ . وهذا
الكتاب يتضمن عرضا ممتازا لنمو الافكار . وقد حمل الاستاذ تلامذته كذلك على بحث
بعض المشاكل الخاصة في الجنسية ، ومن بين هذه الدراسات ثبت مفيدا جدا اعده
كوبل بنسون ، « مدخل بيبيلو جرافى للقومية » ١٩٣٥ .

القومية» أن هناك أربعة مفاهيم رئيسية للأمة من ناحية التركيب يمكن أن تسمى المفهوم المحافظ والتحرري والديموقراطي والوطني ، وهناك مشكلة أخرى خاصة بوضع الحد الفاصل بين أمة وأخرى . وكثيرا ما ثار نزاع عنيف بين الأمم بشأن المعيار الذي يعتبر فيصلا تحدد الحدود على أساسه في حالات بذاتها ، وأى حل ينتهي إليه الرأي ينطوى على مفهوم معين للأمة . وأخيرا ، لمشاكل العلاقات الدولية أثرها أيضا في الموضوع : ماهي الأمة ؟ أن توضيح الأفكار المختلفة عن الأمة بجلاء ليست مجرد مسألة نظرية . فاننا اذا أردنا أن نسمي نظاما للقانون الدولي يحقق السلام لا بد أن نبدأ بتحديد المصطلحات التي يعمل على أساسها القانون الدولي بأوضح صورة ممكنة .

ان لفظ «أمة» له تاريخ طويل (١) ففي العصور السابقة كان رئيس العشيرة الايرلندية يسمى « كابتين أمتة » وكان من المؤلفات تحدثت عن الأمم الهمجية (٢) . بيد أن هذه الكلمة ارتبطت بالتدريج بفكرة السلطان والسيادة ، فكانت الطبقات الحاكمة تسمى «أمة» وأخيرا صارت أمة تعني

(١) ان لفظة Natio يعنى قبيلة أجنبية متخلفة ، أى ما نطلق عليه الآن لفظ Natives وهى من نفس المادة . ويستعمل فارو لفظ Natio للدلالة على سلاطة من المواشى . وكانت الشعوب الكبرى المتمدنة تسمى Gens وكان الشعب الرومانى باعتباره صاحب السيادة يسمى نفسه Populus وفى الانجيل اللاتينى يعنى لفظ Natio و Gens أهل الذمة فى حين أن الشعب المختار هو Populus وفى اللغة الانجليزية فى العصور الوسطى كان يطلق على الشعب الانجليزى عادة Gens Anglorum ، ويبدو أمرا غير مألوف عندما يتحدث ماتيوس بارس عن الانجليزية بوصفهم أمة بروح وطنية . ويتحدث روسر أوف وندوفر عن الاسكتلنديين وأهل ويلز باعتبارهم أمتين من البرابرة ، ويصف جنود الإمبراطور فردريك الأول بأنهم Nationum ويستعمل براكتون لفظ Gens للدلالة على شعب عظيم فى حين يتحدث عن Tribus و Nationes باعتبارها خاضعة لحكم المحامين . أما فى الألمانية فقارن مثلا بين البرتوس ماجنوس ، تيوتونيكوس ، Natione ، وفى الجامعات كان الطلبة مقسمين الى Nationes تؤلف اتحادات مستقلة ذاتيا . ولم تكن هذه التقسيمات مقابلة للأمم الحالية . فقد كانت Natio أقرب الى إقليم قبل داخل الحدود الحالية للأمم تتميز بوحدة اللغة والعادات ... الخ وفى القرون الاولى بعد العصور الوسطى كان لفظ Nation يستعمل فى ألمانيا وفرنسا للدلالة على الطبقات العليا الحاكمة فى معارضة Volk أو Peuple اللذين يقابلان بالانجليزية Common People أو Populace

(٢) يوجد هذا الاستعمال أيضا لدى الكتاب الحديثين أحيانا ، انظر مثلا . باجهوت « الطبيعة والسياسة » سنة ١٨٧٢ ص ١٠٠ و ١٠٦ وكذلك و ه . ويفرز « التنظيم الاجتماعى » سنة ١٩٢٤ ص ٣٢ .

شعبا حرا يحكم نفسه (١) . وكانت أحيانا تستخدم أيضا بمعنى شعب عظيم على درجة كبيرة من المدنية أو القوة . وكان مازينى يفهم الأمة على أنها شعب ذو رسالة وتحدث عن ارتقاء الشعب الى مكانة الأمة وعظمتها .

وهناك عرف منتشر جدا بين الأمة والشعب الذى يؤلف دولة ، ومن وجهة النظر هذه كل دولة تؤلف أمة وكل مواطن عضو فى أمة . وهذا التعبير طبعا تعبير قانونى بحت ، وهو مثل كثير من التعبيرات الخاصة بالمساواة القانونية يتجاهل عدم المساواة الواقعية . وكثير من الدول كانت تتألف ، أو هى تتألف الآن ، من أمم أو جنسيات مختلفة . فالاسكتلنديون وأهل ويلز يعتبرون أنفسهم أممين ، برغم أنهم يعيشون فى دولة مشتركة مع الإنجليز ، وفى الامبراطورية النمساوية الهنغارية السابقة كانت هناك اثنتا عشرة جنسية مختلفة تعيش معا . ولم يكن الولاء للامبراطورية والدول والبلاد التى تتألف منها والمشاعر الوطنية معدومة ، ولكن ما كان أحد ليتحدث عن الأمة النمساوية الهنغارية أو الأمة النمساوية . وفى بعض الحالات كانت كلمة «أمة» تستخدم بمعنى شعب دولة متجانسة أو الشعب الحاكم ، فى حين كانت «جنسية» تعنى أقلية قومية . بيد أنه من المهم أن ندرك أن الجنسية القانونية والجنسية الاجتماعية تنطويان على أفكار مختلفة تماما . فالفرد قد ينتمى قانونا الى أمة يكرهها كرها عنيفا أو قد لا يعتبر نفسه منها حقيقة . ويحدث هذا بصفة خاصة فى الدول التى يكون فيها لقطاع من الشعب مركز مسيطر فى حين يكون الباقي «مضطهدين» بدرجة تزيد أو تنقص . بيد أن القوة المحركة فى التاريخ الحديث ليس هو المفهوم القانونى للجنسية ، بل القوة الاجتماعية للوعى القومى .

ومعظم تعريفات الأمة تقتصر على المعايير التى تميزها عن الأمم الأخرى مثل اللغة أو المدنية أو الدين أو الجنس أو الحقوق التاريخية أو الحدود الطبيعية أو المصالح الاقتصادية . والحق الذى تدعيه الأمة عادة فى اقليم بذاته يقوم كقاعدة على عدة حجج . فكثيرا ما يحدث مثلا أن يتفق معيار اللغة والمدنية والدين فى اقليم معين . ولكن ليس بينها

(١) عندما أعيد البرلمان الايرلندى فى سنة ١٧٨٢ كتب جراتان « انى أحدث الآن شعبا حرا - ان أزلندا الآن صارت أمة » وانظر مثلا أليس سانت جرين « الجنسية الايرلندية » ص ٢٠٨ . وفى سنة ١٧٥٧ قال شستر فيلد : « لقد أخفقتنا فى الداخل والخارج فالفرنسيون أسياذ الموقف فى أمريكا يفعلون ما يشاءون . اننا لم نعد أمة » ، والاشارة الأخيرة تعنى أن الهيئة هى المعيار الاساسى للامة .

شعبا حرا يحكم نفسه (١) . وكانت أحيانا تستخدم أيضا بمعنى شعب عظيم على درجة كبيرة من المدنية أو القوة . وكان مازينى يفهم الأمة على أنها شعب ذو رسالة وتحدث عن ارتقاء الشعب الى مكانة الأمة وعظمتها .

وهناك عرف منتشر جدا بين الأمة والشعب الذى يؤلف دولة ، ومن وجهة النظر هذه كل دولة تؤلف أمة وكل مواطن عضو فى أمة . وهذا التعبير طبعا تعبير قانونى بحث ، وهو مثل كثير من التعبيرات الخاصة بالمساواة القانونية يتجاهل عدم المساواة الواقعية . وكثير من الدول كانت تتألف ، أو هى تتألف الآن ، من أمم أو جنسيات مختلفة . فالاسكتلنديون وأهل ويلز يعتبرون أنفسهم أمتين ، برغم أنهم يعيشون فى دولة مشتركة مع الانجليز ، وفى الامبراطورية النمساوية الهنغارية السابقة كانت هناك اثنتا عشرة جنسية مختلفة تعيش معا . ولم يكن الولاء للامبراطورية والدول والبلاد التى تتألف منها والمشاعر الوطنية معدومة ، ولكن ما كان أحد ليتحدث عن الأمة النمساوية الهنغارية أو الأمة النمساوية . وفى بعض الحالات كانت كلمة «أمة» تستخدم بمعنى شعب دولة متجانسة أو الشعب الحاكم ، فى حين كانت «جنسية» تعنى أقلية قومية . بيد أنه من المهم أن ندرك أن الجنسية القانونية والجنسية الاجتماعية تنطويان على أفكار مختلفة تماما . فالفرد قد ينتمى قانونا الى أمة يكرهها كرها عنيفا أو قد لا يعتبر نفسه منها حقيقة . ويحدث هذا بصفة خاصة فى الدول التى يكون فيها لقطاع من الشعب مركز مسيطر فى حين يكون الباقيون «مضطهدين» بدرجة تزيد أو تنقص . بيد أن القوة المحركة فى التاريخ الحديث ليس هو المفهوم القانونى للجنسية ، بل القوة الاجتماعية للوعى القومى .

ومعظم تعريفات الأمة تقتصر على المعايير التى تميزها عن الأمم الأخرى مثل اللغة أو المدنية أو الدين أو الجنس أو الحقوق التاريخية أو الحدود الطبيعية أو المصالح الاقتصادية . والحق الذى تدعيه الأمة عادة فى اقليم بذاته يقوم كقاعدة على عدة حجج . فكثيرا ما يحدث مثلا أن يتفق معيار اللغة والمدنية والدين فى اقليم معين . ولكن ليس بينها

(١) عندما أعيد البرلمان الايرلندى فى سنة ١٧٨٢ كتب جراتان « انى أحدث الآن شعبا حرا - ان ازلندا الآن صارت أمة » وانظر مثلا أليس سانت جرين « الجنسية الايرلندية » ص ٢٠٨ . وفى سنة ١٧٥٧ قال شستر فيلد : « لقد أخفقتنا فى الداخل والخارج فالفرنسيون أسياذ الموقف فى أمريكا يفعلون ما يشاءون . اننا لم نعد أمة » . والاشارة الاخيرة تعنى أن الهبة هى المعيار الاساسى للأمة .

ما هو ضرورى ضرورة مطلقة لتأليف الامة . فالامة قد تتحدث عدة لغات او تتألف من عدة اديان ، كما قد يوجد نفس الدين أو اللغة في أكثر من أمة . وفي حالات كثيرة عندما تكون هناك عدة أمم تتصارع من أجل الحصول على اقليم تقيم كل منها دعواها على معيار مختلف من معايير الجنسية ، فاحداها مثلا تقيم دعواها على اللغة وأخرى على المدنية أو الحقوق التاريخية أو الأمن ، وهكذا . وأحيانا يتقدم دعاة أمة بذاتها بمعايير متعارضة فيؤكدون مثلا حجة الحقوق التاريخية في حالة من الحالات وفي حالة أخرى يبنذونها عندما تكون في صف دعوى أمة أخرى .

وفي معارضة هذه المعايير الموضوعية كثيرا ما يعتمد على واقعة شخصية ، هي رغبة الشعب الذى يتعلق به الأمر ، باعتبارها المعيار الحاسم ، ويعتبر الاستفتاء أفضل طريقة للتأكد من هذه الرغبة . ولكن نتيجة الاستفتاء تتوقف الى حد كبير على الطريقة التى توضع بها حدود الاقليم الذى يتم فيه الاستفتاء .

ويعترف القانون الدولى للأمم وحدها بأنها تملك بعض الحقوق المعينة ، وبصفة خاصة لا يتأح حق تقرير المصير الا للأمم . فالقبائل البدائية أو قطاعات الأمم لا حق لها فى المطالبة به . وليس من حق أى شعب أن يكون عضوا فى « عصابة الأمم » ، بل الشعوب المعترف بها كأمم « فقط » ، ويتوقف هذا الاعتراف على الموافقة المشروطة لأغلبية الجمعية العمومية . وتبين هذه الأمثلة على أن موضوع تعريف الأمة يكون أيضا مشكلة فى المركز الدولى .

ومن الواضح أن تكوين فكرة صحيحة عن الأمة لا بد أن يدخل فى الاعتبار جوانبها المتعددة . والعامل الأساسى هو الوعى القومى . فبدون قدر كاف من هذا الوعى لا توجد الأمة ، ولكن كثيرا ما يكون من الصعوبة بمكان كبير التأكد مما اذا كان شعب بذاته لديه هذا القدر . وهناك جوانب أخرى تتصل بالتركيب الداخلى والحدود الخارجية والوضع الدولى . بالإضافة الى أن هذه الجوانب تعتمد بعضها على بعض الى حد ما . والتطلعات القومية الأساسية الأربعة تقابل النظريات الأربع فى التركيب القومى ، ولهذه النظريات مايقابلها فى ميدان الحدود الخارجية والعلاقات الدوائية .

٣ - جوانب الجنسية وأساليب دراستها

ان دراسة الجنسية يجب أن تبدأ بالاتفاق على مصطلحات واضحة . فاذا لم نستطع دائما أن نستخدم كلمة مستقلة للدلالة على فكرة بذاتها

لابد أن يكون واضحا من المضمون على الأقل المعنى الذى يستخدم به اللفظ . والظواهر التى سندرسها بعضها موضوعى أو وقائع خارجية مثل اللغة القومية والاقليم والدولة والمدنية والتاريخ ، وبعضها ذاتى أو وقائع داخلية مثل الوعى القومى أو الشعور القومى . ويمكن التأكد من الوقائع الخارجية بدقة أكثر من الوقائع الداخلية ، فالإنسان يستطيع استكشاف نمو اللغة القومية أو الانظمة القومية أو الدولة القومية وقواعدها بدقة كبيرة وبدون استجواب أعضاء الأمة التى يتعلق بها الأمر والتى قد تكون منقرضة مثل الرومانيين أو الاغريق القدامى . بيد ان الوعى القومى أو الشعور القومى شئ مراوغ تماما . ويمكن دراسة تعبيراته فى الكتابات السياسية أو الاحاديث العامة أو الأنظمة القومية ، ولكن تفسير مثل هذه الوثائق أو الأشياء فيما يتصل بما تنطوى عليه من روح القومية أمر غير مضمون دائما الى حد يزيد أو ينقص . واستجواب عدد كبير من الافراد المنتمين الى الأمة التى يتعلق بها الأمر فيما يتصل بمشاعرهم أو أفكارهم القومية عسير جدا ونتائجه غير مرضية (١) . ومن السهل التأكد من الجنسية القانونية والجنسية الثقافية لشعب ما ومركزه طبقا لما يجرى عليه العمل دوليا . ولكن الجنسية السياسية أمر معقد جدا حيث أنه يتوقف على درجة كافية من الوعى القومى لا يمكن ملاحظتها وقياسها بأساليب دقيقة .

ووضع مصطلحات مناسبة يتطلب تحليلا للوعى القومى الذى يقوم على تركيب سيكولوجى معقد وتظهر فيه تنوعات تاريخية واجتماعية كثيرة . ومن ثم يجب ألا تقتصر فى تحليلنا على ظواهر وقتنا أو بلدنا ، بل يجب أن نوسعه ليشمل عصورا وشعوبا كثيرة . كما ينبغي ألا نعتمد أكثر مما ينبغي على بديهتنا السيكلوجية ونحاول تفسير عمليات معقدة

(١) فى الدول المؤلفة من عدة جنسيات يعتبر تحديد اعدادها مشكلة احصائية صعبة ، فالسؤال : الى أى الجنسيات تنتمى ؟ غير مجدى لأن كثيرا من الناس اما يفهمون الجنسية بمعنى المواطنة ، أو لا يستطيعون الاجابة عنه لانهم بين أمتين (مثل الاشخاص الذين من أصل مختلط ويتحدثون اللغتين ولا يفضلون جنسية على أخرى) ومن ثم كان السؤال الذى وجه فى الامبراطورية النمساوية الهنغارية هو : ماعى اللغة التى يستعملها الشخص فى حديثه اليومى . ولكن هذا الخل كثيرا ماوجه اليه النقد على أساس أن الذين كانوا يقومون بجمع البيانات الاحصائية أساءوا استغلال مراكزهم أحيانا لمصلحة جنسيتهم بتغيير البيانات . ومع ذلك فان هذا الحل كان فى الغالب أفضل حل ممكن . وقد ثبتت صحة الاحصاءات النمساوية فيما بعد بواسطة الاحصاءات التى أجرتها الدول التى انقسمت اليها الامبراطورية .

بواسطة مصطلحات سهلة عن الغرائز المتأصلة ، أو نغمس في حلول وهمية طبقا لنظريات دارجة تدعى الوصول الى مفتاح أسرار العقل البشرى ، فى بعض الصيغ القليلة . ومما يضلل أيضا الالتجاء الى التعميمات الاجتماعية قبل القيام بدراسة وافية دقيقة فى ميدان تاريخى واسع . بيد أن الدراسة التاريخية للجنسية محوطة بمصاعب فريدة . اذ لما كانت المصطلحات مثل الأمة والجنسية والشعور القومى تقبل تفسيرات مختلفة فان الطريق الذى ينبغى أن يتجه فيه المؤرخ ليس واضحا دائما . وكقاعدة عامة اختار كل مؤرخ تلك الوقائع التى لها صلة بالموضوع وتتفق أكثر من غيرها مع فكرته الخاصة عن الجنسية . والنتيجة أن تتكون صورة من جانب واحد كثيرا ما تختفى وراءها ايدولوجية سياسية .

فالمؤرخون التحرريون الذين تصوروا الأمة على أنها شعب مستقل ذو سيادة والقومية على أنها أساسا العمل من أجل الحرية السياسية ، حاولوا حل المشكلة بوصف ظهور الحرية فى الأمم وتحررها من السيطرة الأجنبية . وصحيح أن هذا الكفاح ذو أهمية قصوى بالنسبة لنمو الجنسية . ولكن مع ذلك فهو ليس سوى جانب واحد من جوانب المشكلة . فنحن نواجه اليوم صورة من القومية تنكر كل حرية لشعبها نفسه وللشعوب الأخرى على السواء ، وطبقا للمفهوم التحررى قد يبدو أن الشعب يفقد صفة الأمة فى ظل الدكتاتورية الشمولية . ورأى كتاب آخرون السمة الأساسية فى الأمة فى الوحدة الراسخة على نطاق واسع تضم بصفة خاصة كل الشعوب التى تتحدث نفس اللغة . ومن ثم فهم ينكرون أن الشعوب الصغيرة ، أو الشعوب التى تتحدث نفس اللغة ولكن تعيش فى دول متفرقة مثل « الدول - المدن » الاغريقية ، يمكن أن تسمى أمما . ومن وجهة النظر هذه على المؤرخ أن يتتبع السلطة المركزية القوية واندماج الدول الصغيرة فى دول كبرى . فالمدرسة البروسية فى التاريخ تجنح الى اعطاء فكرة أنه لا تكاد توجد جنسية ألمانية قبل أن يخلق ملوك هو هنز ولرن « الوحدة القومية » عن طريق دولتهم العسكرية القائمة على القوة ويفرضها بسمارك على ألمانيا كلها . ففردريك « الأكبر » وكثير من الأمراء الذين بذلوا قصارى جهودهم فى تدمير وحدة الامبراطورية القديمة ، وقوتها ، والذين سمحوا لقطاعات كبيرة من الشعب الألمانى بأن تقع تحت السيطرة الأجنبية للحصول على التأييد الأجنبى لهم فى توسعهم بدون لهؤلاء المؤرخين أبطالا قوميين . ولكن كثيرا من المؤرخين الديمقراطيين أيضا اعتبروا الوحدة أهم هدف للتطلعات القومية واعتقدوا أن المركزية

الأقلية كانت ضرورية للتوحيد الاجتماعى . وهذا هو السبب الذى ألغت من أجله الثورة الفرنسية التقسيم التاريخى لفرنسا الى مقاطعات .

واعتبر الرومانسيون والتقليديون الطابع القومى الأصل المميز أهم عنصر فى القومية واعتقدوا أن أنظمة العصور الوسطى والعادات الشعبية والتقاليد القديمة تنطوى على حكمة الأجداد وتعبر عن الروح الحقيقية للشعب . وقد أوحى هذا المفهوم للجنسية لكثير من الكتاب ، من بينهم علماء بارزون ، بتفسير تاريخ مدينة أمتهم على ضوء فكرتهم عن الطابع القومى . فحاولوا اثبات أن تاريخ الشعب كله كانت تحركه نفس القوى الروحية . ولم تستطع معظم هذه الكتابات ان تصمد امام النقد التاريخى وفقد مفهوم الطابع القومى كله قيمته بسبب هذه الأوهام الرومانسية . ورأى كتاب آخرون أيضا أن السمة الأساسية فى القومية هى الكرامة والشرف والقوة القومية والعداء نحو الأمم الأخرى . بيد أن معظم المؤرخين لم يتبعوا طريقا واضحا فى تناول الجنسية . وكقاعدة عامة تعرضوا لها بشكل عابر مستخدمين أمثلة رمزية كثيرا ما كان مغزاها موضع شك . ولم يتبع بعض الكتاب الآخرين نفس الوعى القومى وانتشاره فى عقول الناس بل أفكار الفلاسفة والكتاب السياسيين عما ينبغى أن تكون عليه الأمة ومثلها العليا وطابعها .

وقبل أن يبدأ المؤرخ فى وصف نمو الجنسية يجب أن تكون لديه فكرة شاملة عن تركيبها . والقيام بمثل هذا التحليل مهمة عالم النفس الاجتماعى ، الذى ينبغى أيضا أن يدخل فى اعتباره التجربة التاريخية الى حد ما . ويؤدى ذلك الى دائرة مفرغة لا سبيل الى تجنبها الا بوضع نظرية افتراضية مؤقتة للعمل بمقتضاها يجب أن يختبرها بعد ذلك بالبحث التاريخى وتعديلها فى ضوءه .

ودراسة الشعور القومى والتطلعات القومية لا يمكن فصلها عن دراسة المشاعر والتطلعات التى تتصل «بأكثر من دولة» (١) أو «الدولية» . فنحن نجد هذين الحيطين من التفكير ممتزجين ومتداخلين لدى كل كبار المفكرين ورجال السياسة الذين فكروا فى هذه المشاكل . وإذا أخذ أحدهما « فقط » فى الاعتبار فإن الصورة تاتى ممثلة لجانب واحدة ومضللة .

(١) نحن نفضل تعبير « أكثر من أمة » « Supra National » على تعبير « دولى » International الذى قد يكون أكثر شيوعا ولكن له معنى مختلف ، وكذلك على تعبير Super National الذى يمكن الخلط فى فهمه على أنه ينبى عن التعالى فى القومية

٤ - التعريفات المقترحة للأمة وعدم كفايتها

ان معظم الكتاب الذين حاولوا تعريف مفهوم الأمة ذكروا عواملا موضوعية على أنها المعيار الحاسم ، مثل العوامل التي لا تخضع لارادة الأفراد . وأوضح المعايير وأكثرها ترددا هو اللغة . وأكد آخرون أهمية الجنس أو الدين أو المدنية أو الاقليم أو المواطنة في دولة . بيد أن كنى التعريفات التي تعتمد على واحد أو أكثر هذه المعايير غير كافية . فليس بينها ما ينطبق على جميع حالات الأمم المعترف بها ، كما لا يفسر أى منها التطلعات النموذجية التي نطلق عليها التطلعات القومية . فضلا على أن كل هذه النظريات الموضوعية كثيرا ما استخدمها الدعاة القوميون لتبرير ضم شعوب بلا استشارتها .

وقد دفع هذا النقص الواضح في جميع النظريات الموضوعية كثيرا من المنظرين السياسيين الى تعريف الجنسية بأنها مجتمع تكون بواسطة ارادة تكوين أمة . وتقابل وجهة النظر الذاتية هذه كفاح التحريرين في سبيل الحرية والمفهوم الديموقراطي عن ارادة الشعب كما تعبر عنها الأغلبية فقد رأى جون ستيوارت ميل سنة ١٨٦١ وغيره جوهر الجنسية في التعاطف المتبادل بين أبنائها ورغبتهم في الاتحاد في ظل حكومة خاصة بهم ، تعاطف ورغبة نجما عن طريق المشاركة في التاريخ والسياسة وعن طريق مشاعر الفخر والحزى والفرح والألم المتصلة بتجارب الماضى (١) . وقد أفاض ارنست رينان أيضا في نفس الفكرة في محاضرة مشهورة له في ١٨٨٢ (٢)، فقال ان الجنس والدين واللغة والدولة والمدينة والمصالح الاقتصادية ليست هى ما يصنع الأمة . ان الفكرة القومية تقوم على ماض مجيد ورجال عظماء ومجد حقيقى . والتجارب المشتركة تؤدى الى تكوين الارادة المشتركة . والآلام المشتركة ، أكثر من أى شىء آخر هى التى تربط الأمة بعضها ببعض - أكثر حتى من الانتصارات . ومن ثم فان الأمة تضامن كبير يقوم على الوعى بالتضحيات التى بذلت فى الماضى وعلى الاستعداد لبذل تضحيات جديدة فى المستقبل . ووجود الأمة يمثل استفتاء يتكرر كل يوم . ويتفق رأى رينان مع مبدأ تقرير المصير الذى أعلنته الثورة الفرنسية بالاضافة الى أنه كان الحجة الحاسمة للأمة الفرنسية فى المطالبة باعادة الالزاس واللورين الى فرنسا . ولهذا السبب بالذات نبذه المتحدثون باسم ألمانيا المنتصرة فى ازدراء .

(١) ج . س . ميل « آراء فى الحكم النيابى » ١٨٦١ ص ٢٨٧

(٢) ارنست رينان « ما هى الأمة » ١٨٨٢ .

والتعريف الذاتى للأمة سليم فى جوهره غير انه يحتاج الى صياغة
 بعناية . فالتطلعات القومية ليست دائما سعى فى سبيل الوحدة فى ظل
 حكم قومى ، كما أنها ليست مقتصرة على هذا السعى وحدة ولا هى
 تنطوى باستمرار على تمجيد التقاليد . فالاسكتلنديون والارلنديون
 مثلا يدعون أنهم أمتان ، مع أنهم لا يهدفون الى اقامة حكومتين قوميتين
 مستقلتين . والجمهوريات السوفيتية والأتراك فى العصر الحاضر نبذوا
 تقاليد ماضيهم الأساسية . واذا كان ميل يرى طبيعة الجنسية اساسا
 فى التعاطف المتبادل بين ابنائها ، فانه يغالى فى تقدير أهمية أحد
 عناصرها . وصحيح أن الشعب الذى يشترك فى اللغة والدين والثرىة
 واللون . . الخ يكون أيسر عليه أن ينمى تعاطفا متبادلا بين افراده .
 ولكن القوة الدافعة فى الحركة ليس التعاطف مع أعضاء الأمة فرادى
 بقدر ما هى الاخلاص لنفس الأهداف . ان أشهر الوطنيين فى عصرنا ،
 أدولف هتلر ، لا يخفى فى كتابه « كفاحى » ازدرائه العميق لجماهير
 شعبه . وقد أعقب استيلاءه على السلطة حملة وحشية من الارهاب
 والتخويف ضد جميع الألمان الذين لا يقبلون سياسة النازى ، وكانوا
 فى ذلك بلا شك أغلبية الشعب الألمانى . وقد يكون هدف القوميين
 توحيد الشعب كله برابط من الحب الأخوى ، ولكن مما لا ريب فيه
 ان أساليبهم كثيرا ما تكون مثل تلك التى يصفها بيت الشعر الألمانى :
 « اذا لم تصر أخا لى نسأحطم رأسك بيدى » ومع ذلك فان الأمم
 الحديثة تكونت فى الحقيقة بهذا الأسلوب الى حد كبير .

واذا كانت النظرية الذاتية تؤكد ارادة تكوين الأمة فانها عادة
 ليست واضحة بدرجة كافية فيما يتعلق بمعنى ارادة ومعنى أمة .
 وكثيرا ما تتصور الارادة بطريقة « عقلانية » أكثر مما ينبغى . فهى ليست
 ارادة صريحة معلنة تعيش فعلا بين شعب بأكمله بقدر ما هى مجموعة
 من المشاعر والأفكار المبهمة تسود بين جزء كبير ذى نفوذ من الشعب
 وتجنح الى التبلور فى ظروف معينة . بالاضافة الى أنه فى تاريخ النمو
 القومى كانت هذه الارادة فى أول الأمر ارادة أقلية « فقط » نجحت مع
 الوقت فى الحصول على قبول الاغلبية بدرجة تزيد أو تنقص . وفى الأمم
 الراسخة الوحدة يعرف كل شخص الأمة التى ينتمى اليها . أما اذا
 لم يكن الشعب قد بلغ هذه المرحلة بعد ، او اذا دمرت الأحداث
 التاريخية ولاء قديما فلا توجد ارادة قومية تلقائية بل مجرد خليط من
 التطلعات المتضاربة . فضلا على أن النظرية الذاتية تحتاج الى ما يكملها
 بادخال العوامل الموضوعية التى يعد عامل الاقليم من بينها على الأقل

ضروريا . فالمجتمع بدون اقليم لا يكون أمة كاملة حتى اذا كان يملك الوحدة والتضامن والتعاطف المشترك والرغبة في العيش تحت حكم خاص به . فالكنائس والأحزاب تتسم بهذه السمات أيضا . بل ان هناك مجتمعات لها اقليم ولكنها ليست أمما مثل المدن والمقاطعات .

ان النظرية الذاتية ينبغي ألا تتسع أكثر مما ينبغي بحيث تُلغى العوامل الموضوعية . فمجرد الإرادة لا تصنع الأمة وحدها . فلا يمكن تأسيس أمة مثل شركة أو ناد . انها مجتمع اتحدت مصائره وجمعتة إلى حد كبير وصاغته الأحداث التاريخية والعوامل الطبيعية ، وفرصة الفرد عمليا في اختيار جنسيته أو تغيير سماتها الأساسية ضئيلة جدا . ان المهاجر قد يتنازل قانونا عن مواطنة بلده الأصلية ويكتسب بعد مضي بعض الوقت مواطنة البلد الذي أقام فيه . ولكن ذلك لا يكفي لأن يصير عضوا حقيقيا في الأمة الجديدة . فهو يجب أيضا أن يهضم وجهة نظرها الاجتماعية وتقاليدها القومية ، وحتى اذا نجح ، هو أو أولاده ، في هذه المهمة فانه ليس من المؤكد انهم سيقبلون كأبناء حقيقيين للأمة بواسطة المجتمع القومي (١) . ان اليهود عاشوا في ألمانيا منذ أمد طويل جدا - في بعض الأجزاء منذ ألف العام أو ربما منذ ألفي عام ، وقد اسهموا بنصيب ضخم في المدنية الألمانية ، ومعظمهم تماثل تماما . ومع ذلك فان نظام النازي الحالي وصمهم بأنهم أجناب وعاملهم كمنبوذين .

ان أول ما يتطلبه الأمر كنقطة بداية للدراسة هو تكوين فكرة واضحة عن روح الجنسية . ولا يساعدنا كثيرا ان نسمع ان هذه الروح متأصلة في الأمة وتمتد جذورها في تقاليدها ، وان الجنسية تتألف من ارادة تكوين الأمة . فذلك لا يفسر لنا الطبيعة الخاصة بالمجتمع الذي يسمى أمة أكثر مما يفسر مجتمع الكنيسة بالإرادة في الانتماء انيها .

(١) ان مشاكل «المخالطة» Assimilation ومنح الاجانب حقوق المواطنة تتطلب دراسة مقارنة بعناية تخرج عن نطاق هذا الكتاب . انظر مثلا مجموعة « قوانين الجنسية» في مختلف البلاد التي جمعها د . فلورنوي ومانلي هدسون (من منشورات مؤسسة كارينجي للسلام المالي) ١٩٢٩ . وقد نشرت هذه المؤسسة أيضا دراسات الامركة حررها آلن بيرز (١٠ مجلدات من ١٩٢٠ الى ١٩٢٤) . وقد حدث قدر كبير من الهجرة أثناء هذه الحرب وسيعقبها هجرات أخرى . وسيظل جزء من المهاجرين في الغالب في بلادهم الجديدة وستصير مشكلة منح حقوق المواطنة والتكامل القومي ذات أهمية قصوى .

وقد جرت مؤخرا محاولة لتحديد روح الجنسية بواسطة آرنولد توينبى (١) . فهو يعرفها بأنها « روح تجعل الناس يشعرون ويتصرفون ويفكرون حيال جزء من أى مجتمع بذاته كما لو كان هو المجتمع كله » . وهذا التعريف ينطوى على قدر عظيم من الحقيقة ، ولكنه يبدو مبهما الى حد ما . فالإنسان يستطيع أن يشعر ويتصرف ويفكر حيال المجتمع بطرق عديدة مختلفة ، بعضها لاصلة له بالجنسية ، بل قد يكون متعارضا معها . بالإضافة الى أنه يمكن أن تكون هناك وجهات نظر متعددة فيما يؤلف الجزء والكل . فبعض الناس سيفكرون فى الجنس البشرى ككل ، وآخرون قد يعتبرون جنسا ما أو أمة أو مدينة أو مجتمعا دينيا أو طبقة هى الكل . وإذا قبلنا مدينة ما ككل (وهى وجهة نظر توينبى) يظل أمامنا سؤال آخر ، هو : كيف نعرف هذا المصطلح ونحدده ؟ هل جميع الأمم المتمدينة فى الوقت الحاضر تنتمى أساسا الى نفس المدينة ، أو أن هناك مثلا مدينة انجليزية متميزة ومدينة فرنسية ويابانية ومدينة أمريكا الشمالية ؟ وهل ينتمى « النظام الجديد » الذى جاء به هتلر الى نفس المدينة التى تعبر عنها المثل العليا التى يقاتل من أجلها الانجليز ؟

ويقول عالم النفس المشهور الأستاذ وليم مكدوجال انه يكاد يكون من غير الممكن وضع تعريف ينطبق على جميع الأمم (٢) . ومن ثم فهو يفضل ان يصف النموذج الأمثل للأمة التى تجمع كل سمات الأمة بدرجة كبيرة ، ثم يصنف كل أمة طبقا لقربها من هذا النموذج .

ولا حاجة بنا الى الدخول فى مناقشة حول السمات الذاتية والموضوعية التى يصفها . ففكرته هى أن الجنسية تركيب معقد ومسألة درجة ، وهى فكرة صحيحة بلا شك . وقد أثبت ماكس ووبر أن أسلوب وضع نموذج أمثل هو طريقة لبحث التركيبات الاجتماعية المعقدة أفضل من طريقة وضع التعريفات المألوفة (٣) . بيد أن محاولة مكدوجال تتطلب تحديدا . إذ لا التعريف غير التاريخى المجرى ولا النموذج الأمثل للأمة المؤلف من تجميع السمات الملاحظة فى الأمم المختلفة يؤدى الى فهم سيكولوجى أعمق لديناميكية القومية .

(١) توينبى « دراسة فى التاريخ » المجلد السادس ص ٤٠٧ وهذا المؤلف العظيم يسهم بنصيب كبير فى دراسة القومية ، وإن كان توينبى نادرا ما يستخدم هذا اللفظ ويفضل أن يطلق عليه « المحلية » .

(٢) أنظر مثلا و . مكدوجال « الأمة الأمريكية : مشاكلها وسيكولوجيتها » ١٩٢٥

(٣) أنظر مثلا ماكس ووبر « التوافق والتألف ١٠٢٢ ص ٣ ١٠

فليس هناك تعريف جامد يستطيع تفسير وقائع ديناميكية تاريخية مجسمة مثل الشعور القومي والطابع القومي أو القومية . ومن ثم فانه يبدو لنا أكثر جدوى أن نبدأ بوصف العامل الديناميكي في الوعي القومي كما يلاحظ في الأمم الحديثة النموذجية ثم نعرف الأمة بأنها شعب لديه الوعي القومي ، الذي يعد هو أيضا مسألة درجة طبعا .

٥ - تحليل الوعي القومي

(أ) مشكلة العقل الجماعي

ان الوعي القومي نوع معين من وعى الجماعة أو تضامن الجماعة يؤلف رابطة بين أعضاء الجماعة فيما يتصل بالسعى لتحقيق أهداف معينة ، وهو ذو تركيب معقد جدا ويضم اتجاهات ومتنوعات عديدة ، ويمتد من حالة عقلية لاشعورية كامنة الى ايديولوجية واضحة محدودة . وهو يختلف اختلافا كبيرا بين الأمم وبين الافراد ، وتعريف أن الأمم تملكه لايعنى أن جميع الأفراد المنتمين الى أمة لديهم هذا الوعي بدرجة كبيرة ، أو حتى لديهم أصلا .

وعلم نفس الجماعة مشكلة موضع جدل كبير . فرجال علم الاجتماع وعلم النفس وضعوا نظريات كثيرة عن العلاقات بين العملية الفردية والجماعية (١) .

ولسنا في حاجة الى مناقشة المسائل العامة هنا حيث أن ذلك سيبعدنا أكثر مما ينبغي عن غرضنا المباشر . ولكن من الواضح ان الفرائز أو شبه الفرائز (٢) تلعب دورا كبيرا في تكوين الجماعات الاجتماعية وتحريكها ، وان كان ذلك في صورة «مزائج» مركبة . ويفترض

(١) أنظر مثلا م . جينسبرج « سيكلوجية المجتمع » ١٩٣٣ ، ولیم مکدوجال « عقل الجماعة » ١٩٢٠ ، ف جيندجر « مبادئ على الاجتماع » (نشر لأول مرة ١٨٩٦) ، ل . جيك « علم النفس الجماعي » ١٩٢٨ و « علم النفس الجماعي في ألمانيا » ١٩٢١ (وهو عرض مفيد جدا لعدة نظريات) ، ج تارد « قوانين المحاكاة » ١٨٩٠ ، و « القوانين الاجتماعية » ١٨٩٨ ، وباجهوت « علم الطبيعة والسياسة » ١٨٧٢ ، و . توتر « غريزة القطيع في السلام والحرب » الطبعة ١٢ سنة ١٩٤٠ .
(٢) ان تعبير غريزة لا يستعمل هنا بمعنى محدد تماما . بل انه من المشكوك فيه ان الحيوانات العليا تحركها فرائز حقيقية . أنظر مثلا يوهان ليزر « سلوك الحيوانات » ١٩٤٠ .

بعض الكتاب ، مثل جيد ينجز ومكدوجال وتوتر ، أن وعى الجماعة أو الانتماء الى القطيع هو نفسه غريزة . وكثير من رجال علم النفس أضفوا طابعا غريزيا بدرجة تزيد أو تنقص على أنماط معينة من السلوك ذات أهمية قصوى في تأليف الجماعات ، مثل نزعة محاكاة تصرفات الجماهير والقابلية للايحاء والتعاطف وروح العدوان وتأکید الذات وخضوع الذات . وقد ظهر قدر ضخم من الكتابات عن سيكولوجية الجماهير ، أى سلوك الافراد تحت تأثير الجماهرة التى ينتمون اليها (١) . ومن المتفق عليه الى حد كبير أن الجماعات غير المنظمة ، وبدرجة أقل حتى الجماعات المنظمة ، تزداد قابليتها للايحاء ويزداد انفعالها واندفاعها ويقل تعلقها واحساسها بالمسئولية وضبط النفس . والامة طبعا ليست تجمعا عرضيا مثل ذلك الذى يتجمع فى ميدان ما ويستمع الى خطيب . بل هى مجتمع منظم الى درجة كبيرة وذات امتداد كبير مكانا وزمانا . ومع ذلك فان نجاح هتلر فى الاستيلاء على السلطة يثبت أنه حتى الأمم الكبرى المتمدينة يمكن أن تنحدر الى مجموعة من الدهماء بالاستخدام الماهر لجميع وسائل الدعاية الفنية لاثارة غرائزها الكامنه (٢) .

وكثيرا ما يعتبر دعاة القومية الشعور القومى غريزة طبيعية لا تتطلب تفسيرا أو تبريرا ، وينظرون الى الأشخاص الذين ينقصهم هذا الشعور ، أو بالأحرى من ينقصهم النوع الوطنى منه ، باعتبارهم مخلوقات منحرفة منحنطة (٣) . ويفترض التحرريون احيانا فى تفاؤل أن طبيعة الشعور القومى الحقيقى مثل طبيعة مشاعرنا نحو عائلتنا ، الذى ينطوى بالتأكيد على عنصر غريزى كبير . ويعتقد فرويد أن شعور

(١) ان أشهر دعاة هذا المذهب ، وان لم يكن أولهم ، هو ج. لوبون «سيكولوجية الجماهير» ١٨٩٢ ، وفيما يتعلق بالنقد الموجه ضدها أنظر مثلا جيك «علم النفس الاجتماعى فى ألمانيا» ص ٣٢ ، جينسبرج «سيكولوجية المجتمع» ص ١٢٨ ، و . بيلسبورى «سيكولوجية الجنسية والنزعة الدولية» ١٩١٩ ص ١٦٤ .

(٢) واضح أن نظريات لوبون وبعض الكتاب الآخرين فى علم النفس الجماعى جنحت الى الحط من قدر الحركات الديمقراطية ، ولارب فى أنها أسهمت فى نمو الايديولوجية الهتلرية والفاشية . وأيا كان الامر فان كثيرا من سمات هذه النظم الشمولية اقرب مايمكن أن يكون شبةا الى الاوصاف التى أوردها لوبون ، مثل تنويم الجماهير مغناطيسيا بواسطة الزعيم واخماد الذكاء بواسطة الانفعالات الجماهيرية .

(٣) وقد كتب عالم نفسى ألمانى معروف ، هو الاستاذ أ . يانخ ، كتابا ضخما فى تنمية هذه النظرية . وهو يستخدم أحدث أجهزة البحث السيكلوجى لاثبات أن كل من ليس نازيا يعتبر منحطا .

الجماعة بصفة عامة نتاج الطاقة الجنسية « الليبيدو » فهو غريزة الحب بمعنى واسع مركز فى الزعيم (١) . بيد أنه فيما يتعلق بالشعور القومى يعتقد كثير من الكتاب أن جذوره توجد أساسا فى السعى فى سبيل السيطرة والهيبة وفى نزعة العدوان (٢) .

والذى يجعل من المحتمل أن دوافع الجماعات البشرية انما تنحدر من غريزة الانتماء للقطيع أمثلة الحيوانات الكثيرة التى تعيش فى قطعان أو جماعات . والانتماء للقطيع لا يتضمن الوجود مع الآخرين فحسب بل كذلك استبعاد الدخلاء ، وهذا الاتجاه كثيرا ما يؤدى الى قتال دون أى دافع آخر سوى شعور الجماعة . فكثير من الحيوانات تعيش فى مجتمعات مقفلة (٣) والغريب الذى يدخل وسط الجماعة بطريقة ما ، حتى اذا كان من نفس النوع ، يهاجم ويعامل بخشونة أو يقتل ، واذا عاش القادم الجديد فقد يسمع له بعد مضي بعض الوقت بأن يدخل الجماعة . ولا يرجع هذا السلوك الى أى نفور عنصرى ناجم عن اختلاف النوع . فأحيانا فى مستعمرات النمل المختلطة مثلا قد تكون عدة أنواع مواطنة فى نفس الدولة وتضامن فى السراء والضراء ضد غير المواطنين . والحيوانات أيضا تعقد صداقات مع حيوانات أخرى من أنواع مختلفة تماما ومع الانسان . كما لا يمكن تفسير العداء ضد الغرباء دائما على أنه منافسة على الطعام أو على أنه غيرة جنسية . ويوحى هذا السلوك أحيانا بالرغبة فى السيطرة والعدوان . وبعض الكلاب تعيش فى وفاق مع قطط وحيوانات أخرى فى نفس المنزل ولكنها تهاجم كل كلب يمر قرب المنزل فى حين انها أقل من ذلك بكثير ميلا للقتال عندما تكون بعيدة عن المنزل .

ويبدو أن الحياة فى قطعان تزيد الميل الى العدوان . فكثيرا ما يكون لدى القطعان والجماعات شعور بامتلاك اقليم معين يجب عدم السماح للغرباء بتخطيه . وفى مدن الشرق لكل شارع وزقاق قطيع خاص به من الكلاب نصف البرية التى لاتغادره أبدا . واذا دخل أحد هذنه الكلاب زقاقا غريبا تنقض الكلاب المقيمة فيه عليه وتمزقه اربا الا اذا أنقذ نفسه بالهرب السريع . ان الانسان يستطيع أن يرى فى هذا السلوك بدايات النزعة القومية . وفى بعض مجتمعات الحيوان يعتبر فرد منها زعيما

(١) أنظر سجموند فرويد « سيكولوجية الجماهير وتحليل الانا » ١٩٢٣

(٢) لقد عرضت هذه النظرية بصورة ممتازة بواسطة الاستاذ والتر سولزباخ فى مقال.

(٣) أنظر مثلا الاب الفريدز « الحياة الاجتماعية فى عالم الحيوان » ١٩٢٧ ص ١٠٠

ويتمتع بسلطة خاصة (١) . بل قد يوجد أحيانا نوع من التدرج أو نظام الأسبقية يمنح من لهم الأولوية امتيازات معينة (٢) . ويكون الأفراد أكثر نشاطا وحيوية وجراءة عندما يعملون مع أضرابهم ، ولكنهم يكونون أيضا عرضة للإحياء والإصابة بالذعر . وبعض الحيوانات تمرض وتموت عندما تفصل عن الجماعة . بيد أنه يكون من الخطأ أن نضع تعميما على أساس الفرائز العدوانية . فهناك أمثلة كثيرة على عدم المبالاة أو الصداقة أو المساعدة المتبادلة (٣) . وبالمثل يجب أن نفترض أن البدائيين من الناس ميالون الى القتال ومتوحشون عادة . فكثيرون منهم يبدوون مسالمين نسبيا .

(ب) الجماعات البشرية التي تدفعها

التقاليد والمصالح والمثل العليا

برغم هذا التشابه بين سلوك الجماعات البشرية وسلوك جماعات الحيوانات يجب عدم المغالاة في العامل الغريزي كدافع للجماعات البشرية . فحتى الحيوانات نفسها لا تحركها مجرد الغريزة . والجماعات البشرية تربطها وتحركها ثلاثة أنواع من الدوافع ، وهي التقاليد والمصالح والمثل العليا . والتقاليد انماط من السلوك تعتبر قيما لمجرد أنها تراث جماعي بصرف النظر عن أية فائدة لها أو أى جمال فيها أو أية سلطة علوية تحلها . فالأمة تتمسك بلفتها حتى اذا كانت تستفيد اقتصاديا وثقافيا أكبر باتخاذ لغة أخرى أكثر انتشارا وتفتح أمامها الطريق الى ميدان أدبي

(١) انى أتذكر انى قرأت مرة مقالا فى مجلة المانية خاصة بالحيوانات وهو بحث يصف فيه أحد العلماء بحماسة الاحساس العجيب بالزعامة والولاء اللذين لاحظهما بين بعض الحيوانات المعينة فى وسط آسيا . وكان المقال يبدو تكريما لزعيم الشعب الالماني، وان كان فى الامر شيء من السخرية حيث أن الحيوانات التى يصفها كانت حميرا برية .

(٢) بين الفراخ يتمتع بعضها باحترام الاخرى لانها تبدى شيئا من الجنوح الى العدوان وتقرر الفراخ الاخرى بسهولة . وقد أثبتت التجارب أن ذلك يرجع الى أن نصيبهم من هرمونات الذكور أكثر . انظر مثلا مورنوفوكس «شخصية الحيوانات» ١٩٤٠ ص ١٠٢ . وقد يكون من المفيد أن نعرف ما اذا كان الميل الى العدوان لدى يرجع الى أسباب مماثلة ، وأيا كان الامر فلا يبدو أن هتلر يتمتع بقدر كبير جدا من الهرمونات المذكورة .

(٣) انظر مثلا بيشركروبوتكين « المساعدة المتبادلة ١٩٠٨ » (مترجم عن الروسية)

اوسع . والمصلحة هدف يعتبر مفيدا لوجود الجماعة ورفاهيتها ، مثل كل ما يؤدي الى سلامتها وصحتها وراثتها واستعدادها العقلي والبدني . بيد أن ما يعتبر مصلحة قومية يتوقف الى حد كبير على الايديولوجية القومية التي تختلف باختلاف البلد والزمن . والمثل الأعلى هدف ليس مصلحة مباشرة للأفراد . ويعتبر أن له سلطة عليا ومن ثم له قوة الأمر المطاع والتضحية بالمصالح الفردية . وتؤلف التقاليد والمصالح والمثل العليا اطارا معقدا . فالتقاليد تربط الأمة بماضيها والمصالح بحاضرها والمثل العليا بمستقبلها . بيد أنها في معظم الحالات ليست منفصلة تماما بعضها عن بعض بل تؤلف أجزاء من تركيب سيكولوجي . ففكرة الاقليم القومي مثلا تجمع العناصر الثلاثة . اذ يعتبر الاقليم تراث الماضي القومي ، وهو قاعدة لوجود حاضر الأمة بأكمله ، في حين أن نموه يعد مثلا أعلى في المستقبل .

والتقاليد والمصالح والمثل العليا السائدة في أمة ما كثيرا ما تسمى الطابع القومي . وبعضها متصل بصورة مباشرة بفكرة الأمة ، ومنها تتكون الايديولوجية القومية والتطلعات القومية . وهي تختلف باختلاف المنطقة والطبقات الاجتماعية والأديان والأحزاب . وكل قطاع لديه تقاليده ومصالحه ومثله العليا الخاصة ، وإن كانت هناك عناصر كثيرة مشتركة بينها جميعا . وكثيرا ما تكون الخصائص المحلية والاجتماعية والعقائدية داخل الأمة من القوة بحيث قد تهدد الوحدة القومية وتؤدي الى نمو انماط مختلفة من التشيعية . ولكن الايديولوجية القومية تعمل على تقليص الاختلافات بل وقد تستغل المصالح القطاعية في اغراضها . فجماهير الشعب مثلا ليست لديها معرفة كبيرة بالتاريخ القومي والمدنية القومية (١) ولكنها تتمسك بلغتها ودينها وعاداتها وتقاليدها المحلية . ومن ثم فإن الايديولوجية القومية تحاول من ناحية نشر تمجيد الابطال القوميين والفخر بالمنجزات القومية ، ومن ناحية أخرى تضيف مغزى على الوقائع المحلية والقطاعية مثل العادات القديمة والأغاني الشعبية والرقصات الوطنية... الخ . ففي ألمانيا مثلاً رفع الملك فردريك الثماني ملك بروسيا الى مركز فريد ، بأن أطلق عليه « فردريك الأكبر » ، بواسطة الدعاية المركزة . فمثل أمام غير البروسيين بأنه رائد الجنسية الألمانية ، وأمام البروتستانت

(١) أجريت قبل الحرب الأخيرة بعض الاختبارات التربوية للمجندين في الجيش الفرنسي والالمانى . ففي فرنسا سئلوا مثلا : من هي جان دارك ؟ وفي ألمانيا : من هو بسمارك ؟ وكان من لديهم فكرة قليلين جدا .

بأنه حامى البروتستانتية وأمام الكاثوليك والمفكرين الأحرار بأنه داعية التسامح ، وأمام المثقفين بأنه الملك الفيلسوف ، وأمام الجنود بأنه المحارب المثالى ، وأمام الشعب بأنه صديق الرجل العادى . وتتألف الأيديولوجية القومية من أساطير عديدة تروى كل قطاع من قطاعات الأمة بعقليته الخاصة . وأدواتها هى المدارس والأدب والفن والموسيقى والصحافة والاحتفالات والشعارات وما الى ذلك .

وكل أيديولوجية قومية استفادت فائدة كبرى من نوعين من الأساطير ، الخاصة بالأصل النبيل الذى انحدرت منه الأمة ، والخاصة برسالتها العظيمة (٢) . ومن المشكوك فيه أن يكون هناك شعب لم يدع انه جاء من أصل نبيل بصفة خاصة ، على الأقل فى مرحلة معينة من تطوره . وحتى الشعوب البدائية الى حد ما تعتقد ذلك ، فكثيرا ما تصف نفسها بأنها وحدها « الرجال » وتصف الشعوب الأخرى باسم فيه تحقير ، أو تنسب أصولها الى الآلهة أو الإبطال شبه المقدسين . فالتيوتون القدامى يدعون أنهم انحدروا من « مانو » بن « تويسكو » الذى ولد من الأرض . وكذلك الاثينيون كانوا فخوريين بأن أصلهم خرج من الأرض الى حدان أنتسين قارنهم بالدود الذى يخرج من بطن الأرض . وكانت الطبقات الحاكمة فى العصور الوسطى تعتقد انها تنحدر من أبطال طروادة ، وكان الفرانك من سلالة « فرانسسيون » الابن المزعوم لهكتور . والدور الذى تلعبه فكرة الجنس فى النزعة القومية الحديثة معروف . وفكرة الرسالة السامية التى عهد بها الى شعب مختار تؤلف عصب تاريخ الاسرائيليين كما هو وارد فى الانجيل ، ولكنهم لم يكونوا الشعب الوحيد الذى تعلم أنه صاحب رسالة سماوية . فجميع الأمم الكبرى ، بل وبعض الأمم الصغيرة ، اعتنقت فى وقت ما فكرة انها اختيرت بواسطة الله للقيام بمهمة خاصة .

- (١) هناك أمثلة كثيرة عن أساطير الأصل النبيل والرسالة السامية اللام فى كتاب روبرت ميشلز « الوطنية » ١٩٢٩ .
(٢) أنظر مثلا فنسنت سانت لين « مجموعات الامثال - الخ » المجلد الاول ، د ١٠ .
مارفين « غرائب الامثال » ١١٩٦ ص ، م . بلو
«Deutsches Land und Volk im Volksmund» ١٨٩٧

(وهو يتضمن أيضا أحكاما أخرى عديدة عن أمم أخرى) ، و . و . واشتموث
«Geschichte der deutschen Nationalität» 1860, I, p. 126.
ومنذ أن لاحظ بيكون أن عبقرية الأمة وروحها وذكاؤها يمكن أن تكشف فى أمثالها بذلت محاولات عديدة للسير فى هذا الطريق . بيد أن النتائج لم تكن مرضية . أنظر مثلا أ . تيلور « الامثال » ١٩٣١ ص ١٦٤ .

والصورة المقابلة للمعتقدات التي تمجد أمة الشخص هي التحيزات القومية التي تجنب إلى الحط من الأمم الأخرى . والتحيزات القومية منتشرة على نطاق واسع ويصعب التخلص منها بحيث يغلب أن قليلين جدا من الناس لا يتأثرون بها . فإذا نظرنا خلال المجموعات الكبيرة من الأمثال والأقوال الشائعة نجد عددا لا يحصى من المعتقدات الغريبة عن الشعوب الأخرى أو عن فئة معينة من نفس الشعب ومعظمها تحيزات أو اتهامات تتعلق بصفات غريبة مزعومة . ومما يثير الاهتمام أن كثيرا من الأفكار الحالية عن سمات بعض الشعوب المعينة قديم جدا ، وتدعم هذه الأفكار وهم « طابع الجنس » (١) . وهناك أفكار أخرى تغيرت مع مرور الوقت . وكثيرا ما أثارت الأحداث التاريخية آراء معينة عن شعوب بذاتها ثم عمت هذه الآراء وصارت تقاليد باقية . وتعمل التحيزات على تقوية الاعتزاز القومي وقد يكون لها أثر في التضامن القومي . ويقول الاستاذ بيلزبوري أن التحيزات القومية في الولايات المتحدة من أكبر القوى التي ترغب الأجنبي على التماثل (٢) .

(ج) التطلعات القومية الأربعة

صورها وتناقضاتها

تتألف التطلعات القومية من أربعة عناصر هي :

- ١ - السعي للوحدة القومية ، التي تتضمن الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية ، والمشاركة والتضامن .

(١) مما هو جدير تماما بالدراسة تتبع نمو الأفكار التي يعتنقها شعب عن شعب آخر ، واستكشاف أصول التحيزات . وفيما يتصل بأفكار الأجانب عن إنجلترا أنظر مثلا مالكولم لتس « كما كان الأجانب يروننا » ١٩٣٥ ، إدوارد سميث « الزوار الأجانب في إنجلترا » ١٨٨٩ ، والسجل البليوجرافي « وصف السائح لبريطانيا العظمى » في صحيفة المكتبة البريطانية للعلوم السياسية « نوفمبر ١٩٢١ ، جورج آسكوت « بريطانيا أمام الرأي العام الفرنسي منذ حرب المائة عام إلى نهاية القرن ١٦ » سنة ١٩٢٧ وآراء الانجليز في الألمان مجموعة في مؤلف ويلي رادزون « Das Englische Urteil über die Deutschen bis » المجلد ١٠٨ سنة ١٩١٢ . وآراء الألمان في الانجليز من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر عرضها فرانز مونكر

« Anschauungen vom englischen staad und volk » in Sitzungsberichte der Bayerischen der Wissenschaften Phil. Kl. 1918, 1925.

(٢) أنظر مثلا و . بيلزبوري « سيكولوجية الجنسية » سنة ١٩١٩ ص ١٤٠ .

وفيما يتصل بدور المثل العليا في تكوين الأمة : بيلزبوري ص ٢٢٤ - ٢٤٦ .

٢ - السعى للاستقلال القومى الذى يتضمن الاستقلال عن السيطرة والتدخل الأجنبى والحرية الداخلية من القوى التى تعتبر غير قومية أو محطة بكرامة الأمة .

٣ - السعى للانفصال أو التمييز أو الفردية أو الأصالة أو التفرد بصفات معينة . وأهم الأمثلة فى هذا الشأن هو ما يضاف على اللغة القومية المنفصلة من قيمة .

٤ - السعى للتفوق بين الأمم فى الشرف والكرامة والهيبة والنفوذ وهو يتحول بسهولة الى رغبة فى السيطرة . والتطلع الى التفوق فى الغالب أقوى التطلعات الأربعة جميعا ويبدو أنه وراءها جميعا .

وهناك عامل مهم أيضا فى الجنسية هو التطلع الى قدر معين من المساواة داخل الأمة . فالمساواة مما لا غنى عنه للوحدة والحرية وينطوى هذان الهدفان عليها . اذ لا يمكن ان تكون هناك أى وحدة وتضامن بين سادة وعبيد ، أو بين طبقة متميزة بدرجة كبيرة وطبقة من الاقنان المضطهدين . ان شعار الثورة الفرنسية الذى تعبر عنه هذه الكلمات « الحرية والمساواة والاخاء » يلخص العناصر الجوهرية للتطلعات القومية .

ويتألف الوعى القومى من امتزاج السعى للوحدة والسعى للحرية والسعى للفردية والسعى للهيبة . وقد ظهرت فى الأهداف المجسمة لهذه التطلعات تغييرات تاريخية كثيرة . فحركة الاصلاح الدينى كانت تنطوى على سعى قومى للحرية والفردية ولكن سرعان ما صارت الوحدة الدينية والسياسية الهدف القومى الأول . وصارت الحرية السياسية والتحرر الثقافى والاستقلال الاقتصادى والمساواة الاجتماعية هدف الحركات القومية . وكثيرا ما تعارضت التطلعات القومية المختلفة وتضاربت بعضها مع بعض . فالمغالاة فى الحرية القومية كثيرا ما أدت الى اضعاف الوحدة القومية ، أو الى فقدان الاستقلال تماما . وقد بولغ فى الوحدة القومية والمساواة الى حد أن الحرية ضاعت تماما وتحولت الأمة الى مجرد آلة تنتج القوة . وكثيرا ما اتسع نطاق الانفصال القومى أو الهيبة القومية الى حد تعريض الحرية والوحدة للخطر أو تدميرهما . فالتاريخ يبين أن كثيرا من الحركات القومية قضت على أهدافها بنفسها وصارت عاملا مدمرا للامم التى يتعلق بها الامر . اذ ان الجنسية مليئة بعوامل التناقض الكامنة ، أى التضارب المحتمل بين المبادئ . فالثورة الدينية فى القرن السادس عشر كانت تهدف الى الحرية ، ولكنها أدت فى جزء كبير من

أوروبا الى تعصب شديد والى قيام الحكم الاستبدادى ، كما كادت الحرب الدينية تدمر الوحدة القومية . وقد قضت الثورة الفرنسية على انحكم المطلق ، ولكن سرعان ما مهدت الفوضى السبيل لاستبداد نابليون وظهور النزعة القومية . وفى عصرنا الحالى عبر الاتجاه الى التناقض الكامن فى الجنسية عن نفسه فى سياسة الانعزالية التى تقابل مبدأ الاستقلال القومى المطلق ، ولكنه انتهى الى فقدان كثير من الامم استقلالها كليا .

وبجانب الروح العامة للعصر أضفت ايديولوجية كل أمة معنى خاصا على المبادئ التى تتضمنها الجنسية . فمعنى الحرية السياسية مثلا لم يكن دائما وفى كل مكان واحدا . فالقوميون الألمان الحديثون ينكرون أن انجلترا أو فرنسا تتمتعان بأية حرية حقيقية . وفى نظرهم ليس هناك أمة حرة سوى الألمان وتعلم ايديولوجيتهم الدوجماسية أن الحرية الحقيقية تعنى الخضوع للزعيم . ويتباهى هتلر بأنه اعاد الحرية الالمانية ، وان كانت بقية العالم تقول عن حالة الشعب الالمانى انها عبودية ، وكذلك تنوعت أفكار الاصاله والهيمية تنوعا كبيرا . وفى بعض الامم يفترض ان الفردية القومية تتفق مع الوحدة الأساسية فى الاخلاق بين الامم كلها ، تماما كما يظهر الافراد اختلافا فى الطباع والتربية ومع ذلك يسلمون بمعايير مشتركة معينة فى السلوك . بيد أن بعض الرومانسيين الالمان ذهبوا الى أن كل أمة لها مثل عليها مختلفة تماما ، حتى فى الاخلاق ، وزعم بعض القوميين الحديثين أن هناك اختلافا سلاليا جذريا لا يحى متأصلا فى الامم . ويعتقد دعاة كثير من الامم أن الهيمية القومية تعتمد على الانجازات الاجتماعية والثقافية للأمة وعلى نجاحها فى اقامة حكم تقدمى ومسالم ، فى حين لا يستطيع دعاة آخرون أن يتصوروا أية هيمية أخرى غير هيمية القوة والسيطرة . وفى العصور السابقة كان الالمان فخورين بأن يطلق عليهم الدارسون الاجانب لمدينتهم شعب الشعراء والمفكرين ، أما أطفال المدارس النازية اليوم فيتعلمون أن فرقة من الجنود الممتازين أهم بكثير من جوته .

والوعى القومى متميع جدا ويظهر فى صور ودرجات متنوعة الى أقصى حد . وهو ليس نفس الشئ بالنسبة لجميع أعضاء الامة كما لا يوجد لديهم بقوة متساوية . فكثيرون ليس لديهم منه الا القليل جدا ، أو ليس لديهم منه شئ على الاطلاق ، على الأقل فى الأوقات العادية ، وان كان أحيانا كامنا فيهم ولا ينطلق الا فى أوقات الطوارئ القومية تحت تأثير موجة كبرى من الانفعال القومى . والذين تنمو لديهم التطلعات القومية أساسا هم قطاع معين من الأمة ويعتبرون زعماء ودعاة قوميين

بدرجة تزيد أو تنقص . بل انهم أحيانا ادعوا أنهم الأمة . بيد أن تلك القطاعات التي لا تكون « قومية » عن وعى ، أو حتى تعارض كل نوع من المشاعر القومية السافرة ، ترتبط بالأمة بروابط عديدة غير مرتبة . فهم قد تشربوا دون أن يعرفوا بعناصر الايديولوجية القومية . ان الماركسية علمت أن البروليتارى لاوطن له وأن عمال البلاد كلها سيتحدون ويضعون حدا للحروب والاستغلال والاضطهاد فى جميع أنحاء العالم . وأعلنت أن المشاعر القومية ليست سوى مجرد ستار للمصالح الرأسمالية يقصد بها تحويل العمال عن الصراع ضد أعدائهم الحقيقيين ، الرأسماليين . وكان الاشتراكيون فى جميع البلاد مخلصين تماما فى نزعتهم الدولية . ومع ذلك فان كثيرين منهم لم يستطيعوا مقاومة الانطلاق الفجائى للشعور القومى . ففى ١٩١١ شنت إيطاليا حربا لغزو ليبيا لايدفعها سوى شهوة النفوذ والتوسع . وحظيت الحرب بشعبية كبيرة جدا حتى بين اليسار ، ومجد بعض الاشتراكيين الإيطاليين مثل لابريروك رسالة إيطاليا فى نشر مدنيته (١) . وفى سنة ١٩١٤ أغرقت الحكومة الألمانية العالم فى الحرب وعزت نشوبها الى هجوم غادر من جانب روسيا . واكتسحت الحماسة الديموقراطيين الاشتراكيين الألمان تماما وأدلو بأصواتهم فى البرلمان بالموافقة على اعتمادات الحرب التى طلبتها الحكومة . فالايديولوجية القومية تحيط الأمة كلها بشبكة ضخمة لا تكاد تلحظ حتى تأتى أزمة فتشعل الشعور القومى . بيد أن الوعى القومى ليس بالضرورة من النوع العدوانى . فكثير من الأمم نمت لديها صورة منه مسالمة تماما .

والوعى القومى يؤلف الأمة بالمعنى السياسى . وأفضل تعريف للأمة هو أنها شعب لديه وعى قومى نام ، وان كان من العسير جدا فى كثير من الأحيان القول بما اذا كان الشعب لديه قدر كاف منه ليصل الى مرتبة الأمة وما اذا كانت عناصر الجنسية الأربعة أخذت وضعها لايدمر فيه بعضها البعض وما اذا كانت لدى الأمة فرصة لان تعيش . ومجرد واقعة ان الشعب بلغ درجة معينة من المدنية أو أنه انتج رجالا عظماء لا تكفى . فالمعيار الحاسم هو ما اذا كان هناك قدر كاف من التضامن بينه ، وما اذا كانت فكرة واجب التضحية ببعض المصالح المعينة فى سبيل المصلحة القومية قد صارت سائدة . والفكرة الحديثة عن الأمة تنطوى على واجب التضامن غير المحدود والولاء دون شرط فوق كل مصلحة شخصية أو قطاعية . ويتطلب الدين والأخلاق والقانون الدولى

(١) أنظر بنديتوجروش « تاريخ إيطاليا » ١٩٢٩ ص ٢٥٩ و ٢٦٣ .

طبعاً أن تكون سياسة الأمة داخل حدود معينة ، وأن الولاء للأمة ينبغي ألا يتعدى هذه الحدود . بالإضافة الى أن الديمقراطية تضع سلطة تحديد المصلحة القومية في أيدي أبناء الأمة . ان المثل الأعلى للتضامن غير المحدود لا يمكن مطلقاً أن يتحقق كاملاً في السياسة العملية ، ولكن ذلك ينطبق على جميع المثل السياسية ، بما فيها الديمقراطية .

(د) الجنسية والمدنية

من الأفكار الشائعة جداً أن كل أمة حديثة انبثقت من مدينة مشتركة وأن قيام الدول القومية الموحدة حقق آمال شعوب صغيرة في الوحدة ، وهي آمال خلقتها المشاركة في الثقافة . بيد أن كلمة مدينة لها معان مختلفة . فهي من ناحية تستعمل في أية مشاركة في التقاليد والمصالح والمثل العليا مهما كانت بدائية ، ومن ناحية أخرى لا تعنى سوى مرحلة متقدمة من النمو الثقافي . وبالمعنى الأول يتحدث المرء عن مدينة «العصر الحجري» ، في حين أننا نقول بالمعنى الثاني ان الشعوب المتمدينة وحدها هي التي لها الحق في أن تكون أمة . وأحياناً يستخدم التعبير أيضاً بمعنى أضيق للدلالة على مجرد الانجازات الروحية السامية مثل الأدب أو الفن . ومن الجلي أن الاختلاف الكبير في اللغة والتقاليد يعوق التوحيد السياسي ، وان كان هذا العامل أقل أهمية قبل ظهور مبدأ الجنسية في القرن التاسع عشر . وصحيح أيضاً أن نمو الوعي القومي يتطلب مستوى معيناً من المدنية وانتشار المدارس والأدب واهتماماً بالماضي والمستقبل ووجود فئة مثقفة . ومع ذلك فإن المدنية المشتركة ونموها الى درجة مرتفعة لا يكفيان وحدهما لاندماج شعوب مختلفة سياسياً في أمة واحدة . فأولاً : لا يبدو أن كل أنواع المدنية تؤدي الى تكوين أهم بالمعنى الحديث . فالجنسية الحديثة نمت أول ما نمت في تربة المسيحية الغربية ، ثم انتشرت أكثر فأكثر نحو الشرق . ان الهند والصين والشعوب الإسلامية أنتجت مدنيات كبيرة ومتجانسة نسبياً ولكن فكرة الجنسية الحديثة كانت غريبة عليها قبل أن تتسرب فيها الأفكار الأوروبية . وقد اعترف كثير من رواد الجنسية الحديثة في آسيا صراحة بأن شعوبهم لا يمكن أن تعتبر حتى الآن أمماً (١) ، وان تطلعاتها القومية محاكاة للنماذج الأوروبية . ولكن حتى في أوروبا لم يكن تقدم المدنية وحده هو السبب في بدء التوحيد القومي بالمعنى السياسي .

(١) أنظر صن يات صن « الوصية المثلثة » ترجمة ب . م . ديليا ١٩٣١ ص ٦٤

فاليونان القديمة وإيطاليا والمانيا في العصور الوسطى كانت لديها مدنيات متقدمة جدا في حين لم يكن فيها اى تضامن قومى بين الشعوب التى انقسمت اليها . وقد كان لجمهورياتها ودولها الصغيرة الأخرى لفة ومدنية مشتركتان ولم تكن تنقصها مشاعر القربى فيما بينها والمصلحة المشتركة ضد الأمم الأجنبية . ولكن كل ذلك لم يكف لخلق احساس قوى بالتضامن السياسى بين هذه الشعوب الصغيرة ولم تكن لديها رغبة في هجر جنسياتها المنفصلة والاندماج في جنسية واحدة مهما كان ذلك مفيدا بالنسبة لها . بل أن ارتفاع مستوى المدنية كان ضد الوحدة القومية على نطاق واسع . فاتينا وفلورنسا ونورمبرج كانت فخورة بهاء انجازاتها وتنظر بازدراء الى أقاربها في المدن الأخرى . ومعظم المفكرين والشعراء والفنانين العظماء في جميع الأمم كانوا عالميين ولم يبدوا اهتماما بالتطلعات القومية فى عهدهم ، وان كان بعضهم راودته أحلام عن الرسالة الروحية السامية للأممهم ، ويبين التاريخ أن تقدم المدنية كثيرا ماكان مصحوبا بضعف المشاعر القومية . ففي الامبراطورية الرومانية في عهدها الأخيرة كان مستوى المدنية مرتفعا وكانت منتشرة على نطاق واسع نسبيا . ومع ذلك فلم تكن هناك أية حرية سياسية ولا قدر كبير من الوحدة والتضامن . ويعزو كثير من المؤرخين سقوط الامبراطورية الى عدم نمو الوعى القومى بدرجة كافية . فقد بلغ الرومان والاغريق مستوى مرتفعا من المدنية بحيث صاروا ينظرون الى الخدمة العسكرية باعتبارها شيئا لا يليق بمكانتهم ومن ثم تركوها للبرابرة وأدى ذلك الى انحلال الامبراطورية . وبعد ذلك بألف عام كان هناك رجل سياسة ومفكر مسلم عظيم ، هو عبد الرحمن بن خلدون ، استعرض ظهور المدنية العربية وسقوطها ووضع فلسفة للتاريخ محورها التضامن القومى (١) . وقد وجد أن البرابرة الخشنين لديهم هذا التضامن ومن ثم نجحوا فى بناء دول عظمى ، ولكن تقدم المدنية قضى عليها بالضرورة وأدى الى انهيار كل امبراطورية والمدنية نفسها . وبعد ذلك بخمسمائة عام ، وبعد هزيمة فرنسا فى سنة ١٨٧١ ، فكر ارنست رينان (٢) فى أسباب الكارثة وانتهى الى نتيجة تشبه من بعض النواحي آراء ابن خلدون ، وان لم ييأس من صحة قومية جديدة .

(١) . فون كريمر « بن خلدون »

(٢) ارنست رينان « الاصلاح الفكرى والاخلاقى » ١٨٧١

٦ - فكرة الشخصية القومية

(أ) الشخصية و « العضوية » والحرية

ان التطلعات الأربعة ، من أجل الوحدة والحرية والتميز والهيبة يمكن أن تسمى تطلعا الى الشخصية القومية . وهذا التعبير نستخدمه هنا قياسا على الشخصية البشرية ، وأن كان يجب عدم التوسع في التشبيه أكثر مما ينبغى . والشخصية في الفرد ، كما في الأمة ، مزيج من الوحدة والحرية والتميز والتفوق . فكل من هذه السمات ضرورى لفكرة الشخصية . وقد أثير اعتراض على تطبيق تعبير شخصية على الجماعات على أساس انها لا تملك نفس الدرجة من الوحدة كالافراد . وقد يكون ذلك صحيحا ، ولكن الشخصية الفردية أيضا ليست وحدة كاملة تماما . فهي تنطوى عادة على قوى متعارضة ويتطلب الامر وجود العقل باستمرار للتوفيق بينها . وهناك تشبيه آخر كثيرا ما يطبق على الجماعات وهو « العضوية » . ويعنى هذا التعبير ذلك النوع المعين من الوحدة الذى تتسم به الكائنات الحية . وهو ينبى عن الاختلاف داخل اطار الوحدة ، بمعنى أن هناك عددا من الأعضاء المختلفة تعمل وتتعاون فى وحدة وثيقة (١) . بيد أن الشخصية أكثر من الوحدة العضوية . فالشجرة أو السمكة كائن عضوى ولكنها ليست شخصية . فهذه الفكرة تنطوى الى جانب الوحدة ، على الحرية ونوع من التميز الروحي والهيبة ، أى الافكار التى تتألف منها أهداف التطلعات القومية .

وفكرة الشخصية القومية ، بصرف النظر عن حقيقتها عامل بعيد الأثر جدا فى الايدولوجية السياسية . فضلا على أن لها أهمية كبرى فيما يتصل بالقانون الدستورى والدولى . فأفكار الارادة القومية والسيادة

(١) ان مقارنة المجتمع بالكائن العضوى أو بالانسان موضع جدل شديد . ولاشك فى أنها استخدمت أسوأ استخدام لأغراض سياسية . وبخاصة فكرة العقل الجماعى التى أدت الى أفكار وهية . أنظر مثلا فيما يتصل بنقد هذه الفكرة . جينسبرج « سيكلوجية المجتمع » ١٩٢٣ ص ٤٦، و ٩١١ وكذلك ب . بارث « Philosophie der Geschichte Als Soziologie »

وانظر أيضا و . هـ . ريفرز « علم النفس والسياسة » ١٩٣٢ ص ٥٩ و ١ . هانبورى هانكتر « القومية والعقل المشترك » ١٩٣٧ وفيما يتعلق بالجانب التاريخى أ . جيركه « النظريات السياسية فى العصور الوسطى » ١٩٠٠ مع مقدمة هامة بقلم ف . ميلاند و أ . باركر « الكنيسة والدولة والدراسة » ١٩٣٠ ص ١٦٠ ، و هـ . لاسكى « أسس السيادة » ١٩٢١ .

وتقرير المصير والمسئولية تقوم على افتراض الشخصية . فليس هناك سوى الانسان يستطيع أن تكون له ارادة أو أن يكون مسئولا . وهذه المسئولية طبعا مجرد تطور قانوني ، ولكن تطبيقها العملي كثيرا ما يتأثر بصورة الشخصية القومية السائدة لدى الامة التي يتعلق بها الامر ، وهذه الصورة عادة تبالغ في وحدة الشخصية القومية وثباتها .

والرغبة في الشخصية القومية يعبر عنها استخدام الشخصيات الرمزية التي تمثل الامة مثل الصور الرمزية لبريطانيا وجرمانيا وايطاليا، الصور الاكثر شعبية مثل جون بول (١) وميشيل الالماني وماريان الفرنسية والعم سام . ونستطيع أن نضيف الأسد البريطاني والنسر الالماني والديك الفرنسي والدب الروسى والتنين الصينى وتين ويلز ، وشجرة السنديان الالمانية والزيفون السلافية والبرسيم الارلندى وكرات ويلز . الخ وهذه الاساطير والاشجار والحيوانات القومية تكمل الفكرة المجردة عن الامة بصورة أكثر تجسيميا تستطيع اثارة انفعالات أكثر حرارة مما يستطيع التجريد البحت . ومثل هذه الصور هي الادوات التي يستخدمها الخطباء والشعراء والصحفيون والفنانون (٢) .

والتطلع الى الشخصية القومية كثيرا ما ينطوى على تضحية بالشخصية الفردية . فنحن نرغم على اخضاع مصالحنا المادية والروحية للمصالح التي يعلن انها المصلحة القومية وأن نجعل عقليتنا وسلوكنا مطابقين لما يسمى بالطابع القومى .

(١) ان صورة جون بول يبدو أنها تعرضت لتغيرات غريبة . فالفهم الشائع لها في بريطانيا في عصرنا أنها رمز للجلد والاستماتة في حين أن الامم الاخرى كثيرا ما تقرأها بالمشاكسة أو العدوان . وجون بول يصحبه عادة في الصورة كلب من نوع البوليدج . بيد أن آبارنتوت الذى ابتكر الصورة في ١٧١٢ استخدمها لمهاجمة اصرار حزب الاحرار (Whigs) على الاستمرار في القتال ضد لويس الرابع عشر . وفي كتابه « تاريخ جون بول » يرمز البطل الى الادراك البسيط العادى للطبقة الوسطى الذى قد تضلله لفترة ما عبارات السياسيين والمثقفين الزاهية وتورطه في قتال طويل ولكنه يتبين حقيقة أمرهم في النهاية ويضع حدا للنزاع . ويقول لستر بيانى في كتابه « جون آربانتوت » ١٩٣٥ : ان أمة من أصحاب الدكاكين تستطيع أن ترى في جون بول صورتها في المرأة .

(٢) وللعلم القومى أيضا مغزى عاطفى كبير . وفي فرنسا واجهت الحكومة الثورية في ١٨٤٨ صراعا بين أولئك الذين طالبوا بالعلم الاحمر شعارا قوميا وأنصار العلم المثلث الالوان ، وفي ١٨٧٣ ثار صراع شديد حول موضوع العلم الابيض الخاص بالبوربون والعلم المثلث الالوان أيهما يكون العلم الرسمى : وفي ألمانيا الجمهورية أثارت قضية العلم القومى وهل يكون اسود وأبيض وأحمر أو أسود وأحمر وذهى انفعالات لانصدق

ومن الاسباب الرئيسية لهذا الاتجاه أن الافراد يشعرون برهبة نحو قوة الأمة وعظمتها وشهرتها ويأملون توسيع نطاق شخصياتهم الفردية بالاندماج فى الشخصية الجماعية . وهو شعور يحمل بعض سمات الشبه بالدين ، ومما لا ريب فيه ان نمو الشعور القومى فى العصر الحديث شجعه ضعف الدين ونمو العقلية الجماهيرية . ومن الخطأ أن نعزو هذه العملية الى مجرد السياسة المقصودة من جانب الدولة أو الى ضغط المصلحة الاقتصادية ، وان كان الاثنان طبعا عاملين لهما أثرهما . ولكن تأثير جو التطلعات القومية حول الفرد وتسربه الى عقله أبعد أثرا بكثير .

والعضوية فى الامة ليست مسألة اختيار كقاعدة عامة ، فالأغلبية العظمى من الناس تولد فى أمة كما تولد فى أسرة . وقد يكون لدى الاجانب فرصة التجنس ، ولكن ذلك ليس نتيجة أن يصيروا أعضاء كاملي العضوية فى الامة فى وقت قريب ، وفى كثير من الحالات لا يستطيعون أبدا التغلب على مصاعب التماثل والاندماج الكامل . وقد تختلف طرق التفكير والشعور التى تعتبر قومية اختلافا كبيرا عن طرق تفكير وشعور كثير من الافراد ، ولكن هؤلاء الافراد نادرا ما تكون لديهم فرصة تعديلها أو النجاح فى مقاومتها . كما أنه ليست هناك أمة تستطيع باختيارها أن تنبذ ماضيها . وقد بذلت مثل هذه المحاولة أحيانا فى ثورات كبرى ، ولكن النتيجة النهائية كانت عادة أن عادت بعض تقاليد الماضى الى الظهور مرة أخرى وأن يكن فى صورة أخرى . ومن ثم فإن الامة تبدو من عدة نواح وحدة فى المصير أضفيت عليها حياة وشخصية خاصتان بها ولا تخضع لارادة الافراد .

وقد ناقش الفلاسفة الاغريق فعلا موضوع كون المجتمع بناء مصطنعا أو كائنا عضويا ، ولم يصل النقاش الى نهاية قط . والامم الحديثة تعتبر على نطاق واسع جدا كائنات عضوية تاريخية ، وان كان ذلك عادة يأتى ضمنا أكثر مما يذكر صراحة . فالأقليم القومى مثلا ينظر اليه باعتباره كائنا عضويا لا يمكن بتر جزء منه دون التعرض لخطر تدمير الامة كلها ، جسدا وروحا . وعندما أرغمت فرنسا فى ١٨٧١ على التنازل عن الألزاس واللورين لالمانيا أثار كل من ميشيليه ورينان هذه الحجة (١) . وكثيرا ما يدافع عن قيود الهجرة والاجراءات الأخرى التى توضع ضد الاجانب على

(١) أنظر جولز ميشيليه (فرنسا فى مواجهة أوروبا) ١٨٧١ ص ١١٣ ، أرنست رينان « ماهى الامة » ١٨٨٢ .

أساس انهم يؤلفون عنصرا غير عضوى لا يستطيع الكائن العضوى القومى أن يهضمه . ويحب القوميون أن يدافعوا عن رغبتهم فى التوسع بالغزو بحجة ان كل كائن عضوى صغير لا بد أن ينمو ، ويقارنونه الامم التى يريدون ضمها أو اغتصابها بالكائنات العضوية المنهارة التى أدركتها الشيخوخة .

وفى ايديولوجيات جميع حركات التحرير القومى والوحدة القومية صورت الامة على أنها مجتمع خلقه الله أو الطبيعة أو عبقرية الجنس لا ارادة الافراد ، واستخدم هذا التصور لتبرير مطالبة الافراد بوجوب التضحية بكل شئ فى سبيل الامة . ولم يفت فى عضد دعاة التطلعات القومية مطلقا حقيقة أن أغلبية الشعب الذى يريدون تحريره أو توحيدهِ أو جعله قويا لا تبدى فى كثير من الاحيان أى اهتمام ان لم تقف من الامر موقف العداء . فهم يعتقدون انهم أصحاب رسالة تلقوها من سلطة عليا أسمى من الافراد .

ووضع المفكرون السياسيون فى كل الامم مذهب أن الدولة كائن عضوى روحى ونتاج نمو تاريخى يتضمن تجربة العصور كلها . فمنتسكيو وبرك وهيجل ودى مايستر وروبيه كولار كانوا بعض من دافعوا عن هذه النظرية . وبرغم انهم اعتنقوا وجهات نظر مختلفة فى كثير من النقاط فانهم اتفقوا فى رفض الرأى القائل بأن الامة هى مجرد الشعب يعيش فى دولة ، وذهبوا الى أن كلا من الانظمة السياسية للدولة والانظمة الاجتماعية للمجتمع ذات تكوين عضوى . وقد عبر دزرائيلى عن وجهة النظر هذه بالكلمات التالية (١) :

« ان تعبير « الشعب » هراء بحث . فهو ليس مصطلحا سياسيا . انه من تعبيرات التاريخ الطبيعى . فالشعب نوع من الانواع ، أما المجتمع المتمدين فهو أمة . والآن ، ان الامة نتاج فنى ونتاج الزمن . وتخلق الامة تدريجيا بواسطة مجموعة من المؤثرات المتنوعة - تحت تأثير التنظيم الاصلى والجو والتربة والدين والقوانين والعادات وقواعد السلوك والاحداث غير العادية فى تاريخها والطابع الفردى لمواطنيها البارزين . وهذه المؤثرات تخلق الامة - فهى تكون العقل القومى وتنتج مع مرور القرون درجة مرتفعة من المدنية . فاذا انت دمرت الانظمة السياسية التى أوجدتها هذه

(١) دزرائيلى « روح الحرية » ١٨٣٦ ، وأعيد طبعها فى مجموعة كتاباته بعنوان « الاحرار والحرية » ١٩١٣ ص ٣٤٣ .

المؤثرات ، والتي تعتبر الأجهزة التي تعمل بواسطتها باستمرار ، دمرت
 الأمة • والأمة فى حالة القلق والانحلال تصبح عندئذ شعبا ، وبعد أن
 تتعرض لكل ما يترتب على ذلك من شقاء ، مثل جماعة من النحل فقدت
 ملكتها ودمرت خليتها ، تشرع مرة أخرى فى تحويل نفسها الى مجتمع • ،
 وفكرة أن الأمة أو الدولة تؤلف نوعا من الكائن العضوى الروحى
 كثيرا ما فسرت بمعنى ينطوى على عداء نحو الحرية والديموقراطية
 والتقدم • ولكن هذا التفسير ليس التفسير الوحيد الممكن • فبعض كبار
 المفكرين الانجليز ، مثل جرين وبرادلى وبوزانكيه ، نمسوها بروح
 مختلفة (١) •

(ب) الأمة ككائن عضوى طبيعى

وقد شجع ظهور الفلسفة الطبيعية وانتشارها بين الناس على تفسير
 المجتمع على أساس انه كائن عضوى طبيعى • ومن وجهة النظر هذه تعتبر
 الجماعات الاجتماعية أعضاء الكائن العضوى الاجتماعى والافراد خلاياه •
 وهذه النظرية أكثر تعرضا لسوء الاستخدام أساسا لسياسة لا تحررية
 ولا ديموقراطية • فأهداف الكائن العضوى الروحى ووظائفه يمكن أن تكون
 هى العقل والحق والحب ، فى حين أن أهداف الكائن العضوى الطبيعى
 يمكن أن تكون مجرد الحياة والبقاء والقوة • وقد استغل العديد من
 الكتاب نظرية داروين الخاصة بالصراع من أجل البقاء للدفاع عن سياسة
 الغزو والسيطرة والاضطهاد ، وان كان داروين نفسه لم يشجع مثل هذه
 الآراء • ومن الغريب حقا أن تشبيه الكائن العضوى الاجتماعى بالكائن
 العضوى الطبيعى كان من صنع هربرت سبنسر الذى كان من دعاة الفردية
 المتطرفة (٢) • وموقفه هذا ، وكذلك موقف المدرسة الهيجلية الانجليزية ،
 يدل على أن التفسير العملى لاي فلسفة يعتمد الى حد كبير على الروح
 القومية • فنفس هذه الفلسفة استخدمت فى ألمانيا لنبد حقوق الفرد وفى
 انجلترا لتأكيدهما •

• (١) أنظر روبرت موراي « دراسات فى المفكرين الاجتماعيين والسياسيين الانجليز
 فى القرن التاسع عشر » ١٩٢٩ المجلد الثانى ص ٢٧٤ ، وفيما يتصل بالحجج التى ضد
 هذه النظرية أنظر ل . ت . هوبهاوس « النظرية الميتافيزيقية فى الدولة » ١٩١٨ و هـ .
 لاسكى « الدولة نظريا وعملا » ١٩٣٨ وس • جود « دليل للفلسفة والاخلاق والسياسة »
 ١٩٣٨ ص ٥٧٢ •

(٢) موراي - نفس المرجع ، المجلد الثانى ص ٢٥ ، ٢٧ • وقبل سبنسر عرض
 هذه النظرية شايغل •

وعلى أى حال فإن اعتبار الكائن العضوى الاجتماعى والجسم الطبيعى شيئا واحدا أو المقارنة بينهما مجرد مغالطة . فالمجتمع لا يتكون من أفراد كما يتكون الجسم من خلايا ، وهو ليس جسما بل حركة أو عملا ، ومكوناته هي العلاقات بين الأفراد . وتختلف الجماعة الاجتماعية عن الجسم الحى من عدة نواح ، مثل الحدود الواضحة والثبات والوحدة النوعية والخلق العضوى . فالأفراد الذين تتكون منهم الأمة نتاج خلق عضوى ، ولكن الأمة ليست نتاجا من هذا النوع . إنها تتألف من الوعى القومى الذى ليس فطريا بل نتاج التاريخ . وكثيرا جدا ما كانت التصرفات التحكيمية أو العرضية هي التى حددت أى الشعوب والأراضى تكون أمة . والكائن العضوى الطبيعى لا يمكن أن يتكون بهذه الطريقة . ومن الممكن أيضا الخروج من الأمة اما جماعيا بتكوين أمة منفصلة ، كما فعل المستعمرون فى « اعلان الاستقلال » ، أو أفرادا بالهجرة أو بتغيير الجنسية . والخلية لا تستطيع أن تترك كائنا حيا وتنضم الى غيره الا فى حالة التوالد ، وهو أمر غير متيسر للأمة . والفرد يستطيع أيضا أن ينتمى الى عدة جماعات كما ينتمى الى أمة ، الدولة والكنيسة والطبقة والحزب . . . الخ بل وربما حتى لأكثر من أمة ، فى حين أن الخلية لا تستطيع أن تنتمى لعدة كائنات عضوية ، ولهذا الحقيقة مغزى خاص . فأى جزء من الكائن العضوى الطبيعى له وظيفة واحدة داخل هذا الجسد . ولكن الكائن البشرى لا ينتمى الى أمته وحدها وليس حتى مرتبطا بها برابط لا ينفصم . والإنسان عضو أيضا فى مجتمع أكبر ، وذلك يترتب عليه واجبات وحقوق انسانية ، لا واجبات وحقوق قومية فقط .

بالإضافة الى أن الأمة لا تدركها الشيخوخة والانحلال بالمعنى البيولوجى تماما مثل الكائن العضوى الطبيعى ، برغم أن البعض يؤكدون انها معرضة لذلك . وأخيرا ، ان فكرة الانتخاب الطبيعى عن طريق الصراع من أجل البقاء لا يمكن تحويلها ببساطة من العلوم الطبيعية الى علم الاجتماع . فالتطور الاجتماعى تحكمه عوامل أخرى غير مجرد العوامل البيولوجية . اذ ان كل الجماعات البشرية لها ثقافة ، فى حين أن الجماعات الحيوانية ليس لها شيء من هذا (١) .

ان فكرتى الكائن العضوى الاجتماعى والتطور العضوى أداتان مفيدتان جدا للبحث العلمى والعرض العلمى . ولكنهما قد تؤديان الى خطأ

(١) أنظر شارلس ألود « التطور الثقافى » ١٩٢٧ .

شنيع اذا استخدمنا كشعارات سياسية وصارتا من عناصر الايديولوجية السياسية .

٧ - الأصل التاريخي للجنسية

كثيرا ما ناقش المؤرخون وعلماء السياسة موضوع كون الوعي القومي وفكرة الامة قد وجدا في عصور سابقة . والرأى السائد انهما من أصل حديث نسبيا وان كان هناك خلاف كبير حول الوقت الذي بدأ يظهران فيه (١) . بيد أن محاولات تحديد مولد الجنسية في فترة معينة تتجاهل حقيقة ان الوعي القومي يتألف من عدة تطلعات ، فضلا عن أنه متصل اتصالا لا ينقسم بعوامل موضوعية مثل اللغة القومية والاقليم والدولة والمدنية ، وجميع هذه العوامل مرت بطور تاريخي طويل ، ولم يكن معدل التقدم واحدا في كل الميادين . والسمات الأولية للجنسية قد تكون قديمة قدم البشرية ، أو حتى أقدم ، حيث أننا نرى ما يقابلها في قطعان الحيوانات . أما الظواهر التي هي أكثر تعقيدا فقد ظهرت تدريجيا في أوقات مختلفة . ومن ثم فانه من المستحيل تحديد وقت معين ولدته الجنسية . بيد أن الفكرة المنتشرة من أن الشعور القومي لم يكن معروفا في العصور السابقة ليست خطأ من الناحية التاريخية فحسب ، ولكنها مضللة أيضا فيما يتعلق بمشاكلنا السياسية . انها تتجاوب مع أحلام السياسيين الذين يميلون الى التقليل من شأن قوة النزعة القومية ، وكثيرا ما يكون ذلك لأنهم يعتقدون امكان تحقيق السلام بواسطة نوع ما من التنظيم الدولي الذي لا يتفق مع روح القومية ، ومن يعلنون أن المشاعر القومية ليست متأصلة الجذور في الطبيعة البشرية حيث أن الناس لم يعرفوا عنها شيئا في الأزمنة الماضية .

ومن الممكن أن نتبين بعض المراحل والأنماط المعينة في نمو الجنسية . وينطوي نمطنا الحالي على أفكار كانت غريبة الى حد يزيد أو ينقص على

(١) يقول أوجست تيرى ان الروح القومية الفرنسية كانت تستيقظ فعلا في القرن التاسع في حين يزعم لونيون هذه العملية الى أوائل القرن الثاني عشر ، ويمزوها رائكة الى القرن الثالث عشر . أما جيزو وميشليه وآخرون كثيرون فيؤكدون على أهمية حرب المائة سنة في القرن الرابع عشر والخامس عشر ، عهد جان دارك . وذهب كثير من المؤرخين الى أن تحقيق الوحدة السياسية والانتصارات الحربية العظيمة والازدهار الحضارى تجعل القرنين السادس عشر والسابع عشر هما الفترة الحاسمة . في حين يعتقد لافيس وأولار ان الثورة العظمى في القرن الثامن عشر هي التي أيقظت الوطنية والنزعة القومية الفرنسية .

العهود السابقة مثل المطالبة بالسيادة القومية غير المحدودة في اقليم معين ، أو بوحدة القوانين واللغة والعادات ، وفكرة التضامن القومي غير المحدود بصرف النظر عن المركز الاجتماعي وانتقاليد المحليه والحقوق الفيو دالية . ففي العصور الوسطى كان معظم الناس يقرون بواجب القتال من اجل الكنيسة ومن أجل سيد الأرض أو دفاعا عن وطنهم الصغير ، ولكنهم ما كانوا يفهمون فكرة أن الشرف القومي يقتضيهم بذل كل تضحية من أجل ناس تربطهم بهم رابطة اللغة والمدنية أو يخضعون لنفس الملك ولكنهم لا يكادون يعرفونهم أو يتصلون بهم . فضلا عن أن فكرة أن الجنسية هي القيمة العليا وأن الولاء القومي له الأولوية على كل شيء آخر حتى الواجب الديني ، لم يكن لها وجود . وحتى في العهود القريية جدا مرت فكرة الجنسية بتغييرات كبيرة . ففي عصر الاستنارة والتحررية كانت القيمة الشخصية للفرد تعتبر على نطاق واسع جدا أكثر أهمية بكثير من جنسيته ، وكان الاجنبي الكفء عادة يفضل عادة على المواطنين الذين هم أقل كفاءة . وكثيرا ما تبني الملوك والارستقراطيون هذا الاتجاه ولم يكن لديهم اعتراض على استخدام الأجانب ، حتى من المراكز الدنيا . ففي ١٨٦٢ سأل القيصر اسكندر الثاني بسمارك ، وكان وقتئذ سفير بروسيا في روسيا ، عما اذا كان يقبل العمل في السلك الدبلوماسي الروسي (١) . ومثل هذا التحول في الولاء يعتبر أمرا بشعا في عصرنا . فالشعور القومي الحالي كثيرا ما ينطوى على أن الفرد لابد أن يولد بالجنسية اذا أريد أن يعتبر عضوا كاملا في الأمة وأن الأجنبي يجب ألا يقبل الا في حالات خاصة .

ومن ثم فان المؤرخ يجب أن يكون على حذر من اغراء تفسير الوقائع تبعا لتجربته في الجنسية الحديثة . فيجب ألا يندفع الى القول بأن تكوين الاقليم القومي أو الدولة أو اللغة كان نتاج نمو الشعور القومي . اذ أن نموها يرجع الى حد كبير الى سياسة الملوك ومعاونيهم ولم تكن سبب مغزى قوميا الا مؤخرا . وينطبق هذا ايضا على تفسير الوقائع الذاتية . فاذا أشاد أحد كتاب العصور الوسطى بفضائل شعبه أو شعب آخر أو ندد بمساوئه فقد يكون الدافع له هو المشاعر الطبقية أكثر من الشعور القومي . والولاء لقضية ما قد تكون جذوره في مشاعر الولاء للأسرة المالكة أكثر مما هي في المشاعر القومية ، والاحساس بالزهو بالأعمال العظيمة جذوره في عقلية الفروسية . والتحيز ضد الأجانب وكرهيتهم

(١) بسمارك «Gedanken und Erinnerungen» ١٨٩٨ المجلد الاول ص ٣٠٩

ليست بالضرورة علامات على الوعي القومي ، بل قد يكون مرجعها التنافس الاناني على المراكز والأسواق . والتحيزات شبه القومية تقوم أيضا بين قطاعات قبلية أو محلية من نفس الأمة . وإذا وجد أن وقائع بذاتها دلالات حقيقية على الشعور القومي ، يجب التأكد أيضا الى أى الطبقات أو القطاعات من الشعب تنتمي هذه الدلالات حتى يمكن تكوين رأى فى أهميتها التاريخية ، ولا يمكن التثبت من أن شعارات التضامن القومي صحيحة أم لا الا فى حالات الطوارئ القومية ، وحتى عندئذ من العسير التمييز بين الحماسة الحقيقية والزائفة ، كما يتبين من اللغز الحالى فى ألمانيا أو إيطاليا .

ولم يسر نمو الجنسية فى خط مستقيم طوال العصور حتى صورها الحالية . فالشعور القومي مر بفترات ارتفاع وهبوط كثيرة . فقد كان أقوى فى اليونان القديمة منه فى العصور التالية ، وكانت هناك اوقات كاد يمحي تماما بواسطة انفعالات أخرى . وهناك أوجه تشابه كثيرة بين ظواهر القومية فى عصرنا والعصور السابقة . ولكن كل أمة وكل فترة لها سماتها الخاصة وينبغى أن نكون شديدي الحذر فى تطبيق التعبيرات السياسية الحديثة على عهود ومدنيات سحيقة . والسمات الاساسية للطبيعة البشرية كانت طبعاً واحدة فى كل زمان ومكان . ومن ثم فان كثيرا من الكتاب ينكرون أن عقليات الشعوب المختلفة والعهود المختلفة فيها أى اختلاف . بيد أن ذلك خطأ تماما فيما يتصل بالشخصية البشرية وبالعلاقة بين سيكلوجية الفرد وسيكلوجية الجماعة . فحتى اذا كان الجهاز العقلى لدى الافراد من مختلف الجماعات واحدا تماما فان الاختلاف فى تكوين الجماعات وفى تقاليدها قد يؤدى الى تباين كبير فى العقلية الاجتماعية . وفيما يتصل بالجنسية ليس السؤال الحاسم هو : أهناك شعور قومي معين موجود فى وقت بذاته أم لا ؟ بل هو : ما مدى قوته بالنسبة للقوى الأخرى ؟ . فالتحليل التاريخي يجب ألا يكون وصفيًا فقط ، بل كميًا وتكوينيًا أيضا ، وكثيرا ما تواجه المؤرخ مهمة وزن عناصر غير قابلة للوزن .

وبحث الجنسية فى فترة معينة لا يمكن أن يقتصر على مجموعة تعبيرات الشعور القومي . بل يجب أيضا أن نحاول تكوين فكرة عن عقلية الأمة فى هذه الفترة وأن ننفذ ببصيرتنا الى تكوينها الاجتماعى وتطلعات الطبقات وعلاقاتها المتداخلة بعضها ببعض . فالشعور القومي ليس عاملا منعزلا بل عنصرا فى كائن عضوى قومي ولا يمكن فهمه تماما الا فى صلته بالتكوين الاجتماعى والتاريخى للأمة . وطبيعة هذا الكائن

العضوى القومى تعبر عنها مجموعة من المشاعر والأفكار والتطلعات تتألف منها الأيدولوجية القومية . وفى هذه الأيدولوجية تلعب فكرة الطابع القومى دورا ذا أهمية خاصة .

٨ - الوعى القومى والنزعة القومية

لقد أشرنا فعلا الى أن الاستعمال فى اللغة الانجليزية يوحد بين النزعة القومية والوعى القومى ، الأمر الذى كثيرا ما أدى الى اغفال الفرق بين الشعور القومى المسالم والعدوانى عند الحكم على الأمم الأجنبية ، وواضح أن ذلك انما يرجع الى أن الأيدولوجية المتفائلة لبريطانيا الحديثة تميل الى اغفاله . ان الأستاذ مكدوجال مثلا يقول : « من الضروري جدا الاصرار بشدة على أن التنديد بالنزعة القومية هو بمثابة الوقوف موقف العداء من الديمقراطية » (١) وهذا الاستعمال قد يكون حتى موضع نقد من وجهة النظر اللغوية (٢) . فمنذ مائة عام تقريبا فرق مازينى بجلاء بين الجنسية ، التى اعتبرها مقدسة ، والنزعة القومية التى قال عنها انها ضيقة وحقيرة ومغتصبة . . الخ (٣) ويستعمل الفرنسيون والألمان أيضا النزعة القومية بمعنى العدوانية القومية (٤) .

وقد نشر مؤخرا المعهد الملكى للشئون الدولية تقريرا ممتازا وضعته مجموعة من الدارسين بعنوان « النزعة القومية » (٥) . وفى مقدمته ذكر هذا التعريف للنزعة القومية :

(١) مكدوجال « الأمة الأمريكية ، مشاكلها وسيكلوجيتها » ١٩٢٥ من ٧٠
(٢) ان تعبير « النزعة القومية » من التعبيرات التى ينتهى بـ (ism) وتدل على سعى جماعى أو على مدرسة فكرية تنسم بالتأكيد الشديد جدا على مبدأ معين ، تأكيد من زاوية واحدة فى الغالب أوله طابع الجهاد . ومن هذه التعبيرات تعبير « الشيوعية » فالشيوع فى ملكية المشروعات وخدمات الرفاهية لا تساوى لفظ « الشيوعية » . ومنها أيضا « النزعة العسكرية » وهى تعنى أكثر من مجرد الاهتمام بالمسائل العسكرية .
(٣) مازينى « أفكار عن الديمقراطية فى أوروبا » (١٨٤٧) فى مجموعة أعماله المجلد السادس ص ١١٥ ، وتاريخ حياته بقلمه المجلد الثالث ص ١٠ و ١٢ و ٧٧ .
(٤) كارلتون هيز « فرنسا ، أمة من الوطنيين » ١٩٣٠ ص ٢ و ٣١٨ . واللفظ الألماني « Voelkisch » ، وهو ترجمة « قومى » تعنى نوع النزعة القومية التى يمثلها هتلر .

(٥) انظر « النزعة القومية » تقرير وضعته مجموعة باحثين من (المعهد الملكى للشئون الدولية » ١٩٣٩ . وكان رئيس المجموعة الأستاذ أ ه . كار وسكرتيرها هوم . بالفور والكتاب اضافة قيمة جدا لدراسة هذه المشكلة .

« ان تعبير النزعة القومية استعمل فى هذا التقرير لندلالة على النوعى بالطابع المتميز للأمم المختلفة ، بما فيها الأمة التى ينتمى اليها الفرد ، والرغبة فى زيادة قوة الأمم وحريتها ورخائها . ولا يقصد بأثرها انه يقتصر بالضرورة على أمة الفرد نفسه ، وان كان من المسلم به أن هذا هو الوضع فى حالات كثيرة جدا ، وكذلك لا يقصد بالشخص القومى أنه بالضرورة من يضع مصلحة أمته فوق كل مصلحة أخرى . وباختصار يستعمل هذا التعبير هنا بالمعنى الذى يمكن بمقتضاه وصف مازينى وجلادستون وودروويلسون ، وكذلك هر هتلر ، بأنهم دعاة قوميون » .

واستعمال مصطلح « النزعة القومية » بهذا المعنى الواسع الذى يضم كلا من جلادستون وهتلر يبدو ، فى رأينا ، مشجعا على القول بأن الفرق بين عقلية هذين الرجلين هو فرق فى الدرجة فقط ، وأن هتلر لديه نفس المثل العليا التى كانت لدى جلادستون . وواضح أن مثل هذا القول مضلل . ان الغموض الذى يحيط بمعنى « النزعة القومية » أحد الوسائل الكبرى التى تستغلها الدعايات القومية فى الخارج ، فهو يساعد القوميين الأجانب على كسب تأييد شعور تعارض الحروب والغزو تماما ، وذلك عن طريق عرض أهدافهم بصورة لا تنطوى على أى ضرر .

وينجم أيضا عن استخدام « النزعة القومية » بمعنى الشعور القومى أن الروح العدوانية القومية يعبر عنها بالفاظ مثل الامبريالية والشوفينية والوطنية المتطرفة (١) ، ويبدو كأن فى ذلك تأييدا للنظرية الألمانية والايطالية التى تذهب الى أن فرنسا وبريطانيا هما وحدهما اللتان تحددوهما النزعة العدوانية ، حيث أن الأمم الأخرى ليست لديها حتى الفاظ تعبر عن هذا الاتجاه . بالاضافة الى أن ابهام معنى « النزعة القومية » ساعد على انتشار الاعتقاد بأن هتلر استمرار « للقومية » الثقافية التى قال بها هرردر وفيشته .

واذا سئل أحد القوميين فى قارة أوروبا ، غير بريطانيا : أيعرف مذهبه ؟ فانه سيقول: انه الاخلاص العميق للأمة ووضع مصالحها فوق كل شئ آخر . ولكن السؤال أكثر من ذلك سيكشف ان المصالح التى هو على

(١) لقد قال جنرال سمطس فى خطاب له سنة ١٩١٩ : « ان الجنسية نمت أكثر مما ينبغي فصارت امبريالية ، وتعيش الامبراطورية فى اضطراب دائم على انقاض حرية الأمم التى تتألف منها » .

استعداد للتضحية بكل شيء من أجلها مصالح محدودة بالذات • فهو لا يفكر أولا في زيادة الحرية السياسية أو في تحقيق مستوى معيشة أفضل للشعب ، ولا هو يعلق الأهمية الأولى على زيادة الكنوز الروحية للأمة • بل ان أول ما يفكر فيه هو الشرف القومي • ولا يعنى القوميون بالشرف ان يكون الشعب موضع التقدير أساسا لارتفاع مستوى المدنية أو للصفات الأخلاقية والروحية لديه ، كما لا يعنى بالنسبة لهم المساواة مع الأمم الأخرى • فالشرف بالنسبة للقومية يعنى التفوق ، أى المرتبة العليا بين الأمم والهيبة والسيطرة • ومن ثم فان السياسة القومية تتطلب جهاز دولة قوى لتحقيق أهدافها فى الهيبة • وكل الأشياء المادية والروحية تقدر أساسا باعتبارها أدوات لزيادة استقلال الأمة وقوتها وهيبتها • وطبعا لا يستطيع القوميون أن يعيشوا على القوة والهيبة وحدهما ، كما أنهم لا يأمون الحصول على أنصار كثيرين بين الشعب اذا هم أهملوا كل مصالحه الأخرى • فالأهداف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تؤلف أيضا جزءا من برنامجهم • بيد أن الدعوى القومية النموذجية تفترض أن القوة القومية والهيبة هما أفضل السبل لجميع كنوز العالم وان الأمة القومية وحدها هى التى تستطيع أن تحل المشاكل الاجتماعية وتحصل على أفضل الظروف الممكنة لتنمية المدنية القومية • بالاضافة الى أنه اذا كان على القوميين أن يختاروا بين الهيبة القومية والأهداف الأخرى فانهم بالتأكيد يفضلون الهيبة • وأخيرا ينمو مذهب القوة الحقيقى وتصبح النزعة القومية نوعا من الدين « آلهته » الهيبة والقوة •

ولا تكون طبيعة النزعة القومية واضحة عادة لأغلبية دعايتها • فهى تتطلب قدرا كبيرا من التحليل النقدى للكشف عما وراء الستار الايديولوجى الذى تختفى وراءه أهدافها الحقيقية • فلا يمكن أن نتوقع من رجل الشارع أو السياسى المتوسط أن يكون قادرا على تكوين حكم بعيد النظر فى الشئون الدولية عندما نرى أنه حتى الخبراء الذين تتوفر لديهم فرص غير عادية لدراسة الأمم الأجنبية كثيرا ما يبدون آراء اقرب الى البدائية عن عقلية الشعوب الأجنبية والأفراد الغرباء • وفى جو التوتر يبدو أن قلة قليلة جدا من الناس تستطيع أن تحكم على الأمم الأخرى بنظرة صائبة • فالأغلبية قميئة بأن تقع اما فى تفاؤل متطرف أو تشاؤم لا مبرر له •

بيد أننا ينبغي ألا نفعل عن أن النزعة القومية تبدو فى صور أخرى بجانب الصورة العدوانية ضد الأمم الأجنبية • ففي حالات كثيرة يكون

التعصب القومي والاضطهاد موجها ضد « أعداء » داخليين أساسا ، اما ضد أقليات قومية وبخاصة ضد اليهود ، أو ضد قطاع عنصري ، وبخاصة الملونين . بالإضافة الى أن هناك أيضا نوعا من النزعة القومية المستترة التي لا تعلن صراحة وتظهر عادة مرتبطة بالأتانية الاقتصادية . وهي أحد الدوافع التي تؤدي الى جميع أنواع الحماية الاقتصادية مثل الرسوم المرتفعة على الواردات والاجراءات المماثلة . والتحيز القومي والعداوات القومية كذلك وراء القيود التي توضع على الهجرة ووراء السياسات العمالية التي تنكر حق العمل ، على الأجانب أو على الملونين . وتتخذ الحماية الاقتصادية بسهولة صورة عدوانية ، وكذلك التمييز العنصري والقومي فيما يتعلق بالهجرة أو العمالة كثيرا ما يكون لها طابع عدواني مثير اذا تجاوزت حدودا معينة وبدا أنها تحط من قدر الشعوب التي يتعلق بها الأمر وتعاملهم على أنهم أجناس « أدنى » . وحتى البلاد الديمقراطية والتحررية التي تخلو من الروح العدوانية ضد الامم الاجنبية كثيرا ما تتبع سياسة عنصرية وضد الغرباء .

ولروح الجنسية جانبان . جانبها الايجابي البناء وهو السعى للتضامن القومي والحرية ، وجانبها السلبي الهدام وهو التعنت العقلي ضد الأمم الأخرى الذي كثيرا ما يؤدي الى عدم الثقة والتحيز المتبادل والى السعى للتفوق والسيطرة . وهناك بعض الميل المبهم المحدود نحو التضامن القومي منتشر على نطاق واسع . أما بلوغه درجة كبيرة تنطوي على الاستعداد للتضحية بالنفس فأمر نادر . فهو مثل أعلى يحدو اقلية ضئيلة فقط ، ولكن الأغلبية العظمى تضع المصالح الأنانية والتضامن الطبقي والولاء الحزبي عادة فى مرتبة أعلى بكثير من واجب التضحية بالنفس فى سبيل الأمة . وعنصر التعنت والبغضاء ، الذى يظهر فى النزعة القومية ، والعنصرية والتحيز ضد الغرباء أكثر بكثير فى كثير من الأمم من الأنواع الحيرة من التضامن القومي . بيد أنه كثيرا ما يكون من الصعوبة بمكان كبير تقدير قوة أى من العنصرين بصورة موثوق فيها حيث أن مظاهرها قد تكون راجعة الى ضغط الدولة والرأى العام الى حد كبير جدا . وكثيرا ما يفترض أن العداء ضد الأمم الأخرى لا بد منه للتضامن القومي الداخلى . ويشير الأستاذ بيلسبورى الى أن الكراهية المشتركة من أبعد العوامل أثرا فى قيام الأمم وتوحيدها (١) والحقيقة أن التاريخ يبين أن كل الامم تقريبا انبثقت من حروب عظمى وخلال عداء طويل وعنيف نحو أمم أخرى .

(١) بيلسبورى ص ٨٣

٩ - فكرة الطابع القومي

(أ) أفكار شائعة ونظريات علمية

ان الاعتقاد بأن لكل شعب طابعا خاصا مستمرا طوال العصور ويمكن تتبعه خلال تاريخه كله وفي جميع فروع المدنية اعتقاد منتشر جدا . وهو يؤلف عنصرا قويا في كل أيديولوجية قومية وينطوى عادة على تمجيد للطابع القومي لأمة الشخص والحط من قدر العدو القومي . وحتى الناس المدربون على التفكير الناقد في كل المسائل الأخرى يتمسكون بتحييزات من هذا النوع دون أن يناقشوها . ويدرك بعض الناس ضرورة فحص مثل هذه المعتقدات بعناية ، وينبذون الصور الفاضحة من التحيز القومي ولكنهم يذهبون الى أنه لا يمكن انكار وجود الطابع القومي وان لم يستطيعوا أن يحددوا ماهيته الحقيقية . ان ليوبولد فون رانكه ، وهو مؤرخ من أعظم المؤرخين في العالم وأبعدهم عن التحيز ، انتهى الى أن الروح القومية يمكن الاحساس بها فقط ولكن لا يمكن فهمها ، فهي عنده « هواء روحى » يتخلل كل شيء (١) . بيد أن كثيرا من المؤرخين الآخرين لم يشاركوه في وجهة نظره المتحفظة . ومن اليسير أن يجمع المرء عددا كبيرا من الأحكام السهلة الخاطئة التي أصدرها رجال مبرزون في كثير من الأمم عن السمات القومية (٢) ومعظم هذه الآراء تنطوى على التوحيد بين الأمة وجماعة عنصرية . بيد أن موضوع الطابع القومي كثيرا ما نوقش أيضا بروح أقل تحيزا (٣) ، فالسائحون والسياسيون والكتاب القدامى كان

(١) أ . جاسباريان : «Der Begriff der Nation in der deutschen Geschichtsschreibung des 19 Jahrhunderts» .

(٢) وجه النقد لعدد كبير من هذه الأحكام بواسطة جون . م . روبرتسون في « الساكسون والكلت » ١٨٩٧ و « الألمان » ١٩١٦ ، وكذلك جون أوكسميث « الجنس والجنسية » ١٩١٩ ، و ف . هرتز « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ ، وهاملتون فايف « وهم الطابع القومي » ١٩٤٠ .

(٣) لقد عرضت كثيرا من أوصاف السمات القومية وتفسيراتها في عدة مقالات . مثلا مقالى عن النظريات اليونانية في «Koelner Vierteljahrshefte fur Soziologie» ١٩٢٣ ، وعن هذه النظريات في العصور التالية «Archiv fur Sozialwissenschaften» المجلد ٥٤ ، ١٩٢٦ ص ١ - ٣٥ وص ٦٥٧ - ٧١٥ . وهناك كتابات أخرى في الموضوع أوردتها في مقالى في « مجلة علم الاجتماع » المجلد ٢٦ ص ٣٦٩ . سنة ١٩٣٤ . وهناك عرض طيب مفيد للمشكلة بقلم م . جينسبرج بعنوان « الطابع القومي » في مجلة علم النفس البريطانية « (القسم العام) الجزء ٣٢ سنة ١٩٤٢ .

يصدمهم تباين القوانين والعادات والعرف والامزجة بين الشعوب ، وفكروا في أسبابه . ولم يول مفكرو العصور الوسطى هذه الاختلافات اهتماما كبيرا ، ولكن « الانسانيين » أعادوا الاهتمام بها وأخذوا عن القدامى تفسيراتهم لأسبابها . ومنذ ذلك الوقت كتبت مؤلفات لاعداد لها عن السمات القومية ، أما في مجرد وصفها أو في محاوله تتبع اصلها وأسبابها . وفي العصور السابقة كان التفسير الرئيسى للسمات القومية هو تأثير القوى الطبيعیه ، مثل النجوم والجو والتربة ، على الدم وعلى الافرازات الداخلية للناس وعلى أمزجتهم . وهناك مصدر كلاسيكى لجميع النظريات المتأخرة عن تأثير الجو ، وهو كتاب يعزى الى هيبو قراط . وتقدم بطليموس وجالين بالنظرية الاسترولوجية . بيد أن بعض الكتاب الاغريق ، مثل ثيوسيديد وسترابو، أدركوا أن الأمر انما يرجع الى عوامل جغرافية كثيرة تؤثر فى الظروف الاجتماعية ، التى تحدد بدورها عقلية الناس ، أكثر مما يرجع الى التأثير المباشر للطبيعة على دم الناس فعقولهم . ووجهة النظرية الثانية هذه تفسر طابع الشعوب التى تعيش فى الصحراء مثلا بالتأثير المباشر لاشعاع الشمس ، فى حين تذهب الأولى الى أن الصحراء تدعو الى التنقل والترحال وأن ذلك ينتج نموذجا معيناً من العقلیات . كما تبين الدارسون أيضا أن السمات الخاصة بالشعوب تتأثر بديناميكية التاريخ ، مثل الحروب والهجرات والانتقال والاختلافات الاجتماعية والاكتشافات والاختراعات والثورات والاتصال الثقافى وما الى ذلك ، وأن هذه الأشياء هى التى تحدد سيماء مدينة الشعب . وتخضع هذه الحركات التاريخية طبعاً للظروف الطبيعية جزئياً . ولكن صار من الواضح ان الطبيعة عامة عامل نسبى . فتأثير نوع بذاته من البيئة الطبيعية ليس واحداً على جميع الشعوب وفى جميع الظروف بل ان أثرها يتوقف على عوامل عديدة . والشخصية ، الفردية والجماعية ، قوة ذات فاعلية كبرى بين هذه العوامل .

ومن القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر كان موضوع تباين العادات والقوانين وأسبابها من الموضوعات المفضلة لدى الكتاب الذين تحدوهم أفكار « الانسانية » و « الاستنارة » . وأكثر هذه الكتب نفوذاً هى تلك التى كتبها بودان وهورتى وباركلاى ومنتسكيو . وبصفة خاصة مونتسكيو الذى جمع ثروة من الملاحظات الهامة والأفكار المثيرة وكان له أكبر نفوذ على جميع ما جاء بعده من تفكير فى الموضوع ، بيد أنه بالغ فى أثر الجو . وقد كان هيوم وهردر من أوائل من هاجموا فكرة أن الجو

هو القوة الكبرى (١) وفي حين كان كتاب القرن الثامن عشر كثيرا ما يبالغون في تأثير القوى الطبيعية ، وضع « الرومانسيون » الثقل على النمو التاريخي العضوي وكثيرا ما انغمسوا في بناء روح قومية روحانية زعموا أنه يمكن تتبعها خلال تاريخ الشعب بأكمله . وحاول كثير من المؤرخين ، وبخاصة في ألمانيا وفرنسا ، اثبات أن تاريخ امتهم كله يدل على استمرار طابعها القومي ، وكثيرا ما فسروا انجازاتها على أنها نتاج العبقرية القومية وعزوا فشلها الى عوامل أجنبية . بيد أن هذا الاتجاه ثبت أنه مما لا يمكن الدفاع عنه ونبذ الدارسون الجادون .

وقد أدت زيادة المعرفة الجغرافية والتاريخية ونمو أساليب النقد الى تناول مشاكل الطابع القومي بطريقة علمية ومنظمة أكثر . ووضع علماء بارزون في الجغرافيا ، مثل كارل ليوتر وفردريك راتزل وجين برونيه ، خططا شاملة أطلق عليها « الجغرافيا البشرية » (٢) . وكذلك أولى كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء الأجناس وعلماء النفس اهتماما كبيرا لبحث السمات القومية . وفضلا على ذلك كان مما له قيمة بصفة خاصة أن الدراسة لم تقتصر على القضايا العامة بل درست أيضا ظروف بعض الأمم المعينة ، مع تأكيد خاص على نمو تقاليدها ومثلها العليا واتجاهاتها العقلية والدور الذي لعبته (٣) . وأدى المدخل الجغرافي الى تعميمات عامة تصورها أمثلة من شعوب مختلفة وذات قيمة في توجيه البحث وان كانت أيضا لا تخلو من أخطار معينة . فدراسة البناء الاجتماعي لشعب واحد فقط في ضوء ظروفه الطبيعية والتاريخية وبغرض تحديد العقلية القومية نتاجا للقوى الاجتماعية والتاريخية كانت أفضل لتجنب التعميمات المتسارعة وفي حين كان الكتاب في الماضي كثيرا ما يبدءون من فكرة مسبقة عن الطابع القومي ويحاولون اظهار تعبيراتها في جميع أحداث تاريخ الشعب

(١) أنظر دافنديو « المقالات » رقم ٢١ بعنوان « في الطابع القومي » ، وكذلك ج . هـ .

هردر « Ideen Zu einer Philosophie der Geschichteder Menschheit » ١٧٨٤

(٢) أنظر ف . راتزل « Anthropogeographie » مجلدين سنة ١٨٨٢ - ١٨٩١ طبعة

جديدة) و « Politische Geographie » ، الطبعة الثالثة ١٩٢٣ ، وكذلك جين برونيه

« الجغرافية البشرية » ١٩٢٠ وقد عرضت أ. ش. سمبل فكرة راتزل مع اضافات كثيرة

في « مؤتمرات البيئة الجغرافية » ١٩١١ .

« Esquisse Psychologique des peuples Européens »

(٣) أنظر بصفة خاصة الفرد فوييه « Esquisse psychologique des peuples

européens » ، الطبعة الخامسة ١٩١٤ ،

« La psychologie des individus et des Sociétés chez Taine » ١٩٠٦ ،

هـ . ث . باك « مدخل لتاريخ المدنية في إنجلترا ١٨٥٧ - ٦١ » جون ماككنسيون

روبرتسون « باك « ونقاده » ١٨٩٥ ، أرنست باركر « الطابع القومي وعوامل تكوينه »

١٩٢٧ ، أ . هيرفيتز Die Seelen de Volker ١٩٢٠ .

الذى يتعلق به الامر ، يصف الدارسون الآن أنظمة الشعب ومدنيته ويحللونها ثم يبحثون عن السمات العامة التى يتميز بها هذا الشعب . وإذا كانوا لا يزالون يستعملون تعبير «الطابع القومى» الذى فقد الاحترام الى حد ما ، فانهم عادة يقصدون به الاتجاهات السائدة فى هذه المدنية . بيد أن هذا الأسلوب أيضا يثير بعض الانتقادات . اذ يمكن الجدل فيما اذا كانت نفس الاتجاهات العامة تسود فى جميع المجالات التى تتألف منها المدنية ، فى السياسة والاقتصاد كما فى الأدب والفن ، بل لقد كان موضع شك ما اذا كان مجال واحد منها يتسم بهذه الوحدة الوثيقة بحيث يستطيع المرء أن يتحدث مثلا عن روح الادب الانجليزى ككل (١) . فضلا عن أن المدنية القومية ليست مجرد تعبير عن الطابع القومى . فكل شعب استورد أجزاء كبيرة من مدنيته من الخارج . وكثيرا ما فرضت الأنظمة على شعب بدون رضاه . فالمسيحية مثلا كثيرا ما فرضت على شعب برغم مقاومته العنيفة ، وإن كانت فيما بعد صاغت اتجاهه بأكمله . بالإضافة الى أن الصورة الخارجية قد يكون لها مغزى مختلف لدى أمم مختلفة . وأخيرا تدل الدراسة المقارنة للأمة التى فى نفس المرحلة من التطور الاجتماعى على أنه لا توجد صفة واحدة تنفرد بها أمة واحدة أولا توجد مطلقا فى عقل أية أمة . فالاختلافات تنصب على الدرجة والوقت والمزيج فقط . فسمه من السمات قد تظهر مبكرة أو قد تكون أكثر أو أوضح لدى أمة ما أكثر من الأمم الأخرى ، أو قد تكون ممتزجة بسمات أخرى بطريقة تنفرد بها أمة ما .

والحجج الرئيسية ضد الطابع القومى هى (١) التنوع الكبير فى الطابع الفردى والسمات الثقافية فى كل أمة (٢) عدم وجود أى اختلاف حاسم واضح فى الطابع الفردى والسمات الثقافية بين الأمم ، على شرط أن تتم المقارنة بين الأنماط الاجتماعية القابلة للمقارنة وحدها (٣) التغير الجذرى المستمر فى الآراء التى تعتنق فيما يتعلق بطابع أمم بذاتها . وهذه الحجج تدحض بصورة قاطعة كل تلك الآراء التى تبالغ فى وحدة السمات القومية واستمرارها وتفرداها ، مثل الآراء التى تقوم على جميع التفسيرات العنصرية بصفة خاصة . فالعنصرية تفترض أن الأمم تفصلها جذريا عقلية العنصر المتجانسة والتى لا تتغير . ومثل هذه الأفكار لا ريب فى أنها خطأ . ومع ذلك فإن فكرة الطابع القومى الموحد الذى لا يتغير

(١) انظر ف . بولدنسبرجر « الادب » ١٩٢٧ ص ٢٨٧ و ل . م . برايس « المؤثرات الادبية الانجليزية الالمانية » ١٩١٩ ص ١٢٠ .

منتشرة على نطاق واسع حتى بين الناس الذين لا يؤمنون بالعنصر . ويرجع ذلك الى حد ما الى وجهة نظر خطأ فى الطابع بصفة عامة . فكما أشرنا من قبل ، حتى الطابع الفردى ليس موحدا تماما ولا هو غير قابل للتغير مطلقا . فهو يضم اتجاهات متعارضة كما أنه قابل للتغير داخل حدود معينة . ونستطيع أن نفهم الطابع على أنه مجموعة من القوى تتجنى نحو وحدة وثبات معينين ، تحت تأثير اتجاهات موروثية وإرادة مركزية وظروف خارجية . ومن الجلى أن الفرد كقاعدة عامة يظهر وحدة وثباتا فى الطابع أكثر من الجماعة . والسبب هو أن إرادة الفرد تمثل قوة مركزية أكثر مما يطلق عليه الإرادة الجماعية ، وأن الجماعة تعيش مدة أطول ومن ثم لديها فرصة أكبر فى تنمية وتغيير نفسها ، ونحن نستطيع التحدث عن الطابع القومى على سبيل المقابلة فقط كما نتحدث ايضا على طابع منظر طبيعى يضم أشياء كثيرة مختلفة ومع ذلك فهو يمثل وحدة معينة فى نظر عالم طبقات الأرض وعالم النبات وعالم الحيوان والجغرافى والفنان . وقد يكون من الأفضل استبدال تعبير « الطابع القومى » بتعبير آخر أقل إبهاما ، وقد اقترح البعض تعبير « التقاليد القومية » بدلا منه . ولكن عقلية الأمة ليست مجرد مسألة تقاليد ، بل انها تتأثر أيضا بالتكوين الاجتماعى وبالأفراد الأقوياء . ان التعبير الصحيح هو « العقلية القومية » .

(ب) تكوين الطابع القومى

لا يمكن تعريف الطابع القومى الا بأنه جماع التقاليد والمصالح والمثل العليا المنتشرة فى أمة ما وتؤثر فيها وتصوغ صورتها فى عقل كل من الأمة التى يتعلق بها الأمر والأمم الأخرى . وقد ناقشنا من قبل فى فصل سابق مغزاه الذاتى بالنسبة للوعى القومى ، ولكننا ينبغى أن نفحص أيضا مغزاه الموضوعى . ان المعتقدات التى تعتنقها أمة فيما يتصل بطابعها الخاص وطابع الأمم الأخرى تؤلف عادة مزيجا من بعض الحقيقة وقدرا كبيرا من المبالغة والتشويه . ولكن حتى الأوهام تعتبر حقائق عقلية وقد يكون لها نصيب كبير فى انتاج التضامن القومى والطموح القومى والمنافسات القومية . فضلا على أن الأوهام كثيرا ما تكون وراءها ظروف طبيعية واجتماعية قد يكون لها تأثير كبير على التاريخ . وخطورة الأوهام والتحيزات القومية تكمن بالذات فى أن فيها أيضا شيئا من الحقيقة . بالإضافة الى أن الأفكار التى تتكون عن السمات القومية كثيرا ما يمكن تتبعها فى الماضى قرونا ، وهذا أيضا يقوى الاعتقاد فى صحتها كما

يخلق فكرة الطابع العنصرى الموروث . بيد أن استمرار السمات القومية ليس قاعدة ثابتة بأى حال من الأحوال فتاريخ معظم الأمم يظهر أيضا تغيرات فجائية فى العقلية القومية . وفى العصور السابقة كان الانجليز هم الذين عرفوا بأنهم شعب متمرّد وثورى و « غير مأمون » فى حين كان الفرنسيون يفخرون بولائهم للوكهم وبثبات أنظمتهم .

وواضح أن موضوع مدى تغير عقلية الأمة ، اذا كانت تتغير أصلا ، ذو أهمية قصوى لتفسير التاريخ وللسياسة العملية أيضا . وقبل أن نناقشه لا بد من أن نقول بعض الملاحظات القليلة الأخرى عن تكوين الطابع القومى . ان التقاليد والمصالح والمثل العليا التى يتألف منها ينصب بعضها على حياة الأفراد وبعضها على حياة الأمة . وكل أمة لها ميول معينة فيما يتعلق بالطعام والشراب والسكن والملبس وطرق الحياة الأخرى ، وكذلك لها عادات فى الفكر والشعور . فاهتمام الانجليز بالرياضة فى الهواء الطلق قديم جدا . وفى القرن الثامن عشر وصفه وليم فيتزستيفن وصفا شائقا فى كتابه عن حياة القديس توماس بيكيت . وقد ترك هذا الاهتمام أثره أيضا فى المثل العليا القومية . والتعبير « ليس هذا رياضيا » يدل الى أى حد ارتبطت الرياضة بالانصاف فى العقل الانجليزى . وكثيرا ما لام الكتاب القوميون الألمان الانجليز على النظر حتى الى الحرب من زاوية الرياضة (١) فقد بدا لهم ذلك تجديفا « بقدسية الحرب » ، فى حين ان فكرة الانجليز هى أن الحرب أيضا يجب أن تدور على أساس قواعد الانصاف . وقد يكون سبر رينسارد آكلاند مبالغا عندما قال : « اننا كأمة نعطي لمباراة كرة قدم من اهتمامنا ألف مرة ما نعطي لسياستنا الخارجية » (٢) ، ولكن أيا كان الامر فان كرة القدم من الأنظمة ذات المغزى بالنسبة للطابع القومى الانجليزى .

والاختلافات القومية فى عادات الحياة الخاصة كثيرا ما تثير تحيزات . فكل أمة تقريبا تزدري الأمم الأخرى بسبب ميولها فيما يتعلق بالطعام وتشيد بأطعمتها هى المفضلة (٣) . وفى الأزمنة الماضية كان الانجليز مثلا يسخرون من الفرنسيين باعتبارهم « آكلي الضفادع » ويحتقرونهم

(١) و . سومبارت «Hundler und Helden» ١٩١٥ ص ٤٧

(٢) لماذا أنا ديمقراطى « حلقة باشراف د . آكلاند » ، ١٩٣٩ ص ١٤ .

(٣) هناك أمثلة عديدة فى كتاب روبرت ميشلر «Der Patriotismus» ١٩٢١ . وهذا

الكتاب اضافة قيمة جدا للدراسات الاجتماعية الخاصة بالشعور القومى والايديولوجية القومية .

لأنهم يلبسون أحذية خشبية ، في حين كانوا يفخرون « بالشواء الانجليزى القديم » . ولكن الاختلاف فى التفكير والشعور أيضا اعتبر من السمات القومية . فالفرنسيون يعتبرون العقلانية والمنطق الصارم والوضوح اللغوى من ميزاتهم الخاصة ، ويعتبر الانجليز الأسلوب التجريبي والادراك السليم والنفور من التفكير المجرد طريقتهم الخاصة فى التفكير ، أما الألمان فيفخرون « بالعمق » الألمانى وتفضيلهم « للنظرة الشاملة للعالم » . وهناك مجموعة خاصة من المعتقدات ، هى تلك التى تتصل بالأصل النبيل و « الدم الأفضل » ومصير الأمم ورسالتها وقد ناقشناها من قبل . ولبعض هذه المعتقدات صلة مباشرة بالتطلعات القومية ، وبعضها ليس له صلة مباشرة بها وإن كان من الصعب وضع حد فاصل بين هذه وتلك . والأولى يمكن أن تسمى حقا « بالايديولوجية القومية » .

ومعظم أفكار السمات القومية تجمع التقاليد والمصلحة والمثل العليا ، ويكون أحد هذه العناصر متغلبا عادة . فالحرية موضع اعتزاز بالتأكيد فى بريطانيا كتقليد يرجع الى « الوثيقة العظمى » ولكنها أيضا مصلحة ومثل أعلى . وتحفظ التقاليد بحيويتها أساسا عن طريق ارتباطها بالمصالح والمثل العليا لتلك الطبقات التى تؤلف ما يسمى « بالارادة القومية » وتضع المعايير للأمة . وهذه الطبقات تتغير باستمرار وتظهر طبقات جديدة وتحصل على نصيب فى السلطة الاجتماعية والسياسية . ويبدو أن هذه التغيرات هى السبب الرئيسى فى اختفاء التقاليد ونمو تقاليد جديدة . فقد ظلت المحافظة على « ميزان القوى » مثلا هى المبدأ الأول للسياسة الخارجية البريطانية قرونا طويلة ، ولكنها نبذت بعد الحرب الأولى وحل محلها مبدأ « الأمن الجماعى » . وواضح أن التغيير فى هذا التقليد جاء نتيجة لتغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى بريطانيا وفى الأمم الأخرى .

وتنطوى البيئة الطبيعية والتسكوين الاجتماعى على عوامل عديدة تشجع نمو وحدة معينة فى الطابع الى حد ما ، وتعوقها الى حد ما . فالشعب الصغير الذى يعيش فى ظروف طبيعية واجتماعية متماثلة نسبيا يكون أكثر تجانسا فى عقليته من شعب يمتد فى أقاليم واسعة تتنوع فيها الظروف الجوية والاقتصادية والاجتماعية تنوعا كبيرا . وقد دفعت هذه الحجة المفكرين السياسيين القدامى الى افتراض أن الشعوب الصغيرة هى وحدها التى تستطيع أن تؤلف أمة ، أى مجتمعا توحده وجهة النظر المشتركة . وقد اعتنق عدد كبير من الكتاب الحديثين هذه الفكرة ولكن الظروف الحديثة أدت الى تغيير كبير . فمن ناحية صار نمو الفروق الفردية بصورة غير

عادية فى حيز الامكان بسبب التقدم الاجتماعى والثقافى . ومن ناحية
أخرى أدت المخترعات التكنولوجية وتقدم التنظيم السياسى والاجتماعى الى
ظهور عدد كبير من عوامل التوحيد مثل المدارس الابتدائية والصحافة
والسكك الحديدية والبريد والبرق والتليفون والسينما والراديو وتكدر
كتل ضخمة من الجماهير فى المدن والمناطق الصناعية . بيد أن أقوى
العوامل جميعا هى الدولة الحديثة التى تركزت فى يدها وسائل لصياغة
عقلية الأمة لم تكن معروفة فى العهود السابقة . ودرجة نفوذ الدولة
تختلف طبعا من أمة الى أمة . ويقول دافيد هيوم فى مقاله « عن الطابع
القومى » : ان الحكم المختلط فى انجلترا والحرية التى تتمتع بها جميع
الأديان والطبقات والأفراد تعمل ضد ثبات الطابع القومى . بل انه يقول :
« ان الانجليز من بين شعوب الكون كلها لهم أقل طابع قومى ، اللهم الا
إذا كانت هذه السمة بالذات التى تفردوا بها تعتبر طابعا قوميا » .
ولكن هيوم يغفل فى هذه الملاحظة عن أن النظام السياسى ليس بأى حال
من الأحوال العامل الوحيد فى تحديد الطابع القومى ، ويناقد هو نفسه
عوامل أخرى فى مواضع أخرى . فالحرية الانجليزية لم تحل دون نمو
التقاليد المنتشرة على نطاق واسع جدا بين جميع طبقات الأمة . بل ان
كثيرا من الملاحظين الأجانب وجدوا أن الشعب الانجليزى يتسم بتجانس
عقلى أكثر من غيره ، وهو رأى فى حاجة الى تحديد . ان وجود نوع معين
من الوحدة فى الآراء والعادات والعرف لدى أمة يرجع الى حد كبير الى أن
الطبقات الحاكمة تستخدم نفوذها السياسى والاقتصادى والاجتماعى لنشر
الآراء والعادات التى تخدم مصالحها ، وأن جميع الطبقات تقلد الى حد
يزيد أو ينقص النماذج التى تضعها الطبقة الحاكمة أو « المجتمع الراقى » .
وفى العهود السابقة كان لكل مرتبة أسلوبها المنفصل فى الحياة ، وكان
محزما أن يتخذ المرء عادات مرتبة أعلى أو يلبس ملابسها . بيد أن
نمو الوحدة القومية حطم هذه الحواجز وبدأت كل طبقة تقلد ما أمكن
أسلوب حياة الطبقة التالية . ولما كانت تقاليد الطبقات الحاكمة ثابتة جدا
فى كثير من الأحيان فان ذلك أضفى على الطابع القومى نوعا من الثبات .
والفرق فى الطبائع بين الألمان والانجليز يرجع السبب الأكبر فيه الى أن
طبقة النبلاء الألمان حافظت الى حد كبير على طابع فئة المحاربين وأن
الطبقات الأخرى حذت حذوها ، فى حين أن النبلاء فى انجلترا اتخذوا
عقلية ملاك الأراضى والرأسماليين الأثرياء وخلقوا نمطا فى الحياة قلده
الطبقات الأخرى على نطاق واسع . ومما له مغزى فى العلاقات بين
الطبقات فى انجلترا أن تعبير «جنتلمان» الذى كان يقصد به أصلا مركز

اجتماعى صار يستخدم فى وصف أسلوب معين من السلوك لدى جميع الطبقات . ولا ينطبق ذلك على اللفظ الفرنسى أو الالماني المقابل الذى له نفس الأصل . بل ان الفرنسيين والالمان يستعملون لفظ « جنتلمان » من اللغة الانجليزية للتعبير عن نمط معين من السلوك (١) .

(ج) الأيديولوجية القومية

كثير من عناصر الطابع القومى ليست بالضرورة مرتبطة بالتطلعات القومية بذاتها بل هى مجرد قومية بمعنى انها منتشرة على نطاق واسع جدا بين الأفراد من كل الطبقات . فواقعة أن الشعب الانجليزى كقاعدة عامة يحب الحيوانات أو يغرم بالرياضة ليست لها علاقة بالشعور القومى، اللهم الا اذا أثارت مباراة فى كرة القدم مع فريق أجنبى روح المنافسة . ولكن هناك أيضا سمات مرتبطة بصورة مباشرة منتظمة بالسعى نحو تكوين الشخصية القومية . ولعل هذا السعى هو أكبر قوة تعمل على توحيد الطابع القومى وتؤدى الى نمو الأيديولوجية القومية . ولا تنطوى الأيديولوجية الكاملة النمو على مذاهب سياسية متميزة فحسب ، بل كذلك على تفسير معين للتاريخ وعلى فلسفة معينة . اذ تتألف الأيديولوجية القومية من أفكار عن طابع الأمة وطابع الأمم الأخرى ، وعن ماضى الأمة وحاضرها ومستقبلها، وعن رسالتها فى العالم، وعن مهمة الدولة وواجبات الأفراد تجاه الأمة . والتطلع الى استقلال عن جميع الأنماط الأجنبية كثيرا ما يؤدى الى تأكيد التفرد بالسمات الخاصة فى ذاته ، حتى اذا لم يكن هذا التفرد مما يدعو الى الفخر كثيرا . فالخيلاء القومية أقوى من الادراك السليم . ويحكى لنا هلفسيوس فى كتابه « عن الروح » اسطورة هندية عن شعب من ذوى الظهور الحدباء يعتبر فيه الأجنبى السليم البنية موضع سخرة كمخلوق غريب ويضيف : « أن كل أمة تعجب بنقائصها الخاصة وتحقر الصفات المضادة . ولكى ينجح المرء فى بلد ما يجب أن يكون مثل أهله » .

وكثيرا ما يؤدى نمو الأيديولوجية القومية الى اختلاف فى قواعد السلوك اختلافا يكاد ينطوى على تكوين طابعين للشخص الواحد ، طابع خاص فيما يتصل بشئونه الخاصة وطابع قومى فى المسائل القومية (٢) .

(١) انظر سمايث « المثل الأعلى للجنتلمان » ١٩٠٨ .

(٢) قال لورد سالسبورى فى خطاب له ألقاه فى ١٠ من مارس ١٨٩٧ انه كثيرا ما فكر فى التناقض الغريب بين الطابع الفردى والجماعى وأعطى مثلا يسترمى الانتباه عن الطابع الانجليزى .

ويمكننا أن نعثر على أمثلة ذات مغزى فى مذكرات جنرال فون مولتكه ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني فى بداية الحرب العالمية الأولى (١) . فمذكراته اليومية وخطاباته لزوجته يبدو فيها رجلا ودودا طيب القلب يتحدث عن الحروب باستبشاع وعطف عميق على من يعانون ويلاتها . وتراوده الشكوك فى المسيحية لأن مذهب موت المسيح للتكفير عن آثام البشر ومذهب القضاء والقدر مما يبدو له قاسيا . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه كان له نصيب كبير فى إشعال نار الحرب وذهب الى أن الموقف كان موافيا تماما لألمانيا بحيث يجب استغلاله على أى الأحوال . ورفض أن يحترم حياد بلجيكا حتى اذا وعدت انجلترا بأن تظل على الحياد . وهذا التعدد فى المعايير الأخلاقية يبين فى جلاء لماذا يعد المفهوم الفردى عن الطابع القومى غير ملائم بالمرّة . فالناس قد يكونون مسالمين وإنسانيين فى شئونهم الخاصة ، واعتدائيين بلا رحمة فى المسائل القومية ، وبخاصة فيما يتصل منها بما يسمى بالمصلحة القومية والشرف القومى . وليس من الضرورى أن تكون المصالح الحقيقية والشرف الحقيقى هى ما تعتبره الأمم أمورا حيوية . فكثيرا جدا ما تعتبر من المسائل الخاصة بالشرف أشياء لا يمكن أن يعتبرها من لم يتشربوا الايديولوجية القومية التى تتعلق بها الأمر من الأشياء التى لها أية قيمة . فالايديولوجية القومية يمكن مقارنتها بمنظاريين ملونين أو مشوهين لا يستطيع خلعهما سوى أشخاص قلائل جدا فى الأمة .

ونمو طابعين فى الشخص الواحد لا يؤدى الى تعدد المعايير الأخلاقية لديه فحسب ، بل انه يؤثر حتى فى التفكير المنطقى ، فكثيرا ما يكون من المستحيل مناقشة قومى مؤمن لأنه لا يستطيع التفكير منطقيا اذا لم تكن النتائج متفقة مع مطالب الايديولوجية القومية . وذلك القدر الهائل من الكتابات التى أنتجها الأساتذة الألمان إبان الحرب دفاعا عن السياسة الألمانية يعطينا أمثلة تستحق الاهتمام تماما . فالطبقات المثقفة الألمانية ، وبخاصة كثير من الأساتذة ومدرسى المعاهد العليا ، صارت من دعاة فلسفة العنف التى يقوم عليها النظام العسكرى الألمانى . وقد أعلن واحد من أكبر الأساتذة الألمان ، وهو ديبواريمون ، فى حديث أكاديمى له بفخر أن الاساتذة الألمان هم « الفرقة العلمية المحاربة فى سبيل بيت هو هنزوللرن » . وليس هناك بلد ظهرت فيه مثل ذلك القدر الكبير من الكتابات عن الطابع القومى الذى ظهر فى ألمانيا ، وكان الهدف الرئيسى

(١) انظر هلموث فون مولتكه «Erinnerungen, Briefe, Dokumente»

لهذه الكتابات هو تمجيد الجنس الألماني وصوغ الطابع القومي في قالب اعتبر النمط الألماني الحقيقي . ففي عهد هتلر اكتشف نوع خاص من علوم الطبيعة والرياضة قيل عنه : ان الباحثين من غير ذوى الدم النوديريكي لا يستطيعون الوصول اليه . أما في الديموقراطيات الغربية حيث تحققت الدولة القومية قبل ألمانيا بكثير وحيث يتسم الشعور القومي بتوازن أكثر فان تكوين الطابع القومي بواسطة التعليم الاجبارى والخدمة العسكرية والسلطة العلمية لم يحظ بكل هذا المجهود الشامل . فالسعى نحو الأصالة القومية دفع القوميين الألمان الى نبذ قواعد السلوك التى تعتبر فى كل مكان آخر جوهرية للمدنية . فالنظام البرلماني والديموقراطية وحقوق الانسان والمسيحية تحترق جميعها لا لأنها تعارض الروح العسكرية فحسب ، بل لأنها اعتبرت كذلك أجنبية الأصل ومن ثم لا تتفق مع المثل العليا الألمانية الحقة . بيد أن هذا لم يمنع القوميين الألمان من تقليد بعض أساليب الفاشيين الإيطاليين والبلاشفة الروس .

وتجنح الايديولوجية القومية الى تجديد الطابع الخاص للأفراد ، وبخاصة فى البلاد التى يخضع فيها الفرد كلية للأمة . فحتى أكثر الأمور خصوصية التى يبدو لنا أنها لا علاقة بينها وبين الشرف القومي أو العظمة القومية ، مثل العلاقات بين الآباء والأبناء أو بين الرجل وزوجته ، تنظمها عندئذ الايديولوجية القومية . فالألماني فى عهد النازى لا يستطيع أن يتزوج المرأة التى يحبها اذا لم يكن لديها قدر كاف من « الدم الآرى » ، والأب لا يثق اذا كان ابنه لن يشى به للشرطة لعدم كفاية اخلاصه للزعيم . وقبل هتلر بزمان طويل أحدثت العسكرية البروسية تغييرا ضخما فى طابع الشعب الألماني بأكمله وفى صور السلوك لديه . وقد لاحظ نيتشه فى عصره أن طريقة جديدة مزعجة فى نطق اللغة الألمانية قد تسربت الى الأمة . وكان ذلك نتيجة للهجة شمال ألمانيا الحسنة الحادة التى يستخدمها الضابط البروسى عندما يصدر الأوامر الى رجاله والتى حلت محل النطق الرقيق السابق . فالنمساوى أو الألماني الجنوبى يعرف على الفور الشمالى الألماني بسبب لكنته ويجدها مزعجة . ومع ذلك فان كثيرا من ألمان الجنوب ايضا اصابتهم بالتدريج عدوى هذه الطريقة فى الحديث أكثر فأكثر ، وبخاصة وألك الذين حظوا بشرف العمل كضباط احتياطيين من بين الطبقات المتعلمة والحكومية .

ووظيفة الايديولوجية القومية هى ربط جميع الطبقات بعضها ببعض برباط وثيق وتوحيد عقلياتها وفرض نفوذ الطبقات التى تعد المركز

الرئيسى للايديولوجية القومية على السياسة أو تقوية هذا النفوذ . وفى كثير من الاحيان لا يمكن تحقيق هذه الأهداف بالدعوة لايديولوجية واحدة لجميع الطبقات . وقد انتجت العسكرية الالمانية والنزعة القومية الالمانية قبل الحرب الأخيرة عدة مجموعات من الأفكار لكسب تأييد جميع الطبقات للحرب . فكانت واحدة من هذه المجموعات للجماهير التى لا تميل الى الحروب العدوانية ، والغرض منها اثبات ان المانيا فى خطر دائم من الهجوم عليها بواسطة الانجليز والفرنسيين والروس الذين يريدون تحطيم ألمانيا ، ومن ثم فان التسليح الالمانى الضخم دفاعى بحت . وقد استخدمت كثيرا حجة أن بريطانيا تغار من تجارة الصادرات الالمانية وتريد القضاء عليها . وغرست ايديولوجية ثانية فى قطاعات الأمة الأخرى التى كانت أقل عزوفا عن الحرب ، مثل الطبقات الوسطى المتعلمة والطلبة والموظفين . وتذهب هذه الايديولوجية الى أن ألمانيا فى حاجة الى «متنفس» . فاذا لم يجد شبابها مراكز طبية يعملون فيها أو ساء حال التجارة فان ذلك انما يرجع الى جشع أنجلترا وفرنسا وضراوتها . فقد اقتسمتا العالم فيما بينهما ولم يتركا شيئا لألمانيا . ومن ثم فان الحرب لها ما يبررها لايجاد متنفس للوطن . وهناك ايديولوجية ثالثة خصصت للنخبة من القوميين المتحمسين الذين لا يعوزهم أى تبرير للحرب . وهى تمثل العلاقات الدولية باعتبارها صراعا لاهوادة فيه من أجل القسوة . فكل أمة كبرى تبوأ مركزها عن طريق القوة ، وقد جاء دور ألمانيا . ونوع رابع من الايديولوجيات للقوميين الذين بلغوا درجة أكبر من الثقافة . وتقوم على أن الأفكار الالمانية والانجليزية عن الدولة والمجتمع متعارضة تعارض النعيم والجحيم فالثقافة الالمانية مثالية والمدنية الانجليزية مادية . والأولى تهدف الى أعظم المثل العليا فى حين أن الثانية تهدف الى اشباع الغرائز الدنيا لدى الانسان . ومن ثم فان سيادة المانيا فى العالم تعنى انتصار المبادئ العليا على السفلى . وبرغم أن بعض العناصر المفردة فى كل من هذه الايديولوجيات المختلفة كثيرا ما تناقض بعضها البعض فان كثيرا من الناس كانوا يصدقونها جميعا . فللايديولوجيات القومية من القوة والسيطرة على العقول ما يجعلها تغفل عن هذه المتناقضات أو تتجاهلها عمدا ، تماما مثل المؤمنين بالانجيل الذين لا يززع ايمانهم بمذهبهم أى تناقض فيه .

(د) الايديولوجية القومية والعلاقات الدولية

تتكون الأفكار السائدة في الدول الديمقراطية المسالمة عن العلاقات الدولية طبقا للمعايير المعترف بها في السياسة الداخلية . فايديولوجياتها القومية تتضمن الاعتقاد بإمكان سيادة حكم القانون دوليا وقيام برلمان من الأمم والتخلص من الحرب بالتفاهم والتحكيم . أما الأمم العسكرية فانها على النقيض من ذلك تطبق وجهة نظرها في العلاقات الدولية ، التي تعتبرها حربا دائمة سافرة أو مستترة ، على السياسة الداخلية ايضا . ويعبر هذا الاتجاه عن نفسه حتى في اللغة . فموسوليني أبتكر شعار « معركة القمح » للحث على زيادة انتاج القمح ، وتحدث النازيون عن « جبهة الزيد » عند مناقشة اجراءات الحكومة لتنظيم انتاج الزيد . ومن الأمور التي اعتبرت منذ أمد طويل مبدأ في السياسة الخارجية أن الاختلاف في النظم الداخلية يجب الا يؤثر بأي حال في العلاقات بين الأمم . فاذا كان المقصود هو ان الأمم ذات الايديولوجيات المختلفة قد تستطيع أحيانا أن تتعاون تعاوناً مشمرا ، وأن التجاذب والتنافر الناشئين عن أوجه الشبه أو الاختلاف في النظم الداخلية يجب الا يكون عائقا ، فاننا نستطيع أن نوافق على ذلك ، ولكن الاعتراض الشامل على كل تفكير في السياسة الداخلية للأمم الأخرى عند تحديد السياسة الخارجية يؤدي الى كوارث . فهذا المبدأ كان صحيحا عندما كانت الاختلافات في الايديولوجية السياسية عند الأمم عديمة الأهمية نسبيا . ولكنه في عصرنا الحاضر بمثابة قرار بأن تغلق عيوننا وأذاننا عن الواقع ونتبع الأوهام . فالواقع ان كل اتفاق أو تعاون بين الأمم ذات الايديولوجيات القومية المختلفة تماما لا يوثق قط في ثباته اذ تتوقف فعالية كل اتفاق على تفسيره ، ويتوقف التفسير على الايديولوجية .

ان كل عظماء السياسيين أدركوا تماما أهمية أثر الشعور العام على السياسة . وقد قال لورد جراي مرة للسفير الألماني : انه لا سياسة ولا المصلحة هي التي تدفع الأمة الى الحرب ، بل الشعور . وقال سالسبورى في ١٨٩٧ : « اذا استطعت أن تحافظ على هدوء غير الرسميين فاني أعذك أن الرسميين لن يعلنوا الحرب قط . ففي عصرنا الحاضر من الجلي أن الحكومات المنظمة تفقد قوتها في حين يزداد الرأي العام قوة بوضوح . والحقيقة أن الرأي العام قوة كبرى . ولكن يحسن التمييز بين عاملين يدخلان عادة تحت نفس الاسم . فهناك أولا رصيد التقاليد الأصلية التي نمت مع مرور الزمن ولا تتغير بسهولة . وهذه أستطيع ان أسميها الروح

القومية • ففي انجلترا يعد التأكيد على الحرية والرفاهية الفردية باعتبارها الهدف الأسمى للدول من هذا النوع من التقاليد • وفي ألمانيا لقوة الدولة وسلطتها أولوية في الغالب على حقوق الفرد ومصالحه • وإلى جانب مثل هذه التقاليد نرى كثيرا من الحركات على سطح المحيط السياسي أستطيع أن أسميها الرأي العام • والرأي العام في أى بلد يتجه مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار • يكون أكثر ميلا إلى المسألة تارة وأكثر ميلا إلى روح القتال تارة أخرى ، وهكذا • ولكن الأساس ، وهو الروح القومية ، لا يتغير بسرعة • وبرغم أن رجال السياسة كانوا يدركون عادة أن عقل الشعب وتقاليد من العوامل الحاسمة في السياسة فانهم كثيرا ما اخطأوا في تقدير هذه القوى •

وقد ألقى جوزيف شميرلين في ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ خطبا مشهورا في ليشستر طالب فيه بتحالف ثلاثي جديد بين انجلترا وأمريكا وألمانيا ، وذكر من بين الحجج التي ساقها أن مثل هذا الحلف هو التحالف الطبيعي لأن الطابع السلالي لهذه الأمم الثلاث واحد تقريبا • وواضح أنه اعتقد أن الأمم التي من نفس الدم لها طابع سياسي واحد وأن ذلك يجعل التعاون سهلا • بيد أن هذا الرأي لم تؤيده الأحداث التالية • وقد ظل الدبلوماسيون الألمان والانجليز يتحدثون حول فكرة عقد حلف عدة سنوات ، وإن كانت المحادثات انقطعت مرات • ومنذ ذلك الوقت أخذ مؤرخون كثيرون يحللون تقاريرهم وحاولوا أن يحددوا أى الجانبين هو المسئول عن الفشل النهائي لهذه المفاوضات • وأعتقد أن ذلك كان محتوما لان كلا من الجانبين يقف فوق تقليد قومي لا يمكن التوفيق بينه وبين تقليد الآخر • وفي الوثائق البريطانية ينتهى الموضوع بخطاب يستعرض الموقف السابق من البارون هو لشتاين الذى كان في ذلك الوقت صاحب النفوذ المسيطر في وزارة الخارجية الألمانية • وقد استشهد هو لشتاين في خطابه بملاحظة ألقاها مؤخرا الرئيس روزفلت يلخص فيها أفكاره عن السياسة البريطانية • ويقول الرئيس روزفلت : « يبدو لي أنه يجب ان يحدث اصلاح جذرى في الطابع البريطانى اذا أرادت بريطانيا ان تستمر في الصف الاول وتحمل أعباء امبراطوريتها الكبيرة الواسعة الأرجاء » • ومن ثم فان زعماء الأمم الثلاث جميعا آمنوا بأهمية الطابع القومى فيما يتصل بالسياسة الخارجية • واعتقدوا أن تشابه الطابع ضرورى للتعاون الوثيق • ولكن شميرلين اعتقد ، أو تظاهر بالاعتقاد ، بأن الجنس المشترك ضمان للطابع المشترك ، وهو الأمر الذى اختلف فيه الزعيمان السياسيان الآخران معه بحق •

والأحلاف العابرة ضد خطر مشترك أو من أجل كسب مشترك
يمكن أن تنجح دون المشاركة فى الأيديولوجية ، ولكن التعاون الدائم
لا يمكن أن يتحقق بين أمم تشربت أفكارا مختلفة اختلافا كبيرا . ومن هذه
الناحية كانت المصاعب أقل قبل نمو القومية الحديثة . « فالحلف المقدس »
الذى تألف بعد سقوط نابليون كان يقوم على أيديولوجية مشتركة بين
الملوك المتحالفين . فقد كانوا جميعا يريدون المحافظة على النظام القائم
ومنع الحروب والثورات ، وأعلنوا عزمهم على اتباع مبادئ المسيحية فى
العلاقات الدولية ، وإن كان اخلاصهم فى هذا المجال موضع شك . وكان
« التعاهد الأوروبى » التالى يقوم أيضا على تشابه فى الأفكار . فقد كان
مؤلفا من عدد صغير من الدول الكبرى تختلف فى دساتيرها الداخلية
وأهدافها الخارجية ولكن بينها مع ذلك أشياء كثيرة مشتركة فيما يتصل
بالقانون غير المكتوب للاتصالات الدولية . فكان من المستطاع الاعتماد
بصفة عامة على حكامها وحكوماتها فى مراعاة المعاهدات والتعهدات ، إذ كانوا
يتصرفون عادة كرجال شرفاء لا كرجال عصابات وكانوا جميعا يرغبون فى
السلام ويميلون الى التعاون الاقتصادى والى قدر كبير من الحرية
الاقتصادية . وكان الخطر يكمن فى قوة النزعة القومية خارج الحكومات .
وبعد الحرب الكبرى أنشئت « عصبة الأمم » للتعاون الدولى ، ولكن تزايد
النزعة القومية وظهور البلشفية والفاشية أحبطا نمو الأيديولوجية
المشتركة التى بدونها يستحيل أن تقوم « العصبة » بأى نشاط مثمر .

الجنسية والأجناس^{نفس}

١ - أوجه الاختلاف والتقابل فى أفكار الجنس والأمة

ان « الأمة » تعبير من تعبيرات علم الاجتماع و « الجنس » من تعبيرات علم الطبيعة . ومن ثم فان المفهومين ينصبان على جانبين مختلفين من جوانب الوجود البشرى ، والباحث المعتنى لا يستعملها بدون تفرقة . بيد أن الفكرتين مرتبطتين ارتباطا وثيقا وكثيرا ما يستعملان بمعنى واحد لدى العامة . وواضح ان السبب هو أن معظم الناس يصعب عليهم تصور وحدة اجتماعية متماسكة دون رابطة طبيعية (فيزيقية) ، ولا يستطيعون التفكير فى عقلية مشتركة دون أن يكون الدم مشتركا . فالتضامن الوثيق أو الأخوة بين أعضاء الأمة تبدو لهم أنها تنطوى على قرابة حقيقية كالتى بين أفراد الأسرة . والواقع أن طبيعة وعى الجماعة شئ معقد جدا بحيث أنه حتى الملاحظ العلمى المدرب كثيرا ما يضل فى تفسيرها . وينطبق نفس الشئ على قوة التقاليد التى يتصور عادة العقل الذى لم يدرب على فهم حقيقة القوى التاريخية انها تمثل انتقالا بالوراثة .

ومعظم الناس يجهلون أن كل أمة تتكون من عناصر من أجناس مختلفة وأن تكوينها يتغير مع الزمن . فمن المؤكد أن هتلر ليس من نفس الأصل الذى أتى منه شارلمان ، وينبغى ألا نفسر حقيقة أن كلا منهما كان يسعى الى السيطرة على العالم على أنها دليل على الاتجاه المتأصل فى « جنس ألماني » لا وجود له . وإلى حد ما طبعاً توجد وحدة فى الجنس بين كثيرين من أعضاء الأمة الواحدة وبين أجيال مختلفة من الأمة . اذ لما



كان التزاوج بين الأفراد من نفس الجماعة القومية أكثر حدوثاً من الزواج بين الأفراد الذين ينتمون الى جماعات قومية مختلفة فانه لابد من وجود قدر معين من قرابة الدم داخل الأمة . ومن ثم فان هناك اتجاهها الى التوحيد فى الجنس فى كل أمة ، بيد أن هناك اتجاهات أخرى تعارضها وهى عزل الصفات السلالية الذى اكتشفه مندل والانفصال الاجتماعى بين قطاعات من الأمة وغزو الأجناس الأجنبية وهجرتها أو تسليها .

والاستعمال الشائع لا يضع حدا فاصلا بين الجنس والأمة . بل ان الكتاب المعروف الذى وضعه كراب عن المترادفات الانجليزية يقول : ان الأمة هى شعب يرتبط بالمولد ، ومن ثم فان الأمريكين والانجليز شعبان مختلفان لأن لهما حكومتين ولكنهما أمة واحدة لأنهما من أصل واحد . بيد أن قاموس أو كسفورد يشير الى الأصل المشترك باعتباره أحد العوامل التى تكون الأمة ، ثم يقول عن استعمال كلمة أمة أن الأمثلة التى هى أقدم عهدا كانت فيها فكرة الجنس عادة أقوى من فكرة السياسة ، فى حين أن فكرة الوحدة السياسية والاستقلال أقوى فى الاستعمال الحديث . والناس الذين يفكرون صاروا الآن يعزفون عن الخلط بين فكرتى الجنس والأمة لأن ذلك يبدو أنه يشجع العنصرية السياسية من النوع النازى . ومع ذلك فان كلمة جنس بمعنى الأمة لاتزال تستعمل كثيرا فى الخطابة السياسية دون جنوح عنصري . فعندما يريد رجال السياسة التأكيد على

فكرة الأمة كثيرا ما يتحدثون عن « الجنس البريطاني » مثلا ، وان لم يقصدوا بها معنى عنصريا مطلقا (١) . ويدل على ذلك أن كلمة جنس تنطوي على ارتباطات ذات قيمة عاطفية كبيرة .

٢ - الشعور القومي والشعور العنصري

وعلى أى الأحوال فان البحث فى الشعور القومى يتطلب البحث فى الشعور العنصرى أيضا . اذ يوجد بين المفهومين كثير من أوجه التقابل ، وليس من السهل فصلهما أحيانا . والتمييز بينهما نظريا سهل طبعا . فالشعور العنصرى يتألف من الاعتقاد بوجود اختلاف طبيعى عميق لا يتغير بالتربية والتماثل ، فى حين أن الشعور القومى يفترض مجرد الاختلاف التاريخى والاجتماعى الذى يمكن المجتمع أن يغيره . بيد أنه يبدو أن قليلين من الناس لديهم أية فكرة واضحة عن هذا الفرق عمليا . فالأغلبية العظمى لا تدرك عنه شيئا وتفسر الاختلافات القومية باستمرار على أنها اختلافات عنصرية . بل ان قوة العنصرية كبيرة لدرجة أن المتعلمين علما عاليا الذين يعرفون هذا الفرق وينبذون المذاهب العنصرية كثيرا ما ينزلون دون وعى فى المشاعر العنصرية والتفكير العنصرى . وبالمثل قد يعارض الناس باخلاص الكراهية الطبقية ، ومع ذلك فانهم فى بعض الحالات العملية يظهرون عوارض التحيز الطبقي هم أنفسهم .

والعجرفة العنصرية والنفور والتحيز العنصرى أشد عنفا وتعصبا من المشاعر القومية المقابلة . فالنفور القومى يخفف من حدته ويقيده عادة الاعتراف بنوع من المشاركة فى المعايير الثقافية والأخلاقية بين الأمم المتنافسة . وكقاعدة عامة لا ينكر أن هناك شيئا طيبا أو بعض الحق لدى الجانب الآخر - والأفراد الذين ينتمون الى أقلية قومية ويأخذون جنسية الأمة الحاكمة يكونون موضع ترحيب ويتمتعون بمعاملة وحقوق متساوية . بيد أن هذا لا يحدث اذا كان لون الجلد مختلفا أو اذا وصمت الأقلية بأنها من عنصر أدنى نتيجة للدعاية والايديولوجية العنصرية . ففي الاضطهادات السابقة التى تعرض لها اليهود كان اليهودى الذى يعتنق المسيحية وينبذ بذلك عاداته ولغته وعزله السابقة ، والتى تؤلف شبه جنسية ، ينجو من الاضطهاد بعد ذلك . ولكن فى ظل حكم النازى

(١) والشئ الذى يؤسف له أكثر من ذلك أن كلمة عنصر استعملت بمعنى أمة فى معاهدات السلام فى ١٩١٩ . وقد فسرت إحدى الحكومات المساواة هذا التعبير الزوج لاغراض ضد اليهود كانت متناقضة تماما للمقصود بمعاهدات السلام .

لا يؤدي ذلك الى أى فرق فى المعاملة ، لأن الخصائص اليهودية تعتبر سمات عنصرية لا يمكن أن تمحى .

ويجنح الازدراء العنصرى الى انكار أن هناك أى شىء مشترك بين العنصر المحترق والآخرين ويحط من قدره كما لو كان نوعا من الماشية أو يأنف منه كما لو كان من الحيوانات الضارة التى تشمئز منها النفس .

والاعتقاد العنيف لدى شخص ما بتفوق عنصرا من المذاهب التى تجنح لأن تصير نوعا من التسلط العقلى . فالتمييز العنصرى قد يبدأ ضد العنصر الأسود ، ثم يمتد الى العنصر الأصفر ، ثم الى الأوربيين من أهل الجنوب أو الشرق واليهود ، وأخيرا تتوتر العلاقات بين العناصر البيضاء فى البلد . والعنصرية اذا لم تقيد بشدة تشجع على نمو الظلم وعدم الانسانية والتعصب بصفة عامة . وسرعان ما تلوث الجو كله وتسمم جميع العلاقات . فالعنصر المسيطر يعتبر أن الشرف يقتضى الاصرار بشدة على الامتيازات العنصرية وتوسيع نطاقها ، وكل اقتراح بالتفاهم يوصف بأنه خيانة قومية . ويصير العنصر المضطهد فى حالة توتر شديد يشك فى كل ملاحظة على أنها اهانة ويتصور اعتداء حتى عندما لا يكون هناك اعتداء . ومن ثم فان الصراعات القومية تصير غير قابلة للحل عندما تأخذ طابع العداء العنصرى .

ونقاط الخلاف الرئيسية فى الصراعات العنصرية هى : (١) حق التزاوج . فالجنس المتميز كثيرا ما يوضع قيودا قانونية أو اجتماعية تحرم التزاوج مع الجنس « الأدنى » . وانكار حق الزواج المختلط قد ينشأ أيضا عن أسباب دينية أو طائفية أو بسبب المركز أكثر مما يقوم على أسس عنصرية . (٢) فرصة عادلة للارتقاء الاجتماعى . وعدم المساواة فى فرض الحصول على العمل المجزى والتعليم الأعلى والوصول الى مركز اجتماعى أفضل والحصول على نصيب فى الحقوق السياسية لا يثير بالضرورة العداء العنصرى . ولكن اذا كان الجنس المسيطر يحتفظ لنفسه بجميع المراكز الطيبة والتعليم المتقدم كله والنفوذ السياسى بأكمله ، واذا كان الجنس المضطهد قد حكم عليه بأن يعيش فى ظروف تعسفة الى الأبد بدون أمل فى التحسين ، يكون من العسير ألا تعتبر هذه المعاملة احتقارا عنصريا . (٣) امكان الاتصال الاجتماعى . وحتى داخل الأمة الواحدة لا يوجد اتصال اجتماعى كثير بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا . ولكن عدم وجود أى اتصال اجتماعى بين الطبقات المتقابلة فى الأجناس المختلفة لابد أن يثير التذمر العنصرى ويؤدي الى نفور كامل بين المعسكرين .

والتنافس القومى بين شعبين يعيشان جنباً الى جنب كثيراً ما يزيد حدة بسبب الاختلاف فى الثراء والتربية والنفوذ السياسى وعدم وجود فرص للاتصال الاجتماعى وللفهم المتبادل والتماثل . وفى مثل هذه الظروف يجنح كل جانب الى العزلة وتجنب أى اتصال بالجانب الآخر . ويصبح الأمر متوقفاً على مدى الاحساس بالفرقة وعلى الذكريات التاريخية ليتحول الى عدااء عنصرى . وإذا بلغ هذه النقطة يصير من المستحيل تسوية النزاع مطلقاً . وحتى اذا وجد حل عادل ومعقول فانه لا يقبل عندئذ ، لأن المشاعر العنصرية تراكت أكثر مما ينبغى ويصير التذمر من الأخطاء الماضية وعدم الثقة فى حسن نية الطرف الآخر والعوامل النفسية الأخرى حاجزاً لا سبيل الى التغلب عليه (١) .

والتحالف الحديث بين النزعة القومية والعنصرية له أثر غريب فى الحيلولة دون تحقيق الأهداف الأساسية للتطلعات القومية . فالشعور القومى يسعى الى وحدة قومية وتضامن وثيقين ، ولا يتفق هذا مع الفوارق الحادة التى تقوم على المرتبة ولا مع نظام الطائفية الوراثة داخل الأمة . بالإضافة الى أنه يجنح الى توسيع نفوذ الأمة وهيبتها ، أما عن طريق نشر المدنية القومية سلمياً أو ، فى مرحلة النزعة القومية ، بالغزو وبارغام الشعوب المغلوبة على التماثل بالقوة . ولكن العنصرية تعرقل هذه الاتجاهات الى التوسع والتماثل . فالجنس الأدنى لا يمكن ارغامه على التماثل ، وكل ما يمكن حياله هو استئصاله أو ارغامه على الخضوع بالقوة . فضلاً على أن مذهب الدم النبيل المتأصل فى العنصرية يؤدى الى إقامة حواجز طائفية داخل الشعب الذى تسيطر عليه أيديولوجية العنصرية وبذلك يعمل على تدمير الوحدة والتضامن القوميين .

٣ - الأصل الاجتماعى للشعور العنصرى وأثره فى الجنسية

كان المجتمع البدائى يقوم الى حد كبير على جماعات تربطها رابطة الدم الحقيقية أو المفترضة ، ولم يكن للشعور القومى أو العنصرى أى دور كرباط

(١) من الواضح أن الإيرلنديين لا يستطيعوا أن ينسوا أن الانجليز عاملوهم فى مرحلة حرجة بازدراء عنصرى ، وذهبت كل جهود السياسة البريطانية بعد ذلك فى مداواة الجرح أدراج الرياح . وقد أشار بيرك الى أن فئات الشعب المختلفة فى ايرلندا كانت منفصلة عن بعضها كما لو كانت أنواعاً مختلفة من المخلوقات لا أمماً مختلفة فحسب . وقال شيفترفيلد فى ١٧٦٤ أن الفقراء فى ايرلندا كانوا يعاملون أسوأ من المعاملة التى يلقيها الزنوج من سادتهم . ج . مورلى «بيرك» ١٩٠٢ ص ٣٥ .

للجماعة • ويبدو أن العزلة أو النفور من الأجانب كان ينبثق في الغالب على أساس من الدين أو السحر • وليس هناك دليل على أن النفور العنصري غريزة طبيعية برغم أن نفور الجماعة من الأجانب أو الدخلاء قد يكون له أصل غريزي • والظاهر أن الشعور العنصري انبثق الى حد كبير من الاختلافات والنزاعات الاجتماعية • ويمكن تتبعه في حالات كثيرة الى ظهور طبقات قوية اعتبرت نفسها ، واعتبرها الآخرون ، ذات دم نبيل ولها الحق في مركز ممتاز ينطوي على العزلة كطائفة • وفي الهند نما نظام الطوائف بطريقة فريدة • فقد كان أصله انعزال الغزاة عن الشعب المغلوب ، وانعزال الجماعات الوظيفية والمهنية العليا عن الجماعات الدنيا وكان دعائمها الرئيسيتان هما هبة طبقة البراهما ، التي عزيت اليها قوى سحرية وقديسية وراثية ، وقوة طبقة المحاربين • وأدى نمو روح الطائفة وانتشارها الى تكوين طوائف لا عدد لها يفصل بينها الانعزال الاجتماعي والازدراء المتبادل • وهذا النظام هو المسئول أساسا عن أن الهند خضعت لسيطرة الغزاة الأجانب طوال الجزء الأكبر من تاريخها • ويقول أحد الدارسين الفرنسيين ، هو أ • سينار ، عن ظروف الهند السابقة : « لا يكاد يكون للشعور القومي وجود على الإطلاق ، فالحياة مركزة في حيز ضيق بكثير • إذ أن وحدة الطائفة أو القبيلة قوية في التضامن والتقاليد الى حد يسد جميع الحاجات • وهذا المجتمع هو الوطن الحقيقي » (١) •

وفي أوروبا في العصور الوسطى كانت الروح القبلية والغزو يثيران عداوات وتحيزات مبررة • وكان الفرسان المحاربون يؤلفون مراتب متميزة تصير عادة وراثية «ومقفولة» على نفسها • ومع ذلك فإن الغربيين لم تصر لديهم طوائف حقيقية • وكانت العداوات التقليدية العنيفة تتخذ أحيانا طابع العداة العنصرى • فقد كان الفرسان الألمان مثلا ينظرون الى السلافيين الملحدين كما لو كانوا مجرد بهائم ويجدون متعة في قتلهم كما لو كانوا يصطادون خنازير برية أو أيائل • وأدت بداية الدول القومية والصراعات القومية الى بعض الظواهر المبكرة لما يكاد يكون حقدا عنصريا (٢) • بيسد أن المرتبة الاجتماعية بصفة عامة كانت أهم من

(١) أنظر اميل سينار «الطوائف في الهند» ١٩٣٠ ص ١٦ •

(٢) طوال العصور الوسطى كان الفرنسيون والاسكتلنديون في كراهيتهم القومية للانجليز يجدون لذة في ترديد قصة أن الانجليز لهم ذبول مثل الحيوانات ، كما صدقت هذه القصة في بلاد أخرى أيضا • وكانت تحكى في بعض أجزاء إنجلترا عن الاجزاء الأخرى ، وفي القرن التاسع عشر سمع بيرنج جاولد من مربيته التي كانت من أهل ديفونشاير أن جميع أهل كورنويل يولدون بلبول ، وظل يصدق =

الجنس . فالفرسان الألمان أو الفرنسيون أو الانجليز كانوا يعتبرون الفرسان العرب الذين قابلوهم في الحروب الصليبية أندادا . ولم يعترضوا على الزواج المختلط بين نبلاء من ألوان مختلفة (١) ، ولكنهم كانوا كقاعدة عامة يعتبرون من الحطة بقدرهم أن يتزوجوا شخصا من مرتبة أدنى حتى اذا كان من نفس الجنس . وكان النبلاء في جميع أنحاء أوروبا يعتقدون أنهم ينحدرون من أصول مختلفة عن أصول أقنانهم . فأساطير الفروسية ترجع أصل النبلاء الى محاربى طروادة الذين هربوا الى الغرب بعد سقوط طروادة . ومن الجلى أن السبب في مثل هذه الأساطير هو اقامة صلة مع الرومان المشهورين الذين ادعوا أولا أنهم من أصل طروادى (٢) . وأرجع أصل الأقنان الى حام الذى لعنه نوح لمروقه وحكم عليه بالعبودية الى الأبد ، ومع ذلك فان فكرة الأصل المشترك للجنس البشرى كله التى يعلمها الانجيل والمذهب المسيحى الخاص بأن الناس كلهم اخوة والجهود السياسية للكنيسة والملكية والنمو الاقتصادى قللت من ألوان التفاوت فى المرتبة الاجتماعية وبذلك مهدت السبيل لقيام الأمم . وسبقت انجلترا جميع الشعوب فى هذه العملية ، ويرجع السبب الرئيسى فى أنها كونت جنسية قوية موحدة فى وقت مبكر الى أن الفوارق الطبقيّة الوراثية كانت أقل بروزا مما هى فى بلاد القارة . فالقانون العام فى البلاد لم يتضمن أية امتيازات مهمة متصلة بالمولد بين الأحرار ، كما أن نظام الأقنان اختفى قبل اختفائه فى القارة بقرون . أما فى ألمانيا فان الطبقات العليا

= ذلك الى أن قابل أحدهم وسأله فى الموضوع . انظر جورج نيلسون ١٨٩٦ . وهذا مثل نموذجى لأثر النفور القومى .

وقد كانت هناك شعوب محتقرة مثل « الاجناس الحزينة » الغامضة فى فرنسا والتى كانت تعامل مثل المنبوذين أو المتشردين ، وإن لم يكن هناك من يعرف السبب فى ذلك . انظر فرانسييسك ميشيل « تاريخ الاجناس الحزينة » ١٨٤٧ . وفى ألمانيا فى العصور الوسطى كانت هناك بعض الحرف ، الريفية فى الغالب ، تعتبر مرذولة مثل الطحانين والرعاة والحلاقين الجراحين والصبّاغين والحواة والنساجين ، ولعل ذلك يرجع الى ما تتسم به هذه الحرف من طابع ذليل ، ولم يكن يسمح لاصحابها أو لابنائهم بدخول الطوائف الحرفية . انظر هـ . ما شر «Das deutsche Gewerbewesen» ١٨٦٦ ص ٧٤ و أ . اوتو «Das deutsche Handwerk» ١٩٠٠ ص ٤٣ .

(١) فى القرن الثالث عشر اقترح بيز دوبروا أن تتزوج النساء الفرنسيات المثقات أمراء شرقيين لتحويلهم الى المسيحية والى مذهب الزواج بوحدة فقط ولتمهيد السبيل لسيطرة فرنسا على الشرق .

(٢) كان جيوفرى مونماوث أحد المصادر الرئيسية لهذه الاسطورة ، بيد أنها توجد فى السجلات المعروفة باسم «فريديجار» فى القرن السابع الميلادى .

تشربت على نطاق واسع باعتزاز غير عادى بالمرتبة الاجتماعية ونظرت الى الطبقات الدنيا باحتقار .

ويتسم التاريخ الألماني الى حد ما بعداوة حادة بصورة غير عادية بين المراتب الاجتماعية والطبقات ، وكان ذلك من العقبات الرئيسية فى سبيل التضامن القومى والوعى القومى . وكان نفس الاتجاه يوجد فى فرنسا ، وان كانت بعض العوامل المضادة قد وقفت ضده .

وفى أسبانيا أدى الصراع الطويل بين المسيحيين والمسلمين الى تمجيد الفضائل الحربية والى مذهب « الدم النقى » ، أى النقى من الاختلاط بدماء المغاربة واليهود . وقد تشربت الأمة الاسبانية بعد انتصارها باعتقاد أن الخدمة فى الجيش هى وحدها المهنة الشريفة ، فى حين احتقرت التجارة والصناعة والزراعة التى كانت فى يد الكفرة واليهود . ويقول أحد الدارسين الانجليز : « بلغ الحماس من أجل نقاء الدم فى القرن السادس عشر مستويات نازية وصارت الشهادات التى تصدرها محاكم التفتيش من المتطلبات الأولى لائى عمل طموح (١) » . وأخيرا طرد المغاربة واليهود، وكان لهذا الانتصار العنصرى وما صاحبه من ازدهار لمعظم ألوان النشاط الاقتصادى وعقلية حربية بصفة عامة أثر كبير فى انهيار قوة اسبانيا ورخائها .

والأصل الاجتماعى للتحيز العنصرى واضح أيضا فيما يتصل بالعلاقات بين الأوروبيين والأجناس الملونة . وكثيرا ما لوحظ أن الأمم الأوروبية تختلف فى موقفها من الشعوب الملونة . ويعتقد الأستاذ توينبى أن الأمم الجرمانية والبروتستانتية أظهرت تحيزا أكثر من الأمم اللاتينية والكاثوليكية ، وهو يرجع ذلك الى تأثير « العهد القديم » الذى كان له تقدير خاص عند البروتستانت والذى يحث « الشعب المختار » على استئصال الكفرة الذين يسكنون أرض الميعاد (٢) . وقد يكون لذلك بعض الأثر فى مناسبات بذاتها ، ولكنه بالتأكيد ليس السبب الرئيسى . فضلا عن أن ملحوظة توينبى فى حاجة الى تحديدات معينة . ففي الجانب الكاثوليكي كان الاسبان ذوى وعى عنصرى شديد ضد المغاربة واليهود ، ولكن ذلك يرجع الى صراعمهم الطويل مع المسلمين لامتلاك اسبانيا والى عقليتهم الحربية التى نظرت الى العمل فى التجارة والصناعة باحتقار .

(١) انظر د . تريفور ديفيز « القرن الذهبى فى أسبانيا » ١٩٣٧ ص ١٦

(٢) انظر أ . توينبى « دراسة فى التاريخ » المجلد الاول ص ٢١١ .

وبين البروتستانت كان الهولنديون متسامحين عنصريا تجاه الشعوب الملونة فى مستعمراتهم . وكثير من العائلات الهولندية الارستقراطية فيها نساء ملونات بين أجدادها . وبصفة عامة صحيح أن الشعوب الكاثوليكية كانت أقل جنوحا الى التحيز العنصرى من البروتستانت . وكانت الكنيسة الكاثوليكية رائدة فى أعمال التبشير بين الأهالى والعمل على حمايتهم ورفعهم . وجاء البروتستانتيون بعدها ، ولكنهم قاموا أيضا بأعمال طيبة . وفى عصرنا الحاضر تقف الكنيسة الكاثوليكية ضد التحيز العنصرى بثبات أكثر من أى مجتمع بروتستانتي . وفى حين أن البروتستانتين لديهم كنائس منفصلة للبيض والملونين ترفض الكنيسة الكاثوليكية هذا الانفصال . ويقول أحد الخبراء البروتستانت البارزين ، هوستر أولد هام سكرتير « المجلس التبشيرى الدولى » : « ان الكنيسة الكاثوليكية كانت فى هذا الموضوع أقرب الى جوهر المسيحية من الهيئات البروتستانتية » . وفى ألمانيا أظهر رجال الكنيسة الكاثوليكية والزعماء الكاثوليك الآخرون الى حد كبير شجاعة فائقة فى التنديد بشرور العنصرية ونظام النازى ، فى حين يبدو أن الكنائس البروتستانتية كانت أقل مقاومة للهتلرية ، باستثناءات قليلة بارزة . ويعزو الأستاذ هانزكون أصل العنصرية والنزعة القومية ، بخاصة فى ألمانيا ، الى أن البروتستانت فصلوا الدين عن السياسة (٢) . فالمذهب الدينى الحقيقى يتطلب ولاء المرء كاملا غير منقوص . ولكن الفصل الذى دعا اليه لوثر ترك تسوية كل المسائل غير الدينية للدولة ، الأمر الذى أدى الى نمو مذهب القوة والنزعة القومية . ولا شك فى أن هذه النظرية تفسر أحد جذور النزعة القومية ولكنها لا تنطبق على حالة العنصرية وتتجاهل واقعة أن كالفن لم يشارك لوثر فى اتجاهه . بل ان الكالفنية جنحت الى اخضاع الدولة للكنيسة واخضاع الحياة بأكملها لوصايا الدين . ويبدو أن السبب الحقيقى فى الاختلاف بين موقف الكنيستين من التحيز العنصرى هو أن الكنيسة الكاثوليكية ظلت نظاما فوق القوميات يتمتع فيه القس بطابع قدسى وسلطة متدرجة مستقلة عن المجتمع ، فى حين أن الكنائس البروتستانتية صارت قومية ، وأما خضعت للحكومة أو لمجالس أبرشيات ، وبذلك اعتمدت الى حد يزيد أو ينقص على رأى العام ، ومن ثم صارت عرضة لعدوى التحيزات السائدة .

ومما يدل على أنه لا العهد القديم ولا أى عامل دينى آخر كان

(١) انظر . هـ . أولد هام « المسيحية ومشكلة الاجناس » ١٩٢٤ ص ٢٦٣ .

(٢) هانزكون « النزعة القومية فى الاتحاد السوفيتى » ١٩٣٣ ص ١٢٣ .

السبب فى خلق التحيز العنصرى أن التحيز كان أضعف بكثير ، أو غير موجود أصلاً ، فى الأزمنة السابقة عندما كان الدين أقوى بكثير . فحتى الهولنديون فى جنوب افريقيا ، الذين يختلفون عن الهولنديين فى هولندا أو فى جزر الهند الغربية فيما يتصل بموقفهم من « اللون » البشرى ، لم يكن لديهم فيما مضى اعتراض قانونى على الزواج من النساء الملونات (١) . وينطبق نفس الشيء على التجار الانجليز فى الهند والبلاد الأخرى التى يعيش فيها سكان ملونون . ففى أيام الرحلات البحرية الطويلة الحطرة حول رأس الرجاء الصالح كان النساء البيض قليلات فى المناطق الحارة ، وكان الأوروبيون أكثر اتصالاً بالطبقات العليا من الأهالى مما كان عليه الحال بعد ذلك . ومما له مغزى أنه فى القرن الثامن عشر لعب الزوج والأفراد الملونون الآخرون من ذوى الثقافة والكفاءة دوراً لأمعا فى بلاط مختلف الدول الأوروبية وكانوا يعاملون معاملة الأنداد وتزوجوا سيدات من سلالة ذوى المراتب (٢) . وقد كانت الارستقراطية فى كثير من الأحيان أقل تحيزاً بكثير فى مسائل اللون منها فى المسائل المتصلة بالبورجوازية والعمال بعد ذلك . فالامتيازات الارستقراطية لم تتعرض للخطر بالاعتراف ببعض الأفراد ، كما أن كثيراً من ارستقراطيين عصر « الاستنارة » كانوا أقل تشرباً بروح الأنانية التافهة مما هو الحال فى عصرنا .

ويرجع ظهور التحيز العنصرى الى الرق الى حد كبير . فاستخدام الزوج بصورة متزايدة كعبيد فى المزارع جعل البيض يتعودون النظر الى الرجل الأسود كمجرد دابة من دواب الحمل . وكان الانجليز هم أكبر تجار العبيد فى العالم ، ومن ثم فإنهم اكتسبوا أيضاً هذه العقلية . وفيما بعد أكدت المسيحية والروح الانسانية نفسها فى انجلترا أكثر من أى بلد آخر وأحرزت أكبر انتصار أخلاقى بتحرير العبيد . بيد أن هذا الاتجاه

(١) فيما يتصل بالظروف السابقة فى جنوب افريقيا انظر ج. هوج «Zeitschrift für Rassenkunde» ١٩٣٨ . وفيما يتصل بجزر الهند الهولندية انظر رودنوالد «Archiv für Rassen-und Gesellschafts» ١٩٣٠ و ١٩٣٨ .
(٢) فى عهد القيصر بيتر الاول سعد زنجى الى مركز جنرال فى المدفعية . وكان الشاعر الكبير بوشكين حفيده . وفى بلاط لويس السادس عشر كان الفارس الخلاسى دى سان جورج يتمتع بالحظوة بسبب مواهبه الكثيرة وكان أيضاً صديقاً شخصياً لأمير ويلز الذى صار جورج الرابع فيما بعد . وفى فينا كان الزنجى المثقف انجلو سليمان موضع تقدير كبير بين الطبقة العليا . ويصف شكسبير عطيل بأنه زنجى من افريقيا ، ولكنه كان يعامل باحترام كبير من جانب الارستقراطية فى البندقية .

عارضته عدة اتجاهات أخرى جديدة • فاختراع السفن التجارية وشق قناة السويس سهلا الرحلة الى الهند وزادا من عدد النساء البيض هناك وجعلا من الممكن تكوين مجتمع أبيض صار مغلقا فى وجه الهنود أكثر فاكثروا • وفى أمريكا الشمالية وبلاد الدومينيون أدى ظهور قوة العمال البيض والطبقة الوسطى الدنيا الى اتخاذ اجراءات مشددة ضد هجرة العمال الملونين الذين اعتبروا منافسين خطرين • وفى محاولة لتبرير الدوافع الأنانية التى دعت الى هذه السياسة عمل دعايتها على تغطيتها بادعاء أنها دفاع ضرورى عن المدنية البيضاء ضد همجية السود والصفرة وانحطاطهم الأخلاقى (١) •

ومن ثم فلا ريب فى أن التحيز العنصرى يرجع أساسا الى أسباب اجتماعية واقتصادية • فهو جزئيا عقلية الطبقة الحاكمة التى تحتقر العمل اليدوى وتحاول الاحتفاظ بالرق عمليا بالقول بأن الجنس الأدنى انما جعل بالطبيعة لخدمة الجنس المتفوق • وجزئيا هو أنانية من العمال والتجار البيض الذين يريدون احتكار كل المراكز الطيبة لأنفسهم ومن ثم يرفضون الاعتراف بحق الأجناس الملونة فى المساواة أو المعاملة العادلة • وكثيرا ما يكون هذا الموقف ضارا بالمصالح الاقتصادية والقومية للبيض أنفسهم •

كما يثبت الأصل الاجتماعى للتحيز العنصرى أن الشعوب التى لم تكن عبيدا قط والتى أظهرت روحا حربية ، مثل الهنود الحمر وأهالى استراليا الأصليين ، لا ينظر اليهم البيض باحتقار • فالأمريكيون الشماليون الذين يشمئزون حتى من أقل اختلاط بالدم الأفريقى يعتبرون ان وجود عنصر من الدم الهندى فى الشخص لا يحط من قدره ، بل يرون فيه ارسقاطية •

٤ - ظهور الأيدولوجية العنصرية الحديثة (٢)

ان تكوين الأمة الحديثة يتوقف على التغلب على الانقسامات

(١) ان بعض الظروف المعينة التى لا مجال لمناقشتها هنا قد تبرر طبعا تحديد الهجرة • بل انه قد يكون من الافضل تحديد دخول بعض الجنسيات طبقا لنظام الحصص ولكن التحريم الكامل لهجرة جماعات عنصرية كبيرة لا يمكن تبريره ، ومن الجلى انه نتيجة للنفور العنصرى •

(٢) انظر كونت دى بولانففيه «تاريخ الحكم القديم فى فرنسا» ثلاثة مجلدات

الاجتماعية التي تقوم على « الدم الأفضل » . اذ لا يمكن أن توجد وحدة قومية حقيقية بين أشخاص يحرم عليهم القانون التزاوج أو الاختلاط الاجتماعى ، أو حيشا لا تكون هناك أية فرصة للمراتب الدنيا فى الترقى . ومع ذلك فإن الاتجاه نحو المساواة فى المركز الاجتماعى قوبل دائما بمقاومة سافرة أو مستترة . ففى القرن الثامن عشر تقدم المدافعون عن طبقة النبلاء الفرنسية برأى مؤداه أن النبلاء انحدروا من نسل الغزاة الفرنك وأن العامة من نسل الرومان والغاليين المهزومين ، وحاولوا أن يجعلوا من هذا الرأى حجة لدعواهم فى أن يكونوا فى مركز الحكم . وكانت هذه نقطة البداية فى جدل طويل حول الأصل العنصرى للبنساء الاجتماعى وأثره فى التاريخ والسياسة الفرنسية . وقد اشترك فى هذا الجدل أشهر المؤرخين الفرنسيين وزعماء السياسيين والكتاب وعرضت عدة نظريات مختلفة (١) . وقد أثار الادعاء بأن الطبقات العليا تنتمى الى جنس اسمى من الدنيا معارضة عنيفة وساعد كثيرا على تسميم العلاقات الطبقيّة وعرض التضامن القومى للخطر . والحقيقة أن الاختلاف فى أجناس الطبقات كان قد محى تماما بالاختلاط إبان العصور الوسطى ، ولكن الاختلاف فى التقاليد بقى وأدى الى عداوة حادة بين عقليات النبلاء والطبقة الوسطى جعلت التطور القومى فى فرنسا مختلفا كل الاختلاف عنه فى إنجلترا . وبعد ثورة ١٨٤٨ تناول كونت دى جوبينو حجة الأرستقراطيين القديمة وصاغها صياغة حديثة بأن جعل النبلاء والعناصر المنتجة ثقافيا فى الأمة من الآريين والتيتوتون (٢) . وقد اعترف أنه يهدف بهذه النظرية الى تقويض التحررية ولما كان من المعجبين بالفيودالية فإنه كره بصفة خاصة فكرة «الوطن» التى أطلق عليها «مخلوق فظيع من ابتكار الساميين» وصار جوبينو الرائد الأول للعنصرية الحديثة (٢) ، ودخل هذا المذهب

(١) جمع أوجستين تيرى هذه المناقشات وبحثها فى كتابه « مذكرات من عهد المورانيين » و « تأملات فى تاريخ فرنسا » ، وكذلك عرضها أرنست سير فى مقدمة كتابه « كونت دى جوبينو » . وقد تناول جاك بارزان مؤخرا هذا الموضوع فى كتابه « الجنس الفرنسى ، أصوله ودلالاتها الاجتماعية والسياسية قبل الثورة » ١٩٣٢ .
(٢) انظر أرنست سير « كونت دى جوبينو والآرية التاريخية » ١٩٠٣ ، وفريترز فردريك « دراسة عن جوبينو » ١٩٠٦ ، ول. شيمان «جوبينو» .

(٣) بيد أن دزرائيلى عرض أفكارا عنصرية قبل جوبينو ، وإن كان ذلك فى الغالب على لسان شخصيات فى قصصه . وقد حاول كارل كونه اثبات أن جوبينو أخذ فكرته عن دزرائيلى ، ولكن يبدو لى أنه ليس هناك دليل كاف على ذلك . انظر كونه فى « Archiv fur Rassen-und Gesellschaftsbiologie » ١٩٢٦ . وهناك =

ألمانيا عن طريق صداقته بريشارد فاجنر ووجد فيها أنصارا كثيرين .
ولم يلق جوبينو في فرنسا نفسها نجاحا وظل منسيا مدة طويلة الى أن
« لفتت » اليه الأنظار شعبيته في ألمانيا .

فقد دعا فاشيه دي لا بوج وبعض الكتاب الآخرين الى نظرية أن
الطبقات العليا لديها قدر من الدم النورديكي النبيل أكبر مما لدى العامة .
ولكن النقايد القومية الفرنسية تشربت بعمق بروح المساواة وحقوق
الانسان ولم تكن تربة صالحة للعنصرية .

وفي ألمانيا انحسر نفوذ جوبينو بنفوذ هوستون ستيوارت
شمبرلين (١) الذي كان أحد تلامذة ريتشارد فاجنر المتحمسين وتزوج
ابنته . وكان من أصل انجليزى ولكنه صار فيما بعد من دعاة الجرمانية
المتعصبين ويكره انجلترا . وكان الامبراطور وليم الثانى من أصدقائه
المتحمسين وساعد كثيرا فى نشر آرائه فى ألمانيا (٢) . وفى شيخوخته
رحب شمبرلين بهتلر واعتبره مخلص ألمانيا . والواقع أن عنصرية هتلر
ليست سوى مذهب شمبرلين وقد صيغ ليلائم الجماهير .

وقد استخدم هتلر مذهبه العنصرى ، كما فعل السابقون عليه من
دعاة الجرمانية ، فى أغراض ضد الديمقراطية وسياسة عدوانية . فقد
اعتبر الجنس النورديكي أو الجرمانى النخبة الممتازة فى الجنس البشرى
وأنه لا بد أن يحكم الأجناس التى هى أدنى ويستغلها . ولم يستطع طبعاً
حتى دعاة العنصرية الألمان أن يقولوا : ان ألمان اليوم من دم نورديكي نقي .
فقد أثبت العلم أن جميع الأمم مكونة من خليط من الأجناس المختلفة . ولكن
دعاة العنصرية ذهبوا الى ان العنصر النورديكي فى الأمة هو العنصر الوحيد
الحلاق حقيقة ، وأن قيمة الأمة وحققها فى مكان تحت الشمس يتوقفان على
نصيبها من الدم النورديكي . بيد أنه لا يوجد ما يثبت أن النبوغ وقف

= رواد آخرون للعنصرية الحديثة ذكرهم ل. شيمان فى
«Die Rasse in den Geisteswissenschaften»
٣ مجلدات ١٩٢٨ - ١٩٣٠ . و ث . بيديرجى Geschichte des Germanenforshung
مجلدان ١٩٢١ .

(١) انظر أ . سبير ه . «سانت شمبرلين» ١٩٢٨ ، وفردريك هرتز «الجنس والمدنية»
١٩٢٨ . ويتضمن كتابى نقدا تفصيليا لمذاهب العنصرية والمذهب شمبرلين بصفة خاصة .
(٢) تدل الوثائق الدبلوماسية الألمانية والمذكرات الخاصة بفترة وليم الثانى على أن
القصر كانت تحدوه تحيزات عنصرية قوية ضد الروس والسلافيين الآخرين واليابانيين
والصينيين ، وحتى الأمم اللاتينية . بيد أن عمه الملك ادوارد السابع أعلن أن اليابانيين
لا يختلفون عن بقية الناس إلا فى لون الجلد .

على أى جنس بذاته • فجوته وبيتهوفن عبقرىا المدنية الألمانية ليسا
بالتأكيد من النمط النورديكى • فكلاهما كان شديد السمرة وكثير من
سماتهما الجثمانية يبدو أنها تدل على أنهما ليسا من أصل تيوتونى •
وأكبر شعراء الروس : بوشكين ، حفيد زنجى ، ودوستويفسكى
وتولستوى وجوركى فيهم سمات منغولية واضحة • وقد كان اسكندر
ديماس وابنه ، وكلاهما مؤلف مشهور ، فرنسيين نموذجيين برغم أنهما
كانا من المولدين • بيد أن أبرز حجة تدحض التفسير العنصرى للطابع
القومى تظهر من مقارنة المثل العليا الانجليزية والألمانية • فالشعبان
بالتأكيد متقاربان جدا فى الجنس ، وان لم يكن جسهما واحدا تماما •
ومع ذلك فان نمو الأمتين فيما يتعلق بالأيديولوجية السياسية والفلسفة
والتقاليد الأدبية وروح اللغة مختلف اختلافا بينا •

٥ - الأصل الاجتماعى للمذاهب العنصرية الألمانية : العنصرية المناهضة للسامية :

ان ما أحرزته العنصرية من نجاح غير عادى فى ألمانيا مهدت له
السبيل التقاليد القومية • ففى قسم كبير من ألمانيا كانت طبقة المحاربين
دائما هى العنصر الأقوى • ففى بروسيا جعل فردريك الثانى «اليونكرز»
طائفة متميزة تماما صارت تقريبا جنسا عسكريا حاكما يحتقر كل الطبقات
الأخرى • ومنح بسمارك العسكرية البروسية السيطرة على ألمانيا وجعلها
قومية بأن حصل على تأييد البورجوازية وجزء كبير من الطبقة الوسطى
البروتستانتية بانتصاراته وبإنشاء امبراطورية قوية • وكان المذهب
الألمانى الحديث الخاص بتفوق الجنس النورديكى موجها فى أول الأمر ضد
الطبقات الدنيا من الشعب الألمانى نفسه أكثر مما كان موجها ضد الأمم
الأخرى أو اليهود • فدعاة العنصرية الألمان القدامى مثل ج • كلم
وأوتامون كانوا مهتمين أساسا باثبات أن الطبقات الدنيا فى ألمانيا أقل
نبلا فى أصولها من الطبقات الحاكمة • وجعل مذهبهم الفئات العليا آرية
والدنيا منغولية لكى يبرروا سيطرة الطبقات العليا على الدنيا •

ومن السمات التى تميزت بها العنصرية الألمانية الحالية الخط من
قدر ما يسمى بالجنس اليهودى الى أقصى حد • وقد كان الشعور المناهض
ليهود قويا فى عهود كثيرة وعند شعوب كثيرة وانبثق من عدة دوافع •
ولكن ما يهمنا هنا هو مناهضة السامية • لقد وجد علماء

الانثروبولوجيا أن اليهود ليسوا جنسا متجانسا بل هم خليط من عناصر مختلفة الاجناس يماثلون فى الغالب الاجناس التى يتألف منها أهل جنوب وشرق أوروبا مع خليط من الدم النورديكى والشرقى . ولسنا فى حاجة هنا الى مناقشة آراء النازيين فى عقلية الجنس اليهودى ومعاملتهم لليهود والرد على ادعاءاتهم . بيد أن فكرة أن نجاح اليهود فى التجارة يرجع الى اتجاهات سلالية متأصلة ليست مقتصرة على النازى أو على ألمانيا وحدها بل منتشرة جدا فى بلاد أخرى أيضا . والحقيقة أن التقدم الاقتصادى لليهود فى القرن التاسع عشر يرجع الى ظروف تاريخية واجتماعية ولا علاقة له بالجنس . فمن الاسباب الكبرى انتشار اليهود نتيجة للاضطهادات ، وقد أتاح لهم هذا الانتشار تجاربا واتصالات عديدة على نطاق دولى ومعرفة باللغات والاسواق . وفى فترة النمو الرأسمالى جعل ذلك فى وسع اليهود أن يصيروا الى حد كبير الوسطاء الاقتصاديين والمالين والثقافيين بين الامم المختلفة . وكان نجاحهم كبيرا بصفة خاصة فى البلاد التى لا تزال الطبقات الحاكمة فيها متشربة بالفيودالية والروح الحربية وتنظر الى التجارة على انها عمل فيه حطة لقدرها ، ولم تكن قد نمت بعد طبقة وسطى تجارية ، كما كان الحال فى أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوروبا . فالنبلاء فى هذه البلاد كثيرا ما تركوا أمر بيع محصولاتهم الزراعية والتنمية الصناعية لضياعمهم فى أيدي اليهود ، وكثيرا ما كانوا يحمونهم أيضا من عداء الطبقة الوسطى الوليدة . وهكذا أتيحت لكثير من اليهود فرص استثنائية لتكوين ثروات . بيد أن أبناءهم وأحفادهم سرعان ما حاولوا هجر عالم التجارة والانضمام الى المهن القانونية أو الطبية أو أن يصيروا كتابا أو علماء أو موظفين حكوميين . وكقاعدة عامة لم يظهر الجيل الثالث للعائلات اليهودية الثرية اهتماما كبيرا أو قدرة فى مجال التجارة بل ظهر بينهم كثير من المثقفين ، وهذا وحده يقضى على التفسير العنصرى للنجاح الاقتصادى لدى اليهود .

وقد أشرنا من قبل الى الظروف التى مهدت السبيل للعنصرية فى ألمانيا فقد استغل هتلر غرائز الغوغاء ، الكائنة فى قطاعات كبيرة من الطبقات المختلفة ، التى تحسد اليهود لثرائهم وأرادوا سرقتهم أو التخلص منهم كمنافسين . بالإضافة الى أن الانجازات غير العادية التى قام بها عدد كبير من الباحثين والعلماء والمحامين والمؤلفين والموسيقين والفنانين والمنظمين الاقتصاديين والمالين اليهود يرغم أن العالم يضيفها الى حساب الالمان فانها تثير نفورا عنيفا لدى منافسيهم من الالمان الذين رأوا أن اليهود قد تفوقوا عليهم . كما ان هتلر أراد كبش فداء عالمى تلقى عليه مسئولية

جميع الشرور الاجتماعية وهزيمة الحرب الاخيرة . فالالمان لما كانوا من دم نبيل لا يمكن أن تلقى عليهم المسئولية الاولى دون تناقض مع الاساس الذى تقوم عليه العنصرية . ومن ثم كان اليهود هدفا سهلا فى متناول اليد ليكون رمزا لقوى الشر وهدفا ينصب عليه الغضب الشعبى (١) . بيد أن السبب الرئيسى لتعصب هتلر ضد اليهود هو أن عددا كبيرا من اليهود الالمان كانوا عصب المعارضة لسياسة الاعتداء بلا رحمة ضد الامم الاخرى . فكثير من اليهود الالمان كانوا وطنيين متحمسين، بل كان بعضهم من دعاة القومية ، كما كان كثيرون منهم بلا اهتمامات سياسية . ولكن لا ريب فى أن أغلبية المثقفين ورجال الاعمال اليهود كانوا يجذبون بشدة سياسة من التوفيق والتعاون الدوليين بما يتفق وتقاليدهم ومصالحهم . وكان عدد كبير منهم من أنشط دعاة هذه السياسة وكان لهم ، كمحررين وصحفيين وكتاب ، نفوذ كبير على الرأى العام . ومن ثم فإن تصرف هتلر كان منطقيا تماما عندما قرر سحق اليهود واستئصالهم لتمهيد السبيل لغزو العالم .

وبرغم ان هتلر أطلق على حركته اسم « حزب العمال الاشتراكي الوطنى » فانه من الجلى أن هذا النداء الموجه الى المشاعر الديمقراطية والاشتراكية كان مجرد ستار لسياسة تقوم على حكم القلة البسحت . فهتلر نفسه فى كتابه « كفاحى » لم يخف ازدراءه للجماهير . وحتى التعليق الرسمى للبرنامج النازى يتضمن بالاضافة الى ذلك ملاحظتين شديدتى الازدراء عن « الخليط العنصرى التعس » الذى يتألف منه الرجل الالمانى العادى . والغرض الحقيقى لسياسة النازى هو اقامة حكم أكثر العناصر عنفا وقسوة على الاغلبية الساحقة بحجة أنها ذات دم نورديكى متفوق . أما الجماهير فتظل فى حالة خضوع بواسطة أيديولوجية أفاكة وتخدير مستمر من ناحية ، وبواسطة نظام من التجسس والارهاب لم يعرف له مثيل من ناحية أخرى . وينسى الشعب الالماني عبوديته عن طريق الاحساس بالفخر بالانتماء الى أنبل الاجناس فى الارض .

٦ - العنصرية فى بريطانيا

كان التحيز العنصرى والقومى منتشرا فى انجلترا أيضا . ففى

(١) لقد ظل موسولبنى سنوات يسخر بالعنصرية المناهضة للسامية ، ولكنه اكتشف مؤخرا فائدة هذا الابتكار فاستخدمه فى أغراضه . وقد لوحظ ان اليابانيين كانوا يشكون بمرارة من أنه لا يوجد لديهم يهود يمكن استخدامهم كبش فداء .

العصور الوسطى وبعدها لاحظ كثير من الزوار الأجانب لانجلترا الكراهية والازدراء اللذين يبديهما الشعب الانجليزى للغرباء ، فى حين كان الفرنسيون مشهورا لهم عادة بالود نحو الأجانب (١) . وكان معظم هذا الشعور راجعا اما الى المنافسة التجارية أو الغيرة من العمال الاجانب . ولكن من الجلى أن السبب الرئيسى كان النمو المبكر والانتشار الواسع للاعتزاز القومى الذى كثيرا ما كان يقرب من العجرفة العنصرية . وعندما هوجم وليم الثالث من خصومه الانجليز بسبب أصله الأجنبى وبطانته الاجنبية كتب دانييل ديفو كتابه الممتاز « الانجليزى المولد الحق » الذى سخر فيه من الاعتزاز والعداء العنصريين ، وأشعار الى مدى اختلاط الاجناس فى الشعب الانجليزى . وبصفة عامة كان العداء نحو الغرباء اقوى ما يكون لدى الطبقات الدنيا . فعندما تقدمت الحكومة فى ١٧٥٣ بمشروع قانون يسهل التجنس على اليهود الأجانب وأيده الأساقفة ووافق عليه البرلمان حدث انفجار شديد فى انفعالات الغوغاء بحيث سرعان ما أُلغى القانون (٢) .

وفى القرن التاسع عشر أثار سجل بريطانيا ، بوصفها محررة العبيد وصديقة الحرية والسلام فى العالم كله ورائدة الاصلاح الاجتماعى الاعجاب العام . وأيا كان ما يمكن أن يقال عن الجانب الآخر لهذه الصورة فلا نزاع فى أن بريطانيا أسهمت بنصيب ضخم فى تقديم المساواة العنصرية والاجتماعية فى جميع أنحاء الكرة الارضية . فلم تكن مركز تجارة العالم فحسب ، بل كانت كذلك مركز اهتمام نشط بالاجناس المضطهدة ومساعدتها وحركات السلام العالمى . فكل أجنبى على استعداد لأن يقوم بعمل مفيد أو يبحث عن ملجأ من الاضطهاد كان يجد ترحيبا . وهناك وقائع كثيرة تثبت اتساع الافق فى المسائل العنصرية لدى قطاعات كبيرة من الشعب . فقد انتخبت عدة دوائر انتخابية انجليزية ممثلين هنودا عنها فى مجلس العموم ، من بينهم الوطنى الهندى المشهور داد ابهاى ناروجى . كما أن أشخاصا من أصل يهودى شغلوا مناصب رياسة

(١) انظر كثيرا من الاحكام على الزوار الاجانب فى كتاب د . ايرنبوج «Hamburg und England in Zeitalter de Königen Elisabeth» ص ١٥ - ١٦ ، ومالكولم لتسى « كما رأنا الاجانب » ١٩٣٥ ص ٢٨ ، و ٤٩ و ٥١ . وانظر أيضا روبرت ميشلز «Der Patriotismus» ١٩٢٩ ص ١٢١ و «Ethos» ١٩٣٥ المجلد الثانى ١٩٧ . وبولوير ليتون « انجلترا والانجليز » ١٨٨٣ - (طبعة ١٨٧٤ ص ٣٧) .
(٢) انظر جيرالد هرتز « الامبريالية البريطانية فى القرن الثامن عشر » ١٩٠٨ .

الوزارة والوزارة ونائب الملك في الهند والحاكم العام لأستراليا فضلا على كثير من المراكز الكبيرة الأخرى .

وكان التحيز القومي أيضا منتشرًا طبعًا ، ولكنه نادرا ما عبر عن نفسه بالصورة العنيفة التي يعبر عنها في بعض بلاد القسارة ، إلا في وقت الحرب . وقد ظهر التحيز العنصري أيضا في بعض الأوقات . ومما هو جدير بالاهتمام أن الذين عيروا دزرائيلي بأنه يهودي واكتشفوا أن سياسته ليست انجليزية بل « شرقية » (١) كانوا من الأحرار البارزين . والحقيقة أن مبادئ دزرائيلي السياسية هي نفس مبادئ بولنجبروك وبرك وقد كيفها لتلائم وقته ، كما أن سياسته الخارجية كانت استمرارا لسياسة بالمرستون باستثناء أن دزرائيلي كان أقل ميلا بكثير للتدخل فيما لا يعنيه ولم يشجع الحركات الثورية في الخارج . وتأكيده للطابع القومي والشرف القومي وسياسته الخارجية البراقة كانت بالتأكيد من النوع الذي يشيد به القوميون المعتدلون في كل البلاد باعتباره « قويا حقيقيا » . ومع ذلك فواقعة أنه من « دم » مختلف كان لها أثر أكبر بكثير عند خصومه من العلاقة الروحية بين موقفه السياسي والتقاليد القومية الانجليزية .

وقد كان أكثر ظهور التحيز العنصري تجاه الأيرلنديين . فقد أعلن كثير من الكتاب والسياسيين أن الأيرلنديين غير صالحين لأن يحكموا أنفسهم بسبب دمائهم السلطانية (٢) . وبصفة خاصة أظهر كارلايل وتلامذته ميولا عنصرية . ومع ذلك فإن المذاهب العنصرية لم تجد بصفة عامة تشجيعا كبيرا من جانب الساسة والدارسين الانجليز ، كما نبذها كبار المفكرين مثل ج . س . ميل وأ . ت . بكل و ت . ه . هكسلي نبذا تاما .

وقد ظهرت مؤخرا صوره معتدلة من العنصرية عرضها عالم النفس المعروف الأستاذ وليم مكديوجال . فقد تقدم بنظرية مؤداها أن الاتجاه الى الاستنتاج المنطقي لدى المفكرين الفرنسيين والى الاستقراء التجريبي لدى

(١) هناك أمثلة لذلك في دائرة المعارف البريطانية في مادة « مناهضة السامية » بقلم ل . وولف . كما يقول أحد المؤرخين الممتازين ، هو . ه . دوسون ، في كتابه « الامبراطورية الألمانية وحركة الوحدة » ١٩١٩ المجلد الثاني ص ١٢٠ « انه يهودي تماما ، وهو رجل عجيب يمثل صفات جنسه ونقائصه في نفس الوقت - لقد كان دزرائيلي شرقيا خالصا وحاول أن يصنع الفكر السياسي الانجليزي بالصبغة الشرقية » .

(٢) هناك أمثلة عديدة ونقد في كتاب جون ماكينون ووبرتسون « الساكنون والملت » ١٨٩٧ .

الانجليز لهما جذورهما فى الجنس ، وان كانت التقاليد قد ضاعفت هذه الاختلافات ورادتها حدة (١) . والواقع ان المرء يستطيع أن يلاحظ مثل هذه الاتجاهات ، ولكن معرفة التاريخ تدل على أنها لم تكن موجودة منذ البداية ولم تكن سمة مميزة لمدينة الأمتين كلها كما يبنى على التفسير العنصرى للطابع القومى . ففى ميدان العلوم السياسية مثلا يبدو أن التعارض بين روسو وبيرك يؤيد وجهة نظر مكدوجال (٢) . ولكن ذلك لا يتفق مع عدد كبير جدا من الوقائع الأخرى .

فأكبر المفكرين السياسيين الفرنسيين ، مثل بودان وهوثمان ومنتسكيو وفولتير وكونت وتوكفيل ، ينتمون الى المدرسة التاريخية التجريبية ، فى حين أن فلاسفة سياسيين انجليز مثل هوبز ولوك وبنثام وأوستن وكثيرين غيرهم بدا فى تفكيرهم النمط المجرد من التفكير السياسى .

ومن الخطأ أن نفترض أن المعتقدات العنصرية لم يكن لها أى أثر فى بريطانيا . ويقول أوكسميث (٣) انه لا يوجد كاتب بريطانى بارز واحد حاول الدفاع عن النظريات العنصرية ، ومع ذلك فانها تسربت الى كثير من الكتابات والسياسة فى بريطانيا . وحتى اذا لم تكن موضع تأكيد صريح فانه يعترف بها ضمنا ويستخلص منها نتائج مهمة . بالاضافة الى أنه برغم أن الحكومة والبرلمان والصحافة المسئولة تتجنب التفرقة العنصرية ، بل وتهاجمها أحيانا ، فمن المؤكد أنه يوجد قدر من العنصرية الاجتماعية يصعب تحديد مداه . وقد كانت هناك شكاوى كثيرة من أنه حتى الهنود ، وهم انجليز تماما فى اللغة والتربية والعادات ، رفضتهم بعض الفنادق ومنازل الإقامة فى لندن . والملاقات الاجتماعية بين الأجناس المختلفة أهمية خاصة طبعا فى الامبراطورية .

(١) انظر و . مكدوجال « العقل الجماعى » ١٩٢١ ص ١١٢ - والواقع أن المدينة الفرنسية ، مثل مدينة كل أمة أخرى ، يظهر فيها تنوع كبير جدا فى الأنماط بحيث لا يمكن تلخيصه فى صيغة مختصرة . انظر مثلا أ . جيرارد « المدينة الفرنسية من بدايتها الى نهاية العصور الوسطى » ١٩٢٠ ص ٥٨ . ويعبر مكدوجال عن آراء عنصرية أيضا فى كتابه « هل أمريكا مكان أمين للديمقراطية ؟ » ١٩٢١ (نشر فى انجلترا بعنوان « الرفاهة القومية والانقياد القومى ») . بيد أنه ينبذ المذاهب المتطرفة فى هذا المجال .

(٢) وحتى روسو لم يكن مفكرا مجردا فقط . ففى قسم كبير من كتاباته يبدو تفكيره تجريبيا وبهتم اهتماما كبيرا بالظروف التاريخية والاختلافات القومية . انظر ك. أ. فوجهان « الكتابات السياسية لروسو » ١٩١٥ المجلد الاول ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٢ .

(٣) جون أوكسميث « الجنس والجنسية » ١٩١٩ ص ٣٩ .

٧ - العنصرية خارج أوروبا

لفت بعض الخبراء البريطانيين ممن لهم وزن كبير الأنظار الى أن قطاعات معينة من البريطانيين في الهند اتخذوا من الهنود موقف الاستعلاء الذى خلق انطبعا بالعجرفة العنصرية وزاد الى حد كبير جدا من حدة التوتر بين الأجناس (١) . ومما لا ريب فيه أن تعميم مثل هذه الملاحظات خطأ . فقد أثبت عدد من البريطانيين فى الهند بما قاموا به من أعمال طوال حياتهم صداقتهم المخلصة للشعب الهندى واعجابهم به ، وكرسوا جهودهم بصفة خاصة لتشجيع المساواة . وقد بذلت حكومة الهند جهدها لمحاربة هذه الاتجاهات . ومع ذلك فإن بعض الوقائع الأساسية للحكم البريطانى فى الهند والقوانين غير المكتوبة « للمجتمع الراقى » يبدو أنها عرقلت جهود الخبراء والسياسيين ذوى النظر البعيد . وقد كان من الأسباب الرئيسية التى حالت دون قيام اتصال اجتماعى ودى أكثر بين الجنسين ذلك العدد الصغير من البريطانيين المقيمين فى الهند ، والعدد الأصغر من البريطانيين الذين اعتبروا الهند موطناً دائماً . بالإضافة الى بعض تقاليد الحياة الاجتماعية والنوادر التى حرم دخولها على الهنود من ناحية البريطانيين ، وقواعد الطائفية وابعاد النساء من ناحية الهنود . وأياً كان الأمر فإن هذا المثل يبين سهولة إثارة الريبة فى العجرفة العنصرية. إذا لم يكن هناك اتصال وثيق وعلى نطاق واسع بين جنسين يعيشان فى اقليم واحد . ولا يتطلب التباعد العنصرى حتى مجرد اختلاف حقيقى فى الجنس . فهناك أمثلة عديدة من أوروبا وأمريكا وأفريقيا يمكن الاستشهاد بها على أن الجنسيات التى تنتمى الى نفس الجنس وتعيش فى نفس البلد لا يكاد يكون فيها أى اتصال اجتماعى . فأبنائهم يعيشون جنباً الى جنب كما لو كانوا يعيشون فى عالمين مختلفين ، وهذا يفسر الى حد كبير جداً لماذا لا يوجد بينهم تفاهم أو تعاطف ، بل وكثيراً ما يكون بينهم قدر غريب من سوء النية والفرقة .

(١) انظر ما قرره بعض الخبراء فى و . هانكوك « عرض لشنون الكومنولث البريطانى » المجلد الاول ، و « مشاكل الجنسية » ١٩٣٧ ص ١٧١ ، وسيوج . سستر وج . وينت « الهند والديمقراطية » ١٩٤١ ص ٦٣ ، و ك . اندروز و ج . موكرجى « ظهور المؤتمر فى الهند ونموه » ١٩٣٨ ص ٨١ ، و ك . كريشنا « مشكلة الاقليات » ١٩٣٩ ص ٤٢ ، وس . زيمان « الهند الحية » ١٩٢٨ ص ١٨٧ ، ٢١٢ .

لقد قامت الادارة البريطانية فى المستعمرات ، يدفعها المبشرون والرأى العام المتحرر ، بمجهود يستحق الاعجاب لدعم رفاهة الشعوب المتخلفة وفتح الطريق نحو المساواة العنصرية . ولكن مع ذلك فحيثما وجد أى عدد كبير من البيض المستوطنين وكانت بيدهم سلطة سياسية أنكر على الشعوب الملونة عادة أية مساواة . (١)

ومما هو جدير بالاهتمام أن نقارن بين روح الادارة البريطانية والادارة الفرنسية فى المستعمرات فى افريقيا والأجزاء الأخرى من العالم (٢) . فالفرنسيون يحاولون أن يجعلوا الافريقيين فرنسيين فى اللغة والمدنية ويحولهم الى جزء من الأمة الفرنسية سياسيا . وينطوى ذلك على الاعتراف الكامل بالمساواة وعلى أن يكون الحكم مركزيا . والواقع أن الرجل الأسود فى المستعمرات الفرنسية القديمة لديه حق الانتخاب وله ممثل فى البرلمان فى باريس . أما فى المستعمرات الأخرى فلا يحصل على حق الانتخاب من الأهالى الا من تتوفر فيه اشتراطات معينة . وقد شغل الزوج مناصب كنواب فى البرلمان ووكلاء لوزارة المستعمرات وحكام للمستعمرات وكبار موظفين وقواد برين وبحرين . وفى المستعمرات يعيش البيض والسود جنودا وموظفين وعمالا وطلبة وأطفالا ويعملون جنبا الى جنب على أساس من التفاهم والمساواة الكاملين . وهناك عائلات سوداء كثيرة فرنسية فى اللغة والاتجاه فعلا . فضلا على أنه توجد مدارس للقبائل التى هى أكثر بدائية يتعلم فيها الافريقيون لينموا فى أطهرهم الخاصة .

أما النظام الانجليزى فلا يهدف الى جعل الأهالى بريطانيين تماما . فهو يمنحهم اما تربيته انجليزية أو تدريبا لمهام الحياة المحلية ، ويستخدم الى حد كبير نظام الحكم غير المباشر الذى يبقى فيه الأهالى تحت حكم

(١) يوجد عرض مختصر وطيب جدا للتفرقة العنصرية فى أنحاء مختلفة فى العالم فى كتاب ج . أوكسميث « المسيحية ومشكلة الاجناس » ١٩٢٤ ص ١٥٩ .

(٢) هناك ثلاثة كتب مفيدة جدا وضعتها مجموعات دراسية تحت اشراف « المعهد الملكى للشئون الدولية » هى : « مشكلة المستعمرات » ١٩٣٧ ص ٥٨ و ١١٤ و ١١٧ و ١٢١ ، و « الامبراطورية البريطانية » ، « الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية » وهناك مقارنة بين النظام الفرنسى والبريطانى فى التربية فى افريقيا فى كتاب بقلم و . بريانت و ح . أورد بروان « الافريقيون يتعلمون أن يصيروا فرنسيين » .

زعمائهم ولكن تحت السيطرة البريطانية . وهناك مجال أوسع للاستقلال المحلى فى النظام الانجليزى مما فى النظام المركزى الفرنسى . ويبدو أن الطريقة البريطانية تؤدى على المدى الطويل الى الاستقلال القومى للافريقيين . ولا توجد قيود قانونية على الزواج المختلط أو الاتصال الاجتماعى ، ولكن العلاقات محددة بحكم العادات . ولم يقبل الجيش البريطانى أو الأسطول رجالا من السود للخدمة جنبا الى جنب مع البيض وان كان يبدو أن هناك تغييرات فى هذا المجال الآن . وفى الامبراطورية الهولندية لا توجد قيود على أساس اللون ، فأهل جاوة يتمتعون بالحقوق السياسية وباستقلال ذاتى كبير . ومن نتائج الادارة الهولندية أن شعوبا عديدة مختلفة اللغات والعادات تكتسب شعورا بالوحدة شيئا فشيئا وقد ينتهى الأمر بتأليف أمة واحدة ، قد تقوم على أساس فدرالى .

أما فى الممتلكات البريطانية « الدومينيون » فان العداء نحو الأجناس الملونة سافر . ودعااته الرئيسيون هم البوير فى جنوب افريقيا . ولكن هناك قطاعات من السكان الانجليز ، وبخاصة الفلاحين والعمال ، تشاركهم فى اتجاههم . ووجهة النظر التقليدية لدى البوير هى اعتبار الأهالى أقتانا لديهم ، وان كانوا يعاملون أحيانا كما لو كانوا فى رعاية البوير . ويؤلف الأهالى ثلاثة أرباع سكان جنوبى افريقيا و ٧٤ فى المائة من العمال الزراعيين و ٨٩ فى المائة من المعدنين و ٦٠ فى المائة من العمال الصناعيين (١) . ومع ذلك فان سيطرة البوير فى اتحاد جنوبى افريقيا والموقف الجديد للعمال البيض ينكر عليهم حقوقهم المدنية والسياسية الأساسية ، بل أنه استباح حقوقا كان الملونون يتمتعون بها منذ أجيال . فمدارس الأهالى غير صالحة وأجورهم وصحتهم ومستوى معيشتهم منخفضة جدا ، ومن ثم فان انتاجهم منخفض جدا أيضا . بالإضافة الى أن فرض مبدأ عدم المساواة العنصرية له أثر سيئ فى اخلاق العمال البيض الذين يعتبرون العمل الشاق حاطا بأقدارهم ويصرون على الحصول

(١) أكثر الكتب فائدة فى هذا الموضوع هى : « مشاكل اللون فى جنوب افريقيا » ١٩٣٤ تأليف ادجار بروكس ، وكتاب الفرد هورنليه « السياسة المتبعة تجاه الأهالى فى جنوب افريقيا والروح التحررية » ١٩٣٩ ، ومؤلف « بلوغ سن الرشيد ، دراسات فى المواطنة والسياسة فى جنوب افريقيا » بقلم عدة كتاب مختلفين ، ١٩٣٠ ، وبخاصة الفصل الخاص بالبيض الفقراء والأهالى من ١٢٩ ، وكتاب ج . كالين « ليس هناك جنوب افريقيون » ١٩٤١ ص ١٧١ .

على عمل من أعمال ذوى « الياقات البيضاء » فى الحكومة . فضلا عن أن النقابات أقامت « حاجزون » جعل جميع الأعمال ذات الأجور الطيبة وقعا على العمال البيض فعلا (١) . وقد شجعت الظروف السائدة فى اتحاد جنوبى افريقيا المستوطنين البيض فى أجزاء أخرى من افريقيا على الضغط لمعاملة الأهالى بصورة مماثلة . بيد أنه يجب أن نذكر أن كثيرا من البريطانيين والهولنديين فى جنوبى افريقيا من ذوى المراكز الكبيرة يحاربون التفرقة العنصرية العادة ويحاولون تحسين الوضع الاجتماعى للأفريقيين السود وظروف معيشتهم .

وتؤثر العنصرية أيضا فى الهنود الذين استوطن عدد كبير منهم فى جنوبى افريقيا منذ أجيال . فالتنمية الاقتصادية جلبت أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين من الهند عاشوا وعملوا فى ظروف شبه عبودية . وقد بلغ التذمر فى الهند حدا كبيرا بحيث أوقفت الهجرة فى النهاية الى افريقيا الجنوبية . ومن ناحية أخرى أراد المستوطنون فى جنوبى افريقيا منع الهنود من الإقامة هناك ومن الترقى الى مراكز أفضل ومن ثم اتبعوا ضدّهم سياسة من التفرقة العنصرية أثارت غضبا شديدا فى الهند واحتجت الحكومة الهندية ، وبعد نزاع طويل استقر الأمر على حل وسط فى ١٩٢٧ (٢) . ومع ذلك فحتى الآن ليس للهنود المولودين فى جنوبى افريقيا والذين لديهم المواطنة - حق الانتخاب ، وكذلك لا يسمح لهم فعلا بدخول الجامعات والمدارس التى يؤمها البيض (٣) . وقد كانت السياسة العنصرية فى

(١) هناك كتاب عن تاريخ حياة جنرال سمطس فيه تفسير لهذا التغير فى اتجاه النقابات بأن الحركة العمالية فى جنوب افريقيا كانت قبل الحرب تحت نفوذ زعماء بريطانيين وتقاليد بريطانية ، ومن ثم لم تشجع سياسة الاضطهاد العنصرى . ولكن فى أثناء الحرب ذهب معظم الانجليز الى ميادين القتال وحل محلهم شبان من البوير الذين سرعان ما طالبوا باخضاع العمال السود اخضاعا كاملا . انظر س . ج . ميلين «جنرال سمطس» المجلد الثانى ص ٣٤٧ .

(٢) هانوك « الهند والمساواة العنصرية » فى مؤلفه الممتاز « عرض لشئون الكومنولث البريطانى » ص ١٦٦ .

(٣) وهناك أماكن مخصصة للبيض وحدهم فى مكاتب البريد وعربات « ترام » خاصة للأهالى ، ولا يسمح لهم بدخول الفنادق ولا عربات الاكل فى القطارات فى معظم الحالات ، ولا يوجه اليهم الحديث بلقب « سيد » أو « سيدة » وهكذا . والصينيون الذين ينتمون الى أمة حليفة يعاملون معاملة الأهالى الوطنيين فى جنوب افريقيا ، فى حين أن اليابانيين ، الذين ينتمون الى أمة معادية يعتبرون بيضا .

جنوبى افريقيا دافعا قويا على ظهور النزعة القومية الهندية . فقد اعتنق غاندى سياسة عدم التعاون بسبب تجاربه فى جنوب افريقيا . وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تحمل جنوب افريقيا على تجنب الألفاظ التى تغضب الهنود ، ولكنها لم تحقق نتائج جدية فى المسائل الأساسية حيث أن أى ضغط يثير رد فعل عنيف فى الدومينيون .

ولم تذهب ممتلكات التاج الأخرى « الدومينيون » الى الحد الذى ذهب اليه جنوب افريقيا فى التفرقة العنصرية ، وبصفة عامة لم تثر سياستها فى هذا المجال نفس التذمر فى الهند . ولكن فيما يتعلق بالهجرة اتخذت كلها كثيرا من الاجراءات المباشرة وغير المباشرة لابعاد الآسيويين (١) . بالإضافة الى أن القيود تشدد بصورة متزايدة وصارت تطبق على شعوب أكثر فأكثر ، حتى الأوروبية . وقد ذكر الاستاذ بيلي ، من جامعة ملبورن ، ان الفكرة فى مبدأ الأمر كانت جعل استراليا مركزا أماميا للمدينة البيضاء . وبعد الحرب العالمية الكبرى ووصول أعداد كبيرة من شعوب جنوبى شرق أوربا ضاق المفهوم وصار هو جعل استراليا مركزا أماميا للجنس البريطانى . ثم ضاق المفهوم أكثر من ذلك وصارت استراليا للاستراليين .

بيد أن هناك حالة غريبة هى عدم وجود تحيز عنصرى ضد أهالى البلاد الأصليين « الماوورى » فى نيوزيلاندا (٢) . فهؤلاء الأهالى يؤلفون ٥ر في المائة من السكان ولا يوجد « حاجزون » بالمعنى الموجود فى استراليا أو جنوبى افريقيا . وكثير من العائلات البيضاء التى استوطنت من مدة طويلة تفخر بأن دماء أجدادها مختلطة بالدم الماوورى ، وقد استمر التزاوج المختلط وقام المولدون بدور كبير كوسطاء بين الجنسين . وقد كان سير جيمس كاول مولدا وأكثر من حاز الثقة بين زعماء الماوورى فى عهده ، ومع ذلك فانه كان يمثل دائرة انتخابية بيضاء . وقد حصل الماوورى على حق انتخاب وكان هناك وزير للشئون الأهلية منهم . وبرغم أن هناك قدرا

(١) للتفاصيل انظر الكتاب المفيد جدا «المركز القانونى للجانب فى بلاد المحيط الهادى» بقلم عدة كتاب وبارشاف نورمان ماكنزى ، ١٩٣٧ . وانظر كذلك أ. جاي فإن بيتيوس «الجنسية داخل أمم الكومنولث البريطانى» ١٩٣٠ ص ١٦٣ ، ٦٦ . وهناك مراجع أخرى مذكورة فى «دائرة معارف العلوم الاجتماعية» مجلد ٧ (١٩٣٢) ص ٥٩٤

(٢) و . موريل «نيوزيلاندا» ١٩٣٥ ص ٢٩٩ .

معينا من الانفصال الاجتماعى والتفرقة الاجتماعية فان ذلك يقابله ويضيع أثره تقليد طويل من حسن النية والاحترام المتبادلين (١) .

وفى الولايات المتحدة تلعب التفرقة العنصرية ، التى يرجع جزء منها الى القانون وجزء الى الضغط الاجتماعى والتهديد ، دورا خطيرا . فنسل الزوج العبيد ، الذين يبلغون حوالى ١٢ مليوناً ، مواطنون أمريكيون قانوناً . وقد تأمر كوا تماماً ، وعندما يحصلون على التربية والظروف الاجتماعية اللازمة أثبت نموهم بما لا يدع أى مجال للشك امكان تماثلهم عقليا تماثلاً كاملاً ومساواتهم المعنوية والفكرية أساساً (٢) . ومع ذلك فان الأمريكيين الملونين يتعرضون لأوضاع تحط بالكرامة تختلف باختلاف أجزاء « الاتحاد » (٣) . فهناك عدد من الولايات يحرم الزواج المختلط وقد أخذ النازى عن تشريعاتها النموذج الذى طبق فى وضع قوانين نورمبرج . ويوجه النقد باستمرار الى هذه الأوضاع من جانب الرأى العام المتحرر وتبذل الجهود لتحسينها .

وقد فرضت قيود متزايدة على هجرة الاسيويين ، وفى النهاية حرمت تماماً (٤) . وبعد الحرب الكبرى قيدت هجرة الاوربيين أيضاً الى حد كبير جداً ، وبخاصة فيما يتعلق بشعوب شرقي وجنوبي أوربا . وقد كان للمذهب العنصرية الألمانية ، التى يمثلها فى أمريكا عدد كبير من الكتاب ، بعض

(١) وقد أعلن رئيس الوزراء فى ١٩٣٧ أنه « برغم أن هناك جنسين فى نيوزيلاند فاننا شعب واحد » . انظر هانوك المؤلف السابق المجلد الثانى ص ٧٠ .

(٢) انظر العرض الشامل لهذا الموضوع الذى دار حوله جدل كثير فى « القدرات الجسدية والعقلية للزنجرى الأمريكى » الذى وضع تحت اشراف قسم التربية بجامعة هوارد- واشنجتون ١٩٣٤ .

(٣) لقد عالج مشكلة الاجناس فى أمريكا بصورة ممتازة مؤخرًا باحث هولندى هو دكتور شريكه الاستاذ بجامعة باتافيا ومدير التربية فى جزر الهند الهولندية . انظر ب . شريكه « الأمريكيون الاغراب . ودراسة فى العلاقات بين الاجناس » ١٩٣٦ ومعه قائمة ببيولوجرافية . انظر كذلك أولد هام ص ١٦٤ - ١٧٧ .

(٤) يقول الاستاذ مكدوجال ، وهو نفسه من دعاة العنصرية ، ان سياسة مناهضة الاسيويين التى طبقتها ولايات الباسيفيكي لم تقدرها الولايات الشرقية فى أول الامر حق قدرها ، بل وكاد الاختلاف فى وجهات النظر يهدد وحدة الأمة لأن « سكان الغرب كانوا على استعداد للقتال والانفصال اذا تعرضت القيود التى وضعوها للهجرة للرفض من جانب الحكومة الفدرالية » . ولكن الأمة كلها قبلت فى النهاية وجهة نظرهم . و . مكدوجال « الأمة الأمريكية » ١٩٢٥ ص ١٤٧ .

الأثر في قمع السبيل لهذه السياسة . وكان للتقييد الشديد للهجرة أثر بعيد المدى على مصير العالم ، بتشجيع نمو النزعة القومية العنيفة في اليابان وبعض البلاد الأخرى من ناحية ، وبزيادة حدة التوتر الاجتماعي في أوروبا الى حد كبير ، مما مهد السبيل لظهور هتلر ، من ناحية أخرى .

والأسباب التي تساق لاستبعاد الشرقيين من البلاد التي يستوطنها البيض هي الادعاء بأن هناك خطراً من انخفاض الأجور والمستوى العام للمعيشة وضرورة حماية الجنس الأبيض ومدنيته . بيد أنه من المشكوك فيه أن تكون هذه الاجراءات هي وحدها التي تحقق هذه الأهداف دون غيرها (مثل تحديد حصص للهجرة وحد أدنى للأجور لا تنخفض عنه) ، أو أن هذه الأخطار حقيقة أصلاً في ظل خطط معقولة لتنظيم الهجرة . فبعض البلاد التي تقيد الهجرة سكانها قليلون فعلاً وتستفيد كثيراً بزيادة العمال والمستهلكين . وفيما يتعلق بصور التفرقة العنصرية الأخرى من العسير أن يرى المرء كيف يمكن أن تخدم هذه الأغراض . فالمدينة البيضاء لا يهددها قطعاً أن يجلس الهندي أو أحد أبناء البانتو في نفس المدرسة أو نفس عربة القطار مع الرجل الأبيض ، الذي قد يكون أقل مدنية منه بكثير . ومن الواضح أن هذه الاجراءات ترجع الى حد كبير جداً الى مجرد التحيز العنصري .

وإذا كان صحيحاً ان البشر بصفة عامة، أو البيض بصفة خاصة ، كائنات عدوانية حقودة لا تقبل التفاهم الى حد لا يستطيعون معه أن يعيشوا جنباً الى جنب مع أشخاص ذوي لون مختلف دون أن يؤدي ذلك الى تعريض النظام الاجتماعي للخطر الشديد ، فعندئذ يكون المهرب الوحيد طبعاً هو فصل الأجناس المختلفة بعضها عن بعض . ويكون للشعوب الملونة ، وهم يؤلفون القسم الأكبر من سكان العالم ، الحق عندئذ في إبعاد البيض عن بلادهم . ولست أنوى البحث فيما اذا كانت وجهة النظر المتشائمة هذه في الطبيعة البشرية صحيحة . ولكنها اذا كانت صحيحة فان ذلك يكون بمثابة ضربة قاسمة للإيمان بالديمقراطية في جذورها .

٨ - العنصرية والعلاقات مع اليابان

ان اقبال جميع بلاد البيض تقريباً في وجه الهجرة الآسيوية أثار مرارة شديدة في الهند والصين واليابان . فاجزاء كبيرة من هذه البلاد أما مزدحمة بالسكان أكثر مما ينبغي أو تمنعها العوامل الجوية وأسباب

أخرى من التنمية الزراعية والصناعية . وكثافة السكان فى الميل المربع القابل للزراعة (على حسب متوسط تعداد ١٩٣٠ - ١٩٣٣) كانت ٢٧٥٠ لليابان فى حين أنها كانت ٢٢٩ فقط للولايات المتحدة و ١٧٢ للاتحاد السوفيتى و ٤٧٦ لفرنسا و ٨١٩ لاطاليا (١) وكانت فى بريطانيا ٢١٧٠، ولكن بريطانيا لا تعتمد على منتجات أرضها وتعيش الى حد كبير على الصناعات والتجارة الخارجية . وأمر طبيعى أن تثير مشكلة ضغط السكان القلق فى اليابان . وبدا للكثيرين أن البديل الوحيد هو اما الهجرة السلمية أو استعمار بلاد بحد السيف . بيد أن الاقتصاديين وجدوا أن الاستعمار والهجرة على حد سواء ليس لى منهما سوى أثر محدود جدا (٢) . وكثير من اليابانيين يعزفون تقليديا عن مغادرة وطنهم . وقد أغلق الباب فى وجه اليابانيين أكثر فأكثر من جانب كل البلاد الصالحة للهجرة تقريبا مثل الولايات المتحدة والمكسيك وكثير من دول أمريكا اللاتينية وجميع بلاد الدومنيون والاتحاد السوفيتى . كما أن بعض البلاد فرضت أيضا التفرقة فيما يتعلق بفرض العمل والتجارة وحق امتلاك العقارات وما الى ذلك وقد تدمر اليابانيون كثيرا من هذه التفرقة - لا بسبب أثرها الاقتصادى السيئ ، كما أعلنوا مرارا ، بل لما فيها من مهانة (٣) ولم يكن هناك صراع تجارى كبير بين اليابان والولايات المتحدة (٤) ، وكان كل من البلدين من أحسن عملاء البلد الآخر . كما لم يكن اغراق أمريكا باليد العاملة اليابانية الرخيصة محتلا . ومع ذلك فقد بدأت فى سنة ١٩٠٦ حركة عنيفة ضد الهجرة اليابانية فى كاليفورنيا وأبعد الأطفال اليابانيون من المدارس العامة . واعتبر أن جلوسهم على نفس المقعد مع الأطفال البيض خطرا أخلاقيا . ولم يكن مجموع عدد الأطفال الذين يتعلق بهم الأمر سوى ٩٣ وكانوا موزعين على ٢٣ مدرسة ! وأوقفت اليابان هذه الحركة بعقد ما يسمى « باتفاق جنتلمان » مع الولايات المتحدة تعهدت بمقتضاه بإيقاف هجرة العمال اليابانيين الى أمريكا تماما . ولكن فى ١٩٢٠ عادت الحركة الى الحياة ثانية . فقد اتخذ « فدرال العمل الأمريكى » الكبير قرارا يطلب

(١) البرت هندمارش « أسس السياسة الخارجية اليابانية » ١٩٣٦ ص ٤٣ .

(٢) Ryoichi Ishii « ضغط السكان والحياة الاقتصادية فى اليابان » ١٩٣٧

ص ١٩٤ و ٢٥٢ (أوردتها هندمارش ص ٩٩) .

(٣) هندمارش ص ١٩٣ و ٢١٥ .

(٤) هندمارش ص ٢٢٨ .

من الكونجرس « إلغاء اتفاق الجنتلمان وطرد جميع الأشخاص اليابانيين والاسيويين الآخرين كلهم من أمريكا » . وواقع ان الهجرة سرعان ما حرمت كلية .

وعندما وضعت صيغة ميثاق عصبة الأمم طلب اليابانيون ادراج بند يؤيد المساواة بين الأمم وحققها في معاملة متساوية وعادلة (١) . وقد حالت أقلية في اللجنة دون قبول هذا البند ، وقرر الرئيس ويلسون ، حيال المعارضة الرسمية أن الاجماع ضرورى . وقد وافق على البند كل من اليابان وفرنسا وايطاليا والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا والصين واليونان ويوغوسلافيا ، ورفضته كل من بريطانيا والولايات المتحدة وبولندا والبرتغال ورومانيا . وقال مستر بالفور ان « فكرة أن جميع الناس خلقوا متساوين من أفكار القرن الثامن عشر ولا أعتقد أنها سليمة » .

وكانت بريطانيا قد عقدت في ١٩٠٢ حلفا مع اليابان تجدد مرتين وكانت فيه فائدة كبيرة للطرفين . وفي الحرب الكبرى كانت القوافل البريطانية تسير في حماية السفن الحربية اليابانية . بيد أن هذا التحالف لم يلق ترحيبا في الولايات المتحدة والدومينيون ، لأن الروح الحربية والتوسعية اليابانية كانت تثير الريبة فيها من ناحية ، وبسبب العداء العنصرى عموما من ناحية أخرى . وكان تاريخ انتهاء التحالف سنة ١٩٢١ . وكان كل من بريطانيا واليابان يريدان تجديده ولكن تأثير الولايات المتحدة والدومينيون نجح في انهاءه (٢) . وقد أدى « مؤتمر واشنطنجتون » الى « ميثاق الدول الأربع للسلام » والى اتفاقات أخرى غيره ، ولكن الصداقة بين بريطانيا واليابان لم تعد الى سابق عهدها . وكان السبب في التنافر الى حد كبير هو نشاط الحزب العسكرى فى اليابان . فالروح الحربية والنزعة القومية كانتا دائما قويتين فى هذا البلد . وبعد الحرب الكبرى فقد الحزب العسكرى قوته فى حين أخذت المصالح التجارية والمالية التى تؤيد التوسع السلمى بحثا عن أسواق جديدة تزداد نفوذا (٣) . وقد قال

(١) انظر التفاصيل فى جورج شوارزنبرجر « سياسة القوة » ١٩٤١ ص ٣١٢ و ك. أ. ماكارتنى « الدول القومية والأقليات القومية » ١٩٣٤ ص ٢٢٠ .

(٢) انظر د. جب « الامبراطورية فى أفول » ١٩٢٦ ص ٤٠ .

(٣) أ. كاوستون « النزعة العسكرية والسياسة الخارجية فى اليابان » ١٩٣٦ ص ١٣٠ .

أحد الأمريكيين البارزين ، هو الرئيس شيرمان ، بعد زيارة اليابان : انها في رأيه ستصير في مدى عشرين عاما بلدا من أكثر بلاد العالم ديمقراطية . وقد عبر بعض الخبراء الأمريكيين أيضا عن وجهات نظر متفائلة في هذا الصدد (١) . وقد حذر أحد الكتاب الأمريكيين ، هو دكتور سيدنى جاليك ، بلاده من أن عودة الحركة ضد اليابانيين في أمريكا يساعد بصورة مباشرة أخطر العناصر وأقساها في اليابان ويضع في يد العسكريين اليابانيين أقوى الحجج لنشر الشعور المضاد لأمريكا في اليابان ، (٢) . وفي سنة ١٩٣٠ انتهى الصراع بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية في اليابان حول « معاهدة لندن البحرية » بانتصار ساحق للحكومة المدنية (٣) . ولكن العسكريين رتبوا « حادثا » في الصين كحجة لاتباع سياسة غزو وتعيد اليهم هيبتهم . وأدت الأزمة الاقتصادية العالمية الى تفرقة جديدة ضد البضائع اليابانية وجعلت في وسع العسكريين بمساعدة الطبقات التي أصابتها الضائقة أن يهزموا حكومة الأحرار . وغادرت اليابان عصبة الأمم ونبذت « المعاهدات البحرية » ، وفي ١٩٣٦ نشر ضابط بحري ياباني كتابا انتهى فيه الى أنه لا يكاد يكون هناك أمل في تجنب الحرب مع بريطانيا . وقال : « أن العلاقات العدائية بين البلدين كانت النتيجة الطبيعية لنبد التحالف الذي كان بينهما » (٤) . ويعد نمو قوة العسكريين في اليابان المسئول الأول عن كل الكوارث التي أعقبت ذلك . ولكن من أهم العوامل التي ساعدت العسكريين على الاستيلاء على السلطة كان بلا ريب التفرقة العنصرية ضد اليابان التي طبقتها عدة أمم . وكان هناك عامل آخر هو الموقف الضعيف الذي اتخذته الدول الديمقراطية من الاعتداءات الفاشية .

(١) ايشيرو توكوتومي « العلاقات اليابانية الأمريكية » ١٩٢٢ ص ١٤٨ .

(٢) سيدنى جاليك « المشكلة اليابانية الأمريكية » ١٩١٤ ، و « نحو فهم اليابان » ١٩٣٥ .

(٣) كاوستون ص ١٣٧ .

(٤) توتا ايشمارو « اليابان لا بد أن تحارب بريطانيا » الترجمة الانجليزية ١٩٣٦ ص

٥٥ س. جاليك « نداء آسيا الى أمريكا » .

ولم يكن سبب الحركة ضد اليابانيين في أمريكا هو الخوف من العدوان الياباني . فالصينيون والآسيويون الآخرون الذين لا ينتمون لشعوب عدوانية كانوا يعاملون معاملة أسوأ حتى من ذلك . وقد كتب الأستاذ جاليك ، وهو خبير بهذه المشكلة والمتحدث باسم منظمة كبرى للكنائس الأمريكية ، عن الاضطرابات الصينية في الثمانينات : « لقد اغتيل عشرات من الصينيين وجرح مئات منهم وسرق آلاف بواسطة الغوغاء الهائجين ضد الآسيويين دون حماية للضحايا أو عقاب للمجرمين » . وقد أوقفت الهجرة الصينية تماما بواسطة عدة قوانين برغم أن ذلك كان فيه مخالفة صريحة للمعاهدات الصينية الأمريكية التي عقدت في سنة ١٨٦٨ ، وسنة ١٨٨٠ . وقررت « المحكمة العليا » أن الكونجرس ليس مقيدا بالمعاهدات الدولية ويستطيع أن يلغيها أو يعدلها كما يترأى له .

الجنسية واللغة

١ - اللغة كرمز للشخصية

ليست اللغة مجرد وسيلة للتخاطب مع الآخرين فحسب . فهي أيضا أقوى عوامل نمو الشخصية ، الفردية والجماعية . وكل اختلاف اجتماعي يؤدي الى صور خاصة من الحديث تؤكد الاختلاف الاجتماعي وتزيده . وقد وجد اللغويون أن كل قرية ومنطقة تقريبا وكل حرفة ومهنة وكل اتحاد ومندمجة وطبقة اجتماعية لها خصائصها المميزة في الحديث . كثيرا ما تعتبر شعارا لهذه المجموعة الخاصة (١) . وفي المجتمعات البدائية تحدد لغة حديث خاصة لكل من الرجال والنساء ولكل من الكبار والصغار . وهناك أمثلة كثيرة لاستعمال لغة خاصة في الأغراض الدينية وللتحدث الى الله ، كما تستعمل اللاتينية حتى الآن في الكنيسة الكاثوليكية والعبرية في الكنائس اليهودية . وفي الأزمنة الماضية كثيرا ما كان نفس الشخص يستعمل لغات مختلفة ، أو لهجات مختلفة ، لصور مختلفة من الادب ، اما تبعا للمركز الاجتماعي للقراء أو طبقا للتقاليد (٢) .

٢ - الجنسية واللغة في العصر القديم والعصور الوسطى

أصبح المجتمع القومي في عصرنا هو القوة الكبرى وفقد كل منافسيه

(١) توجد أمثلة كثيرة في كتاب ج . فندريز « مدخل لغوي للتاريخ » ١٩٢٥ ص ٢٤٠ . وفيما يتصل باللغة والشخصية انظر ك . فوسلر « روح اللغة في المدينة » ١٩٣٢ الفصل الثاني .

(٢) فندريز ص ٢٧٢ .



المحليين والاجتماعيين هيبته ونفوذهم • وصارت اللغة القومية أحد أوثان دين جديد • فكل الامم تعتبرها رمزا لاستقلالها وشرفها بوصفها التعبير الاسمى عن شخصيتها ، وتقدر السيطرة المطلقة للغة على اقليمها القومى أهم من كثير من المزايا الروحية والمادية الواضحة • وقد تمسكت الشعوب طبعاً بلغتها دائماً وكثيراً ما جنحت الى ازدراء الاجانب الذين بدا حديثهم همجياً (١) • ومع ذلك فلا يبدو أنه كان هناك فى العصور القديمة ما يقابل تقديسنا للغة القومية وتعصبنا ضد اللغات الاخرى • ففي العهود القديمة كان الحكام والشعوب يتسامحون فى وجود لغات أخرى فى أقاليمهم ، بل انهم اتخذوا أحياناً لغات أجنبية ، مع انهم لم يكونوا بغير مشاعر قومية واعتزاز قومى • ولعلمهم كانوا يسخرون من الاجنبى وهو يلوك لغتهم ، ولكننا لم نسمع قط عن استخدام الاكراه لفرض لغة قومية على أقليات أو على غرباء •

وقد نتج هذا الموقف عن الظروف الاجتماعية • ففي العهود القديمة لم يكن الناس قد التصقوا بعد بالارض تماماً • وكانت الهجرات والغزو والتسرب والاعداد الكبيرة من الأرقاء الأجانب ونقل شعوب بأكملها أو

(١) ان المعنى الاصلى لكلمة « همجى » ربما كان التلعثم واللججة واللكنة • وهناك شعوب أخرى كثيرة لديها شىء من هذا القبيل • فاللفظ السلافى « لالانى » يعنى أبكم • انظر ج. جوتنر «Hellenen und Barbaren, Aus der geschichte des Nationalbewusstseins» ١٩٢٣ ص ١ و ٤ و ١٢٤ •

استئصالها واستيطان الجنود في الاراضى المغزوة كثيرا ما تؤدي الى تغيير في اللغة . وكان الملوك والارستقراطيون يرحبون دائما بالاجانب الذين يمكن أن يخدموهم .

وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد كانت لغة بابل وحروفها تستعمل بواسطة جميع الملوك الشرقيين في مراسلاتهم الدولية ، حتى بواسطة المصريين الذين كانوا يحتقرون «الآسيويين التمسين» (١). وقد استخدم البابليون الى حد كبير جدا اللغة السومرية في كتاباتهم الدينية ووثائقهم القانونية . وفي الوقت الذى لم يعد هناك شعب سومرى بقيت لغته وقامت بنفس الدور الذى قامت به اللاتينية في العصور الوسطى لدينا . وفيما بعد صار الاشوريون أصحاب السيطرة السياسية ولكن في نفس الوقت حلت اللغة الآرامية محل البابلية والاشورية على نطاق واسع وصارت اللغة العامة للتخاطب في الجزء الاكبر من جنوب غربى آسيا . وعادت قوة بابل مرة أخرى لمدة قصيرة بواسطة أسرة من الملوك الآراميين . وعندئذ غزا الملك الفارس سيروس وابنه قمبيز جميع الامبراطوريات الاخرى .

ولكنهما كانا يقدران لقبهما كملوك لبابل أكثر من جميع ألقابهما الوطنية واتخذوا اللغة الآرامية في اتصالاتهما برعاياهما في الغرب . وبعد موت قمبيز ثار الفرس على سياسة هذه الأسرة وتفضيلها لبابل (٢) . وحتى اليهود ، برغم وعيهم القومى القوى بعد الاسر ، هجروا العبرية في حديثهم اليومى واستعملوا الآرامية الى حد أن الناس لم يعودوا يفهمون نص التوراة وصار لا بد من ترجمته الى الآرامية ليتلى في المعابد اليهودية (٣) .

وفي عهد الاغريق انتشرت اللغة الاغريقية على نطاق واسع في الشرق ، وان كانت أساسا لغة المدن والطبقات المثقفة ، في حين احتفظ الريف والعامة بلغاتهم الخاصة . وعندما اتسعت سيطرة روما اعقبها

(١) ه. وينكلر «Babylonische geistes-kulture» ١٩١٩ ص ٢١ ، و ب. ميسنر

«Kultur Babyloniens» ١٩٢٥ ص ١١ .

(٢) وينكلر ص ٢٧ .

(٣) و. روبرتسون سميث « العهد القديم في الكنيسة اليهودية » ١٩٢٦ ص ٢٥ ومعظم الكتابات السابقة على الانجيل أيضا كانت بالآرامية أيضا . ولم يكن انتشار هذه اللغة راجعا الى القوة السياسية ولا الى الانجازات الثقافية . ويبدو أن من الاسباب الرئيسية الاهمية التجارية للآراميين وسهولة حروفهم . انظر « تاريخ كامبريدج القديم » ١٩٢٥ المجلد الثالث ص ٢٤٨ و ٤٢٣ ، و س. شيفر « الآراميين » ١٩١١ .

بسرعة انتشار اللغة اللاتينية ، وان لم يعمل الرومان على نشرها قهرا : فقد كان استيطان المحاربين الرومان في البلاد المهزومة واغراء المواطنين والمدنية الرومانية كافيين . واختفت تماما لغات شعوب كبيرة ومتمدنة مثل الأتروبيين والغالين ولغات أخرى كثيرة ، ويبدو انه لم تحدث مقاومة كبيرة للرومان . كما لا يوجد أثر لشخصية هذه الشعوب في أواخر الامبراطورية الرومانية . فالغاليون والاسبان سرعان ما صاروا رومانين متحمسين وأسهموا في السياسة والادب الرومانيين بنصيب وافر (١) . ومن ناحية أخرى كانت الطبقات المتعلمة في الامبراطورية الرومانية تستعمل الى حد كبير اللغة الاغريقية في الأغراض الثقافية ، في حين ظلت اللاتينية هي اللغة الرسمية . وسرعان ما اصطبح التيتوتون الذين احتلوا أرض الامبراطورية المنهارة بالصيغة الرومانية وهجروا لغتهم الاصلية الى اللغة اللاتينية .

وعندما اجتاح العرب عالم البحر الأبيض المتوسط اتخذوا وضعاً مسيطراً في جميع البلاد التي غزوها ولكنهم لم يعملوا على فرض لغتهم على الشعوب المهزومة . بل على النقيض من ذلك لقد حرم عمر على المسيحيين أن يتعلموا اللغة العربية وحرم على المسلمين استخدام أية لغة أجنبية . بيد انه سرعان ما ثبت أن هذه الحواجز غير كافية وانتشرت العربية بصورة هائلة . وقد كان الاسلام ، على خلاف الاديان القديمة ، مذهبا ديمقراطيا وتلقت حتى أدنى الطبقات تعليماً لكي تقرأ القرآن . بالاضافة الى ان الاسلام اجتذب كثيراً من العقول المثقفة ثقافة عالية من أمم كثيرة ولا سيما الفرس والاعريق والسوريين والاقباط والمغاربة والقوط . وكل ذلك ساعد على انتشار اللغة العربية .

وقد نجح النورماندين نجاحاً باهراً كغزاة وكمُنظمين للدول . ومع ذلك فانهم لم يبدوا اصراراً وتمسكاً بنشر لغتهم في أى مكان . ومعظمهم غيروا لغاتهم مرتين أو ثلاثاً خلال بضعة قرون قليلة . ففي نورمانديا سرعان ما تركوا لغتهم التيتوتونية الاصلية واتخذوا الفرنسية لغة . وفي انجلترا احتفظوا بالفرنسية مدة أطول ، ولكنهم سرعان ما خلطوا بها عناصر انجلو ساكسونية وطوروها الى الانجليزية . وفي ايرلندا سرعان ما اصطبح البارونات الانجلو نورماندين بالصيغة السلطية ، وأخفق دستور كيلكني في ١٣٦٧ في الحيلولة دون ذلك . وفي اسكتلندا أيضاً

(١) فيما يتعلق بأسباب صبغ الغالين بالصيغة الرومانية انظر فوستل دى كولانج « تاريخ الانظمة السياسية في فرنسا القديمة » ١٨٧٧ ص ٣٧ - ٥٥ .

اتخذوا اللغة السلتيّة وتزعموا السلتيّين ضدّ العدوان الإنجليزي . وفيما بعد صارت اللغة الانجليزية هي لغة أسكتلندا أكثر فأكثر . ويقول الأستاذ ريت : « ان الملوك السلتيّين أرغموا القسم الأكبر من اسكتلندا السلتيّة على اتخاذ القانون الإنجليزي والعادات الانجليزية ، وبدرجة أقل ، اللغة الانجليزية » (١) . بيد أن اللغة التي صارت لغة قومية هي لغة شمال انجلترا وأصبحت خصائصها المتميزة رمزا للجنسية الاسكتلندية .

وابتداء من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر تسربت اللغة والحضارة الفرنسية الى أقاليم واسعة فى أوروبا والشرق ، فى حين انتشرت اللغة والحضارة الالمانية فى شرق أوروبا . فقد غزا المغامرون النورمانديون والمجاهدون الفرنسيون دولا عديدة وأدخلوا فيها اللغة والعادات الفرنسية . بالإضافة الى أن المجتمع الأرستقراطى فى أوروبا كلها تبنى بحماس مدنية الفروسية الفرنسية وتعلم اللغة الفرنسية (٢) . وكان التوسع الالمانى بعضه نتيجة لعمل الفرسان الغزاة ، كما فى بلاد البلطيق ، وبعضه من انجازات التجار والمعدنين والحرفيين والفلاحين الألمان الذين استوطنوا فى أوروبا الوسطى والشرقية بين السلافيين والهنغاريين والرومانيين . وقد شجع الأمراء السلافيون والهنغاريون هذه الهجرة التى دعمت التقدم الاقتصادى والثقافى . وفى القرن الحادى عشر أعلن الملك ستيفن الاول ملك هنغاريا : ان بلدا بلغة واحدة ونوع واحد من العادات فقط لهو بلد عاجز وضعيف (٣) . وفى بوهيميا جذب الملك التشيكى العظيم أوتاكار الثانى هجرة الألمان ، كما فعل سابقوه ، وقد منحهم امتيازات عظيمة ، ووجه اليه التشيكيون الفيورون اللوم لهذا السبب . وكان بلاط الملوك التشيكيين مركزا للشعر الالمانى . واتخذ الارستقراطيون التشيكيون العادات واللغة والمدنية الالمانية ، وكان لقلاعهم اسماء ألمانية صارت أيضا اسماء أسرهم (٤) . بيد انه يكون من الخطأ أن نفترض أن الملوك والنبل لم يكن لديهم شعور قومى .

(١) انظر ر. ريت « تاريخ اسكتلندا » ص ١٤ . وقد أمر جيمس الاول بأن يذهب أبناء لوردات الاراضى العالية الى مدارس الاراضى المنخفضة ليتعلموا الانجليزية .

(٢) ل. وينو « التاريخ العام للنموذ الفرنسى فى المانيا » ١٩١٤ ص ٦٦ ، و ف. كلوج « Deutsche Sprachgeschichte » ١٩٢٠ ص ٢٧٤ .

(٣) انظر Decr. Steph. Lib. 1, Cap. 11, 3.

(٤) ف. مابر « Geschichte Österreichs » ١٩٠٩ ص ٢٦٦ .

فأوتكار الثاني مثلاً دافع عن اللغة التشيكية بقوة عندما بدا ذلك ضرورياً (١) .

٣ - أصل اللغات القومية الحديثة

كانت الدولة والمجتمع في العصور الوسطى مقسمين بسبب الاقطاع الى شذرات لا عدد لها ، وفي بعض البلاد نجح الملوك ومساعدوهم فيما بعد في بناء وحدات أكبر صارت نواة لأمم جديدة . ولكن داخل الدول القومية الناشئة كان يوجد اختلاف كبير في اللغات واللهجات .

ففي انجلترا مثلاً كان هذا الاختلاف من الوضوح بحيث أن أهل الجنوب في القرن الرابع عشر كانوا لا يفقهون حديث أهل الشمال ، وكانت الكتب التي تكتب باحدى هذه اللغات تترجم الى اللغات الأخرى ليفهمها أهل الجهات الأخرى (٢) .

وفي ألمانيا ، حتى انجيل لوتر ، الذي كتب بلغة متوسطة ، ترجم الى «الألمانية الواطئة» (٣) ، وفي فرنسا وإيطاليا والبلاد الأخرى كانت هناك ظروف مماثلة . وحتى عندما بلغ الوعي القومي مرحلة معينة من النمو كانت اللغة القومية غير موجودة بعد . ومن ثم كان الشعور القومي مقتصرًا على تلك الطبقات التي تستطيع التفاهم بعضها مع بعض ، ولكن امتداده الى جميع الطبقات كان يتطلب وحدة لغوية أوسع . وفي البلاد التي كانت فيها حكومة مركزية كانت هذه الوحدة الى حد كبير من صنع مستشاري الملوك ، وصارت هذه اللهجة الموحدة أساساً للغة القومية التي تستعمل في مقر الحكومة حيث كان يوجد أيضاً مركز التجارة والعلم والأدب .

وقد شجعت الملكية تكوين الأمم ، وإن كان بغير أن تستهدف ذلك . فهنرى الثاني كان ، عن غير وعى منه ، أكبر مشجع للجنسية الانجليزية . إذ كان ما يحتاج اليه الملوك للتغلب على الاقطاع والروح القبلية هو لغة صالحة للاستخدام في الاغراض القانونية والادارية والدبلوماسية وتفهمها الطبقات المتعلمة . وقد ظلت اللغة اللاتينية مدة طويلة تؤدي هذا الغرض على أحسن وجه . وقد تمت خطوات حاسمة في التقدم نحو تكوين اللغة القومية في كل مكان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين تميزا

(١) ف. ب. لاي «Geschichte von Boehmen» ١٨٣٩ ص ٢٦٤ .

(٢) ج. مكتاب « اللغة الانجليزية الحديثة تكون » ١٩٢٨ ص ٧ .

(٣) ج. نادلر «Literaturgeschichte der deutschen Staemme und Landschaften» ١٩١٢ ص ٢٢٤ .

أيضا بحركات كبرى ديمقراطية واجتماعية وضد الكنيسة وقومية . وحتى في « المجالس العظمى » للكنيسة كان أعضاؤها منذ ١٢٧٤ مقسمين الى أمم ، وكذلك الطلبة في الجامعات ، وكانت هناك منافسات وخصومات قومية شديدة بينهم (١). وقد أسهم الصراع الكبير بين إنجلترا وفرنسا الذي استمر قرنين بنصيب كبير في نمو الشعور القومي . وعندما التجأ الملك ادوارد الاول في ١٢٩٥ الى « البرلمان النموذجي » للدفاع عن إنجلترا ضد النوايا العدوانية للملك الفرنسي ، حاول إثارة الشعور القومي بأن اتهمه بأنه يريد مسح اللغة الانجليزية من وجه الارض . وفي ١٣٦٢ بدأت اللغة الانجليزية تحل محل الانجلو نورماندية في البرلمان والبلاط . وفي فرنسا أعلن نهائيا أن اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاط سنة ١٥٣٩ ، وإن كان أهل الاقاليم قد احتجوا ضد استبعاد لغتهم .

وكان نمو اللغة الوطنية مرتبطا ارتباطا وثيقا بظهور الطبقتين الوسطى والدنيا . ويقول ماثيو أوف ويستمنستر فيما يتصل بسنة ١٢٦٣ : « ان كل من لم يستطع التحدث باللغة الانجليزية اعتبره العامة شخصا دنيئا يستحق الازدراء » . وفي القرن الرابع عشر كانت اللاتينية تستخدم في كتب العلم والفرنسية في كتابات الطبقات العليا والانجليزية في الكتابات التي يقصد بها الطبقات الدنيا . وكان جون جوار يكتب كتبها باللغات الثلاث . وفي شباب دانتى كانت تستعمل في فلورنسا أربع لغات ، اللاتينية للمؤلفات العلمية والفرنسية للادب التهذيبي الاثني ولغة أهل بروفانس لأغاني الحب الارستقراطية والاطالية في الكتابات الديمقراطية البورجوازية (٢) . وقد ترك دانتى ، وهو نفسه ارستقراطي ، أثرا ضخما في تطوير اللغة الايطالية ، اذ كتب في الدفاع عن استخدامها ، ولكنه أيضا سخر من الحيلة البشرية التي تدفع كل شعب وكل مدينة صغيرة الى اعتبار لغتها الخاصة أجمل لغات البشر وأكثرها أصالة .

٤ - اللغة والارستقراطية والاستنارة

كان اختراع الطباعة وانتشار التعليم الشعبي والاصلاح الديني والمذهب الانساني عوامل حاسمة في نمو اللغة القومية وانتشارها ،

(١) في « مجلس كونستانس » في ١٤١٧ أنكر الفرنسيون على الانجليز الحق في تكوين أمة منفصلة ، في حين أشار الانجليز الى أن اللغة عامل حاسم ، وأن الامة الانجليزية تستطيع حتى المطالبة بحق تكوين خمس أمم حيث أن هناك خمس لغات مختلفة تماما تستعمل في إنجلترا .

(٢) ك. فوسلر «Frankreichs Kulturentwicklung in Spiegel Seiner

Sprachentwicklung» ١٩١٣ ص ٣٠ .

واغنائها • ولكن في نفس الوقت اتخذت الطبقات العليا في كثير من البلاد لغة أخرى وقد اجتذبتها بريق مدنية أجنبية مهذبة وكرمز للانفصال الارستقراطي • ففي القرن السادس عشر كانت الايطالية هي السائدة في البلاط الفرنسي ، وفي السابع عشر أخذت الاسبانية مكانها ، بتأثير الملكتين الايطالية والفرنسية وبلديهما الى حد كبير (١) • واتخذ المجتمع الراقى الانجليزى في عهد عودة الملكية الاساليب والاذواق الفرنسية • واتبع البلاط في فينا النموذج الاسباني ، ثم الروسي ثم الالماني ثم الفرنسي • وفي القرن السابع عشر دخلت كلمات أجنبية كثيرة جدا ، وبخاصة فرنسية ، في اللغة الالمانية عن طريق البلاط والنبلاء والجنود والباحثين الى حد أن الشعور القومي تمرد وأسست جمعيات لتنقية اللغة، ولكنها كانت محاكاة للاكاديميات الايطالية والفرنسية • وكانت الفرنسية سيطرة تماما في المجتمع الراقى الالماني في القرن الثامن عشر • وعندما كان فولتير في برلين ضيفا على فردريك الثاني كتب لاصدقائه في باريس بأنه يحس كما لو كان في فرنسا • فالفرنسية كانت وحدها لغة الحديث والالمانية « لا تصلح الا للخيال » • ونصح شقيق الملك أحد النبلاء البروسيين بأن يتعلم الفرنسية حيث انه بالتأكيد لا يريد أن يكون «بهيما ألمانيا» • وحتى بعد ذلك بمدة طويلة كان الوزراء البروسيون والنمساويون يفضلون الفرنسية في مراسلتهم الرسمية مع ملوكهم ومع الآخرين •

بيد أن المشاعر التي عبرت عن نفسها بهذه الطريقة لم تكن مجرد الانعزالية الارستقراطية حدها • فروح « عصر الاستنارة » العالمية والتحررية كانت تعكس الى حد كبير عقلية الارستقراطيين المثقفين ، وكثير من كبار المتحمسين للانسانية الذين زانوا العصر كانوا من المراتب العليا في المجتمع • وقد حاول الملوك الذين وضعوا أسس الدول القومية أن يجعلوا لغة واحدة هي اللغة الرسمية لتسهيل الادارة المركزية ، ولكنهم لم يهتموا كقاعدة عامة بفرضها على جماهير الشعب • وكان يكفي أن تفهمها طبقات الموظفين والمتعلمين • ولم تكن الصراعات القومية غريبة عن ذلك العهد ، ولكن الدين هو الذي كان رمزا للجنسية لا اللغة • وقد كان هنري الثامن ، وهو من أصل ويلز ، هو الذي أدخل الانجليزية في بلاط ويلز وقال عنها: «اللغة القومية الأم في هذه المملكة» • ومع ذلك فان «نيته

(١) كان ذلك لا يزال موضع تدمر في وقت الثورة الفرنسية ، وقد هاجم بارير سنة ١٧٩٤ في الجمعية الوطنية « رجال البلاط الذين لم يكتفوا بتمييز أنفسهم برذائلهم واعتداءاتهم بل أرادوا كذلك أن يميزوا في بلدهم بلغة أخرى بحيث يستطيع المرء أن يقول ان هناك أمتين في أمة واحدة » •

لم تكن عدوانية وليس فيها ما ينطوى على محاولة لاستئصال جنسية ويلز في ذاتها « (١) . ولكن في ايرلندا صدر قانون في عهد هنري الثامن عنوانه : « قانون لتطبيق النظام والعادات واللغة الانجليزية » يلزم بمقتضاه كل رجل من رجال الكنيسة بأن يتعهد مقسما بأن يعلم اللغة الانجليزية لجميع من في دائرته ، وان يقيم مدرسة لتعليم الانجليزية أو يعمل على اقامتها . وقد تأيد هذا القانون في عهد وليام الثالث ولم يلبث لمدة طويلة بعد ذلك .

وقد أراد جوزيف الثاني في أواخر القرن الثامن عشر أن يجعل الألمانية لغة رسمية في جميع أجزاء الامبراطورية النمساوية المتعددة اللغات ، وهو مقتنع بأن جميع الشعوب ستستفيد من ذلك فائدة ضخمة ، ويأمل أن تربطها اللغة المشتركة برباط من الحب الاخوي وتجعلها وطنية . وكان رد الفعل على النقيض تماما وفشلت المحاولة . ومع ذلك فان الامبراطور لم يكن من دعاة القومية الألمانية بأي حال . وكانت خطباته كلها بالفرنسية والشعراء الوحيدون الذين يقرأ لهم ايطاليون ، وأسهم بنصيب وافر في حماية الجنسيات المضطهدة وتمهيد السبيل لانتعاشها القومي (٢) . ووجد عصر الاستنارة في اللغة أداة للتعبير عن الافكار وتبادلها ، وكانت مرتبة اللغة تتوقف على كتوز المدنية التي تقود اليها هذه اللغة .

وكثيرا ما اتخذ كل من يصبو الى الترقى الاجتماعي وبلوغ مرتبة أعلى من المدنية من أمثولة الطبقات الحاكمة قدوة . وكانت النتيجة أن لغة الطبقات العليا في كثير من البلاد المختلطة الجنسيات تمت لها السيادة الكاملة وهي وحدها التي تكيفت مع مطالب المدنية الجديدة . وصارت لغة كتلة الشعب لغة دارجة لا يتحدثها سوى الناس غير المتعلمين ، ومن ثم لم تكتسب المفردات والمرونة اللتين يطلبهما التعبير عن الافكار والمشاعر لدى المثقفين . وبهذه الطريقة هجرت العناصر النشيطة فكريا في شعوب كثيرة لغتها الاصلية الى لغة ثانية ، مثلما هجرت لغة البريتون في بريطانيا الى الفرنسية ، والفلمنكية في الفلاندر الى الفرنسية ، والسلتية في ايرلندا واسكتلندا وويلز الى الانجليزية ، والتشيكية الى الألمانية في بوهيميا ، والسلوفاكية في سلوفاكيا الى الهنغارية ، والروثينية في غاليسيا الى البولندية ، والكرواتية في دالماسيا الى الايطالية ، والنرويجية في النرويج

(١) ك. أ. مكارتنى : «الدول القومية والاقليات القومية» ١٩٣٤ ص ٤١ .
(٢) جاكوبيك ونوفاك : «Geschichte der tschechischen Literatur»
١٩١٣ ص ١٢٥ ، وبول فون ميتروفانوف «جوزيف الثاني» ١٩١٠ مجلد (١) ص ٢٦٥ .

الى دانماركية ٠٠ والخ ٠ ولم تتم مثل هذه التغييرات بالاكراه أساسا بل لأغراض عملية ٠ فالناس الذين كانت لهم صلة كبيرة بالادارة أو التجارة أو أرادوا الاختلاط بالطبقات العليا اتخذوا أكثر اللغات المحلية ملاءمة لأغراضهم ٠ وكثيرون أيضا اكتسبوا معرفة بلغة استخدموها كوسيلة للاتصال الدولي ٠ فكانت الفرنسية لغة العالم الارستقراطي والالمانية لغة التجار وذوى المهن الحرة فى أجزاء كبيرة من وسط وشرق أوروبا ، فى حين كانت الايطالية واليونانية تستخدمان فى أنحاء أخرى للاتصال الدولي ٠

٥ - موقف الديمقراطية والرومنسية من اللغة

ان التغيير الكبير فى مركز اللغة الذى أدى الى النزعة القومية الحديثة كان السبب فيه تقدم الديمقراطية وظهور الرومنسية. وفى عصر الاستنارة والتحررية فى أول عهدها كانت الطبقات المتعلمة وحدها هى التى تعتبر الأمة الحقيقية ، فى القارة على الأقل ٠ وعندما بدأت الجماهير تطالب بنصيب فى السلطة السياسية وتحصل عليه ، اعتبرت لغتها جزءا لا يتجزأ من شخصية الأمة ٠ بالإضافة الى أن الديمقراطية زادت حدة الاتجاه نحو المركزية ٠ وفى فرنسا مثلا كانت الملكية متسامحة نحو لغات الأقليات وعاداتهم ٠ وكانت هذه الروح لا تزال سائدة حتى الثورة الفرنسية ، ولا يظهر فى « كراسات المظالم والتعليمات » التى وضعتها الجمعيات الانتخابية أى اثر للتعصب القومى تقريبا (١) ٠ بيد أن التعصب القومى نما فى اثناء الثورة وصار زعماء اليقابة يريدون استئصال اللغات غير الفرنسية فى فرنسا ، وهى البريتونية ولغة أهل الباسك والالمانية والايطالية ٠ فقد رأوا فيها أدوات فى أيدي القساوسة الملكيين والارستقراطيين للدفاع عن النظام القديم ٠ وقال عنها بارير فى تقريره الى « الجمعية الوطنية » : انها لكنات بربرية ولهجات فجة لا تصلح الا للمتعصبين والمناهضين للثورة ٠ واتهم أهل الالزاس بأنهم متعاطفون مع المانيا وخونة (٢) ، وطالب سان جوست ومونيه وبعض زعماء اليقابة

(١) بياتريس فراى هيسلوب « النزعة القومية الفرنسية فى ١٧٨٩ كما جاءت فى الكراسات العامة » ١٩٢٤ ٠

(٢) أحاديث بارير وجريجوار التى ألقاها فى ٢٧ يناير و ٤ يونيو ١٧٩٤ عن نشر اللغة الفرنسية فى مجموعة (مختارات من التقارير والأفكار والأحداث التى أنفقت أمام الجمعية الوطنية - المجلد ١٥ ص ٢٤٧) ٠ وانظر كذلك ك. هيز « النمو التاريخى للقومية الحديثة » ١٩٣١ ص ٥٠ ، وج . فان دويش « سيزر ، حياته ونزعتة القومية » ١٩٣٢ ، و أ . ويتمان « حق تقرير المصير بين حاضيتة ومستقبله » ١٩١٩ ، وفيما يتصل بموقف اليقابة من الالزاسيين انظر ج . فندي « Die deutschen Republikaner

Unter der Franzoesischen Republik » ١٨٧٠ ص ٧٠ و ١٠٢ و ١٩٣ ٠

الآخرين باتخاذ أقصى الاجراءات نحوهم ، حتى الى حد ترحيل جميع
الالزاسيين الذين لا يتكلمون الفرنسية بالجملة وتوطين فرنسيين ثوريين
فى الالزاس يستولون أيضا على ثروات « الخونة » . وقد ظل النشاط
القومى والنشاط الديموقراطى متحالفين باستمرار طوال القرن التاسع
عشر كله . وصارت اللغة رمز السيادة القومية والاستقلال والهيبة
القوميين .

وكانت الرومنسية أصلا الى حد كبير حركة مثقفى الطبقة الوسطى
الذين يعطفون على الافكار الثورية . فقد اكتشفوا أن كل لغة لها قيمة
فريدة بصرف النظر عن مستواها من المدنية . وكان الرومنسيون يعتقدون
أن الطبية الطبيعية فى الانسان لم يحفظها من الضياع سوى الشعوب
والطبقات التى لم تفسدها المدنية ، وأشادوا بجمال اللغات الشعبية
المهملة وحكمتها . وأكد روسو وهردر وفيشته وتلامذتهم أن روح الشعب
كلها تعيش فى لغته الاصلية ، وان كل شعب ليس لديه تراث أكثر قدسية
من لغته . ورغم ان نظريات الرومنسيين عن اللغة لم تثبت فى وجه النقد
الى حد كبير فقد كان لهم تأثير كبير فى تنشيط دراسة اللغات والادب وفى
السياسة والتربية . وفى العصور السابقة لم يهتم الدارسون كثيرا بلغات
الشعوب الأخرى ، الا لدراسة الانجيل والكتب القديمة أو لأغراض
تبشيرية . وصاروا الآن يدرسون لغة كل شعب فى العالم وتاريخه
وأدبه دراسة بعناية لاكتساب أكبر قدر ممكن من الفائدة للعلم والدوق
وفهم أكثر عمقا للعقل البشرى . لقد أثارت الرومنسية الحماسة لاتجاه
جدى نحو العالمية كان أجدى ثمرة من الثقافة السطحية المتنوعة التى تحلت
بها العناصر الأنيفة فى القرن الثامن عشر . وقد بدا أن الاهتمام بالحياة
الروحية لجميع الشعوب سيساعد فى نشر المشاعر الدولية الطيبة
والاحساس بالأخوة البشرية . وفى نفس الوقت أيقظ الرومنسيون أيضا
روح الاهتمام القوية بماضى الامة وأسهموا بنصيب كبير فى صعود
الجنسية والنزعة القومية .

٦ - اللغة فى عصر القومية .

يرى الوعى القومى فى اللغة القومية الرابطة التقليدية الرئيسية
للمجتمع ووسيلة تعليم الشعب التضامن ، ورمزا للشخصية القومية .
فضلا عن أن النزعة القومية تعتبر السيطرة المطلقة للغة القومية فى بلادها
مسألة هيبية وكثيرا ما طالبت بضم جميع العناصر التى تتحدث نفس اللغة
ولكنها تعيش فى بلاد أخرى . وفى كل الدول التى لها طابع قومى

متميز تحتل اللغة القومية مركزا متميزا . ويريد دعاة القومية كذلك تنقية لغتهم من كل خليط أجنبي (١)، وتدفعهم غيرتهم من كل لغة أخرى في البلاد حتى الى النفور من الأجانب عندما يتكلمون لغتهم علنا بصوت مرتفع . إن الصالح الحقيقي للمدنية يتنافى مع هذا الاتجاه . وقد قال جوته : « إن من يجهل اللغات الأجنبية لا يعرف شيئا عن لغته » .

بيد أن دعاة الجنسية أحيانا يجرفهم تيار رغبتهم فى الهيمنة فيبدون استعدادهم للتضحية باللغة التى تفردت بها أمتهم . فقد كان رواد النهضة السلافية يحملون بتوحيد جميع الشعوب السلافية فى أمة سلافية تصير أقوى أمم الأرض وأكثرها عددا . ورأى بعضهم أن افضل السبل الى ذلك هو ادماج جميع اللغات السلافية فى لغة واحدة مشتركة ، واعتقد آخرون ان الروسية ستصير اللغة المشتركة بين جميع السلافيين (٢) . ولكن اللغات السلافية كانت بعيدة بعضها عن بعض بحيث لا يمكن دمجها ، وقد اضطر كثيرون من هؤلاء الرواد الى كتابة مؤلفاتهم باللغة الالمانية لى يمكن ان يفهمها السلافيون الآخرون . كما أن فكرة اتخاذ اللغة الروسية لغة مشتركة لم ترق السلافيين غير الروسين . فقد تمسكوا بلغاتهم وتقاليدهم الخاصة ، ولم يقبلوا التضحية بها لمجد روسيا أكثر مما قبلوه من أجل شبح لغة مصطنعة .

وهناك مشكلة أكثر صعوبة من هذه المشكلة ، هى اختيار لغة هندية مشتركة للشعوب الهندية . ففي الهند أكثر من مائتى لغة يتحدث بها الناس ، وهناك عدد لا يحصى من الطوائف الدينية والاجتماعية المتنوعة . وصحيح أن هناك اقتراحات بخلق لغة هندية موحدة للاتصال، ولكن بلا نتيجة حتى الآن ، مما يرجع السبب الأساسى فيه الى أن

(١) هناك نقد يسترعى النظر للنزعة القومية فى اللغة فى كتاب لوجان بيرسول سميث «اللغة الانجليزية» ١٩٣٤ ص ٥٥ . وهناك متخصص كبير آخر وصل الى نفس النتائج ويقول « نحن لانستطيع أن ننكر أن اللغة الانجليزية تحسنت بصورة لا تقاس بادماج العناصر الغريبة » . انظر هـ . برادلى « اللغة الانجليزية » ١٩٠٤ ص ١١٠ . وللقربى الوثيقة بين النزعة القومية والنزعة العنصرية قام اعتقاد بأن اللغة نتاج ميل عنصرى وان الشعب، يعقم عقليا اذا فقد لغته الاصلية واتخذ لغة أخرى . بيد أن هذا الرأى دحض تماما بالتجارب التاريخية التى لا تعدو بالبحث اللغوى . فالزنجى أو الصينى قد يتحدث الانجليزية أو الفرنسية كما يتحدثها أى رجل انجليزى أو فرنسى . بشرط أن يتلقى نفس التعليم ويتاح له الاتصال بنفس الدوائر الاجتماعية . انظر ف . هرتز « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ ص ٩٣ . وج . فندريير « اللغة » ١٩٢٥ ص ٢٣٨ .

(٢) ل . ليجير « الوحدة السلافية والصالح الفرنسية » ١٩١٧ . و ا . فيشر «Der Panslavismus bis Zum Welthrlege».

المهتمين بهذه المسائل يستطيعون تبادل أفكارهم باللغة الانجليزية (١) .
وايا كان الأمر فانه اذا أعلن ان إحدى هذه اللغات هي اللغة
القومية فان ذلك سيثير بلا ريب نفور الشعوب التي تتكلم اللغات
الآخري .

وتواجه الدول التي تعيش فيها شعوب تتحدث لغات مختلفة عادة
صراعات عنيفة بين هذه الشعوب على المركز القانوني للغاتها في المحاكم
والادارة والمدارس .. الخ . ومن وجهة النظر العملية قد لا يكون من
العسير دائما ايجاد حل يرضى جميع الحاجات الحقيقية . بيد أن مثل
هذه المقترحات كثيرا ما قوبلت بالرفض من جانب شعب أو آخر من
الشعوب التي يتعلق بها الأمر . ففي معظم الحالات لا تعتبر الاقليات
والاغلبيات على السواء اللغة أداة للمدنية بقدر ما تعتبرها رمزا للسيطرة ،
وتضع هيبتها فوق اعتبارات الادراك السليم . وقبل الحرب الأخيرة
كانت روسيا وبروسيا تنكران على الاقليات كل حق تقريبا في استخدام
لغاتها بطريقة مناسبة . وفي النمسا القديمة ، التي كان الناس يتحدثون
فيها عشر لغات أو أكثر ، لم تكن هناك « لغة دولة » متميزة ، وان كانت
الامانية تستعمل كوسيلة للاتصال بين الحكومة والموظفين وفي الجيش .
ولكن لم يرغم أى شخص على تعلم لغة أخرى غير لغته ، وكان لكل انسان
الحق في استخدام لغته في المحاكم والادارة والمدارس (٢) . وفي
هنگاريا كانت للاقليات مظالم كثيرة بسبب رفض الأمة الحاكمة ، المجرين ،
لحقها القانوني في مركز مناسب للغاتها . وفي فرنسا حظر استخدام اللغة
البريتونية السلتيية في المدارس الابتدائية حظرا تاما ، واستخدم الجيش
أيضا للقضاء عليها . ومن الأمثلة في الانصاف النموذج السويسري (٣) .
فالمادة ١٦ من الدستور تقرر ان هناك ثلاث لغات رئيسية تعتبر لغات
قومية ، هي الالمانية والفرنسية الإيطالية ، للاتحاد السويسري ، وفي بعض
الاقاليم أيضا يعترف بالرومانية .

وبعد الحرب الكبرى ظهرت عدة دول قومية جديدة تضم أقليات
كبيرة . وكان المفروض أن عصبة الأمم ستشرف على معاملة هذه الدول
لأقلياتها ، ولكن هذا الاشراف لم يكن فعالا جدا . وفيما يتعلق بحقوق اللغة

(١) لورد مستون «الامة الهندية» ١٩٣١ ص ٤٥ . بيد أن هناك لغات أخرى
منتشرة تستعمل أيضا كلفات اتصال .

(٢) أنظر ص ٥٢٣ ويوجد تفصيل للمركز القانوني للغات في النمسا القديمة في
«Das Nationalitätenrecht des Alten Oesterreich».

لعدة مؤلفين باشراف هيو جلمان ١٩١٠ .

(٣) أنظر هـ . فيلتمان «Die Vielsprachige Schweiz».

اتخذت بعض الدول الجديدة موقفا تحريريا ، مثل تشيكوسلوفاكيا (١) ،
فى حين كان بعضها أقرب الى التعصب . فإيطاليا ، التى لم تكن خاضعة
لاشراف عصبة الامم بوصفها دولة كبرى ، اضطهدت كثيرا اقلياتها السلافية
والألمانية ، أما الاتحاد السوفيتى فانه منح شعوبه العديدة المساواة
والتشجيع فيما يتعلق بلغاتها وتعليمها . بيد أن المعاملة المنصفة للاقليات
القومية ليست مجرد الاعتراف بحقها فى لغتها القومية .

٧ - أيرلندا ولغتها القومية

تنص المادة الأولى من الدستور الأيرلندى الحالى على أن الأيرلندية هى
اللغة القومية واللغة الرسمية الأولى . ويؤدى ذلك الى موقف غريب ، بل
هو فريد ، يعلن فيه أن اللغة القومية لغة لا يتحدث بها سوى قطاع صغير
من السكان فقط . بيد أن الحكومة الأيرلندية تأمل أن تغير ذلك مع
الوقت ، وأعلنت أن صبح المدارس الابتدائية باللغة السلتيّة هو الهدف
الأول للتربية (٢) .

وتصور حالة أيرلندا التغير الذى حدث فى الموقف من اللغة كما
أشرنا من قبل . فالإنجلو نورمانديون الذين استقروا فى أيرلندا اتخذوا
بسرعة اللغة الغالية لسانا والعادات الأيرلندية . ولكن منذ عهد هنرى
السابع ، وبخاصة منذ عهد جيمس الأول ، انعكست الآية (٣) . فقد
صارت الأرستقراطية الأيرلندية القديمة تتحدث الانجليزية ، أو هاجرت
الى فرنسا واسبانيا والنمسا حيث التحقوا بجيوشها . ونقل كثير من
الانجليز والاسكتلنديون الى أيرلندا للإقامة فيها وتعرض الأيرلنديون
لاضطهاد شديد . وبالتدريج نمت جنسية أيرلندية جديدة من اندماج
العناصر القديمة والجديدة . وكانت الطبقات العليا والوسطى تتحدث
الفرنسية ولكنها كانت أيرلندية بشعورها ، فى حين احتفظت جمهرة
الفلاحين باللغة الغالية . ومن هنا صار لأيرلندا نوع من الجنسية
المزدوجة ، - ويفترض كثير من الكتاب أنه كانت هناك أمتان أيرلنديتان ولا

(١) ومع ذلك فإن اللغة التشيكية كانت « لغة الدولة » وكان لها مركز ممتاز أكد
بعدة طرق لأسباب تتعلق بالهوية ، وإن كان ذلك قد أثار التذمر . ومن الأمثلة البارزة
أن بلدية براغ حظرت حظرا تاما كتابة أية لافتات أو ملصقات باللغة الألمانية فى الفنادق
والمصارف والمحلات التجارية الخ . ورغم أن براغ كانت عاصمة بلد تعداده ٣٠٤ مليون
من الألمان ، ورغم أنها مقر الجامعة الألمانية وعدد كبير من الصحف الألمانية والمؤسسات
الألمانية الأخرى . فى حين كان التشيكيون قبل الحرب أحرارا فى فينا فى عرض أنه
لافتات باللغة التشيكية يريدونها .

(٢) « دليل البرلمان الأيرلندى » ١٩٣٩ ص ١٨٤ .

(٣) أ. كيرتس « تاريخ أيرلندا » ١٩٣٦ ص ١٧٠ و ٢٢٠ .

تزالان موجودتين جنباً الى جنب (١) . وجميع دعاة الجنسية الارلندية وحرية ارلندا قبل جماعة « سين فين » ، مثل سويقت وجراتان وفلود وأوكونل وبارنل وردموند وكثيرين غيرهم ، كانوا من الأمة الارلندية التي تتحدث الانجليزية . ومعظمهم لم يهتم كثيراً ، أو حتى لم يهتم قط ، باحياء اللغة الغالية كلغة قومية ارلندية . وكان أعظمهم جميعاً ، وهو أوكونل ، يعارض ذلك تماماً ، برغم أنه كان يتحدث الارلندية منذ طفولته (٢) . فقد كان مقتنعاً بأن مصلحة الارلنديين أن يستخدموا اللغة الانجليزية التي تفتح أمامهم الطريق لأسمى الثقافات وللعالم . وفي بداية القرن التاسع عشر كانت أغلبية الارلنديين ما زالت تتكلم الغالية ، وربما استمر ذلك الى منتصف القرن . وفي ١٩٢٦ كان ١٧٩٪ من السكان يتكلمون الارلندية والانجليزية و ٤٢٪ يتكلمون الارلندية وحدها . ففي فترة الاضطهاد الطويلة تمسكت جماهير الشعب الارلندي باللغة الغالية ، ولكن في القرن التاسع عشر عندما ألغيت التشريعات الاضطهادية ، أو صارت بلا فاعلية ، هجروها باختيارهم . ولكن حدث تغير في موقف الحركة القومية الارلندية ابتداءً بإنشاء « العصبة الغالية » في ١٨٩٢ . وتهتم « السين فين » الآن اهتماماً شديداً بجعل معرفة اللغة الغالية عامة . ومن المشكوك فيه أن تنجح محاولاتها . فالأطفال يتعلمون الارلندية في المدارس ويتكلمون الانجليزية في بيوتهم ، وكثيراً ما ينسون الارلندية بمجرد أن يغادروا المدرسة . ومن وجهة النظر العملية يستفيدون أكثر اذا تعلموا لغة أخرى من اللغات الواسعة الانتشار بجانب الانجليزية . ومن الجلي أن الهيبة الثقافية لارلندا ستتأثر أيضاً اذا حلت الغالية محل الانجليزية . فكثير من الشعراء الارلنديين والكتاب والسياسيين والعلماء صاروا مشهورين في كل مكان عن طريق استعمالهم للغة الانجليزية . فقد حظى سويقت وبيرك وشريدان وجولد سميث وبيركلي ومور وأوكونل وشو وأرلنديون آخرون بتقدير كبير في جميع أنحاء العالم . ولو أنهم كتبوا أو تحدثوا باللغة الارلندية وحدها لما عرفتهم حتى أغلبية الارلنديين . وصحيح أن كثيراً من الكتاب النرويجيين والسويديين والدانمركيين حصلوا على شهرة دولية عن طريق الترجمات ، ولكن ذلك يرجع الى حد كبير الى ظروف خاصة يبعد أن تتوفر في حالة ارلندا . واذا تكلم الجميع لغتين فسيقتضى طبعاً على خطر العزلة الثقافية . ولكن في

(١) و.ف. مونيني «الامتان الارلنديتان» ١٩١٣ - وكثيراً ما كان القطاع الذي يتحدث الانجليزية يسمى « الأمة الوسطى » .
(٢) ستيفن جوين «ارلندا» ١٩٢٤ ص ١٣٥ .

حالة ايرلندا يغلب أن تصبح اللغة الايرلندية لمجرد التعبير عن الوطنية في حين تظل الانجليزية لغة كل يوم والأدب والعلم . وأخيرا من الواضح أن أية محاولة للحد من استعمال اللغة الانجليزية ستؤثر تأثيرا بالغا في العلاقات مع ذلك القطاع من الأمة الايرلندية الذي يتكلم الانجليزية ، وتصبح عقبة لا سبيل الى التغلب عليها في الاتحاد بين ايرلندا الشمالية والجنوبية .

وقد حافظ أهل ويلز على لغتهم أكثر من الأيرلنديين ، برغم أنهم لم يظهروا نفس التعصب القومي . ففي حين كان عدد السكان الذين يتكلمون الايرلندية في الجمهورية الايرلندية في ١٩٢٦ هو ٥٤٣٥١١ شخصا (منهم ٥٣١٠٥١ يتحدثون الانجليزية أيضا) كان عدد من يتحدثون لغة ويلز من أهلها حوالي ٩٠٠٠٠٠ لم ينقص منهم شيء تقريبا في الأربعين سنة الماضية وهناك رجل من أهل ويلز ، هو مستر لويد جورج ، لعب دورا كبيرا في تاريخ العالم بوصفه رئيسا لوزراء بريطانيا وأضاف الى اسم ويلز هيبة أكثر مما فعل أي سياسي في بلد مستقل صغير (١) .

٨ - اليهود واللغة

في العصور الوسطى تعرض اليهود لاضطهاد قاس في ألمانيا واسبانيا ، وأخيرا طردوا . ووجدوا ملجأ في بولندا وتركيا ، واحتفظوا هناك باللغة الألمانية والاسبانية اللتين كانوا قد اتخذوهما لغة في ألمانيا واسبانيا ، وإن كان مع شيء من الخليط . وفي العهود التالية هاجر كثير من اليهود البولنديين الى الغرب ثانية ، وظلوا مدة محفظين ببعض السمات الخاصة في الحديث . بيد أن هذه السمات اختفت أكثر فأكثر مع انتشار التربية الغربية بينهم ، وهناك كثير من الكتاب والمتحدثين اليهود يعدون بين أكبر اساتذة الألمانية والفرنسية واللغات الغربية الأخرى . وهذا أيضا يناقض العلاقة المزعومة بين اللغة والجنس ، وإن لم يكن اليهود طبعا جنسا متجانسا . وفي العهود الأخيرة دفعت زيادة الاتجاه المناهض للسامية ونمو الصهيونية العديد من اليهود في شرق أوروبا ووسطها الى الهجرة الى فلسطين . وكان يحدو كثير منهم الأمل في انشاء أمة يهودية ، ومن ثم أثر موضوع اللغة التي تتخذ لغة قومية . ودعا قطاع منهم الى

(١) يعترف وطني متحمس من أهل ويلز ، هو مستر ج. فيرنوي مورجان ، في كتابه « دراسة في الجنسية » ١٩١١ ص ٣٢٤ و ٤١٤ بأن شعبه حصل على مزايا كبرى عن طريق الاتحاد مع الشعب الانجليزي وأنه أصاب رخاء كان من المستحيل أن يصيبه لو أنه كان في ظل نظام من الاستقلال لويلز .

العبرية ، التي احتفظت باستمرار بمكان معين في التعليم الديني لدى اليهود يماثل مكان اللغة اليونانية واللاتينية في مدينتنا ، وان كان من يستطيع التحدث بالعبرية بين يهود غرب أوروبا الحديثة قليلين . ومن الناحية الأخرى كان عدد كبير من المهاجرين يتكلمون لغة الشلخت ، وأساسها المانية العصور الوسطى مع خليط من العبرية والسلافية . وقام صراع بين دعاة كل من اللغتين ، ولا يزال مستمرا ، وقد ظهرت كتابات كثيرة باللغتين (١). فالمشاعر الدينية والتاريخية تدفع نحو العبرية ، في حين تؤيد الأسباب العملية والتقاليد الشعبية الى لغة الشلخت التي كانت لغة حية مرتبطة بحياة جماهير اليهود الشرقيين ومشاعرهم ويفضلها بصفة خاصة النساء ، اللاتي لم يتعلمن العبرية .

٩ - التصادم بين لغة الادب واللغة الشعبية . اليونان والنرويج

وفي اليونان أيضا نجد اختلافا بين موقف الطبقات التي نالت تعليما عاليا والطبقات الدنيا تجاه اللغة القومية . وقد حاول عالم اللغة أدامانتئوس كواربيس أن ينقي اللغة الشعبية من جميع العناصر الأجنبية بهدف أن تصبح اللغة أقرب ما تكون من اللغة الإغريقية القديمة . وصار هذا النتاج المصطنع لغة البرلمان والقوانين والكنيسة والعلم والمدارس والادارة ومعظم الصحف . ولكن لسوء الحظ وجد الشعب صعوبة في فهم هذه اللغة ، ولم تكن ملائمة جدا للتعبير عن عواطف الرجل الحديث وأفكاره . وكان هدف توحيد اللغة الحديثة في اليونان مع اللغة القديمة هو التوحيد بين الشعب الحالي والشعب الإغريقي القديم . ومن الجلي أن هذا الاتجاه انبثق من الاعتقاد الرومنسي بأن روح الشعب مرتبطة بلغته ، وان إعادة اللغة الأصلية خالية من كل خليط متأخر ستعيد نبوغ الإغريق القديمة الى الأمة الحديثة . وقد أثارت ترجمة عيون المؤلفات الإغريقية القديمة والإنجيل الى اللغة الشعبية دعاة القومية وادت الى شغب واراقة دماء ، والى ادراج نص يحظر افساد اللغة في دستور ١٩١١ . ويستطيع المرء أن يتصور التأثير السيئ الذي أحدثته معاملة اللغة الحية بهذا الأسلوب اذا تخيل أن الكتاب الإنجليز الحديثين مرغمون على اتباع قواعد

(١) س . و . بارون « التاريخ الاجتماعي والديني لليهود » المجلد ٢ ص ٣٣٣ ،
المجلد ٣ ص ١٢٦ و ١٦٨ حيث يشير الى مؤلفات كثيرة .

اللغة في عهد بيولف ومفرداتها . وايا كان الأمر فقد استخدمت مع الوقت قوالت حديثة أكثر فاكثر في الشعر والقصص (١) .

وفي النرويج قامت حركة لاصلاح اللغة القومية واتبعت عكس هذا الطريق (٢) . ففي هذه البلاد كانت لغة حوالى ثلثى السكان ، بما فيهم القسم الأكبر من المتعلمين وسكان المدن ، صورة معدلة من اللغة الدانماركية تسمى « ريكسمال » . ويرجع تاريخها الى الصلة الطويلة السابقة مع الدانمارك التى قطعت فى ١٨١٤ . بيد أن قسما من الفلاحين كانوا يتحدثون عدة لهجات نرويجية استخدمها ايفار آيش لتكوين لغة جديدة تسمى « لاندسمال » . ولم يكن شعور النرويجيين نحو الدانماركيين سيئا ، بل انهم فى ١٩٠٥ انتخبوا أميرا دانماركيا ليكون ملكا لهم . ومع ذلك فقد قامت حملة كبرى تهدف الى ابدال « الريكسمال » الأجنبية « بالاندسمال » القومية . وقد استعمل اكبر كتساب النرويج مع جورنسون وايسن الى هامسون وأوندست كلهم اللغة «الأجنبية» . كما أثير ايضا اعتراض بأن اللغة المصنوعة لا يمكن أن تصلح للأدب الرفيع وأن تبنيها بواسطة شعب صغير سيؤدى الى عزلة ثقافية . وبعد صراع طويل جدا صدر قانون يجيز حلا وسطا بدمج اللغتين . وقد احتج المحافظون بشدة على « تبسيط » اللغة كما سموه ، فى حين أن أغلبية اليسار جذبت الاصلاح .

١٠ - حروف الكتابة والجنسية

تعتبر حروف الكتابة أيضا ، الى جانب اللغة ، من الأمور ذات الميزى بالنسبة للجنسية . فقبل ظهور حروف الكتابة ، ولمدة بعدها ، كانت قوانين الشعوب وتقاليدها الى حد كبير فى يد الطبقات الحاكمة ، وكانت صياغتها كتابة خطوة هامة نحو تحرير الطبقات الوسطى والدنيا ونحو الجنسية التى تقوم على أساس شعبى واسع . وكل لغة تحتاج حقيقة الى حروف خاصة تناسب نظام أصواتها . فضلا على أن الحروف الخاصة بالشعب كثيرا ما كانت رمزا للشخصية القومية (٣) . فدعاة

(١) ب . مارتن « اليونان فى القرن العشرين » ١٩١٣ ، وك . كرومباخر «Populaere

«Aufsaetze» ١٩٠٩ ، و.ج. ديشامب «La Grèce d'Aujourd'hui»

١٩٠٥ ص ٩٥ .

(٢) ج . جاتورن - هاردي « النرويج » ١٩٢٥ ص ١٧٧ .

(٣) فى الكمرون اخترع ملك شاب حروفا خاصة لشعبة ، برغم أنه كان يعرف الحروف الاوربية والعربية ولكنه رفضها بدافع الكبرياء القومى . وسرعان ما استطاع ٦٠٠ من رعاياه أن يتعلموا قراءة هذه الحروف . انظر «Anthropos» مجلد ٣ ص ٨٣

القومية الألمان اعتبروا الحروف القوطية هي الحروف الألمانية الأصلية ، وهو أمر لا يؤيده التاريخ ، وحظروا استعمال الحروف الرومانية باعتباره أمرا غير ألماني . ويتحدث الصربيون والكرواتيون نفس اللغة تقريبا . ولكن الصربيين يستعملون الحروف السلافية في حين يستعمل الكرواتيون الحروف اللاتينية ، ويقابل هذا ما بينهما من اختلاف في الكنيسة والتقاليد . وفي تركيا بعد الحرب الكبرى حلت الحروف اللاتينية محل العربية ، لا لأسباب عملية فحسب ، بل وكرمز أيضا لروح قومية جديدة .

١١ - الحروف واللغة والجنسية في الصين

لقد احتفظت الصين بالحروف القديمة الكلاسيكية برغم صعوبتها الفائقة (١) . وتسهم الحروف الصينية في الوحدة القومية عن طريق طابعها الفريد . فهي كتابة رمزية كل علامة فيها تشير الى فكرة لا الى صوت . وهذا يجعل في حيز الامكان أن يفهم الناس ذوى اللغات المختلفة معانيها . إذ أن هناك اختلافات لغوية كبيرة بين الصينيين . والمتعلمون كقاعدة عامة يعرفون اللغة الصينية الكلاسيكية . فضلا عن أن القسم الأكبر من الشعب يتحدثون صورة من صينية « الماندارين » ، وهي اللغة التي تستخدمها أيضا الادارة المركزية ، وتنتشر هذه اللغة الآن في جميع أنحاء الصين وصارت اللغة القومية ، والناس الذين لا يفهم بعضهم بعضا يتفاهمون بالكتابة . فكل واحد يعرف أن علامة معينة تعنى « منزلا » وان كان المشتركون في الحديث قد يطلقون عليه كلمة مختلفة تماما في كلامهم (٢) . وتجعل هذه الطريقة أيضا في وسع الصينيين الحاليين أن يقرأوا كتاباتهم الكلاسيكية ، كتب كونفوشيوس مثلا (التي كتبت قبل ميلاد المسيح بستة قرون) ، في حين أن الأوربي الحديث لا يستطيع أن يفهم ما كتب بصورة لغته نفسها في عهد الاقطاع اذا لم يكن قد درسها دراسة خاصة . ومن ثم فان هذه الكتابة تدعم نفوذ الكتب القديمة على الفكر الصيني الحديث . والصينية الكلاسيكية لا تزال اللغة المستعملة

(١) ألف جيمس بن حروفا مبسطة بأن اختار ألف حرف تصلح لتعليم الشعب.

انظر هـ - هودجكين « المشاكل الحية في الصين » ١٩٣٢ .

(٢) ح . أسكارا «الصين وقتل والآن» ١٩٤٠ ص ٦٨ . وقد كان من أفكار لسنين

المنفصلة أن يبتكر لغة رمزية عالمية يستطيع كل انسان أن يفهمها بصرف النظر عن لغته الأصلية . انظر كونوفيشير « ح . و . لينز » ١٩٠٢ ص ١٤ و ٣٧ .

فى الشعر والتارىخ والفلسفة والدين والكتابات الادارية ، فى حى أن القصص والمسرحيات تكتب باللغة الدارئة .

وىقول الاستاذ لانسلو فورستر من جامعة هونج كونج : أن صعوبة اللغة الصىنية الكلاسىكية كانت العامل الرئيسى فى المحافظة على النظام الاجتماعى والسىاسى القدىم قبل الثورة . فقد « كانت معرفتها معرفة تامة ، وهى مفتاح المعرفة الضرورية للانخراط فى الحكومة ، تتطلب فترة طويلة من الدراسة وقدره على التركيز والتذكر كان المستحيل تماما معها أن يصل الفرد المتوسط الى معرفتها تماما » . ثم يقول : انها مع ذلك حظيت بالقبول العام من جانب الناس ، وكانوا يكون احتراما عميقا لمن يصل الى ما يعد مستحيلا بالنسبة لهم (١) . ومن ثم فانه يمكن القول بأن تفرد اللغة الصىنية وحروف الكتابة بطريقة خاصة بهما كان له أثر عميق فى البناء الاجتماعى والسىاسى للشعب .

١٢ - اللغة كمعيار للجنسية

لقد نظرنا حتى الآن فى مغزى اللغة بالنسبة لمركز الأمة وبنائها . ولها بالاضافة الى ذلك أهمية كبرى فى تحديد الامم . وفى الرأى العادى تعد الأمة ببساطة شعبا ذا لغة مستقلة ، وفى حالات النزاع حول جنسية شعب ما يحكم معظم الناس على الفور على أساس العلاقات اللغوية . اذ يبدو لهم من الطبيعى أن الشعوب التى تتكلم لغة واحدة ، أو نفس اللغة تقريبا ، تؤلف أمة واحدة ، والحالات التى لاتتفق مع هذا الرأى تعتبر استثناءات . بيد أن هذا التوحيد بين الأمة والمجموعة اللغوية لا يقوم عليه دليل . وهو يتعارض مع كل من المفهوم القانونى والمفهوم الاجتماعى للأمة . فالجماعات التى تتألف بوحدة المشاعر والمواطنة واللغة كثيرا جدا مالا تكون متفقة ، بل تتداخل بعضها فى بعض . وفى حالات كثيرة تكون شعوب ذات لغات مختلفة مؤلفة من مواطنين فى دولة واحدة، وتعتبر بعضها البعض أعضاء فى نفس الأمة أحيانا . ومن الناحية الأخرى تتحدث أمم مختلفة كثيرة لغة واحدة . فضلا عن أن التحديد تبعا للغة قد يكون فى بعض الحالات عسيرا بسبب أن أجزاء كبيرة من السكان تتحدث لغتين ، أو لغة متوسطة بين لغتين ، بحيث أنه لا يكون من السهل تحديد أقرب الأمم صلة بها .

أن الانجليز وأهل أمريكا الشمالية وجزءا كبيرا من سكان الدومينيون

(١) ل . فوستر « الثقافة الجديدة فى الصين » ١٩٣٦ .

يتكلمون الانجليزية . والفرنسية يتكلمها ايضا اهل بعض أجزاء سويسرا وبلجيكا وكندا ، والألمانية يتحدث بها اهل بلاد أوربية كثيرة ، والسويدية يتحدث بها أهل فنلندا ، وفي أمريكا الجنوبية والوسطى تعتبر اللغة الإسبانية لغة قومية في ثمانى عشرة دولة . ومع ذلك فان مواطنى كل دولة يعتبرون أنفسهم أمة منفصلة ، وتوجد عداوات كبيرة بين بعض هذه الأمم . واللغة الهولندية والفلمنكية ، والتشيكية والسلوفاكية، والصربية والكرواتية ، والدانماركية والنرويجية لهجات من لغات واحدة تقريبا . ومع ذلك فان الاختلاف فى اللهجات كثيرا ما ساعد على إثارة العداوات القومية أو اعتبر من الخصائص الأثرية عند أصحابه . والألمان والنسماويون يتكلمون الألمانية ، ولكن الألمانى الشمالى يجد صعوبة عادة فى فهم اللهجة النمساوية والعكس بالعكس . ولهجة السويسرى الألمانى تكاد تكون غير مفهومة لدى الشعوب الأخرى التى تتكلم الألمانية ، ويهتم السويسريون اهتماما كبيرا بالتحدث بها فيما بينهم ليظهروا تميزهم القومى عن الألمان .

ومن الواضح اذن أن اللغة فى حالات كثيرة ليست معيارا كافيا لتحديد الجنسية ، وان كانت دائما عاملا مهما . فعندما صيغت معاهدات الصلح فى ١٩١٩ افترض بصفة عامة ان الناس الذين يتحدثون لغة واحدة تقريبا يرغبون فى تأليف أمة واحدة ، وأن اشتراكهم فى جنسية واحدة لا يحتاج الى أى دليل آخر. وهكذا تألفت الأمة التشيكوسلوفاكية من التشيك والسلوفاك ، وكانت تكتب « تشيكوسلوفاكيا » ثم ألغيت الفاصلة فيما بعد لتأكيد وحدة الأمة. ووجد أيضا الصربيون والكرواتيون والسلوفينيون فى أمة واحدة سميت فى مبدأ الأمر « دولة الصرب والكروات والسلوفينيين » ثم أعيد تسميتها يوغوسلافيا للتعبير عن وحدة الأمة . وقد قوبلت جميع هذه التسويات بمعارضة كبرى ومقاومة شديدة لا من جانب الاقليات فحسب بل أيضا من جانب الجنسيات التى ادمجت فى اسم الدولة واعتبرت بذلك اجزاء ممتازة من الأمة ، مثل السلوفاكيين والكرواتيين . وفى بعض الحالات جعلت معاهدات الصلح أو التسويات اللاحقة القرار متوقفا على استفتاءات عامة تبين رغبة السكان فى الأمة التى يريدون الانتماء اليها . ومما يستترعى الانتباه أن نتيجة هذه الاستفتاءات كانت عادة تناقض افتراض أن الجنسية تتحدد بدرجة كافية بواسطة اللغة . فهناك سلافيون مثل المازوريين فى بروسيا الشرقية وكثير من السلوفينيين فى كارينتا صوتوا ضد الاندماج فى الدول السلافية وأعلنوا رغبتهم فى الانضمام الى سكان يتحدثون الألمانية فى المانيا أو

النمسا . ومن ناحية أخرى قرر شعب أودنبرج (سوبرون) الذين تسود بينهم اللغة الألمانية الانضمام الى هنغاريا . قد ضم أهل هولتسبين أو هلوسين ، الذين كان حوالي ٨٠ في المائة منهم يتحدثون لهجة تشيكية الى تشيكوسلوفاكيا بمقتضى معاهدة الصلح ودون استفتاء . ومع ذلك فانهم سرعان ما ابدوا معارضة شديدة للنظام التشيكي ، وصوت ٨٠ في المائة منهم حتى مع حزب السوديت الالماني الذي كان يتناف من قوميين المان (١) . بيد أن الحلفاء انفسهم لم يعتبروا اللغة عاملا حاسما في حالات أخرى . فالسكان الذين يتحدثون الألمانية في مناطق مثل النمسا وشمال بوهيميا وبعض الجهات الأخرى لم يسمح لهم بالانضمام الى المانيا .

ووجهة النظر التي تقول بأن اللغة هي معيار الجنسية تلعب دورا خاصا في أيديولوجية النزعة القومية الألمانية ، وإن لم تكن مقتصرة عليها وحدها . فالأحداث التاريخية بعثرت السكان الذين يتحدثون الألمانية في منطقة واسعة من وسط وشرق أوروبا انفصلت عن ألمانيا مع الوقت أو لم تكن تابعة لها قط . وقد نظر دعاة الوحدة الألمانية وخلفاؤهم النازيون الى هذه الشعوب دائما باعتبارها أجزاء من الأمة الألمانية ، وأعلن هتلر مرات كثيرة أنه حاميا . والألمانية لغة النمساويين وأغلبية السويسريين . فضلا عن أنه توجد ، أو كانت توجد ، اقلية تتكلم الألمانية في دول البلطيق وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وروسيا وإيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة والبرازيل وكثير من دول أمريكا الأخرى وفي المستعمرات الألمانية السابقة . بالإضافة الى ان دعاة الوحدة الألمانية يعتبرون الهولنديين والفلمنكيين والدانماركيين أيضا من الالمان بمعنى أوسع ، وينظرون الى لغاتهم كمجرد لهجات ألمانية . ولكن وجهة النظر الألمانية في الجنسية لا تأخذ بها معظم الأمم الأخرى . والا لطالب الانجليز بادماج أمريكا الشمالية في الكومنولث أو العكس ، وطالب الفرنسيون بادماج السويسريين الذي يتحدثون الفرنسية والبلجيكيين في فرنسا وباستعادة جزء من كندا . ويكون للأسبانيين الحق في معظم أمريكا الجنوبية وللبرتغاليين حق في البرازيل . ويستطيع في هذه الحالة الهولنديون العمل على توسيع حدودهم لضم جزء من بلجيكا وكذلك على ضم البوير .

(١) الزابث ويسكمان « التشيكيون والالمان » ١٩٣٨ ص ٢٣١ . وهناك تفاصيل مهمة فيما يتصل بالاستفتاءات العامة في كتاب ادوارد . ه . كار « شروط السلام » ١٩٤٢ ص ٤٥ ، وساره وامبر « الاستفتاءات منذ الحرب العالمية » مجلدان أصدرتا تحت اشراف مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي ، ١٩٣٣ .

الدين والجنسية

١ - الدين كقوة اجتماعية .

استخدم تعبير الدين دلالة على ظواهر مختلفة تماما بحيث أن أحد الدارسين المتخصصين انتهى الى أنه لا يمكن تعريفه (١) . ومن العسير فعلا القول : أين يبدأ الدين ؟ وأين ينتهى ؟ ، وفصله فى حالات معينة عن الأخلاق والفلسفة والشعر والسحر والحرافات والسياسة . وأيا كان الأمر فمن الواضح أن الموضوع يتصل اتصالا وثيقا بالجنسية من عدة جوانب . فالدين كان ، وما زال الى حد كبير ، رابطة قوية بين أفراد المجتمع . وقد انبثقت الوحدة القومية والتضامن القومى الى حد كبير جدا من جذور دينية ، وكل مدنية قومية تأثرت تماما بالقوى الدينية . ويجب أن نؤكد أن هذا البحث يقتصر على الدلالات القومية للدين ، وليست هناك أية محاولة هنا للحكم على صحة أية نظم دينية أو مزاياها أو مساوئها العامة . بيد أنه لما كان من المستحيل فهم روح كل جنسية الا فى ضوء مدينتها ، فلا بد أيضا من أن نحاول تقييم تأثير الأديان فى المدينيات .

لقد لعب الدين دورا ضخما كمركز للجنسية . والدافع الحقيقى للكثير من الصراعات التى تعتبر دينية كان هو الشعور القومى الوليد يحاول التعبير عن نفسه فى شخصية قومية . ومن الناحية الاخرى ، أن الدين الى حد بعيد هو الذى علم الناس ذلك التضامن الوثيق الذى تنطوى عليه فكرة الأمة ، والذى أسهم قطعا فى نمو الاعتقاد بأن الاخلاص للجنسية

(١) كلمنت ويب « نظريات الجماعة فى الدين والفرد » ١٩١٦ ص ٥٩ .



القومية والتضحية من أجلها واجبان تأمر بهما سلطة أسمى من أية حكومة بشرية .

والتأثير الاجتماعي للدين لا يمكن استنتاجه ببساطة من معتقداته الدوجماتية . ففي بعض الأحيان نمت عقليات قومية متباينة تماما من كنائس متقاربة تماما في معتقداتها ، كما يتبين من أمثلة الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية ، ومن كنيسة لوثر وكنيسة كالفن . ومن الناحية الأخرى كثيرا ما أدت أديان مختلفة تماما . مثل التوحيد وعبادة الكون وتعدد الآلهة ، الى ظواهر متماثلة جدا مثل معايير أخلاقية واحدة . فضلا عن أنه يجب ألا ننسى أن كل دين من الأديان الكبرى انبثقت منه على طول الزمن معتقدات ومشاعر وتنظيمات مختلفة تماما في صورتها ومن ثم أثرت في العلاقات الاجتماعية ، وبخاصة الجنسية ، بطرق مختلفة تماما . ونحن كثيرا مانجد أن التوحيد دخل ، عن طريق التصوف أو التأمل ، في عبادة الكون ، أو أخذ لونا تعدديا عن طريق الحرافات الشعبية ، أو العكس بالعكس . فالتأثير المتبادل بين الدين والقوى الاجتماعية معقد ، وكثيرا ما يكون غير مباشر أو واع .

ويمكن أن نعثر على المشاعر والأفكار التي تقترب من الجنسية الحديثة الى حد يزيد أو ينقص لدى كثير من الشعوب في جميع العصور ، وفي بعض الحالات القليلة يبدو التقابل واضحا . ومع ذلك فإن التطلعات القومية تحققت بدرجة كبيرة نسبيا وبلغت صورة واعية جدا لأول مرة في

أوروبا الغربية • ومن الجلى أن النمط الحديث من الجنسية تتساج المدنية الغربية التى نمت فى تربة المسيحية الغربية. فالشعوب الشرقية العظيمة ، وحتى أثينا وروما فى عهد الاغريق والرومان ، لم تخلق هذا النمط من الجنسية والدولة القومية • كما أنها لم تنتج شيئا مثل العلم التجريبي والتاريخ النقدى والتنظيم التكنولوجى والاقتصادى والانظمة الاجتماعية والسياسة الأساسية التى نعرفها حاليا والتى ارتبطت ارتباطا وثيقا بظهور الجنسية الحديثة • وليس السبب اختلاف الاجهزة العقلية لدى هذه الشعوب بأى حال من الأحوال (١) • فكثير من الاختراعات التى كانت أساسية بالنسبة لمدينتنا ظهرت منذ وقت طويل فى آسيا ، مثل الطباعة ، ولكنها لم تستخدم كثيرا لأن النظام الاجتماعى لم يكن فى حاجة إليها •

ولقد عرفنا التطلعات القومية بأنها السعى نحو الوحدة والحرية والتفرد والهبة ، أو نحو الشخصية • ومن ثم فإن مهمتنا الحالية هى أن ننظر كيف أثر الدين فى هذه التطلعات • ان السمة المميزة الأولى لمدينتنا هى تلك الدرجة الرفيعة من الحرية الفكرية والاجتماعية والسياسية التى تنطوى على اتجاهات تعمل على المساواة والتوحيد • وقد دعمت المسيحية نمو هذه الروح وشجعته بشكل حاسم • بيد أنه يحسن أن نلقى نظرة عابرة على بعض الجوانب العامة المعينة لهذه المشكلة قبل بحث هذه الصلة بذاتها •

ان أهم أسس أى دين هى فكرة القدسية • وفى المجتمعات البدائية يختلط الدين كقاعدة عامة بالسحر ، أى بمحاولة ارغام قوى مافوق الطبيعة على اطاعة ارادتنا وتحقيق رغباتنا (٢) • وقد أثبت السحر دائما أنه أكبر عقبة فى سبيل الحرية الروحية والتقدم الفكرى والتحسين الفنى والاجتماعى والابداع الشخصى • وتختلف بعض الشعوب المعينة يكون

(١) يجب التأكيد بشدة على أن روح المدنية نتاج لقوى تاريخية واجتماعية معقدة جدا ، ولا يمكن تفسيرها بأنها تعبير عن جوهر جنس ما • ولا يثبت اختلاف المذنيات عدم وحدة العقل البشرى • ويقول عالم هندي : « من المستحيل أن نذكر نظاما واحدا أو مثلا أعلى واحدا فى الغرب ليس له مقابل أو مثيل فى الشرق » • بنوى كوماار ساركار «الانظمة والنظريات السياسية لدى الهندوس » ١٩٢٢ و « مستقبل آسيا الفتاة » ١٩٢٢ حيث توجد أمثلة كثيرة على هذا التقابل • وانظر أيضا كتابى « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ •

(٢) هناك مساهمة مهمة فى التمييز بين السحروالدين قام بها كارل بث فى «الدين والسحر » الطبعة الثانية ١٩٢٧ • فبرغم انهما نمطان مختلفان تماما من السلوك فانهما ينبثقان من نفس الجذور التى تقوم على الشعور بالوحدة مع الكون أو مع جزء منه •

عادة نتيجة لنمو اعتقاد قوى بصفة خاصة في السحر (١) وفي الطقوس السحرية (٢) . الى جانب أنه من الواضح أن الاعتقاد في تعدد الآلهة أكثر تعرضاً بكثير من التوحيد للسحر . والتوحيد يدعم فكرة أن هناك قانوناً عظيماً واحداً ينظم سير الطبيعة ويشجع الإنسان على البحث عن هذا القانون . ان الرواد العظام في العلم والفكر كانت تدفعهم في أبحاثهم الرغبة في اكتشاف النظام الالهي في الطبيعة والمجتمع . وتؤكد أخلاقيات التوحيد أيضاً وحدة الجنس البشري وتتغلب على حواجز الجنس والطائفية والطبقية . ويحيط ذلك كله من قيمة الطقوس السحرية البحتة وينكرها ، في حين يؤكد ضرورة نقاء الإرادة (٣) .

ولم يكن الاعتقاد في تعدد الآلهة قطعاً عقبة كؤوداً في سبيل تحقيق مستوى أخلاقي رفيع من جانب الأفراد ، ولكنه بصفة عامة لم يشجع النمو في اتجاه المستويات الرفيعة . والأساطير الدينية الخاصة بمذاهب تعدد الآلهة كلها تزخر بالقصص عن تصرفات للآلهة تبدو شائنة للمشاعر الأخلاقية المرهفة بعد أن يكون معناها الأصلي قد نسي . ومن ثم ساد الاحساس على نطاق واسع بأن الإنسان ليس في حاجة لأن يهتم كثيراً بالقوانين الأخلاقية التي لم يهتم الآلهة أنفسهم بمراعاتها . وأدى عدم ملاءمة المذاهب التعددية الى اتجاه الفلاسفة الى تحويل المعتقدات الشعبية في اتجاه التوحيد أو عبادة الكون . ولكن الفلسفة لم تكن قط أكثر من ميدان لنخبة مثقفة قليلة وتأثيرها المباشر على الدوائر الواسعة محدود جداً . بالإضافة الى أن مذهب عبادة الكون يتصور العالم عادة سراًباً

(١) انظر بخاصة راول آلبه «Le non civilisé et nous» ١٩٢٧

و (الترجمة الانجليزية «عقل الهمجى» ١٩٢٩) .

(٢) ان العقلية البدائية السابقة على المنطق وصفها ل. لفي برول

«Les Fonctions mentales dans les Sociétés inférieures» ١٩٢٢ و «L'âme

Primitive» ١٩٢٧ (الترجمة الانجليزية «العقلية البدائية» ١٩٢٣) . بيد

أن ما انتهى اليه فيه مبالغة في القرون بين الفكر البدائي والتمدين . انظر النقد في آلبه وويب في مؤلفهما الذي سبقت الإشارة اليه .

(٣) صحيح أن هناك مفكرين مسيحيين كبار بشروا بمبدأ القدرية الذي ينكر الحرية المعنوية والمساواة الإنسانية . ولكن الجوهر الاخلاقي للإنجيل تغلب على الدلالات الخطرة لهذا المبدأ . وقد وصل كل من لوتر وكالفن بمبدأ القدرية الى حد القول بأنه حتى ما يفعله الإنسان من شر لا يفعله باذن الله أو بعلم الله فحسب ، بل بقوة الله أيضاً . فهو يضع ارادته في الشيطان والشرير كما يشاء . بيد أن كثيرين من الكالفنيين الحداثيين نبهوا مذهب القدرية . انظر جيمس مكينون «كالفن وحركة الإصلاح الدينى» ١٩٣ ص ٢٣٤ و ٢٩١ وما بعدها .

لا تنفذ اليه الملاحظة التجريبية • ومن ثم خنق العلم بالتأملات الميتافيزيقية ولم يعد هناك مجال لينمو بحرية • ومذهب عبادة الكون بصفة عامة يقود بسهولة الى اللامبالاة الاخلاقية : فالخير والشر يتصوران على أنهما تعبيرات الهية • ويحس الفرد بأنه نصف اله أو فوق مستوى البشر لا يخضع لقيود الفضيلة ، أو كفقاعة عابرة فى محيط الطبيعة اللانهائى • ومن ناحية الحرية السياسية فانها لا تزدهر فى ظل مذهب تعدد الآلهة ولا مذهب عبادة الكون • فكلهما يشجع على تماثل القوة بالحق • وتصور لنا الهيجلية وبعض الفلسفات الالمانية الاخرى الاخطار السياسية لمذهب عبادة الكون •

وقد كانت أخلاق التوحيد عاملا حاسما فى نمو مدينتنا وقوميتنا الحديثة ، وان كانت هناك قوى كثيرة أخرى أسهمت أيضا فى نموها • ولاشك فى أن مذاهب تعدد الآلهة وعبادة الكون فى الشرق وعند الاغريق كانت لها سمات من السمو غير العادى فى الفكر والمشاعر ، وقد انتهى رأى العلماء المسيحيين المهتمين الى أن التقوى والبر والفكر فى الشرق كثيرا ما فاقت مستويات المسيحيين الاوربيين (١) • ولكن برغم هذه الانجازات لم يؤد التيار الرئيسى الى الحرية والجنسية • ولعل من الأسباب التى أدت الى ذلك أنه ما من مدينة شرقية أنتجت تنظيما يقارن بالكنيسة المسيحية •

٢ - اليهودية

فى العصور القديمة ظهر فى كثير من الشعوب ارتباط وثيق بين الدين والجنسية • وقد نمت داخل اليهودية اتجاهات خطيرة الشأن نحو الجنسية ونحو مثل عليا فوق القومية فى نفس الوقت • وسحقت الأحداث التاريخية الاستقلال القومى لليهود ، فقد فقدوا دولتهم وانتزع قسم كبير منهم من أرضهم الأصلية واستقر فى بابل • وبرغم أن هذه البعثة القومية عولجت الى حد ما ، فان الشعب تعرض لكارثة جديدة فى ظل الامبراطورية الرومانية • وتبعثر اليهود فى جميع البلاد ، وكانوا قد هجروا لغتهم فعلا واستبدلوها بالآرامية • واصطبغت الطبقات العليا بالصبغة الاغريقية الى

(١) فيما يتعلق بمقارنة المسيحية بالاديان الاخرى انظر د. أ. ستوارت « مكان المسيحية بين الاديان الكبرى فى العالم » ١٩٢٠ ، وسيدنى كيف « المسيحية وبعض الاديان الحية فى الشرق » ١٩٢٩ • وهناك أوجه شبه من البسير التأكد منها من النصوص الخاصة بالاديان الكبرى التى جمعت فى « انجيل العالم » باشراف روبرت بالورف • شبينيرج ١٩٤٠ ، و « انجيل الجنس البشرى » باشراف ميرزا أحمد صحراب ١٩٣٩ •

حد كبير جدا (١). وقد أدت الكوارث القومية الأولى الى ظهور مبشرين دينيين وأخلاقين كبار ، هم أنبياء اليهود ، أحسوا بأنهم يتلقون الوحي من الله بأن يبينوا لشعبهم الطريق الصحيح فى الحياة . وتظهر فى تعاليمهم اتجاهات ومراحل مختلفة لا حاجة بنا الى الدخول فى تفاصيلها هنا (٢). وكانت النتيجة الرئيسية هى ظهور التوحيد الأخلاقى والتطور التدريجى لفكرة الاله المفرد القوى العادل الذى اختار الشعب اليهودى لرسالة كبرى بشرط أن يطيعوا أوامره طاعة تامة . وكان المنتظر فى مبدأ الأمر أنه سيعيد اليهم استقلالهم ويجعلهم شعبا عظيما على حساب بعض جيرانهم أو حتى سيعطيهم المرتبة الأولى بين الأمم . ولكن هذه الفكرة تسامت أكثر فأكثر نحو العالمية الأخلاقية (٣). وينبغى لليهود بصفة خاصة أن يكونوا نموذجا للشعوب كلها بأن يعيشوا حياة دينية أخلاقية صارمة ، وعندئذ سيتم خلاصهم بمعجزة مقدم المسيح ثم يتمتع البشر بالسلام والأخوة والحب .

ومن السمات الأخرى ذات الأهمية القصوى بالنسبة لنمو المدنية والجنسية الحديثة التنديد بالطقوس المتهتكة والجنوح الى الحط من قيمة الطقوس عموما (٤) وتمجيد النقاء الروحى أو التقوى والمطالبة بالعدالة الاجتماعية والمساواة وفكرة المسئولية الجماعية لكل فرد تجاه المجتمع كله مع فكرة خلاص الفرد . وقد تأكدت وصية حب الجار أيا كان ، بما فى ذلك الغرباء ، ولكن غرس أيضا الانفصال عن الاجانب كوسيلة للمحافظة على النقاء الدينى والروحى . وضعف شأن التأمل الفلسفى عن الله والكون . وقد أدى الاحياء القومى تحت ظل عزرا ونحميا وظهور شيعة المتطهرين فى الفارسيين وشيعة التلمود الربانى ، وكذلك فيما بعد الصراع مع المسيحية والاسلام ، الى دعم العمل على الانفصال عن غير اليهود ، وأدى

(١) ومن الامور ذات المغزى انه حتى فيلو ، أعظم ممثلى اليهودية فى العالم الاغريقى ، برغم تقواه ووطنيته لم يكن قد قرأ الانجيل بالعبرية . انظر س . و . بارون « التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود » ١٩٣٧ ص ١٤٥ .

(٢) يمرض ماكس ويبر تحليلا اجتماعيا ممتازا لنمو الدين اليهودى فى كتابه «Gesammelte Aufsätze Zur Religionssoziologie» ١٩٢٣ المجلد الثالث .

(٣) انظر نورمان بنتوتش «الاسس الدينية للعالمية» ١٩٢٣ ، واسرائيل زانجويل «الشعوب المختارة : المثل العبرى مقابل المثل التوتونى» ١٩١٨ .

(٤) والأضحيات أيضا اتخذت مغزى رمزيا وروحيا أكثر فأكثر ثم اختفت فى نهاية الأمر . انظر و . روبرتسون سميث «العهد القديم فى الكنيسة اليهودية» ١٩٢٦ ص ٣٧٨ وبارون ص ١٠٠ و ٢٩٧ .

الى التشدد فى الوصايا العديدة التى يجب اتباعها بدقة الى شكلية مبالغ فيها ، وان لم يغفل الاتجاه نحو العالمية قط . ولعل اليهود هم أكثر الشعوب القديمة التى ظهر فيها تشابه بالجنسية الحديثة ، بل وحتى بالنزعة القومية . ومع ذلك فان هناك أيضا اختلافات كبيرة . اذ حتى قبل الغزو الآشورى كان اليهود منقسمين الى دولتين وشعبين . وكانت دوافع الأنبياء دينية أساسا وكثيرا ماتعارضت مع مايمكن أن نسميه الآن وجهة النظر القومية . وقد صار الدين أقوى عامل وحدة بين اليهود الذين جاءوا بعد ذلك ، وكان الدين بالنسبة لكثيرين منهم بديلا للجنسية ؛ ولكنه كان يسمو أيضا على مجرد التطلعات القومية .

٣ - بدايات المسيحية

بلغت العالمية الاخلاقية ، التى ظهرت فى اليهودية ، ذروتها فى المسيحية التى تعد فى جوهرها مذهبا فوق القومية . فكل البشر كانوا عند المسيح أطفال الله وأخوة وأخوات . وبرغم أن بعض أقواله توحى برسالة خاصة الى اليهود ، فان هناك أقوالا كثيرة أخرى ترفض دعاويهم بأنهم شعب مختار وتؤكد المساواة بين اليهود وغير اليهود . فمملكة الله التى كان يبشر بها لم تكن دولة قومية يهودية أو أى تنظيم سياسى آخر . فليست هناك صورة من صور الحكم ولا نظام سياسى أو اجتماعى يمكن أن يدعى أنه هو الدولة المسيحية أو المجتمع المسيحى (١) . والمهم هو روح الفرد ، روح الحب والصدق والخدمة المتواضعة والحرص ، وليس أى جهاز خارجى يعمل بالاكراه والانفعال والحديعة . وقد نصح المسيح بالخضوع للسلطة الزمنية مالم تتعارض مع الواجب نحو الله ، ولكنه لم يحذ أى عنف أو حرب أو انتقام أو عقاب . وكان موقف المسيحيين الأول من الدولة موقف الريبة العميقة والنفور . وقد رفضوا تقديس صورة الامبراطور باعتباره الها ، وكثيرون أيضا عارضوا الحرب والخدمة العسكرية . واعتبر المسيحيون أنفسهم أمة منفصلة ، شعب الله (٢) . وانسحبوا من المشاركة

(١) انظر سيسل ج . كادو « الكنيسة الاولى والعالم ، تاريخ موقف المسيحية من المجتمع الوطنى والدولة حتى عهد كونستانتين » ١٩٢٥ ، وأرنست ترولتش « Die Soziallehren der Christlichen Kirchen » ١٩١٢ (الترجمة الانجليزية

« التعاليم الاجتماعية للكنائس المسيحية » مجلدان ١٩٣١) .

(٢) انظر أ . هارناك « توسع المسيحية فى الثلاثة قرون الاولى » ١٩٠٤ ص ٣٠٠ ويقول مارسيانوس اريستيد انه كانت هناك اربع أمم هى البرابرة والاغريق واليهود والمسيحيين ، ومن الجلى أنه اعتبر الرومان غير المسيحيين من الاغريق .

العاملة فى المجالس وفى الحياة العامة ، والفوا مجتمعا منفصلا يقوم على عدم الاكراه والحب الاخوى ، وقد بدا هذا المجتمع لأعدائهم دولة داخل الدولة . ونبذ المسيحيون الأول أفكار الولاء لأى وطن بذاته . ويمكن تتبع هذا التقليد طوال تاريخ المسيحية . وفى أواخر القرن الثانى يذكر « خطاب الى ديوخيتس » الذى يعزى الى جوستينوس ان المسيحيين مثل الغرباء فى بلادهم ويعتبرون كل بلد أجنبى وطن لهم . أما وطنهم الحقيقى فهو النعيم . وبعد ذلك بأكثر من ألف عام استشهد فينسنت أوف بوفيه بهوجوسانت فكتور قائلا : « ان من لا يزال يرسف فى أغلال الارتباط بالوطن ضعيف ، والقوى هو من يعتبر كل بلد وطنه ، والكامل من يعتبر العالم كله منفى بالنسبة له » (١). وكان هذا أيضا هو اعتقاد توماس مور .

وكان المسيحيون الأول أيضا لا يبالون بالشراء ودراسة العلم ومرفهات المدنية ، بل انهم كانوا يقفون منها موقف العداء . بيد أن هذا الاتجاه لم يلبث أن تغير عندما زاد باستمرار عدد من اعتنق الدين الجديد من الطبقات العليا والمثقة . فكثير من الزعماء الجدد كانوا من الدارسين المتعمقين للفكر اليونانى والشرقى وللقانون عند الرومان وسياسة الحكم عندهم ، وحاولوا التوفيق بينها وبين المسيحية . وارتبط العهد القديم أيضا بالمسيحية ، برغم انه ينطوى فى كثير من الأحيان على روح غير روح المسيح ، فضلا على أنه كان ضروريا ملء الفراغات فى تعاليم المسيح . وعندما نمت الكنيسة واحتلت مركزا قويا فى الامبراطورية اتخذت بذلك طابعا يتعارض فى كثير من الأحيان مع روح الانجيل .

٤ - المسيحية عامل أساسى فى الحرية والجنسية الحديثة

كان لكل من الانجيل والكنيسة أثر ضخم فى تكوين مدنيتنا والتمهيد للجنسية الحديثة . ولم تكن هذه النتيجة الى حد كبير جدا مقصودة ولا متوقعة ، ولا حتى موضع ترحيب من جانب زعماء المسيحية والكنيسة . ومع ذلك فلاشك فى أن روح المسيح كانت أقوى أداة لنمو المثل العليا ، وأن الكنيسة كانت أكبر العوامل التنظيمية فى التاريخ .

(١) ابتداء من القرن السادس بعثت ايرلندا أفواجا من الرهبان الذين كانوا ينتقلون من بلد الى بلد وينشئون أديرة فى كل مكان أو يعيشون نساكا ، من مصر الى ايسلندا . وكان الدافع لهم هو الانتكار المقصود للوطن كوسيلة للتقشف والخلاص . وتقول « حياة القديس كولومبا الايرلندية » ان الحجج الكامل هو حج الرجل الذى يترك وطنه تماما ، جسدا وروحا ، ويصير منفيا فى العالم . « كنيسة ايرلندا » . باشراف بل وأمرسون ١٩٣٢ ص ٧٥ .

فضلا على أن الاعتقاد في وحدة الجنس البشرى وأخوته تنطوى على بذور الأفكار الحديثة عن الحرية والمساواة والتضامن . بيد أن نموها أعاقته الى حد ما تعاليم الكنيسة وطقوسها . فالآباء علموا أن الله خلق الانسان للحرية والمساواة . والكنيسة أرغمت على الاعتراف بالسلطات الموجودة واستخدمت الاكراه هي نفسها ، ولكن الاقتناع بأن ذلك فى أساسه معارض لروح المسيحية لم يختف قط . فلم تبد أية مطالبة بالالغاء المباشر لعدم المساواة . ولكن الكثير بذل للتخفيف من وطأتها وشجع اختفاءها تدريجا . وتحسن وضع النساء بشكل حاسم بالاصرار على تعدد الزوجات وعلى حقوق النساء . وقضى على وأد الاطفال أو بيعهم ، الأمر الذى كان كثير الحدوث بين الاغريق والرومان والتيوتون (١) . وأدى الاعتقاد المسيحى فى قيمة روح كل فرد الى فكرة حقوق الانسان التى لا تنفصم عنه والتى لا تستطيع دولة الاعتداء عليها حيث أن ذلك يدمر أساسها المعنوى . وكانت الفكرة معروفة لدى بعض الفلاسفة القدامى ، وبخاصة الراقين . ولكنها لم تكن قط الأساس الذى تقوم عليه الدولة فى عهد الاغريق والرومان . فلم يتورع شعب أثينا صاحب السيادة ولا أباطرة الرومان عن الحكم بالموت على أشخاص يرتابون فى آرائهم أو يتطلعون الى ثرواتهم ، حتى رجال مثل سقراط . وسنكا . وقد وجدت فكرة سيادة الشعب أيضا مايؤيدها فى الانجيل ، وقد استشهد الهوجنوت والمتطهرون أعداء الحكم المطلق بحجج كثيرة من العهد القديم .

٥ - المسيحية والاختلافات القومية

بيد أن الجنسية تنطوى أيضا على تطلع نحو الفردية والهيبة ، اللذين لا قيمة لهما من وجهة النظر المسيحية ، أو يعتبران حتى من الشرور . وتشير قصة برج بابل فى الانجيل الى أن الاختلاف فى اللغات والجنسيات كان عقابا الهيا . ومن العسير حقيقة الجمع بين فكرة التوحيد الأخلاقى والقانون الأخلاقى العام الذى يصلح لكل الشعوب وواقعة أن الشعوب المختلفة لديها معايير أخلاقية مختلفة تماما . وقد أحس غير المسيحيين الذين تقدموا فى اتجاه التوحيد بهذه الصعوبة . فالامبراطور جوليان يهاجم ، فى مقاله ضد المسيحيين ، وهو المقال الذى رد سيريل السكندرى عليه ،

(١) طلب البابا جريجورى السابع من كبير الاساقفة لانغرانك أن يخمد عادة الاسكتلنديين فى بيع زوجاتهم .

الاتجاه المسيحي الى تجاهل السمات القومية المميزة أو الخط من قدرها ، ويسخر باسطورة برج بابل . وهو يصف العادات المختلفة تماما لدى الشعوب باعتبارها من الاشياء المتأصلة الجذور فى استعدادات الجنس ويعتبر طابع الهتهم رمزا لها . فالاله الأعلى وضع كل أمة وكل قطاع من المدنية تحت رعاية اله منفصل يحميها . ففى حين يحب التيوتون الحرية والاستقلال يقبل الشرقيون طوعية الخضوع لكل حاكم مستبد . وينفر الاغريق بشدة من زواج الأقارب ، فى حين لا يرى الفارسيون فيه عيبا .

وحاول جوليان أيضا أن يسمو بمذهب « أم الآلهة » البشع الفاحش لدى الفريجين بأن يضفى عليه طابع الرمز . ومن ثم صار من الممكن الدفاع عن مذهب تعدد الآلهة على أساس الاختلافات التى لا يمكن تغييرها فى الطابع القومى بسبب أن الآلهة مختلفة . وكان للامبراطور شخصا معايير دينية وأخلاقية سامية لا تختلف كثيرا عن معايير المسيحيين (١) . ولكن تبريره لتعدد الآلهة يمس النقطة الأساسية . فتعدد الآلهة يمثل عدم المساواة العنصرية والابقاء على كل سمة قومية متميزة مهما كانت لا أخلاقية فى حين يمثل التوحيد الأخلاقى وحدة البشر وشمول القانون الأخلاقى . وتعدد الآلهة يخضع الفرد تماما للجماعة القومية ، فى حين يرى التوحيد الأخلاقى فى الفرد أسمى قيمة .

وبرغم عدم مبالاة المسيحية بالسمات القومية المميزة فانها أسهمت بنصيب وافر فى الابقاء عليها وتنميتها لأنها كانت متأصلة الجذور فى روح الشعوب ، ولأن الدعوة للعقيدة تطلبت استخدام اللغات المحلية وشيئا من التكيف مع العادات والتقاليد الشعبية . فالكنيسة كثيرا ما اصطنعت عادات وثنية وحاولت أن تضيف عليها معنى مسيحيا جديدا (٢) .

وكان من الضرورى أن تدخل الكنيسة فى الكتابة الى البرابرة وبذلك

(١) وان كان بعض الآباء الأول قد ظهر بينهم اعتقاد مشابه الى حد ما لمعتقد جوليان . فعادوا بالفوارق بين الجنسيات الى توزيع الهى للجنس البشرى بين ملائكة حارسين لقنوا الامم التى تحت اشراف كل منهم عادات مختلفة . وعندئذ تعرضت هذه الملائكة لغواية الشيطان الى حد كبير أو تغلب عليها ، الأمر الذى يفسر السمات الشريرة فى الطابع القومية المختلفة . انظر كادو « الكنيسة الاولى والعالم » ١٩٢٥ ص ٢١١ و ٢٩٥ و ٤٦٥ و ٥١٠ .

(٢) هناك أمثلة كثيرة فى كتاب ك.س. لانوريت « تاريخ توسع المسيحية » ١٩٣٨ مجلد ٢ ص ٤١٣ .

فتحت الطريق لمدينة أرفع ولنمو الخصائص القومية . فأدب كل لغة حديثة في أوربا ، وفي نطاق أوسع بكثير ، يبدأ بكتب كتبها الرهبان . وقد كتب « بيولف » ، برغم وثنية موضوعه ، وكذلك أغاني « كادمون » و« سينولف » ، في أديرة .

وواقعة أن الكنائس المسيحية نفسها سرعان ما أظهرت اختلافات قومية يرجع بعضها الى أثر المدينيات السابقة على المسيحية وبعضها الى الظروف التي نمت فيها العقيدة الجديدة وانتشرت (١) . وكثيرا ما أدرك بعيدو النظر من حكام الشعوب البربرية أن الدين الجديد والمدينة المتصلة به يمكن أن يعمل على تقدم شعوبهم وزيادة قوتهم شخصيا . ومن ثم كانوا أول من اعتنقه ثم حملوا شعوبهم على قبوله ، بالقوة في أحوال كثيرة .

وكان هذا التمسح سطحيا طبعا وكثيرا ما عمد آلاف من الناس دون أى تعليم ديني ، وإن كان التعليم الديني يعقب ذلك . وفي حالات كثيرة كان للملوك الوثنيين زوجات مسيحيات اقنعوهن باعتناق المسيحية . وكانت النساء بطبيعة الحال يملن الى الدين الذي يمنحهن مركزا أكثر كرامة . أما في الشرق بمدينته القديمة فقد واجهت المسيحية ظروفا مختلفة تماما . واعتنق الكثيرون في الشرق الدين الجديد بإيمان ديني عميق .

ولكن من ناحية أخرى كانت الشعوب المتمدينة في الشرق في مرحلة انحدار قومي وخراب وقد تشربت الى حد كبير جدا باليأس من العالم ، في حين أن برايرة الغرب كان يحدهم تفاؤل شاب . ويفسر هذا الاختلاف الى حد ما اختلاف تأثير المسيحية في الطابع القومي بين الشرق والغرب (٢) .

٩ - الكنائس القومية في الشرق

فضلا عن أن أحد أوجه الاختلاف الكبرى كان أن الكنائس الشرقية اتخذت طابعا قوميا في حين ظلت الكنيسة الغربية فوق القومية في

(١) فيما يتعلق بتاريخ توسع المسيحية قارن هارناك ولاثوريت وشارلسي ه . روبنسون «تمسح أوروبا» ١٩١٧ .

(٢) أنظر ر . تشيرش « من بعض المؤتمرات المسيحية في الطابع القومي » ١٨٧٣ ص ١٠٩ .

روحها • فقد دمرت الامبراطورية الرومانية الاستقلال القومى فى كل مكان واحتلت اللغة اليونانية والفكر الاغريقى مكان اللغات القومية والمدنيات القومية على نطاق واسع • وكانت هناك اتجاهات دينية عديدة تتنافس على السيادة •

وأراد الفكر الاغريقى أن يجمع بين تعدد الآلهة وعبادة الكون فى « الأفلاطونية الجديدة » ، وافترض الفرس عداً بين مبادئ الخير والشر أدى الى دين ازدواجى • وهكذا حدث نمو اللاهوت المسيحى فى خضم من الأفكار المتصارعة وانتهى الى تكوين كنائس مستقلة •

وكان للصراعات الدينية فى كثير من الأحيان أصل قومى واجتماعى (١) • اذ تتكشف الصراعات الروحية أحيانا عن عداوات قومية ، كما يبدو فى العدا المبرير المتحيز الذى يكنه اللاأدريين الاغريق لليهود ، أو التحدى الذى أعلنه تاتيان السورى بأن البرابرة أفضل من الاغريق •

وقد وجدت الشعوب التى فقدت دولها القومية وتراثها الحضارى بديلاً فى الدين • فكان بالنسبة لها من عوامل الفخر القومى أن تعتنق الدين الوحيد الذى يضمن الطريق الى النعيم • وهكذا استخدم الدين كشعار قومى ، وكانت بعض الصراعات التى تعتبر دينية بحتة تنطوى على تطلع نحو الجنسية • وكان العدا القومى أحيانا يزداد حدة بسبب العدا بين الطبقات •

فى مصر نظرت طبقات الحكام الاغريق والرومان الى المصريين وكأنهم ليسوا كائنات آدمية برغم انجازاتهم الحضارية الباهرة فى الماضى •

وانحطت اللغة المصرية الى لهجة دارجة للفلاحين الأميين ، ولم تحى الا عندما بدأت المسيحية تتحدث الى الفقراء والمضطهدين بلغتهم • وقد استخدم كثير من الكنائس الشرقية لغة قومية مثل اليونانية والسورية والأرمنية والقبطية والجورجانية والسلافونية والعربية والأثيوبية (٢) •

(١) انظر أ. وودوارد «المسيحية والقومية فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية»

سنة ١٩١٦ •

(٢) فيما يتعلق بالكنائس الشرقية قارن بين ثلاثة مؤلفات لادريان فورتسكيو

واعتنق كثير من النيوتونيين الآريانية ، وهى مذهب من أصل شرقى ،
واستخدموا القوطية واللغات المحلية فى الكنائس .

وفى سوريا أدت الانقسامات الدوجمائية والكنيسة الى نمو
جنسيات ولغات مختلفة .

وقد كانت الكنائس الشرقية حصنا من حصون الجنسية فى كل
وقت ، وفى عهد السيطرة العثمانية دعم نظام « الملل » هذا الاتجاه أكثر
اذ منح الكنائس استقلالا ذاتيا واسعا فى الشؤون المدنية والتربية والمالية
وغير ذلك .

فكانت هذه المجتمعات الدينية كالأمم تقريبا ، والعضو الذى يعتنق
مذهبا آخر كان يعتبر كافرا قوميا .

بيد أن المبدأ القومى فى الكنائس لم يكن كله نعمة . فانقسام
المسيحية الشرقية الى عدة جماعات ، يتصارع بعضها مع بعض صراعا مريرا
فى كثير من الأحيان ، كان مصدر ضعف وجعل الكنائس تعتمد على الدولة
وأدى الى الفصل فى المسائل الدينية بما يتفق والمصالح السياسية فى كثير
من الحالات . وثبت أن القيصرية البابوية فى بيزنطة عقبة لا تقهر فى سبيل
الحرية .

وفى الكنيسة العثمانية كان البطارقة الأرثوذكس والأساقفة محصل
ضرائب للحكومة ، واستغلوا ذلك لجمع المال وكانت مناصبهم تباع عادة
لمن يدفع أكثر .

وفى العهود التالية تورطت الكنائس الارثوذكسية فى الصراعات
القومية القاسية التى أثارتها شعوب البلقان بعضها ضد بعض . وكذلك
كان لاستخدام اللغات القومية فى الكنائس نتائج غير حميدة . فاللغات
كما يتحدثها الناس عادة كانت تتعرض لتغيرات بسبب الهجرات وتغير
العادات والعرف ، ولكن الكنائس الشرقية تمسكت باللغات كما كتبت بها
الكتب المقدسة والطقوس الدينية ، وحافظت على سيطرتها أيضا فى العلم
والأدب والتعليم العالى .

وكانت النتيجة أن الطبقات المتعلمة فى كثير من البلاد استمرت مدة

= «الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ١٩٠٧ و «الكنائس الشرقية الصغيرة» ١٩١٣ و «كنائس
التوحيد الشرقية» ١٩٢٣ ، وكذلك ب. كيد «كنائس المسيحية الشرقية» ١٩٢٧ ،
وبروكلمان وفينك ولبولت وليتمان «Geschichte der Christlichen Literaturen
des Orients» ١٩٠٩ .

طويلة تستعمل لغة فصحي ، وبخاصة في الأعمال الأدبية ، لا تفهمها الطبقات الدنيا ولا صلة لها بمشاعر العصر وأفكاره . ومن ثم كان استخدام اللغات القومية في الطقوس الدينية سببا في تحجرها وأضر بالوحدة القومية وبروح الخلق الأدبي .

٧ - موقف الكنائس اليونانية والرومانية الجنسية وأثرها في الطابع القومي - الامبراطورية البيزنطية

كانت أكبر الكنائس الشرقية جميعا الكنيسة اليونانية الاورثوذكسية، الكنيسة القومية للامبراطورية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تضم أيضا شعوبا كثيرة غير اليونانيين وشجعتهما الى حد ما على استخدام لغاتها في الطقوس الكنائسية ، وان كانت قد حاولت أيضا أن تشجع انتشار اللغة الاغريقية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة الاورثوذكسية مقسمة الى عدد كبير من البطاريكات المتمتعة بالاستقلال الذاتي والكنائس والجماعات التي تؤمن كلها بنفس العقيدة وتقوم بنفس الطقوس ولديها نفس الترتيب الكهنوتي ولكنها مستقلة بعضها عن بعض وتستخدم لغات مختلفة ، وكثيرا ما كانت تمثل جنسيات مختلفة (١) .

وفي حين كانت الكنيسة الشرقية قومية كانت كنيسة روما فوق القومية من ناحية المبدأ . وكانت الكنيسة الاورثوذكسية ، بصفة خاصة، تدار بواسطة بطريركية هي جزء من جهاز الدولة في الامبراطورية البيزنطية ، وكثيرا ما كانت مشاكلها الدينية تقرر بواسطة الاباطرة على أسس سياسية الى حد كبير . ولكن باباوات روما صاروا يؤكدون استقلالهم عن السلطات الزمنية ، بل وتفوقهم عليها أحيانا .

وكانت لغة الطقوس واللغة الرسمية لكنيسة روما هي اللاتينية في

(١) ذكر فورسكيو في ١٩٠٧ ستة عشر كنيسة نقص عدادها في ١٩٣١ الى اثنتي عشرة . انظر م . كونستانطينيس « الكنيسة الاورثوذكسية » ١٩٣١ ، ويجب أن يضاف الى هذا العدد كثير من الكنائس الشرقية التي لا تنتمي الى المذهب الاورثوذكسي وكذلك عدد من الكنائس الموحدة التي تعد شرقية في طقوسها ولفتها ولكنها كاثوليكية في ولائها للبابوية .

كل مكان ، وان كان رجال الدين من أوائل من عملوا على نمو الأدب باللغات المحلية أيضا (١) .

وكان سبب هذا الاختلاف هو ان الكنيسة اليونانية نمت في تربة من المدنيات القديمة وفي ظل حكم يحافظ على التقاليد الرومانية ، في حين نمت كنيسة روما على انقاض العالم الروماني القديم وبين شعوب غير متمدينة . ومن ثم كانت كنيسة روما مما لا غنى عنه مطلقا بالنسبة للحكام الزمنيين للمحافظة على الادارة والمدينة أو لبنائهما . وأتاح ذلك لكنيسة روما سلطة فريدة حتى في المسائل الزمنية البحتة ، ففي الغرب قامت أسس الدول الحديثة في كل مكان بيد رجال دولة أصلهم من رجال الكنيسة ، في حين أن الادارة في الشرق كانت في يد بيروقراطيين من رجال الدين .

وقد حظيت الكنيسة الأورثوذكسية بعطف عميق بين علماء اللاهوت المناهضين لروما في الغرب ابتداء من واكيليف ولوثر الى عصرنا . وقد أشادوا بها بصفة خاصة لاتجاهها القومي وطابعها الديموقراطي المفروض للذين قورنا باستبداد البابوية وعدم قوميتها (٢) ، وان كانت هذه الاشادة تطلب في الحقيقة شيئا من التحديد .

فلا ريب أن الكنيسة الأورثوذكسية أنتج شخصيات دينية عظيمة وانجازات ممتازة ، ومع ذلك فان نفوذها كان أقل ملائمة للحرية والتقدم والجنسية من كنيسة روما ، وان كان من المبالغة أن نقول : ان نمو هذه

(١) الواقع أن الكنيسة في بعض البلاد ظهرت فيها سمات مميزة وبخاصة في ايرلندا . فقد تمسكت الكنيسة الايرلندية القديمة باصرار بطقوسها الخاصة التي من الواضح ان لها مغزى قوميا . ولكن لغتها كانت لاتينية ولم تنبذ سلطة البابا قط . انظر «تاريخ كنيسة ايرلندا» باشراف و. فيليبس ١٩٣٣ ثلاثة مجلدات . والحالة الوحيدة المهمة التي سلمت فيها روما باستخدام لغة أخرى غير اللاتينية هي حالة الكنائس السلافية ، وكان ذلك نتيجة للمنافسة القائمة بينها وبين الكنيسة الأورثوذكسية وسرعان ما ألقى ذلك . انظر م . ميركو «Geschichte älteren Sudslawischen Litteraturen» سنة ١٩٠٨ ص ٣٦

(٢) في إنجلترا حاول كثير من رجال الكنيسة البارزين قرونا طويلة أن يحققوا تقاربا أو حتى اتحادا بين كنيسة إنجلترا والكنائس اليونانية ، وأراد البعض أن يضم البروتستانتية الالمانية أيضا . وقد لعبت هذه الفكرة دورا كبيرا في تفكير جلادستون أيضا . وكانت متصلة بموقفه الودي من روسيا وضد النمسا الذي صار تقليدا له وزن سياسي كبير بين سياسىي الاحرار . انظر برونوباور

«Einfluss des englischen Quakertums auf die deutsche Kultur und auf das english-russische Project einer Weltkirche, 1878»

الأشياء في الغرب يرجع أساسا الى تشجيع متعمد من جانب روما ، أو أن الكنيسة الاورثوذكسية هي المسئولة عن إخمادها في الشرق .

فالأتراك في اليونان والمغول في روسيا كانوا بالتأكيد عقبة ضخمة في سبيل التقدم ، ومع ذلك فإن الاختلاف في روح الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية كان عاملا هاما في خلق الهوية الثقافية والسياسية بين غرب أوروبا وشرقيها .

وكان التباعد بين الكنيستين عملية تدريجية وتم الانفصال النهائي في سنة ١٠٥٤ . وكانت الاختلافات في الطقوس والمذاهب ضئيلة . ويرغم أن التنافس بين روما والقسطنطينية على السيطرة كان من الدوافع الى الانفصال فإنه لم يكن الدافع الوحيد (١) . ونجم عن الاحتكاكات العديدة نفور قومي عميق وغيره . فكان اليونانيون ينظرون الى الرومانيين وحماتهم التيوتونيين باعتارهم أجلافا غير مثقفين وبرابرة ، وكان الرومانيون يعتبرون اليونانيين محدثي نعمة اقليميين اغتصبوا حقوق روما كما اتهموهم أيضا بأنهم غير صادقين . وأثار ثراء بيزنطة حسد الغربيين ووضعت خطط كثيرة لغزو أقاليمها . وعندما حدثت اضطرابات قامت الغوغاء بأعمال وحشية ضد التجار الأجانب في القسطنطينية وانتقم الصليبيون انتقاما فظيعا . ومنذ ذلك الوقت لم يعد من الممكن اجتياز الهوية التي بينهما . وقد قام بعض الباباوات بمحاولات متعددة لتوحيد الكنيستين ، وكذلك الأباطرة البيزنطيون وكبار رجال الكنيسة من الطرفين ، ولكنها اختفت بسبب المعارضة من جانب القسم الأكبر من رجال الكنيسة اليونانيين والشعب اليوناني وقال الامبراطور مانويل الثاني . «أن كبرياء اللاتين وتصلب اليونان لن يتفقا » . وكانت القسطنطينية في خطر كبير فعلا من غزو الأتراك عندما وصل الامبراطور والبطريرك الأورثوذكسي الى اتفاق مع البابا على الاتحاد ثانية ، وكان اتفاقا عادلا ومصحوبا بوعد بابوي بدعوة المسيحية الغربية للدفاع عن أخوانهم في الشرق .

ولكن حتى في هذه اللحظة الحرجة رفض كبرياء القومية اليونانية هذه التسوية وأعلن الفرانديك لو كاس نوتاراس أنه يفضل عمامة السلطان على قبعة الكاردينال . بيد أن السلطان عندما غزا القسطنطينية بعد ذلك بسنوات قلائل أعدم نوتاراس وجميع عائلته .

(١) انظر ش. ديبيل «Byzance, Grandeur et Decadence» ١٩١٩ ص ٢٤١.

و ن . نورج «Histoire de la vie Byzantine» ١٩٣٤ المجلد الثاني ص ٢٦٣ .

وكانت سيطرة الأتراك على القسطنطينية وعلى جزء كبير من شرق أوروبا كارثة من أكبر كوارث التاريخ . إذ أن معظم الصراعات القومية التي أقلقت السلام في أوروبا قرونا طولا ، بما فيها الحروب الأوروبية الكبرى في عصرنا ، ترجع أساسا الى ظروف ترتبت على قيام الامبراطورية العثمانية وانهيارها ، ويشترك الشرق والغرب في مسئولية هذه الكارثة ، ولكن السبب كان واحدا في الجانبين ، وهو قوة الانانية القومية والانعزالية التي جعلت الحكام والشعوب تعمى عن رؤية الخطر المشترك .

وقد حاول اينياس سليفياس ، كبير الدبلوماسيين البابويين ، دون جدوى أن يثير الحكام الغربيين الى جهاد ديني ضد الأتراك ولكنهم ردوا ، قبل سقوط القسطنطينية ، بأن الخطر مبالغ فيه ، وبعد سقوطها منعتهم الغيرة المتبادلة عن الاتحاد في القيام بحملة مشتركة ، وقد كتب آينياس سليفيتوس في ١٤٥٤ :

« ليس للمسيحية رئيس يطيعه كل الناس . . فالبابا والامبراطور صارا مجرد ألقاب فخمة ولكنها جوفاء ، ولم يعد لهما نفوذ أكثر من صورتين عاجزتين داخل اطار . . فهناك عدد كبير جدا من الأمم المختلفة ، ومن الذى يستطيع أن يرعى مثل هذا القطيع المختلط ؟ من الذى يسيطر على هذا الخليط من اللغات التى يتحدثونها ، أو يستطيع التعامل مع أشخاص بينهم هذا الاختلاف الواسع فى السلوك والطبائع ؟ أين هو الانسان الفانى الذى يستطيع أن يوفق بين انجلترا وفرنسا أو بين جنوا وآراجون أو يصلح بين الألمان والهنغارين وأهل بوهيميا فى نزعاتهم ؟ ولم تكن قومية الكنيسة الاورثوذكسية عقبة فى سبيل التعاون مع المسيحية الغربية فقط . بل انها كانت أيضا مسئولة عن عدم التضامن القومى داخل الامبراطورية . وصحيح أن الامبراطورية البيزنطية كان عليها أن تقاتل باستمرار أعداء أقوياء فى الداخل والخارج ، ولكنها لما كانت أكثر دول العصور الوسطى تنظيما ومدنية فانها كانت تستطيع أن تغزوهم وتضمهم اليها الى حد بعيد لو أن شعبها كان أكثر اتحادا .
ولكن برغم الوعى القومى القوى والكبرياء الزائدة عن الحد لدى

(١) انظر و . باولتيج « اينياس سيلفيتوس » ١٩١٨ ص ٢٠٧ . وقد انخط قدر البابوية نفسها فى ذلك الوقت بالانقسام الكبير الذى نجم الى حد كبير عن ظهور الدول القومية . وبرغم كل جهود البابوية لم يحمل السلاح ضد الأتراك سوى ملكى هنغاريا وبولندا ولكهما هزما . انظر ج . هرتزبرج « Geschichte der Byzantiner und des Osmanischen Reiches » ١٨٨٢ ص ٥٦٦ وقد حاول باباوات آخرون تنظيم حرب صليبية واسهموا في طرد الأتراك نهائيا في ١٦٨٢ .

الطبقات اليونانية المتعلمة فإنه من المشكوك فيه أن بيزنطة كانت أمة • فساكنها كانت بينهم اختلافات كبيرة فى اللغة والتقاليد • واتبعت الحكومة سياسة أبوية تحمى الطبقات الفقيرة وتنظم كل شىء بروح تكاد تكون اشتراكية (١) • ومع ذلك فالتاريخ البيزنطى مليء بالثورات والحروب التى كثيرا ما استعانت فيها الأحزاب المختلفة بالغزاة الأجانب دون أية مراعاة للمصلحة القومية (٢) •

وكان السبب الأكبر فى الانتفاضات هو الأعباء الزائدة على الحد التى فرضتها المركزية البيروقراطية وعنف النزعة العسكرية اللذان ورثتهما بيزنطة عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكنها كانت ترجع أيضا الى حدة الصراع اللاهوتى والدينى وكذلك الى ظهور الفيوذالية • ودفع عدم وجود الحرية السياسية جماهير ضخمة من الناس الى الانغماس فى صراعات دوجمائية اتخذت طابعا حشيا •

فالتصوف والتقشف فى الكنيسة الأورثوذكسية لم يكونا مواتيين للحرية الفكرية والابتكار الفردى • فقد كان مركز الفكر فى الأديرة ، وكان للرهبان نفوذ كبير على كل من الجماهير والأباطرة • وكان النساك الذين عاشوا فى كهوف قذرة والمتقشفون الذين أمضوا حياتهم وقوا على أعمدة يحظون بمركز أكثر تبجيلا حتى من الرهبان (٣) •

ولم يكن الرهبان الأورثوذكس روادا فى الزراعة والفنون والحرف وأعمال الخير كما كان الرهبان الغربيون • فالعالم لم يبد لهم أنه يستأهل التحسن • فقد فضلوا تعذيب أنفسهم لكي يحصلوا على مكان فى الجنة (١)

(١) انظر ستيفن رانسيان « المدينة البيزنطية » ١٩٣٣ ص ١٠٢ و ١٧٣ •

(٢) انظر ديبل ص ١٣٧ و ١٧١ •

(٣) اعتقد رهبان جبل آتوس « المتجردين » انهم بالصوم والتأمل المركز يستطيعون رؤية النور الذى ظهر للرسل عند صلب المسيح • وقد أقر « مجلس القسطنطينية » أن مذهبهم يتفق والارثوذكسية فى سنة ١٣٤١ • انظر أ. هور « ثمانية عشر قرناً عاشتها الكنيسة اليونانية الاورثوذكسية » ١٨٩٩ ص ٤٥٨ •

(٤) انتهى واحد من أكبر مؤرخى الكنيسة ، هو ادولف فون هارناك ، فى دراسة مقارنة لروح الكنيستين الغربية والشرقية الى أن بين المدينتين الغربية والشرقية هوة عميقة لا مسيل الى عبورها بسبب تأثير كنيستيهما • فعداا المسيحيين الأورثوذكسيين للمسيحية الغربية كان أكبر من عدائهم لسيطرة الأتراك • وقد أعلن كثير من البطارقة وزعماء الكنيسة الاورثوذكسية الآخرين أن السيطرة التركية نعمة لأنها حافظت على المسيحية الشرقية ضد الروح الغربية التى تعمل على تحليلها • وقد ركزت الكنائس الشرقية جهودها على الحياة الأبدية التى بعد هذا العالم ، وأهملت العمل على تحسين معنويات الناس فى هذه الحياة على عكس كنيسة روما • ولم يتقدم الفكر الدينى كثيرا بعد القرن السادس • وكانت روح الكنيسة الشرقية متجردة ومتصوفة وتأملية تعارض التقدم ومتشائمة بالنسبة لهذا العالم =

وكثيرا ما نجد رهبانا على رأس عصابات من الغوغاء المتعصبين هائجين على الحكومات بسبب مسألة غامضة من مسائل اللاهوت .

وقد أنتجت المسيحية الشرقية قدرا وافرا من التأملات اللاهوتية الدقيقة ، ولكنها لم تنتج أى فكر فى المسائل الفلسفية أو الأخلاقية أو السياسية مثلما فعل المدرسيون فى الغرب . فقد نبذ العلم الديوى الى حد كبير باعتباره اغراء على الكبرياء الفكرى . ومجدت الكنيسة بدلا منه الخشوع والاحسان بين أرواح جاهلة .

وقد أكد الكبرياء القومى البيزنطى أهمية الانتساب الى الاغريقى القدامى ومن ثم حاولت أن تقيد اللغة والأدب بالأنماط الكلاسيكية القديمة متجاهلة اللغة اليونانية المحلية الحية والمشاعر الشعبية والفكر الشعبى .

وتقع على هذا الاتجاه الى حد كبير مسئولية عدم ظهور النبوغ الخلاق فى الأدب (١) وعدم ارتفاع المستوى الفكرى للشعب والاختفاق فى صبغ العناصر غير اليونانية بالصبغة الاغريقية . وقد استمر الرق فى بيزنطة فترة أطول بكثير مما بقى فى الغرب برغم أن الكنيسة كانت تقف منه موقف عدم التشجيع . كذلك تصور المقارنة التالية الفرق فى الروح بين الكنيستين والمدنيتين .

استخدمت الامبراطورية البيزنطية « الخصيان » بكثرة فى أسمى المراكز حتى كرؤساء وزارات وقواد ورؤساء كنيسة (٢) . وكانت أنبل العائلات تخصى أبناءها لتساعدهم فى الرقى ، وكان الموظف « الخصى » يتقدم على الموظف غير الخصى الذى من نفس المرتبة .

= ففى الكنيسة الارثوذكسية بقيت المدنية المتحجرة التى سادت فى اواخر عهد الاغريق وفى الشرق . وفى السياسة ترددت هذه الروح بين الفوضوية اللينة والسلمية اللتين دعا اليهما تولستوى وبين التعصب الثورى . وبين هارناك أيضا أن العداء بين المدنية الشرقية والغربية لم يكن نتاج الاختلافات العنصرية . انظر ١ . فون هارناك «Ausder Friedens und Kriegsarbeit» ١٩١٦ ص ١٠١ الى ١٤٠ . وبعارض وجهة النظر هذه ، وبصفة خاصة من ناحية المسيحية السلافية (وعلى الاخص المسيحية الروسية) بأول كويال فى «Das Slawentum und der deutsche geist» ١٩١٤ .

(١) أهم استثناء هو القصة الشعبية باللغة المحلية عن مغامرات ديجينس اكريناس انظر فيما يتعلق بالاسباب الاجتماعية لنقص الابتكار كـ ديتريش Geschichte der Byzantinischen Litteratur ١٩٠٩ .

(٢) رنسيما ص ٩٢ و ٢٠٣ .

والفكرة التى وراء ذلك هى أن الخصى يمكن الاعتماد عليه أكثر كخادم للدولة والكنيسة حيث أنه لا يستطيع أن يؤسس عائلة وليست له مصلحة فى تكوين ثروة أو اكتساب السلطة من أجل أبنائه .

وفى الغرب كانت نفس الفكرة سببا فى تشجيع « العزوبية » فى الكنيسة الأمر الذى أدى الى سيادتها الى حد كبير فى الخدمة المدنية أيضا (١) - حيث أن كبار رجال الدولة كانوا من رجال الكنيسة . ومع ذلك فأى فرق ! والانسان يستطيع أن يفهم أن مجتمعا يضع الخصى فى مركز أفضل من الشخص العادى لأسباب مدنية لا يمكن أن ينتج شعرا عظيما (٢) . وبعد سقوط الامبراطورية صارت روسيا وريثة القيصرية البابوية البيزنطية والتقاليد الأورثوذكسية وتأثرت سماتها القومية الى حد كبير جدا بهذه العوامل .

٨ - الكنيسة الرومانية وأصل الجنسية فى الغرب

كثيرا ما وصفت الكنيسة الرومانية بأنها العدو اللدود للجنسية . فيقول الاستاذ ماسترمان مثلا :

« كانت الامبريالية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية العدوين الكبيرين للجنسية فى التاريخ . وفى الحالتين انبثق العداء من نفس السبب - عدم الثقة فى قيمة الحرية . وقد كانت الكنيسة الرومانية فيما مضى أما عظيمة للأمم فى مهدها ، ولكنها نفرت من جهودها فى أن تنمو وقاومتها » (٣) .

ولكن برغم الاعتراف بذلك فى الماضى البعيد فإن هذا الرأى فى حاجة الى تحديد كبير . ففي امبراطورية الفرانك ، وفى دول غيرها أيضا ، كانت

(١) وان كان الامر قد تطلب فى انجلترا فترة طويلة حتى سادت العزوبية .
(٢) وان كان يجب أن يذكر أن مفتين من الخصيان ظلوا يستخدمون فى الفرقة البابوية حتى العصور الحديثة . وكان ليو الثامن هو الذى أبعدهم نهائيا عن الحرم البابوى سنة ١٨٧٨ .

(٣) انظر ج . ماسترمان «حقوق الكنائس القومية ومسئولياتها» ١٩٠٨ . وقد أورد المؤلف أيضا مجلدا قول ف . د . موريس من أن الكنيسة « اعتقدت انها يمكن أن توجد دون أمم متميزة ، وان دعوتها ستقلب الامم ، ومن ثم فإن الفضائل الكبرى التى تشجعها الامم ، مثل الضمير الفردى المتميز والشعور بالمسئولية الفردية والصدق والولاء ضعفت بسببها : وهكذا اعتبرت الخير شرا والشر خيرا : وهكذا قلدت الامم وهى تطأها بأقدامها : وهكذا صارت أكثر تعاطفا للدماء من أى داعية قومية » .

الكنيسة في مبدأ الأمر تعتمد على الحكومة ، في حين ان الدولة والكنيسة في إنجلترا الانجلو ساكسونية كانتا مندمجتين تقريبا ولكن تحت توجيه الكنيسة عمليا . وفي أثناء عملية النمو تصارعت الكنيسة والدولة في كل مكان على السيطرة ، وكثيرا ما كان هناك شك في أى الجانبين هو المدافع حقيقة عن القضية القومية .

وكان الطابع فوق الدول للكنيسة الرومانية يعمل على وحدة المسيحية وبخاصة في أوروبا المسيحية (١) ، ولكنه شجع أيضا على تكوين مجتمعات محلية أوسع وأكثر رسوخا على انقراض الفوضى القبلية والحلافات والمنافسات الفيودالية . وقد بدت هذه الاختلافات التقليدية قليلة الأهمية لرجال الكنيسة الذين كانوا يعتبرن المسيحية كائنا حيا روحانيا عظيما واحدا .

وقد كتب القديس توماس أكويناس : « برغم أن المرء يستطيع تمييز الشعوب تبعا لاختلاف الأسقفيات والدول ، فمن الجلي أنه لما كانت هناك كنيسة واحدة فلا بد أيضا أن يكون هناك شعب مسيحي واحد » ، وكانت الكنيسة هي التي بدأت بالنظر الى الشعوب الانجليزية والفرنسية والألمانية كوحدات تعمل على القضاء على وجود عدة قوانين قبلية في اقليم واحد كل منها لا ينطبق الا على قبيلة بذاتها فقط ، وتشجع بعدة طرق ذلك التوحيد الروحي والاجتماعي والسياسي الذي أدى الى فكرة الأمة (٢) . كما عارضت الكنيسة الاتجاه التوتوني والفيودالي اعتبارالحكومة أداة مفيدة تابعة للملك الأراضي (٣) بفكرة أنها أولا مسئولية تجاه الله ومن

(١) هناك عرض ممتاز في كتاب كريستوفر روسون «تكوين أوروبا ، مدخلا لتاريخ الوحدة الأوروبية» ١٩٣٢ .

(٢) ولیم ستايز « التاريخ الدستوري لانجلترا » مجلدا ١ فصل ٥ ، وش.بتي دوتاييس « الملكية الفيودالية في فرنسا وانجلترا » ١٩٣٦ ص ١١٣ ، الفرديرامبو «Histoire de la civilisation française» ١٩١١ ص ١٤٩ . وكان القس الانجلو ساكسوني بونيفاس ومساعدوه في عملهم التبشيري بين القبائل الألمانية أول من تصورهم كوحدة وأطلقوا على لغتهم اسم « نيوديسكا » = (الشعبية) التي أدت الى ظهور لفظ دويتسن الذي يستعمله الألمان اسما لهم الآن . انظر بصفة خاصة مقالين عن «عودة مبدأ الجنسية الى التاريخ» ونحو اسم ألماني « في كتاب الفريد دوت «Ausgewählte Schiftchen» ١٨٩٨ وكذلك ف. كلوج «Deutsche Sprachgeschichte» ١٩٢٠ ص ٢٢٥ .

(٣) وقد طبقت نفس الفكرة على الكنيسة أيضا . فقد كان اصحاب الاراضى الألمان يعتبرون الكنائس التي في اقليمهم ملكا خاصا لهم وانها استثمار مربع حيث انها كانت تدرك دخلا من الجنازات والزواج ... الخ . انظر أوليرنج ستوتز «Die Eigenkirche» و «Geschichte des Kirchlichen Benefiziolwessens» ١٨٩٥ ، وكذلك لوينج Geschichte des Deutschen Kirchenrechts» ١٨٧٨ ص ٣٥٧ و ٣٧٥

ثم حورت عادة التويتين في تقسيم الاقليم بين أبناء الملك بعد وفاته . كما لقي أيضا الاتجاه الفيودالى الى تقسيم الطبقات بصورة قضت على وحدة الشعب معارضة من جانب الكنيسة . وقارن كثير من كتاب الكنيسة ، مثل جون أوف سالسبورى ، الشعب بكائن حى عظيم يعتمد كل عضو فيه على جميع الأعضاء الآخرين ويؤلف وحدة لا تنقسم . وبعد الغزو النورماندى لاجلثرا كانت الكنيسة هى الجسر عبر الهوة التى بين الشعب الحاكم والشعب المحكوم وساعدت على اندماجها (١) .

بيد أن البابوية كانت عقبة فى سبيل توحيد ايطاليا سياسيا حيث أن ذلك كان يهدد مركزها . بالإضافة الى أن الكنيسة جعلت سلطة الملوك أغنى بطقوس التتويج التدشين التى أضفت عليهم مشروعية الهية وجعلتهم فى مركز القاضى المعين من قبل الله وقد دعم ذلك أيضا القوى التى تعمل للوحدة .

ولكن الكنيسة كانت أبعد ما تكون عن اعلان أن الملك حاكم مطلق بواسطة هذه الطقوس . فطبقا لمذهب الكنيسة لم يكن الملك ولا الشعب صاحب سيادة بمعنى السلطة غير المحدودة ، وهى فكرة لا تتفق أيضا مع فكرة الدولة ككائن عضوى . فكلاهما كان خاضعا للقانون الالهى والطبيعى ، وكانت الكنيسة تدعى حق تقرير ما اذا كان هذا القانون قد خرق والمطالبة بالتكفير عن هذا الخرق اذا تطلب الأمر (٢) .

وفى حفلة تتويج كل ملك يسأل الأسقف الذى يقوم بالمراسم : هل كان الشعب موافقا ؟ . وكان الحاضرون طبعاً من كبار النبلاء الذين اعتبروا ممثلين للبقية . ومع ذلك فإن المبدأ ينطوى على أن الشعب هو مصدر السلطة الملكية وأن ارادة الله تعمل عن طريق الشعب .

وكان حصول البابوية على السلطة الملكية ونمو قانون الكنيسة

(١) و . ستيفنس «الكنيسة الانجليزية من الغزو النورماندى الى عهد ادوارد الاول» ١٩٠٩ ص ٤٧ و ١٩٤ . ومن الملاحظ أن هذا التوفيق القومى كان أساساً من عمل رجال دين من أصل أجنبى .

(٢) انظر بصفة خاصة المؤلف الكبير الذى كتبه د . كارلايل و أ . كارلايل «تاريخ النظرية السياسية فى العصور الوسطى فى الغرب» ٦ مجلدات ١٩٠٣ ، وفريتز كرن «Gottesgnadentum und Widerstandsrecht im fruheren Mittelalter» ومقالات فى مؤلف جماعى بإشراف ف . هيرنشو «الافكار الاجتماعية والسياسية» 1915 لبعض مفكرى العصور الوسطى المعظم « ١٩٢٣ .

وأجهزتها الادارية والمالية نموذجا لحكام الدول . فكان معظم وزرائهم ومستشاريهم من رجال الكنيسة ، وكان كثير منهم أجنبى أو من أصل غير نبيل . وقد خلف هؤلاء الرجال الأنظمة التى صارت أساسية فى نمو الدول والأمم الحديثة . فلم يضعوا أسس السلطة الملكية فحسب ، بل كان لهم نصيب كبير أيضا فى التمهيد للأنظمة البرلمانية وتنميتها .

فأصل البرلمان الانجليزى ، بصفة خاصة ، يرجع الى حد كبير جدا الى نصائح رجال الكنيسة ، وفى برلمان سيمون دى مونفور كان للوردات الروحيين سيطرة غير عادية على اللوردات العاديين .

وقد ساعد كثيرا على تطور انجلترا وفرنسا الى أمم أن علاقاتهما بالبابوية ظلت ثابتة نسبيا ولم تتأثر بالصراعات الكبرى بين الامبراطور والبابا على السيادة ، وهى الصراعات التى كان لها أسوأ الأثر على الوحدة القومية الألمانية . وفى هذه الصراعات كثيرا ما أيد البابوات ، بل وأثاروا ، التطلمات القومية والديموقراطية للشعوب ضد الابطاطرة .

فضلا عن أنهم ادعوا السيادة على عدد كبير من الدول ، ولم يكن ذلك مجرد نتاج سعيهم للسيطرة ، بل كان يقصد به أيضا أن يشجع القوى التى تسعى الى الحرية . فالبابوات لم يعملوا على زيادة سلطتهم فقط ، بل أنهم أكدوا أيضا سيادة الروح على السيف ، وكان صراعهم ضد الحكام الدينيين موجها الى حد كبير ضد ادعائهم الحق فى استخدام الكنيسة كممتلكات مربحة فى مصلحتهم ومصلحة مساعديهم ، النبلاء الفيوداليين .

وقد كتب جريجورى السابع ، وهو ابن فلاح ، الى أسقف ألمانى يقول : «من الذى لايعرف أن الملوك والأمراء انحدروا من رجال ازدروا الله وساروا وراء الشيطان ، سيد هذه الأرض ، وعملوا على السيطرة بالعجرفة والاساءة والاعتقال وكل نوع من أنواع الجرائم على مخلوقات بشرية مثلهم يدفعهم انفعال أعمى وادعاء لا يحتمل » . ويكشف الجنوح الثورى فى هذه الكلمات عن الأصل الكهنوتى للأفكار الديموقراطية التى ظهرت فيما بعد .

وقد ظلت الحياة السياسية فى المدن والامارات الإيطالية قرونا مسرحا للصراع بين الحزب الامبراطورى والحزب البابوى ، وكان الأول يتألف عادة من الطبقة الارستقراطية فى حين كان الثانى يتكون من عناصر أكثر ديموقراطية . وقد علم جون أوف سالسبورى أن الطاغية الذى بخرق

القانون الطبيعي يمكن عزله أو حتى قتله ، وبدا أن أكويناس يوافق على هذا المبدأ . وأعلن لاوترباخ أن للشعب الحق في طرد الملك السيئ كما لصاحب الحق في أن يطرد راعي الخنازير السيئ . وبعد ذلك أعلن كثير من الكتاب من رجال الدين أن السيادة للشعب ، وأن كان خاضعا في ذلك للقانون الأبدى .

٩ - تأميم الكنيسة الغربية وحركة الإصلاح الديني

كان البابوات هم أول من التجأ الى الشعوب في صراعمهم مع الأباطرة والملوك ، ولكن سرعان ما انتقم منهم الأباطرة والملوك بالالتجاء بدورهم الى الشعوب ضد البابوات . وقد كان هناك باستمرار تقريبا منافسة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، بين المحارب والقس ، وتتأصل جذور هذا العداء في اختلاف المثل العليا وتضارب المصالح .

وكثيرا ما اتخذت هذه الصراعات طابع الحرب بين المبدأ القومي والمبدأ فوق القومي ، وبخاصة عندما وقف ممثلو الأمة ، أو رجال الدين في بلد ما ، الى جانب الملك ضد البابا . بيد أن هناك قضايا أخرى كثيرا ما ارتبطت بمطلب تأميم الكنيسة ، مثل المطالبة بإصلاح الكنيسة إصلاحا عاما أو محاولة التأثير على البابوية . وقد بدأت حركة التأميم في إنجلترا (١)، وسرعان ما أحرزت تقدما في كثير من البلاد :

وكانت الشكوى من البابوية مالية وسياسية وروحية . فقد حاول البابوات الإبقاء على رجال الكنيسة هيئة منفصلة داخل الأمم الناشئة كدولة داخل الدولة لا يتبعون سوى رياستهم ولا يدفعون شيئا الا لخزانتهم . وكثيرا ما تعارضت أيضا سياسة البابوات الدولية مع التطورات القومية ، وكان فساد الكنيسة أمرا معروفا . بالإضافة الى أن طمع الملوك والنبلاء في الاستيلاء على ثروة الكنيسة وسلطانها ، وغيره الطبقات الوسطى التجارية منها بسبب المنافسة الاقتصادية كانت عوامل

(١) لقد عرض هدف الكنيسة القومية بوضوح ممتاز حوالى سنة ١١٠٠ «بواسطة» عضو مجهول من أعضاء جماعة كبير الاساقفة جيرار أوف يورك . بالإضافة الى أن أفكاره الدينية تحمل أوجه شبه كثيرة تسترعى الانتباه بأفكار المصلحين البروتستانت . انظر هيرينج بوهمر *Kirche und Staat in England und der Normandie in 11 und 12. Jahrhundert* . وقد دعا واكيليف فيما بعد الى إقامة كنيسة قومية وسبق بكثير من تعاليم «الإصلاح الديني» . انظر هيربرت وركمان «جون واكيليف» ١٩٢٦ - مجلدين .

هامة . وقد تعرضت البابوية لهزيمة ساحقة على يد ملوك فرنسا وانحدرت مدة طويلة الى مجرد اداة للسياسة الفرنسية . وبلغت هذه الحركة ذروتها في « الانقسام العظيم » و « مجلس كونستانس » و « مجلس بازل » . وقد أخفق الإصلاح الكنسي الى حد كبير بسبب العداء بين فرنسا وانجلترا في حرب « المائة سنة » . ولكن البابوات عقدوا اتفاقات مع الحكام أتاحوا لهؤلاء الحكام سلطة واسعة على الكنيسة في بلادهم (١) . وقد اجتمعت عدة قوى ، من الطموح والمنافسات للعمل على ظهور الدولة القومية ولتمهيد السبيل لمقدم « حركة الإصلاح الديني » .

ولم يكن « المصلحون » الكبار مدفوعين بسعى مقصود من أجل الجنسية ، ولكن تطلعات حلفائهم السياسيين وسير الأحداث أضفت على حركة الإصلاح الديني في كل مكان طابعا قوميا قويا . وقبل حركة الإصلاح كان أتباع هاس يستوحون أفكارا كثيرة تعلمها هاس من وايكليف ، وقد ادمجوها مع الصراع القومي للتشكيكين ضد السيطرة الألمانية . وصار الدين خلال حركة الإصلاح رمزا للجنسية في كل مكان وهيا الوسيلة لبلورة الشخصية القومية والتعبير عنها . وقد اتخذ القرار بقبول الدين الجديد أو الوقوف ضده في حالات كثيرة بناء على الأوضاع السياسية أكثر مما قام على أسس دينية ، واختلطت مصالح الأسر المالكة بالدوافع القومية .

وفي انجلترا يرجع انتصاره الى حد كبير الى النفور من الكاثوليكية باعتبارها دين العدو القومي - الأسبان ، وفي اسكتلندا ارتبط اعتناق البروتستانتية بواسطة لوردات المحفل الديني في سنة ١٥٥٧ ارتباطا وثيقا بتمردهم ضد السيطرة الفرنسية .

وتشرب الهنغاريون في كفاحهم الطويل ضد بيت هابسبورج والجزويت من أجل الاستقلال القومي والحرية الدينية بروح الكلفينية الثورية المحاربة واطلقوا عليها اسم « المذهب الهنغاري » في معارضة كل من الكاثوليكية والبروتستانتية .

(١) فيما يتعلق بالعامل القومي في هذه الصراعات انظر ج. هالر «Papsttum und Kirchenreform» ١٩٠٣ ، و ١. فليك « اصول كنيسة العصور الوسطى » ١٩٣٠ في مجلدين و ١. ورمجنهوف «Nationalkirchliche Bestrebungen im deutschen Mittelalter» ١٩١٠ .

وقد ظلت الكتلكة ، بعد عدة أحداث ومصاعب ، الدين القومي في فرنسا لأنها كانت لمصلحة الوحدة القومية . فالبروتستانتيون الفرنسيون كانوا يجذبون المحلية الاقليمية وتحديد سلطة الملك بواسطة سيطرة الأرستقراطيين . وفي ألمانيا أدى الصراع الديني الى تغلب النزعة المحلية على الوحدة القومية . وصارت بعد ذلك الصراعات بين الأمم أكثر حدة في كثير من الأحوال بسبب الجمع بين الحقد القومي والديني . ففي الحروب الأهلية البشعة التي حدثت في ذلك الوقت كثيرا ما سعى البروتستانت الى طلب المساعدة الأجنبية ، أو قبلوا هذه المساعدة ، حتى من الأعداء القوميين أحيانا .

وفي الحروب الداخلية والخارجية كان كل جانب يعتقد أنه يحارب في سبيل الدين الصحيح وفي خدمة الله ، ولكن محاولات تكتيل كل القوى التي تنتمي الى نفس الدين ضد قوى الدين الآخر لم تنجح قط . فالمصالح السياسية أثبتت أنها دائما أقوى من المصالح الدينية .

وكان أتباع هاس قد اتخذوا العهد القديم فعلا كقانون للأخلاق والفضيلة وسارت حركة الإصلاح الديني في هذا الطريق الى حد يزيد أو ينقص . وشجع ذلك الأفكار المتصلة بالتطلعات القومية « للشعب المختار » القديم ، وبخاصة فيما يتصل باحياء الروح الجمهورية المحاربة التي كان كهنته يتسمون بها . واعتقد كثير من المتطهرين الانجليز أن الانجليز هم « الشعب المختار » الجديد . وقد وجد فردريك الثاني ملك بروسيا ، برغم أنه كان يهزأ بجميع الأديان المسيحية ، أنه من المفيد أن يبدو كمدافع عن البروتستانتية ، واتخذ البروسيون عبارة من أجل الله والملك والوطن شعارا للمعركة ، وكان الروس يعتقدون أن السلافيين سينقذون البشرية من الانهيار عن طريق نقاء مفهومهم عن المسيحية ، ووحّدوا بين الجنسية الروسية والمذهب الأورثوذكسي .

وما زال تأثير الدين في تكوين الشخصية القومية عاملا مهما ، وهو يتغلب أحيانا حتى على وحدة اللغة . فالفلمنكيون البلجيكيون والهولنديون يتحدثون نفس اللغة تقريبا ولكن الدين يفرقهم الى حد كبير . وعندما وحدهم مؤتمر فيينا في دولة واحدة سرعان ما تحطم اتحادهم بثورة البلجيكيين . ويتحدث الكرواتيون والصربيون أيضا نفس اللغة تقريبا . ولكن الأولين كاثوليكيون والثانيين أورثوذكسيون ، الأمر الذي ينطوي على اختلافات ثقافية أيضا وكان سببا كبيرا في انقسامهم الى جنسيتين منفصلتين وقيام قدر كبير من العداء القومي بينهما .

والسلوفاكيون قريبا جدا من التشيكيين في اللغة ودينهم واحد ، وهو الكاثوليكية . ومع ذلك فإن السلوفاكيين يدعون الحق في أن يكونوا جنسية منفصلة برغم أن مؤسسي تشيكوسلوفاكيا أكدوا وحدة السلوفاكيين والتشكيين وابتكروا لفظ « تشيكوسلوفاكيين » .

ويبدو أن وجه الاختلاف الأساسى بينهم هو الموقف تجاه الكنيسة ، حيث ان السلوفاكيين كاثوليك متحمسون في حين أن التشيكيين اعتنقوا التقاليد القومية لمذهب هاس ، وان لم يعتنقوا هذا المذهب بأى معنى دينى .

١٠ - الكنيسة ونمو الحرية

لا حاجة بنا هنا الى أن نبحث بالتفصيل العلاقة الوثيقة بين الصراعات الدينية التى بدأتها حركة الاصلاح الدينى والحرية السياسية . فقد استعان زعماء البروتستانت والكاثوليك (١) على السواء بسيادة الشعب وأدت الحروب الأهلية الطويلة بينهم الى رغبة شديدة فى الوحدة القومية ، وبخاصة فى فرنسا حيث استخدم الحكم الملكى المطلق هذه الرغبة فى فرض سلطانه .

وفى ألمانيا دعمت حرب الثلاثين عاما أيضا قضية الحكم المطلق ومهدت ، بصفة خاصة ، لظهور بيت هو هنزلرن ونزعته العسكرية . واتبع البابوات سياسة توازن القوى التى وضعت مصالحهم السياسية قبل مصالحهم الدينية وشجعت مباشرة على ظهور البروتستانتية (٢) . وكانت فى جوهرها هى نفس السياسة الخارجية التى اتبعت مع انجلترا ، وكانت ترجع لنفس السبب ، وهو عدم وجود جيش قوى ، وأدت الى نفس النتيجة وهى حماية الأمم الصغيرة ضد اعتداءات الدول القوية .

فقد كان أكثر ما يخشاه البابوات هو وصول أية دولة الى درجة من

(١) ر . هـ . موراي ، « النتائج السياسية لحركة الاصلاح الدينى ، دراسة فى الفكر السياسى فى القرن السادس عشر » ١٩٢٦ ، بير سنار «L'essor de la philosophie politique au XVIIe siècle» ١٩٣٦ ، ج . ب . جوش « الافكار الديمقراطية الانجليزية فى القرن السابع عشر » ط ٢ سنة ١٩٢٧ .

(٢) مارتن فيليبسون «Westeuropa im Zeitalter von Philip II, Elisabeth und Heinrich» ١٨٨٢ ص ١١ و ٨٦ و ٩٢ و ١١٢ و ٣٥٤ و ٣٦٨ ، جورج وينتر «Geschichte des dreissig Jahr igen Krieges» ١٨٩٣ ص ٨٦ و ٣٣٠ وليم بارى « البابوية والعصر الحديث » ١٩١١ .

القوة تجعل استقلال الدول الأخرى • ومركزهم كباباوات ، مهددا • ولهذا السبب بذلوا جهودا كبيرة للحد من توسع الحكم الكاثوليك الذين كانوا يدافعون عن الكتلكة ، مثل شارل الخامس وفيليب الثاني وفرديناند الثاني ولويس الرابع عشر ، بل وتحالفوا مع البروتستانت ضدهم .

وعندما نزل وليم الثالث بقواته في انجلترا وحارب ضد لويس الرابع عشر كان البابا الى جانبه واستعمل نفوذه في البلاد الكاثوليكية في تأييده • ان تقدم الحرية القومية والسياسية يرجع الى حد كبير الى المنافسة التي لا تنتهى بين السلطات الروحية والسلطات الزمنية •

وقد عزي كثير من المؤرخين البارزين تقدم الحرية الروحية ، وبخاصة روح البحث النقدي الحر ، الى البروتستانتية ، وهناك بالتأكيد شيء من الحقيقة في هذا القول • فضلا عن أن كنيسة العصور الوسطى كثيرا ما مثلت على أنها عدو لحرية الفكر ، بل وقد أدمج بعض المؤرخين المسيحية في هذا الاتهام (١) • بيد أن الأبحاث الحديثة أثبتت أنه لا الكنيسة القديمة كانت رجعية ولا الكنيسة الجديدة كانت تقدمية بقدر ما كان مفروضا (٢) • فالحقيقة أنه كانت هناك قوى في الجانبين تعمل من أجل الحرية الفكرية والتسامح ، وقوى تعمل في الاتجاه الآخر •

ودين الحرية الحديثة الذي تدين به لجريجورى السابع وفرانسيس الأسيسى وتوماس أكويناس أكبر من دينها للوثر ، وإذا كانت الكتلكة قد ظهر فيها نوركمادا وكثيرون آخرون مثله ، فانها أنتجت أيضا دانتى ونقولا الكوزى ورازموس ومور وفولون ولامنيه • وكان بعض المدرسين يفكرون فعلا في أن اختلاف الدين كان جزءا من خطة الهية لتربية الجنس البشرى (٣)

ومن ثم فان كل دين يحتوى على شيء من الحقيقة وتكمل الأديان المختلفة بعضها البعض ، وقد تكون هناك لتعددتها ذاته منافسة مفيدة لقد كانت الانسانية المسيحية تشجع التسامح ، ولكن صراعات عصر

(١) انظر مثلا ما قاله الاستاذ ج.ب. بيرى « تاريخ حرية الفكر » ١٩١٣ ص ٦٧ :
« ومن ثم فانه في الفترة التي كان للكنيسة فيها أكبر نفوذ صار العقل مقيدا في السجن الذي أقامته المسيحية حول العقل البشرى » •

(٢) ان الحكم التاريخي يجب أن يزن بين الآراء المبالغ فيها التي عرضها كل من الكتاب الكاثوليك والبروتستانت • انظر أ.س. تيربرفيل « الفكر ومحاكم التفتيش في العصور الوسطى » ١٩٢٠ •

(٣) انظر ألوا ديمف « Sacrum Imperium » ١٩٢٩ ص ٢٠٢ و ٢٤١ •

الاصلاح الدينى والاصلاح المضاد أثارت تعصبا جديدا . وقد كانت الكنائس البروتستانتية الحرة هى أول من دعا الى حرية الضمير وبخاصة فى هولندا وانجلترا وأمريكا (١) .

١١ - النزعة القومية الحديثة والدين

تجد النزعة القومية الحديثة نفسها فى وضع صعب فيما يتعلق بالدين . فهى من ناحية تقف موقف العداء من تقسيم ولاء أتباعها بين الأمة والله ؛ اذ هى تنجح الى عبادة الأمة نفسها بدلا من الله وجعل النزعة القومية ديناً . بالإضافة الى أن أهداف النزعة القومية العدوانية لا تتفق مع المسيحية ، فضلا عن أن العنصرية تستبعد ذوى الأصل اليهودى من الأمة . ومع ذلك فلا يستطيع دعاة القومية فى كثير من الأحوال أن يظهروا عداءهم صراحة أكثر مما ينبغى حيث ان ذلك قد يؤذى شعور أتباعهم فى القومية . كما أن العنصر التقليدى فى كل أيديولوجية قومية يتطلب الاعتراف بالدور القومى للدين فى الماضى . ومن الأمثلة النموذجية موقف النازيين الذين ترددوا بين الازدراء العلنى للدين والتظاهر بالدفاع عنه ، بين الاشادة بلوثر لثورته ضد روما والأفكار المضادة تماما لمذهب لوثر ، بين الحط من قدر المسيحية « اليهودية » ومحاولات جعل المسيح « آريا » واحياء الأساطير التيوتونية .

وهناك متناقضات مماثلة فى أيديولوجية النزعة القومية لدى أمم أخرى أيضا . فدعاة القومية الفرنسية مثل شارلس مورا مثلا لا يعطفون كثيرا على المسيحية لأسباب مماثلة لأسباب دعاة القومية الألمانية . ولكنهم يؤكدون الدور العظيم الذى قامت به الكنيسة الكاثوليكية فى بناء الجنسية الفرنسية والمدنية الفرنسية . ومن ثم فهم ضد المسيحية ولكن مع الكنيسة الكاثوليكية . بيد أن الكنيسة رفضت مثل هذا الولاء الغريب . فقد اتجه كثيرون من دعاة القومية الفرنسية الى اعتبار الكاثوليكي هو الفرنسى الحقيقى الوحيد . وكان دعاة القومية الألمانية من النوع القديم مقتنعين بأن البروتستانت وحدهم هم الألمان الطيبون ، وأظهروا رغبة كبيرة فى الكتلعة ونفورا منها . ويبدو أيضا أن عددا غير صغير من الشعب الانجليزى لا يزال

(١) قارن فيما يتصل بنمو التسامح المثالات المكتوبة عن التسامح فى دائرة معارف «Die Religion und Gegenwart» ١٩١٣ المجلد الخامس ص ١٢٧١ ، و « دائرة معارف الدين والأخلاق » ١٩٢١ المجلد السابع ص ٣٦٠ .

يعتقد أن الكاثوليكي لا يستطيع الاحساس كانجليزى (١) . وكل جنسية فى الحقيقة تريد أن يكون لها دين خاص بها يمثل روحها القومية .

١٢ - تأثير الدين فى الطابع القومى

كثيرا ما كان اتخاذ الدين رمزا قوميا مصحوبا بصراعات بين الأمم ، كما أنه كثيرا ما كان يرجع الى أسباب تتعلق بالقوة والهيبة القوميين . وكان من الدوافع القوية العمل على تحقيق الوحدة القومية التى بدت غير آمنة الا على أساس الوحدة الدينية . ومعظم الاضطهادات التى تعرضت لها أقليات دينية كانت موجهة فى الحقيقة الى جماعات اعتبرت خطرة على النظام السياسى أو الاجتماعى . ففى انجلترا كانت قضية البروتستانتية مرتبطة لمدة طويلة بقضية الحرية ، فى حين كانت الكتلكة تعتبر فى فرنسا وأسبانيا ضمان الحكم الملكى المطلق . ومن الواضح أن هذا الاعتقاد لم يكن أساسه الروح التى تميزت بها بهذه الأديان بقدر ما كان الدور الذى لعبته فى تاريخ الشعوب التى يتعلق بها الأمر . وصحيح أن الدلالات الاجتماعية والسياسية لكل دين لا يمكن أن تكون عديمة الأثر قط ، ولكن تفسيرها اعتمد دائما على التقاليد التاريخية المعنية وتطلعات الأمة . وقد أدى ظهور الأسلوب الحديث فى التاريخ الى زيادة الاهتمام بقيمة الدين فى التقاليد القومية . فضلا عن أن نمو النزعة القومية روج فكرة أن الدين كان نتاج الروح العنصرية للأمة . بيد أن هذه النظرية لا تتفق

(١) كتب العميد انج « من المستحيل أن تطيل الحديث مع كاثوليكي دون أن تحس بوجود حاجز لا يمكن التغلب عليه ، وإذا فكرنا فى ماهية هذا الحاجز نجد أننا لانستطيع أن نلجا باطمئنان الى تلك الغرائز والتقاليد الاخلاقية التى تعد الميراث المشترك لكل الشعب الانجليزى » انظر وليم ر. انج « انجلترا » ١٩٢٦ ص ٦٨ . ويهاجم ه.ج. ويلز فى (« دليل الى العالم الجديد » ١٩٤١ ص ٣٥) الكتلكة لا على أنها مذهب غير انجليزى بل لأنها لا تتفق مع أسس الاتصال الاجتماعى : « انك لا تستطيع أن تفق فى كاثوليكي متحمس فى منزلك أو أن تمنحه ثقتك أكثر مما تستطيع أن تخاطر بالتحدث فى صراحة الى جاسوس نازى أو تختلط به . فالكاثوليكي المتدين لن يكون صريحا معك أبدا . فهناك دائما تحفظ ، فالقس دائما يحوم فى الجو . . . وإذا تزوجت كاثوليكية فكانك نصف متزوج فقط واولادك لا يكونون اولادك بكليتهم . وبصراحة اذا أنت تعاملت مع محل كاثوليكي أو اذا تبرعت للأعمال الخيرية الكاثوليكية أو اذا عهدت بأولادك الى مدرسين كاثوليك فانك تساعد فى دعم حملة عدائية ضد الحياة الطبية » . ان هذه الآراء التى يدعو اليها مستر ويلز نشتم منها رائحة القرن السابع عشر لا رائحة القرن العشرين .

مع التاريخ . فكل الأديان الكبيرة ظهرت فيها مفاهيم مختلفة ، تتأرجح بين طرفين متعارضين من وحدة الاله وتعددده ، بين حرية الإرادة وحتمية المصير ، بين محو الذات تصوفا وتأكيده الذات سحرا ، وهكذا بحيث لا يمكن تفسيرها على أساس أنها تعبير عن الميول العنصرية المحدودة بالضرورة . كما لا يمكن اثبات أن مفاهيم بذاتها كانت موضع تفضيل من جانب أجناس بذاتها ، بيد أن الربط بين الأفكار الدينية والطابع القومي بمعنى التقاليد التاريخية أكثر اتفقا مع الوقائع . فكل دين تشكل الى حد ما بالتجارب والتلطعات القومية كما أثر فيها بدوره . ومن ناحية أخرى رأت كل أمة مثلها الدينية في ضوء تقاليدها ومن زاوية مزاجها الخاص (١) ، وقد أشرنا من قبل الى أن كلا من الكنيسة اليونانية والكنيسة الرومانية كان لهما تأثير مختلف تماما على الطابع القومي . وينطبق نفس الشيء على المذاهب المختلفة التي وجدت بعد حركة الإصلاح الديني . فقد كانت معظم الشعوب الكبيرة في أوروبا قد دخلت لتوها فترة من التشكل والنمو الروحي والاجتماعي الخاص عندما بدأت حركة الإصلاح الديني ، وهذا يفسر لماذا ظلت التقاليد التي تكونت في هذه الأيام تسيطر الى حد كبير جدا على عقول الأمم حتى الآن ، حتى بعد أن فقد الدين نفسه قسما كبيرا من قوته . ويجب أن نحدد أنفسنا هنا بأمثلة قليلة تصور التأثير الذي كان لبعض الأديان على الأفكار الاجتماعية والسياسية وعلى الفلسفة (٢) .

١٣ - روح الكشلكة وتأثيرها على الطابع القومي في إنجلترا وفرنسا والمانيا .

نما في كنيسة العصور الوسطى العديد من نظم الفكر ، تجتمع تحت اسم « المدرسين » ، تبلورت فيها فلسفة مسيحية صارت التقليد

(١) « اتسمت جميع العصور وكل الأمم بحماسة وشغف في الرجوع بجذور مثلها العليا اليه (هو) ٠٠٠ فهل يكون من غير اللائق أن نقول ان « مسيح » رينان كان فرنسيا ، و « مسيح » سيلي كان انجليزيا و « مسيح » بعض المؤرخين الألمان الحداثيين الماني من النموذج الجديد ؟ و.ر. اينج « المثل العليا الشخصية والتصوف » ١٩٠٧ ص ٨٩ . ويعرض جوستاف فانمولر في « Jesus im Urteil der Jahrhunderte » ١٩٠٨ ، المفاهيم المختلفة عن شخصية المسيح في ضوء العصور المختلفة .

(٢) وصف الروح الاجتماعية للكنائس ارنست ترولتش في « Die Soziallehren

der christlichen Kirchen und Sekten » ١٩١٢ .

الأساسى للكتلة • وكان الهدف العام هو التوفيق بين العقل والوحي • بين الطبيعة البشرية وأسرار الايمان • ولهذا حاول « المدرسيون » الجمع بين فلسفة الانجيل والفلسفة الاغريقية وفلسفة العرب واليهود ، وفى نفس الوقت كان رجال القانون الكنسى يدمجون أجزاء كبيرة من القانون الرومانى فى اللوائح الدينية وكان رجال الدولة من الدينين فى جميع البلاد يضعون باستمرار حلولاً وسطاً بين مبادئ المسيحية وضرورات الوقت والمكان • ومن ثم كانت تحدد الكنيسة الرومانية موجة نشاط فكرى قوية والايمان بقدرة العقل البشرى على فهم خطط الله ، وبقدرة الارادة البشرية على التصرف طبقاً لما جاء فيها •

بيد أن هذا الايمان لم يكن تفاؤلاً غير محدود • فالعقل المقصود لم يكن عقل كل فرد بصرف النظر عن تربيته وتجربته وأخلاقه ، بل عقل النخبة بين رجال الكنيسة الآباء الكبار والقديسين والمفكرين وكبار رجال الدين ، تحت القيادة الملكية للبابا •

وصحيح أن هذه العقلانية كانت مقيدة من كل جانب بعدة عوامل مثل الطابع المقدس لكل كلمة فى الانجيل ، واغراءات التفسير الرمضى والتأمل الصوفى ، وسلطان المعلمين الكبار فى الماضى ، والمصالح السياسية والتدرج الكنسى وتخلف المعرفة العلمية والنقد العلمى • ومع ذلك فقد كانت « المدرسية » Scholasticism تدريجياً ضحماً على التفكير • فقد وضعت أسس العلوم السياسية والطبيعية ، وكانت تزخر ببذور الأفكار المتقدمة ، وحتى نتائجها السلبية كان لها على الأقل تأثير فى إثارة روح التسامح لدى المفكرين المتقدمين (١) •

(١) وصف هرمان رويتر ظهور العقلانية فى العصور الوسطى بالمعنى الواسع فى كتابه «Geschichte der religiösen Aufklärung im Mittelalter» الذى طبع فى ٧٥ - ١٨٧٧ ، كما حظيت نقائص كتلة العصور الوسطى وخرافات باهتمام مؤرخ عالم آخر هو : ج.ج. كولتون فى « عشر دراسات عن القرون الوسطى » ١٩٣٠ و « خمسة قرون من الدين » ١٩٢٩ • ووصف جوستاف شنورر مساهمات الكنيسة فى المدنية من زاوية كاثوليكية فى كتابه «Kirche und Kultur im Mittelalter» الذى ظهر فى ثلاثة مجلدات ٢٤ - ١٩٢٩ ، وكذلك جورج كروب فى كتابه «Kulturgeschichte des Mittelalter» الذى ظهر فى ستة مجلدات : الطبعتين الثالثة والرابعة ١٩٢٣ - ١٩٢٢ ، وفيما يتعلق بالنظريات السياسية والاجتماعية انظر كارلايل وترولتش •

وقابلت روح التفاهم النسبية لدى الكنيسة القديمة روحا مماثلة في عدة امبراطوريات حاولت أن تخلق وحدة روحية واسعة . بيد أن ذلك كان ينطوى على خطر التساهل الاخلاقي والدينى ، وكانت حركة الاصلاح الدينى الى حد كبير تمردا ضد هذا التساهل الذى ظهر فى تصرفات الكنيسة المتسمة بالفساد الشديد . وترجع الأهمية القصوى للبروتستانتية فى نمو الأفكار الحديثة الى أنها أحييت روح عدم التسامح فى الدين والحماسة للفضيلة : وقد نقيت الكنيسة الكاثوليكية أيضا فى حركة الاصلاح المضادة ومن ثم صارت أكثر صرامة . بيد ان نبذ التفاهم أدى من ناحية أخرى الى « التطرف الراديكالى » فى كل ميدان . ومهدت العناصر التى تعمل على المساواة فى المسيحية السبيل لمقدم الديمقراطية الحديثة والجنسية الحديثة ، وعاش الجدل الدينى فى الخلافات الحادة التى تشور بين الاساتذة والمفكرين المحدثين .

وقد اعتنق الانجليز المسيحية بحماس أكثر من بقية الشعوب التيوتونية (١) . وتأثرت القوانين والأنظمة الانجلوساكسونية بالكنيسة أكثر من أنظمة الفرانك وقوانينهم . وكسب المبشرون الانجليز بلادا واسعة فى القارة لروما . وعندما هدأت هذه الروح جاء النورمانديون الذين تأثروا بعمق بالاحياء الدينى الذى انبثق من دير «كلونى» (٢) . وتجددت الحماسة الدينية مرة أخرى بمجيء الفرنسيسكان والدومينيكان الذين قوبلوا بحماسة أكبر ، وكان لهم نفوذ أقوى على الملوك والنبلاء والشعب ، وأسهموا مساهمة فعالة فى تقديم أعمال البر والعلم والدراسة (٣) . وكان لهم دور كبير أيضا فى الاعداد للبرلمان وانشائه ، وفى الحركات الثورية فى أواخر العصور الوسطى دافعوا عن الفقير ودعوا حتى

(١) وهذه الحقيقة تؤيدها مقارنة تفصيلية لنفوذ الكنيسة فى أنظمة الشعوب التيوتونية المختلفة وتقاليدها أمل نشرها فى مكان آخر ، اذلايسمح هذا المجال بتلخيصها الآن .

(٢) ت . كيرنويل « الكنيسة والغزو النورماندى » ١٩٠٩ . و . ستيفنس « الكنيسة الانجليزية من الغزو النورماندى الى عهد ادوارد الاول » ١٩٠٩ .

(٣) انظر شهادة البرت أوف بيزا فى كتاب ادوارد هالون « الفرنسيسكان فى انجلترا » ١٩٢٦ ص ١١٢ . ويقول فلدر « ان الأمة الانجليزية اهدت الفرنسيسكان عددا من العلماء البارزين أكثر من جميع الأمم الاخرى مجتمعة ، وكان كل كبار الخبراء من الانجليز باستثناء القديس بونا فنتورا » من كتاب هيل ريوخ فلدر «Geschichte der Wissenschaftlichen Studien im Franziskanerorden bis um die Mitte des 13 Jahrhunderts» ١٩٠٤ ص ٣١٦ .

الى الشيوعية (١) . وكان الكفر في انجلترا أقل منه في أى مكان آخر ، ولم تظهر هناك قط محاكم التفتيش . وكانت الضريبة الدينية في انجلترا هى عصب خزانة البابا ، ولكن الحروب الصليبية لم تثر الحماسة التى أثارته فى فرنسا وقد قاوم الملك والبرلمان منذ مرحلة مبكرة اقتناعات البابوية مقاومة ناجحة ، ولم يكن الكفاح بها مريرا بقدر ما كان فى ألمانيا وفرنسا . ان واكيليف نشر المبادئ الأساسية فى الاصلاح الدينى قبل لوثر بمائة وخمسين عاما (٢) . وقد نمى الفكر الانجليزى فى العصور الوسطى بصفة خاصة الجوهر العقلى للفلسفة المسيحية . « فتجريبية » روجر بيكون و « اسمية » وليم أوف أوكام تنطويان على عناصر كثيرة تقابل الاتجاهات المميزة فى الفكر الانجليزى الحديث (٣) . ومن ناحية أخرى كانت انجلترا أقل الأمم مشاركة فى روحانية العصور الوسطى . ومما يدعو الى التأمل حقا عدم وجود الروحانيات فى الأديرة الانجليزية التى لم تظهر فيها أية شخصيات يمكن مقارنتها بكبار الصوفيين الألمان (٤) .

وتدين الكنيسة فى ألمانيا وفرنسا بتنظيمها وتربيتها لبوينفاس والكوين الانجلو ساكسونيين الى حد كبير . بيد أن الكنيسة أصابها بعد

(١) لقد شئق كثيرون منهم بسبب دعايتهم . انظر آرثر بينجز « كنيسة العصور الوسطى والبابوية » ١٩٠٩ ص ٢٠٧ وما بعدها ، وبيد جارت «الدومنيكان الانجليز» ١٩٢١ ص ١٧ ، ١٤٩ . وفيما يتصل بتأثيرهم على البرلمان انظر أ. باركر «الدومنيكان ومجالس الاكليروس» ١٩١٣ ، وكذلك نقد أ. بولار « تطور البرلمان » ص ١٢٧ . ويطلق كولتون فى « عشر دراسات من العصور الوسطى » ١٩٣٠ ص ٥٨ على الفرنسيين « الأصول العليا للتطهرية » ويصفهم بأنهم تطهريون بالمعنى التعصبى للكلمة .

(٢) بيد أن روحها كانت مختلفة ، فلوثر كان مدفوعا أساسا بنزعة دينية فى حين أن واكيليف ، كما يقول هيرنشو كان وقميا أولا وقبل كل شيء آخر . انظر ف. هيرنشو فى « الأفكار الاجتماعية والسياسية لدى بعض كبار مفكرى العصور الوسطى » ١٩٢٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) فيما يتصل بالسمات القومية لفلسفة العصور الوسطى انظر كارل فيرنر «Die Scholastik des späteren Mittelalters» المجلد الرابع ج ١ ص ٥ و أ. ديف « الامبراطورية المقدسة » ١٩٢٩ ص ٣٥٥ .

(٤) ايلين باور « أديرة الراهبات الانجليزيات فى العصور الوسطى » ١٩٢٢ ص ٢٣٩ . والفرق الروحى بين الأديرة الانجليزية والالمانية فى رأى يرجع بعضه الى الظروف الاجتماعية ويرجع بعضه الى أن الأديرة الانجليزية كانت تحت اشراف البندكتين والسيستريسيان الذين كانوا يمثلون الروح الفيودالية أكثر من الدومنيكان الذين كانوا يشرفون على الأديرة فى ألمانيا .

شرلمان الدمار بتقدم الفيودالية التي انتقلت عداوها الى روح الكنيسة نفسها ، وصار دير كلوني مكان ميلاد حركة تدعو للإصلاح الديني ، ومركزا للعمل على تحريرها من سيطرة السلطات الدنيوية في جميع أنحاء العالم المسيحي (١) . وكان من بين الانجازات المميزة للكنيسة الفرنسية ترويض النبلاء المحاربين شبه البرابرة وتطوير الفروسية الفرنسية بما انطوت عليه من قواعد الشرف الرفيعة والمدنية الرائعة اللتين كانتا موضع إعجاب الفرسان في جميع البلاد وتقليدهم . وقد خلقت هذه الفروسية مثالا عليا كان لها أقوى تأثير عدة قرون في تكوين العقل القومي (٢) . وكان من بين هذه المثل مفهوم روحي جديد للعلاقة بين الجنسين : ظهور فكرة رومانسية عن الحب . وكان تأثير الكنيسة في بناء الأمة واعداد الوحدة القومية حاسما كما في انجلترا .

وقد تميزت تقوية السلطة الملكية فيها أيضا بصراعات حادة مع البابوية ، وبمحاولة اقامة كنيسة قومية ، وكان أعظم عوامل الفخر لفرنسا علمها « المدرسي » ، ولكن كبار المعلمين في جامعة باريس كانوا من الانجليز والايطاليين والالمان ، ومع ذلك فان تفضيل العقلانية التي تسيطر الآن على المدنية الفرنسية يرجع بعضه الى ميراث ذلك العهد . بيد أن العداء الفرنسي للكنيسة قديم جدا أيضا . « فالمدرسية » انتهت الى حد كبير بالشك ، وهدم انتشار « عبادة الكون » التي جاءت من العرب واليهود دعائم الأورثوذكسية . وكانت ألوان الكفر في جنوبي فرنسا التي من أصل شرقي والعداء نحو الكنيسة قد انتشرا جدا قبل أن تستأصلاهما الحروب الصليبية البربرية ضد الالييجنسين ، وظهر فيها أيضا متصوفون كبار ، خصوصا الذين من النوع العاطفي ، وإن كان قد ظهر فيها بعض المتصوفة التأمليين . وفي الفن بلغ الشعور الديني ذروته في هندسة البناء القوطية التي انتشرت من فرنسا الى جميع البلاد .

وفي ألمانيا أقامت الأسرة المالكة السكسونية سلطتها على الكنيسة ، حيث كان اللوردات العلمانيون ممن لا يعتمد عليهم مطلقا . وتلقت الكنيسة هبات وامتيازات ضخمة ، ولكنها كانت تحت سيطرة الامبراطور تماما ،

(١) انظر البرت هوك «Kirchgeschichte Deutschlands» ١٩٠٠ المجلد

الثاني ، و ك . فيز «Alkium und Sein Jahrhundert» ١٨٧٦ .

(٢) لقد لجأ السياسيون الراديكاليون والاشتراكيون في فرنسا الى المبارزة من أجل الشرف في القرن العشرين ، فاثبتوا قوة تقاليد الفروسية .

وأدى ذلك الى الصراع الكبير مع البابوية الذى سوى فى آخر الأمر
« باتفاق وورمز » .

بيد أن الأباطرة فقدوا نفوذهم فى بداية القرن الثالث عشر ،
ووقعت الكنيسة فى أيدي النبلاء . وارتقى معظم الأساقفة ورؤساء
الأديرة الى مصاف حكام الامارات ، وصارت الأديرة تقريبا مجرد
مؤسسات لاعالة النبلاء وجلب المكاسب لهم (١) . وقد ظهر فى التاريخ
الكنسى الألماني كثير من رجال الكنيسة العظماء والقديسين ، ولكن النوع
السائد ظل فترة طويلة هو الأسقف الذى يقضى حياته كالنبلاء الفيوداليين
فى القنص والخمر والنساء . وكان كثيرون من هؤلاء الأساقفة محاربين
أشداء لا تأخذهم رحمة ، بل يجدون متعة فائقة فى القتال ، ولهذا ارتكبوا
إبشع الفظائع ضد الناس . وعندما انتخب ريتشارد أوف كورنول
امبراطورا وجاء الى ألمانيا أدهشه ذلك الوضع الغريب فى الكنيسة
الألمانية . وكتب الى شقيقه هنرى الثالث ملك إنجلترا : « ان هؤلاء
الأساقفة الألمان محاربون يتصفون بالعنف : وقد قال كايزار يوس
أوف هيسترباخ : ان رجلا فرنسيا ذكر أنه يستطيع أن يصدق أى شيء
ولكنه لا يصدق أبدا أنه يمكن خلاص روح الأساقفة الألمان » (٢) .

وكانت السمة البارزة للفكر الألماني فى العصر الوسيط هي النمو
غير العادى للتصوف الدينى الذى نما أساسا فى الأديرة تحت التوجيه
الروحى للدومينيكان ، ومثله رجال دين علماء وكثير من الراهبات ذوات
النبوغ الواضح . وقد اعتبر هيجل والرومانسيون هؤلاء المتصوفة
واضعى أسس الفلسفة الألمانية والتعبير المميز للروح الألمانية ، وكرر هذا
الرأى مرارا من مؤلفين لا حصر لهم ، وصار عقيدة قومية تهدف الى الإشادة
بالتعمق الألماني والاتجاه الروحى على حساب السطحية والمادية الغربية .

(١) انظر آلويز شولت «Der Adel und die deutsche Kirche im Mittelalter»
١٩١٠ و أ . ورمنجوف «Verfassungsgeschichte der deutschen Kirche»
١٩١٣ ص ٦٠ و ٦٩ . وفي اسكتلندا أيضا أدت قوة النبلاء الى فساد الكنيسة . وكان
نصيب الكنيسة فى بناء الدولة الحديثة وعدد المستشارين الكينسيين أقل بكثير منه فى
إنجلترا : « ان حالة الكنيسة ، التى كانت بدون شك أسوأ بكثير منها فى إنجلترا ،
تفسر الى حد كبير عنف حركة الإصلاح الدينى الاسكتلندى وشدة » ر . ريت «تاريخ
اسكتلندا» ص ١٢٤ و ١٣٠ .

(٢) كايزار يوس أوف هيسترباخ « محاوراة فى المعجزات » الفصل ٢٧ .

بيد أن البحث الحديث بين أن التصوف الألماني تأثر الى حد كبير جدا بالانماط الأجنبية ، فسار جانبه التأمل على طريق الأفلاطونية الجديدة ، وسار جانبه العاطفى فى الطريق الذى رسمه برنار أوف كليرفو وفرنسيس الأسيسى (١) . وكانت ألمانيا متخلفة عن فرنسا وانجلترا وإيطاليا فى فلسفة «المدرسين» ، التى تعتبر النوع العقلانى من الفلسفة المسيحية ، على الرغم من أنها تعد البرتوس ماجنوس من بين أبنائها . ويرجع السبب فى ذلك الى أن الجامعات التى كانت مراكز « المدرسية» ، أنشئت فى ألمانيا بعد هذه البلاد بوقت طويل . ومن ثم التجأ الفكر فى الغالب الى الأديرة التى نجت من تأثير فساد الكنيسة ، بيد أن هذه الأديرة ، وأكثر منها أديرة الرهبان ، كانت تشجع التصوف . فضلا عن أن الظروف السياسية والكنيسة فى ألمانيا دفعت كثيرا من المسيحيين الصادقين الى الانسحاب من العالم الذى بدا أنه يسيطر عليه الشيطان ، وأن يتلمسوا ملاذا فى أغوار أرواحهم ، وينغمسوا فى التأمل التصوفى . وكان بلوتينوس ، الأستاذ القديم لأعظم المتصوفين الألمان ، ينتمى أيضا الى عصر سادته الانحلال والدمار القومى . وصار التقليد الصوفى من أقوى العوامل فى التطور الدينى والفلسفى والشعرى فى ألمانيا . لقد تأثر لوثر والميتافيزيقيون الحديثون والرومانسيون جميعا بالأفكار التصوفية تأثيرا شديدا .

١٤ - لوثر والعقل الألماني

فى أواخر العصور الوسطى كانت شكوى الشعب الألماني ضد الكنيسة أكثر مرارة من الأمم الغربية - فى انجلترا وفرنسا واسبانيا ، التى كانت قد أحرزت فعلا تقدما كبيرا فى تأميم كنائسها والتى يغلب أنها كانت تعاني أقل من الألمان من ضغط مطالب البابوات ورجال كنائسها الخاصة . ولم تكن دوافع لوثر فى القيام بثورة ضد البابوية ومذهبها قومية ولا سياسية ، بل دينية . فقد انحصر تفكيره فى العلاقة بين الله وروح الفرد كآى قديس كبير من قديسى العصور الوسطى ، وكان اتجاهه كله الى حد كبير جدا اتجاه العصور الوسطى (٢) .

(١) مارتن جيرايمان «Die Kulturwerte der deutschen Mystik des Mittelalters» ١٢٣ ص ٥ و ١٠ و ٢٣ و ٤١ و ٦٢ .

(٢) يعترف كثير من المؤرخين البروتستانتين البارزين اليوم بقوة عنصر العصور الوسطى فى لوثر ، وإن كان قد عاد فى بعض النقاط المهمة الى بول ، وفى بعض المسائل =

ولكن مزاجه العنيف وخشونته المقاتلة كانتا نقيض صفات القديسين . وكان مفهومه عن الطبيعة البشرية متشائما جدا . فقد قال عن العقل : انه « عاهرة الشيطان التي لا تستطيع أن تفعل شيئا سوى التجسيف والحط من كل ما يقوله أو يفعله الله » . وينظر الى الارادة البشرية على أنها مكبلة تماما ولا تستطيع أن تتجنب الخطيئة الا برحمة من الله . وكل المعرفة البشرية ليست سوى هراء ، وفضائل الاقدمين مجرد رذائل لامعة . وبدت محاولة ايرازموس لاطهار الاتفاق بين المسيحية والعقل الطبيعي - التي كانت أيضا هدف المدرسين - شيئا فعليا للوثر . ان المسيح جعل الحب فوق كل شيء آخر ، وقال : أننا يجب أن نصفح عن من يخطئ من اخوتنا سبعين سبعة من المرات . ولكن لوثر صاح مرعدا « لعنة الله على الحب في أعماق الجحيم اذا كان فيه أضرار بالإيمان » .

ولم يهتم لوثر بالسياسة ؛ فكل ما على المسيحي هو طاعة أوامر حكومته مهما كانت قاسية وغير عادلة . فكل حكم من أمر الله ، والحكام الشريريون عقاب ينزله الله برعاياهم لخطيئتهم . ولم يعترف لوثر بأى حق فى المقاومة . وقد قال : « انه من الأفضل أن يرتكب الطغاة الخطأ فى حق الشعب مائة مرة من أن يخطئ الشعب مرة فى حق الطغاة » . فانحطاط الطبيعة البشرية لا يكتبته سوى الحكم الصارم . والمحافظة على النظام والأمن يتطلب عدالة صارمة بلا رحمة . وعندما ثار الفلاحون المضطهدون على

= الاخرى تكونت لديه مفاهيم عصرية أكثر . بيد أن مدرسى العصور الوسطى كانت لهم افكار أكثر تقدما بكثير من لوثر فى عدة قضايا ، وبخاصة فيما يتعلق بالحرية السياسية والاجتماعية وحقوق الشعب والتسامح والخرافات والتجارة . انظر مثلا ترولتش فى «Soziallehren» ص ٤٢٧ ، و أ.ف. هارناك «Domengeschichte» ١٨٩٨ ص ٣٨٠

«Die Reformation und ihre Voraussetzungen» (فى

«Erforshtes und Erlebtes» ص ٧١ - ١٤٠) ، وه. بومر

«Luther im Lichte der muren Forschung» ١٩١٣ ص ١٣٤ - ١٤٩ ، وك. مول

«Gesammelte Aufsätze Zur Kirchen Geschichte» المجلد ١٩٢٧

(فرد ترولتش) . ومن أهم المؤلفات لفهم حركة الاصلاح الدينى الالماني البحث العظيم الذى كتبه فردريك فون بيزولد «Geschichte der deutschen Reformation»

١٨٩٠ . وكذلك فون رانك «Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation»

١٨٩٠ ، وه. جريسار «S.J. Luther Leben und sein Werk» ١٩٢٧ ،

ور . باسكال « الاساس الاجتماعى للاصلاح الدينى الالماني » ١٩٢٣ ، ج.فون بيلو

«Ursachen der Reformation in Hist. Ztschr.» ١٩٦ ، وف. مانيك

«Hist. Ztschr.» «Germeinwesen und christlichen staat» ١٩٢٠

مضطهدينهم وطالبوا بالغاء نظام القن باعتباره مخالفا لمبادئ المسيحية
رفض لوثر مطالبهم المعتدلة بعنف شديد جدا ، وحث الأمراء والنبلاء في
الفاظ شديدة القسوة ألا يظهرُوا أية رحمة • وأُخمد التمرد في سيول من
الدماء وانتقم النبلاء أبشع انتقام • وقد قال لوثر فيما بعد : « أنا مارتن
لوثر قد قتلْتُ جميع الفلاحين المتمردين لأنى نصحت بقتلهم - وكل دمانهم
فوق رأسى - ولكنى أعزو الأمر لله لأنه أمرنى بأن أقول ذلك » •

وقد كانت نظرة لوثر المظلمة الى الطبيعة البشرية هى التى دعتهُ
الى عدم الثقة فى الناس • فقد أصر على أنه يجب كبح السكان بشدة لأن
« الحمار يحتاج الى الطعام والحمل والسيوط » • وقد رأى ميلانختون ،
تلميذه الأول ومساعدهُ ، أنه حتى نظام الاقنان نظام أفضل مما ينبغي
« بالنسبة لشعب همجى فظ مثل الألمان » • وصحیح أن لوثر كان يرغب
فى حكم أبوى مسالم ، فالأمير يجب أن يحكم كالأب فى أسرته • والواقع
أن كثيرا من الحكام الألمان استمعوا الى هذه النصيحة وحكموا اماراتهم
الصغيرة بطريقة أبوية الى حد يزيد أو ينقص • وبعضهم قام بجهود كثيرة
فى أعمال البر والتعليم • بيد أن الكارثة فى تأثير تعاليم لوثر على العقل
الالمانى هى أنها غرست فى الألمان الخُضوع الكامل للحكومة ، وأنها كانت
لا تحررية ولا ديموقراطية بصورة مطلقة ، وأنها مهدت السبيل لمذاهب
جاءت بعد ذلك تمجد القوة والعنف فى خدمة النزعة العسكرية والقومية •
ولم يكن لدى لوثر رسالة خاصة للأمراء ولكنه من الناحية العملية شجع
الحكم المطلق عن طريق أن الحكام وقعت فى أيديهم سلطة كاملة على الكنائس
وممتلكات الكنيسة •

وبشيد دعاة القومية الألمانية الحديثون بلوثر باعتباره أعظم بطل
قومى وأنه كان التعبير الحقيقى عن الروح الألمانية • والواقع أن لوثر
كثيرا ما أثار العداء القومى لتحقيق أغراضه فى هجماته ضد البابوات ،
ولكن الجنسية والوطنية بوصفهما هذا لم يكن لهما فى نظره قيمة • وهو
يعرف « الأمة الألمانية » بأنها الحكام الذين عهد اليهم الله بالشعب • ومن
ثم فإن فكرة « الأمة » كانت غريبة عليه وما كانت لتستطيع أن تنمو فى
جو اللوثرية الأوروذوكسية • وقد تعلم آل هو هنزلرن ، الذين وضعوا
أسس الجنسية البروسية فيما بعد ، الكثير من هولاندا الكلفينية وفرنسا
الكاثوليكية ، واعتنقوا الكلفينية هم أنفسهم • وقد أغرقت الثورة التى
بدأها لوثر ألمانيا فى نزاع داخلى فظيع وعجز خارجى • وقد زعم الأمراء

البروتستانتيون انهم يدافعون عن « الحرية الألمانية » ضد « الطغيان الأسباني » ، ولكنهم كانوا على استعداد دائما لبيع المصالح القومية لملك فرنسا . وقد تعثر التقدم نحو الوحدة القومية وتكوين « الأمة » ، وظلت ألمانيا أمدا طويلا متخلفة عن الدول الغربية فى كل شئ ، وفقدت نصيبها فى « العالم الجديد » عبر البحار بسبب الصراعات الداخلية . وكان لهذا الوضع أثر عميق فى العقل الألماني وأدى الى المطالبة «بمكان تحت الشمس» الى كارثة عصرنا .

وكان أهم تأثير للوثر هو تأثيره على الأخلاق الألمانية . فقد استمدت تعاليمه الأخلاقية والاجتماعية العملية من « العهد القديم » الى حد كبير ، وان كان ذلك لم يمنعه من اثارة الألمان ضد اليهود بعنف لم يفتق عليه فيه حتى هتلر . وكان التركيز الرئيسى لمفهوم لوثر عن الايمان والتقوى على الحالة الذاتية للروح ، فى حين لم يكن للأعمال قيمة عنده . وقد أثر هذا الموقف فى اتجاه تطور الفلسفة الأخلاقية الألمانية كلها . فمنذ ذلك الوقت ركز كل الفلاسفة الألمان تقريبا اهتمامهم على الجانب الذاتى للفضيلة ، ورفضوا أى اهتمام من أجل السعادة الانسانية والتحسين الاجتماعى الذى كان له أكبر دور فى الفلسفة الانجليزية .

ومن اليسير أن نقارن بين أقوال لوثر وأقوال المسيح ونرى الى أى حد لا يمكن التوفيق بينهما . ومع ذلك فان لوثر اعتقد باخلاص أنه ينطق بأمر من الله ، كما فعل عندما وضع مسئولية مذبحه الفلاحين على الله . وهناك ما يقابل ذلك فى روح دعاة القومية الألمان الذين يرون أفضع الاعتداءات وأقسى أنواع الهمجية على أنها مجرد دفاع عن النفس ضد النيات السيئة للأمم الأخرى ، وكخدمة « للثقافة » . وكثير من السمات المسيطرة على الروح الألمانية مثل تفضيل التصوف على العقل والتطرف على الحل الوسط والبطولة على الادراك السليم والاعتقاد فى أنهم يعملون بوحى الله وهم يتصرفون كالشيطان يمكن تتبعها الى شخصية لوثر ، وان كانت هناك عوامل أخرى أيضا تركت أثرها فى نموها . وحتى « سوبرمان » نيتشه يعد من سلالته الشرعية (١) . وفى نفس الوقت هناك أيضا الرجل الألماني الذى يختلف عن ذلك تمام الاختلاف - رب العائلة الطيب الذى لا يسكر ويعمل بضمير فى كل ميدان ، حالم يصبو الى النجوم ، ومتأمل يعجب بالطبيعة ، رجل سهل يحب «الخمر والنساء والأغنية» . وكل هذه التقاليد

(١) وقد أثبت ذلك بطريقة مقنعة أحد رجال اللاهوت المبرزين والمدافعين بحماسة عن لوثر هو كارل هول ، فى المرجع السابق ص ٥٣٣ .

أيضا مدينة بالكثير للوثر . فقد أثر في المدنية الألمانية بعدة طرق . ففي الجو السائد في منزل « قس الناحية » نشأ عدد لا يحصى من الألمان الدارسين . وقد كان للعنصر الصوفي في إيمان لوثر مغزى بعيد الأثر في نمو الفلسفة والشعر والموسيقى الألمانية . وقد مهد السبيل بصفة خاصة للرومانسية وعبادة الكون اللذين ألهما كثيرا من الشعراء والفنانين العظام ، ولكن كان لهما نصيب كبير أيضا في تحطيم المعايير المسيحية في ألمانيا الحديثة . (١) . ان هيجل وفاجنر ونييتشه وبسمارك وتريتشكه حملوا تقاليد اللوثرية وحولوها الى صورة لو كان رآها لانزعج اشمزازا .

١٥ - الكلفنية والطابع القومي

ان بروتستانتية لوثر لم تستطع الدفاع عن نفسها ضد الحكام والنبلاء الذين عملوا على استغلال الدين لصلحتهم الانانية الخاصة . وصارت الكنيسة مهددة بأن تصبح مجرد أداة في يد الدولة مثل الكنيسة الشرقية . وفي هذه اللحظة قام كلفن يؤكد بقوة استقلال الكنيسة ، وبذلك كانت دعوته استمرارا لسياسة البابوات العظام الذين نازعوا السلطات الزمنية من أجل الحرية ، وعمليا من أجل سيادة السلطة الروحية على السلطة الزمنية (٢) .

وبرغم أن المبادئ الدينية الأساسية لدى كلفن هي نفس مبادئ لوثر تقريبا ، فان تأثير الكلفنية على الطابع القومي كان مختلفا تماما عن تأثير اللوثرية . فعند لوثر كان الله يبدو أبا مجبا وسعت رحمته كل من آمن به باخلاص . وكان الدين أولا أمرا يتعلق بالتقوى والخشوع ، وكل من وضع ثقته باخلاص في الله يستطيع أن يثق تماما في الخلاص . في حين تصور كلفن الله حاكما صارما جليلا اختار بعض الأشخاص بطريقة تحكيمية للخلاص وحكم على الباقين بالجحيم ليزيد من مجده . فبالنسبة له كان الله أولا قوة وإرادة ، والعمل بنشاط في خدمة الله هي أفضل دليل على أن الانسان ينتمي الى النخبة المختارة . وكان لوثر يريد انقاذ أرواح الأفراد ولا تهمة المجتمعات . وفضل المعاناة بصبر على العمل ، وترك الشئون العامة في يد السلطات القائمة . في حين كان هدف كلفن هو

(١) ومن ناحية أخرى أثر لوثر أيضا في الرواد السابقين للكويكرز وويسلي .

(٢) برنارد لورد ماننج « كيف تكون الدين الانجليزى الحديث » ١٩٢٩ ص ٩٤

اقامة الحكم الدينى الكامل مجتمع من القديسين ، أو شعب الله المختار على نمط « العهد القديم » . وأكد على النظام الاخلاقى الصارم وعلى التقشف المخلص فى العمل والكفاح كوسيلة لضبط النفس . فلم يكن هناك مجال للتسامح فى مجتمعه ، اذ كان عديم الثقة فى الناس مثل لوثر تماما ، ورفض كل حق فى الثورة وان كان قد جذب الدفاع عن الحقوق القائمة بواسطة سلطات تقام لهذا الغرض مثل جمعيات « الطبقات الثلاث » . بيد أن الأحداث أضفت على الكلفنية اتجاها ثوريا . ففي عدة بلاد اعتنقها النبلاء فى صراعهم ضد الحكم الملكى المطلق . وفى اسكتلندا نظم جون نوكس الكنيسة على أسس ديموقراطية وضد التدرج الكنسى . وقد أمسك خليفته آندروملفيل ذات مرة برداء الملك جيمس السادس وناداه بالتابع الغيبى لله . وقال له : ان هناك ملكين ومملكتين فى اسكتلندا ، المجتمع المدنى تحت حكم الملك جيمس والكنيسة تحت حكم المسيح (١) . ولا عجب فى أن الكلفنية فى فرنسا ، حيث كانت القضية القومية والملكية تعتبران شيئا واحدا عند الكثيرين ، بدت خطرا على الوحدة القومية ، وعلى هذا الأساس تقرر مصيرها . وفى المسائل الاقتصادية كانت الكلفنية أقل عداء للرأسمالية من اللوثرية ، بل انها شجعت نموها الى حد ما وان لم يكن ذلك قصدا (٢) .

١٦ - الكنائس البريطانية والطابع القومى

ان كنيسة انجلترا تفخر بروحها التقليدية التى تتسم بالاعتدال والتسامح وتؤكد أن هذه الصفات تقابل الطابع القومى . وليست تعاليمها المذهبية وطقوسها تجديدات ثورية ، بل هى استمرار للفكر المسيحى القديم وما جرى عليه العمل ، وهى تحافظ على طريق وسط بين الاتجاهات المتطرفة ، ويتمتع رجال الكنيسة وأعضاؤها بقدر كبير من الاستقلال فى معتقداتهم . وصحيح أن الكنيسة لم تكن متسامحة دائما ، وكثيرا ما وجه

(١) وكانت هذه هى بالضبط نظرية كنيسة العصور الوسطى . انظر أ. جيركه « النظريات السياسية فى العصور الوسطى » ١٩٠٠ ص ١٠٤ .
(٢) انظر فيما يتصل بالموضوع الذى ناز حوله جدل كثير ، تأثير الكلفنية فى نمو الرأسمالية كتاب ماكس ويبير *Gesammelte Aufsätze Zur Religionssoziologie* ١٩٢٢ مجلد ، وتقد ر. تونى « الدين وظهور الرأسمالية » ١٩٢٦ ص ٢١٢ و ٢٢٦ و ٢١٩ ، وكذلك نقد ج. كراوس « *S.Z. Scholastik, Puritanismus und Kapitalismus* » ١٩٣٠ .

اليها النقد الشديد فيما مضى لتبعيةها للسلطات الحاكمة . بيد أن ما تدعيه وتفخر به له ما يبرره مع بعض التحفظات المعينة . وكان السبب الرئيسى فى الروح المعتدلة للكنيسة الانجليكانية هو رغبة الرجال الذين وجّهوا سير الإصلاح الدينى الانجليزى فى أن يجعلوا الكنيسة قومية وفوق القومية فى نفس الوقت ، باضفاء سمات قومية عليها والاحتفاظ بوضعها كعضو فى الكنيسة العالمية فى ظل «مجلس عام» (١) . وكانت تحدوهم فى ذلك فكرة قيام كونفدرال عالمى يؤلف نوعا من عصبة الأمم الكنسية . وكانت هناك عوامل أخرى هى عناية هنرى الثامن واليزابث ووليم الثالث بالوحدة القومية ، واتجاه أغلبية الأمة الى المحافظة ، واعتدال كرانمر واتساع أفق هوكر ، ثم تأثير روح « الاستنارة » فيما بعد .

بالاضافة الى أن الطابع الانجليزى تأثر بشكل حاسم بنشاط « الكنائس الحرة » ، التى اتفقت ، برغم اختلاف وجهات نظرها ، فى محاولة احياء الروح المسيحية الحقيقية . فالشيع التطهيرية ، مثل «المستقلين» تعرضت للاضطهاد فصارت رائدة فى الدعوة للتسامح والديموقراطية وحاولت تحقيق المثل العليا للمجتمع المسيحى فى مجاهل «الدنيا الجديدة» ، ورأى «الكويكريون» جوهر روح المسيحية فى نبذ العنف والتضحية بالنفس والحب الأخوى . وحاول «الموحدون» الجمع بين الفكر المسيحى والفكر المستنير والفكر الانسانى . وقرب « النظاميون » المسيحية الى الجماهير مرة أخرى ، وكان لهم نصيب كبير فى تنمية الوعي الاجتماعى .

واذا بحثنا الى أى حد تتفق المثل العليا فى الأمم الحديثة مع المعايير المسيحية فسنجد البريطانيين فى الغالب على رأس القائمة ، وان كان لا يمكن القول بأن الدوافع التى وراء نمو تقاليدها وأنظمتها كانت دينية أساسا . فالميل الى السلام مثلا ليس وصية مسيحية فحسب ، بل هو أيضا قاعدة للنجاح الاقتصادى والادراك السليم عموما . وأيا كان الأمر فان الصورة الخلفية المسيحية للمدنية البريطانية واضحة حتى فى كثير من السمات التى لم تعد لها صلة واعية بالدين . وقد تعود الكتاب الألمان وغيرهم أن يعتبروا أية اشارة من جانب السياسة البريطانيين الى المسيحية مجرد رياء ولكن ذلك لا يثبت الا عدم الفهم المتأصل فى عقليتهم القومية المختلفة تماما .

(١) الاستاذ هـ . شاتلوروث « النظم الدينية فى العالم » ١٩٠٣ ص ٥٠٨ .

وليس من الممكن ولا هو من الضروري بحث هذه المشاكل بالتفصيل هنا . ولكننا نستطيع الإشارة الى أنه من بين الأسباب الرئيسية لنجاح صبغ الحياة الاجتماعية في بريطانيا نسبيا بالصبغة المسيحية هو تعدد الكنائس في بريطانيا مما أثار منافسة مفيدة في المسيحية العملية . ان عمل الكنائس البريطانية يذكرنا برؤيا المفكر والمصلح العظيم الكردينال نيقولا الكوزى الذى علم أن كل دين فيه جزء من الحقيقة ، وان كل إيمان وكل أمة لهما فضيلتهما الخاصة ، ومن ثم فان اختلافها جزء من خطة الله (١) .

١٧ - الدين والروح فوق القومية

لقد سمت الأديان الكبرى في بعض مراحلها المعينة على حدود الجنسية ولكنها سرعان ما واجهت مقاومة مستترة أو سافرة من المبدأ القومى . وقد اضطرت الى الوصول الى حلول وسط مع الجنسية أو حتى خضعت لسيطرتها ومع ذلك فان روحها فوق القومية لم تمنح أبدا . فقد كانت التطلعات ذات الطابع العالمى قوى حقيقية ، ولكن في تربة الشعور الدينى بصرف النظر عن العقائد والكنائس (٢) . ومجرد الاهتمامات الاقتصادية أو السياسية أو الفكرية أو الفنية لا تغنى عن روابط الدين . ولا شك في أن عدم التسامح الدينى كثيرا ما زاد حدة العداوات القومية . ومن الناحية الأخرى نجد التسامح نفسه في جوهره فكرة دينية أيضا .

وفي روما القديمة كان كهنة « الفيتيال » يراقبون بدقة تنفيذ القانون

(١) هناك تقييم ممتاز لأفكار كوزا وشخصيته بقلم د. ستادلان «Vom Geist des Ausgehenden Mittelalter» ١٩٢٩ ، انظر كذلك ج.م. دوكس «N. von Cusa und die Kirche seiner Zeit» مجلدين ١٨٤٧ .

(٢) انظر نورمان بنتويتش « الأسس الدينية للعالمية » ١٩٣٣ . وقد تتبع ف. لوران تأثير الدين في نمو أفكار الإنسانية في مؤلفه الضخم Histoire de droit de gens et des relations internationales, Etudes sur l'histoire de l'humanité. مجلد ١٨ الطبعة الثانية ١٨٦٥ - ١٨٨٠ .

الدولى وكان من واجبهـم منع الحروب التى تقوم لأسباب غير عادلة (١) . وفى العصور الوسطى نظرت الكنيسة الى الجنس البشرى باعتباره مجتمعا واحدا تحت رياسة البابا ، وان كانت الشعوب المختلفة تتمتع باستقلال ذاتى (٢) . وادعى البابوات حق الحكم النهائى فى النزاعات الدولية وكثيرا ما قاموا بهذه الوظيفة بطريقة تدعو الى الاعجاب . ومن الناحية الاخرى كانوا هم الذين بدعوا الحرب الصليبية ضد المسلمين . ولم يكن هدفهم الاول توسع المسيحية . فجريجورى السابع دعا المسيحيين فى أول الأمر لا لتخليص الأرض المقدسة ، بل لتحرير آسيا الصغرى وخلص القسطنطينية . بيد أن فكرته لم تتبلور عن شيء . وكان الدافع الرئيسى للبابوات هو العمل على نشر السلام بين المسيحيين بتحويل الانفعالات الحربية لدى النبلاء الفيوداليين من النزاعات الداخلية الى حرب كبرى مقدسة ضد الكفرة تحت توجيههم الأعلى ، الأمر الذى ينطوى على تقوية مركزهم جدا (٣) . بيد أن فشل الحروب الصليبية أضعف سلطة البابوية ، وصار الصليبيون من الأمم المختلفة أكثر ادراكا للاختلافات القومية بين المسيحيين ، وبدأ المفكرون بينهم يعجبون بالعرب لشهامتهم واخلاصهم وفضائلهم الأخرى . وأعرب كثير من الامراء والفرسان وشعراء الفروسية عن اعتقادهم فى المساواة الانسانية وفى التسامح الدينى والقومى (٤) . واكدوا مرارا الأخوة البشرية باعتبارها مبدأ مسيحيا . وقد شاركهم كثير من المسلمين فى هذه المشاعر .

وقد بدأ كذلك نمو أفكار القانون الدولى والتنظيم الدولى كوسيلة للمحافظة على السلام بين الأمم بين المفكرين الدينيين . وكان «المدرسيون» قد فكروا فعلا فى هذه المشاكل ، ثم أحيا الانسانيون المسيحيون ايرازموس وفيفر وموروجروتىوس وغيرهم ، الاستبشاع المسيحي القديم ، للحرب ودعوا الى العالمية . ويمكن القول بأن أساس القانون الدولى وضعه رجلان من رجال الدين الاسبان هما القس الدومينكانى فرانسيسكوس فكتوريا والجزويتى

(١) كولمان فيليسون «القانون الدولى وعرف اليونان القديمة وروما» ١٩١١ مجلد ١١ ص ٣١٨ .

(٢) جيركه ص ١٠ .

(٣) ولسياسة البابوات هذه مثال لدى كثير من رجال الدولة الذين استخدموا الحروب الخارجية لتحقيق السلام الداخلى ودعم التضامن القومى .

(٤) توجد أمثلة عدة لبقطة الوعى القومى والمنافسات بين المسيحيين ولروح التسامح والزمالة فى الفروسية نحو المسلمين العرب فى الحروب الصليبية فى كتاب هـ . بروتز «Kulturgeschichte der Kreuzzüge» ١٨٨٢ .

فرانسييسكو سواريز ، وسرعان مانما على أيدى جنتيلي وجروتوس . وكان فرانسييسكوس فكتوريا وكثير من رجال الدين الآخرين كذلك من كبار المدافعين عن حقوق الأهالي في الدنيا الجديدة التي اكتشفت حديثا . وفي انجلترا كان الضمير المسيحي هو الذي أدى الى القضاء على الرق . وكان المبشرون المسيحيون من الشيع المختلفة أول من درس روح الشعوب المختلفة واعترفوا بهم كأخوة . وكانت الارساليات تحمي الأهالي ضد جشع التجار والمستوطنين البيض وقسوتهم وقادتهم في طريق مدنية أرفع . فضلا عن أن المبشرين صاروا مؤسسي علم الأجناس الحضاري الذي ترك أثرا ضخما في وجهات النظر الحديثة في التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع .

١٨ - الدين والجنسية في الهند

ان أهمية الدين كعامل في نمو المدينة الغربية والجنسية الغربية تصبح واضحة بصفة خاصة عندما نقارنها بالظروف في الهند . ففي الهند تشكلت الحياة الاجتماعية والفكر بعمق بواسطة الدين . وتمثل الأديان العديدة التي ظهرت في تاريخها جميع الصور الممكنة للدين تقريبا . والعامل المسيطر في الحياة الهندية هو الهندوسية ، وهي مجموعة غير محدودة تماما من العادات والمعتقدات تضم تنوعات عديدة مختلف بعضها عن البعض الى حد كبير ، وتطورت الى فلسفات دينية عميقة كما تطورت الى مذاهب بدائية تقديس القوى الطبيعية والسياطين . وقد أنتجت كثيرين من القديسين والمتدينين الذين اخلصوا لافكارهم الدينية اخلاصا لا يفوقه اخلاص ، وكثير من تعاليمها الاخلاقية مما يدعو الى الاعجاب ، ومن ناحية أخرى نجد الحياة في الصور السائدة من الهندوسية محكومة بالتقاليد ومحدودة بطقوس لها مغزى سحري وكثيرا ما تبدو لنا خرافات قاسية ولا تتفق مع الأخلاق . وهناك بعض الأنظمة الهندوسية تحدوها روح سامية وكثيرا ما تتشابه الى حد غريب مع المسيحية في أفضل صورها . بيد أن الهندوسية كقوة حية في الحياة الاجتماعية لم تمثل بصفة عامة تلك المثل العليا الأخلاقية التي مهدت السبيل لفكرة الأمة في اوربا ، أي الوحدة الروحية والحرية والمساواة والاخاء بين البشر كما علمها الأنبياء اليهود والمسيح .

والهندوسية اساسا مذهب قومي ، أو عنصري ، لا يمكن ان يعتنقه من لم يولد هندوسيا ، وان كانت هناك استثناءات قليلة لذلك في بعض

أجزاء الهند وأظهر سماتها تقسيما للمجتمع الى عدد كبير جداً من الطوائف والطوائف الفرعية التى يفصل بينها حواجز لاعدد لها تحرم الزواج المختلط والصلات الاجتماعية ، بل والاتصال العابر ، أو تعوقها الى حد كبير. وفي حالات كثيرة تكون الطائفة مرتبطة أيضاً بمهنة معينة يأخذها أبناؤها بالوراثة . وقد كان أصل نظام الطوائف، وهل انبثق أكثر من الانقسامات الدينية أو من التقسيمات المهنية ، موضع نقاش كثير . . ولكن لاشك في أن أعضاء الطائفة يعتبرون أنفسهم وحدة عنصرية أسمى من طوائف أخرى كثيرة ، وأن كل طائفة تنظر الى الطوائف التى هي أدنى منها بتعال وتحاول أن تتجنب الاتصال بها حتى لا تشوب نقاءها شائبة (١). أما من يطلق عليهم المنبوذون وهم ينتمون في الحقيقة الى طوائف دنيا - فانهم يعاملون بازدراء لا يصدقه العقل . فمجرد الاقتراب منهم يعتبر بأنهم من لا يمسون ، وكان عددهم يقدر في سنة ١٩٣٠ بحوالى ٤٣٦ مليوناً أو ٣٠ في المائة من السكان الهندوس تقريباً (٢) . فضلاً عن أن بعض تلوثاً ، ويتعرضون لأشد أنواع المهانة والقيود المضرة . وهم يعرفون أيضاً الطوائف الصارمة بصفة خاصة تحرم حتى الاختلاط بالطوائف العليا ولا تقبل الطعام أو الماء من يد براهمى . وفي نظر الهندوس «الارثوذكس» يعد الأوربيون أيضاً ممن لا يمسون (٣) . وهناك قدر كبير من النزاع العنيف بين الطوائف بيد أن الظروف تختلف الى حد كبير في الأجزاء المختلفة من الهند ، وفي حالات كثيرة تعتبر العلاقات بين الطوائف مسموحاً بها . ووبرغم أن نظام الطوائف يقره الدين فإنه كثيراً ما لا يعد ضرورياً أن يكون جميع أبناء الطائفة من نفس الدين .

ولا شك في أن لنظام الطوائف جوانبه الطيبة أيضاً ، ولكنه يعتبر الآن أكبر عقبة في نمو الوحدة والتضامن القوميين في الهند . فالطائفة

(١) أن جميع المنبوذين ، حتى أكثرهم تعرضاً للازدراء ، تحدهم روح الخياء ورغبة حاسمة في أن يبعدوا أى دخيل . الأمر الذى جعل هذه الصراعات أكثر مرارة . اميل لستار « الطوائف في الهند » ١٩٣٠ ص ١٩ .

(٢) فيما يتصل بمركزهم انظر بصفة خاصة الفصل الثامن في ل . أو مالى « عادات الطوائف الهندية » ١٩٣٢ ص ١٣٧ .

(٣) « أن البريطانيين المقيمين في الهند لا يدركون دائماً أن بعض السادة الهنود الذين يصفحونهم يعتقدون أنهم ملزمون بإزالة العدوى التى نتجت عن هذه الملابس بالاستحمام ، أو مالى ص ١٤١ .

بالنسبة للهندوسى الأورثوذكسى أكثر بكثير من الأمة أو الوطن بالنسبة لمعظم الاوربيين . ومن ناحية أخرى نجد أن بعض سمات هذا النظام مؤذية حقا . وقد وصفه رابندرانات طاغور بأنه « نظام هائل من الاضطهاد المتعمد » ، ومن رأيه أن احياء الشعب الهندى يتوقف بصورة مباشرة على ازالته بل وان ذلك هو السبيل الوحيد . ويعمل النفوذ الاوربى والمصلحون الهند فى هذا الاتجاه . ففى ظل الحكم البريطانى يعامل المنبوذون بالمساواة ، وقد تحسن وضعهم من عدة نواح . ولكن معارضة الهندوسية لأى اصلاح شديدة جدا وكثيرا ماتصل الى الارهاب ضد أولئك الذين يعترفون بالمنبوذين كأدميين وأخوة ، وحتى غاندى تعرض للتهديد بالعنف ضد شخصه عندما ندد بهذا النظام واعتبره فضيحة وحث على الغائه . ولكن غاندى لاينبذ نظام الطوائف ككل ولايوافق هو شخصيا على الزواج خارج الطائفة . ومما له مغزى أنه فى حين يزداد تراخى قواعد التفرقة الطائفية بين الهندو المتعلمين تعليما عاليا والطبقات التى تعيش فى المدن ، الذين ينتمون فى الغالب الى الطوائف المتميزة ، فان جمهرة الهندو الكبرى التى تعيش فى القرى وتنتمى الى الطوائف الدنيا تتمسك فى اصرار بالصاايا الصارمة لهذا النظام ، والمنبوذون ، الذين يتوقون الى التخلص من وصمة المولد ، نادرا ما يقترحون الالغاء الكامل للطوائف .

والى جانب الطوائف توجد أنظمة هندوسية أخرى لا تتفق ايضا مع فكرتنا عن الأمة كمجتمع يقوم على الحرية والمساواة والحكم الذاتى . فمركز النساء بصفة خاصة لا يزال ، تبعا للهندوسية الأورثوذكسية ، بعيدا كل البعد عن الحرية والمساواة . ومع ذلك فان النساء ، وخصوصا المسنات منهن فى الريف ، هن عماد الاورثوذكسية والمحافظة . ويقال : ان لورد كيرزون أشار مرة الى أن ماتحتاج اليه الهند هو نوع جديد من الجدات . فضلا عن أن الفكرة الأوربية عن الأمة هى فكرة الشعب المتقدم النشاط التقدمى . وفى الهند كثيرا ما تشمل التحريمات السحرية الابتكار الفردى وتخمد التقدم الثقافى والاقتصادى (١) . كما أن هناك قواعد وعادات كثيرة فى الهندوسية تضر صحة الجنس وحيويته مثل زواج الأطفال ونبذ القواعد الصحية الحديثة والأساليب الفنية والطبية . وقد أخمدت الادارة

(١) لورد ستون « الهند كأمة » ١٩٣١ ص ٢١ و ٢٧ . وهناك تحليل تفصيلى عن الهندوسية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية فى كتاب ماركس ويبر «Gesammelte Aufsätze Zur Religionssoziologie» المجلد ١١ - ١٩٢٣ .

البريطانية أكثر هذه الظواهر ضرا ، مثل حرق الأرامل (١) ، والضحية البشرية وواد الاطفال والرق والخصى ومعاشرة من هن دون سن الحادية عشرة في بيت الزوجية ، والاحوال التي تساعد على نشر الأوبئة والمجاعات وما الى ذلك . وقد ووجهت معظم هذه الاصلاحات بمقاومة عنيفة من جانب الهندوسية الأورثوذكسية ، وقد أغتيل كثير من الموظفين البريطانيين الذين يعملون في مقاومة الأوبئة لانهم يقومون بواجبهم . هذا بالإضافة الى أن الادارة البريطانية شقت الطريق لنمو الروح القومية بما أدخلته من اصلاحات ايجابية كثيرة . وفي العصور القديمة نجح بعض الحكام العظماء في توحيد الهند كلها تقريبا مرتين لفترات قصيرة في امبراطورية واحدة ، ولكنهم لم يضعوا أسس أمة هندية ، وسرعان ما انحلت امبراطورياتهم الى شذرات كثيرة . لقد كان النظام الدينى والاجتماعى للهندوسية هو العقبة الكؤود فى تكوين أمة هندية . وكان الحكم البريطانى ونفوذ المدينة الغربية هما اللذين خلقا الظروف المواتية للوحدة القومية والحسرة عن طريق المحافظة على السلام والأمن وحكم القانون ، ونشر التربة والافكار الحديثة وتنمية الموارد الاقتصادية . كما انهما اثارا ايضا تطلعا متزايدا للاستقلال بين الهنود الذين قلدوا بحماس نموذج الجنسية والنزعة القومية الغربية . بيد انه يبدو أمرا حتميا ان تؤدي هذه الروح الى ظهور عدة جنسيات بدلا من أمة هندية واحدة كما يأمل الوطنيون من انصار « المؤتمر » .

وقد أدرك كثير من الدعاة الأول ورواد الحركة القومية الهندية الحديثة ضرورة اصلاح الهندوسية اصلاحا كاملا لتمهيد السبيل لنمو الامة (٢) . فقد احتفظوا بالتقليد الاساسية للهندوسية وفي نفس الوقت استمدوا كثيرا من الأفكار والحافز من الاتصال بالمبشرين المسيحيين والمناقشات معهم . وقد حاول رام موهان روى وغيره أن يوفقوا بين التقاليد الشرقية والغربية . ولكن مع ظهور الحركة القومية السياسية بدأ الوعي القومى الجديد ينبذ كل شئ أجنبى بصرف النظر عن قيمته .

(١) عندما حرم بنتك حرق الارامل في سنة ١٨٢٩ قامت معارضة قوية في الدوائر الهندوسية السنية ، واستمروا يمارسون هذه العادة سرا مدة طويلة . وكانت آخر الحوادث المعروفة فى ١٩٣٧ بالقرب من آجرا . وفى البنجاب قتل عشر زوجات و ٣٠٠ محظية على محرقة جنازة أحد نبله السيخ فى سنة ١٨٤٤ . انظر د . كوبلاند « بريطانيا والهند » ١٩٤١ ص ٢٦ .

(٢) ش . أندروز و ج . موكرجى « ظهور المؤتمر فى الهند ونموه » ١٩٣٨ ص ١٣ - ٥٣ .

فالنزعة القومية الحديثة تؤكد على الهندوسية الى حد كبير جدا وتدافع عنها باعتبارها رمزا للجنسية الهندية بالرغم من عدم ملائمة بعض قواعدها لفكرة الامة الحديثة (١) .

١٩ - الاسلام والجنسية

ينطوى دين محمد على سمات أخلاقية استمدتها الى حد كبير من اليهودية والمسيحية ، وكان رجال الدين والفقهاء الذين فسروا تعاليمه بحيث صارت نظاما من المذاهب المتماسكة متأثرين أيضا بالأفكار المسيحية واليهودية والأغريقية والفارسية وكذلك بالقانون الروماني . وفي الاسلام عدد كبير من أوجه التشابه بينه وبين الفكر المسيحي في العصور الوسطى الذى كان بدوره متأثرا بنفوذ المدنية الاسلامية على المسيحية (٢) . وكانت القوى التى مهدت السبيل للجنسية فى أوربا المسيحية موجودة أيضا فى الدين الاسلامى وفى المدنية والسياسة الاسلاميين ، ولكنها لم تنم أكثر مما استطاعت فى جو يقرب من الجو الفكرى فى العصور الوسطى . فكل المؤمنين المخلصين أخوة وقد ساعدت وصايا الاسلام بصورة تدعو الى الاعجاب فى ادماج المسلمين فى أخوة كبرى (٣) . ومع ذلك لم يبلغ عدم المساواة بين الرجل والمرأة وعدم المساواة فى المركز الاجتماعى . فالمسلمون يمكن ان يكونوا عبيدا ، وكان مركز النساء بعيدا عن المساواة بالرجال وكثيرا ما كان له طابع محط ، وكانت أخوة المؤمنين تسمو على الحدود القومية ، ولكن محمدا لم يعلم ان جميع الناس أخوة . وقد كانت تعاليمه تقضى بالتسامح مع اليهود والمسيحيين ، ولكن على أن يدفعوا جزية ، وقد تعرضوا فيما بعد لانواع من التفرقة شديدة الوطأة . اما الوثنيون فكان لهم الخيار بين الاسلام والموت . وتتغير أحكام الدين فيما يتعلق بالشعوب الأخرى الى حد كبير بتغير ظروف الموقف . فهو ينكر احيانا أى اكراه فى مسائل الايمان ، ويعلن أن الله منح كل شعب قانونه المنفصل وسبيله

(١) متسون ص ٢٤ و ٢٤ و ٦٥ و ٨٩ . ويعتقد لورد متسون أن النزعة القومية الهندية هى الى حد كبير ثورة طبقة متميزة ضد المؤثرات الحديثة التى تهدد سيطرتها الاجتماعية وصراع مدنية قديمة لايقاف تقدم الافكار والحرية الغربية .

(٢) ش.ه. بيكر «Islamstudien» ١٩٢٤ ص ٣٨٦ . وفيما يتصل بالطابع العام للاسلام . انظر د. مارجوليث «النمو الاول للاسلام» ١٩٢٤ ، وهورتن «Religion in Geschichte und Gegenwart» المجلد الثالث ١٩١٢ تحت «اسلام» .

(٣) ت.و. أرنولد «تعاليم الاسلام» الطبعة ٣/ سنة ١٩٣٥ ص ٤١٦ .

المفتوح الى الخلاص وان على كل الشعوب أن تعمل ليتفوق بعضها على بعض في الأعمال الطيبة . ولكن هناك مواضع أخرى تتغير فيها هذه الروح تماما . وأيا كان الأمر فإن الحكام المسلمين في الماضي بصفة عامة كانوا أكثر تسامحا تجاه الأديان الأخرى من سلطات الكنيسة وان كان بعض السبب في ذلك يرجع الى حسن السياسة .

ولم يكن الاسلام منبثقا من التقاليد العربية وحدها ، ولكن شخصية مؤسسه ارتبط تماما بالشعب العربي . وكان التوسع المفاجيء للعرب في عدة بلاد نتيجة الى حد كبير لرغبة العرب في السلطة والثراء . بيد أن الدين الجديد منح القبائل تماسكا قوميا ودعم روحهم المحاربة الى درجة كبيرة . وأعلنوا أن واجب الحاكم المسلم أن يخضع كل الدول غير المسلمة بقوة السلاح وكان الاستشهاد هو السبيل الى الجنة .

ويمكن أن يقال عن دولة العرب ، وبخاصة في عهد بنى أمية ، انها دولة قومية من عدة وجوه . فقد كان لدى القبائل العربية وعى قبلى كان كافيا ، عن طريق الغزو المشترك والدين الواحد ، كأساس لوحدة تقرب من الوعي القومى . بيد أن العرب كانوا في مبدأ الأمر أقرب الى جيش الاحتلال منهم لامة وكانوا محرومين ، بأمر عمر ، من امتلاك الارض حتى يحتفظوا بقدرتهم على الحركة . ولم يكن مسموحا للشعوب الخاضعة أن تتعلم العربية ، ومن ثم لم تنم جنسية مشتركة . بيد أن العداوات العنيفة بين القبائل العربية مالبثت أن عادت الى الظهور وقوضت دعائم وحدة الأمة وقوتها . ولم تكف قوة الترابط الدينية لتكوين جنسية موحدة دائمة . بيد أن الجنسية لم تكن قد نمت أيضا في العالم المسيحي في ذلك الوقت وكان الفزاة العرب في كثير من الأحيان موضع ترحيب من جانب قطاعات من المسيحيين ، في اسبانيا وصقلية ونابولى وجنوبى فرنسا مثلا ، ودعواهم للحصول على مساعدتهم ضد مسيحيين آخرين .

فضلا عن أن الشعوب الخاضعة في الامبراطورية العربية العالمية ولاسيما الفرس والسوريين كانت أكثر مدنية من الحكام العرب وصارت مما لا غنى عنه للقيام بالمهام المتزايدة للإدارة . وكان انتصار العباسيين دليلا على تفوق الفرس على العرب . وتفقد الامبراطورية عندئذ سماتها القومية وتتحول الى حكم مستبد يقوم على القوة العسكرية للحاكم وليس على الرضاء البضمنى للمحكوم . واستخدم الحكام اكثر فأكثر جنودا مرتزقة كانوا يهددون الاستقرار ، كما فعل الحرس البريتورى

في الامبراطورية الرومانية ، بالتمرد المتكرر واغتصاب سلطة حاسمة في الشؤون السياسية . ولعدم وجود رابطة قومية قوية بين الشعوب الخاضعة مركز الحكام على الدين باعتباره عاملا موحدا . وجاءت كل الدول الاسلامية بعد ذلك على أساس الدين أكثر منها على أساس الجنسية . بيد أن الدين لم يكن كافيا لهذه المهمة . فالنزاع الديني وظهور الشيع المختلفة ، مع صورة خلفية من الجنسية في كثير من الأحيان ، والمنافسات المتكررة على العرش على أسس دينية (على أساس الانحدار من سلالة قبيلة النبي عادة) ، ثم أخيراً ضعف الدين نفسه بخلطه بالسياسة والمصالح الدنيوية ، كل هذه صارت سمات مشتركة في العالم الاسلامي . وليس في الاسلام كهنوت حقيقي أو كنيسة بالمعنى المسيحي . فقواعد القرآن التي لا يدخل عليها التغيير تحافظ عليها طبقة من رجال الدين والفقهاء . وبرغم أن هذه الطبقة أنتجت أعمالاً فكرية وأخلاقية عظيمة فإن نفوذها على وجه العموم كان غير موات لنمو الجنسية . فخضوع القانون والعلوم خضوعاً كاملاً للعلوم الدينية كان عقبة كئوداً في سبيل التقدم أكثر من حدود العالم الاقطاعي .

وكانت هناك عقبة خاصة في سبيل الابتكار الفردي والتقدم هي روح التسليم بالقدر التي نشأت عن مذهب الجبرية . بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن المعتقدين المتأخرين من المسيحيين في الجبرية ، مثل الكلفيين ، لم تظهر فيهم مثل هذه الروح ، بل إنها حفزتهم إلى القيام بنشاط غير عادي سياسياً واقتصادياً ، ومن ثم فيغلب أن قدرية المسلمين نتاج مشترك للدين والاستبداد العسكري .

وقد مهد السبيل للغزو التركي للعالم الاسلامي وكثير من البلاد الاخرى استخدام الحرس التركي والجنود المرتزقة من الأتراك بواسطة الحكام العرب ، كما مهد السبيل لسيادة التيوتون في العالم الروماني دورهم في الجيش الروماني . وبغزو القسطنطينية صارت الامبراطورية العثمانية خليفة للامبراطورية البيزنطية وأخذت عنها بعض انظمتها . وتعاونت التقاليد الاسلامية والتركية والبيزنطية في خلق نظام استبدادي لم يكن قائماً من ناحية المبدأ على الجنسية المشتركة بل على الدين السائد (١) . ولم يكن الاثراك قط أكثر من أقلية وكانوا أقرب إلى

(١) أ. توينبي و ك. كيركورد « تركيا الحديثة » ١٩٢٦ . وكذلك سير هادي نوك « ظهور تركيا الحديثة . من بيزنطة إلى أنقره » ١٩٣٦ .

جيش الاحتلال منهم الى الامة . وكان تنظيمهم قريبا من النظام الفيو دالى ، ويعيشون على ما تدره اسلاب الحروب التى لا تنقطع وعلى جزية الشعوب الخاضعة . بيد أن أهم دور فى الجيش والادارة كان يقوم به جنود وموظفون من أصل غير تركى اعتنقوا الاسلام وكانوا يعتبرون قانونا عبيد السلطان . فبعد غزو البلقان كان معظم من شغلوا منصب الباب العالى والقادة ممن اعتنقوا الاسلام من السلافيين والالبانيين وغيرهم . وترك جميع النشاط الاقتصادى والفكرى للشعوب الخاضعة . وكانت هذه الشعوب منظمة فى مجتمعات دينية (الملل) تتمتع باستقلال ذاتى واسع وتؤلف دولا داخل الدولة . وقد استخدم الأتراك «الملل» كأجهزة لتحصيل الاموال، أما فيما عدا ذلك فقد كانوا أميل الى عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للمسيحيين . فضلا عن أن التجار الأجانب منحوا امتيازات كبرى اتاحت لهم وضعاً خاصاً ، واحتفى المسيحيون فيما بعد بالحكام الأجانب . وكانت هذه الاوضاع مناقضة تماما لمبدأ الدولة القومية الغربية وساعدت كثيرا على دملر الامبراطورية العثمانية . بيد أن العامل الاكبر فى هذا الصدد هو استبداد السلطان . فارادته التحكيمية لا يحدها سوى قوانين الاسلام كما يفسرها رجال الدين الفقهاء الكبار لديه . وقد تضمنت مذاهبهم أيضا بعض الافكار التى تعتبر حديثة فى جوهرها (١) . ولكن تأثيرهم الرئيسى كان ضد الحرية والتقدم . وكان الطابع الدينى للامبراطورية ينطوى على وضع خاص للمسلمين مسمى جدا لأبناء المجتمعات الدينية الاخرى ، ولكنه أنقذهم أيضا من الفناء . وعندما وضع السلطان سليم خطة توحيد جذرى للامبراطورية يفرض الاسلام ديناً والعربية لغة الجميع أعلن الفقهاء الدينيون أن ذلك مخالف للشريعة ، وعدل السلطان عن خطته .

وتحللت الامبراطورية ثم انهارت أخيرا لعدم وجود الوحدة القومية ولنزعتها العسكرية وفساد الجنود والموظفين فيها وعدم احترامهم للقانون وعدم المبالاة من جانب معظم شعوبها ثم تمردوا فيما بعد . وبلغ سوء الحكم من جانب حكامها وتذمر المحكومين فيها ذروتها فى عهد الحكم الطويل للسلطان عبد الحميد . وكانت ترهبه روح الوطنية التى أخذت تقوض دعائم الامبراطورية فى كل مكان ، ولذلك جعل يؤكد أهمية الاسس الدينية . وبدأت له الوحدة الاسلامية علاجا لمبدأ الجنسية الثورى . وضاع أثر الاصلاحات التحررية التى نفذها سابقوه تحت

(١) كونت ليون أوستروروج « اصلاح انقرة » سنة ١٩٢٧ .

ضغط انجلترا وفرنسا ، وانهار أمل تحقيق الوحدة القومية بسبب زيادة الاستبداد والاغراق في الروح الاقطاعية ، وبسبب التعصب الدينى لدى الجماهير التركية والتعصب القومى من جانب الجنسيات المسيحية المتمردة . وكانت حركة «تركيا الفتاة» التى قلبت الحكم الاستبدادى فى سنة ١٩٠٨ تهدف الى ادماج جميع الجنسيات فى أمة عثمانية واحدة لغة التفاهم فيها هى التركية . ونبذ أنصار «تركيا الفتاة» فكرة اقامة الامبراطورية على الاسلام ، فقد كانوا على عداء مع رجال الدين المسيطرين ووعدوا بالحرية والمساواة لجميع الجنسيات والاديان . مع ذلك فانهم حاولوا أيضا اثارة الحماسة الوطنية التركية بالالتجاء الى النعرة العنصرية التركية . ولهذا الغرض شجعوا «الوحدة الطورانية» والمباهاة بالأصول المنفولية المزعومة للأتراك (١) والدعوة لفكرة تضامن كل الشعوب الطورانية ووحدتها القومية التى تنطوى على تحرير ملايين من سكان الامبراطورية الروسية . وظهرت حركة لتنقية اللغة التركية من الألفاظ الفارسية والعربية واتخاذ مصطلحات مستمدة من جذور طورانية . بيد أن الفكرة الطورانية لاتتفق مع فكرة الامة العثمانية التى تقوم على المساواة بين جميع الأجناس ، ولاتتفق بصفة خاصة مع سياسة أنصار «تركيا الفتاة» التى أدت الى زيادة التباعد بين الأتراك والعرب . وفشلت محاولات انقاذ الامبراطورية بسبب الحروب التى انتهت بدمارها . وبعد الحرب الكبرى الأولى قطعت أوصال الامبراطورية العثمانية ، وهددت شروط السلام التى وضعها الحلفاء سلامة الأقاليم التركية نفسها والمستقبل التومى للأتراك بأكمله . ونظم الجنرال مصطفى كمال باشا مقاومة ظافرة ضد هذه الشروط واستولى على السلطة وشرع بعد ذلك يخلق دولة قومية على أسس جديدة تماما .

(١) فى السبعينات والثمانينات مجد كاتب فرنسى هـ وليون كاهون فى كتبه الفزاة المغول من جنكيز خان الى تيمور لك ، وهم أفضح جزايرين شهدهما التاريخ ، واعتبرهما رجلين فوق البشر واعتبر المغول جنسا ارستقراطيا . والأتراك ، تبعاً لما يقول ، من نسل المغول وكانوا متفوقين كثيراً على العرب والفرس كمحاربين . وقد أفسدهم العرب وأضعفهم وأفقدوهم جنسيتهم ، وحالوا بذلك دون قيام امبراطورية عالمية تركية تضم آسيا وأوروبا كليهما . وتبدو فى نظرياته أوجه شبه باشادة نيتشه بالمحارب الذى لا يقيم وزناً لى مبدأ ، «الوحش الاشقر» ، العظيم وازدراثه للمسيحية . وقد لقيت أفكار كاهون استحساناً ضخماً من جانب المثقفين الأتراك وقامت عليها أسس الوحدة الطورانية . انظر أوستروروج ص ٥٦ .

وبدأت هذه السياسة بتوحيد الدولة عنصريا بطرد جميع العناصر التي اعتبرت غريبة ، وباستقبال المهاجرين الأتراك الذين طردوا من البلقان (١) . ولكن مما له مغزى أن المعيار الذي تحددت على أساسه العناصر الغريبة هو الدين . فقد طردت تركيا المسيحيين حتى من كان يتكلم منهم التركية وحدها ، وطردت الأمم البلقانية المسلمين حتى من كان يتكلم منهم اللغة السلافية أو اليونانية فقط . بيد أنه سرعان ما استبعد المصلحون الأتراك التقاليد والانظمة الدينية من الحياة السياسية . فاخفى نظام « الملل » كما اختفت الامتيازات الأجنبية ، وأعلنت سيادة الشعوب واعترف بحق العرب في تقرير المصير الذاتي ، وصارت انقره العاصمة بدلا من القسطنطينية ، وألغيت الخلافة ، التي كانت تنطوى على واجب الدفاع عن الاسلام والتي كانت لا تزال اثرية عند مشاعر ملايين المسلمين خارج تركيا ، وبخاصة في الهند . وحلت اللغة التركية في المساجد محل العربية المقدسة ، وترجم القرآن الى اللغة التركية ، واستمرت تنقية اللغة أو طورنتها . وحلت الحروف اللاتينية محل العربية ، الأمر الذي كان يعنى توفيراً كبيراً للوقت في فن تعلم القراءة والكتابة . وألغى « الطربوش » الذي كان قد صار رمزا للمحافظة الدينية ، واستخدمت القبعة الأوربية بدلا منه وتخلص القانون تماما من الدين ، وأقر القانون المدني السويسرى جملة ودون مناقشة لآى بند فيه . وتغير المركز القانونى للنساء جذريا بإلغاء جميع القوانين والعادات التي تنتقص من مساواتهن بالرجال . وقضى على تعدد الزوجات بتحريم أى زواج جديد بأكثر من واحدة . وكذلك قضى على العادة المقدسة التي تلزم النساء بلبس الحجاب على وجوههن . وانتزعت التربية من أيدي رجال الدين وأصلحت طبقا للمستويات الاوربية . وكانت كل هذه الإصلاحات وغيرها مما لايتفق مع وصايا الاسلام وتقاليده . وتنطوى على الاعتراف بأن الجنسية الحديثة لا يمكن أن تنمو الا فى جو تشرب بالأفكار الاوربية . ومن هذه الناحية اختلف الأتراك ، والصينيون من قبلهم ، في حركة الاخياء القومى عن الحركة القومية الهندية .

(١) ش. مكارتنى « الدول القومية والاقليات القومية » ١٩٣٤ ص ٤٣٣ ، وفيه وصف لعملية تبادل الاقليات بعد الحرب العالمية الاولى ونقد لها .

ويبدو أيضا ارتباط الافكار الحديثة عن الجنسية بالمدنية الغربية بظهور التطلعات القومية العربية داخل الامبراطورية العثمانية وبعد سقوطها . ومما له مغزى أن رواد البحث القومى العربى كانوا اساسا من المسيحيين الذين تعلموا فى مدارس التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية (١) . فالمبشرون وتلاميذهم هم أول من قدم تربية عصرية باللغة العربية وأنشئوا مطابع عربية ونشروا عدة كتب وصحف مهمة ووجدوا المذاهب المتحاربة بين العرب بمثل أعلى مشترك . بيد أن مصر نزعَت نفسها من القضية العربية حيث اثيرت فيها النعرة القومية بالمدنية العظيمة لمصر القديمة ، التى كانت أقدم بكثير من المدنية العربية .

(١) ج* انطونيوس « يقظة العرب » قصة الحركة القومية العربية « سنة ١٩٣٨ ص ٤٣ و ٥٤ و ٧٩ »

الاقليم القومى

١ - مغزى الاقليم بالنسبة للأمة

يقصد بالاقليم القومى البلد الذى ترتبط به الأمة ارتباطا وثيقا بحكم التقاليد القديمة بحيث تعتبره وطنها وجزءا لا يتجزأ من كيانها . ونحن نستطيع أن نتصور أمة بدون دولة ولكننا لا نستطيع أن نتصورها بدون منطقة محدودة بدرجة تزيد أو تنقص تسكنها وتتوغل فيها جذورها ماديا وروحيا . فتماسك المجتمع وشخصيته اللذان تنطوى عليهما فكرة الأمة يفترضان سبقا هذا الارتباط بالاقليم . فالشعب المشتت فى عدة بلاد وليست له جذور فى التربة سرعان ما يفقد شخصيته كقاعدة عامة . فسيقول عدده ويفقد قوميته ويختفى فى النهاية .

والروابط بين الأمم والأقاليم عديدة ومتبادلة . فالأمة الى حد بعيد جدا نتاج اقليم طبيعى . إذ أن التربة والجو والتكوين تنتج بناء اجتماعيا معيناً يخلق عندئذ تطلعا الى جنسية منفصلة ويؤدى الى نمو سمات قومية . ومن ناحية أخرى يعد الاقليم أيضا انتاج الأمة . فطبيعة كل بلد تغيرت تغيرا هائلا بنشاط الشعوب التى عاشت فيها على مر العصور . وهذا التفاعل واضح بصفة خاصة فيما يتعلق بما يسمى الحدود الطبيعية . فيذور الأمة تنمو أولا داخل حدود ضيقة فى حماية الحواجز الطبيعية ، ثم تتجه التطلعات القومية فيما بعد الى حواجز طبيعية أوسع مثل البحر والأنهار الكبرى والجبال العالية . ويعتبر الاقليم الذى بين هذه الحدود المجال الحيوى المشروع للأمة الناشئة ثم



يكون لنجاحها أو فشلها اعظم الأثر على الظروف الطبيعية للبلد .
والاقليم القومى ليس مجرد مكان للإقامة يمكن بسهولة أن تقتسمه
عدة أمم كمنزل بين أسر مختلفة . فالوعى القومى الحديث يختلف عن
الصور القديمة فى المطالبة بالسلطة المطلقة على الاقليم (١) . فمطلب تقرير
المصير الذاتى هو أولا مطلب بالسيطرة على اقليم معين . بيد أنه كثيرا
ما يعيش شعبان أو أكثر فى نفس البلد ، وقد لا يكون لأحدها أغلبية

(١) لم يكن الوضع كذلك فى مجتمعات العصور الوسطى السابقة على التكوينات
القومية . فقد كان هناك كثير من الشعوب الشرقية والأوروبية لا تعترض على أن يتولى التجار
والمستوطنون الاجانب تسوية شئونهم بأنفسهم طبقا لقوانينهم الخاصة وبواسطة قضاتهم .
وهذا هو أصل « الامتيازات الاجنبية » التى لعبت دورا كبيرا فى تركيا والصين وغيرهما .
وعندما اتجهت الشعوب الشرقية الى القومية اعتبرت هذا النظام خاطا بكرامتها القومية
وطالبت بالغائها . ولكن فى البداية كان الشرقيون أنفسهم هم الذين لم يريدوا أن
يشغلهم الاجانب بشئونهم الخاصة وكان يسرهم أن يتركوا هذه الأمور لرؤساء الجاليات
الاجنبية . وفى أوروبا كان هناك الى عهد قريب نسيبا كثير من الملوك الذين حبذوا إقامة
الاجانب الذين يتوقع أن يجلبوا حرفا وصناعات جديدة الى ممالكهم . وحاولوا
اجتذابهم بمنحهم حق تطبيق قوانينهم الخاصة فى شئونهم والعيش فى جماعات تتمتع
باستقلال ذاتى . ويرجع انتشار الاقليات القومية فى كثير من بلاد وسط أوروبا وشرقا
انى هذه السياسة . وفى إنجلترا كان التجار الالمان الذين نظموا أنفسهم فى « الهاترا »
يؤلفون دولة داخل الدولة . بيد أن جميع التجار الاجانب هناك كانوا يحاكمون أمام
محاكم نصف أعضائها من جنسيتهم .

او حق اكثر من الآخرين فيه ، ويكون التقسيم غير عملى . ويؤدى ذلك الى عدة أسئلة مهمة جدا ، منها مثلا : هل يمكن أن يكون الاقليم موطننا لأكثر من أمة واحدة ؟ وهل يمكن أن تدفع مزايا امتلاك مساحة واسعة بالاشتراك مع أمة أخرى شعبا الى ادماج شخصيته القومية فى شعب أوسع ؟ وهل أدى التوسع بالفزو الى تكوين أمم حقيقية ؟ وما الأسباب التى تؤدى الى خلق أمم جديدة أو انقسام أمم قديمة ؟ وما الى ذلك . وقد يتساءل المرء أيضا : على أى المبادئ يمكن أن يقوم حق الامة فى اقليم ما ، اذا كانت هناك مثل هذه المبادئ ؟ وهل لكل شعب مثل هذا الحق بصرف النظر عن قدرته على استغلال الاقليم بصورة ملائمة ؟ كما يؤثر حجم البلد الى حد كبير فى مصيرنا السياسى . فكثير من الشعوب فى التاريخ اما لم تصل الى تكوين أمة ، أو لم تحتفظ بهذه الصلة ، لأنها كانت اما أصغر أو أكبر مما ينبغى . وعلى أى الأحوال يتحدد تكوين الامة وطابعها الى حد كبير جدا بحجمها وظروفها الجغرافية .

٢ - هل الاقليم ضرورى لفهوم الأمة ؟

حالة اليهود

لقد ذهب البعض أحيانا الى أن الاقليم ليس ضروريا بصفة مطلقة للأمة وأن كان بالتأكيد ذا أهمية قصوى . والواقع أن هناك مجتمعات مبعثرة فى بلاد عديدة تعتبر على نطاق واسع أمما مثل اليهود والبارسين والفجر . بيد أنه برغم بعض أوجه التشابه ينبغى ألا تسمى أمما فى العصر الحاضر ، فاليهود كانوا يوما ما أمة ، وقد حافظ دينهم على الأمل فى قلوب كثير منهم بأن تعود جنسيتهم الى الحياة . فضلا عن أن اليهود كانوا حتى العصور الحديثة منعزلين بحاجز دينى مزدوج ، فقد كانوا يؤلفون مجتمعات صغيرة تعيش فى الأحياء اليهودية ولهم قضاتهم وقوانينهم وعاداتهم ، وكثيرا ما كانوا يتحدثون لغات أخرى غير التى يتحدث بها المسيحيون . ويفسر ذلك . . لماذا كان من المألوف أن يسمى اليهود أمة قبل أن يتحرروا (١) . بيد أن إلغاء الحظر الاجتماعى

(١) س . بارون « التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود » ١٩٣٧ المجلد الثانى ص ٢٦٢ . ولكن حتى فى ذلك الوقت كان من نتيجة تشتت اليهود اقليميا أن ظهرت بينهم اختلافات كبيرة . وقد قام بين السفرديين (اليهود الاسبانين والبرتغاليين) والاشكنازى (يهود ألمانيا وشرق أوروبا) عداء بلغ أحيانا مرتبة العداء العنصرى . بيد أن أصله كان عداء اجتماعيا .

والاقليمي سرعان ما أدى الى اختلاط وتمائل ، ونبتت الأغلبية الساحقة من اليهود الذين يعيشون في ظل المساواة في الحقوق المدنية فكرة تكوين أمة منفصلة . وأحسوا بأنهم أمريكيون أو انجليز أو فرنسيون بالجنسية ويهود بالدين ، وهجر عدد كبير جدا منهم الدين اليهودي لتسهيل عملية التماثل . وقد أدى ارتفاع موجة مناهضة السامية والنزعة القومية والشعور القومي بصفة عامة الى نمو الصهيونية التي تفترض أن هناك جنسية يهودية . ومع ذلك فإن التطور الأخير للمشكلة اليهودية يبين بوضوح أن التطلعات القومية ، بدون رابطة تاريخية قوية بأقليم ، لا تكون أمة . وصحيح أن الصهيونيين يعتبرون فلسطين الاقليم القومي اليهودي ويريدون ان يقيموا فيها دولة قومية يهودية وأن يجعلوا العبرية لغة قومية . وهناك يهود آخرون يفكرون في فلسطين ، أو في بعض البلاد الأخرى ، كملجأ للمضطهدين من اخوانهم في الدين دون التأكيد على التطلعات القومية ، أو يكفيهم مشاركة العرب في اسرائيل . وبعض المفكرين اليهود يريدون أن يخلقوا في فلسطين مجرد مركز للمحافظة على التراث الثقافي اليهودي . وهناك كثير من اليهود الأورثوذكس يرادوهم الأمل في أن شعبهم سيعود يوما الى الارض الموعودة تحت قيادة المسيح الجديد ، ولكنهم يرفضون أفكار الصهيونيين القومية ويحاربونها لأنها تتعارض مع وجهة نظرهم الدينية البحتة . وفي شرق أوروبا عدد كبير جدا من اليهود يعتبرون أنفسهم جنسية منفصلة ويرغبون في الاعتراف بهم قانونا كأقلية قومية ، ولكن معظمهم يريدون البقاء في البلاد التي يعيشون فيها ويعارضون فكرة العودة العامة الى فلسطين . وتعتبر لغة الشلخت في نظرهم هي اللغة القومية وليست العبرية . وتدل هذه الاختلافات في الرأي على أن اليهود لا يمكن أن يقال عنهم أنهم أمة ورغم أن كثيرين منهم يهدفون الى ذلك . وفي البلاد التي يتمتعون فيها بالمساواة في الحقوق تشترك الأغلبية الكبرى في التقاليد والتطلعات القومية السائدة في هذه البلاد ، وكثيرون منهم يعدون مواطنين متحمسين بصفة خاصة ، لسبب واضح هو أنهم يواجهون تحيزا .

٣ - الحنين الى الوطن والشعور القومي

والمغزى الرئيسى للاقليم بالنسبة للجنسية هو تأثيره على الشعور القومي . وكثيرا مايفترض أن الروح القومية ليست سوى الارتباط بالأرض الوطنية . ومع ذلك فإن الشعور القومي والحنين الى الوطن ليسا نفس الشيء . والاقليم القومي ، أى التي تعتبره الأمة بلدها ، ليس هو

الموطن بالمعنى الضيق أى المكان الذى ولدنا فيه أو الأثر الى قلوبنا بسبب طول الإقامة وكثير من الذكريات العزيرة (١) . ولهذا الاقليم الضيق مغزى سيكلوجى يختلف تماما عن الاقليم القومى . اذ أنه يعنى ذكريات الطفولة والشباب والحياة العائلية والاقارب والاصدقاء القدامى . وغاباته ومراعيه ووديانه وأنهاره وآثاره التاريخية أقرب الى قلوبنا من بقية أجزاء الوطن القومى التى قد لا نكون قد رأينا معظمها الا كزائرين ، اذا كنا قد رأيناها . ان أحلام شبابنا وآمالنا والمراحل الحاسمة فى نمونا وذكريات الآباء تتصل اتصالا وثيقا بأرض ميلادنا . وتفسر واقعة ان اقليما معينا ، صغيرا الى حد ما ، يرتبط بنمو شخصيتنا ، لماذا لا يضعف حبنا لوطننا عادة مهما كان مجذبا ، أو مقفرا ، ولماذا لا يحب الناس وطنهم أكثر أو يكونون أكثر وطنية اذا كانوا مولودين فى أرض خصبة أو جميلة . ان تأثير أرض المولد على العقل تعبر عنه تعبيرا مؤثرا أغانى الزنوج فى حينهم الى موطنهم القديم فى كنتوكى ، الارض التى كانوا فيها عبيدا وتعرضوا فيها للشنق .

ان حب الاقليم القومى يغرسه فى عقولنا التاريخ المشترك وقوة الرأى العام والتربية والكتب والصحف والاغانى القومية والآثار وعدة أشياء أخرى (٢) . ومشاعرنا تجاه الاقليم الصغير نتاج كثير من التجارب

(١) ان اللفظ الالمانى Heimat يقصد به بصفة خاصة هذا الاقليم الضيق ، فى حين ان تعبير home country الانجليزى قد يستخدم أيضا للدلالة على الاقليم الأوسع . فتعبير Home office يقصد به وزارة الداخلية لانجلترا كلها وويلز Home Rule لا يعنى الاستقلال الذاتى المحلى ، بل الحكم الذاتى فى اقليم قومى أما لفظ Heimat فلا يمكن استخدامه بالمعنى الأوسع الا بطريقة رمزية . بالإضافة الى أن اللغة الانجليزية لا تستخدم كثيرا الألفاظ العاطفية مثل Vaterland و Patrie و Patria الخ . وصحيح ان قاموس اكسفورد يذكر عدة حالات يستخدم فيها لفظ Fatherland فى القرن السابع عشر ، ولكنها لم تكن مألوفة لدى الانجليز بالطريقة التى يطلق بها الهولنديون على بلدهم تعبير Fatherland كما يقول تامل فى سنة ١٦٧٢ . واليوم يعنى لفظ Fatherland عادة ألمانيا ، مع شيء من التهكم أحيانا ، ويشكو شافيتسبرى من أن الانجليز ليست لديهم كلمة مثل Patria يرسم أن لديهم بالتأكيد وعيا عاما .

(٢) هناك دراسة مفيدة فى الوسائل التى تستخدم فى هذا الغرض فى كتاب كارلتون هيز « فرنسا أمة من الوطنيين » ١٩٣٠ . ولتعليم التاريخ دور خاص فى نمو المشاعر القومية والنزعة القومية . انظر ج. ف. سكوت « خطر النزعة القومية على التربية » ١٩٢٦ ، و ش . آلتشول « الثورة الامريكية فى كتبنا المدرسية : محاولة لتتبع تأثير التعليم المدرسى المبكر على المشاعر تجاه انجلترا فى الولايات المتحدة » ١٩١٧ . وبعد الحرب الكبرى الاخيرة ساد اتجاه قوى بين التربويين الديمقراطيين ، وبخاصة فى النمسا ، لتشجيع المشاعر المحلية عن طريق المدرسة واحلال التقدم الثقافى كما يبدو

الشخصية الوثيقة فى مرحلة حاسمة من حياتنا . ومن ثم فان الشعور نحو الموطن أقرب الى طبيعة النمو العضوى ، فى حين أن الشعور القومى أقرب الى الاصطناع وان كانت هناك عدة روابط بينهما . وقد حاول مورييس باريه أن يجعل محور مذهبه فى القومية الارض والموتى ، ودعا النازى الى انجيل من رابطة الدم والارض . وكلما كانت الامة اصغر اتخذ اقليمها طابع أرض المولد . وقد يكون ذلك من الاسباب فى ان الشعور القومى لدى الامم الصغيرة كثيرا ما يكون حساسا بصفة خاصة فيما يتعلق بسلامة ما تعتبره اقليمها القومى ، وايا كان الأمر فان التعلق بالموطن هو أحد العوامل التى تخلق الولاء القومى .

وتسعى الدول القومية الحديثة كقاعدة عامة الى تركيز كل مشاعر الولاء والفخر والحب فى الاقليم القومى على حساب كل من الاقليم الاصغر والاقليم الأكبر . وينطوى ذلك على انفزالية فيما يتعلق بمصير الأمم الأخرى من ناحية وعلى اخماد المشاعر المحلية داخل الأمة من الناحية الأخرى . فالثورة الفرنسية ألغت المقاطعات التاريخية فى فرنسا وأدخلت تقسيما مصطنعا جديدا لاقليمها الى مديريات . وحذت إيطاليا بعد توحيدها حذو فرنسا . وبعد الحرب الكبرى الأولى ألغت الدول القومية التى تكونت من اقاليم النمسا والمجر مجالس المقاطعات والانظمة المماثلة . واهتم هتلر أيضا اهتماما عظيما بالقضاء على جميع الانظمة والتقاليد التى تساعد على بقاء المشاعر الوطنية بالنسبة للاقاليم التاريخية للرايخ والارض التى غزاها . بل انه محا حتى اسم النمسا الذى يرتبط بتلك الصفحات المجيدة فى تاريخ المدينة، وكبدل للمشاعر التى تكبت فيما يتصل بالاقاليم القديمة يشجع دعاة القومية التعبيرات التى لاضرر منها عن المشاعر المحلية مثل الرقصات الشعبية والاغانى الشعبية وملابس الفلاحين وما الى ذلك .

وفكرة الاقليم القومى عنصر هام فى كل ايدولوجية قومية حديثة . فكل أمة تعتبر بلدها ميراثا مقدسا لا يجوز الانفصال عنه ، ويبدو استقلاله وسلامته وتجانسه مرتبطا بالامن القومى والاستقلال القومى والشرف القومى . وكثيرا ما يوصف هذا الاقليم بأنه جسد الكائن القومى الحى واللغة بأنها روحه . ومن ثم فان الاقليم التاريخى ينظر اليه فى ايدولوجية

= فى الآثار والتقاليد المحلية محل تدريس سجل الحروب فى التاريخ . وكتبت الكتب المدرسية بهذا المعنى . وكان دعاة هذا التغير يدافعون عنه أساسا على انه أسلوب تربوى حيث كان الاعتقاد السائد ان الآثار والتقاليد المحلية تجتذب عقول الاطفال والمراهقين أكثر من الكتب المدرسية الجافة . ولكن كان من الدوافع الى هذا التغير أيضا الرغبة فى تنقية التعليم من العناصر التى يحتمل أن تدعم النزعة القومية الحربية .

كل أمة تقريبا كأنه شخصية حية تقريبا لا يمكن تقسيمها دون تدميرها كلية (١) . وهذه القيمة الرمزية للأقليم القومى هى أكبر عقبة للتسوية العادلة فى الصراعات القومية . فكثير من الاقاليم تعتبره أكثر من أمة واحدة تراثها القومى على أساس حجج متساوية فى قوتها ، وتبدو عادة فكرة الحل الوسط لهذه الامم مكروهة كفكرة شخص يوافق على فقد احد أوصال جسده مقابل تعويض مادى .

٤ - العوامل التى تحدد تكوين الاقاليم :

تختلف وجهات النظر فى النمو التاريخى للأقليم القومى تبعاً للايديولوجية السياسية الخاصة بالمؤرخ . فدعاة القومية الذين يجنحون الى التوحيد بين الامة والجنس يعتقدون أن وحدة الدم المصاحبة للطابع المشترك والتعاطف المشترك اساسية فى تحديد الاقليم . ويؤكد المحافظون أهمية تأثير سياسة الاسرات الحاكمة والحروب فى تجميع الامم وتوحيدها . ويعتقد الديموقراطيون الليبراليون ان وحدة اللغة والمدنية تؤدى الى سعى تلقائى للوحدة وان التوحيد يتم عن طريق تقرير المصير الذاتى .

ويعزو الاشتراكيون عادة تكوين الاقاليم القومية الكبرى الى نفوذ الرأسمالية التى تهدف الى أسواق واسعة . وكل هذه الآراء تحتوى على شىء من الحقيقة ، ولكن تطبيق أحدها بمفرده فى السياسة كثيرا ماكان له آثار سيئة .

فوحدة اللغة والمدنية والمصالح قد تؤدى بالتأكد الى وجهة نظر مشتركة فى السياسة وبذلك تؤثر فى نمو الاقليم القومى ولكن الديموقراطيين بالغوا عادة فى تلقائية الحركات القومية التى تعمل من أجل الوحدة والحرية . ويبين التاريخ ان هناك شعوبا تمسكت باصرار لمدد طويلة جدا بمواطنها الصغيرة ولم تظهر قط أية رغبة فى ادماج فرديتها فى أمة كبيرة . وفى معظم الحالات تكونت الاقاليم القومية الكبيرة والأنظمة المشتركة بواسطة الملوك ورجال الدولة ضد رغبة الشعوب . ولو أجريت

(١) لقد قسم لورد كيرزون فى سنة ١٩٠٥ اقليم البنغال الضخم الى نصفين لدواعى التحسين الادارى . انظر لـ . فريزر « الهند فى عهد كيرزون » ١٩١١ ص ٣٨٥ . وقد اعتبر القوميون الهنود هذا التصرف اساءة كبيرة للجنسية الهندية وأثار عاصفة ضخمة من الغضب أعقبتها حملة من الارهاب والمقاطعة والاعمال الثورية الاخرى . وبرغم ان هذا الاجراء كان فى ذاته مقيدا الا انه تمين تعديله .

فى وقتها استفتاءات عامة لجاءت النتيجة ضد التوحيد ، وبخاصة فى المدن والاقاليم التى كانت قد نمت فعلا روحا ديموقراطية ومن ثم كان لديها طابعا قوميا متأصل الجذور فى الشعب . فضلا على أن أمما كثيرة تكونت بالانفصال عن اقاليم أكبر ، اما عن طريق تحلل الامبراطوريات أو عن طريق التمرد ضد حكم اعتبر أجنبيا . وفى هذه الحالات أيضا جاءت المبادرة عادة من جانب أقليات صغيرة فرضت ارادتها شيئا فشيئا على الجماهير ، بارهاب الخصوم واثارة غريزة القتال والنصرة القومية والتلويح بالمصالح المادية والمثالية ، وفوق كل شىء آخر باكتساب هيبة لا تقاوم عن طريق الحروب المظفرة ضد العدو القومى .

وكثيرا ما يواجه دارس التاريخ بالثبات الغريب للتقاليد الأساسية للدولة بشكل يبدو أنه يسمو على كل الاختلافات والأحزاب والطبقات . فقد استمر كل من اليعقوبيين والبلاشفة من بعض الوجوه بتقاليد النظم التى قاموا أصلا لاستئصالها . وقد تجنب بعض العقول غير الناقدة الى تفسير هذا الثبات على أنه دليل على ميل متأصل فى الجنس . والحقيقة انه نتاج عدة عوامل، ومن بينها الاقليم القومى فقد لعب دورا هاما . وقد حاول الملوك بناء الأمم ان يحصلوا لملكاتهم على حدود قومية مواتية ، اذ اختاروا موقعا معيناً لاقامتهم الدائمة وحددوا مناطق معينة للتوسع . ثم اندمجت كل هذه الوقائع والتقاليد فى الأيديولوجية القومية وأثرت بصورة لا تقاوم فى سياسة كل نظام جاء بعد ذلك . ولكن الملوك لم يكونوا هم وحدهم الذين حددوا التقاليد القومية . ففى حالات كثيرة كان نمو الجنسية المنفصلة راجعا الى أسباب جغرافية أدت الى نمو تركيب اجتماعى متميز . فاذا نحن نظرنا الى «خريطة» أوروبا نجد أن معظم الأمم الصغيرة الموجودة تقع على شاطئ البحر أو على الانهار الكبرى أو على مفارق الطرق الدولية . وفى الأزمنة القديمة كانت هناك أمم أكثر من هذا النوع ، مثل البندقية وجنوا وراجوسا وجون هانسا والمدن الجمهورية فى الأراضى الواطنة . وينبىء ذلك عن أن النزعة نحو نمو شخصية قومية منفصلة سببها عوامل اجتماعية . فالمدينة التى صارت مركزا للتجارة الدولية أو الاقليم الذى كان ينتج سلعاً للتصدير تكونت فيهما مصالح وتركيب اجتماعى يختلف عما يكون فى الدول الداخلية الزراعية الواسعة التى سادت فيها الفئودالية والنزعة الحربية . ومن ثم فإن الأولى حاولت أن تستقل بنفسها ونجحت فى كثير من الحالات .

ويمكن أن نتبع مغزى الاختلافات الاجتماعية بالنسبة لنمو الفردية القومية فى معظم الصراعات من أجل التحرير من الحكم الأجنبى ، مثل

تمرد الهولنديين ضد الحكم الاسباني فى القرن السادس عشر . فلم تكن أسباب هذا التمرد أساسا هى اضطهاد الشعب ، حيث أن الأراضي الواطئة كانت تتمتع باستقلال واسع جدا وكانت السيادة الاسبانية حريصة جدا فى ممارستها لسلطانها . ويرجع أصل الصراع الى عدة أسباب ولكن لعل العامل الحاسم كان هو عدم التوافق بين الطابع القومى للشعبين . فالاسبان كانوا ، كما يقول أحد العلماء الانجليز (١) . يحتقرون الهولندى فى كل شئ فى روحه التجارية وميله الى الشراب وكثرة الأكل وعدم تعصبه الدينى وعقليته المدنية بأكملها . وكان الهولنديون من الناحية الأخرى ينسحرون من كثير من الصفات الاسبانية ويكرهون الجندى الاسباني المتعجرف الذى كان يعتبر نفسه ارستقراطية الجنس البشرى (٢) . ومع ذلك فان التمرد بدأ بالطبقة العليا من نبلاء الأراضي الواطئة الذين كانوا انما يعملون لمصلحتهم الخاصة الى حد بعيد . وفى أثناء القتال دخلت طبقات وقضايا أخرى وارتكب الجانبان فظائع جعلت الهوة بينهما مما لا يمكن عبوره .

٥ - الامبراطوريات مهد الأمم ومقبرتها :

ان نمو الأمم يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الامبراطوريات المتعددة الجنسية (٣) . ويجتجح الرأى القومى والديموقراطى الحديث الى الحكم بقسوة على الامبراطوريات باعتبار أنها تدمر الأمم المسالمة وتضطهدها بدافع من شهوة التسلط . ومع ذلك فلا سبيل الى انكار أن بناء الامبراطوريات هم فى الغالب أول من شيد الدول الاقليمية (٤) والأنظمة

(١) انظر ر . تريفور ديفيز (القرن الذهبى لاسبانيا) ١٩٣٧ ص ٣١٨ .

(٢) ف . فون بيزولد «Geschichte der deutschen Reformation» ١٨٩٠ .

ص ٢١٨ .

(٣) ان لفظ امبراطورية ينطوى على ابهام مضلل . فاصلا كانت كلمة *imperator* تعنى السلطة الالزامية للحاكم الرومانى الأعلى ، سلطة على الحياة والموت كما يرمز اليها شعاره المخيف الذى يمثل اثني عشر جنديا يحملون العصي والفؤوس . وفيما بعد كان لفظ *imperator* يعنى القائد الرومانى المنتصر الذى سرعان ما صار عملا دكتاتوريا وامبراطورا ومن ثم فان تسمية « الامبراطورية البريطانية » لم تكن شيئا طيبا حيث انها توحى بتشابه مع الامبراطورية الرومانية التى كانت مختلفة تماما . فكلمة امبراطورية حقا لا تعنى سوى دولة كبيرة أو مجموعة من الدول تحت حاكم واحد وتضم عدة شعوب .

(٤) ان الحكومة البدائية لم تقم على أساس الاقليم بل على أساس القرابة كما أثبت مورجان وين ، وان كانت هناك دلالات يمكن أن تعتبر نواة للدولة . انظر روبرت لدوى « المجتمع البدائى » ١٩٢٠ ص ٢٩٠ .

السياسية التي صارت مهددا للأمم . وقد مهد السبيل على يد قبائل عدوانية من الرحل كانت تملك احساسا قويا بالتضامن والكفاية الحربية، بسبب تنظيمها الاجتماعي ، واستطاعت ان تخضع سكان البلاد الخصبة . واختلط نسل هؤلاء الغزاة بالشعوب الخاضعة واتخذوا لغتها وعاداتها ودمجوها في وحدة قومية أوسع . ففي كل مكان كانت طبقة المحاربين ، النبلاء ، هم أول من نما لديه الشعور بالجنسية برغم انهم كانوا جزئيا من أصل أجنبي ، وحاول الملوك أيضا في صراعهم مع النبلاء ان يكسبوا الشعوب الى جانبهم بأن صاروا قوميين في اتجاههم . فالملوك الذين وضعوا أسس الدول القومية الحديثة فعلوا ذلك الى حد كبير بغرض استخدام الزيادة المتوقعة في قوتهم لخلق امبراطورية . والحقيقة أن الدول القومية الكبرى في الوقت الحاضر كانت اصلا امبراطوريات نجحت في ادماج شعوب مختلفة في أمة واحدة . ومن الناحية الأخرى يبين التاريخ انه كلما صار أمة قوية بدأت على الفور تقريبا في العمل على التوسع وجعلت هدفها تكوين امبراطورية . وأدى تحلل الامبراطوريات أيضا الى ظهور الأمم ، فكثير من الامم الحالية في أوروبا أصلها اقاليم في الامبراطورية الرومانية . وهناك طريقة أخرى تم بها تكوين شعوب جديدة هي الغزو المشترك . فالشعوب الجرمانية في فترة الفرانك مثلا كانت مؤلفة من مزيج من عدة قبائل اندمجت بواسطة الهجرات الكبرى . وقد ابتلعت الأمم الكبرى مع الوقت كثيرا من الأمم الصغيرة ، ولكن التنافس بين الدول الكبرى ساعد أيضا على خلق أمم صغيرة والمحافظة عليها ، مثل سويسرا والأراضي الواطئة ، حيث أن محاولات احدى الدول الكبرى لضمها كانت تعارضها الدول الكبرى الأخرى ، بالإضافة الى ان الدول الصغيرة عرفت كيف تضرب الدول الكبرى بعضها ببعض ، وصارت عن هذا الطريق مبتكرة للدبلوماسية و « توازن القوى » . وكانت الامارات الإيطالية والبندقية رائدة في هذا المجال (١) ثم تبنت انجلترا مبدأ « توازن القوى » وساعدت كثيرا من الامم الصغيرة على الحصول على استقلالها او الاحتفاظ به . واعتبرت الدول الصغيرة حاجزا بين الدول الكبرى ، ولعبت بعضها وبخاصة هولندا وسويسرا دورا مفيدا جدا كجسور ثقافية بينها .

ولحجم الاقليم أثر على تكوينه الاجتماعي والسياسي ، ويحدد الطابع

(١) أ. كاير Die Idee des europäischen Gleichgewichts in der publizistischen Literatur vom 16 bis zur Mitte des 18 Jahrhunderts.

١٩٢٧ . وشارل ديبري « مبدأ التوازن والمجتمع الأوروبي في سلام وستفاليا » . ١٩٠٩ .

القومى بعبء طررق . وكان الاغريق يعررقون ان الءولة المءىنة الصغىر هى وءءها الءى ركون وطنا ومءءمعا قومىا . والواقع أن الرارىخ يعطىنا أمثلة عءىءة ىبءو أنها رؤىء هذا الرأى فالءول الواسعة الارءاء كانت رؤلء عاءة بالقرءة ولابء من المءافظة علفها بالقرءة . وكقاعءة عامة رضم مثل هذه الءول عءة شعوب مءرلفة ومناطق عءىءة لهاءقالىء ومصالح مءبائنة رؤىء بسهولة الى نمو انماط اءءماعىة وءنسىاء مءرلفة . والاقالىم الواسعة لها أعاء كثرىون وكثرىا ما ىصعب الءفاع عنها . وكثرىا ما ىكون ذلك سببا فى ارغام ركامها على اءباع سىاسة روسعىة للءصول على رءوء اسراءىءىة . والءولة الكبرى الءى ىواجهها اعاء أقوىاء لاربء ان ىكون لها ءىش كبرى ، وكثرىا ما ىؤءى ذلك الى سىطرة الطبقة العسكرىة فى السىاسة وركون الرئىءة اما اءماء نمو الءىموقراطىة أو ءءمىر نظام ءىموقراطى قائم فعلا . فضلا عن أن الشعوب الءىموقراطىة تمىل الى ركىز اهءاماءها السىاسىة على المسائل الءاءلىة وكثرىا ءءا ما رهمل الءفاع والشئون المءارءىة (١) . فالءىموقراطىة رزءهر أكثر ما ىكون عءءما ركون مشاكل الركم بسىطرة ومءصلة بصورة مباءرة برفاهىة الشعب ، كما هو الرال فى اءارة الءول الصغرى أو المءن . فقضاىا القرءة غربىة ومنفرة عاءة بالنسبة للسىاسىىن الءىموقراطىىن ومن ثم ركون عرضة للءءاهل أو رعالء بعءم اكراء . ولا ىحظى النمو السىاسى للام الاخرى باهءمام كبرى ، أو ىنظر الىه على ضوء ربر واقعى ىشءع على اءءاء موقف سلبى . بالاضافة الى ان الرءربة رءل على أن الءىموقراطىاء رءء من الصعوبة بمكان كبرى أن رمارس رضاءمنا اىءابىا نحو اصءقائها فى المءارء عءءما ىكون على هؤلاء الاصءقاء ان ىكافءوا من أجل بقائهم . ومن ثم فان نمو الءنسىة والءىموقراطىة فى الءول الكبرى

(١) قال أءء المءءوبىن الكنىءىىن فى مؤءمر علاقاء الكومنولء فى رورنرو (١٩٣٣) فى رءاب له : « ان رءىقة من الرءائق الصلبة فى هذا العالم ان كلا من الامم البرىطانىة ءىموقراطىة ، وان لها برلمانا ، وان وراء هذه البرلمانات أءزابا وان الأءزاب مؤلفة من سىاسىىن وان من الاغراض الأولى للاءزاب السىاسىة العمل على اءراء الوزارة من الركم ، وانه لا روءء قضية رفىء فى قلب الوزاراء مثل القول بأنها رولى المصالح المءارءىة اهءماما أكثر من المصالح الءاءلىة » و « علاقاء الكومنولء البرىطانى » بالشراف روبىنى ١٩٣٤ ص ١٧٢) .

كثيرا ما ينطوى على خطر التحلل ، اما بسبب عدم الاستعداد العسكرى
أو عدم الكفاية العسكرية ، واما بسبب الانعزالية العنيدة وعدم رؤية أشد
الأخطار .

وقد ناقشت نظريات سياسية كثيرة العلاقة بين حجم الدول وبنائها
السياسى ، وقد انتهى مونتسكيو الى أن الدولة الكبيرة لا يمكن ان تحكم
الا حكما مستبدا (١) . فالجمهورية الكبيرة فى نظره معرضة للانحلال
بسبب الاضطرابات الداخلية ، فى حين ان الجمهوريات الصغيرة يسهل
تدميرها من الخارج . وبدلًا له أن السبيل الوحيد للخروج من هذه المعضلة
والطريقة الممكنة للجمع بين القوة والحرية هى تكوين فدرال من
الجمهوريات الصغيرة . ومنذ عهده عمل نمو وسائل الاتصال السريعة
والتربية العامة والصحافة والسينما . . الخ على التقليل من خطر الانحلال
الناجم عن بعد المسافات والاختلافات المحلية . بيد ان ظهور الوعي القومى
من الناحية الأخرى زاد من حدة الانفصالية والانعزالية ، ومنذ ذلك الوقت
ابتدت الامم الديمقراطية ميلا اقل نحو التكتاف عن طريق تكوين
الفدرالات . فقد اثبت حل الاتحاد بين بلجيكا وهولندا فى سنة ١٨٣٠
وبين النرويج والسويد فى سنة ١٩٠٥ وتكوين دول قومية صغيرة عديدة
من الاقاليم التى كانت تتألف منها النمسا - المجر وروسيا فى سنة
١٩١٩ ، وكذلك حقائق أخرى كثيرة من هذا النوع (٢) ، ان السعى
نحو الاستقلال القومى الكامل كان أقوى من مصالح الامن والازدهار
الواضحة . وقد مهد انقسام الوحدات الكبرى الى أمم صغيرة جدا ، وتدمير
« توازن القوى » عن طريق معاهدات الصلح عقب الحرب الكبرى الماضية،
السبيل لانتصارات هتلر، ودفعت جميع هذه الأمم الصغرى ثمن تلك الفترة
الصغيرة من الاستقلال الكامل بان فقدت حريتها تماما . واذا كانت ايرلندا
قد ظلت قائمة بعد انفصالها عمليا عن بريطانيا فانها مدينة بذلك للاسطول
البريطانى وحده ، وان كانت سياستها لاتبدى اى تقدير لهذه الحقيقة
ولا تسهم بشئ فى الدفاع عن الحرية القومية .

(١) مونتسكيو « روح القوانين » المجلد الثامن ١٦ - ٢٠ والمجلد التاسع ١ - ٦ .
وكان الكتاب التحرريون والديمقراطيون فى عصر الاستنارة بصفة عامة يعتقدون انه من
الأفضل للبشرية اذا تمزقت الامبراطوريات الكبرى الى دول صغيرة تعيش عندئذ فى ستر
واتفاق . انظر ١ . زاير ١٨ Die Idee des Kleinstaates bei den Denkern des 18
und 19 Jahrhunderts . ١٩٢٠ .

(٢) ونستطيع أيضا أن نذكر انفصال ايسلندا عن الدانمارك (١٩١٨) وكذلك
الحركات الانفصالية بين القطلونيين والسلوفاكيين والكرواتيين . الخ . أما فيما يتعلق
بالدولة الصغيرة فى عصرنا انظر ٥٠١ كار « شروط السلام » ١٩٤٢ ص ٣٧ .

٦ - صراع «الألف عام» حول ميراث شرملة

لقد كان الفكر السياسى فى العصور الوسطى خاضعا تماما لفكرة الامبراطورية . وكان الاعتقاد السائد بناء على ما جاء فى كتاب « دانيال » ان تاريخ الجنس البشرى يبين تعاوبا من الامبراطوريات العالمية وأن آخرها كانت الامبراطورية الرومانية التى ستظل قائمة الى الأبد . وأعاد شرملة الى الحياة فكرة الامبراطورية الرومانية ووحدها مع مملكته . وكانت مملكته بناء مفككا سرعان ما انحل بعد موته . ومع ذلك فقد ظلت تقليدا حيا مدى الف عام يثير طموح الأمراء والانفعالات القومية . وقد قسمت الامبراطورية بين احفاد شرملة الى ثلاثة اجزاء دون اعتبار لجنسيات الشعوب . وكان كل من هذه الاجزاء فى الحقيقة امبراطورية تتألف من عدة شعوب مختلفة . وصار الجزء الغربى فيما بعد فرنسا والجزء الشرقى المانيا . وعرف الجزء المتوسط لفترة باسم لوثارينجيا نسبة الى لوثار الثانى وكانت مرتبطة باللقب الامبراطورى ، وكان مؤلفا من الاراضى الواطنة وارض الرين واللورين (التى اخذت اسمها من لوثارينجيا) والالزاس وسويسرا الغربية وبورجندى وبروفانس وايطاليا كلها . وكان هذا الجزء يضم اقاليم الرين والميز والرون والبو التى سيظهر فيها بعد عدد كبير من المدن الصناعية ، التى تعد بصفة عامة أخصب أجزاء أوروبا وأكثرها مدنية . ومن الحقائق ذات الاهمية الكبرى ايضا بالاضافة الى ذلك ان هذه المناطق سرعان ما صارت معبرا بين المدينيات الكبرى وتكونت لها علاقات ثقافية واقتصادية وثيقة مع فرنسا وألمانيا ومع ايطاليا واسبانيا ومع سوريا . وكان فى ذلك حافز كبير على التقدم ونمت افاق اوسع فى الفكر مما كان سائدا فى اجزاء كبيرة فى أوروبا وقد كتب فعلا احد قساوسة « سانت لامبير » فى لياج فى القرن الحادى عشر قائلا : « اننا نعتبر آخر الغالين وأول الجرمانين . اننا لسنا غالين ولا جرمانين ، فنحن ننتمى فى نفس الوقت اليهما معا » (١) . وكان الجو مهيئا فى المنطقة الوسطى بين الشرق والغرب لظهور روح فوق القومية ظهر أعظم صدى لها فيما بعد فى ايرازموس .

وسرعان ما ضم الجزء الاكبر من الامبراطورية الوسطى مع المانيا ، وعرفت هذه الامبراطورية التى احتلت فيها المانيا مركزا مسيطرا باسم الامبراطورية المقدسة .
ومن الناحية النظرية كان الملوك الالمان ، بعد انتخابهم بواسطة

(١) هـ . فان در لندن « بلجيكا ، أمة تتكون » ١٩٢٠ ص ٤٣

الامراء الالمان الرئيسين وتتويجهم بواسطة البابا ، يعتبرون خلفاء اباطرة الرومان العالميين يخضع لسلطتهم جميع الملوك . ولكن لم يحاول تأكيد هذا التفوق او يتبع سياسة توسعية طموحة جدا سوى قلة من الاباطرة . فقد كانت سلطة معظم الاباطرة نظرية أكثر منها عملية ، وحوالى نهاية العصور الوسطى كانت معظم البلاد غير الالمانية مستقلة تماما تقريبا (١) ، وكانت سلطة الاباطرة ضعيفة جدا . ومع ذلك فان الادعاء بحق التفوق الدولى لم ينبذ قط وكان سببا الى حد كبير فى اثارة الاحساس بفخر عظيم (٢) . ورغم ان الامبراطورية كانت رومانية بالاسم فانها كانت المانية فعلا ، وكسب منها الامراء والبطاركة والفرسان الالمان كثيرا . وكانت الكنيسة تتمسك بأن البابا نقل الامبراطورية الى الالمان فى حين كان الالمان يميلون الى تأكيد انهم كسبوها بالسيف .

وأثار ادعاء الالمان بحق التفوق العالمى تدمرا وغيره على نطاق واسع فى البلاد الاخرى ، واسهم بنصيب كبير فى قيام الشعور والايديولوجية القومية . واستخدم الملوك الانجلو ساكسون فعلا لقب الامبراطور لتأكيد استقلالهم ومساواتهم فى المرتبة ، ومن وقت لآخر اعلن كثير من الملوك والملكات فى انجلترا ، وحكام بلاد اخرى أيضا ، انهم اباطرة فى ممالكهم . بيد أن أشد معارضة جاءت من جانب الفرنسيين ، الذين أكدوا أن حقهم اقوى بكثير فى ميراث شلمان - وقد اعتبروه فرنسيا . وعمل كثير من الملوك الفرنسيين على أن ينتخبهم الامراء الالمان اباطرة مؤملين بذلك ان يستعيدوا امبراطورية شلمان . بالاضافة الى أن السياسة الفرنسية

(١) فى ذلك الوقت كانت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » تكمل بعبارة « للامة الالمانية » ، وكان معنى أصلا ذلك الجزء من الامبراطورية الذى كانت جنسيته المانية . وفسرت هذه العبارة فيما بعد بأن الامبراطورية نفسها خاضعة للامة الالمانية . انظر ف. هارتونج «Deutsch Verfassungs — Geschichte» ١٩٢٢ ، و ا. وورينجوف «Hist. Vierteljahrschrift» ١٩٠٨ . و ج . برايسى « الامبراطورية الرومانية المقدسة » الطبعة الثانية ١٨٩٩ .

(٢) عندما مات هنرى السادس ، أقسى من حاول السيطرة على العالم ، فى سنة ١١٩٧ جاء فى حويلات دير سانت تلازائى فى الغابة السوداء تعليقا على وفاته « ان الشعب الالمانى سيحزن على موته الى الأبد ، لأنه بنى مجده بالثروات التى جاء بها من البلاد الاخرى وجعل جميع الشعوب ترتجف أمام قدرته الحربية ، وكان من الواضح انه كان سيصير فى المستقبل فوق كل الامم لو لم يختطفه الموت قبل الاوان » . وهناك أمثلة عديدة تبين مدى تأثير امبريالية العصور الوسطى على احساس الالمان بالكرامة القومية فى كتاب ف . لتشايى Geschichte des deutschen Nationalgefühls المجلد الاول ١٨٩٣ (حتى القرن الثالث عشر) .

حاولت باستمرار الحصول على اجزاء من الامبراطورية الوسطى السابقة، وكان يسكن هذه الاجزاء سكان يتحدثون الفرنسية في الغالب . بيد ان فكرة الامبراطورية الوسطى عادت الى الحياة في اواخر العصور الوسطى على يد «دوقات» بورجندي الذين كانوا يمتلكون أيضا المدن الثرية في الاراضي الواطئة .

فقد بدءوا سياسة من التوسع ، على حساب فرنسا اساسا ، بل وهددوا أسس المملكة الفرنسية متحالفين مع انجلترا . وكان الانجليز أول من اخذ ينمو في اتجاه الدولة القومية ، وسرعان ما صارت سياسة غزو فرنسا ، التي انبثقت من دوافع فيودالية تتعلق بالاسر الحاكمة ، مغامرة قومية . وبنفس الطريقة جاءت عقب تطور فرنسا نحو الوحدة القومية والقوة سياسة من الغزو في ايطاليا . واثار ذلك الغيرة لدى اسبانيا والنمسا ، وادى ذلك بدوره الى خضوع ايطاليا للغزو الاجنبى والى التآمر والسيطرة قرونا طويلة .

٧ - امبراطورية شارل الخامس امبراطورية فوق الدول

فى القرن الخامس عشر انتقلت اراضي بورجندي ، وتطلعاتها ، الى بيت هابسبرج بالمراث ، وجمع شارل الخامس الاراضي الواطئة واسبانيا وممتلكاته النمساوية والتاج الامبراطورى ، وان كان قد تنازل بعد ذلك بمدة قصيرة عن النمسا لأخيه فرديناند (١) . وأطلق شارل على نفسه ملك الممالك الخمس والعشرين وحاكم جزر الهند الشرقية والغربية وكل جزر المحيط وقاراته . وبدأ أن حلم دانتي بامبراطور يرسى السلام والعدالة فى العالم لم يعد أمرا غير عملي . فشارل الخامس ، كان أحد المعجبين بايرازموس - برغم انه كان فخورا وطموحا ، ولم يسع الى اكايل الغار الدامية كقيصر . وكان يسخر من فكرة الامبراطورية العالمية التي يعزوها اليه اعداؤه ، واكد ان هذا المفهوم لم يدخل فى نطاق تفكيره قط مهما بدا ممكنا . وبرغم ان حكمه كان زاخرا بالحروب فانها لم تكن نتيجة

(١) أدوارد ارسترونج «الامبراطور شارل الخامس» مجلدان ١٩٠٢ . وكارل براندى «Kaiser Karl V» ومارتين هيوم «اسبانيا عظمتها وأفولها» ١٩٢٥ . ولاتريفور ديفيز «القرن الذهبي لاسبانيا» ١٩٣٧ . وليوبولد فان رانك «Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation» ستة مجلدات ١٩٢٥ . وهـ. بين «Histoire de Belgique» المجلد الثالث ١٩١٢ .

خطته أساسا (١) . وكان الامبراطور مدينا بامبراطوريته أساسا الى سياسة بيت هابسبرج في عقد الزيجات مع البيوت الحاكمة الاخرى والصلات العائلية الى حد اثار الشاعر الى قول :

« ليشعل الآخرون الحروب ، أما أنت أيتها النمسا السعيدة فتزوجي ! لان الممالك التي يدين بها غيرك لمارس اله الحرب ، تحصلين عليها أنت من الزهرة الهة الحب » (٢) .

واستمر شارل في هذه السياسة التي كانت سمة هامة من سمات خطته .

فجميع الملوك تقريبا وكثير من الحكام المهمين الآخرين كانوا مرتبطين به بصلات عائلية وثيقة (٣) . وقد ساعد ذلك كثيرا على تسوية النزاعات، وبخاصة بتوحيد اى بيتين حاكمين يتنافسان على اقليم بالزواج واعطاء الاقليم المتنازع عليه للوليد . وساعد أيضا على الحصول على أراض جديدة بالمراث، ومن ناحية أخرى سهل أيضا انفصال الاقاليم حيث انها ظلت دائما في العائلة ولم تنتقل الى أيدي أعداء الداء (٤) . وكانت هذه الخطة تنطوي من ناحية المبدأ على امكانيات اوسع لتسوية سلمية للنزاعات الاقليمية اكثر من اية خطة تقوم على الاحتفاظ المطلق باقليم معين . فضلا

(١) ورأى واحد من أكبر المؤرخين المختصين « ان حروب شارل كانت كلها في الحقيقة دفاعية » أرمسترونج المجلد الثاني ص ٣٧٠ .

(٢) يعزى هذا الشعر الى مانياس كورفيتوس ملك هنغاريا (القرن الخامس عشر) .

(٣) ففيما يتعلق بالانجلترا مثلا كانت الملكة كاترين عمة الامبراطور . وقد كان هناك اتفاق على أن يتزوج هو نفسه ابنة عمته ماري ، ابنة هنري الثامن ، وعندما فشل ذلك تزوجت ماري ابنه فيليب الذي ظل ملكا على اسبانيا حتى وفاتها وملكا لانجلترا وحاكما للأراضي الواطئة . بيد ان الاتحاد الشخصي بين اسبانيا وانجلترا لم يقصد به أن يكون دائما . فقد تم الاتفاق على أن أكبر أبناء فيليب وماري سيأخذ انجلترا والأراضي الواطئة وبورجنديا الحرة . ولو أن ماري أنجبت ولدا لقام هناك فرع ثالث لبيت هابسبورج في انجلترا الى جانب فرع اسبانيا والنمسا . انظر رانكه المجلد الخامس ص ٣١٣ .

(٤) في بداية حكمه كان شارل ، الذي ربي بين تقاليد بورجنديا ، يعلق أهمية قصوى على استعادة كل الأراضي البورجنديية ، الامر الذي لم تقبله فرنسا بتاتا برغم انها كانت ستأخذ ميلان مقابل بورجنديا . بيد ان شارل سرعان ما صرف النظر عن هذا المطلب وعمل على تسوية النزاع بين البيتين المالكين بزواج واحدة من قريباته من أمير فرنسي . وكان هذا البيت المالك الجديد سيحصل اما على الأراضي الواطئة ومقاطعة بورجنديا الحرة أو دوقية ميلان . ولو ان احدى هذه الخطط نجحت لوفر ذلك على اسبانيا وفرنسا وأوروبا كثيرا من الكوارث الفظيعة . انظر هبوم ص ٧٣ ، ٧٥ .

عن أنها برغم طابعها الملكي في جوهره لم تكن متعارضة مع الشعور القومي .
فالامبراطور نفسه لم يكن منتما بصفة خاصة لاي من جنسيات
امبراطوريته وان كان بالتأكيد يعطف على الكثير منها ويفهمه (١) .

ورجال الدولة الذين كانوا مستشاريه الرئيسيين كانوا يختارون
من جميع الامم . فكان أهم مستشاريه ايطاليا ، المستشار الاول جاتينارا .
وبرغم أن أسبانيا صارت مركزا للامبراطورية أكثر فأكثر ، وكانت المصالح
الاسبانية تحدد السياسة الاساسية التي تتبع ، فان الاسبان لم يحكموا
الباقى . ومن بين المستشارين الثمانية للدولة لم يكن هناك سوى
أسبانيين . فقد كانت هناك غيرة كبيرة في جميع البلاد من المستشارين
الأجانب للامبراطورية ، وكان عليه أن يضع امامها ضمانات مناسبة لتهدئة
الريبة والعداوة القوميتين بين شعوب امبراطوريته . بيد أن المشاعر
المحلية كانت لا تزال من القوة في كل مكان بحيث أن الموظف الذي يجيء
من مقاطعة مجاورة كان يعتبر أجنبيا . فالفلمنكي كان يعد أجنبيا عند
الهولندي ، والقشتالي يعد أجنبيا في نظر الاراجونى . وقد ساعدت
سياسة الامبراطور كثيرا على التقلب على هذه المحلية الضيقة ودعم الوحدة
القومية . ولعله كان يستطيع التأثير في المانيا وايطاليا بنفس الطريقة
لولا عقبات لا تقاوم وقفت في سبيله (٢) .

ومن ثم فان امبراطورية شارل الخامس لم تتماسك عن طريق سيطرة
أمة واحدة حاکمة على بقية الشعوب . بل كانت في الواقع كونفدرال الا من
الدول المستقلة ذاتيا ، أو نوعا من « عصابة الأمم » في قالب ملكي فيودالي .

(١) ولد شارل في جنت بلجيكا وكانت تربيته باللغة الفرنسية والمدنية الفرنسية
في بلاط بورجنديا . وفيما بعد تعلم الاسبانية أيضا ثم الالمانية والفلمنكية . وكان يعتبر
الفلاندر موطنه الأصلي . وفي أواخر حياته صار اسبانيا أكثر ، ولكنه كان يعلن بين
الفينة والفينة انه « ايطالي طيب » أو أكد للامان انه يحس بهم .

(٢) يصف أرمسترونج ، في المجلد الثاني ص ٣١٠ و ٣٢٥ وما بعدها و ٣٤٤ ،
وكذلك بيرن في المجلد الثالث ص ١٨٦ و ٢٠٦ ، الدور الكبير الذي قام به الامبراطور
في نمو فكرة الأمة في الاراضى الواطئة . كما أبدى شارل أيضا تفهما ممتازا للشعور
القومي بادراكه انه قد يؤدي الى الرغبة في سيادة منفصلة . ومن ثم وضع خطة لخلق
مملكة بورجندي تضم أساسا الاراضى الواطئة ومستقلة عن اسبانيا تحت حكم ابن ثان
كان يتوقع مجيئه ولكنه لم يولد . وكان ذلك سيؤدي الى تجنب تمرد النذرلاند الذي
اندلع في حكم فيليب الثاني الذي كان قد صار ملكا قوميا لاسبانيا وبذلك نفرت منه
قلوب أهل الاراضى الواطئة . وبالنسبة لالمانيا اقترح الامبراطور اصلاحات ادارية شاملة
كان من شأنها أن يعيد الوحدة الداخلية ، ولكن الامراء رفضوها .

فقد احتفظت كل دولة بامتيازاتها وانظمتها التقليدية . ففي كل من الأراضي الواطئة وأسبانيا لعبت « مجانس الطبقات » ، المؤلفة من مندوبي رجال الدين والنبلاء والمدن دورا بارزا ، وكثيرا مارفضت مطالب الامبراطور (١) . وفي البلاد الواطئة اجتمع « مجلس الطبقات » في عهد شارل أكثر من خمسين مرة . وكثيرا ما عرقلت قوة « مجلس الطبقات » الأعمال الحربية ، ولم يكن الامبراطور يستطيع الاعتماد على مشاركة جميع بلاده في حرب ضد العدوان . اما في فرنسا فان « مجلس الطبقات » لم يجتمع في مناسبة واحدة طوال عهد فرنسيس الاول ، الذي كان ينافس شارل . وإلى جانب التمتع بالاستقلال كانت شعوب الامبراطورية تحصل على ميزات اقتصادية عن طريق انتماها الى الامبراطورية . فقد كان شارل من محبذى حرية التجارة داخل الامبراطورية وفتح باب الممتلكات الاسبانية عبر البحار أمام جميع أعضائها . بيد أن الاسبان عارضوا في ذلك بشدة . ومع ذلك فان التجارة البلجيكية والألمانية استفادت كثيرا في هذا المجال . بالاضافة الى أن وحدة الدين كان ينظر اليها على أنها ضمان مهم لوحدة الامبراطورية . وقد بذل شارل جهودا كبيرة لعدم انقسام الوحدة الدينية باصلاح الكنيسة ووضع الحلول الوسط بين الشيع المتنازعة . وقد أخفق ذلك بسبب ما أبداه الطرفان من روح عدوانية ، وكذلك الى حد كبير بسبب أن الباباوات كانوا يخشون السيطرة السياسية للامبراطور الكاثوليكي أكثر بكثير من خطر الكنيسة البروتستانتية . ومن ثم فان الباباوات كثيرا ما تحالفوا مع أعداء الامبراطور حتى مع البروتستانتين والأتراك .

بيد أن ألد أعداء الامبراطورية كان فرنسيس الاول ملك فرنسا الذى كان قد حاول أن يصير امبراطورا هو نفسه وفشل . وكان الملك الفرنسى ورجال دولته ينظرون الى قوة الامبراطور كحاجز لا يحتمل ضد توسع فرنسا فى ايطاليا والأراضي الواطئة ، بل وكتهديد لهم حيث كانت فرنسا ، فى الواقع محوطة بممتلكات الامبراطور . وصارت بلاد امبراطورية لوتار الوسطى ، الأقاليم البورجنديّة والإيطالية ، ميدانا لقتال جرى عدة قرون بين فرنسا من ناحية واسبانيا والنمسا من ناحية ، وحتى انجلترا أيضا تورطت فى هذه الحروب .

(١) ان رأى القائل بأن شارل حطم قوة « مجلس الطبقات » فى اسبانيا خطأ . انظر تريغور ديفيز ص ٥٩ . بيد أن قوة التاج زادت عندما انضم صغار النبلاء (الهيidalجو) الى جانب الملك بعد أن اتخذت الحركة الثورية طابع الحرب الاجتماعية .

وكان لويس الرابع عشر من وجهة النظر القائلة بأن تاج شرلمان ينتمى شرعا للبيت المالک الفرنسي ، وكان هذا الطموح هو عصب الايديولوجية الفرنسية القومية (١) . وقد بدا أنه سيؤسس امبراطورية فرنسية تسيطر على أوروبا كلها وأقوى بكثير من امبراطورية شارل الخامس . وقد فشل في ذلك بسبب المقاومة المشتركة من جانب إنجلترا والنمسا ، وانتهى الصراع الطويل حول « الوراثة الاسبانية » بتقسيم الامبراطورية الاسبانية بين بيتى البوربون وهابسبورج .

٨ - امبراطورية نابليون القومية وظهور النزعة القومية الحديثة .

نجح نابليون في فرض حكمه المباشر أو غير المباشر على القسم الأكبر من القارة . واهتم جدا بأن يظهر كوريث حقيقى لشرلمان . وكثيرا ما كرر ذلك في أقواله العامة ومراسلاته السياسية ، أو أشار اليه وحاول حتى أن يحصل على التاج والشعار القديمين في تنويجه ، ولكنه اضطر لأن يكتفى بتقليدها . بيد أن امبراطوريته كانت مختلفة تماما عن امبراطوريتى شرلمان وشارل الخامس . لقد كانت روحها هي روح امبراطورية ديوقليشان كما قال نابليون نفسه ذات مرة . إذ كانت امبراطورية فرنسية تحكم فيها جميع البلاد المفزوة تبعا لأوامر الامبراطور وتستغل بلا رحمة لتحقيق مطامعه الشخصية . فكل من البلاد التى ضمت والدول التابعة كانت مرغمة على تقديم مساهمات ضخمة ، وأن تضع تحت تصرفه فرق كبيرة من الجنود تستخدم طعاما للمدافع . وهكذا كانت الشعوب المغلوبة تكره على القيام بتضحيات كبرى في الدماء والمال لغزوات أخرى . وجعل ذلك في وسعه أن يوفر على الشعب الفرنسى العبء الأكبر من أعباء الحرب وبذلك يحتفظ بشعبيته (٢) . وقد أرغمت الشعوب «المحررة» فى ايطاليا وهولندا وغيرها على أن تسلم أيضا الى المحرر أئمن

(١) انظر لويس الرابع عشر « أعماله » ١٨٠٦ المجلد الاول ص ٧١ وما بعدها . وبعد الحصول على التاج الاسباني أعلن لويس الرابع عشر ان الفرنسيين والاسبان قد صاروا وحدة الى حد انهم أصبحوا منذ ذلك الوقت أمة واحدة .

(٢) هـ.أ. فيشر «نابليون» ١٩٣٢ ص ١٥٥ .

كنوزها الفنية وآثارها التاريخية . وكان على جميع الشعوب الخاضعة أن تطبق القوانين والادارة الفرنسية . وكان يسيطر عليها وزراء فرنسيون ؛ وأرغمت على استخدام الفرنسية لغة رسمية الى جانب لغاتها الخاصة . وكثيرا ما غيرت حدودها وديساتيرها وحكامها بصورة تحكمية بواسطة الدكتاتور دون اعتبار لرغباتها . وكانت مرغمة الى حد كبير على السماح بحرية دخول المنتجات الفرنسية الى أسواقها في حين كانت منتجاتها ممنوعة من دخول فرنسا بالتعريف المرتفعة ، وكان عليها ان تنضم الى الحصار ضد انجلترا بما فيه من خسارة كبيرة عليها .

وكان تطبيق القوانين الفرنسية التي صيغت متأثرة بفكرة المساواة في الثورة الفرنسية ينطوي ايضا على عدة مزايا ، مثل الغاء امتيازات المرتبة الاجتماعية ونظام الاقنان وبعض البقايا الفيوالية الأخرى ، وتحقيق المساواة الدينية وإزالة العوائق التجارية وتحسين المواصلات . ومن الناحية الأخرى أخذت هذه القوانين كل الأنظمة التي تحد من السلطة المطلقة مثل المجالس الاقليمية « الدايت » ، كما أخذت الحكم الذاتي للمدن والاستقلال الكنسي وروح الحرية في البحث والتربية والأدب والصحافة ، في كل مكان ظهرت فيه (١) .

وكان الهدف النهائي للخطة النابوليونية هو تدمير جنسية الشعوب الخاضعة . وقد اتخذ نابليون أحيانا موقف المدافع عن الشعوب المضطهدة أو أثار الآمال القومية . ولكن ذلك كان مجرد دعاية ، ويمكن اثبات ان الامبراطور لم يأخذ هذه التصريحات مأخذ الجد قط بكثير من تصرفاته وأقواله هو شخصيا (٢) . ويقول تين : « ان نابليون اتخذ من روما التي صبغت حوض البحر الابيض بالصبغة الرومانية مثلا يحتذيه وأراد أن يجعل غرب أوروبا بأكمله فرنسيا » (٣) . وقد قال نابليون : « ان أسبانيا يجب أن تكون فرنسية - الحكومة فرنسية والبلد نفسه يكون فرنسيا » .

(١) أدوار دريو « Napoléon et l'Europe : le grand Empire » ١٩٢٤ ، ص ١٦٢ . و هـ . ل . فيشر « دراسات في السياسة النابوليونية في ألمانيا » ١٩٠٣ .
(٢) كثيرا ما أكد نابليون للايطاليين رغبته المخلصة في حريتهم وعظمتهم في حين انه كان يتحدث في نفس الوقت ، في الوثائق السرية ، عنهم بازدراء شديد ويصفهم بأنهم غير صالحين مطلقا للحرية . انظر أ . فورنيه « نابليون الاول » ١٩١٣ المجلد الاول ص ١٢٧ و ١٣٥ . وكان موقفه من التطلعات القومية البولندية يشم بنفس الازدواج . انظر فورنيه المجلد الثاني ص ١٥٩ و ١٨٨ و ٣١٣ والمجلد الثالث ص ٨٧ و ١٠٠ . فيشر « البونابرتية » ١٩٠٨ ص ٥٣ .
(٣) هـ . تين « Les Origines de la France Contemporaine » (الترجمة الانجليزية « النظام الجديد ») ١٨٩١ المجلد الاول ص ١٤٩ .

وفى ألمانيا أيضا كان هدف نابليون باعترافه هو القضاء على جنسية الشعب . ولإعادة تنظيم هولندا عين لجنة يقول عنها ديرو ، أحد المعجبين المتحمسين لنابليون : « أنها سرعان ما لم تترك في هولندا شيئا هولنديا » . وكان المراد ببلجيكا ، كهولندا ، « أن تتحول الى أرض فرنسية وتدمج في الوطن الفرنسي (١) » . وبنفس الطريقة نظمت إيطاليا تماما على النمط الفرنسي وادمجت في الامبراطورية الفرنسية (٢) .

وقد يبدو لعقولنا اليوم أن اعتقاد نابليون في امكان الغاء جنسية هذا العدد الكبير من الشعوب الكبيرة ذات التقاليد القومية وفرنستها غير مفهوم مطلقا ، بالنظر الى أنه كان لديه فيما عدا هذه النقطة ادراك سيكولوجى عجيب . ولكنه فى هذه النقطة كان يشاطر وجهة النظر المنتشرة فى عهده من أن الجنسية ، كالدين ، ليست أكثر من لون من ألوان التحيز التى يستطيع الحاكم المتنور اما أن يستخدمها أو يخبدها تبعاً لما تقتضى به أغراضه . بالإضافة الى أنه كان أساسا عسكرياً ومن ثم آمن بأن الحكومة القوية تستطيع انجاز أى شئ تقريبا . وأخيرا ينبغي الا ننسى أن النزعة العالمية والمدنية الفرنسية كانتا منتشرتين بين الطبقات المثقفة فى كثير من بلاد أوروبا وبخاصة فى ألمانيا . وقد تشرب قطاع كبير من المثقفين الألمان باعجاب عظيم بالامبراطورية الذى دمر الامبراطورية المقدسة وحط من شأن ألمانيا فجعلها مستعمرة فرنسية .

وتحطمت سيطرة نابليون فى آخر الأمر بواسطة الموجة المتقدمة للتمرد القومى . وكانت الثورة الفرنسية قد بينت مدى الطاقة الضخمة التى يمكن الحصول عليها باثارة الجماهير . وأرادت الحكومة النمساوية فى سنة ١٧٩٤ أن تلجأ الى تسليح الشعب عامة لطرد الغازى الفرنسى (٣) . ولكن روح الطائفية العسكرية البروسية عارضت هذا المبدأ الذى يعد فى نظرها ثوريا . ومع ذلك فإن النمسا التحأت أحيانا الى شعوبها ، وقد قوبل تمرد أهل التيرول بقيادة أندرياس هوفر بترحاب

(١) هـ . فان درليندن « بلجيكا : أمة تتكون » ١٩٢٠ ص ٢١٥ .

(٢) ان فكرة أن هدف نابليون النهائى كان أن يخلق إيطاليا موحدة وحررة غير محتملة بالمرة . وقد نقضها دريو ص ٢١٩ و ٢٦٥ .

(٣) لانجويرث فون سيمرن .

«Oesterreich und des Reich im Kampf mit der Franzossischen Rev.»

١٨٨٠ المجلد الاول ص ١٨ و ٢٤ و ٣١٤ و ٣٩٥ و ٥١٥ . وهو خطأ

شائع بين معظم المؤرخين الانجليز أن يقال ، كما يقول هـ . فيشر (نابليون) ١٩٣٢ ص ١٧٦) ، ان النمسا كانت مجرد مجموعة من الدول لا يدفعا أى انفعال موحد وتطمح سيطرة حكم لا يصدر عن الارادة الشعبية ولا تقره هذه الارادة .

حماسى من جانب جميع أصدقاء الحرية . وكانت حرب انجلترا ضد
القيصر الفرنسى صراعا قوميا ، على الأقل فى البحر . وأظهر الاسبانيون
طوال الصراع روحا قومية عنيفة أدهشت العالم وأثارت آمالا جديدة .
وسرعان ما انتشر نفس التمرد فى روسيا والمانيا ايضا ، وأدى ذلك الى
سقوط حكم نابليون الاستبدادى نهائيا .

بيد أن المشاعر القومية التى أثرت فى هذه الصراعات ظلت حية
وصارت قوة سيطرت على جميع الشعوب . فقد مهدت الثورة الفرنسية
السبيل لموجة عاتية من الشعور القومى والنزعة القومية أغرقت العالم .
فانجيلها أثار الاحساس بالجنسية بعدة طرق . وهكذا فإن نابليون دعم
دون قصد انتشار هذا الشعور فى أوروبا كلها . وكان من العوامل القوية
التي ساعدت فى هذه العملية أيضا اخماد استقلال عدد لا يحصى من الدول
الصغرى وفرديتها وولاءاتها وادماجها فى أقاليم أوسع . ويبين التاريخ
أن الحركات القومية فى القرن التاسع عشر كلها ، وبخاصة لدى الإيطاليين
والألمان والبولنديين والسلافيين الجنوبيين واليونانيين ، انعشتها فرنسا
الثورية ونابليون بشكل حاسم وإن كان بغير قصد (١) . وتكمن جذور
كل من الجامعة الجرمانية والجامعة السلافية فى هذه التقاليد .

لقد تنبعنا هنا تيارا رئيسيا واحدا من الطموح الامبراطورى وتأثيره
على الجنسية ، وهو التقليد الخاص بالامبراطورية الرومانية كما بعثه
شرلمان الى الحياة . بيد أن هناك تقليدا موازيا انبثق من الجزء الشرقى من
الامبراطورية الرومانية وأدى ، عن طريق بيزنطة ، الى تكوين
الامبراطوريتين : التركية والروسية . فكلاهما ادعى أنه الوريث الحقيقى
للامبراطورية الرومانية الشرقية . ويذكرنا تنافسهما فى السيطرة على
البلقان بالتنافس بين الدول الغربية لامتلاك الامبراطورية الوسطى (٢) .
وكانت هناك بالإضافة الى ذلك الامبراطورية النمساوية التى توحدت فيها
تقاليد حيوية من تقاليد الغرب والشرق واشتركت فى الصراعات فى كلا
القسمين من أوروبا . وبدت هذه السياسة ممثلة فى النسر ذى الرأسين
رمزا للامبراطورية النمساوية الذى أخذته عن بيزنطة . وأخيرا قامت

(١) ان سويسرا أيضا صارت وحدة قومية نتيجة لتدخل نابليون فى استقلالها .
انظر ١. شولنبرجر «Geschichte der Schweizerischen Politik» ١٩٠٨ المجلد
الثانى ص ٧ وما بعدها .
(٢) يحول ضيق المكان دون وصف هذا التنافس وأثره فى الجنسية . ولكنى عالجت
الموضوع فى كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول ١٩٣٧ ، الفصل السادس
والثامن والثانى عشر .

امبراطوريات من نوع آخر في المستعمرات التي تمتلكها الأمم الأوروبية ،
وتحتل بينها الامبراطورية البريطانية وريبتها الأمريكية مركز الصدارة .
وقبل أن ننظر في بعض الأمثلة الأخرى للتنظيم الامبراطوري
والتنظيم فوق الدولي يجب أولا أن نناقش عملية الوحدة القومية ، أى
اندماج وحدات قومية صغيرة لتكون أمما كبيرة . وإذا كنا نستعمل
لفظ « المحلية » لوصف الولاء للأقليم الصغير ينبغي ألا نتجاهل حقيقة
أن هذا الولاء كثيرا ما يكون ولاء قوميا ، ولا يبدو محليا إلا نسبيا .

٩ - توحيد فرنسا قوميا

ان تاريخ الوحدة القومية يعتبر المثال الكلاسيكي للتوسع والمركزية
فى ظل حكم البيوت المالكة . ففي العصور الوسطى كان مشروع الملكية قد
بدءوا فعلا يعلنون أن فرنسا هى الوريث الشرعى لبلاد الغال القديمة ،
ومن ثم يستطيعون المطالبة بحدود بلاد الغال كما وصفها قيصر ، أى
الرين والالب والبرانس (١) . وصار هذا المبدأ من تقاليد السياسة
الخارجية الفرنسية وجعل فرنسا تشتبك فى عدة حروب كبيرة . وقد
كانت هناك داخل اقليم فرنسا الحالية جنسيات مختلفة عديدة ، وكانت
قوى « المحلية » قوية جدا (٢) . فالى جانب عناصر كبيرة من البريتونيين
وأهل الباسك والألمان والفلمنكيين كانت تضم أهل بروفنسال الذين
يتحدثون لغة مختلفة اقرب الى لغة القطلونيين منها الى الفرنسية ، والذين
كانت لديهم مدينة رفيعة . وكان الصليبيون الفرنسيون قد غزوا بلادهم
من الشمال بقسوة فظيعة . وفى حرب «المائة عام» كان أهل الجنوب الغربى
وبخاصة أهل جويين وغسقونيا ، الى جانب الانجليز ، فى حين كان النبلاء

(١) انظر فيما يتصل بتطور هذه الفكرة واثرها البرت سوريل L'Europe de
la Rév. Française المجلد الاول ص ٣٠ و ٢٤٤ و ١٣٢٤ . وفريتز كيرن
«Die Anfänge der franzoesischen Ausdchmungs-
politik bis Zum Jahr, 1308».
١٩١٠ ص ١٤ و ٢٧ و ٣٢٣ . وفيما يتعلق بتطور الشعور القومى انظر د . كيركلاند
« نمو الشعور القومى فى فرنسا قبل القرن الخامس عشر فى التاريخ ١٩٣٨ . و ١٠
Sentiment national 16e Siecle en Revue des questions hist. جاكيه
١٨٩٥ و ٠ م . أولار «Le patriotisme Français de la Renaissance à la
Révolution» ١٩٣١ .

(٢) كان اسم فرنسا اصلا يطلق على المنطقة القريبة من باريس والتي تحدها خمسة
أنهار ، ومن ثم كانت تسمى « جزيرة فرنسا » . ففي الجامعات مثلا كان الطلبة الذين
يجيئون من الاقليم الذى يسمى فرنسا اليوم يقسمون الى «أمم» مختلفة - فى جامعة
بولونيا الى ثمانى أمم - كانت احداها الامة الفرنسية . وكان «مجلس الطبقات» العام
فى ١٤٨٤ مقسما الى ست أمم .

كثيرا مايؤيدون الفرنسيين ، وان لم يكن ذلك لأسباب قومية (١) . وعندما انتهت الحرب لم يسر تجار بوردو لانتصار القضية القومية بل تأسفوا على أيام الحكم الانجليزى الذهبية . وفي ١٤٥٧ كتب ملك فرنسا للملك اسكتلندا : « ان شعب جويين يميل فى قرارة قلبه الى الجانب الانجليزى » (٢) . وفى القسم الأخير من الحرب أيدت عدة مدن فى الشمال دوق بورجندي الذى كان متحالفا مع انجلترا ، ضد الوحدة القومية تحت التاج الفرنسى . وبصفة عامة كانت المدن الفرنسية التى يحكم فيها الجانب الديموقراطى مع بورجندي ، فى حين كان النبلاء وكبار رجال المدن مع فرنسا . فالمدن الصناعية الحرة فى الأراضى الواطئة كانت عصب حزب بورجندي (٣) . وكان كثير من المدن الفرنسية يجذبها المركز الفخور الذى تحتله المدن البلجيكية أكثر مما تجذبها فكرة الوحدة القومية الفرنسية تحت ملك متحالف مع الفيودالية . ولو أن بورجندي وانجلترا كسبا الحرب لنمت عدة أمم مستقلة فى الاقليم الذى تتكون منه فرنسا الآن ، وبخاصة بلجيكا الكبرى فى الشمال وأمة البروفنسالى فى الجنوب .

وكان الاحساس بالاستقلال قويا فى أجزاء أخرى من فرنسا أيضا . وعندما حاول لويس الرابع عشر وحلفاؤه أن يضموا بلادا كبيرة تتحدث الفرنسية كان النجاح وحده هو الذى نحدد به اليوم هل كانت سياسته توحيدا قوميا أو محاولة ضم . فالهجمات التى شنت ضد بلجيكا تعتبر اعتداء لا مبرر له ، فى حين أن ضم اللورين وفرنانش كوميتيه يبدو اليوم مشروعا بمقتضى مبدأ الوحدة القومية . والحقيقة أنه لاشعب اللورين ولا شعب فرانش كونتية أراد أن يصير فرنسيا أكثر مما أراد البلجيكيون . فاهل اللورين قاتلوا ببسالة ضد الفرنسيين ، وقتل منهم عدد كبير ، وفكرت الحكومة الفرنسية فى ترحيل الباقين الى كندا (٤) . ولم تتوحد لورين نهائيا مع فرنسا الا فى ١٧٦٦ . ان موريس باريه ، أبرز ممثلى الفكر القومى فى العصر الحاضر - وهو من أبناء لورين ، يقول : ان شعب لورين لم يصبح فرنسيا الا بالفوائد التى أتاحتها الثورة وبالأخوة فى

(١) يذكر فرواسار (المجلد الثالث ، ٤٣) ان النبلاء الفسقونيين فى الحرب الكبرى بين فرنسا وانجلترا كثيرا ما انتقلوا من جانب الى جانب ، ولكنهم كانوا يحبون الانجليز أكثر لأن الحرب ضد الفرنسيين كانت أكثر ربما وبخاصة أنها تتيح لهم فرصة نهب التجار الفرنسيين .

(٢) اليانور لودج «عسقونيا تحت الحكم الانجليزى» ١٩٢٦ ص ١٣٠ .

(٣) ف . فانك «التاريخ القومى الفرنسى» ١٩٢٢ المجلد الاول ص ٤٣٧ .

(٤) ه . بريشفييلر «Geschichte Lothringens» ١٩٠٥ ص ١٠٧ و ١١١ .

القتال والمجد في حروب الجمهورية وناپليون . وقد ضمت فرانك كونتيه الى فرنسا في ١٦٧٤ ، ولكن بعد خمس وثلاثين سنة تلقى مؤتمر السلام الذى أعد « سلام أوتراخت » عريضة من شعب فرانك كونتيه يطلبون فيها تحريرهم من العبودية الفرنسية وأن يسمح لهم بالعودة الى الامبراطورية (١) . وقبل الثورة كانت بعض مقاطعات فرنسا تريد الاعتراف بها أمما منفصلة (٢) . ولكن في حالة الالزاس نجح الفرنسيون في كسب الشعب برغم لغتهم الألمانية وطابعهم الألماني ، وتقول العريضة المشار اليها : ان سكان الالزاس قد صاروا فرنسيين فعلا أكثر من الباريسين .

وبرغم أن فرنسا ظلت قرونا خاضعة لنظام مركزى فان ذكرى الاستقلال القومى السابق لم تختف في بعض أقاليمها . وفي القرن التاسع عشر ظهرت حركات للثقافة المحلية والاستقلال الذاتى السياسى في أجزاء من فرنسا وأيدها كتاب بارزون ، وان لم تحظ بنفوذ سياسى كبير فى أى مكان (٣) .

وتتفق سياسة التوسع التى اتبعها ملوك فرنسا وخلفاؤهم مع مطامح ومصالح قطاعات ذات نفوذ من الفرنسيين كانت تعتبر وقتذاك هى وحدها الأمة . اذ كانت تشجع تطلعهم الى المجد والتفوق بين الأمم ، وحولت أحيانا الانفعالات القومية عن النزاع الداخلى الى الحروب الخارجية . وكان مذهب الحدود الطبيعية متأصل الجذور فى الأيديولوجية الفرنسية بحيث أنه حتى دعاة الحرية القومية وتقرير المصير أخذوه عن النظام القديم . ان روسو كتب « ان الجبال والبحار والأنهار تكون الحدود للأمة التى تعيش في أوربا ، وواضح أن الطبيعة نفسها قد حددت عدد الأمم وحجمها . فالنظام السياسى لهذه القارة من صنع الطبيعة . ان الالب والرين والبحر والبرانس ليست عقبات لا يمكن التغلب عليها في وجه التوسع ، ولكن قوى أخرى تزيدها قوة ، وتعيد هذه الحدود الى سابق أصلها اذا اعتدى عليها أحد مؤقتا بالعنف » .

وقد أعلن زعماء الثورة حق كل شعب في تقرير مصيره ، ورفضوا

(١) ب. اورمانسدورفر «Deutsche geschichte 1648-1740» المجلد الثانى

ص ٢٥٧ .

(٢) انظر ب . فراى هيلوب «النزعة القومية الفرنسية في ١٧٨٩» ١٩٢٤

ص ١٨٥ .

(٣) أنظر العرض المفيد فى كتاب الفونى «Les idées traditionalistes en

France» ١٩٣٧ ص ١١٠ الى ١٣٧ .

أية سياسة للغزو ، وقالوا : انهم قاموا بالحرب ضد الطغاة للدفاع عن النفس فقط ولتحرير الشعوب المضطهدة ، ولوضع حد للحرب وقرار سلام دائم بين الشعوب المحررة . بيد أن هذه النيات الطيبة سرعان ما تبخرت مع الريح . فغزت بلجيكا وأقاليم أخرى بلا رحمة ونهبت واستغلت وضمت طبقا للتقليد الفرنسى القومى الخاص بالحدود الطبيعية. أما فى إيطاليا فان هذا المبدأ لم يمكن تطبيقه ، ولكن ذلك لم يمنع بونابرت من معاملتها بنفس الطريقة .

١٠ - الوحدة القومية الألمانية :

كانت ألمانيا المثال الكلاسيكى للتعصب المحلى المتطرف (١) . ففي العصور القديمة كان هناك عدااء متوارث شديد بين القبائل الألمانية وبخاصة بين السكسون والفرانك . وكان ألمان الشمال وألمان الجنوب لا يكادون يفهمون بعضهم البعض ، وكانوا يلجئون الى اللاتينية اذا أرادوا الاتصال . وصعد عدد كبير جدا من النبلاء الى مصاف حكام الأقاليم ووضعوا سياستهم الخاصة وقاموا بحروبهم المنفصلة دون اى اعتبار للأهداف القومية المشتركة . وكانت سياسة « المحلية » هذه تقوم أساسا على مصالح البيوت الحاكمة ولكنها حظيت بتأييد كبير أيضا من « المدن الحرة » وبين الشعب . فالإمبراطورية القديمة لم تكن دولة قومية بل فدرالا فضفاضاً كان يضم فى القرن الثامن عشر ١٨٠٠ حاكم . وكان بعضهم ملوكا ودوقات ومركيزات وكونتات وبعضهم بطاركة واساقفة وما الى ذلك ، ولكن ١٤٧٥ منهم كانوا مجرد فرسان أحرار لا يخضعون لأحد إلا للإمبراطور ويحكمون جميعا مائتى ميل مربع (٢) . وكانت هناك أيضا احدى وخمسون « مدينة حرة » بل وبعض « القرى الحرة » أيضا ، وكان كثير من الأمراء يحكمون دولا أجنبية بجانب أراضيهم الألمانية . مثل بريطانيا وروسيا (٣) والسويد والدانمارك وبولندا وهولندا وبلجيكا وبوهيميا وهنغاريا وبعض الأقاليم الفرنسية وإيطاليا وسويسرا . وحتى الإمارات الصغيرة جدا كانت تدعى أنها أمم منفصلة . ففي سنة ١٧٩٤

(١) فيما يتصل بالشعور القومى الألمانى وحركة الوحدة أنظر ب . يواشميس ١٩٢٠ . و ف . مانيك ، « Vom deutschen Volk zum deutschen Staat »

المجلد ٧ « Weltbürgertum und Nationalstaat » ١٩٢٨ .

(٢) ماكس فون بوهن « Deutschland im 18 Jahrhundert » ص ٤ و ٢٢ .

(٣) صار دوق هولشتاين جوتورب فى ١٧٦٢ قيصرا لروسيا، ولكنه لم يحكم سوى

فترة قصيرة .

مثلا طلب مجلس الدايت فى كالنبرج الى حاكمها ، الملك جورج الثالث ملك بريطانيا ، أن يعلن حياد « أمة كالنبرج » فى الحرب ضد فرنسا (١) ؛ وكان جيش كالنبرج يتألف من ٢٢ من الفرسان و ١٤٠ من المشاة (٢) . وكانت هذه الأوضاع طبعا مضرّة وغير طبيعية من عدة جوانب . وقد شكّا بعض الكتاب من عدم الوحدة والقوة ، ولكن لم تكن هناك حركة قومية ، ولم يكن الألمان غير راضين عن تكوينهم السياسى بصفة عامة .

بيد أن الثورة الفرنسية ونابليون أحدثا فيهم تغييرا كاملا . فقد اكتسح نابليون معظم الامارات الصغيرة ، كما أن المهانة التى تعرضت لها ألمانيا على يده وبسبب مطالبه ، وكذلك أفكار الثورة والرومانسية ، أثارت رغبة فى تكوين أمة قوية ومتحدة . ومع ذلك فقد كانت المشاعر المحلية متأصلة الجذور فى العقل الألمانى . وفى مؤتمر فينا احتجت بافاريا ووزتمبرج على اقتراح طرح على بساط البحث بأنه « يخلق من شعبين مختلفين مثل البروسيين والبارفاين ما يشبه أمة واحدة » (٣) .

وقد كان التطرف غير العادى فى المشاعر المحلية سببا فى قدر كبير من المهانة لأمانيا . ومن ناحية أخرى فإن له ايضا جوانبه الطيبة . فقد أدى الى تنافس بين الحكام والنبلاء والمواطنين فى انشاء جميع أنواع المؤسسات الثقافية ، وكان من يضطهدون بسبب دينهم أو آرائهم فى ولاية يجدون ملجأ فى ولاية أخرى قريبة تكون أكثر تسامحا . فالارتباط الخارجى بالأرض دعم حرية الروح الداخلية ، ووجد مواطن المقاطعة الصغيرة التى بلا قوة ولا ثروة من السهل عليه أن يصير مواطنا طيبا فى العالم (٤) . ويرجع النمو العجيب للمعرفة والفكر وللتربية والصناعات لحد كبير الى عدم المركزية فى ألمانيا . وبرغم كل نقائص « المحلية » لم يكن توحيد بسمارك

(١) ا. وارد «بريطانيا وهانوفر» ١٨٩٩ ص ١٨ .
(٢) ه . برجهانس «Deutschland vor hundert Jahren» ١٨٦٠ المجلد الثانى

ص ١٣٦ .

(٣) ج. جرفينوس . «Geschichte des 19 Jahrhunderts» ١٨٥٥ المجلد

الاول ص ٨٢٢ .

(٤) مما له مغزى كبير أن أعظم شاعرين المانيين ، جوته وشيللر ، خلقا أعمالهما الخالدة فى ويمار التى كانت وقتذاك مجرد قرية . وكان سفرهما قليلا ولم يلبها الى برلين الا مرة واحدة فى حياتهما (على بعد ١٣٠ ميلا من ويمار) لمدة أيام قلائل لاعمال خاصة . ولم يريا فينا قط ، وكانت وقتذاك أكبر مدن ألمانيا ، ولا باريس أو لندن ، وقضى أمانويل كانت حياته كلها فى كوينجسبرج أو بالقرب منها . ولم يخرج قط من مقاطعته الأصلية .

لألمانيا بصبغها بالصبغة البروسية متفقا مع الرغبات الحقيقية لأغلبية الشعب الألماني خارج بروسيا (١) ، وإن كانت هذه السياسة قد حظيت بموافقة قطاعات ذات نفوذ . فقد أثارت تطلعهم الى القوة والنفوذ ، واستخدم بسمارك الحروب بمهارة لاثارة الانفعالات القومية ، واستخدم منح حق الانتخاب للرجال فى الحصول على تأييد المشاعر الديمقراطية .

وتتردد الآن ، بعد سقوط هتلر ، فكرة ما اذا كان ينبغي تشجيع « المحلية » فى ألمانيا . وليس هناك ريب فى أن البناء القديم القائم على « المحلية » للرايخ يدعم المحافظة على السلام فى أوروبا . فتعدد الحكام والتنافس بينهم وصلاتهم الوثيقة بجميع البيوت المالكة فى أوروبا تقريبا ، وروح العالمية لدى المثقفين وعدم قدرة الدول الصغيرة على اثاره الحرب - كل هذه العوامل وغيرها عقبات ضد السياسة العدوانية . ومع ذلك فيجب ان نقول : ان روح عصرنا لا تحبذ المشاعر الوطنية المحلية الشديدة والولاء للحكام الأبوين .

١١ - الوحدة القومية الإيطالية :

كانت حدود إيطاليا موضحة تماما بالحدود الطبيعية والتقاليد التاريخية واللغة . وعرقل الصراع بين البابا والامبراطور توحيد إيطاليا تحت حكم واحد، كما كان للنمو المبكر للمدن المزدهرة الفخورة باستقلالها الجمهورى نفس الأثر . وساد بين من المدن نزاع عنيف (٢) . وقد قال سالمين انه كان بين مواطني بيزا وجنوا كره طبيعي كالذى بين نوعين مختلفين من الحيوانات، وإن كلا من الشعبين كان يحاول استئصال الآخر يدفعه التنافس والخيلاء (٣) . ودعمت نزعة «الانسانية» الزهو القومى

(١) فيما يتصل بعدم شعبية بروسيا بين الاقطار الألمانية الاخرى ومعارضة «وحدة» بسمارك انظر و.ه. دوسون « الامبراطورية الألمانية ١٨٦٧ - ١٩١٤ وحركة الوحدة» المجلد الاول ص ٥٤ و ٢٧١ - ٢٧٨ و ٢٨٢ و ٢٧١ .

(٢) اثار تدمير ميلان بواسطة الامبراطور فردريك الاول المشاعر القومية الإيطالية الى اليوم . ولكن ميلان كانت قد عاملت المدن الإيطالية الاخرى نفس هذه المعاملة بالذات وترك الامبراطور مهمة تدميرها لاعدائها من مواطني لودى وكومو ونوفارا الذين انتقموا منها انتقاما فظيحا . انظر ه . بروتر «Staatengeschichte des

Abendlandes im Mittelalter» المجلد الاول ص ٤٩٢ .

(٣) أوردها كولتون فى «النزعة القومية فى العصور الوسطى» فى (مجلة كامبريدج التاريخية) ١٩٣٥ ويتضمن البحث حقائق مفيدة أخرى عن النزعة القومية فى العصور الوسطى .

بتمجيد عظمة روما القديمة ، التي اعتبرت أصل الجنس الايطالى ، وبتأكيد تفوق المدنية الايطالية بمقارنتها بمدنية الشعوب الأخرى كلها التى أطلق عليها ازدراء اسم البرابرة . ومنذ نهاية العصور الوسطى صارت ايطاليا ميدانا للقتال بين فرنسا واسبانيا والنمسا التى كانت تتنافس كلها على امتلاك الأقاليم الايطالية . وقد تطلع مكيافلى بلا جدوى الى تحرير ايطاليا من الأجانب .

وفى القرن الثامن عشر انتهت حرب الوراثة الاسبانية بفرض حكم النمسا على ايطاليا ، وكانت الادارة النمساوية متتورة وتقدمية وشعبية ، ولم يكن هناك أثر تقريبا لحركة التحرر الوطنى والوحدة لأن المشاعر المحلية كانت متأصلة الجذور فى عقل الشعب . ولكن الثورة الفرنسية اثارت تطلعا نحو الحرية القومية ودعم توحيد ايطاليا الوقتى تحت حكم نابليون شعور الوحدة الى حد كبير . وبعد سقوط نابليون عادت سيطرة النمسا ، ولكنها سرعان ما واجهت موجة صاعدة من الحركة القومية . وزاد العداء نحو الحكم الأجنبى حدة بسبب الطابع اللاتحررى لنظام مترنيخ . وتطلعت حركة القومية الايطالية لا لمجرد الاستقلال فحسب ، بل كذلك للحرية السياسية . وكان من الطبيعى الا ترضى التطلعات القومية بمجرد الكفاية الادارية والميزات المادية لحكم وصم بأنه أجنبى ، برغم أن معظم الموظفين كانوا ايطاليين ، وارتبط بالمشاعر المحلية (١) .

ومع ذلك فان المشاعر المحلية كانت لا تزال قوية الأثر فى شعوب الأقاليم الايطالية المختلفة. وعندما توحدت جنوا مع مملكة سردينيا وسافوى فى مؤتمر فيينا كان من الممكن أن يعتبر ذلك خطوة نحو الوحدة ، ولكن شعب جنوا تدمر بشدة لحضوعه لبيت سافوى المالك وكان يحن للاستقلال

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن منح الاستقلال الذاتى أو الحقوق السياسية للايطاليين مبكرا كان سيجعلهم يقبلون السيادة النمساوية . أنظر بولتون كنج « تاريخ الوحدة الايطالية » ١٨٩٩ المجلد الاول ص ٥٢ والمجلد الثانى ص ٢٨١ . ويبدو ذلك فى نظرى غير محتمل مطلقا. وفيما يتصل بالادارة النمساوية يقول بولتون كنج (المجلد الاول ص ٥١) ان أهل نابولى وروما ويديمونت لهم الحق فى أن يشعروا بالاحسد نحو الانظمة التى كان أهل بومبارديا والبندقية يعيشون فى ظلها ، وبأنى بأدلة كثيرة على قوله . وكذلك توسكانيا وبارما اللتان كانتا تحت النفوذ النمساوى تتمتعان بحكم طيب . فقد كان الحكم المحلى الفعال وحق الانتخاب على نطاق واسع لا يوجدان الا فى المقاطعات النمساوية وقد كان لديها حتى نوع من المجالس النيابية وان لم تكن لها وظائف تشريعية وحيل بينها وبين النمو بسبب عدم ثقة الحكم المطلق . بولتون كنج ص ٥٦ - ١٠٩ .

الجمهورية القديم • وكانت روما وميلانو والبندقية ونابلي أيضا مزهوة بـماضيها المجيد وظلت فترة طويلة على غير استعداد للتضحية باستقلالها من أجل فكرة الوحدة القومية • وكانت الحركة القومية في أول الأمر تضم أقلية صغيرة فقط كان من البارزين فيها ضباط نابليون وموظفوه السابقون من الايطاليين • ثم انضم الطلبة وكثير من النبلاء والطبقة الوسطى الى الحركة • ودعا الليبراليون الى فدرال من الأقطار الإيطالية التاريخية (١) على رأسه ملك سردينيا أو البابا بوصفه رئيسا ، في حين وقف الراديكاليون بقيادة مازيني يطالبون بالوحدة الكاملة في جمهورية على النمط الفرنسي • وكانت الجماهير منذ أمد طويل على ولاء لحكامها التقليديين ، أو غير مبالية ، وكثيرا ما حاربت حتى ضد دعاة الثورة القومية (٢) • بيد أن الحركة اكتسبت شعبية بنجاح متزايد ، كما حصلت على تأييد قوى من جانب نابليون الثالث الذي كان يراوده الأمل في استخدامها لزيادة قوته ولكن تغلب عليه كافور بدبلوماسيته •

وبعد هزيمة النمسا على يد الجيوش الفرنسية والإيطالية طرح توحيد الأقطار الإيطالية تحت ملك سردينيا ، وكذلك اتحاد سافوى ونيس مع فرنسا الذي كان الثمن الذي تقاضاه نابليون لمساعدته ، في استفتاءات عامة ، وتمت الموافقة عليها بالإجماع تقريبا في كل مكان • وتم التوحيد في صورة اتحاد كامل • ومسحت إيطاليا كل أثر «للمحلية» ، ومن ثم فإن المعارضة الكامنة لحكم إيطاليا بواسطة بيت سافوى المالك دعمت صفوف الراديكالية المناهضة للملكية وبخاصة في الجنوب •

١٢ - نمو الوحدة القومية البريطانية

بلغ الانجليز قدرا من الوحدة القومية قبل بقية الأمم الأخرى في أوربا ، ولم يكن لقوى العصبية المحلية فيها نفس القوة التي كانت لها في القارة قط • ومن الواضح أن الخطر الدانماركي هو الذي أسرع بالتوحيد في كل من إنجلترا واسكتلندا • وقد بنى خلفاء ألفريد ، على الأسس التي وضعها ، سيادة وسكس على كل الأقطار الأخرى ، الانجليزية والدانماركية والسلتية ، بل وحصلوا حتى على سيادة اسمية

(١) وكانت النمسا أيضا تحبذ قيام فدرالى ايطالى ، ولكن مقترحاتها نبذت من جانب سردينيا لان اشتراك النمسا كان سينطوى على سيطرتها •

(٢) ج. بيركلى «إيطاليا تتكون : من ١٨١٥ الى ١٨٤٦» المجلد الاول ص ١٩ و ٢٨ و ٩٢ و ٩٤ و ١٢٥ •

على اسكتلندا وويلز . وقد ضعفت هذه الوحدة في عهد كانت وادوارد بظهور « إيرلات » كبار وبدأ أن انجلترا ستمزق « شذرا » مرة أخرى . بيد أن الغزو النورماندى أدمج البلاد بعضها فى بعض وحال دون تمزق فيودالى مثل ذلك الذى حدث فى القسارة . ومنذ ذلك الوقت لم تلعب العصبية المحلية قط أى دور سياسى كبير فى انجلترا (١) . ولو أن الامبراطورية الانجفينية ظلت قائمة واستطاع الملوك غزو فرنسا نهائيا لتغير تاريخ العالم فى الغالب . اذ يغلب عندئذ أنهم كانوا سيعتبرون فرنسا مملكتهم الرئيسية وسادت عوامل الانشقاق الداخلى فى انجلترا ، كما حدث فى ألمانيا بسيطرة الأباطرة على ايطاليا وبخاصة عن طريق الاستيلاء على صقلية .

بالإضافة الى أن انجلترا نجحت فى استكمال جنسيتها وتحويلها الى جنسية بريطانية باشتراك ويلز واسكتلندا معها وانشاء دولة موحدة منها جميعا . اذ أن ادوارد الأول غزا ويلز التى ظلت بعد ذلك خاضعة للتاج البريطانى ، بعد فترة قصيرة استعادت فيها استقلالها . واستبعد ادوارد الأول أهل ويلز من أية مشاركة فى ادارة بلادهم ، ولكن جنود ويلز لعبوا دورا كبيرا فى خدمة انجلترا فى الحروب مع فرنسا ، الأمر الذى لعله جعل ولاء ويلز لانجلترا أقوى . ولكن ويلز فى القرن الخامس عشر كانت فى فوضى . وقد حصل هنرى تيودور من ويلز على الجنود الذين كسب بهم معركة بوزوورث ، وكان الملك نفسه من نسل ملوك ويلز وأبطالها القوميين . وأدخل ابنه هنرى الثامن الادارة الانجليزية فى ويلز وكذلك القانون واللغة الانجليزيين ومنح أهلها نصيبا من الحكم المحلى كما منحهم تمثيلا فى البرلمان الانجليزى . ورحب أعيان ويلز وهم القادة الطبيعيون للشعب ، بعملية صبغ البلاد بالصبغة الانجليزية لأنها فتحت أمامهم آفاقا جديدة فى انجلترا ، ولم تجد هذه السياسة مقاومة من جانب الشعب . وقد ظلت ويلز باستمرار على ولاء لانجلترا ولم يجد اتحادهما معارضة شعبية قط (٢) ، فقد استفاد كل من أهل ويلز والانجليز فوائد

(١) بيد أنه كانت هناك عداوات تقليدية بين أجزاء مختلفة فى انجلترا كما يظهر بوضوح فى النزاعات الطويلة المريرة بين طلبة أكسفورد . وهذه الصراعات بين أهل الشمال وأهل الجنوب لها أيضا خلفية سياسية ، وكانت تعتبر فى القرن الثالث عشر بذرة الحرب الأهلية ٩ . وند أورد-ماتيو باريس أمثلة على العداء بين فرسان الشمال وفرسان الجنوب . انظر أ. بوللار «تطورات البرلمان» ١٩٣٤ ص ١٣٦ .

(٢) و . لوبلين « ويلز الحديثة تتكون » دراسات فى تسوية آل تيودور لاوزاع ويلز » ١٩١٩ ص ٨ و ٢٣ وكذلك ج.ب. ريس «سياسة آل تيودور فى ويلز» ١٩٣٥

هذا التعاون ، كما استطاع أهل ويلز أيضا الاحتفاظ بفرديتهم القومية وتنميتها وتنمية مدنية قومية تدعو الى الاعجاب .

وكانت تسكن اسكتلندا أصلا عناصر مختلفة اندمجت في جنسية اسكتلندية بسبب خطر السيطرة السكندنافية والانجليزية . وقد ظلت اسكتلندا فترة تحت الحكم الأعلى للانجليز ، ولكنها استعادت استقلالها في القرن الرابع عشر وقامت بعد ذلك الحروب بين البلدين باستمرار تقريبا مدة ثلاثة قرون ، وكثيرا ما تحالفت اسكتلندا مع فرنسا في هذه الحروب . ومع ذلك فان اسكتلندا كانت قد اتخذت فعلا اللغة والقوانين والأنظمة الانجليزية الى حد كبير ، لا بضغط من الانجليز ، ولكن عن طريق نفوذ الملوك السلتيين والأقطاب الاسكتلنديين الذين انحدروا من نسل أنجلو نورماندى ، والمستوطنين والتجار الانجليز (١) . ولم يحل ذلك دون أن ينمو لدى الاسكتلنديين وعى قومي فى منتهى القوة وأن يعتبروا انجلترا عدوتهم الوراثة .

وقد مهد السبيل لاتحاد اسكتلندا وانجلترا مجيء البيت المال الاسكتلندى ، آل ستيوارت ، الى العرش الانجليزى فى سنة ١٦٠٣ . وحاول جيمس الأول بدون جدوى أن يعقد « زواجا دائما بين الأمتين » . فلم يكن البرلمان الانجليزى على استعداد لقبول الاتحاد الا بشروط رفضها الاسكتلنديون . ووجد كرومويل الأمتين بالعنف لفترة قصيرة ، ومنح الاسكتلنديون نصيبا فى البرلمان . ولكن شارل الثانى أعاد اسكتلندا الى وضعها السابق وساعده ذلك على فرض حكمه المطلق عليها . وقد تم الاتحاد النهائى الدائم تحت حكم الملكة آن . وكانت العلاقات بين الانجليز والاسكتلنديين فى ذلك الوقت متوترة جدا . وكان التحيز القومى والكراهية قويين لدى الجانبين ، وشعر الاسكتلنديون بصفة خاصة أن الاتحاد مع انجلترا تحت حكم بيت مال واحد يجعلهم فى وضع خاضع . وكانت سياستهم الخارجية فى الحقيقة تسيطر عليها انجلترا وكانت التجارة الاسكتلندية ممنوعة من دخول السوق الانجليزى وأسواق المستعمرات . وكانت انجلترا مشغولة بحربها الكبرى مع لويس الرابع عشر ، وكان هناك خطر شديد جدا من استقلال اسكتلندا ، تحت حكم أحد أفراد بيت ستيوارت ، وتحالفها مع فرنسا . وفى أثناء أن كانت مفاوضات الاتحاد بينهما قائمة اتخذ كل من البلدين اجراءات عدائية ضد الآخر بحيث بدا أنهما على وشك الدخول فى

(١) روبرت ريت « تاريخ اسكتلندا » ١٩١٤ ص ١٤ و ٢٨ .

حرب (١) • بيد أن البرلمان قبل الاتحاد أخيرا ، وإن تم ذلك في اسكتلندا بأغلبية ضئيلة وامتناع كثيرين عن التصويت ومصحوبا بموجة ضخمة من الاحتجاجات الغاضبة والشغب دلالة على عدم رضا الشعب عن هذا الاتحاد • ويقول رامساي موير : « لاشك في أنه لو أجرى استفتاء عام في هذه اللحظة لصوتت أغلبية كبيرة ضد الاتحاد » (٢) • ويقول ليكي إن أغلبية الأمة كانت بلا شك ضد الاتحاد • والواقع أن النبلاء والطبقات الثرية أساسا هي التي جذبت الاتحاد • أو على الأقل قبلته باعتباره أخف الضررين • وفقدت اسكتلندا برلمانها المنفصل ، الذي لم يكن على أى الأحوال أثيرا عند الشعب مثل « الجمعية العامة للكنيسة » التي ظلت باقية • وحظيت اسكتلندا بالتمثيل في وستمنستر ، وإن كان بخمسة وأربعين عضوا فحسب ، في حين كانت تستطيع المطالبة بخمسة وثمانين عضوا على حسب التعداد وبثلاثة عشر عضوا على حسب الضرائب • وكان الثمن الرئيسى الذى دفعته إنجلترا هو ضمان الاستقلال الكنسى لاسكتلندا والسماح للاسكتلنديين بدخول الأسواق الانجليزية وأسواق المستعمرات • وكان الاتحاد عملا فريدا في أنه خلق بالتشريع أمة جديدة من شعبين • فمنذ ذلك الوقت صارت إنجلترا واسكتلندا تؤلفان بريطانيا العظمى ، وبذلك تم وضع أساس مضمون لظهور دولة عظمى جديدة لتقود أوروبا سياسيا وفكريا • وكان للاسكتلنديين نصيب كبير جدا في هذه العملية • ولو ظلت سكتلندا مستقلة لبقى كيانها مهددا جدا • فما كان في وسعها أن تحتفظ باستقلالها في الغالب ، وكانت النزاعات الداخلية مزقتها وعوقت تقدمها بالاختلاف الدينى والفقر المدقع • وقد فتح أمامها آفاق واسعة لنشاط الاسكتلنديين ونبوغهم • ومنذ ذلك الوقت « لعبوا » دورا ضخما في نمو الأمة البريطانية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا • وكان نصيبهم كبيرا بصفة خاصة في بناء الامبراطورية ، ولا حاجة بنا أن نقول إن إنجلترا مدينة للاتحاد • فالفوائد كانت لا تحصى بالنسبة للجانبين •

وكان لنجاح الاتحاد تأثير كبير جدا على العلاقات بين إنجلترا وارلندا • فقد سيق باستمرار على أنه دليل على مزايا الاتحاد بين

(١) ج.م. تريفيان « إنجلترا في عهد الملكة آن ، راميليز والاتحاد مع اسكتلندا » ١٩٣٢ ص ٢٤٧ • ويذكر تريفيان أيضا أمثلة جديدة على العداء القومى العميق بين الامتين ، انظر ليكي « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر » الفصل السادس •
(٢) رامساي موير « تاريخ مختصر للكومنولث البريطانى » ١٩٢٠ ص ٥٨٥ •

البلدين • والواقع أن هذا الاتحاد تم سنة ١٨٠٠ ولكنه لم يحظ بنجاح مماثل • وبعد عام كامل من النزاع المبرر ألغى • وقد ناقش المؤرخون كثيرا أسباب هذا الاختلاف بين الارلنديين والاسكتلنديين ، وواضح أن اختلاف الدين لم يكن العامل الحاسم ، لأن مذهب « المشيخية » الاسكتلندي لم يكن فيما مضى أقل معارضة لكنيسة انجلترا من الكثلثة • لقد كان السبب الرئيسى أن الارلنديين مروا بتجربة أشد مرارة بكثير من تجربة الاسكتلنديين منذ سيطر الانجليز فى ايرلندا • فالاسكتلنديون لم يطردهوا قط من أجزاء كبيرة من بلادهم بلا رحمة ويتعرضوا للاضطهاد الشديد كالارلنديين فى عهد كرومويل وما بعده ، كما لم يخضعوا لحكم ارستقراطية أجنبية مثلهم • ولعله كان من سوء الحظ أن الاستقراطية الارلندية هاجر معظمها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر للخدمة فى الجيوش الأجنبية كما لم تكن هناك طبقة وسطى ثرية فى ايرلندا • وهكذا لم يكن لدى الشعب الارلندى تلك الطبقات التى كان تأثيرها حاسما فى قبول الاتحاد فى اسكتلندا • وصحيح أن الأعيان الانجليز البروتستانت استوطنوا فى ايرلندا وكان لهم نصيب كبير فى الحركة القومية الارلندية ، كما جاء فيما بعد أيضا من هذه الطبقة بعض الزعماء الارلنديين المرموقين (١) • ومع ذلك فقد أثبتت الأحداث أن هذه الطبقة لم تستطع الاحتفاظ بالزعامة • فالسياسة الارلندية تسمت بمزيج من الحقن القومي والاجتماعي من جانب الارلنديين ، وينمو شعور بالتفوق العنصرى من جانب الانجليز • وقد التجأت الحركة القومية الارلندية كثيرا الى أقصى أساليب العنف ، والى أعمال ارهابية وتعطيل أعمال البرلمان ، وساعد ذلك على نمو روح عدوانية وتعصب كانت نتيجتهما كوارث بالنسبة لارلندا نفسها ، كما هو واضح من خروج « ألستر » من القضية الارلندية • وقد بذلت انجلترا بالتأكيد جهودا كثيرة لاصلاح الأخطاء القديمة • بيد أن كل ذلك لم يحل دون أن تعلن ايرلندا حيادها فى صراع كانت انجلترا تدافع فيه عن وجود المدنية المسيحية ضد أسوأ همجية عرفها التاريخ •

١٣ - المشاكل القومية فى الامبراطورية البريطانية

لقد انبثقت الامبراطورية البريطانية أساسا من المشروعات التجارية

(١) عند سويغت تعنى «أمة» الارلنديين البروتستانت لا الكاثوليك • انظر ستيفن جوين «ارلندا» ١٩٢٤ ص ٧٤ • وادموند كيرتيس «تاريخ ايرلندا» ١٩٣٦ ص ٢٨٢ ٣٠٠ ، ٣٠٦ •

الخاصة واستعمار أقاليم تسكنها قبائل بدائية ، وإن كان التنافس القومى مع فرنسا وأسباب أخرى أدت الى توسع أكثر عن طريق الغزو (١) . وقد نظر بعض رواد التوسع الاستعماري الأول الى هذا التوسع من الزاوية القومية (٢) . ففي سنة ١٥٨٩ ، العام التالى لهزيمة الأرمادا ، نشر ريشارد هاكلويت مؤلفه الكبير « الرحلات البحرية الرئيسية للأمة الانجليزية واكتشافاتها » وأوصى فيه بالاستعمار كعلاج للتعطل والفاقة والجريمة فى الوطن . وكانت تحدوه رغبة حماسية فى تقديم بلاده بين الأمم وراودته رؤيا عظيمة للمركز الذى تصل اليه انجلترا عن طريق استعمار الدنيا الجديدة . ولكن سير الأحداث أدى الى أن قيام الامبراطورية القديمة تم أساسا بواسطة المغامرات التجارية الخاصة وليس كمشروع قومى . وكان هدف الطبقات الحاكمة فى انجلترا أن تحصل على احتكار تجارى دون أن تتحمل عبء مسئوليات الحكم (٣) . أما فيما يتعلق بالمستعمرين فانهم هاجروا أساسا الى العالم الجديد لتحسين أحوالهم المعيشية أو ليهربوا من الاضطهاد الدينى ويعيشوا طبقا لما تمليه عليهم ضمائرهم . وعلى خلاف المستوطنين من الأمم الأخرى الذين كرسوا أنفسهم أساسا للتجارة وصيد الحيوانات ذات الفراء أو استغلال أهالى البلاد ، صار قسم كبير من المستوطنين فى المستعمرات الانجليزية فلاحين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وجعل ذلك فى مكنتهم أن يصيروا آباء لأمم جديدة .

وعملت الثورة الأمريكية ، وأحداث أخرى ، على الحد من التوسع . وكان الرأى السائد أن كل مستعمرة يسكنها مستوطنون بيض ستحاول مع مرور الوقت أن تستقل وتصبح أمة . وإن أية محاولة لمنع تحقيق ذلك لا فائدة منها . وتغيرت الأفكار حول الامبراطورية تغييرا جذريا بالتوسع الضخم فى التجارة العالمية والتفوق الاقتصادى البريطانى ، وببنمو قوة

(١) ان المرجع الثقة لهذه التطورات هو «تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية» ثمانية مجلدات . وهناك بحث مختصر للموضوع هو كتاب رامساي موير «التاريخ المختصر للكونولت البريطانى» مجلدان .

(٢) أنظر مقالات يكون « فى العظمة الحقيقية للممالك والطبقات » و« فى المزارع » . وكذلك المشروعات الاولى لراى وتلاميذه ، أنظر سيدنى لى عن سير والتر رالى فى « عظماء الانجليز فى القرن السادس عشر » ١٩٠٧ . وعن هارينجتون أنظر هـ . رسل سميث « هارينجتون وأوسيانا » ١٩١٤ .

(٣) جيرالد هيرتز « الامبريالية البريطانية فى القرن الثامن عشر » ١٩٠٨ ص ٢٨ .

المذهب الانساني المسيحي والبرالية السياسية (١) . فقد جنحت هذه القوى بنفوذها الموحد الى تحويل الامبراطورية من مشروع تجارى احتكارى الى اتحاد حر من الأمم المتقدمة وميدان مفتوح للمنافسة المسالة بين جميع الأمم ومجال لهجرة أبنائها . وقد أدى نمو الامبراطورية على هذه الأسس ، برغم كثير من النقائص والعقبات ، الى فوائد لا حصر لها للعالم كله وليس لشعوبها وحدها . اذ جنحت الامبراطورية لأن تصير « عصبه أمم » حقيقية وعاملا رئيسيا فى السلام العالمى . ومن ناحية أخرى أثار توسعها غيرة شديدة ومنافسة مع الأمم الأخرى وانتهى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى هجوم عام لاقسام الأقاليم الباقية التى لا تعتبر دولا حديثة ومن ثم لا حق لها فى تقرير مصيرها بنفسها . وأدى هذا التنافس والقضايا الداخلية فضلا على ذلك الى ظهور امبريالية جديدة (٢) .

وكان كثير من أهل العصر الفكتورى مقتنعين بأن المستعمرات البيضاء الكبرى ستنمو لتصير أمما منفصلة وأنه لن تكون بينها روابط سوى المشاعر والمصلحة . بيد أن الامبرياليين الجدد كانوا يأملون أن تؤلف أمة واحدة فى جوهرها ، وان كان ذلك فى صورة فدرال . وهذه هى الفكرة التى يقوم عليها كتاب سيلي المشهور « توسع انجلترا » (١٨٨٣) الذى يمكن اعتباره تعبيرا عن الاهتمام الجديد بالوحدة الامبراطورية . ففكرته عن الامبريالية لا تلوثها قطعاً شهوة التوسع والهبة . وهو يسخر من المباهاة وتمجيد الدولة لمجرد أنها كبيرة ووجهة النظر التى تعتبر المحافظة على الامبراطورية مسألة كرامة أو عواطف ، أو أن الدول التابعة لانجلترا هى نوع من الممتلكات الخاصة بها . ولكنه نبذ أيضا المدرسة التشاؤمية فى التفكير التى ترى فى الامبراطورية مجرد نتاج للعدوان والنهب ، وأنها عبء لا فائدة منه

(١) هناك عرض ممتاز لتاريخ هذه الافكار ظهر مؤخرا فى كتاب و . ك . هانوك « عرض لثئون. الكومنولث » المجلد الثانى : « مشاكل السياسة الاقتصادية » فى جزأين ١٩٤٠ - ١٩٤٢ .

(٢) فيما يتصل بأيدولوجية الامبريالية البريطانية الحديثة قارن ماجاء فى كتاب وليم لانجى « دبلوماسية الامبريالية » ١٩٢٥ المجلد الاول ص ٦٧ - ٩٩ . وايزميه وينجفيلد ستراتفورد « تاريخ الوطنية الانجليزية » مجلدان . وجاك باردو « Essai d'une psychologie de l'Angleterre contemporaine, les crises belliqueuses » ١٩٠٦ . وفردريك برى « Imperialistische stromungen in der englischen literatur in Anglia » المجلد ٤٠ سنة ١٩١٦ .

يعرض انجلترا للحروب والنزاعات فى كل ركن من أركان العالم . وبرغم أن سبيلى يشير الى النظام الفدرالى باعتباره أحد الوسائل للمحافظة على دولة كبيرة فانه لا يهتم به كثيرا . فاهتمامه الأساسى كان بالوحدة القومية . ثم يقول : « ان امبراطوريتنا ليست امبراطورية مطلقا بالمعنى المألوف للمصطلح . فهى لا تتألف من مجموعة من الامم تربطها القوة ، بل هى أساسا أمة واحدة ، كما لو كانت دولة عادية وليست امبراطورية . فباستثناء الهند ، التى تعد امبراطورية فى ذاتها ، كانت الامبراطورية تبدو له « أمة انجليزية واسعة » مثل « دولة واسعة جدا » سكانها من الانجليز فى جميع الأرجاء . ولم يغفل سبيلى عن أنها ليست متجانسة تماما . ولكنه اعتبر وجود « عدد كبير من الفرنسيين والهولنديين والكفرا والماورى » فى الامبراطورية مجرد استثناءات لا تدحض وجهة نظره العامة . بيد أن وجهة نظر سبيلى عن الامبراطورية كمجرد دولة انجليزية واسعة وأمة واحدة لم تحققها التطورات التالية .

وكان أمام دعاة الامبراطورية الفدرالية مهمتين : توحيد المستعمرات المبعثرة فى كل من المناطق الطبيعية الكبرى من الامبراطورية فى اتحاد اقليمى ، وجمع هذه الاتحادات فى امبراطورية فدرالية أوسع . وكانت مزايا التعاون فى كلا الأمرين واضحة . وقد ابتكر كثير من المخطط المحكمه وبذلت جهود كبيرة لتحقيق عملية التوحيد الفدرالى المزدوجة ، ولخلق الأنظمة المناسبة والروح الصحيحة لاستخدامها (١) . وكانت النتيجة تكوين اتحادات اقليمية فى ثلاث قارات صارت بالتدريج دولا مستقلة ذات سيادة داخل الامبراطورية ، أو « كومنولث الأمم البريطانية (٢) » كما سسمى فيما بعد . بيد أن خطط تنمية أنظمة امبراطورية موحدة لم تحظ بنجاح كبير (٣) .

ولكن حتى الوحدة الاقليمية فى كل منطقة لم تتحقق فى بعض

(١) ج تايلر « الصراع من أجل الوحدة الامبراطورية (١٨٦٨ - ١٨٩٥) » ١٩١٨ .
(٢) هناك عرض ممتاز فى كتاب « الامبراطورية البريطانية » ، تقرير عن تكوينها ومشاكلها بواسطة مجموعة من الدارسين الاعضاء فى « المعهد الملكى للشئون الخارجية » ١٩٣٧ . وهناك كذلك آرثر بريديل كيث « حكومة الامبراطورية البريطانية » ١٩٣٥ و « كومنولث الأمم البريطانية » ١٩٤٠ . و أ . باركر « أفكار الامبراطورية البريطانية ومثلها » ١٩٤١ .

(٣) أنظر فيما يتصل بالتطورات منذ الحرب الماضية ريتشارد جيب « امبراطورية فى أفول » ١٩٢٦ .

المناطق الا بعد صراع طويل . ففي كندا كان السكان الفرنسيون منفصلين عن البريطانيين باللغة والدين والتقاليد والاقليم ولم يندمجوا معهم في أمة واحدة ، وكانت هناك أيضا أقليات كبيرة أخرى . وأقل من نصف شعب كندا ينظرون الى المملكة المتحدة في الوقت الحاضر بوصفها الوطن الأصل . وقد ثار نزاع طويل بين العناصر الفرنسية والبريطانية ووقع تمرد عدة مرات آخرها سنة ١٨٨٥ . وتعد هذه الروح الآن من شئون الماضي ، وتعلمت الجنسيتان أن تتعاونوا وان كانت الاحصاءات تدل على أن الزواج المختلط بينهما لا يزال قليلا . وتوجد بجانب مشاعر الجنسية الكندية المشتركة مشاعر محلية لاتزال قوية (١) ، ولكل من الجنسيتين الرئيسيتين مشاعر الولاء بالنسبة للبلد الأصل والتقاليد مما يؤدي أحيانا الى اختلاف في المواقف السياسية (٢) . ويتنافس مع الولاء للامبراطورية شعور قوى بأن كندا أمة أمريكية أولا وأن العلاقات مع الولايات المتحدة ذات أهمية قصوى . وهناك بعض الفئات من المواطنين الكنديين محرومة من حق الانتخاب لأسباب عنصرية ، وبخاصة أولئك الذين من أصل شرقي ، ولكن هناك غيرهم أيضا . ومن ثم فانه من العسير الاجابة عن السؤال : هل كانت كندا تؤلف أمة واحدة ؟ (٣)

وفي جنوبى افريقيا بلغ الصراع بين المستوطنين الهولنديين الأصليين والبريطانيين ذروته في حرب البوير الكبرى . وبعد الحرب بسنوات قلائل منحت بريطانيا جنوبى افريقيا الوحدة السياسية والحرية ، وان كانت حقوق الملونين ، وهم الأغلبية العظمى ، أغفلت الى حد كبير . ولاشك في أن هذه السياسة ساعدت كثيرا على التثام

(١) وقد قيل ان الفدرال كان سيرفض في الغالب اذا كان قد عرض في استفتاءات لكل جزء على حدة . وقد رفضت نيوفوندلاند فعلا الانضمام ، ولكنها لم تستطع ان تحتفظ باستقلالها كبلد من بلاد الدومينيون .

(٢) كان الفرنسيون دائما من أنصار العزلة بقوة، وان كان هناك آخرون كثيرون وقفوا نفس الموقف أيضا . وكان كثيرون من أنصار العزلة يفضلون الانفصال عن الامبراطورية على الاشتراك في الحرب من أجلها .

(٣) و . ا . فالكوتير « نوع الحياة الكندية في » فدرال كندا من ١٨٦٧ الى ١٩١٧ الذى نشرته جامعة تورنتو ١٩١٧ ص ١١٢ وهو يقول : « انه ليكون من اليأس أن نشير بالعدول عن الايمان بإمكان قيام أمة كندية موحدة » . ولكنه فيما بعد يفترض أن هناك أمة كندية واحدة . انظر كذلك ر . ماك كاي و . روجرز . « كندا تتطلع الى الخارج » ١٩٣٨ . و ج . دافو « كندا ، أمة أمريكية » ١٩٣٥ .

الجراح القديمة • ومع ذلك فلعل الوقت لم يحن بعد للتفكير في أهل جنوبى افريقيا كأمة واحدة (١) •

أما فى استراليا فلم توجد جنسيات متقابلة ، ولكن التعصب الاقليمى الذى ترجع بعض جذوره الى المصالح الاقتصادية كان قويا ، ولم ينته تماما حتى الآن • وقد أدى عدم رضا ولاية غربى استراليا عن الاتحاد فى سنة ١٩٣٣ الى استفتاء عام أعرب فيه ثلثا الناخبين تقريبا عن تفضيلهم للانفصال • وأرسل المجلس التشريعى للولاية التماسا الى البرلمان البريطانى يطلب الانفصال عن الكومنولث الاسترالى ، ولكنه رفض لأسباب قانونية (٢) • وقد أظهرت نيوزيلاندا دائما ولاء قويا بصفة خاصة للتقاليد البريطانية وللإمبراطورية ، وظل الفدرال الإمبراطورى يحظى بشعبية فى نيوزيلندا مدة طويلة وكانت عازفة جدا عن قبول الاستقلال الجديد ، وأعلنت أنها راضية تماما عن وضعها فى الإمبراطورية (٣) •

وكان موقف الدولة الارلندية الحرة مختلفا عن ذلك تمام الاختلاف، فقد سارت فى قطع الروابط التى بينها وبين الإمبراطورية أكثر من أية دولة أخرى •

وفى كل من دول الدومينيون كان نمو جنسية منفصلة نتيجة لعوامل خاصة (٤) • ففى بعض البلاد كان معظم المهاجرين ينتمون الى الطبقات الدنيا وكثيرون منهم غير بريطانيين • فقد كان بينهم أيضا عدد كبير من الارلنديين والالمان والسلافيين • وكانت أيديولوجيتهم الخاصة تنطوى على عدم الثقة بالسياسة البريطانية التى اعتبر أن الدوافع الرئيسية اليها دوافع رأسمالية وإمبريالية • وظهر الطابع الديموقراطى الواضح للبلاد الجديدة أيضا فى موقفها من الدفاع • فقد تركت الاستعدادات

(١) أنظر كتاب التصريحات المنشائمة الاخيرة فى كتاب ج. كالين « ليس هناك جنوب، افريقيين » ١٩٤١ • وفيما يتصل بجنسية جنوب افريقيا أنظر الكتاب المفيد جدا « بلوغ سن الرشد : دراسات فى المواطنة والسياسة فى جنوب افريقيا » الذى وضعته مجموعة من الكتاب سنة ١٩٣٠ وبخاصة الفصل الذى كبه كاراى وهارشوف •

(٢) أنظر « تقرير العهد البريطانى الملكى للشئون الخارجية » ص ٤٥ ، وكذلك و. هانوك « استراليا » ١٩٣١ ص ٧٦ و ١٠٤ و ١٢٤ •

(٣) المرجع السابق ص ٥١ •

(٤) ريتشارد جيب « دراسات فى النزعة القومية فى المستعمرات » ١٩٥٠ • وهانوك

« استراليا » ص ٥١ و ٦٠ - ٨٠ •

العسكرية كلها تقريبا لبريطانيا ، وبخاصة للأسطول البريطاني . ومن ناحية أخرى كانت معظم بلاد الدومنيون تخشى التسورط في صراعات الامبراطورية وتحب أن تؤكد ابتعادها عنها . ودفعتها رغبتها في تأكيد هيبتها الى التذمر من أى اعتماد قانونى أو عملى على بريطانيا او على الامبراطورية . ومن بين الدوافع القوية جدا أيضا الحماية الجمركية التى اعتبرت وسيلة للتحرر الاقتصادى ورفع الأجور ورفع مستوى المعيشة . ومن النقاط الأخرى التى اتبعت بلاد الدومينيون فيها سياسة مختلفة عن سياسة الوطن الأصل موقفها من الأجناس الآسيوية .

وكانت الاختلافات فى التقاليد ووجهة النظر العامة بين بريطانيا والدومينيون هى العقبة الرئيسية فى نجاح الفدرال . وكانت بلاد الدومينيون واضحة الولاء للامبراطورية وبذلت تضحيات كبرى بالدماء والمال دفاعا عنها كلما تعرضت للخطر . وفى وقت السلام أيضا أظهرت مشاعرها بعدة طرق . وقد ظلت فترة طويلة تمنح بريطانيا تعريفات مفضلة من جانب واحد كان يقصد بها نوعا من التعويض لما تحظى به من حماية أسطولها .

ولكن بلاد الدومينيون لم تكن على استعداد قط لقبول قيود دستورية على استقلالها لصالح الأنظمة الفدرالية . ومن ثم فإن الولاء للامبراطورية لم يكن مساويا للتضامن القومى . فالكومنولث ليس فدرالا ، ولا تحالفا لأنه أيضا ينطوى على التزامات محدودة . بل يقوم على مجرد الشعور والمصلحة فحسب ، وهو بذلك يتفق مع تنبؤات احرار العهد الفكتورى اكثر مما يتفق مع توقعات دعاة الامبراطورية . وأيا كان الأمر فإنه تكون من نمو تاريخى فريد بحيث يكاد يكون من المستحيل تعريفه على أساس من القانون أو علم السياسة . وتضم الامبراطورية أيضا عدة أعضاء شبه مستقلين ، ومن المحتمل أن يصلوا الى مركز الدومينيون . وتمثل التطلعات

(١) بيد أن الخوف من هذا التسورط لم يمنع استراليا باستمرار من زيادة الاحتكاك بين بريطانيا والدول الأوروبية بطلبها إبعاد هذه الدول عن إنشاء مستعمرات فى الباسيفيكي الذى تعتبره مجالا استراليا . وفى عدة مرات ضغط السياسيون الاستراليون على الحكومة البريطانية لعدم التنازل فى هذا الاتجاه لفرنسا أو ألمانيا فى المسائل الخاصة بالباسيفيكي . ويتحدث هانوك ، فى «استراليا» ص ٥٦ عن «الامبريالية العدوانية» الاسترالية ويعطى أمثلة ذات مغزى . وفى سنة ١٨٩٩ كادت مشكلة ساموا التى اتخذت فيها استراليا نفس الموقف ، أن تؤدى الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وألمانيا ، وأن كان اللوم الرئيسى فى هذا التوتر يقع على الامبراطور وليم .

القومية لشعوبها الكثيرة ظاهرة فى منتهى الاهمية بالنسبة لدارسى الجنسية (١) .

وتبدو الأمم المعادية للامبراطورية البريطانية أو المتحيزة ضدها غير قادرة على فهم طبيعتها . ففى أيديولوجية هذه الامم تسيطر بريطانيا على امبراطوريتها الضخمة وتستغلها ، وبذلك تحرم الأمم «مجال للحياة» . وتنبثق هذه النظرة من غيرتها وحسدها ويشجعها عليها لفظ «امبراطورية» الذى ينطوى على معنى السيطرة . والحقيقة أن بلاد الدومينيون كثيرا ماكان لها تأثير أكبر على شئون الامبراطورية ، بل على شئون بريطانيا نفسها ، مما لبريطانيا من تأثير على سياستها ، كما كانت ممثلة فى عصبة الأمم تمثيلا أقوى من بريطانيا من بعض النواحي . وقد اضطرت بريطانيا الى التسليم ضد رغبتها ، أمام رأى بلاد الدومينيون فى المسائل الحيوية فى السياسة الخارجية (٢) . وبرغم أن هذه البلاد منحت بريطانيا تعريفات جمركية أقل من الدول الاخرى فان التجارة البريطانية أصيبت أكثر من غيرها بالحماية الجمركية فى الدومينيون لانها أكبر بكثير وتعرضت لهذه التعريفات أكثر من غيرها . وتدفع السلع الامريكية فى المتوسط ضرائب جمركية أقل من السلع البريطانية فى كندا . وقد أرغمت النزعة القومية الاقتصادية فى بلاد الدومينيون بريطانيا على نبذ نظامها الخاص « بحرية التجارة» الذى كان يعتبر قبل ذلك حجر الزاوية فى رخاء بريطانيا وأقوى

(١) تناول و.ك. هانوك كثيرا من هذه المشاكل بطريقة ممتازة فى « عرض لشئون الكومنولث البريطانى » المجلد الاول ، و « مشاكل الجنسية ١٩١٨ - ١٩٢٦ » ١٩٣٧ .
(٢) ويعترف كثير من الكتاب فى بلاد الدومينيون بأن السياسة العنصرية التى تتبعها هذه البلاد تؤدى الى اشكالات كثيرة للمملكة المتحدة فى سياستها الخارجية ومع ذلك فان هذه السياسة العنصرية صارت انجيلا لشعوب بلاد الدومينيون كما يقول ت. ماكنزى فى «النزعة القومية والتربية فى استراليا» ٩٣٥ ص ٣٧ وفيما يتصل بوجهة النظر التى تدافع عن سياسة استراليا العنصرية أنظر هانوك «استراليا» ص ٧٧ وقد جاء فى كتاب « كندا تتطلع الى الخارج » ١٩٣٨ ، الذى نشر تحت اشراف المعهد الكندى للشئون الخارجية ، أن سياسة التفرقة العنصرية فى أمريكا والدومينيون « لاشك انها تؤدى الى اثاره الشعوب الشرقية وانها قد تكون سببا فى مشاكل فى المستقبل - مشاكل لا لكندا والبلاد الانجلوساكسونية الاخرى فى الباسفيكى ، بل وللکومنولث البريطانى أيضا . ان الشعوب الهندية من رعايا الملك مثل الكنديين تماما ، ولكن كندا تعاملها كأجانب غير مرغوب فيهم » ثم يستطرد الكاتب قائلا : ان هذه السياسة مع ذلك قد تكون ضرورية للاحتفاظ بعلاقات ودية مع الولايات المتحدة وان كندا يغلب أن تحذو فى هذا الموضوع حذو الولايات المتحدة لا بريطانيا العظمى .

ضمانات السلام العالمى (١) .

وكانت سياسة بريطانيا تجاه الأمم الأخرى تقوم منذ قرون على مبدأ « توازن القوى » . وبعد الحرب الكبرى الأولى حل محل هذا المبدأ نظام « الأمن الجماعى » عن طريق « عصبة الأمم » . ولم يكن هناك إلا الاختيار بين هاتين السياستين إذا أرادت بريطانيا أن تكون لها أية سياسة خارجية بحيث لا تترك الشئون التى يتوقف عليها مصيرها تسير على غير هدى . بيد أن بلاد الدومنيون لم تؤيد أيا من هذين البديلين . وقد كان من المفهوم نفسيا أن تنبذ أية سياسة تقوم « على توازن القوى الأوربية » ، ولكنها رفضت أيضا تأييد أية سياسة فعالة « للأمن الجماعى » قد تورطها فى حرب . وفى سنة ١٩٣٧ أعلن رئيس وزراء كندا ، مستر مكنزى كينج ، فى البرلمان أنه يشك كثيرا فى ان الحكومة البريطانية سترسل قوة عسكرية الى أوربا ، وانه من المشكوك فيه لأقصى حد أن تفعل بلاد الدومنيون البريطانى ذلك . وقد شجعت مثل هذه التصريحات الدول المعتدية عن غير قصد . وقد كان هذا الموقف أيضا مفهوما . فقد اشتركت فيه كل الديمقراطيات فى العالم بأجمع ، ومن ثم يجب تفسيره على أنه تعبير عن اتجاهات أساسية . ولم تدرك بريطانيا نفسها فى الوقت الملائم مدى ماتنطوى عليه الفاشية والنازية من دلالات . وفى أيام ميونيخ كان نفوذ بلاد الدومنيون مؤيدا بقوة لسياسة التهدة . وأعلنت كندا واستراليا أنهما لا تستطيعان تأييد بريطانيا فى الحرب (٢) .

ومناقشة هذه القضايا بصورة كاملة يخرج عن نطاق بحثنا (٣) . ولكن كان لابد من ذكرها لأنها قد تكون ذات مغزى فى المشكلة العامة للإمبراطورية والحرية التى أثارها منتسكيو دون أن يحلها . فالحل عن طريق الفدرال كما اقترح رفضته ديموقراطيات الكومنولث . ووجد بديل له فى قوة التقاليد والمصالح والمثل العليا . فعندما جاءت الحرب أدركت بلاد الدومنيون - باستثناء أرنلندا الحرة وأقلية فى جنوبى

(١) فيما يتعلق بنقد مؤتمر أوتاوا أنظر هانوك الكتاب السابق المجلد الثانى ص ١٩٨ - ٢٦٦ . وقرير المعهد الملكى للشئون الخارجية ص ٢٧٩ . ورامساي موير «توسع أوربا» ١٩٣٥ ص ٣٠٥ .

(٢) جون كندى « لماذا نامت بريطانيا » ١٩٤٠ ص ٢٠١ .

(٣) أفضل عرض للعلاقات الكومنولث البريطانى (اجراءات مؤتمر تورنتو ١٩٣٣) الذى أشرف على إصداره أ. توينبى ١٩٣٤ .

أفريقيا أن مصيرها مرتبط بمصير بريطانيا ، وأثبتت بما بذلته من تضحيات أن «كومنولث الأمم البريطانية» قوة حية حقيقة في قلوب ملايين المواطنين وعقولهم .

١٤ - أصل الجنسية الأمريكية :

لقد حدث نمو الفردية القومية لمعظم الأمم الأوربية الى حد كبير في وقت لم يكن المؤرخون فيه مهتمين كثيرا ، اذ كانوا قد اهتموا أصلا ، بالسيكولوجية الجماعية . ولكن أصل الولايات المتحدة الأمريكية ينتمي الى التاريخ الحديث ، ومن ثم فان المصادر التاريخية تتيح لنا الكثير من المعلومات عن القوى الدافعة في تكوين الأمة الأمريكية . وقد نبذ الآن المؤرخون الأمريكيون الناقدون أسطورة أن الثورة قامت بسبب الطغيان الانجليزى . ولا شك في أن السياسة الاستعمارية الانجليزية كانت فاسدة وقصيرة النظر وضيقة الأفق ، ولكنها لم تكن عدوانية .

وكانت المستعمرات مزدهرة ، ولم تكن هناك مظالم عامة عميقة . ويقول المؤرخون الآن : ان المستوطنين كانوا يتمتعون بحرية أكثر من الانجليز في بلادهم ، وانهم انما تمردوا لأنهم كانوا أكثر الشعوب حرية (١) .

لقد كانت المسافة بين انجلترا وأمريكا سببا في تباعد الشعبين ، وملأت القارة الشاسعة الخالية أذهان الأمريكيين بآمال كبيرة عن مستقبل عظيم ، وخلقت حياة الحدود الخشنة روحا من الفردية الصلبة التي ترفض أى تدخل من جانب الدولة أو أية تبعية . وكان كثير من المستوطنين من سلالة رجال تركوا انجلترا لأسباب سياسية أو دينية . فضلا عن أن قطاعا كبيرا من السكان كان من أصل ارلندى واسكتلندى وألمانى وهولندى ، وكان يجدو الكثيرين منهم نفور تقليدى من انجلترا . فقد كانت أغلبية الشعب تنتمي الى الطبقات الفقيرة التي تنظر الى انجلترا باعتبارها تجسيدا للروح الارستقراطية وحكم الطبقة الرأسمالية .

(١) جيمس تراسلو آدمز « نيوانجلاند الثورية ١٩٦١ - ١٧٧٦ » ١٩٢٣ ص ١٤ وما بعدها . وكلود فان تاين « اسباب حرب الاستقلال » ١٩٢٢ ص ٤٥٦ . ويقول نيقولاى بتلر في « بناء الأمة الأمريكية » ١٩٢٣ (ان السياسة التي اتبعتها انجلترا نحو المستعمرات أيا كانت ماكانت لتغير في الامر شيئا . فقد كانت لديها جميع العناصر لتكوين أمة منفصلة ومن ثم كانت ثورتها مسألة وقت فحسب .

ولانت أيديولوجية الراديكالية الديمقراطية إحدى القوى الدافعة الرئيسية للعداء نحو إنجلترا . وكانت صفوف المتمردين تتألف من الفلاحين ورجال الحدود والعمال والمستعمرين الذين من أصل غير انجليزي (١) . بيد أن كبار الزعماء كانوا في الغالب من العناصر الانجليزية التي حظيت بتعليم أكبر وثراء أوسع . وفي البداية كان من يريدون الاستقلال قلة ضئيلة جدا ، ومن المحتمل أن الأغلبية العظمى ظلت فترة لا تؤيد قطع الروابط بإنجلترا (٢) . بيد أن الدعاية الثورية التي قام بها الراديكاليون ، التي كثيرا ما دعمها وزاد اشتعالها خصومهم المحافظون ، وأخطأ السياسة الانجليزية والحرب ، حولت التيار . وقد كانت الحرب الأمريكية حربا أهلية أيضا قتل فيها أكثر من مائة ألف من خصوم الثورة ، هم المواليون للتاج ، أو طردوا خارج البلاد (٣) .

وتظهر في الصورة الخلفية أوجه شبه وتقابل كثيرة مع الحركات القومية والثورية الأخرى . بيد أن تكوين الأمة الأمريكية لا يمكن تفسيره تفسيراً ملائماً على أساس القوى الاجتماعية وحدها . فقد كان أيضا من عمل زعماء عظام تحدوهم روح الاستقلال والطموح النبيل وكان بعضهم عباقرة ممتازون . وكانت رغبتهم هي التخلص من « تيه السياسة الأوروبية الضار » وإنشاء عالم جديد أفضل ، وبذلك « يشبتون كرامة الجنس البشري » . وكانت فكرة « الرسالة العظمى » من أقوى الدوافع لدى هؤلاء الرجال وكثيرا ما عبروا عنها في كلمات رائعة (٤) . وقد قاد هؤلاء الرجال أمريكا

(١) في حين كانت المستعمرات القديمة الغنية التي استقر فيها المستوطنون على الشاطئ من الانجليز إلى حد كبير ، كان الفلاحون الرواد في داخل البلاد من أصل غير انجليزي في الغالب . أنظر فردريك . ج . تيرنر « الحدود في التاريخ الأمريكي » ١٩٢١ ص ٢٣ و ٢٠٦ .

(٢) ح . ت . آدمز ، ص ٣٨٥ و ٤٠٧ . وكيلى « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر » الفصل ١٢ و ١٤ و ١٥ .

(٣) كلودفان تاين « الملكيون في الثورة الأمريكية » ١٩٢٠ . ولويس اينشتاين « الولاء المنقسم ، الأمريكيون في إنجلترا في أثناء حرب الاستقلال » ١٩٣٣ .

(٤) كتب جون آدمز منذ ١٧٦٨ : انه يعتبر «استعمار أمريكا بداية بركته العناية لتوفير الجهلاء وتحرير القسم الذى لازال مستعبدا من الجيش البشرى في جميع أنحاء العالم» وفي ١٨١٣ كتب الى توماس جفرسون : « ان جمهوريتنا الفدرالية النقيصة الفاضلة التي تشيع فيها الروح العامة ستعيش الى الابد وتحكم الكرة الارضية وتحقق الكمال الانساني » . أنظر شارلز سمنر « نبؤات تتعلق بأمريكا » ١٨٧٤ ص ٥٤ و ٦٢ .

عبر أمواج الانفعالات الشعبية ، التي كانت نهدها بالانقسام والفوضى ، وصاروا مؤسسى أمة عظيمة .

بيد أن وحدة الأمة الأمريكية لم تكن قد تحددت بصفة نهائية بعد . وقد ظل السؤال: هل تتكون الولايات المتحدة من شعب واحد أو من شعوب بعدد الولايات موضع جدل حاد ؟ . وكان أعظم العوامل التي تؤدي الى الوحدة هو الاقليم الشاسع غير المستعمر الذي لا يمكن تنميته الا بجهود مشتركة والذي كان في يد الحكومة الفدرالية ، وكذلك الخطر الناجم عن وجود مستعمرات مجاورة لعدة دول أوربية كبرى ، ثم هجرة الملايين الذين لا يدينون بالولاء الى أية ولاية أمريكية بذاتها ولكنهم يتطلعون الى أمريكا باعتبارها موئل الحرية . ومع ذلك فان قوى التفكك أيضا كانت قوية . فكل ولاية تقريبا ، في الشمال والجنوب ، اتبعت من وقت لآخر سياسة من التعصب المحلى المتطرف ، وكذلك كلا الحزبين ، وكان أول من هدد بحل الاتحاد مجموعة من الولايات الشمالية التي أرادت تكوين أمة منفصلة ، في تحالف مع إنجلترا (١) .

وكما حدث في جميع الأمم كانت الحرب عاملا حاسما في دعم روح الوحدة القومية وانتشارها . وقد كانت حرب ١٨١٢ ضد إنجلترا حربا عدوانية الى حد كبير قامت بها أمريكا لغزو كندا ، وبذلك تطرد إنجلترا من القارة الأمريكية ، ولتوحيد الأمة كلها عن طريق المجهود المشترك ومشاعر الكراهية والفخر المشتركة . ويقول بابكوك : « ان الوعي بالجنسية الذي انبثق عن الحرب الثانية مع بريطانيا كانت النتيجة السياسية الرئيسية لها - أبعد النتائج كلها أثرا في مفعولها » . فالحرب أعطت الشعب « احساسا جديدا يكاد يدير الرؤوس ، باحترام الذات » (٢) . ومن بين الآثار المهمة الأخرى يقظة السعى نحو التحرر الاقتصادي عن إنجلترا بواسطة الحماية . فاستبعاد المنافسة الانجليزية في أثناء الحرب أدى الى ظهور صناعات في أمريكا ، وبعد الحرب فرضت تعريفات عالية لكي تحميها وتشجع التصنيع أكثر . وكانت الحجج التي سيقنت هي نفس

(١) كندريك ش بابكوك « ظهور الجنسية الامريكية ١٨١١ - ١٨١٩ » ١٩٠٦ ص ١٦ و ١٦٠ - ١٦٦ . وجيمس تراسلو « مأساة أمريكا » ١٩٣٤ ص ٤٤ و ٤٨ و نيقولا موراى بترل « بناء الأمة الأمريكية » ١٩٢٣ ص ١٦١ .

(٢) ومن السمات ذات المغزى تلك الحماسة التي قوبل بها القواد المنتصرون . ويقول بابكوك (ص ١٩٨): « ان الشعب الأمريكى ، رغم أنه أساسا محب للسلام ولا تحذوه النزعة العسكرية بطبعه ، أظهر نوعا غريبا من عبادة الأبطال للقواد العسكريين المنتصرين » .

الحجيج التي لعبت من ذلك الوقت دورا حاسما في جميع التطورات القومية -
أى الاستقلال القومى والاستعداد للحرب (١) . وصارت هذه الحماسة تعرف
باسم « الحطة الأمريكية » ، وكان لها نصيب كبير في نشر النزعة القومية
الاقتصادية في أوروبا أيضا .

وبرغم هذا التقدم في روح الوحدة لم يكن مؤكدا بعد أن «الاتحاد»
سيتغلب على القوى المعارضة . وقد ناقش توكفيل في كتابه الكلاسيكى
عن أمريكا (١٨٣٥) موضوع كون الاتحاد سيدوم ، وذكر حججا كثيرة
تؤيد دوامه وضده (٢) . وقد قال : « ان (الاتحاد) كائن ضخم لا يمثل
هدفا محدودا لمشاعر الوطنية . فالحماس الوطنى ما زال موجها نحو
(الولاية) ولا يثيره (الاتحاد) » . وكان من أقوى العوامل في المحافظة
على الوحدة التماثل العجيب فى الآراء والمشاعر بين شعوب الولايات الأربع
والعشرين ذات السيادة ، الأمر الذى جعل منها فى الحقيقة شعبا واحدا .
كما دعم هذه الوحدة أيضا الاشتراك فى الانفصال عن بقية الجنس
البشرى . « طوال الخمسين سنة الماضية بذلت أقصى الجهود فى افهام
شعب الولايات المتحدة أنه الشعب الحر المتدين والمتنور الوحيد فلهذه
اعتزاز بالتفوق أكثر مما ينبغى وليس بعيدا جدا عن التصرف كما لو كان
ينتمى الى جنس متميز من البشر » - بيد أن الرق ، كما يقول توكفيل ،
يخلق فرقا واضحا فى الطابع بين الشمال والجنوب ، وقد يدفع الجنوب
الى الانفصال عن « الاتحاد » . بل ان توكفيل يرى أن قوانين الطبيعة
البشرية تجعل دوام « الاتحاد » غير محتمل ، وان كان يبدو غير واثق
تماما من ذلك فى أماكن أخرى من كتابه .

وقد زاد العداء بين الشمال والجنوب بسبب قضايا الرق والحماية
باستمرار . وكان نصيب الجنوب فى توفير رجال الدولة «للاتحاد» كبيرا
جدا بسبب زيادة التدريب السياسى لدى طبقته الحاكمة ، وكان ذلك من
أسباب تدمير الشمال . وأحس أصحاب المزارع فى الجنوب أنهم
ارستقراطيون ، بل لقد راودهم الاعتقاد بأنهم من العنصر النورماندى
التفوق وأن سكان الشمال من نسل الأقنان السلتيين والساكسونيين (٣) .
وقد كان مصدر احياء هذه العنصرية الرومانسية قصص والترسكوت ،

(١) بابكوك ص ٢٣١ .

(٢) الكسيس دى توكفيل « الديمقراطية فى أمريكا ١٨٣٥ - ١٨٤٠ » - المجلد الثانى

ص ٣٦٤ - ٤٢٣ .

(٣) ج . ت . آدامز ص ٩٥ و ١١٨ .

بالإضافة الى أن الجنوبيين استخدموا نظرية كونت جوبينو « الآرية »
الغريبة التي لاءمتهم تماما فى مقاومة مطلب تحرير عبيدهم . وبالتدريج
بلغ العداء الاجتماعى درجة جعلت الشمال والجنوب مثل أمتين متعاديتين
تمثلان مدنية ومثلا عليا لا يمكن أن تتفق .

وفى هذه المرة أثار الجنوب حق الانفصال ، وأنكره الشمال على
أساس أنه لا توجد سوى أمة أمريكية واحدة ، وأن الجنوبيين الذين
لا يؤلفون سوى جزء من هذه الأمة ليس لهم الحق فى تقرير المصير
الذاتى . واعتبر اعلانهم الاستقلال تمردا . ولا حاجة بنا هنا لمناقشة
الحجج الدستورية لهذا الرأى . وحتى موتلى ، الذى انكر حق الانفصال
فى خطاب مشهور الى جريدة التايمز فى سنة ١٨٦١ ، اعترف بأن التاريخ
البريطانى والأمريكى زاخر بتمردات وثورات تجاوزت النص الحرفى
للقانون . وكان الرأى العام فى بريطانيا مع الجنوب (١) . وقد كان للتحيز
ضد الديمقراطية الأمريكية والأناية الاقتصادية نصيب كبير فى هذا
الموقف . ولكن حتى جلاستون الذى لم يكن عاطفا مطلقا على ملاك العبيد
الجنوبيين وكان يعتقد أن مصالح انجلترا مرتبطة بالمحافظة على « الاتحاد »
كان من رأيه ان الجنوبيين يؤلفون أمة وأن الحرب ستنتهى لمصلحتهم
بالتأكيد (٢) . وكانت انجلترا فى ذلك الوقت على وشك الاعتراف
باستقلال الجنوب والتورط فى حرب ضد الشمال . ويرجع السبب الأكبر
فى الحيلولة دون هذا التصرف الى الملكة التى تصرفت بنساء على مشورة
زوجها قبل موته بأيام قليلة .

وكل انسان اليوم يعتبر المحافظة على «الاتحاد» بركة على أمريكا وعلى
العالم . ولو أن حق تقرير المصير منح للجنوب لأدى فى الغالب
الى انفصالات أخرى والى تفكك «الاتحاد» تماما . وقد أثير تساؤل : هل
تسمح الولايات الداخلية الكبيرة للولايات التى تملك الموانى أن تحرمها
منفذاً مباشراً الى البحر ، وربما تخنق تجارتها الصادرة والواردة ؟ أما
كانت الحصومات تشتعل فيما يتصل باستيطان الأقاليم الشاسعة غير
المسكونة فى الغرب بحيث تنتهى بخراب أمريكا بسبب الحروب المستمرة؟
وبعد أكثر من نصف قرن من انتهاء الحرب الأمريكية أعلن أحد الرؤساء

(١) افرام دوجلاس آدمز « بريطانيا العظمى والحرب الأهلية الأمريكية » مجلدان ١٩٢٥ .

(٢) عبر جلاستون فى رعوته عن آرائه فى حديث ألقاه فى نيوكاسل اعتبره فيما بعد
خطأ كبيرا . واختلاف أقواله فيما يتعلق بالحرب يدل على مدى تعدد الحجج التى فى

جانب الانفصال والتى ضده .

الأمريكيين حق تقرير المصير باعتباره مفتاح التهدة الدائمة لأوروبا .
وقد صارت نتائج هذا الرأى المثالى معروفة تماما الآن بحيث انه ما من
شخص يرجو لأمرىكا أن تمر بتجربة عصيبة مماثلة .

وكان للحرب الأهلية أيضا أثر كبير فى تقوية فكرة الوحدة فى
أجزاء واسعة من «الاتحاد» . فقد استمر العداء بين الشمال والجنوب عشرين
سنة أخرى على الأقل ، ولكنه انتهى فى آخر الأمر ، ولم تتعرض الوحدة
الأمريكية بعد ذلك لأى خطر جدى . وانه لمسا يدل على مدى استمرار
التقاليد نصف الواعية أنه حتى فى جيلنا الحالى رفض مجلس كنسى اقتراحا
باقامة صلاة من أجل الأمة الأمريكية على أساس أن ذلك ينطوى على تأكيد
للوحدة أكثر مما ينبغي . وانتهى الرأى الى اقامة صلاة من أجل الولايات
المتحدة بدلا من ذلك (١) .

وقد بدا ان نمو الوحدة القومية فى فدرال أمريكا الشمالية يؤيد
توقعات منتسكيو فى أنه يمكن الجمع بين الوحدة والحرية فى الاقاليم
الشاسعة بواسطة الفدرال . وكثيرا ما سأل الأمريكيون : لماذا لا تحذو
أوروبا حذوهم ؟ . بيد أنه من الجلى أن حالة أمريكا لا يمكن بأى حال أن
تقارن بظروف أوروبا . فعدد الولايات التى دخلت فى الفدرال كان فى
الأصل أقل بكثير مما هو الآن . وكانت جميعها ضعيفة وكانت مضطرة
للتضامن اذا أرادت أن تقف فى وجه انجلترا والدول الأخرى التى كانت
لها فى ذلك الوقت مستعمرات واسعة بالقرب منها . كما أن معظم الولايات
نمت فيما بعد فى الأراضى الخالية التى يملكها «الاتحاد» ، وبذلك خلقها
الفدرالى حقيقة من جديد . وأخيرا ، لم يكن هناك تنافس وعداوات قديمة
بين الولايات مثل تلك التى سممت العلاقات بين الأمم الأوربية .
وباستثناء حرب الانفصال استطاعت القارة الأمريكية أن تنمو بسلام ،
وكان هذا فى الغالب العامل الذى أدى الى نجاح الفدرال .

١٥ - المشاكل القومية فى الهند :

يقول دعاة القومية الهندية اليوم (٢) ان الهند كلها هى الاقليم القومى

(١) جيمس برايس « الكومنولث الأمريكى » المجلد الأول ص ٢ .

(٢) نحن نصف الحركة القومية الهندية بأنها « نزعة قومية » لأن هذا هو الاسم المتعارف
عليه ، زان كنا نشعر بتردد كبير اذ نصف موقف غاندى السياسى بنفس الاسم الذى
نصف به موقف هتلر .

الهندي ويجب أن تحكمها أمة هندية واحدة لا تنقسم . ويدرك المعتدلون منهم بدرجة تزيد أو تنقص أن هذه الوحدة ترجع الى حد كبير الى الحكم البريطاني ونفوذه ، في حين يذهب الراديكاليون الى أنها النتاج التلقائي لتاريخ الهندي ، وأن البريطانيين لم يفعلوا أكثر من أنهم عوقوا نموها بمنعهم الحرية السياسية وبالاستغلال الاقتصادي واثارة الانقسام بين الهنود . ويقول خصومهم ان الهند لا تصلح لتكوين دولة قومية واحدة لأن سكانها يتألفون من عدة شعوب مختلفة اللغة والدين والجنس والعادات والتقاليد (١) . فهي ليست بلدا بل قارة مثل أوربا لا يمكن أن توحّد قط في دولة واحدة . فضلا عن أنهم كانوا يقولون : ان الوحدة الحالية للهند ، باعتبارها نتاج الحكم البريطاني بدرجة تزيد أو تنقص ، لا يمكن أن تستمر بدون هذه الرابطة ، وبخاصة بدون تأييد الجيش والأسطول البريطاني ، ووجود الادارة البريطانية كحكم بين الطوائف المتنازعة . وأخيرا يدعون أن التخلف الاقتصادي والثقافي للأغلبية العظمى من الشعوب الهندية يستبعد استقلالها استقلالا كاملا في الوقت الحاضر .

ان الصورة المتخيلة عن ماضي الهند التي يعرضها المؤرخون الهنود في تأييد التهم الموجهة ضد البريطانيين موضع جدل كبير (٢) . فقد كان هناك غزاة عظام وحدوا الهند كلها تقريبا لمدد قصيرة تحت حكمهم اسما في الغالب ، ولكنهم لم يحاولوا ادماج الأجزاء المختلفة بعضها في بعض بحيث تتكون وحدة قومية ، كما ان حكمهم لم يؤد الى هذه النتيجة عن غير قصد . وكان هناك بعض الحكام العظام الصالحين ولكن تاريخ الهند في الأغلب الأعم كان يتأرجح بين الاستبداد المطلق والفوضى السكاملة ، وكثيرا ما كان الناس في حالة لا حد لها من الشقاء . وكانت الظروف السائدة في وقت انحلال امبراطورية المغول ، السابقة مباشرة على الحكم البريطاني ، زاخرة بصفة خاصة بفظائع لا توصف . والفرق الحاسم بين

(١) ان المسح اللغوي للهند يبين أن هناك ١٧٩ لغة و ٥٤٤ لهجة . بيد أن هذا الاختلاف يخفف من وقعه انتشار لغات التخاطب مثل الاردو والهندي والتاميل والانجليزية . والاردو خليط من الهندي والفارسي وبعض العناصر العربية ويعتبرها المسلمون لغتهم المشتركة ، في حين يفضل الهندوس الهندية . والتاميل هي اللغة المشتركة في جنوب الهند وهي من أصل لغوي مختلف تماما . وتستخدم الانجليزية بين الطبقات المتعلمة عموما ، وحتى « المؤتمر » وهو منظمة الدعوة القومية ، كانت اللغة الغالبة فيه هي الانجليزية .

(٢) جاي وينت في كتاب سيرج . شستروج و ج وينت « الهند والديمقراطية » ١٩٤١ ص ١٧ و « الهند الحديثة والغرب » باشراف ل . أومالي ١٩٤١ الفصل الأول .

نمو الهند ونمو أوربا هو أن القوى التي كانت تعمل من أجل الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية ، ومن ثم من أجل الوحدة القومية ، أضعف بكثير في الهند منها في قارتنا . وليس هناك أدنى شك في أن الحكم البريطاني دعم هذه القوى إلى حد كبير جدا بإقرار السلام هناك وفرض حكم القانون والمدنية الغربية . وليست الكرامة القومية الهندية في حاجة لأن تجد في وجهة النظر هذه ما يسيئها لأن المدنية الغربية ليست مجرد نتاج العقل الغربي ، بل هي إلى حد كبير قائمة على أسس وضعها الشرق القديم وتلقت كثيرا من الدروس من الهند .

والفكرة الحاضرة عن الوحدة الهندية حديثة الأصل بالتأكيد ، وقد أشرنا من قبل إلى أنه لم تكن هناك كلمة «للهند» أو «الهندي» في أي من اللغات الشعبية الدارجة ، وأن البريطانيين هم أول من تحدث عن «الهنود» (١) ، بنفس الطريقة التي تحدث بها المبشرون الرومان عن الانجليز كوحدة . والتي تحدث بها المبشرون الانجلو ساكسون عن الألمان كوحدة . وكان الحكم البريطاني أيضا هو الذي أدى إلى ظهور الحركة القومية ، بنشر الأفكار الغربية من ناحية وبالتشجيع المباشر من ناحية أخرى (٢) ، وأهم من ذلك كله بتوحيد العناصر المختلفة تماما في معارضة مشتركة ضدهم . وهذا أيضا له ما يقابله في التاريخ الأوربي . بيد أن السؤال الهام الآن هو : هل هذه الوحدة مجرد وحدة سلبية أو أنها أيضا عامل ايجابي يستطيع البقاء بعد التخلص من الحكم البريطاني للهند ؟ ولا يمكننا أن نتجاهل أن امكان سيطرة الهندوس أثار أعنف معارضة من جانب الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يطالبون بإنشاء دولة اسلامية منفصلة . وهناك خطر من أن الهند ستتعرض في حالة قيام حكم هندوسي لحرب أهلية مدمرة . ان غاندي نفسه أدرك ذلك ، وان كان قد أعرب عن رأيه بأن الحرب الأهلية لن تستمر طويلا لأن الهنود غير مدربين على استعمال الاسلحة (٣) . ولكن المسلمين لديهم تقاليد حربية وهم من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الآخرين ، بل وأن يؤسسوا دولة اسلامية

(١) . كرادوك « معضلة الهند » ١٩٢٩ ص ١ .

(٢) كان مؤسس المؤتمر هو آلان هيوم وشجعه في تنفيذ خطته نائب الملك لورد دوفرين . انظر ك . اندروز و ج . موركجي « ظهور المؤتمر في الهند ونموه » ١٩٣٨ ص ١٢١ و ١٢٣ و ١٤٦ . وسير . ويدربيرن « أ . أ . هيوم » ١٩١٣ . فضلا عن أن الحركة القومية في الهند حظيت بتشجيع كبير من جانب أصدقاء بريطانيين ، وكثيرا ما رأس « المؤتمر » أفراد منهم .

(٣) شستر ودينيت ص ٣٤٦ .

مستقلة . والى جانب الثمانين مليوناً من المسلمين توجد شعوب أخرى قد تنمو مع تقدم التربية والاهتمام السياسى وتؤكد وعيها القومى المنفصل . فضلاً عن أن هناك ستين مليوناً من المنبوذين الذين ينظر اليهم معظم الهندوس كما ينظر النازيون الى اليهود تقريباً ، وقد يصبحون أيضاً مشكلة فى دولة هندوسية بحتة . ان الادارة البريطانية أدخلت نظاماً ، قصد به أن يتيح للأقليات المهمة قدراً من التمثيل العادل فى المجالس المنتخبة ، يسمى « تمثيل الجماعات المحلية (١) » .

وقد حددت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩١٧ سياستها بأنها العمل على زيادة اشراك الهنود فى كل فرع من فروع الادارة ، والنمو التدريجى نحو الحكم الذاتى فى الهند كجزء لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية . وتضمن الاصلاح الدستورى الكبير الذى تم فى سنة ١٩٣٥ خطوة هامة جداً فى تحقيق ذلك . ففى الأقاليم التى تحت الحكم البريطانى المباشر حصل ما لا يقل عن ٣٦ مليوناً على حق الانتخاب ، وكان الفلاحون هم الذين حصلوا بذلك على القوة السياسية . وجعل البريطانيون تحقيق الهدف القومى الهندى كاملاً متوقفاً على حل مشكلتى الفدرال والأقليات . وقد أثبتت الحكومة البريطانية فى موقفها تجاه ارنلدا انها على استعداد لاحترام مبدأ حق تقرير المصير القومى حتى على حساب الأمن القومى لبريطانيا . وفى الحالتين لم يحاول القوميون فى الجانب الآخر أن يسهلوا مهمة الجمع بين الحرية والوحدة (٢) .

والخلاصة أنه يجب القول بأن حق تقرير المصير لا يمكن انكاره على الهنود ، اذا أردنا أن يكون لهذا الحق أية قيمة ، وأنه يجب على بريطانيا الاعتراف بذلك وأن تكون على استعداد للعمل طبقاً له . بيد أنه ثبت أن

(١) قبل الكونجرس المبدأ فى اتفاقية لوكنو سنة ١٩١٦ . أنظر اندروز وموكرجى ص ٢٥٣ . بيد أن كثيرين من القوميين يعارضون تمثيل الجماعات المحلية ، مثل ك . كريشنا فى كتابه « مشكلة الاقليات أو تمثيل الجماعات المحلية فى الهند » ١٩٣٩ . وبمزمز المؤلف كل الشرور للامبريالية البريطانية التى جعلت الهنود « عبيداً فى بلادهم » . فالبريطانيون فى رأيه ، ابتكروا الاقليات ليزرعوا بذور التفرقة . والاقليات عناصر مختلفة تصبغ شكواها الوهمية بألوان مقبضة ولا غرض لأبنائها سوى الحصول على مراكز فى الحكومة .

(٢) يقول ج . وينت ان كلا من غاندى ودى فاليرا شجعوا الانقسام فى بلادهما حقيقة اذ أثار غاندى معارضة المسلمين الشديدة للاهداف القومية الهندوسية ، ووسع دى فاليرا الهوة بين آير والستر . أنظر ت . شيناد وارى « الاختيار الذى أمام الهند » ١٩٤١ ص ١٦٩ كوجهة نظر هندية فى نقد المؤتمر .

تحقيق ذلك المبدأ عسير لعدة أسباب . فأولا ليس من الواضح مطلقا أى الجماعات المنظمة لها الحق فى تكوين أمة واحدة وكيف يمكن تحديد اقليمها القومى . وثانيا قد تكون هناك أمم كأمينة قد تطالب ان أجلا أو عاجلا بحق تقرير المصير ، ولا ريب أنه من مصلحة الجميع أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار مقدما . وثالثا ، أن المحافظة على نوع من الوحدة بين أجزاء الهند والابقاء على رابطة ما بين الهند والكومنولث البريطانى لهما أهمية قصوى بالنسبة للهند وبالنسبة للأمم الأخرى التى يتعلق بها الأمر ، بل والعالم أجمع ، بحيث أن كل صديق للهند وللسلام العالمى والرءاء العام لا يتردد فى التضحية بمجرد مشاعر التذمر الذى نجم عن مظالم سابقة وعن مركب النقص . ولو كانت الهند مأهولة بسكان كلهم أوربيون ولديهم أرفع مستوى من التربية العامة والسياسية بلغته أكثر البلاد الاوربية تقدما ولكنهم فى نفس الوقت يمثلون الاختلافات التاريخية الحالية بين الشعوب الهندية ، لما كان هناك شك فى أن الهند سرعان ما تتمزق شذرا وتصير بلقانا جديدا على نطاق أوسع بكثير (١) . ولكن هناك ثلاثة عوامل فى الوقت الحاضر تعوق هذا التحول : النفوذ البريطانى ، ومشاعر اللون التى تضيف على الهنود نوعا من التضامن ضد الأوربيين ، والمستوى المنخفض للتربية فى قطاعات ضخمة من الهنود وهو عقبة فى سبيل استيقاظ الوعي القومى الكامن فى كثير من الشعوب . ومن المحتمل أن قطع كل صلة بالكومنولث البريطانى سيضعف من تأثير مشاعر اللون ، وأن زيادة التعليم العام قد تؤدى الى نمو تطلعات جديدة لتكوين أمة منفصلة . وقد يقال: ان التجربة التى تكونت من دراسة التاريخ الأوربى لا تنطبق على الهند . بيد أن هذا القول لا تؤيده الدروس المستفادة من ماضى الهند ، كما أنه ينطوى على الاعتقاد بأن هناك اختلافا جذريا فى عقلية الأجناس المختلفة وهو اعتقاد يتفق مع نتائج البحث العلمى .

١٦ - الجنسية فى الامبراطورية الروسية والاتحاد السوفيتى :

أدت عوامل كثيرة الى نمو نظام من الحكم المطلق غير المحدود فى روسيا القديمة لم تظهر فيه سوى سمات قومية قليلة زمنا طويلا . وفى القرن الثامن عشر ، وحتى بعد ذلك ، كان البيت المالك والبلات وكبار

(١) يقول أحد أصدقاء الهند المعروفين ، الاستاذ هارولد لاسكى ، فى كتابه « قواعد السياسة » ١٩٢٦ ص ٢٢٠ : « ان اختفاء انجلترا من الهند سيؤدى حتما تقريبا ، اذا حدث فى فترة قريبة ، الى فوزى لفترة ما ، ومع ذلك فان هناك آلافا من الهنود يفضلون فكرة الفوزى من صنع الهنود أنفسهم على السلام من صنع البريطانيين » .

الموظفين والبيروقراطيين ألمانا أكثر منهم روسيين في كثير من الأحيان واتخذ النبلاء اللغة الفرنسية وآداب السلوك الفرنسي . وكانت الدوائر العليا عالمية في وجهة نظرها والطبقات الدنيا يكاد لا يظهر فيها أثر للوعي القومي باستثناء تمسك شديد بالمذهب الاورثوذكسي كان بديلا للجنسية . وبعد هزيمة نابليون منح القيصر اسكندر ، تحت تأثير الأفكار التحررية والمسيحية ، للبولنديين والفنلنديين قدرا معيننا من الاستقلال الذاتي ، ولكن خلفاء عدلوا عن هذه السياسة ، أساسا كنتيجة للتمردات البولندية التي أخدمت بقسوة . وشجع ظهور الطبقة الوسطى نمو التطلعات القومية والنزعة القومية بين الروس وبعض الشعوب التي هي أكثر تقدما في الامبراطورية . وسرعان ما أدى ذلك الى سياسة من « ترويس » . . الأقلية القومية الكثيرة بلا رحمة . فجعلت اللغة الروسية اللغة الوحيدة في الادارة برغم أن الروس أنفسهم لا يزيدون على ٤٣ في المائة من السكان . ولم يكن لدى الأقلية مدارس حكومية ولا مؤسسات ثقافية بلغاتها الخاصة الا في حالات استثنائية قليلة . واستخدمت جميع الوسائل للقضاء على اللغات غير الروسية وبخاصة بين الاوكرانيين والسلافيين الآخرين الذين كانوا يعتبرون رسميا من الروس (١) . وتعرض اليهود الذين أبدوا في روسيا بعض السمات القومية لاضطهاد بوحشية بالغة . وقد خففت ثورة ١٩٠٥ حدة هذه السياسة بغض الشيء ولكن سرعان ما تدهورت الحالة ثانيا .

واتخذ البلاشفة سياسة مختلفة تماما (٢) . فقد تألفت من كل من

-
- (١) فيما يتصل بمعاملة الجنسيات أنظر Russen uber Rusland, ein Sammelwerk herausge geben von J. Melnik ١٩٠٦ ص ٥٣٨ - ٦٧٠ . وفيما يتصل بالقومية الروسية قارن الفصل الذي بقلم س. أ. ياكوبسون ص ٥٧ في كتاب « القومية ، تقرير وضعته جماعة دارسة للمعهد الملكي للشئون الخارجية » ١٩٤٠ ، وكتابي «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ ص ٣٠٩ .
- (٢) هانزكون « القومية في الاتحاد السوفيتي » ١٩٣٣ ، والفصل عن الجنسيات في كتاب سيرجون ماينارد « الفلاح الروسي ودراسات أخرى » ١٩٤٢ ص ٣٧٧ . وس. ويب وزوجته « الشيوعية السوفيتية » ١٩٣٧ . وايوالد آمنده « الحياة البشرية في روسيا » ١٩٣٦ . ومارك سلونين «Les onze Republiques Soviétiques» ١٩٣٧ . و «روسيا - الاتحاد السوفيتي » سجل كامل بإشراف ب. مالفسكي - مالفيتش ١٩٣٦ (وفيه فصل عن الجنسيات بقلم ك. تشيدزه) وشيماز اسلانوف « حل المشاكل القومية » ١٩٣٩ . ويانكا كوبالا « التقدم الثقافي بين الجنسيات غير الروسية في الاتحاد السوفيتي » ١٩٣٩ .

الجنسيات الكبيرة جمهورية منفصلة منحت فيها الاقليات استقلالا ذاتيا ومن ثم كان لها طابع فدرالى . وتكون «اتحاد الجمهوريات السوفيتية» من جميع هذه الجمهوريات الفدرالية الطابع . وبذ اسم الامبراطورية الروسية القديم واستعيض عنه بهذا الاسم فوق الدولى . بل انه أعلن أن كل جنسية لها حرية الانفصال وان لم يكن ذلك ممكن التحقيق عمليا .

وطبقا لتعداد سنة ١٩٢٦ يسكن الاتحاد السوفيتى ١٨٥ شعبا يتحدثون ١٤٧ لغة . بيد أنه لا توجد سوى خمس لغات واسعة الانتشار . وقد انتظمت هذه الشعوب فى احدى عشرة جمهورية سوفيتية فدرالية تتألف من اثنتين وعشرين جمهورية مستقلة استقلالا ذاتيا وخمسة أقاليم وثلاث وأربعين مقاطعة وتوسع مناطق مستقلة ذاتيا وبعض المراكز القومية ذات الأهمية الثانوية . ويتبع التقسيم الإدارى حدودا قومية أحيانا وحدودا طبيعية ، واقتصادية أحيانا أخرى . ومعقد السلطة العليا هو «مجلس السوفيت الأعلى» الذى يتألف من مجلسين هما «سوفيت الاتحاد» و«سوفيت الجنسيات» . ويتمتع المجلسان بحقوق متساوية . وترسل كل من الجمهوريات الرئيسية بصرف النظر عن عدد سكانها ٢٥ مندوبا الى «سوفيت الجنسيات»، كما ترسل كل من الوحدات الصغرى المستقلة ذاتيا نفس العدد . وبهذه الطريقة تحصل الجنسيات الصغرى على حماية اضافية ضد سيطرة الجنسيات الكبرى . و«للسوفيت المركزى» سلطات واسعة جدا ، فى حين ان السوفيتات الاقليمية تهتم أساسا بالشئون المحلية .

ومنحت جميع الجنسيات حرية ومساواة كاملتين فيما يتعلق باستخدام لغاتهم فى الهيئات النيابية ودور القضاء والادارة والمدارس . وبذلت جهود ضخمة فى تنظيم التربية بجميع اللغات ورفع المستوى الاقتصادى والثقافى للجنسيات المتخلفة . فقد أنشأت السوفيتات جامعات ومدارس ومكتبات ومعاهد علمية ومتاحف ومسارح ودورا للسينما ومحطات اذاعة لجميع الشعوب ، وشجعت آدابها وضمت حروفا ابجدية جديدة ووضعت معاجم . ولم تعد اللغة الروسية تحتل مركزا ممتازا ، وان كانت قد تحولت الى لغة مشتركة « للاتحاد » كلاً (١) . ولم توضع للحروف الأبجدية الجديدة قائمة على أساس الحروف الروسية بل على الحروف اللاتينية . وبذ التتار الأتراك حروفهم العربية والألمان حروفهم القوطية الى الحروف اللاتينية ، فى حين احتفظ الروس والأوكرانيون بحروفهم السلافية .

(١) فى سنة ١٩٢٨ جعلت اللغة الروسية اجبارية كلفة ثانية فى المدارس غير

الروسية .

ولا ريب فى أن ما تم من انجازات فى دعم اللغات والأنظمة الثقافية القومية عظيم جدا ، وينطوى على تقدم ضخم اذا قورن بالظروف السائدة فى الامبراطورية القديمة . واستخدمت السوفيتات بطبيعة الحال هذه النتائج فى الدعاية فى الخارج حيث ينشرون فكرة أن الحرية والمساواة القوميتين أمكن تحقيقهما فى ظل النظام البلشفى . ويبدو أن هذه الفكرة كان لها وقع كبير فى الهند بصفة خاصة . بيد أن هذا الادعاء يتطلب تحفظات كثيرة . فحق تقرير المصير القومى ، تبعا لوجهة النظر الديموقراطية المألوفة ، لا يتكون من مجرد حق استخدام اللغة القومية ، بل ينطوى أيضا على حق تحديد السياسة كلها التى تمس الأمة وتنمية ثقافتها بما يتفق مع التقاليد القومية . ولكن شعوب الاتحاد السوفيتى ليست حرة فى اتخاذ السياسة التى تلائمها أكثر من غيرها . فهى لا بد أن تقبل الماركسية وتفسيرها العملى بواسطة المركز الشيوعى الرئيسى فى موسكو باعتباره القانون الأعلى . فمجلس السوفيت المركزى لديه كامل السلطة فى وضع القواعد العامة فى جميع المسائل المهمة . وقد انتهى رأى أحد كبار الخبراء الذين يعطفون على السوفيت ، وهو سيرجون مانيارد ، الى أن « النظام السياسى نظام شديد المركزية » وأن « الدستور لا يمنح الا النزر اليسير من السلطة الفعلية ، أو لا يمنح منها الهيئات الدستورية التى يتألف منها الفدرال شيئا » . وبخاصة حق الانفصال عن « الاتحاد » فليس سوى حق على الورق فقط . واذا جرئت احدى الجمهوريات الفدرالية على اعلان استقلالها أو اصدار قوانين لا تتفق مع الأفكار البلشفية أو توجيهات الحزب الشيوعى فان هذه المحاولة تخمد بشدة تماما (١) .

فالبلاشفة يعترفون بمبدأ تقرير المصير الذاتى ولكنهم يخضعونه

(١) يبدو غزو جمهورية جورجيا وادماجها فى ١٩٢١ مثلا واضحا . بيد أن مشكلة جورجيا معقدة جدا . ولاشك فى أن الحكومة الاشتراكية التى أيدتها أغلبية الشعب اسقطتها الجيوش السوفيتية وحطمت مقاومة الشعب . انظر ك . كاويسكى « جورجيا : جمهورية فلاحين ديمقراطية اشتراكية » ١٩٢١ . وقد انتهى وفد النقابات البريطانية الذى أرسل الى روسيا والقوقاز فى تقريره (نشرة ١٩٢٥) الى رأى فى جانب الاتحاد السوفيتى . ويقول التقريران ان أغلبية كبيرة جدا من أهل جورجيا يؤيدون الحكومة الاشتراكية السابقة (ص ٢١٢) ولكنه يقول ان هذا النظام فشل ماليا واقتصاديا وأن البلاشفة نجحوا (ص ٢٠٨) وهذا الحكم ينطوى على أن الكفاية الادارية والاقتصادية قد تكون لها الاولوية على حق تقرير المصير . ويعرض زوراب آفالشيفلى فى كتابه « استقلال جورجيا والسياسة الدولية » ١٩٤٠ موقف الدول من هذه القضية .

لمصالح البلشفية أو البروليتاريا . وهم يمنحون الجميع حقوقا متساوية بصرف النظر عن الجنسية وفيها حق استخدام اللغة المحلية وتنميتها . ولكنهم لا يشاركون في وجهة النظر القائلة بأن الجنسية «قيمة» في ذاتها وأنه ، بناء على ذلك ، لكل جنسية مهما كانت صغيرة ومتخلفة الحق في تنمية شخصيتها الثقافية والسياسية بلا أية حدود ليكون هدفها النهائي هو الاستقلال . وصحيح أن وجهة النظر هذه هي نتاج الليبرالية والرومانسية وتفوح منها رائحة الفردية والفوضوية . كما أن البلاشفة لا يؤمنون بأن لكل أمة رسالة سامية . فهم يؤمنون برسالة الطبقة ، طبقة البروليتاريا ، وقد أعلن ستالين أن انتصار الشيوعية في العالم كله سيحمل الى جميع الشعوب ثقافة ولغة واحدة مشتركة . ومن ثم فإن سياسة البلاشفة لا تدخل في تصورها الوجود الدائم لعدة لغات وثقافات قومية ، ولكنها تجد من الملائم أن تشجع نموها بعض الوقت كوسيلة لتقوية نظام المساواة الاجتماعية الذي يرتبط ارتباطا شديدا بالمساواة القومية ، وان كانت المساواة الاجتماعية لها الأفضلية . وستالين نفسه يمثل رمزا للمساواة القومية . فهو من أبناء جورجيا ، وقد تم غزو جورجيا على يديه الى حد كبير . ومن ناحية أخرى فإن مركزه الكبير في الاتحاد السوفيتي فيه ارضاء للكرامة القومية لأبناء جورجيا وجعلهم يقبلون فقد استقلالهم .

وقد أمكن تطبيق السياسة السوفييتية فيما يتعلق بالجنسيات لوجود ظروف خاصة لا يوجد ما يقابلها في البلاد الأخرى . فالجنسية الروسية وحدها أكثر عددا من جميع الجنسيات الأخرى معا ، وتأتي بعدها الأوكرانية الذين يؤلفون حوالى ٤٠ فى المائة من الروس . أما جميع الجنسيات الأخرى فهي صغيرة جدا بحيث تبدو أقزما اجتمعت حول عملاقين (١) . فضلا على أن هناك ثلاث جنسيات ، هي الروسية والأوكرانية والروسية البيضاء مرتبط بعضها ببعض بحيث كثيرا ما تعتبر ثلاثة فروع لشعب واحد ، وهي تؤلف فيما بينها ٨٠ فى المائة من مجموع سكان الاتحاد السوفيتي . بالإضافة الى أن معظم الجنسيات الصغرى كانت متخلفة تماما في النمو الثقافي ولم تكن قد بلغت بعد مرحلة الوعي القومى الفعال . فكثير منها لم يكن لديه أدب خاص ولا تقاليد تاريخية

(١) باستثناء الروس والأوكرانيين كانت هناك ثلاث جنسيات يبلغ عدد كل منها بين ٣ ملايين و ٥ ملايين ، وثمانى جنسيات يبلغ عدد كل منها بين مليون و ٣ ملايين ، وسبعة بين نصف مليون ومليون . وليست هناك أية جنسيات أخرى بلغت نصف مليون ، بل معظمها لا يصل حتى الى ١٠٠.٠٠٠ .

تدكى شعلة الكرامة القومية ، ولا طبقة المثقفين الضرورية لنمو الشعور القومي . وفي الشعوب التي هي أكثر تقدما التي وجد فيها فعلا مثقفون من الطبقة الوسطى أخدمهم البلاشفة لأنهم كانوا خطرا أو كان هناك خطر من أن يصيروا ، دعاة الاستقلال القومي . ولم تكن أى من الجنسيات المتخلفة الصغيرة قد أتاحت لها أية فرصة للوقوف على قدميها ، وما كانت تستطيع بالتأكد أن تحافظ على كيائها كدولة منفصلة على عدا مع الاتحاد السوفيتي الذي يحيط بها . ولم يكن كثير من الجنسيات راضيا عن الشيوعية ، ولا عن دعايتها المناهضة للدين ، ولا أيضا عن فكرة التجانس الروسي . ومن الناحية الأخرى كانت ميزات الانتماء الى امبراطورية شاسعة والتمتع بحمايتها القوية وبمساعدها المالية والاقتصادية والثقافية ميزات ضخمة . وكانت الجنسيات الصغيرة حرة في تكوين فدرالات منفصلة على أسس ديمقراطية اذا لم تعجبها البلشفية . بيد انه ثبت أن ذلك مستحيل . فالجمهوريات الديموقراطية لم يكن في وسعها التغلب على الكراهية القومية والقبلية التي كانت بين كثير من هذه الشعوب ، كما لم يكن في استطاعتها مقاومة فوضى ما بعد الحرب ومصاعبها الاقتصادية والمالية والعسكرية . فكل هذه المشاكل لا يحلها الا حكم قوى يستطيع أن يفرض توضيحات كبيرة على الشعب . ولكن كيف تستطيع حكومة تعتمد كلية على ارادة شعب غير مدرب مطلقا على السياسة أن تنتهج مثل هذه السياسة ؟

ومن ثم كانت الحجج التي تدعو الى اتحاد جميع هذه الجنسيات تحت زعامة السوفيت حجبا لا تقاوم . ومع ذلك فان هذا الاتحاد لم يتحقق بدون اكراه . ومن المحتمل أن قسما كبيرا من هذه الجنسيات ما كان لينضم الى الاتحاد السوفيتي لو لم يرغب على ذلك ، كما ان انشاء حكم السوفيت وتطبيق سياسة الحقوق المتساوية بين جميع الجنسيات لم تضع حدا للتطلعات التي تهدف الى الانفصال عن الاتحاد أو الى استقلال ذاتي أوسع من ذلك بكثير . ويدل على ذلك وقوع عدد من الثورات والاضطرابات والمؤامرات التي اخمدت كلها بشدة (١) .

١٧ - الامبراطورية النمساوية :

تألفت الامبراطورية النمساوية في سنة ١٨٠٤ ، وبعد سنة ١٨٦٧ سميت المملكة النمساوية الهنغارية (٢) . بيد أن أصلها الحقيقي يرجع

(١) ماينارد ص ٢٨٨ - ٣٩٨ ، أ . آمند « الحياة الانسانية وروسيا » ١٩٣٦ .

(٢) فرانزم . ماير « Geschichte Oesterreichs » مجلدان ١٩٠٩ . وفيما =

الى سنة ١٥٢٦ عندما هزم الملك لودفيج الثانى ملك هنغاريا وبوهيميا هزيمة نهائية على يد الاتراك وفقد حياته فى ميدان القتال . وكانت الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت اكبر قوة عسكرية وهددت أوروبا كلها بالعدوان . وكان هذا هو السبب الذى جعل بوهيميا وكردانيا وجزءا من هنغاريا تنتخب الفراندوق فرديناند حاكم النمسا ملكا لها ، وقد خلفه بعد ذلك أخيه شارل الخامس كأمبراطور . بيد أن البلاد الكثيرة التابعة لآل هابسبورج النمساويين لم تأخذ شكل الامبراطورية الموحدة الا بعد وقت طويل . وكانت أهم الخطوات نحو التوحيد هى دستور سنة ١٧١٣ . ومع ذلك فان الامبراطورية النمساوية لم تصر قط وحدة تامة وظهرت فيها باستمرار سمات الفدرالية بصورة تزيد او تنقص . فكثيرا ما حدث مجالس (الدايت) فى اقاليمها المختلفة وروح العصبية المحلية من سلطة التاج وأرغمت الملوك على اتباع سياسة الحذر والاعتماد على الدبلوماسية والتفاهم أكثر من الحرب . ومع ذلك فان تاريخ الامبراطورية كان زاخرا بالحروب مع الاتراك والفرنسيين والسويديين والحكام الالمان ، وبخاصة بروسيا . وقد ظلت الامبراطورية قائمة أربعة قرون تقريبا كانت ثلثها فحسب فترة سلام . وكثيرا ما ثار نبلاء النمسا وبوهيميا وهنغاريا المتمردين ضد سلطة التاج وربطوا سعيهم فى سبيل القوة بالبروتستانتية والجنسية كقاعدة عامة . ولم تستطع الأسرة المالكة المحافظة على نفسها وعلى الامبراطورية الناشئة أيضا ، الا بمحاربة تطلعات النبلاء والحد من سلطتهم عن طريق السياسة المركزية . ومن الامور ذات المغزى أن التاج عمل دائما على التشدد فى المركزية كلما تعرض وجود الامبراطورية للخطر ، كما حدث فى حرب الثلاثين عاما وفى الصراع ضد العدوان البروسى .

وعندما سحق الأباطرة التمردات الكبرى التى قام بها النبلاء فى القرن السابع عشر بدأت بعد ذلك عملية كشكة لا رحمة فيها ونشر اللغة الألمانية بواسطة البيروقراطية الامبراطورية ، وان لم تكن أسباب ذلك ذات طابع قومى كلها . وقد تركت هذه الفترة أثرا بالغ المرارة فى عقول التشيكيين والهنغاريين ، وكل مؤمن بالتسامح الدينى وحقوق الانسان يحس بالاشمئزاز عندما يسمع الاجراءات التى اتخذها فرديناند الثانى وليوبولد الأول ضد البروتستانتين المهزومين . وقد بدت فى هذه الاجراءات نفس الروح التى بدت فى اضطهاد لويس الرابع عشر

= يتصل بالصراعات القومية انظر كتابى «Nationalgeist und Politik» ١٩٢٧
ص ٢٣٥ - ٢٣٨ حيث أوردت بعض الكتابات المتصلة بالموضوع .

للهجونات ، وان لم تصل فى قسوتها ما بلغه اضطهاد كرومويل
للارلنديين . بيد أن للتاريخ طرقا غريبة جدا بحيث أن المرء قد يعجب
من أن المعاملة القاسية التى تعرض لها المتمردون البوهيميون والهنغاريون
على يد آل هابسبورج المنتصرين فى الحقيقة كانت لمصلحة الامتين : البوهيمية
والهنغارية الدائمة . . فبعد معركة « الجبل الأبيض » بثلاثة وستين
عاما حاصر جيش تركى قوى فينا ولم تتم هزيمته الا بمجهودات ضخمة
من جانب النمسا والامبراطورية وبولندا والبابا (١) . ولو ان النبلاء
النمساويين والبوهيميين والهنغاريين انتصروا فى صراعهم مع آل
هابسبورج لا تقسمت الامبراطورية الوليدة الى عدد كبير من الاقطار
الصغيرة التى ما كانت لتستطيع قط أن تقاوم هجوم الاتراك . وكان
الغالب أن تصبح أوروبا تركية حتى ضفاف الرين ، وكان غرب أوروبا
كله صار امبراطورية فرنسية ، وربما كانت هذه الامبراطورية ستبتلع
انجلترا أيضا بعد أن تصبح أساطيل فرنسا وهولندا واسبانيا تحت
تصرفها . واذا كان لويس الرابع عشر قد فشل فى جهوده للسيطرة على
أوروبا فان ذلك يرجع أولا الى تضافر قوى النمسا وانجلترا الذى حقق
« توازن القوى » ، ولو أن النمسا تحطمت بانتصار النبلاء البروتستانت
لما عادت هناك عقبة فى سبيل توسع الحكيم العسكريين ، الاستبداديين
الكبيرين : فرنسا والامبراطورية العثمانية ، اللذين كانا حليفين
باستمرار فى الصراع ضد آل هابسبورج . وقد كان الأمراء الألمان فعلا
مأجورين لملك فرنسا الى حد كبير وبخاصة براندنبرج وبروسيا - وما
كانوا ليستطيعوا مقاومته بصورة فعالة حتى لو أرادوا ذلك .

وكان السبب فى المركز القومى الذى احتلته أسرتا هابسبورج
المتحالفتان هو انهما كانتا تحكمان الجزء الاكبر من امبراطورية شارل
الخامس . فضلا عن أن رأس الأسرة المالكة النمساوية صار ينتخب
باستمرار امبراطورا ، وكان له بهذا الوضع نفوذ كبير على الامراء الالمان .
وقد كان ارتباط الأراضى النمساوية باسبانيا وإيطاليا وبلجيكا وزعامة
ألمانيا سببا فى تورط آل هابسبورج فى صراعات لا نهاية لها استنفدت
مواردهم ومنعتهم من توطيد حكمهم ومملكتهم الرئيسية بلاد الدانوب .
وقد كانت لديهم فرصة طيبة لتحرير شعوب البلقان من النير التركى

(١) كان الجيش التركى أمام فينا ٢٣.٠٠٠ جنديا فى حين كان هناك ٢٣.٠٠٠
يدافعون عن المدينة ، وكانت جيوش النجدة تتكون من ٨٦.٠٠٠ منهم ٢٧.٠٠٠ بولندى
وكان للبابا دور كبير فى النصر بمساعداته الدبلوماسية والمالية .

وتوسيع سلطانهم الى شواطئ البحر الأسود وبحر ايجيه ولكن حال دون ذلك الضرورة المستمرة لشن الحروب في جميع انحاء أوروبا للاستيلاء على البلاد التي كانت تعتبر ميراثا للأسرة في بورجنديا واسبانيا . وكان كثير من الساسة النمساويين يدركون تماما أن امتلاك بلاد بعيدة عبء ثقیل وينبغى نبذه لتركيز كل القوى على المهام القريبة . ولكن المحاولات التي بذلت للتصرف على هذا الاساس ، مثل استبدال بلجيكا ببارفاريا ، فشلت . وكانت الاسرة المالكة النمساوية ، مثل كل الاسر المالكة والدول مرتبطة ، بصورة لا فكاك منها ، بالمحافظة على المراكز التقليدية بحيث لم يكن في وسعها التخلص من ميراث الماضي القاتل . ولم يستطع آل هابسبورج أن يكرسوا أنفسهم أخيرا للمشكلة الأساسية الحقيقية للامبراطورية النمساوية الا بعد أن أرغمهم بسمارك وكافور و نابليون الثالث على الانسحاب من المانيا وإيطاليا .

وكانت هذه المشكلة هي تنظيم عشر جنسيات صغيرة أو اكثر للدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي والتنمية الثقافية . وكان لابد من قدر من الوحدة لأن كل هذه الشعوب كانت أضعف من أن تحقق استقلالها وتقدمها منعزلة . وكانت الوحدة تتطلب أنظمة مركزية قوية الى حد كاف ، وكان من الطبيعي أن يكون الشاغل الاول للتاج وموظفيه هو المحافظة على الوحدة والقوة . ومن الناحية الاخرى كانت كل من هذه الجنسيات تطالب بطبيعة الحال بحقوق قومية تتعارض مع وحدة الامبراطورية ومع مطالب الجنسيات الأخرى وحقوقها .

ويبدأ الصراع القومي الحديث في النمسا والمجر بثورة سنة ١٨٤٨ ، وأعقبت هزيمة الثورة فترة من الحكم المطلق والمركزية . بيد أن هذا النظام انهار نتيجة لحروب ١٨٥٩ و ١٨٦٦ ودخلت النمسا المجر بعد ذلك في حقبة من الاصلاحات الكبرى بروح التحررية . بالاضافة الى أن الامبراطور فرانسيس جوزيف أدرك ضرورة كسب ولاء جميع شعوبه بالاستجابة الى تطلعاتها القومية بقدر مايتفق مع وجود الامبراطورية وقوتها . ومن الاسس التي قام عليها التطور التالي بأكمله الاتفاق النمساوي الهنغاري الذي تم في سنة ١٨٦٧ والذي أعادلهنغاريا مركزها القديم كمملكة مستقلة عن النمسا . ولم يبق بينهما شيء مشترك سوى السياسة الخارجية والجيش ، وان كان لكل من النمسا وهنغاريا جيشها الخاص بالاضافة الى الجيش المشترك ، كما نظمت العلاقات الاقتصادية باتفاقات يعاد النظر فيها كل عشر سنوات . وكانت التجارة الداخلية حرة والعملة واحدة في المملكة كلها . وأعقب التسوية مع

هنگاریا منح کرواتیا استقلالا ذاتیا واسعا جدا وقانونا یضمن حقوق الاقلیات فی هنگاریا . وكانت هذه التشريعات نموذجا للتحریة بالنسبة لعهدھا ، وقد رحب بها الاحرار فی جمیع الامم باعتبارھا انتصارا لقضية الحرية والجنسية . ولكن لسوء الحظ سرعان ما صار قانون حقوق الاقلیات القومية فی هنگاریا مجرد حبر علی ورق بسبب نمو النزعة القومية الهنگاریة والنزعة القومية عموما . فمثلا لم تنفذ البنود الهامة الخاصة بالمدارس الثانوية للأقلیات ، وبدأ الهنگاریون سياسة من الاضطهاد والمضایقة نحو هذه الجنسيات بقصد تجریدھا من جنسیتھا . ولكن هذه السياسة لم تحظ بنجاح كبير ، الا أنها تركت أسوأ الآثار والضعفنة .

وقد قسم الاتفاق النمساوی الهنگاری الامبراطورية الى نصفین مختلفین تماما : نصف هنگاری وآخر نمساوی . وكانت هنگاریا نظریا دولة قومية ، أى جنسية واحدة ، اذ سيطر المجریون أو الهنگاریون علی الجنسيات الأخرى برغم أنهم لم یكونوا أغلبية السكان تماما . وقد أثار انتصار المجرین تطلعات الشعوب الأخرى فی الامبراطورية الى حد كبير للحصول علی مركز مماثل . ومن ناحية أخرى استخدم المجریون نفوذهم للحیلولة دون تحقیق هذه التطلعات حیث ان ذلك كان یقلل من سلطتهم بطبیعة الحال . وكثیرا ما تعرض الامبراطور فرانسیس جوزیف للوم لانه منح للمجرین مثل هذا المركز . ولكن ینبغی أن نتذكر أنهم حصلوا علی هذا النصر بعد قرون من التمرد والمعارضة الشدیده والتعاون مع الأعداء الأجانب ، وأنهم ما كانوا لیقنعوا قط بأقل من ذلك . وقد بذل الامبراطور فی نهاية حكمه جهودا للحد من سلطة القومین المجرین وطالب بتطبيق حق الانتخاب العام . وكان ذلك سیؤدی الى تحسین مركز الجنسيات الأخرى الى حد كبير ، ولكن نشوب الحرب فی سنة ١٩١٤ جعل من المستحیل الاستمرار فی هذه السياسة .

أما النصف الآخر من الامبراطورية ، الذی یسمى عادة النمسا ، فلم یكن دولة قومية . ولم تكن السیطرة لأیه جنسية واحدة ولكنھا ضمنت حقوقا متساوية لشعوبھا العشرة كلها ، وان كانت هناك طبعاً بحكم الواقع تفاوتات كبيرة فی الثراء والتربية والقوة السياسية . یمید أن هذه التفاوتات ضاقت بالتدریج بنمو الشعوب التي هی أكثر تخلفا . وكانت النمسا مجموعة مؤلفة من سبعة عشر بلدا مستقلا استقلالا ذاتیا لكل منه برلمانة المحلی المنفصل وادارته المنفصلة . وبالإضافة الى ذلك كان هناك البرلمان المركزى والادارة المركزية فی فینا . ولم یكن لهذه

الدولة حتى الاسم . فلم تكن رسميا تسمى النمسا ، بل « الممالك والبلاد الممثلة في البرلمان الامبراطوري » . وفي كل من مجالس الدايت الاقليمية كانت الاغلبية في يد الجنسية التي تتألف منها الاغلبية في البلد ، وكان كل دايت اقليمي ينتخب رئيس الجهاز الاداري . وكان هناك ايضا حاكم امبراطوري يدير الشئون المشتركة بين جميع البلاد . ومن الامور ذات المغزى أن مجالس الدايت الاقليمية هذه أخذت بعد تفكك النمسا وتكوين الدول القومية .

وبعد التسوية التي حدثت مع هنغاريا وكرواتيا منح البولنديون في غاليسيا استقلالا ذاتيا واسعا جدا ، ومنذ ذلك الوقت ظل البولنديون على ولائهم باستمرار لعلاقتهم بالنمسا . وكان ولاؤهم واضحا الى حد أنهم كثيرا ما سموا « بالوطنيين النمساويين » الوحيديين . بيد أن كثيرا من البولنديين كان يراودهم الأمل في أن تستطيع النمسا يوما ما أن تحرر البولنديين في روسيا ، حيث كانوا يتعرضون لاضطهاد شديد ، وتوحيدهم مع الباقين . وكان لمركز البولنديين القوي في غاليسيا نتيجة مؤسفة اذ أنهم اضطهدوا الروثينيين أو الأوكرانيين في هذا القطر من عدة أوجه . ومع ذلك فإن الروثينيين تقدموا تقديما اقتصاديا وثقافيا كبيرا وكانت أغلبيتهم الساحقة على ولاء للنمسا ، التي تمتعوا فيها بحرية قومية أكثر بما لا يقاس من بنى جلدتهم في روسيا . وبعد حل النمسا سلموا الى بولندا وساء مركزهم كجنسية متميزة كثيرا .

وتشير أمثلة الهنغاريين والبولنديين الى أن زيادة الحرية الجنسية من الجنسيات تنطوي دائما على الحد عمليا من حرية جنسية أخرى تؤلف أقلية في بلد ما . فالمشكلة الحرجة في المشاكل القومية في النمسا والمجر كما في بلاد العالم الأخرى ، هي أن الأقاليم التي تسكنها جنسيات مختلطة لم تكن الجنسية القوية فيها على استعداد قط للاكتفاء بمركز المساواة الحقيقية مع الأقلية . فكل جنسية بلغت مستوى معين من المدنية والنمو السياسي ادعت الحق في مركز الحاكم في اقليمها القومي والسيطرة على الأقليات . وفي النمسا ، بالإضافة الى ذلك ، كان مما شجع الاتجاهات العدوانية والاضطهادية لدى دعاة القوميات اتساع نطاق الاستقلال الذاتي الاقليمي أو المحلي ، الأمر الذي جعل في وسع الجنسية التي تسيطر على مجلس الدايت أو مجلس المدينة أن تسيء استخدام قوتها في تمييز نفسها عن الآخرين . وكثيرا ما اعترض التاج ، وكثيرا ما ألغت المحكمة

الادارية العليا والحكومات المركزية قرارات اتخذتها هيئات محلية فيها
عدوان على جنسية أخرى .

وقد أثارت سياسة حماية الأقليات هذه الغضب طبعاً لدى القوميين
من جميع الأمم ، وكانت الحكومة النمساوية موضع هجوم من السلافيين
بقدر ما كانت موضع هجوم الألمان .

وبعد ارضاء المجريين والبولنديين حاول الامبراطور أن يكسب
التشيكيين أيضاً بأن عرض عليهم استقلالاً ذاتياً واسعاً في سنة ١٨٧١ .

وقبل الزعماء التشيكيون هذا العرض ورحبوا به باعتباره محققاً
لتطلعاتهم القومية . ولكنه أثار معارضة شديدة من جانب الألمان الذين
خشوا أن يستعمل التشيكيون سلطتهم في الاضرار بهم ، وأيد المجريون
الألمان . ولما كانت هاتان الجنسيتان معا أكثر من ثلاثة أمثال عدد
التشيكيين اضطر الامبراطور الى سحب عرضه ، ولكنه سرعان ما رجع
الى سياسته في صورة أخرى . ففي سنة ١٨٧٩ عين الكونت تافيه رئيساً
للوزراء وألف حكومة احتل فيها البولنديون والتشيكيون بعض المناصب
المهمة جداً وأيدها جميع السلافيين وحزب المحافظين الألمان الصغير .
ووقفت الأغلبية الكبرى من الألمان موقف المعارضة . واستمرت هذه
الحكومة أربع عشرة سنة . وقد جلبت الى السلافيين ميزات قومية كبيرة
وزادت في قوتهم السياسية والاقتصادية وساعدت كثيراً على تقدمهم
نحو المساواة .

وقد أثار طول مدة هذه الحكومة التي يؤيدها السلافيون ، وكانت
تعمل على توسيع حقوقهم باستمرار ، تذمراً مريراً بين الألمان . ونمت
حركة وحدة ألمانية اتهمت الحكومة بشدة بأنها تسعى الى جعل النمسا
دولة سلافية وقامت بدعاية لضم النمسا الى ألمانيا . ولما اتسع حق
الانتخابات فشمّل الطبقة الوسطى الدنيا أدى ذلك الى التعجيل بنمو النزعة
القومية الديماجوجية بين جميع الأمم . وفي سنة ١٨٩٣ حاول الكونت
تافيه رئيس الوزراء إيقاف نمو هذه النزعة القومية الراديكالية غير
المسئولة بقانون يمنح حق الانتخاب لجميع الرجال في البرلمان المركزي .
وكان يأمل أن فتح البرلمان لممثلي الجماهير العريضة سيحول السياسة من
النزاع القومي غير المجدى الى اصلاحات اجتماعية مثمرة . وكان وزير
المالية ستاينباخ ، وهو رجل دولة كبير من أصل يهودي ، هو الذى
أقنع الامبراطور بالالتجاء الى الجماهير العريضة ضد النزعة القومية

العمياء لدى الأحزاب الحاكمة • بيد أن سياسة تافيه فشلت لأل الأغلبية الكبرى انقلبت ضده وأرغمته على الاستقالة •

وكانت السنوات العشرون التالية مملوءة بالصراعات العنيفة بين الجنسيات المتنازعة • وقد تفوق أنصار الوحدة الألمانية على الجميع في العدوان وخلقوا الأيديولوجية التي حددت عقلية هتلر • وقامت الحكومة بعدة محاولات لتحقيق تسوية معقولة للصراعات القومية المختلفة ، وحققت بعض النجاح في ذلك ، وإن لم يمكن حمل الجوانب المختلفة على قبول تفاهم أوسع • وبالإضافة إلى ذلك نجح بارون بيك رئيس الوزراء في سنة ١٩٠٦ في تحقيق اصلاح انتخابي كبير كان من نتيجته منح حق الانتخاب للرجال جميعا • ويرجع الفضل إلى حد كبير في هذا الإصلاح الجذري للإمبراطور فرانسييس جوزيف الذي استخدم كل نفوذه في تحطيم مقاومة الأحزاب المحافظة ومجلس الأعيان للديموقراطية النمساوية • وبدأ أن الآمال التي عقدت على هذا الاجراء تحققت • فقد أسفرت الانتخابات عن هبوط كبير في أصوات القوميين وزيادة في أصوات الاشتراكيين والاجتماعيين المسيحيين والأحزاب الزراعية • فقد سئم قسم كبير من الشعوب الشعارات القومية وأراد التقدم الاجتماعي •

ويبدو أن الرأي السائد الآن هو أن النمسا كانت دولة محتضرة ولا بد أن تتمزق شذرا عند موت الإمبراطور • بيد أن وجهة النظر هذه موضع جدل كبير • فواحد من أكبر ثقات مؤرخي وسط أوروبا كان لويس آيزنمان ، الأستاذ بجامعة باريس • ويحتوي « تاريخ كمبردج الحديث » المجلد السابع (الذي نشر لأول مرة ١٩١٠ ثم أعيد طبعه ١٩٢٠) على فصل كتبه عن التاريخ النمساوي قبل الحرب الكبرى ، وهو يلخص عرضه بأن الخوف على مستقبل النمسا والمجر قل كثيرا في السنوات العشر الأخيرة •

« ولم يبدد الأزمة الحادة سوى القوى الداخلية للملكية • فالأخطار الخارجية ، أي الوحدة الألمانية والوحدة السلافية ، تبدو اليوم أقل مما بدا في ذلك الوقت • فالوحدة الألمانية اكتسحتها منح حق الانتخاب العام وأخذت مشاعر الوحدة السلافية تضعف ، ولا يزال هناك صراع عنيف بين الجنسيات ، ولكن الحل الحتمي صار قريبا • ويبدو أن جميع المشاكل النمساوية والهنغارية والمشاكل النمساوية الهنغارية يمكن أن تسوى داخليا » •

• وهو يعزو نصيبا كبيرا في هذا الانجاز إلى الإمبراطور ، ولكنه

يؤكد أيضا أن الشعوب أدركت المصلحة المشتركة التي توحيها في الإمبراطورية . . « ان الملكية لم تعد معتمدة على رابطة الأسرة المالكة وحدها ، بل كذلك على الرغبة الواعية في الاتحاد . هذه هي النتيجة العظيمة الضخمة لحكم فرانسيس جوزيف » .

وقد كتب خير كبير آخر ، هو الامتاذ ستون واطسون ، في مؤلفه « مستقبل النمسا المجر » (١٩٠٧) : ان الرأي القائل بأن الملكية سرعان ما ستنهار رأى سطحي بحت ، وأنه من جانبه لا يعتقد احتمال تفكك النمسا والمجر ، بل لا يعتقد أن ذلك ممكن ثم قال انه ينبغي ، أيا كان الأمر ، على فرنسا وانجلترا أن تبذلا كل جهد في المحافظة على الملكية الثنائية كوحدة سياسية واقتصادية . ويصف ستون واطسون ، في كتابه عن المشكلة السلافية الجنوبية (١٩١١ ط ٢ في ١٩١٣) ، الرأي القائل بأن النمسا والمجر دولة آفلة أينعت للتقسيم بأنه أسطورة لا معنى لها . وفي نفس الكتاب يصف موقف الأستاذ مازاريك في هذه الكلمات : « انه أكثر تحررية من أن يصير من دعاة الوحدة السلافية بالمعنى الروسى ، فهو يؤمن برسالة النمسا وبمستقبل عظيم للسلافيين تحت حكم آل هابسبورج » (١) .

وقال كاتب آخر درس هذه المشاكل بعناية ، وهو مستر ويكهام ستيد الذى كان مراسلا لجريدة التايمز في فينا ، في كتابه « ملكية آل هابسبورج » ١٩١٣ :

« لم أستطع أن أجد خلال عشر سنوات من الملاحظة والتجربة انستمرين - سنوات زاهرة بالصراع والازمات - أى سبب كاف لأن يحول دون احتفاظ ملكية هابسبورج بمركزها الشرعى في المجتمع الأوروبى بشئ من بعد النظر المعتدل من جانب الأسرة المالكة . ان أزماتها الداخلية فى كثير من الأحيان أزمات نمو لا أزمات انهيار » .

وقد يكون من المفيد هنا أن نضيف رأى أبرز الزعماء التشيكيين فى فترة ما قبل الحرب ، د . كاريل كرامر ، الذى كان شديد العداء للألمان ويعطف صراحة على الوحدة السلافية . فقد كتب فى سنة ١٩٠٦ :

« ليس هناك من ينكر الحقيقة الواضحة الجلية وهى أن شعبنا يتمتع بأحسن الظروف الممكنة نسبيا لنموه الثقافى والسياسى والاقتصادى

(١) ر.و. ستون واطسون « المشكلة السلافية الجنوبية وملكة هابسبورج » سنة

في النمسا . وليست هناك طريقة أخرى : إذ أن مركز شعبنا في قلب أوروبا والظروف السائدة في السياسة الدولية ترغمننا أكثر من أى وقت مضى على رؤية أن أفضل ضمانات لمستقبل شعبنا هي قوة النمسا وسلامتها داخليا » .

وقد نشر للدكتور ادوارد بينز ، الذى اشترك فيما بعد في تأسيس تشيكوسلوفاكيا وصار رئيسا لها ، كتاب في سنة ١٩٠٨ اقترح فيه تحويل النمسا الى فدرال (١) . ولم تكن مقترحاته ثورية بأى حال وكان من الممكن تحقيقها داخل اطار الامبراطورية القديمة . وقد انتهى د . بينز الى أن :

« الناس كثيرا ما يتحدثون عن تقسيم النمسا . أما أنا فلا أومن بذلك مطلقا . فالروابط التاريخية والاقتصادية بين الامم النمساوية أقوى من أن تجعل هذا التقسيم ممكنا . وتطبيق حق الانتخاب العام ونشر الديمقراطية في النمسا ، وبخاصة في بوهميا ، يمهدان السبيل للتهدة القومية » .

وينتهى الكتاب بالقول بأن المشكلة النمساوية في طريقها الى الحل .

وقد تصور لنا بعض الاحصائيات مركز التشيكيين من النمسا القديمة في السنوات الاخيرة . فقد كانت نسبتهم في السكان ٢٣ في المائة ، وكانت نسبتهم في عضوية البرلمان ٢١ في المائة وفي مجلس الوزراء (١٩٠٠ - ١٩١٤) ١٩ في المائة وفي الموظفين ٢٤٩ في المائة وفي المدرسين ٢٤٩ في المائة ، وبين المدارس الابتدائية كان ٢٤٥ في المائة مدارس تشيكية ، وبين المدارس الثانوية ٢٣٣٪ ، وبين طلبة الجامعات والكليات الفنية ١٩ في المائة . وكانت نسبة الاميين بين التشيكيين اقل نسبة بين جميع الجنسيات في النمسا ، وهي ٢٤ في المائة ، وبعدهم الالمان بنسبة ٣١ في المائة . وكان التشيكيون يملكون ايضا زراعة وصناعة متقدمتين بالاضافة الى نصيب كبير في المصارف التى ليس لها طابع قومى ، عدا مصارفهم القومية التى تبلغ أصولها أكثر من ٢٠٠ مليون جنيه استرليني ، وتدل هذه الأرقام الى أى مدى كان السياسى البريطانى الشهير ، الذى قال فى خطاب له بعد الحرب الكبرى ان التشيكيين كانوا مضطهدين في النمسا بحيث لم يكن امامهم الا ان يصيروا عمالا في مناجم الفحم ، مخطئا فيما لديه من بيانات .

(١) ادوارد بينز « Le problème Autrichien et la question Tchèque » ١٩٠٨ ص

بيد أن السلام ، الداخلى والخارجى ، تعرض للخطر بنمو حركات انفصالية بين اجزاء من السلافيين الجنوبيين والرومانيين والاطاليين . فلم تكن الأغلبية الساحقة للشعوب التى تعيش فى البلاد النمساوية بالتأكد تريد الانفصال عن الامبراطورية . ولكن كانت الانفصالية فى البلاد التى تحت التاج الهنغارى والتى اعتدت الحكومة الهنغارية ، تدفعها نزعة قومية قصيرة النظر ، على حقوق الأقليات وأهملت مصالحها الثقافية وحاربت تطلعاتها القومية بصورة تحكيمية . بيد أنه بصرف النظر عن مثل هذه الأسباب كانت جذور حركة السلافيين الجنوبيين قوية والرغبة فى التوحيد القومى شديدة . ولم يكن السلافيون الجنوبيون فى الامبراطورية وحدة قومية ، بل كانوا منقسمين الى ثلاث جنسيات : الكروات والصرب والسلوفينيين . وكانت بينهم اختلافات كبيرة فى التقاليد والدين واللغة ، بالإضافة الى انهم لم يكونوا تحت حكومة واحدة بل تحت عدة أجهزة ادارية مركزية واقليمية . ولا شك أن هذه الأوضاع كانت غير مرضية وكان من العسير ايجاد حل عملى . وقد نوقشت على نطاق واسع فكرة توحيد جميع السلافيين الجنوبيين الذين يوجدون فى المملكة فى دولة واحدة مستقلة ولكنها تحت نفس التاج مع البلاد الهنغارية والنمساوية وقد عزيت الى الأرشييدوق فرانز فرديناند ولى العهد خطط من هذا القبيل .

ولا يمكن الحكم بنجاح مثل هذه الخطة أو لا ولسنا فى حاجة هنا الى مناقشة هذا الموضوع . بيد أنه يجب القول بأن الصعوبات لم تكن ناجمة عن مقاومة المجرين والألمان والسلاف النمساويين فحسب ، بل كذلك كان من الصعوبة بمكان تهدئة العداوات القديمة بين سلافى الجنوب أنفسهم . وقد خفف من حدتها مؤقتا المعارضة المشتركة للسيطرة المجرية والتذمر من التاج الذى ترك للمجرين حرية التصرف أمدا طويلا . ولكن عندما تم توحيد جميع سلافى الجنوب بعد الحرب الكبرى فى يوجوسلافيا نشب على الفور صراع مرير بين الكرواتيين والصربيين هدد بهدم الدولة من أساسها .

وقد انتشر قبل الحرب بين مثقفى السلافيين الجنوبيين ، وبخاصة بين الشباب ، ان الصرب ستحرر جميع سلافى الجنوب وتوحدهم بمساعدة روسيا . وتألفت منظمات ثورية وارهابية ثورية اشترك فيها بعض كبار الضباط فى هيئة اركان الحرب الصربية . وكانت هذه الحركة فرصة استغلتها مجموعة من كبار الضباط فى هيئة اركان الحرب العامة للنمسا المجر يرأسها الجنرال كونراد فون هويتزندورف

رئيس هذه الهيئة . فقد ظل يدعو سنوات للقيام بحرب وقائية ضد الأعداء الأجانب للامبراطورية ، اما ضد ايطاليا أو ضد الصرب وروسيا .
والتوقع أن النزاع الذي لا ينتهى بين الجنسيات شجع جميع أعداء النمسا والمجر الخارجيين والداخليين وجعلهم يتصورون أن تحطيم الامبراطورية من السهولة بمكان . وكانت الرغبة في مواجهة هذا التصور واستعادة هيبة الامبراطورية مصدر الوحي لسياسة خارجية مملوءة بالمخاطر مع البوسنة . ولما سويت الأزمة معها بطريقة سلمية استمر كونراد في دعايته من أجل الحرب .. وكان الامبراطور معارضا في الحرب وطرده شر طردة . ولكن لسوء الحظ سرعان ما أعيد الى منصبه السابق وهياً له اغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند بواسطة بعض المتعصبين الصربيين فرصة لتحقيق غرضه ، يؤيده في ذلك بقوة حزب الحرب في ألمانيا .

وقد حطم نشوب الحرب بطبيعة الحال كل أمل في التهدئة القومية في النمسا والمجر . وما كان من الممكن أن تؤدى الحرب التى خطط لها حزب الحرب فى النمسا والمجر لتقوية الامبراطورية الا الى تدمير أسسها المعنوية حتى ولو لم تنته بالهزيمة والانهيـار . فمن المستحيل انكار أنه كان من حق الجنسيات المختلفة تماما ، بعد تجربة الحرب المريرة ، ان تحل الامبراطورية وتؤسس دولها القومية المستقلة . بيد ان الأمر مختلف تماما فيما يتصل بالحكم على ما اذا كان تقطيع أوصال الامبراطورية وبخاصة بالطريقة التى تم بها ذلك ، لمصلحة الامم التى يتعلق بها الأمر حقيقة أو لا ، وما اذا كان من الأفضل المحافظة على الوحدة بين بعض الأمم فى صورة فدرال ديموقراطى أو لا . وهناك رأى منتشر على نطاق واسع جدا فى*الوقت الحاضر هو أن حل النمسا المجر كان كارثة كبرى بالنسبة لجميع جنسياتها ولأوروبا والعالم .

الدولة القومية والإرادة والطابع القوميان

١ - الفيودالية والجنسية

ان الدولة القومية الحديثة نشأت الى حد كبير في معارضة افكار الحكم الفيودالية والتبوتونية ، وان كانت بعض انظمتها وتقاليدها نمت من بذور فيودالية . وقد كانت القبيلة بالنسبة للتبوتونيين القدماء هي الامة ، فلم تكن لديهم فكرة عن وحدة اوسع من ذلك ، ولم يكن لديهم الا اقل قدر من الحكومة . بل لقد ثار جدل حول امكان اعتبار مجتمعاتهم دولا او لا (١) . فالهجرات الكبرى والاتصال بالرومان والسيطرة الالمانية على ارض الامبراطورية صحبها نمو السلطة الملكية وتكوين شعوب كبرى باندماج القبائل المختلفة . وبدأ الملوك عندئذ بناء دول بمعونة موظفين من الرومان والكنيسة ، ولكن سرعان ما سادت الفيودالية وادت ، في الاماكن التي لم تستطع ملكية قوية ايقافها ، الى انقسام الدولة والمجتمع الى شذرات لا عدد لها . وجنحت المقاطعات الفيودالية الى اتخاذ طابع الاقطار الوراثية او الضياع الخاصة التي اختلطت فيها حقوق الحكومة وحقوق الامتلاك بصورة معقدة جدا .

وكان من اثر نمو السلطة الفيودالية بلا كبح انه لم يكن هناك اقليم قومي ولا مواطنة قومية ، ولا تضامن قومي يذكر . ففي القرية قد ينتمى بعض الاشخاص ، أو بعض الرسوم أو بعض حقوق الحكم ،

(١) فيما يتصل بهذا الجدل أنظر ج . فون بيلو
Mittelalters ١٩١٢ المجلد الاول وكذلك ف . كويتجن
des Mittelalters ١٩١٨ .



لأحد اللوردات والبعض الآخر للورد ثان . وقد يتبع النبيل الذى يحكم عدة مقاطعات لأكثر من ملك ويدين لهم بالولاء ، الأمر الذى أدى الى صدام فى الولاء حين يقع صدام بين الملوك . وكانت العلاقات الفيودالية معقدة فى كثير من الأحيان الى حد صار من المستحيل معه ان يحدد المرء حدود دولة ما . بالإضافة الى أن وحدة المرتبة الاجتماعية فى المجتمع الفيودالى كانت تنطوى عادة على ولاء متبادل أقوى من الجنسية المشتركة وكثيراً ما كان التضامن بين النبلاء ، أو بين المدن ، من البلاد المختلفة أقوى منه بين نبلاء ومدن البلد الواحد . ففى ساحة القتال مثلاً كان الفرسان من البلاد المختلفة يوفر الواحد منهم حياة الآخر ويحاولون أخذ الأسرى فحسب ، وكان هؤلاء الأسرى يعاملون معاملة طيبة كقاعدة عامة ويطلق سراحهم مقابل فدية . أما فى المصارك بين المحاربين الذين من مراتب اجتماعية مختلفة ، حتى اذا كانوا من بلد واحد ، فلم تكن هناك مثل هذه المعاملة الطيبة . وصحيح أن الفرسان كانوا يظهرون أيضاً اعتزازاً بالكرامة القومية أو ازدياء لقومية أخرى ، ولكن الجانب الإيجابى للجنسية وهو الشعور بالالتزام نحو الأشخاص الآخرين من نفس البلد أو نفس اللغة ، كان ضعيفاً جداً . ومع ذلك فان الفيودالية أسهمت بنصيب كبير فى نمو الأمم الحديثة : فالبرلمان نما من أنظمة المجتمع الفيودالى . فضلاً عن أن الفيودالية شجعت أفكار الحرية والشرف العسكرى التى صارت جزءاً مندمجاً من تقاليد الأمم الحديثة . ومما يثير الانتباه أن البلاد التى لم تظهر فيها طبقة نبلاء

فيوداليين من النوع الذى كان عندنا ، مثل الهند والصين وتركيا ، لم تظهر فيها برلمانات ولا وعى قومى حديث . ومن ناحية أخرى كانت اليابان ، التى ظهرت فيها طبقة نبلاء، بينها وبين الأوضاع الغربية أوجه شبه كثيرة ، سباقة الى اتخاذ الأنظمة السياسية الغربية والمدنية والنزعة القومية الغربيتين .

٢ - بناء الدول القومية

ان الدول القومية بنيت الى حد كبير جدا بواسطة الملوك ومؤيديهم الذين لم تكن لديهم فكرة عن نتائج سياستهم . فقد كان هدف الملوك أساسا هو تقوية سلطاتهم للقيام بواجباتهم الملكية بصورة أفضل من ناحية ولتوسيع ممتلكاتهم من ناحية أخرى . ومن الأمور ذات المغزى أن أولئك الملوك الذين اتخذوا الخطوات الحاسمة نحو الوحدة كانوا حكاما يحدوهم طموح لتكوين امبراطوريات كبرى مثل هنرى الثانى فى انجلترا وفيليب الثانى فى فرنسا ، وكان كلاهما يحلم بالسيطرة على العالم . بيد أن الملوك فى انجلترا وفرنسا لم يبدؤوا سياسة التوسع على نطاق كبير الا بعد أن دعموا سلطتهم فى الداخل ، فى حين أن الإباطرة فى ألمانيا أهملوا ذلك أو فشلوا فيه قبل أن يسعوا الى زيادة ممتلكاتهم فى الخارج . وقد أدت هذه السياسة الى كارثة وإخفاق الوحدة القومية قرونا طويلة . ويرجع الاختلاف الكبير بين التقاليد والتطلعات السياسية لدى الألمان عنها لدى الأمم الغربية الى هذا الاختلاف فى تطورهم الى حد كبير .

وقد تعارضت جهود الملوك بالضرورة مع المصالح الفيودالية . ومن ثم كان من الأهمية بمكان كبير أن الكنيسة وقفت الى جانب الملكية ودعمت نمو الوحدة ، برغم أنها كانت أكبر مالك فيودالى للأرض . وقد بذل النبلاء فى كثير من الأحيان أقصى جهودهم لمقاومة كل زيادة فى سلطة الملك ، وكانوا أحيانا سببا فى إخفاق التهدة الداخلية . بيد أن النبلاء فى انجلترا سرعان ما فضلوا العمل الجماعى فى البرلمان على التمردات المنعزلة والعنف الفردى ، وهذا اتجاه يرجع الى حد كبير الى الإحساس بالوحدة بينهم الذى نجم عن سياسة الملوك .

وكانت الاداة الرئيسية التى استخدمها الحكام فى بناء اطار الدولة القومية ، والقوة الدافعة الحقيقية وراءهم فى كثير من الأحيان ، هى طبقة جديدة من الموظفين المدربين قانونيا الذين يعدون النواة الأولى

للبيروقراطية الحديثة . وكان هؤلاء الموظفون في مبدأ الأمر من رجال الكنيسة في الغالب ، ولكن حل محلهم فيما بعد علمانيون الى حد كبير . وقد جاءت هذه الطبقة أساسا من الطبقات الوسطى وصغار النبلاء ، وفي بلاد كثيرة جذبت الخدمة الملكية رجالا طموحين من بلاد أخرى . وكان الملوك في كل مكان يحبون استخدام الأجانب وأشخاص من الفئات الدنيا ممن لم يكونوا مقيدين بالتقاليد الفيودالية والمحلية وكانوا معتمدين كلية على رضا هؤلاء الملوك (١) . وكان من العمد التي قامت عليها سلطة الملوك أيضا الجنود المرتزقة ، الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من الأجانب أيضا . وقد اتاح امتلاك الجيوش للملوك فرصة اكتساب قسم من النبلاء باستخدامهم ضباطا فيها . ومن الأشياء المهمة بالإضافة الى ذلك اسهام الطبقة الوسطى في المدن في التوحيد القومي . فقد وجد الملوك في هذه الطبقة مستشارين ومساعدين قادرين ، كما زودتهم ، وان كان بشيء من النفور ، بالمال . بيد أنه من المبالغة أن نعزو الى الطبقة الوسطى الفضل في بداية القومية والشعور القومي بالجنسية أو تصور الامكانيات الاقتصادية في الوحدة القومية (٢) . فقد خدم التجار أغراض الملوك ، وأغدق الملوك عليهم الحظوة في حدود ما اتحدت مصلحتهم ضد النبلاء أو رجال الكنيسة . ولم يكن التجار أنفسهم متحررين من الروح الفيودالية والعصبية المحلية . فالمدينة كانت وطنهم ، وكثيرا ما كانوا

(١) والصراع الكبير بين البارونات والأجانب الذين اصطفاهم هنري الثالث معروف تماما ، ويذكر جوافيل ان الملك لويس التاسع اتخذ قائدا للجيش غير فرنسي ونصح ابنه بأن يكسب حب الشعب ، والا فإنه من الأفضل أن يحكم البلاد حاكم أجنبي عادل . وكان مثرعو فيليب الرابع المشهورون ، مثل فيليب فلو و جيوم دي نوجاريه وبير دوبوا ، من جنوب فرنسا ومن نورمانديا ويعتبرون أجنبيا . وكان فيليب دي كومين ، مستشار لويس الحادي عشر من الفلاندر . وفيما بعد كان الإيطالي مازارين من بناء الدولة القومية الفرنسية . وقد استعان ملوك ستورات وليم الثالث وآل هابسبورج وهو هنزلون ورومانوف أيضا بخدمة عدد كبير من الأجانب . والمدن الإيطالية كثيرا ما عهدت الى موظفين أجانب بالمناصب الادارية لتجنب الصراع العنيف بين الاحزاب والطبقات ولتحقيق حكم غير متحيز .

(٢) في فرنسا مثلا أقيمت عدة حواجز جمركية بين المقاطعات في نهاية القرن الرابع عشر في الوقت الذي نمت فيه قوة البورجوازية في « مجالس الطبقات » . وكانت الاسباب مالية . بيد أن مجالس الطبقات سرعان ما دعت الى سياسة حرية التجارة الداخلية ، ولكن الحواجز لم تزل الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد بدل الملك عدة محاولات لتوحيد الموازين والمقاييس والعملة ، ولكن مندوبى المدن رفضوا هذه المقترحات باعتبارها ضد مصلحة الناس العاديين . والسبب في ذلك أن النبلاء كان لابد أن يحصلوا على تمويضات . ولم تتم وحدة الموازين والمقاييس قبل الثورة .

عازفين عن التنازل عن امتيازاتها من أجل مصالح الوحدة القومية مثل النبلاء . فضلا على انهم صاروا في البلاد التي لا تسيطر عليها ملكية قوية مصدر صراع اجتماعي وسياسي مرير عرض الوحدة القومية للخطر .

وقد تم بناء الدولة القومية في عدة خطوات صغيرة لا حصر لها ، ويجب ان يترك الوصف التفصيلي لهذه العملية للتاريخ الاجتماعي والاداري والدستوري ، ولا نستطيع هنا الا الاشارة الى بعض الخطوط الرئيسية فيما يتعلق بتكون الدولة القومية . فقد كان نمو أية دولة قوية موحدة يعتمد على تسوية حقوق الوراثة في العرش بحيث يتجنب الصراع من أجل السلطة عند موت الملك ، وكان مما يدعم ذلك أن تطول مدة حكم الأسرة المالكة حيث ان ذلك ينطوى على تراكم السلطة والتجربة في يد الملكية . وفي العصور الوسطى تمتعت فرنسا بفترات استمرار كبير في الاسرات الحاكمة ، في حين أن الأمراء الذين كانوا ينتخبون الامبراطور في ألمانيا كثيرا ما حاولوا تغيير الأسرة الحاكمة ليحولوا دون زيادة قوتها . ومن الامور التي تدعو الى التأمل ان فرنسا لم يعزل فيها ملك قبل ثورة سنة ١٧٨٩ ، في حين أن خمسة ملوك عزلوا أو قتلوا في إنجلترا في العصور الوسطى ، واثنين آخرين بعد ذلك ، كما تعرض غيرهم لخطر مصير مماثل . ولعل هذا هو السبب في أن الإنجليز عرفوا في العصور الوسطى بأنهم « متقلبون » . والواقع أن هذا العزل كان علامة على قوة النبلاء . وقد تحققت الوحدة الإقليمية بمجرد أن سادت فكرة أن « المملكة » غير قابلة للتقسيم أو التصرف فيها . وتمت خطوات أخرى نحو توحيد الأمم بتقديم العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونمو القانون العام والادارة العامة واللغة المشتركة والغاء الرق ونظام الاقنات والامتيازات الطبقية المبالغ فيها وتوحيد الموازين والمقاييس والعملة والتعريفات وتحقيق حرية التجارة في الداخل . ولم تستطع العصور الوسطى ان تحقق سوى جزء من هذه المهام . وقد مرت فكرة الدولة أيضا بتغيير كبير . فقد حلت محل الولاء الفيودالي لشخص الملك فكرة التاج الاشخصي الباقي ، فكرة « روح الاندماج » التي يتضمنها القانون الانجليزي . كما أن الفكرة الجرمانية والفيودالية في اختصاص الدولة هي أنه مجرد الدفاع عن الحقوق القائمة ، ومن ثم فان هدفها الرئيسي هو اقامة العدل وتوفير الدفاع . وقد اعتبر من مسؤوليات الدولة العناية أيضا برفاهة الشعب في الجمهوريات المدن في العصور الوسطى لأول مرة ، وأسهم ذلك في نمو فكرة التضامن الوثيق بين المواطنين ، وهي الفكرة التي تنطوى عليها فكرتنا عن الأمة .

وفي حين كانت هذه التطورات تعمل أساسا على نمو الوحدة القومية ، كانت هناك اتجاهات أخرى تؤدي الى تغييرات كبرى في فكرة الحرية القومية . ومن الأمور ذات الأهمية الحاسمة في تكوين الأمم والطابع القومي خلق أجهزة تكوين الإرادة القومية .

٣ - تأثير البرلمان على الوحدة القومية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا

نما البرلمان في العصور الوسطى في بلاد كثيرة من جذرين : الأول هو البلاط الفيودالي للملك أو الأمير الذي كان يضم كبار تابعيه وبعض السكوتاريين الذين كانوا يقدمون له المشورة ويساعدونه في شؤونه القضائية والإدارية والسياسية . والثاني هو الجمعية غير العادية التي تتألف من عدد كبير من الأشخاص ذوي النفوذ أو الإثراء الذين كان الملك يدعوهم في أوقات المحنة ، وبخاصة عند خطر الحرب ، بفرض الحصول على تأييد الملكة كلها . وكثيرا ماسمى هذا المجلس « مجمع الملكة » وعندما صارت مثل هذه الجمعيات هيئات نظامية ومثلت قطاعا كبيرا من الأمم الوليدة اقتربت من طابع البرلمان بالمعنى الذي نعرفه . بيد أن هذه المجالس النظامية ظلت زمنا طويلا محكمة للنظر في القضايا أكثر منها جميعة تتعلق مهمتها بالتشريع (١) .

وفي المرحلة الأولى من النمو البرلماني كانت المبادرة دائما من جانب الملكية . فقد كون الملوك برلمانات على أساس أوسع لأغراض الحكم . وكان الفضل في المبدأين الأساسيين للديموقراطية والجنسية ، وهما التمثيل النيابي والأغلبية ، يرجع عادة الى إصرار الملوك الى حد كبير . فالطبقة الوسطى في المدن في جميع البلاد لم ترحب بأن يطلب إليها إرسال مندوبين الى جمعية لفرض الضرائب من أجل الملك ، مع ما يترتب على ذلك من نفقات في السفر والإقامة . ومن ثم فإن كثيرا من المدن رفعت عرائض تطلب فيها إعفاءها من عبء إرسال مندوب .

(١) كان هذا هو الوضع بصفة خاصة في إنجلترا . انظر شارلز ه . ماك الوين « المحكمة العليا للبرلمان وسيادتها » ١٩١٠ ، ١٠١ ف بولار « تطور البرلمان » الطبعة الثانية ١٩٣٤ . بيد أن الرأي القائل بأن البرلمان الإنجليزي في العهود الأولى كانت وظيفته مناقشة جميع المسائل التي تتصل بالامة كلها عاد الى الحياة فترة أخرى مؤخرا . انظر ب . ويلكنسون « دراسات في التاريخ الدستوري للقرنين الثالث عشر والرابع عشر » ١٩٣٧ ص ٢٣٦ .

فضلا عن أن التعصب المحلى فى المدن والمبدأ التوتونى والفيودالى الخاص بالاجتماع كانا يتعارضان مع فكرة أن يكون للمندوب سلطة يقيد بها ناخبه وفكرة أن يكون رأى الأغلبية ملزما للأقلية (١) .

وكان النبلاء ، من بين جميع الطبقات ، هم الذين اظهروا ، البارونات أولا ثم الفرسان فيما بعد ، ميلا أكثر من أية طبقة أخرى الى تحويل البرلمان من أداة للملك الى أداة لحريتهم ، وان كانت فى كثير من الاحيان حرية فيودالية . بيد أنه حتى النبلاء لم يصروا فى مبدأ الأمر على أن يكون لهم نصيب نظامى فى حكم المملكة . فلم يطالب النبلاء بهذا الحق الا فى ظروف استثنائية عندما يثور بينهم وبين الملك نزاع . وقد مر وقت طويل قبل أن تأتى المرحلة التى طالب فيها ممثلو الأمة فى البرلمان بسلطة واسعة ودائمة للسيطرة على مصيرها .

وقد وجدت أنظمة مماثلة فى معظم البلاد وكثيرا ما قامت بدور كبير . ومع ذلك فإن البرلمان لم يكن له نصيب فى تكوين الوحدة القومية والوعى القومى فى أى مكان آخر مثل إنجلترا . ويقول الأستاذ أ . ف . نيولارد :

« الواقع أن البرلمان كان الاداة التى صنعت الأمة الانجليزية والدولة الانجليزية . وهو فى الحقيقة معاصر لهما منذ البداية . وصحيح أن إنجلترا كانت موجودة قبل أن يوجد البرلمان بعدة قرون ، ولكنها لم تكن أكثر من مجرد تعبير جغرافى . فلم تكن أمة بعد ، ولا دولة ، وكان ادوارد الأول هو أول ملك لشعب انجليزى يمكن أن يوصف بأنه متحد وواع بوحدته حتى جزئيا » .

وكانت القيمة الرئيسية للبرلمان فى العصور الوسطى أنه كان معبرا فوق الحواجز الاجتماعية والمحلية والاقليمية ، وانه انتج رأيا عاما وشعورا مشتركا . « وبذلك كان البرلمان الوسيلة الخاصة التى حقق الشعب الانجليزى عن طريقها وحدته وجنسيته » .

فلأهم فى القارة (أوروبا) تلقت وحدتها وتقاليدها القومية ووعيتها القومى عن طريق الحكم الملكى المطلق والانتصارات العسكرية والدين والمدنية أكثر مما تلقته عن طريق أنظمتها البرلمانية . ويرجع السبب

(١) وفيما يتصل بتطور مبدأ الاغلبية انظر بولك وميتلاند « تاريخ القانون الانجليزى » المجلد الثانى ص ٦٢١ ، وجوزيف ردلج « Recht und Technik des englischen Parlamentarismus » ١٩٠٥ ص ٥٣٦ .

فى أن البرلمان حقق نجاحا فى انجلترا أكبر بكثير من القارة الى أن الملوك فى انجلترا كانوا فى اللحظات الحرجة من القوة بحيث استطاعوا المحافظة على السلام الداخلى مع قدر من الوحدة القومية، فى حين كان النبلاء تؤيدهم الطبقات الوسطى من القوة بحيث يمنعون الملوك من أن يصيروا أقوى مما ينبغى . أما فى القارة فإن هذا النمو عوقته الحروب الداخلىة والخارجية الكثيرة ، التى أتاحت للحكام جيوشا قوية ، والتعصب المحلى والجنوح الى الانعزالية فى الاقاليم والمدن ، والعداء الحاد بين الطبقات . وقد أتاح هذا العداء للملوك فرصة الاستعانة بطبقة ضد أخرى وحمل قطاعات كبيرة من الشعوب على الترحيب بالحكم الملكى المطلق لاعادة السلام الداخلى والنظام .

وكان المفزى القومى للبرلمان الانجليزى فى العصور الوسطى يقوم على فكرة التمثيل القومى كنظام قائم ، مع عدم وجود انقسامات حادة بين الطبقات وعلى شبكة واسعة من الحكم الذاتى المحلى (١) . ومن السمات الغريبة فيه أن تمثيل المدن كان يفوق تمثيل الريف بشكل غير عادى . ولكن روح الطبقة الوسطى فى المدنية لم تكن هى المسيطرة على البرلمان أو التى نمته . فالمدن عادة كانت تنتخب فرسانا ، وظلت أعداد كبيرة من مقاعد المدن فى البرلمان تحت التصرف المطلق أما للملك أو للأسر الارستقراطية أمدا طويلا . وكان حق الانتخاب فى دوائر الريف وفى بعض المدن على الاقل واسع النطاق الى حد ما ، ولكن بعد نهاية العصور الوسطى زادت قوة الملكية والاتجاه نحو حكم القلة . ومع ذلك فإن البرلمان الانجليزى القديم كان ينظر اليه دائما باعتباره لسان حال الأمة ، ويرجع الفضل الأول فى هذا الى دور النبلاء الاقل شأنا وأعيان الريف الذين كانوا يؤلفون طبقة ذات حيوية سياسية ودراية وكفاءة عظيمة . ولم تكن هذه الطبقة طائفة يغلب فيها المحاربون الذين يتمتعون بامتيازات واسعة مثل الفرسان فى القارة . بل كانت أقرب الى الشعب وألفت حلقة بين جميع الطبقات وهيأت للأمة قيادة مجربة وتقديمية نسبيا .

وقد حاول الملوك فى انجلترا كما فى غيرها أن يتحالفوا مع الطبقات الدنيا ضد الطبقات العليا ، ولكن النقطة البارزة فى تطور السمات المميزة الانجليزية هى أن الطبقات العليا تقلبت فى النهاية على الملكية عن طرق تأييد قطاعات كبيرة من الطبقات الاخرى . وبعد ثورة القرن

(١) انظر . و . ميتلاند « التاريخ الدستورى لانجلترا » ١٩١١ ، وجوليوس هاتشيك « Englische Verfassungsgeschichte » ١٩١٢ .

السابع عشر صارت إنجلترا أكثر ارسقراطية من أى وقت مضى . فقد صارت فى الواقع جمهورىة تحكمها قلة من الاثرياء فى صورة ملكىة وىسيطر عليها عدد ضئىل من الأسر الارسقراطية . وهذا النظام ، برغم كل نقائصه ، هو النظام الوحى الذى استطاع تنمية نظام مجلس الوزراء الذى يتألف منه عصب اللىموقراطية البرلمانىة فى الوقت الحاضر . وفى هذا الوقت أيضا بدأت الثورة الصناعىة ومهدت السبىل لتطور اللىموقراطية . ومن المشكوك فى أن إنجلترا كان ىمكن أن تصير دولة صناعىة كبرى تحت الحكم المطلق أو اللىموقراطية .

وفى فرنسا كان « مجلس الطبقات » شبه البرلمان الانجلىزى من عدة نواح (١) . وفى عدة برلمانات ، وبخاصة فى ١٣٥٧ و ١٤١٣ ، وضعت مبادئ لو أنها طبقت لتحولت فرنسا الى دولة قومىة برلمانىة . بىد أن روح الحرية البرلمانىة لم تتغلب على موجة الحكم المطلق الصاعدة . وكانت هناك أسباب كثيرة لاختلاف نمو إنجلترا عن فرنسا . ففى حىن كان فى إنجلترا برلمان واحد فحسب ، نجد فى فرنسا عددا كبيرا من المجالس الاقليمىة والمحلىة ، وعندما كان الملك ىفشل فى الحصول على ما ىريد من « مجلس الطبقات » كان يطلبه من مجالس المقاطعات والمدن كل منها على حدة ، أو من جمعىات من الأعيان المختارين ، وكان ىنجم عادة فى الحصول على ما ىريد . وقد عاون على نجاح هذا الأسلوب التعصب المحلى وعدم استعداد المدن لمنح مندوبىها سلطات لتمثىلها . وصار حق الانتخاب فى فرنسا أكثر دىموقراطىة منه فى إنجلترا . بىد أن الامارات الفىودالىة الكبرى كان ىمثلها أمراؤها فحسب . وقد خضعوا للتاج مع الوقت وأصبحت البلاد كلها لأول مرة ممثلة بمندوبىن منتخبىن فى سنة ١٥٦٠ . اما فى إنجلترا فان البلاد كلها كانت منذ البداة ترسل ممثلىها الى البرلمان . فضلا على أن الأمة ظهرت فى البرلمان متحدة فى إنجلترا أكثر منها فى فرنسا (٢) . ففى فرنسا كانت الطبقات الثلاث : رجال الدين والنبلاء والطبقة الوسطى ، تؤلف كل منها هىئة منفصلة ولم ىكن هناك قرار نافذ الا اذا وافقت علىه الهىئات الثلاث . وناحىة الضعف الرئىسى فى « مجلس الطبقات » الفرنسى أنه

(١) بول فبولىه *Histoire des institutions politiques et administratives*

de la France (١٩٠٣) و جورج بىكو

: *Histoire des Etats Généraux de 1355 à 1614* ١٨٧٢ :

(٢) ان وضع النبلاء والاستخدام العرضى لتعبىر « الطبقات الثلاث » فىما يتصل بالبرلمان لا يتعارضان مع هذه الحقىقة ، كما ىثبت بوللار (ص ٦١ و ٨١) . وقد كان لرجال الكنىسة مجالسهم الخاصىة ، ولكهم لم ىحدثوا انشقاقا فى وحدة الأمة .

لم يصير قط نظاما دائما ، بل كان يدعى بواسطة الملك فحسب من وقت لآخر .

وكانت تنافس « مجلس الطبقات » المحاكم العليا في باريس وبعض المدن الأخرى وكان يطلق عليها برلمانات . وكان برلمان باريس يصبو لمركز مجلس الشيوخ الأعلى ، واعتبر نفسه حارس القانون غير المكتوب للمملكة حتى ضد الملك . وقد تألفت من أعضائه مجموعة من المحامين الأرستقراطيين يتوارثون المنصب ، أصلهم في الغالب من البورجوازيين ولكنهم حصلوا على ألقاب نبلاء . وكان نفوذ البرلمانات وهيبتهما كبيرين ، وكان المقعد في برلمان باريس مطمحا يصبو اليه الناس أكثر بكثير من مقعد قصير العمر في مجلس الطبقات . فضلا عن أن مجلس الطبقات كان ينقصه الأساس العريض ومدرسة التدريب السياسي اللذين اتحيا للبرلمان الإنجليزي في الحكم الذاتي المحلي . وفي فرنسا في العصور الوسطى كان هناك عدد من المدن تتمتع باستقلال ذاتي جعلها جمهوريات مستقلة تقريبا . وكثيرا ما عرفت عن أخضاع مصالحها لمصالح الأمة كلها . ولكنها لم تستطع المحافظة على هذا المركز ، وصارت إدارة البلاد كلها أكثر خضوعا لسيطرة الموظفين الملكيين .

وأخيرا من الأسباب الرئيسية في أن الحركة البرلمانية الفرنسية لم تؤد إلى نفس النتائج كما في إنجلترا أن كان هناك عدم ثقة وغيرة بين الطبقات المختلفة . فتحلل المجتمع عن طريق الفيوذالية قطع شوطا أطول في فرنسا بكثير منه في إنجلترا في أي وقت من الأوقات ، واحتفظ النبلاء إلى حد أكبر بكثير بطابعهم كطبقة محاربة متميز . وكان كثيرون منهم يحتقرون الطبقات الوسطى والدنيا . وكانت هاتان الطبقتان تكرهانهما لعجفتهما وقسوتهما . وفي حين اشترت المدن في إنجلترا وثائق يحقها من التاج حصلت المدن في ألمانيا وفرنسا على حريتها بالقتال ضد النبلاء إلى حد كبير ، واحتفظ أبناء المدن بكراسيهم لأعدائهم السابقين . بالإضافة إلى أن النبلاء كانوا شديدي التذمر من الملوك وكثيرا ما استخدموا أشخاصا من أصل أدنى في الوظائف العليا ومنحوم ألقاب النبالة (١) . وكانت رتبة « الطبقة الثالثة » شديدة إلى حد أنها

(١) ان ماثي باريس في « تاريخ إنجلترا » (تعريب جيلز ١٨٥٣ ص ٢٠٢) أورد وثيقة تعبر عن عقلية النبلاء الفرنسيين التمييزية . قال النبلاء يدعون أنهم « الرجال الأول في المملكة لأن المملكة لم تقم بواسطة قانون مكتوب ولا بعجرفة الكتبة بل بمشاق الحرب » ويتهمون الكتبة (الموظفين) بأنهم « اعتدوا على الاختصاص القانوني للامراء »

كثيرا ما رفضت حتى تعيين مندوبين للتفاوض مع الطبقتين المتميزتين (١) . وكان أبناء هاتين الطبقتين بصفة عامة أكثر قدرة على الفهم السياسى وإدراك المصلحة من البورجوازيين ، ولكنهم كانوا هم أيضا يقدمون مصالحتهم الطبقيّة . ومن ثم لم يكن من العسير على الملوك أن يضربوا الطبقات بعضها ببعض . وفى حرب «المائة سنة» فقد النبلاء هيبتهم بسبب الهزائم العسكرية الكبرى والنزاع الأهلى ، وكسبت الطبقة الوسطى فى باريس قوة حاسمة فى مجلس الطبقات (١٣٥٧ و١٤١٣) . وأدى هذا التطور الى حركات ثورية من جانب الجماهير والى الدكتاتورية والارهاب والى خطر اشتعال المجتمع عموما . وكانت النتيجة أن دوائر كبيرة كانت أصلا تعطف على الديموقراطية انتابها الذعر ووضعت ثقتها فى الملكية (٢) . فضلا على أن الملك كان هو وحده الذى يستطيع تخليص البلاد من الغزاة الانجليز ومن اعتداءات الجنود المأجورين الذين يحاربون مع الفرنسيين ، وكان هؤلاء أفضح من الغزاة . ان حرب «المائة عام» دعمت قوة الملكية الى حد كبير جدا . ففي سنة ١٤٣٩ وضع الملك أسس جيش قائم وحصل من مجلس الطبقات على منحة لهذا الغرض وفسرها على أنها ضريبة دائمة . وكانت النتيجة أن الملك ظل فترة طويلة بعد ذلك فى غير حاجة الى دعوة مجلس الطبقات للانعقاد .

وبعد انتهاء الحرب بالانتصار حدث تقارب بين الطبقات المختلفة . ففي «مجلس طبقات» تورفى سنة ١٤٨٤ لم يعد النواب يجلسون منفصلين تبعا لمرتبة كل فئة ، وان كانوا قد انقسموا الى ستة قطاعات سميت «أما» . وحتى الفلاحون كانوا ممثلين . وأعلن فيليب بوت ، سيد لاروش وأحد نواب نبلاء بورجندي ، أن صاحب السيادة هو الشعب ، الذى يضم جميع سكان المملكة ، وأن الملكية وظيفة وتعتمد على الشعب . بيد أن وحدة الطبقات كانت قصيرة العمر جدا ، فقد بدأت مع غزو فرنسا لاي탈يا فى سنة ١٩١٤ فترة من الحرب دعمت الى حد كبير جدا الروح الحربية وروح السيطرة لدى النبلاء وازدراءهم للطبقة الوسطى . وجاءت حركة الإصلاح الدينى فأتاحت لهم لواء جديدا يحاربون فى ظله ضد الملكية لمصلحتهم الخاصة ، فى حين كانت الجماهير

= الى حد أن أبناء العبيد يحاكمون الاحرار طبقا لقوانينهم الخاصة برغم أنه كان من الاولى أن نحاكمهم نحن طبقا لقوانين غراتهم السابقين » .

(١) ج . بيكو «Histoire des Etats généraux» المجلد الرابع ص ٢٠٩

و ٢٩٠ .

(٢) ف . بيرنر «La Démocratie en France au Moyen Age» مجلدان ١٨٧٥ .

العريضة متحمسة للقضية الكاثوليكية . وأدى تعصب الحروب الدينية فى النهاية الى حمل جميع المعتدلين على الرغبة فى اقامة ملكية قوية تنفذ فرنسا من الفوضى .

وفى اجتماع مجلس الطبقات سنة ١٦١٤ - آخر اجتماع قبل الثورة الكبرى - عبرت الروح المتغيرة لدى النبلاء عن نفسها بلا موارد . اذ حدثت مشادات حادة قام بعدها المتحدث باسم الطبقة الثالثة ، رئيس مجلس ميزم ، وقال ان الطبقات مثل ثلاثة أشقاء أبناء أم واحدة هى فرنسا وافر أن النبلاء يتمتعون بمرتبة أسمى ولكنه ناشدهم ألا يحتقروا الطبقة الثالثة التى تضم عددا كبيرا من القضاة والموظفين المبرزين الجديرين بأن تعتبرهم اخوة . وأثار هذا الرجاء ثائرة النبلاء بشدة . وأعرب بعضهم عن أنه لا يمكن أن يكون هناك أى اخاء بينهم وبين الطبقة الثالثة حيث انهم من دم مختلف ومرتبة مختلفة وأنهم لا يقبلون أن يعتبرهم أبناء الاسكافيين أو صانعى الصابون اخوة ، وأن الاختلاف بين الطبقتين هو اختلاف بين السادة والخدم . وذهب وفد من النبلاء الى الملك وقال رئيسه ، بارون دى سينسى ، انه يشعر بالحجل اذ يبلغ الملك أن الطبقة الثالثة جرؤت على تمثيل الدولة بالعائلة المؤلفة من ثلاثة أشقاء . وأن ذلك يعتبر اهانة للنبلاء (١) .

وعندما قامت الثورة الكبرى بذلت محاولة لاعادة مجلس الطبقات للحياة ولكن هذه المحاولات كان لا بد أن تخفق . فلم تكن الطبقات قد التقت منذ ١٧٥ سنة ، ولم يترك هذا المجلس وراءه تقاليد ومشاعر يمكن أن تستجيب لحاجات الوقت . ان الملكية دعمت الاعتزاز القومى بالوحدة وبقوة فرنسا ومجدها . ولكن ذلك لم يكن بديلا للتدريب البرلماني ، وبصفة خاصة ، لتربية المواطنين على التضامن عن طريق البرلمان . فلم يكن أمام الساعين لخلق نوع جديد سام من الوطنية القومية سوى أن يبدؤوا من مبادئ عامة ووجهة نظر مثالية فى الطبيعة البشرية والمجتمع . ولم يؤد هذا المدخل الى خلق أمة متحدة . فسرعان ما تحولت الثورة الى صراع وحشى بين الطبقات والأحزاب وانتهت بالفوضى وقيام الاستبداد العسكرى الذى أعقبته سلسلة من الانتصارات والهزائم والثورات المضادة . وترجع أسباب هذا التطور الى جذور فى الماضى البعيد .

ولم تكن الامبراطورية الألمانية تملك برلمانا مركزيا ، اذ أن المجلس

«Histoire des Etats généraux» ١٨٤٤ المجلد الثالث

(١) ١ . ثيبودو

ص ١٢١ .

الامبراطورى « الدايت » لا يستحق هذا الاسم . فقد كان أساسا جمعية من الأمراء وكانت السلطة كلها تقريبا فى يد بعض حكام قليلين . ولم يعد « فرسان الامبراطورية » يشتركون فى الاجتماعات بعد سقوط أسرة ستاوفر . ومن الناحية الأخرى بدأ عدد من المدن يشترك فيه فى القرن الثالث عشر ، ولكن هذه المدن ظلت أمدا طويلا محرومة من حق التصويت ولم يكن لها وزن كبير فى أى وقت من الأوقات فضلا عن أن التعصب الفيودالى كان متأصلا فى المدن نفسها بحيث أنها كانت عازفة تماما عن التقدم بأية تضحية من أجل المصالح القومية . ولكن مجالس (دايت) نمت فى الأقطار المختلفة التى كانت ألمانيا تتألف منها ، وكثيرا ما اتخذت هذه المجالس طابع البرلمانات . وقد أسهمت فى نمو الولاء الاقليمى الذى كان عقبة الى حد كبير فى سبيل ظهور فكرة الجنسية الألمانية الموحدة . وفى حالات كثيرة كانت هذه المجالس تخدم أساسا المصالح الانانية للطبقات المتميزة ثم أخذت فى نهاية الأمر أو أسكنت عندما حصل الحكام على السلطة المطلقة (١) .

٤ - أثر الحرب فى تكوين الأمة والتقاليد القومية الأساسية :

لقد تكونت الأمم الكبيرة الحديثة الى حد كبير بواسطة الحروب ، بعضها عن طريق الغزو وبعضها عن طريق الاندماج تحت التهديد بالغزو . بالإضافة الى أن كل أمة كونت شخصيتها فى حروب كبرى ، وتأثرت الأيديولوجية القومية والطابع القومى فى كل مكان بهذه الحروب تأثرا عميقا . فقد كان الاقليم واللغة والدين والمدنية وأفكار الشرف والمصلحة القومية وتنظيم الدولة وبناء المجتمع الى حد كبير نتاج حروب دائما (٢) . وكانت الحرب ضد الأعداء الخارجين فى جميع العصور تعتبر من جانب الطبقات القوية أفضل علاج ضد النزاع الداخلى . والواقع أن

(١) ف . هارتونج «Deutsche Verfassungsgeschichte» ١٩٢٢ ص ٤٣ و ٥٤ . و ج . فون بيلو «Territorium und Staat» ١٩٠٠ . و م . سبانجبرج «Vom Lehestaat Zum Standestaat» ١٩١٢ ، و ف . و . أونجر «Geschichte der deutschen Landstände» ١٨٤٤ .

(٢) وقد أكد أرسطو فعلا العلاقات بين التنظيم العسكرى والاجتماعى والسياسى ، انظر « السياسة » المجلد ٣ ، ١٠ والمجلد ٤ الخ . وقد أكد هانز دلبروك تأثير الحرب على البناء السياسى فى مؤلفه العظيم «Geschichte der Krigskunst im Rahmen der Polit. Geschichte» ستة مجلدات ، وكذلك فعل تلميذه اميل دانيلز فى مؤلفه «Geschichte des Kriegswessen»

حروبا لا حصر لها أشعلت لآخامد التفكك الداخلى أو تجنب خطره ، أو لدمج عناصر مختلفة فى وحدات قومية أكبر عن طريق إثارة الكراهية المشتركة والاعتزاز المشترك . ومن ثم يمكن القول بأن الحرب أكبر أداة للتوحيد القومى لولا أنها تدعم أيضا نمو قوى كثيرة ما تنطوى على تهديد جديد للوحدة القومية . والمثل النموذجى لذلك هو حرب «المائة عام» بين انجلترا وفرنسا . فهى بلا شك دعمت الوحدة القومية لدى الجانبين ، كما أدت أيضا الى نمو تقاليد قومية أساسية . ولكن فيما بعد كان للفرسان والجنود الانجليز الذين عادوا من الحرب نصيب كبير فى «تمردات» الفلاحين وحروب «الوردتين» الداخلية . وفى كلا البلدين تطلب الأمر يد الملكية القوية لاعادة الوحدة والسلام .

والحروب الكبرى التى تمس المصالح الحيوية للبلاد تؤدى عادة الى تركيز السلطة فى أيدي الحكام والى سيطرة العنصر العسكرى على المدنى فيها . والنتيجة تقييد للحرية ، وبخاصة حرية القول ، والمطالبة بالطاعة العمياء وظهور الحكم الدكتاتورى . ومن الناحية الأخرى ترغم الحروب الكبرى أيضا الحكومات على طلب مساعدة دوائر أوسع ، بل والى الالتجاء الى الشعب ككل ، ويعمل ذلك على زيادة فى الحقوق الشعبية والمساواة الاجتماعية . ومن ثم فإن الحروب تنطوى على اتجاه ديمقراطى واتجاه مضاد للديموقراطية .

وفى بلاد كثيرة أثرت الحروب الى حد كبير فى عقليات الطبقات الحاكمة والنشيطه سياسيا والتى تمثل الأمة وتحدد مصيرها . وقد كان أهم فرق بين الظروف فى انجلترا والظروف فى القارة هو أن النبلاء الانجليز لم يعودوا فئة حربية متميزة منذ وقت مبكر جدا . فقد أظهرت الفيودالية بين الانجلو ساكسون منذ مبدأ الأمر أنها ذات طابع أقل عسكرى من طابع الفيودالية فى امبراطورية الفرنك (١) . وقد غزا النورمانديون انجلترا بسبب تفوقهم فى النظام العسكرى الى حد كبير ،

(١) كان الفرسان من الفرنك جنود محترفين مدربين خصيصا على الحملات فى البلاد البعيدة . وقد كانت هناك اختلافات كثيرة بين فيودالية الفرنك وفيودالية الساكسون . انظر ويستز «التاريخ الدستورى» المجلد الاول الفصل السادس ص ٦٥ والفصل التاسع ص ٩٣ . وكذلك بول فينوجرادوف «الجموع الانجليزى فى القرن الحادى عشر» . وفى عدة أماكن من كتاب س . م . ستون «القرن الاول من الفيودالية الانجليزية» ١٩٣٢ . وف . ليبرمان «Gesetze der Angelsachen» ١٩٠٣ المجلد الثانى . وكذلك ه . دلبوك «Geschichte der Kriegskunst» المجلد الثالث .

واحتفظ كثير منهم بروحهم الحربية قرونا طويلة . ومن الناحية الأخرى يبدو أنهم جلبوا معهم تقاليدا جعلتهم يساعدون الملوك فى وضع أسس الدولة الحديثة . فقد أحيا الملوك الميليشيا الوطنية القديمة وشجعوا على تجريد النبلاء من طابعهم الحربى بتحريم النظام الفيودالى والقلاع المحصنة وبتحويل الخدمات الفيودالية الى مبالغ من المال استخدموها فى تأجير الجنود المرتزقة . بيد أن النبلاء كانوا دائما يخشون ما ينطوى عليه وجود جيش ملكى قوى من خطر على سلطتهم ولهذا حاولوا أن يمنعوا نموه ، وعارضوا بصفة خاصة استخدام المرتزقة الأجانب . ويبدو أن كثيرين من النبلاء الانجليز سرعان ما صاروا أكثر اهتماما بإدارة ضياعهم وبالسياسة منهم بالحرب (١) . وقد دفع الملك ادوارد الأول ظهور المشاعر القومية دفعة كبرى بتنظيمه للبرلمان النيابى وبحروبه الكبيرة التى استعملت فيها أساليب عسكرية جديدة . وسار ادوارد الثالث على نفس السياسة بشقيها بنجاح مدهش . وقد كتب بتراركا فى خطابه : «عندما كنت صغيرا كان الانجليز يعتبرون أكثر البرابرة تهيبا ، ولكنهم الآن قد هزموا الفرنسيين المعروفين بميلهم الى القتال » (٢) . وتدل هذه الملاحظة على أن الانجليز قبل الحرب الفرنسية كانوا يعتبرون شعبا غير عسكري نسبيا . وقد شنوا الحروب الفرنسية بجنود جمعوا من جميع المراتب لا بجيوش فيودالية كما فعل الفرنسيون . وفى التاريخ الانجليزى اللاحق كانت هنا عوامل تزداد قوة جنحت فى المدى الطويل الى تثبيط النزعة الحربية ، وهى : البرلمان والمصالح التجارية والروح المسيحية

(١) وقد سبقت انجلترا جميع البلاد « باستثناء أسبانيا العربية » فى التقدم الزراعى كما يظهر من البحوث فى الفلاحة التى كتبها فيلنا ووالتردى هينلى وجروسنته وفيتز هيربرت . وبدل كتاب والتردى مينلى « الفلاحة » على أنه كان هناك فى بداية القرن الثالث عشر لوردات مهتمون بالأساليب الجيدة فى الانتاج ومسك الدفاتر ولا يتركون إدارة ضياعهم كلها لأعوانهم . وقد بدأت الأمم فى القارة بعد ذلك بوقت طويل فى انتاج كتب مماثلة ، وحتى عندئذ كانوا يستعملون فى مبدأ الأمر أساليب الاغريق والرومان القدماء كما جمعها الرهبان أو حفظها كتاب يبيزطة . وبدأت البحوث الألمانية والفرنسية المهمة فى القرن السادس عشر ولكنها كانت تنصب أساسا على تربية الحيوانات وعلاج جروح الخيل . أنظر لك . فراس

Landbau — und Eorsturssenschaft. ١٨٦٥ ص ٣١ و ٤٢ و ٤٥ وبين
«Théâtre d'Agriculture» الكتاب الفرنسيين كان كتاب أوليفيه دى سيريز
يسئل تقدما ملحوظا (١٦٠٠) . أنظر أ . راميو
Française» ١٩١١ المجلد الاول ص ٤٩٤ .

(٢) ه . و . ك ديفز « انجلترا فى عهد النورمانديين والانجليين » ص ١٠٣ .

والثحررية • وكان البرلمان أحيانا ذا نزعة حربية أكثر حتى من الملك ، ولكنه كان بصفة عامة معارضا بشدة فى تكوين جيش كبير لأنه رأى فيه خطرا محتملا لسيطرته •

أما فى فرنسا وألمانيا فإن النبلاء احتفظوا بطابعهم كفتنة محاربة أكثر بكثير مما حدث فى انجلترا • وفى كلا البلدين لم تكن الحروب الكبرى ضد الأعداء الخارجيين هى وحدها التى حافظت على الروح الحربية، بل كذلك الحروب والنزاعات الداخلية المستمرة • وقد بذلت الكنيسة والملوك محاولات كثيرة للحد من هذه المنازعات ولكنهما ظلا أمدا طويلا بلا نجاح يذكر • ففي ألمانيا أدى انهيار السلطة الامبراطورية فى إيطاليا الى حرمان الفرسان من الخدمة الامبراطورية ودفعهم ذلك الى أحضان الفقر مما حولهم الى قطاع طرق ، وظلوا قرونا طويلة يرتكبون أشد الفظائع ضد الشعب الألماني • وكان من أثر ذلك أن الفرسان والطبقة الوسطى صاروا عدوين لدودين بحيث انتشرت روح العنف بين جميع الطبقات ، وصار التوتر الاجتماعى بين الطبقات العليا والدنيا أكثر حدة من أى بلد آخر • ومن بين الأسباب الرئيسية التى حالت دون قيام برلمان مركزى فى ألمانيا أن الفرسان تحولوا الى طبقة من قطاع الطرق بحيث لم يعودوا صالحين لتولى القيادة السياسية • وكان الأساقفة الألمان فى الغالب من النبلاء وقد انتشرت بينهم هذه الروح الحربية والقسوة بشكل عميق ، وأدى عدم وجود سلطة مركزية قوية الى صراع طبقي وثورات مستمرة • وفى المدن قلب التجار ورجال المال حكم الأساقفة والنبلاء وبعد ذلك قلب الحرفيون حكم التجار ورجال المال • وكان الفلاحون كثيرا ما يقومون ضد سادتهم ويهزمون ويعاقبون بقسوة • وجاءت الكراهية بين البروتستانت والكاثوليك فزادت من حدة العداء العقلية ، وهى السبب الرئيسى فى أن ألمانيا تخلفت كثيرا عن الأمم الأخرى فى طريق الوحدة القومية والحرية • ففي فرنسا أعيدت الوحدة القومية واتسع نطاقها فى آخر الأمر بتقدم الحكم الملكى المطلق ، وإن كان ذلك على حساب الحرية • أما فى ألمانيا فقد كانت السلطة المطلقة للأمراء الاقليميين هى التى نجحت بالتدريج فى القضاء على الفوضى وإعادة حكم القانون ، وإن كان ذلك على حساب الوحدة والحرية •

ولم تغب الفوارق القومية فى وضع الطبقات وعقلياتها وفى أثرها على الطابع القومى عن بال كتاب العصور الوسطى • فقد شكوا جون أوف

سالمسبورى (فى القرن الثانى عشر) من عدم كفاية القواد الحربيين الانجليز وتكاسلهم فى الصراع مع أهل ويلز « الهمج » الذين كانوا يعيشون فسادا فى الأقاليم الانجليزية ، وأشاد بالقدرة الحربية السابقة لدى الانجليز وقال انه يمكن استعادتها بالتدريب والنظام العسكرى (١) . واستشهد برأى البابا يوجينىوس الثالث من أن الانجليز مؤهلون بالطبيعة أكثر من أى ناس آخرين للقيام بأى عمل يقبلون عليه لولا رعوتهم . والواقع أن الانجليز لم يكونوا فخورين بقوتهم العسكرية ، بل بحريتهم و ثرائهم ومرحهم . ان اشادة هنرى هنتنجدون بانجلترا بوصفها بلدا حرا ومرحا وثرىا وكريما ترددت أصدائها فى كتابات عدد كبير من الكتاب الانجليز ، وقد قبل الأجانب أيضا وجهة النظر هذه (٢) .

وكانت مصالح الطبقات الدنيا فى انجلترا تحظى بحماية من المحاكم الملكية فى انجلترا أكثر من البلاد التى كانت فيها السلطة المركزية ضعيفة . وكان ذلك ملاحظا بصفة خاصة فى ممتلكاتهم الفرنسية ويفسر شعبية الحكم الانجليزى فيها . وقد كتب كونت أومانياك غاضبا الى هنرى الثالث بأن التجار والأجلاف لا يسيطرون على النبلاء فى أى مكان فى الدنيا كما هو الحال فى الاقليم الخاضع للملك . ويقول فرواسار : ان النبلاء الانجليز كانوا على شهامة وولاء فى حين كان الحرفيون والناس العاديون

(١) الواقع انه فى الحروب الفرنسية كان الاهتمام شديدا بالتدريب العسكرى للشعب كله . وفى سنة ١٣٧٧ وسنة ١٤٧٧ حرمت جميع أنواع الرياضة باستثناء رياضة القوس والسهم التى جعلت تدريبا اجباريا . وقد استمر هنرى الثامن فى هذه السياسة . أنظر ج . كولتون « الحياة الاجتماعية فى بريطانيا من الغزو حتى الإصلاح الدينى » سنة ١٩١٩ ص ٣٩٧ .

(٢) جورج اسكولى « بريطانيا العظمى أمام الرأى العام الفرنسى منذ حرب المائة عام حتى نهاية القرن السادس عشر » ١٩٢٧ ص ٣١ . وقد جمع اسكولى أيضا كثيرا من الآراء الفرنسية الأخرى فى الانجليز فى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى . ويتحدث فرواسار ، الذى يعرف انجلترا جيدا ، عن عادة الانجليز فى امتاع أنفسهم بطريقة مقبضة وهو يمزو ذلك الى مزاجهم الخيالى الحالم . ويفسر بيري دى سيل هذا بتأثير المياه المحيطة بهم . وقد وصف الانجليز أيضا بأنهم يشربون البيرة كثيرا وأنهم مغرمون باستعمال الألفاظ الشديدة وبأنهم سذج وحركتهم بطيئة وبدون رشاقة ، ولكنهم أيضا أغنياء وكرماء ويزددون الامم الأخرى كلها . وبعد غزوهم فرنسا اعترف الفرنسيون بشهامتهم . وان كانت مقرونة بالقسوة . وأيا كان الامر فانهم عاملوا أسراهم معاملة سليمة ولكنهم كانوا يهتمون بالاسلاب أكثر من اهتمامهم بأعمال الفروسية . وبعض هذه الصفات ذات مغزى فيما يتعلق بالنزعة القومية الشعبية لدى الجيش الانجليزى .

قساة وخطرين ومتعجرفين ولا يدينون بولاء ، وأن النبلاء كانوا يتلهفون على المحافظة على علاقات طيبة معهم . فكانوا لا يطلبون من الشعب سوى ما هو معقول ولا يجزؤون على أخذ بيضة أو فرخة دون أن يدفعوا ثمنها . وفي القرن الخامس عشر أبدى فيليب دى كومين ، مستشار الملك لويس الحادى عشر ، اعجابه بالبرلمان الانجليزى وأشار الى أنه لا يوجد بلد آخر تدار شئونه العامة بطريقة أفضل ويتعرض الشعب فيه لعنف أقل . ورسم سيرجون فورتسكيو بفخر صورة الملكية الدستورية فى انجلترا وقارنها بالحكم الفرنسى المستبد . وفى حين كان الشعب فى فرنسا يتعرض لاضطهاد فظيع على يد الجنود وللتصرفات التعسفية من جانب الحكومة، كان الشعب الانجليزى يعيش فى أمن ويتمتع بغذاء وكساء أفضل من أى شعب آخر .

وكان الفرسان الألمان والفرنسيون يتنافسون بعضهم مع بعض ويتباهون بتفوقهم فى القتال . ومع ذلك فقد بدا الألمان للأمم الأخرى محاربين قساة بصفة خاصة . ويعلن جون أوف سالسبورى بمرارة عجرفة الألمان ويقول عن الامبراطور فردريك الأول : انه « طاغية تيوتونى » (١) . ويشير أيضا الى الملك لويس السابع فى فرنسا الذى كان موضع ازدراء الألمان المقيمين فى باريس لأنه كان يعيش مثل مواطن بين شعبه ولم يظهر فى الأماكن العامة بحراسة الجنود مثل الطاغية الذى يخشى على حياته ، ويقص والترماب قصة يصور فيها الملك الانجليزى متصفا بالثراء والامبراطور الألمانى بالقوة الحربية والفرنسيين بحب التمتع بالحياة . وهناك بحث يستحق الاهتمام كتبه ألمانى فى سنة ١٢٨٨ ، لعله اسكندر أوف روزس أو جوردانوس أوف أوسنابروك (٢) ، يناقش فيه الاختلاف فى الطابع القومى . ويقول المؤلف : ان الإيطاليين تحكمهم غريزتهم الاقتصادية ، والألمان تحكمهم شهوتهم للسيطرة ، والفرنسيين يحكمهم شغفهم بالمعرفة . ويؤدى ذلك الى سيطرة الشعب فى إيطاليا والمحاربين فى ألمانيا ورجال الدين أو العلماء فى فرنسا . وكل أمة فيها سمات طيبة وأخرى سيئة تقابل الاتجاهات الأساسية لدى الطبقة الحاكمة، ومعاييرها . ويصف المؤلف هذه السمات بتفصيل كبير ، ولا تزال بعض ملاحظاته متفقة مع آراء يعتنقها الكثيرون اليوم .

(١) كليمنت ويب « جون أوف سالسبورى » ١٩٣٢ ص ١٢٧ .

(٢) ف . ويلهم « Mitteilungen des Instituts für Österreichische Geschichtsforschung » ١٨٩٨ .

وعند نهاية العصور الوسطى كان الفرسان الألمان ، طبقا لما يقوله فرواسار ، ذوى سمعة سيئة جدا بالقسوة على أعدائهم واهمال قواعد الفروسية . ويصف فيليب دى كومين العدد غير العادى من الفرسان قطاع الطرق فى ألمانيا وقسوتهم وعدم خوفهم من الأمراء ، حيث أن الأمراء كانوا فى حاجة لخدماتهم الحربية فى حروبهم . وفى سنة ١٥١٩ كتب ايرازموس الى صديق يقول : انه اكتشف وحوشا بين المسيحيين ما كان يعتقد أنهم يوجدون . ويرجع بعض الفوضى فى ألمانيا الى العنف الطبيعى فى الجنس ، وبعضه الى انقسامه الى عدد كبير من الأقطار المنفصلة ، وبعضه الى ميل الشعب الى العمل كجنود مرتزقة (١) . وقد استمر هذا الميل عدة قرون بعد ذلك .

وقد أدت الحروب الداخلية وعدم الأمن اللذان سادا فرنسا وألمانيا فى العصور الوسطى الى انشاء مناطق كثيرة محصنة يلجأ اليها الناس تحولت فيما بعد الى مدن ، وقد عملت عوامل أخرى أيضا على نمو المدن . فضلا عن أن التفكك الفيوالى للحكم المركزى أتاح لعدد كبير من المدن فرصة اكتساب استقلال يكاد يكون جمهوريا . وقد بلغت هذه الحركة أقصى مداها فى ألمانيا حيث كان حكم العنف وضعف الحكومة ملحوظين بصفة خاصة ، فى حين أن ظهور القوة الملكية فى فرنسا أعاد السلام بصورة متزايدة وحد من الاستقلال الذاتى للمدن . أما فى انجلترا ، حيث كانت الأحوال أكثر سلاما فقد تأخر نمو المدن عنه فى ألمانيا ، باستثناء لندن ، وكانت المدن الانجليزية باستمرار تحت السيطرة الحازمة للحكومة المركزية . وقد حققت بعض مدن الجمهوريات الألمانية درجة كبيرة من النمو فى الثراء والمدنية أثارت أكبر اعجاب لدى المراقبين الأجانب ، مثل آينياس سيلفيوس وميكافلى وبودان . وقد قام التجار الألمان لفترة ما بدور رئيسى فى التجارة والشئون المالية الانجليزية ، الى حد أن ادوارد الثالث ارتهن التاج الانجليزى لديهم مقابل قرض . بالإضافة الى أن كثيرا من المدن الألمانية صارت مقرا للصناعات وتفوق الألمان فى كثير من الحرف والمصنوعات . وقد عبرت الاختلافات الأساسية فى التكوين الاجتماعى لدى الأمم عن نفسها أيضا فى مجال التطور الصناعى . ففى ألمانيا أدى الطلب الكبير على الدروع والسيوف وأدوات

(١) ت . ا . فرود « حياة ايرازموس وكتاباتة » ١٨٩٥ ص ٢٦٠ .

الحرب الأخرى ، مع وجود الظروف الطبيعية الملائمة (١) ، الى تشجيع ظهور صناعات الحديد والمعادن وكذلك التعدين والآلات لهذه المنتجات . وصارت مدينة نورمبرج الحرة أول مكان في أوروبا للمنتجات الميكانيكية . وفي انجلترا شجعت الظروف الطبيعية والاجتماعية على ظهور رعى الأغنام ، وصناعة الملابس فيما بعد - وفي فرنسا كان صعود الملكية مرتبطا بنمو المدفعية لأجل الجيش الملكي ، وكذلك نمو الصناعات الكمالية للبلاط والارستقراطيين مثل الحرير والزجاج والحرف . وما زالت السمات القومية المميزة في ميدان الصناعة التي نمت منذ قرون مضت تميز الى حد ما الحياة الاقتصادية للأمم حتى يومنا الحاضر .

٥ - نمو النزعة العسكرية الحديثة

ان النزعة العسكرية من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور النزعة القومية الحديثة . ويستعمل مصطلح « النزعة العسكرية » عادة بطريقة مبهمة ومضللة مثل الطريقة التي يستعمل بها مصطلح « النزعة القومية » . ويكاد المفهومان يأخذان أحيانا معنى واحدا ، وأحيانا أخرى يفصلان تماما كما هو الحال مثلا عندما يطلق على غاندى أنه داعية قومي برغم أنه معارض تماما في أى نوع من النزعة العسكرية . والنزعة العسكرية لا تعتبر من وجهة نظر علم الاجتماع مجرد نزعة قومية ، ولا مجرد الاحتفاظ بجيش قوى ، ولا حتى اتباع سياسة قد تؤدي الى الحرب . فالنزعة العسكرية في اصطلاحنا يقصد بها مجموعة معينة من الأفكار والمشاعر المتصلة بالسياسة والحياة الاجتماعية (٢) . وأحد جذورها التاريخية هي الروح الحربية القديمة كما تمثلت في تقاليد الطوائف الحربية المتميزة ومثلها العليا . وكانت هذه الروح تنطوى على مجموعة معينة من قواعد الشرف محورها هو هيبية المحارب ومذهب البطولة الحربية والدم النبيل ورموز معينة مثل العلم والسيف ، ثم الزى العسكري والمبارزة وما اليها وكذلك الاعتقاد في ان الحرب مهنة جديرة بالرجل النبيل وازدراء العمل اليدوى والتجارة وادعاء

(١) في العصور القديمة كانت أهم المواد لافران المعادن هي الفحم والخشب ، ولطرقها هي القوى المائية . وكانت ألمانيا أغنى من انجلترا كثيرا في الغابات وفي القوى المائية ، ويفسر ذلك أيضا نموها المبكر في الصناعات الميكانيكية .

(٢) ان أشمل وأفيد كتاب في الموضوع هو كتاب الفرد فاجت « تاريخ النزعة العسكرية » ١٩٣٨ .

الحق فى مركز متميز ، ونبذ « المعايير البورجوازية » والاتجاهات الديمقراطية والمساواة . وقد تعدلت هذه الروح بنمو الأساليب الحربية والتنظيم السياسى . وفى حين كانت الطريقة القديمة هى القتال بين فرسان أفراد ، صارت الحرب الجديدة تقوم على القتال المنظم بين كتل من البشر . وحل الضابط محل الفارس المدرع . ولم تعد الشجاعة والقوة الشخصية هما العامل الحاسم ، بل التكتيك والاستراتيجية وأساليب القتال الفنية والتأثير فى رأى العام . فقد ظهرت عقلية جديدة تقدر صفات وأساليب غريبة تماما على روح الفروسية ، مثل وحدة القيادة والخضوع التام والطاعة الميكانيكية والاستراتيجية الماكرة والدعاية السياسية ومبادئ ضرورات الدولة والازدواج فى معايير الفضيلة . وتتكون النزعة العسكرية الحديثة من خليط من معايير الفروسية والعقلية التكنولوجية الجديدة وتطبيقاتها السياسية . بالإضافة الى أن النزعة العسكرية تحالفت فى الأزمنة الحديثة مع النزعة القومية ، واكتسب كلاهما قوة هائلة عن طريق هذا التحالف .

وقد كانت النزعة الحربية فى العصور الماضية أساسا اتجاهها مهنيا محصورا فى الجنود المحترفين . فالفرسان الذين يعملون مقابل أجر والضباط المغامرون والمرتزة والمغامرون العسكريون الآخرون لم يكن لديهم ولاء لبيت مالك أو لقومية معينة ، وإن كانت لديهم عقلية خاصة ومجموعة من قواعد الشرف . وقد خلق الملوك فيما بعد نزعة عسكرية مرتبطة بالبيوت المالكة كثيرا ما انطوت أيضا على بعض السمات القومية ، فى حدود ما كان الملك والنبلاء يمثلون الأمة . بيد أنه مضى وقت طويل قبل أن تصبح النزعة العسكرية ذات طابع قومى كامل أدى بعض الأمم . وفى حرب « المائة عام » أثبت الجيش القومى الانجليزى تفوقه على الجيش الفيودالى الفرنسى . وقد أبدى النبلاء الفرنسيون ازدياد شديدا نحو معاونى الملك الذين من أصل غير نبيل وعارضوا دائما تسليح الناس العاديين حيث كان ذلك يعتبر مصدرا لخطر على مركز النبلاء . وفى القرن الخامس عشر ابتكر السويسريون تكتيكات جديدة للمشاة تفوقت على تكتيكات كل الدول الأخرى . وظهرت نزعة عسكرية عدوانية سويسرية فترة ما ، وإن كان السويسريون فى الغالب قاتلوا كجنود مأجورين لملوك أجانب . وفى القرن السادس عشر كان الاسبانويون متفوقين فى فنون الحرب وكذلك فى النزعة العسكرية ، وفيما بعد أسهم الهولنديون بنصيب كبير فى التكتيك الحربى . وفى القرن السابع عشر تفوق الفرنسيون فى كلا الميدانين . وقد مهد لويس العظيم

السبيل لفردريك الأكبر . وتفوقت انجلترا على كل منافسيها فى تنمية قوتها البحرية .

وكان الحدث الحاسم فى تاريخ النزعة العسكرية ظهور براندنبرج - بروسيا فى القرن السابع عشر والثامن عشر (١) . ففى العصور الوسطى أسس الفرسان التيوتونيون دولة فى بروسيا ذات ادارة وجيش منظمين تنظيماعاليا، ومن المحتمل أن ذكرها أسهمت فى خلق الروح البروسية اللاحقة . وفى القرن السابع عشر بدأ « المختار الأكبر » فردريك وليام سياسة توسعية طموحة لا تحفل بالمبادئ فنظم قوة عسكرية لتحقيق أهدافه . ونجح هو وخلفاؤه ، وبخاصة الملك فردريك وليم الأول والملك فردريك الثانى ، فى بناء آلة حربية عالية التنظيم ونظام ادارى ومالى محوره زيادة القوة العسكرية . وأهم سمة فى هذا النظام هى مركز الملك بوصفه القائد العسكرى الأعلى والدكتاتور الذى لاحد لسلطته . وقبل فردريك الثانى كان أكبر نموذج للسعى الى المجد العسكرى والقوة الحربية هو لويس الرابع عشر ، ولكن الملك نفسه لم يقد جيوشه باستمرار ، وكانت سلطته كدكتاتور أقل بكثير من سلطة فردريك . ففى بروسيا كان الملك جنديا أولا ، وكان الجيش أساس الدولة ، وكان ضابط الجيش يعتبر أسمى بكثير من أى مدنى . وصار فردريك الثانى أكمل ممثل لسياسة مكيافلمية بلا مبادئ مطلقا أساسها مقتضيات الدولة . وقد سرد مبادئه لحلفائه فى (وصيته) السياسيتين اللتين كتبهما فى سنة ١٧٥٢ وسنة ١٧٦٨ : « ان أفضل طريقة لاختفاء مطامع المرء السرية هى اعلان النيات السلمية حتى تحين اللحظة الملائمة لاطهار المقاصد الحقيقية » . وهناك حافزان يحكمان الناس: الخوف من العقاب والامل فى المكافأة . والجندى العادى يجب أن يوجه أساسا بواسطة الخوف . فهو يجب أن يخاف من ضابطه أكثر مما يخاف من جميع مخاطر المعركة . بيد أن الضباط يجب أن يكونوا مدفوعين بالطموح . والنبلاء وحدهم هم الذين لديهم احساس بالشرف ، ومن ثم فيجب أن يكونوا الأساس الذى تقوم عليه الدولة . وكانت الجنسية شيئا غريبا تماما بالنسبة للملك . بل ان سياسته كانت مناهضة للقومية صراحة ، وكان يتصور ألمانيا فى صورة تستبعد بعض أجزائها . وكان لا يكاد يعتبر الطبقة الوسطى جزءا من الأمة . وكانت الطبقة الوحيدة التى يثق فيها هى طبقة الضباط ، ولا يمكن أن يصير انسان ضابطا الا الذى من

(١) فيما يتصل بالتفاصيل والمراجع انظر ف . هيرتز Nationalgeist und Politik ١٩٣٧ المجلد الاول ص ٦٤ .

اصل نبيل . وقد منحت هذه الطبقة امتيازات غير عادية فى حين عومل
الجندى العادى بوحشية وازدراء .

وصار فى وسع الملك ، بتركيز كل القوة فى يديه ، أن يحقق أيضا
اصلاحات مفيدة ، وان كان كثير من الانجازات التى يعزوها اليه المعجبون
به أسطورية . فاعلان فردريك لآراء متنورة واتصاله بفولتير وبعض
المفكرين الفرنسيين الآخرين أكسباه مديح عدد كبير من المثقفين ، وان كان
كثيرون من كبار الكتاب الألمان فى ذلك الوقت ينظرون اليه بنفور أو
بمشاعر مختلفة . وعندما توفى الملك دهش ميرابو لأن أحدا فى برلين لم
يحزن عليه . فلم تسمع كلمة أسف أو اشادة ، فكل الناس كانوا قد
سئموا الملك تماما ، وكانت المعتقدات الجمهورية قد انتشرت الى حد كبير
بين الطبقات المتعلمة فى بروسيا فى سنواته الأخيرة . وبرغم أن فردريك
لم يبد اهتماما قط بالجنسية الألمانية فإنه صار فيما بعد معبود النزعة
القومية الألمانية ولا ينطق باسمه أبدا فى ألمانيا الحديثة الا مقرونا بلفظ
« الأكبر » .

ولم تكن النزعة العسكرية البروسية قد صارت بعد قومية عندما
نشب الصراع بين بروسيا ونابليون ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت
الى كارثة فى هذا الصراع . فمما لاريب فيه أن الدكتاتور الفرنسى كان
أيضا من ذوى النزعة العسكرية صراحة ، وقد أدلى باعترافات متميزة
فيما يتعلق بذلك . ولكنه كان قد عاش فى مدرسة الثورة وتعلم أن
يستخدم مبدأ المساواة فى أغراضه . وأولئك الذين من أصل غير نبيل
كانت لديهم نفس الفرص التى لدى النبلاء تحت حكمه ، وكانت الخدمة
المدينة تحظى بمركز أكرم فى عهده مما كانت فى عهد فردريك . ومن ثم
فان نزعة نابليون العسكرية كانت قومية . وقد أدار رهوس الجماهير
فى فرنسا باثارة الاحساس بأنهم « الأمة العظيمة » . وبعد موته مثلته
الأسطورة النابليونية كصديق للشعب والحرية والجنسية ، ونجحت فى
ذلك الى حد كبير جدا .

وأدت هزيمة بروسيا فى صراعها مع نابليون (١٨٠٦) الى الحط
كثيرا من قيمة النظام العسكرى والى اعادة تنظيم الدولة من أساسها بروح
تحررية . وكان للبارون فون شتاين نصيب كبير فى ذلك (١) . وبذلك

(١) ج . ر . سبلى « حياة شتاين ووقته » ٣ مجلدات ١٨٨٠ ، ول . ليهمان
«Freiherr vom Stein» ثلاثة مجلدات ١٩٠٢ - ١٩٠٥ .

استطاعت بروسيا أن تحظى بعطف على نطاق واسع بين العناصر التقدمية في جميع أنحاء ألمانيا ، وأن تتولى القيادة فيما بعد في اقامة وحدة قومية قوية . وصارت النزعة العسكرية البروسية أيضا قومية بالتدريج ، رغم أنه كانت هناك مقاومة كبيرة تطلب الأمر التغلب عليها . فقد ظل الملك وطبقة اليوتكرز أمدا طويلا ضد تسليح الشعب كله بسبب ما تتعرض له سلطتهما من خطر محتمل من جراء ذلك ، كما نبذ الاحرار التجنيد الاجبارى على أساس أنه أمر معاد للمدنية . وكان جنائسنو هو الذى دعا الى « تحالف بين الحكومة والأمة » والى قيام الشعب ضد السيطرة الفرنسية . واعترض الملك فى أول الأمر على أساس أن الحرب الثورية الشعبية ليست ممكنة الا اذا كانت الأمة من الأمم التى وهبت الذكاء ، أما فى ألمانيا فانها تؤدى الى الفوضى (١) . وكان جنائسنو وكلاوسفيتز أيضا من الدعاة الممتازين لفلسفة فى النزعة العسكرية تقوم على فكرة دوجماسية هى أن الحرب لا بد منها بين الحين والحين لتجديد معنوية الشعب . ولم تستعد النزعة العسكرية كامل سلطتها على بروسيا ثم على ألمانيا الا بعد انتصارها على ثورة ١٨٤٨ وانتصارها فى الحروب التى شنّها بسمارك من أجل التوحيد القومى . وقد أدت سياسة بسمارك الى زيادة ضخمة فى النزعة القومية العدوانية الألمانية التى بلغت حدا تجاوز بكثير أهدافه ووجهة نظره (٢) .

٦ - نمو الحرب الشمولية وأثره فى السياسة

لم تكن الحرب فى العصور الماضية تعتبر بأى حال من شئون الشعب كله ، كما لم تكن الدولة على استعداد على استخدام كل قواها فى الحرب أو لديها القدرة على ذلك . واذا كانت الحرب كثيرا ما عرضت الجماهير لمعاناة بشعة فان ذلك كان يرجع أساسا الى أن الحكام لم تكن لديهم قوة

(١) أنظر أ . هرمان فيما يتصل بدور الملك فى اصلاح الجيش فى «Historische Vierteljahrsschrift» ١٩٠٨ . ويصف هانز بينكو «Der Kampf gegen die Institution des Stehenden Heeres in Deutschland, 1815-1848»

١٩١٢ المعارضة الطويلة من جانب كل من التحرريين والديموقراطيين للتجنيد الاجبارى . وقد نشر ماكس ليهمان عدة أبحاث مهمة عن جنيسناو والمصلحين والعسكريين الآخرين ، أنظر مثلا «Historische Zeitschrift» المجلد ١٢٦ سنة ١٩٢٢ .

(٢) فيما يتصل بروح سياسة بسمارك الخارجية انظر كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول ص ١١٣ والمراجع المذكورة فيه .

السيطرة على الجنود وكانوا مرغمين على اغضاء الطرف عن فظاعاتهم .
وبنمو النظام العسكري قضى على العنف الفردى أكثر فأكثر ، ولكن
الحكومات نفسها نظمت استغلال كل قوى الأمم من أجل الحرب . وصارت
الحرب قومية وشمولية ، وأدى ذلك الى حد كبير الى تمهيد الطريق لقيام
الدولة الشمولية فى عصرنا ، وان كان قيامها قد تطلب توافر ظروف
تاريخية معينة .

وفى عصر الفيودالية كانت الطبقات الفيودالية هى أساسا التى
يتعين عليها أن تقوم بالحروب . وهناك قول فرنسى قديم : « ان واجب رجل
الدين هو عبادة الله ، وواجب النبيل هو أن يقاتل ، وعلى الفلاح أن
يوفر الحير » . وكان النبلاء يعتبرون الحرب رياضة الفرسان وأنها امتياز
لهم . ولم يكن هدفهم بأى حال أن يقتلوا أعداءهم من النبلاء ، بل أن
يأسروهم ويتقاضوا فدية كبيرة لاطلاق سراحهم (١) . وكانوا يزدرون
استخدام أسلحة غير أسلحة الفروسية ، مثل القوس الطويل والقوس
الصليب والبنديقية ، ويعتبرونها غير مشروعة لأنها تجعل فى وسع أى
شخص من أصل غير نبيل أن يقتل أعظم الفرسان من مسافة بعيدة (٢) .
وكان الناس العاديون الذين يعيشون فى المنطقة التى تدور فيها الحرب
كثيرا ما يتعرضون لأفظع معاملة بلا تمييز بين الصديق والعدو ، برغم أن
الكنيسة بذلت جهودا كبيرة لحماية الناس ضد العنف . وقرابة نهاية
العصور الوسطى أثبت رماة السهام من الانجليز وأهل ويلز وحملة الرماح
السويسريين تفوقهم على الفرسان فى المعارك . ولم يراعوا قواعد الشرف
الفيودالية ، فقد كانوا يطلقون سهامهم ليقتلوا العدو ، وكان المحاربون
السويسريون معروفون بأنهم يرفضون الإبقاء على حياة العدو حتى عندما
تعرض الفدية .

وفى عصر الحكم الملكى المطلق كانت الحرب مهنة للمرتزقة من الطبقات
الدنيا ، وكثيرا ماتعرض السكان المدنيون لمعاناة فظيعة على أيديهم . ولم
يكن المدنيون ليستطيعوا الدفاع عن بلادهم . وكان تدريب الجنود كثير

(١) كانت هذه العادة لاتزال سائدة على نطاق كبير فى القرن الثامن عشر . انظر
١ . بابو «La vie militaire sous l'ancien régime» ١٨٨٩ المجلد الاول ص ٢٩٠
والمجلد الثانى ص ٢٦٣ .

(٢) يشير مونتاني الى أن النبلاء الفرنسيين فى شبابه كانوا يعتبرون الشهرة
بخس المبارزة مضرة وامتنعوا عن تعلم فن المبارزة لان الحبل الماكورة محطة بالكرامة
ومضادة للفضيلة الحقيقية . انظر مونتاني « مقالات » ص ٢٧ .

الكلفة ، ولم يكن لدى الملوك مال كثير . ومن ثم فإن التوفير فى اراقة الدماء كان ضروريا . وفى حالات كثيرة ضمت أعداد كبيرة من أسرى الحرب الى جيش عدوها السابق حيث كانوا لا يمانعون عادة فى القتال . وكانت الجيوش صغيرة وكان القتال يتوقف فى الحريف والشتاء . وحافظ الضباط ، الذين كانوا فى الغالب من عائلات نبيلة ، على تقاليد الفروسية الى حد ما . ففى معركة فونتنوى (١٧٤٥) واجه الضباط الانجليز والفرنسيون الذين يقودون الفرق بعضهم البعض وتبادلوا التحية قبل بدء القتال ، وان كان البحث الحديث قد أثبت عدم صحة رواية فولتير من أنهم ساروا فى المجاملة الى حد أن ترك كل جانب منهم للجانب الآخر أن يبدأ القتال أولا (١) . وكان من تقاليد المشاة الفرنسيين أن يهجموا بالسنكى أولا ولا يردون حتى على نيران العدو (٢) .

وكان من نتيجة نمو قوة الحكومات والنظام العسكرى وانتشار أفكار « الاستنارة » فى القرن الثامن عشر أن الحروب صارت أقل عنفا باستمرار . فلم يعد هناك تسامح فى التصرفات البربرية ضد السكان المدنيين ، وان كان يحدث أحيانا أن تدمر بلاد بأكملها لأسباب استراتيجية . وحتى أساليب فردريك الثانى تبدو أقل قسوة من أساليب نابليون . « وهناك عدة أمثلة فى القرن الثامن عشر على الطريقة التى فقدت بها الجيوش النمساوية بصفة خاصة النصر لتطرفها فى الامتناع عن الضغط على السكان المدنيين فى أى شئ » على حد قول أحد كبار الثقات الانجليز (٣) . وافتتحت الثورتان الأمريكية والفرنسية عهدا جديدا فى الحروب ، ثم اكتملت الأساليب الثورية على يد نابليون والبروسيين الذين نظموا حرب التحرير ضده . وبدأت الفرق المؤلفة من جماهير الشعب تحل محل الجيوش المحترفة الصغيرة ، وطبق مبدأ الخدمة الاجبارية العامة ، وكانت تحدد الجنود الحماسة للديموقراطية والقومية وفى وسعهم القتال فى نظام مفتوح بدلا من التكوينات المتلاصقة . ولم يعد فى حيز الامكان تموين الجيوش بواسطة مؤن تحملها القاطرات أو تحفظ فى مخازن بل

(١) ف ه . سكرين « فونتنوى ودور بريطانيا فى حرب الوراثة النمساوية »

١٩٠٦ ص ١٧٢ .

(٢) انظر فيما يتصل بهذا التقليد هنرى مارتن « Histoire de France » المجلد ١٨٦ .

ص ٢٨٢ . وفى فرق الفرسان النمساوية حتى فى الحرب الماضية كان يعتبر من غير الانصاف أن تقابل هجمات فرسان العدو الا على ظهر الخيل برغم أنه قد يكون من الافضل عسكريا مقابلتها بالمدافع سريعة الطلقات .

(٣) سير . ج . بتلر وس . ماكوبى « نمو القانون الدولى » ١٩٢٨ ص ١٤٥ .

صار لابد أن تعيش على البلاد نفسها . واستخدم الأمريكيون خدعا وأساليب
حربية اعتبرها الانجليز مما لا ينطبق على سلوك « الجنغلمان » (١) ،
وزادت الجيوش الفرنسية الثورية من شراسة القتال . وفيما يتصل
بعلاقة الجيوش الغازية بالسكان كانت الجيوش الثورية الفرنسية قطاعا في
مستوى أدنى من مستوى الجيوش الملكية القديمة (٢) . وقد قرر
روبسيير « المؤتمر » عدم الابقاء على حياة الجنود الانجليز والهانوفريين
والاسبان ، وبرغم أن الجيش تردد في تنفيذ ذلك ، ذبح في سنة ١٧٩٥
حوالى ثمانية أو تسعة آلاف أسباني . وطبق نابليون بصفة عامة المبدأ
اليقوي الخاص بالارهاب في الحرب ، وكثيرا ما طبق أساليب حربية
لم يعتبرها أعداؤه مما يتفق والشرف . بيد أن الأهداف الحربية
لا يخدمها عادة التدمير الشامل ، والحقيقة أن نابليون لم يستخدم
الأساليب الارهابية الا بأقل قدر . وهناك مثال له طابع خاص في الحرب
الفرنسية النمساوية سنة ١٨٠٩ (٣) . اذ هزم الأرشيدوق شارل
نابليون في معركة آسبرن ، ولكن عندما أثير عليه أن يطارد الفرنسيين
المتراجعين رفض قائلا : ان ما أسفك من دماء فيه الكفاية . وبعد ذلك بأيام
قليلة هزمه نابليون في واجرام بتركيز عدد غير عادي من المدافع لسحق
الجنود النمساويين بنيران المدفعية بدلا من استخدام السنكى ، وبرغم أن
نابليون لم يتعرض لأى وخز من ضميره من الناحية الانسانية فانه اعتذر
عن استخدام هذا الأسلوب الجديد فى حديث مع الجنرال بوبنا بهذه
العبارة : « ماذا كان ينبغي على أن أفعل ؟ ان أفضل مدفعيتى فى أسبانيا » .
ولكنه أدرك أيضا أن الأسلوب الجديد الذى كلفه من الأنفس أكثر من
القديم ينطوى على مخاطرة ، ودفعه ذلك الى تفضيل الدبلوماسية على
الحرب كما فعل الأرشيدوق فى نفس الوقت .

وفى أثناء القرن التاسع عشر كانت السياسة النموذجية للرجعية
هى الغاء الخدمة العسكرية الاجبارية ، أو تحديدها ، لأن الملوك
والطبقات الحاكمة كانت تخشى تسليح الجماهير ووصول أعداد كبيرة من
أصحاب الدماء غير النبيلة الى مراتب الضباط . ومن الناحية الأخرى أعلن
الديموقراطيون فى كل ثورة مبدأ « جيش الشعب » لأنهم رأوا فيه أداة لتأمين
الحرية ضد القوى الرجعية وجيوشها المحترفة . وكانت النتيجة النهائية

(١) فاجستى ص ٩٩ و ١٠١ وفيما يتصل بالفرنسيين ص ١٢٠ ومابعدها .

(٢) تبلر وماكوبى ص ١٢٧ .

(٣) أوجست فوربيه « نابليون الاول » ١٩١٣ المجلد الثانى ص ٢٩٢ .

اتساعا غير عادى فى حجم الجيوش واخضاع حياة الأمم كلها للتنظيم العسكرى . ويرجع هذا التطور ، الذى تم تدريجيا ، الى عاملين : هما تطبيق الاجراءات التكنيكية الجديدة فى فن الحرب ونمو النزعة القومية . وكان مولتكه أول الفادة العظام فى استعمال السكك الحديدية والبرق لتحريك الجيوش الضخمة التى تصل الى ٥٠٠٠٠٠ جندى وتوجيهها . وهى عملية كانت قبل ذلك تعتبر مستحيلة . ونجحت دراية بسمارك بالطبيعة البشرية والكفاية الألمانية فى التنظيم الشامل فى الادارة والتعليم العام فى جعل الشعب الألمانى أداة يعتمد عليها فى أيدي العسكرين . وأصبح الجيش الجماهيرى الذى فكر فيه الديموقراطيون لاقامة حكم العدالة والمساواة داخل الأمم وفيما بينها أحسن أداة فى الواقع لغرس التطلع نحو القوة والمجد القوميون والطاعة العمياء للقادة العسكرين فى نفوس الجماهير العريضة .

وفى القرن التاسع عشر دعمت التحررية السياسية ، برغم معارضتها للحرب والعنف ، نمو الجنسية وبذلك شاركت على غير ارادة منها فى اندلاع كثير من الحروب كان سببها التصادم فى التطلعات القومية واحتدم فيها القتال بتعصب قومى . ومن الناحية الأخرى حاولت التحررية الاقتصادية أن تمنع الحرب من السيطرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية بأكملها . وفى حرب القرم استمرت روسيا تدفع فوائد ديونها لحملة السندات البريطانيين ، بل وعقدت قرضا فى حى المال بلندن لهذا الغرض (١) ، وكانت المواد الأولية الروسية تصدر الى بريطانيا عبر بروسيا . وفى الحرب الألمانية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠ لم تقطع العلاقات التجارية بين الدولتين المتحاربتين . فكان رجال الأعمال فى برلين يتلقون الرسائل من مراسليهم فى باريس ، التى كان الجيش الألمانى يحاصرها ، عن طريق البريد الطائر . واذا كان رجال الأعمال قد عزفوا عن الاشتراك فى الحروب التى تشنها الحكومات ، فان لم تر من واجبها الدفاع عن مصالح رجل الأعمال فى الخارج بالوسائل الحربية . وطبقا للمبدأ اللبرالى الخاص بعدم تدخل الحكومة فى الشؤون الاقتصادية كثيرا ما أعلنت الحكومة البريطانية وأجهزة الرأى العام أنه اذا كان المستثمرون البريطانيون قد أقرضوا نقودهم لمدينين أجانب لا يريدون أن يدفعوا فانه ليس من شأن الحكومة أن تتدخل لارغامهم على الدفع (٢) . والحالات الظاهرة التى خرق

(١) ل . وود وارد « الحرب والسلام فى أوروبا ١٨١٥ - ١٨٧٠ » ١٩٢١ ص ٨٨ .

(٢) يعطى وود وارد أمثلة على ذلك من ٩٥ وما بعدها و ١٠٤ .

فيها هذا المبدأ تفسر على أساس السياسة العليا . وأوضح استثناء هو تدخل بريطانيا في مصر . بيد أن السبب الحقيقي لم يكن الاهتمام بمصلحة حملة السندرات ، بل الرغبة في حماية الطريق الى الهند بعد أن صار مهددا بسبب ضعف تركيا .

وفي الحرب الأهلية في أمريكا تمت خطوة نحو ما يسمى اليوم « بالحرب الشاملة » (١) . فقد صار من أهداف الحرب تحطيم معنوية السكان المدنيين بتدمير موارد البلاد - وكان الشمال الديمقراطي هو الذي بدأ بهذا الأسلوب الجديد في فن الحرب في حين تمسك الجنوب بالارستقراطية بالفكرة القديمة عن الحرب باعتبارها مبارزة بين فرسان « حرب الجنتللمان » . وفي الحرب الألمانية الفرنسية في سنة ١٨٧٠ أقام الجنرال الأمريكي شريدان مع بسمارك وراء الخطوط الألمانية فترة من الوقت . ومرة عندما أثرت قضية الانسانية في الحرب في مناقشة اعترض شريدان وقال : انه يحسن معاملة السكان بأقصى شدة ، وان من الاهداف الاستراتيجية تعريض السكان لمعاملة شديدة بحيث يطلبون السلام ويرغمون حكومتهم على طلبه . ونصح شريدان بالألا يترك للمدنيين شيء سوى عيونهم ليكون بها . وقد سر بسمارك لهذه الملاحظة (٢) .

وقد افتتحت الحروب التي شنها بسمارك لغرض سيطرة بروسيا في ألمانيا عهدا من الأسلحة الكبرى التي أتاح لها التقدم التكنولوجي وسائل جديدة تماما . وفي كثير من الدول بذلت جهود كبرى لوضع جميع الموارد في خدمة الحرب . ومع ذلك فان الاعتقاد في حكم القانون كان لا يزال قويا وفعالا بحيث بذلت محاولات جادة لنزع السلاح والتخفيف من وطأة الحروب . وفي سنة ١٨٩٨ أصدر القيصر نقولا الثاني قيصر روسيا بيانا يهاجم فيه أعباء التسليح التي لا تحتل وفضائح الحرب ويقترح عقد اتفاقات دولية للحد منهما . ولاريب في أن القيصر كان مدفوعا بحب حقيقي للسلام ، وان كان لدى روسيا في ذلك الوقت أسباب مالية وعسكرية لتحديد الزيادة في الأسلحة التي لم يكن في مكنيتها أن تجارى الدول الأخرى فيها (٣) . وكانت النتيجة

(١) جيمس ترسلو آدامز «مأساة أمريكا» ١٩٣٤ ص ٣٣٨ .

(٢) موريتز بوش « بسمارك ، بعض الصفحات السرية في تاريخه » ١٨٩٨ المجلد الاول ص ١٧١ و ٢٢٣ .

(٣) كان القيصر قد قرأ عدة كتب تدعو الى السلام مثل كتاب برنافون سوتنر والمؤلف العظيم عن الحرب الذي وصف فيه ج . دي بلوسن ، وهو مصري من أصل يهودي ، الحرب كوصمة في جبين الانسانية وخطر يهدد النظام الاجتماعي .

أول مؤتمر فى لاهى اشتركت فيه جميع الدول الكبرى ومعظم الدول الأخرى . وكانت المقترحات الروسية الأساسية هى التوقف فى التسليح عند الحد الذى بلغه والتحكيم الاجبارى . وكانت معظم الحكومات الممثلة فى المؤتمر موافقة على ذلك الى حد يزيد أو ينقص ، ولكن المانيا حطمت الحطة كلها بمعارضتها الشديدة . وتكشف الوثائق الدبلوماسية الألمانية عن أن الامبراطور ولهم الثانى ثار غضبا وتحدث عن ابن عمه نيقولا بأقبح العبارات وأشدّها ازدراء . واقترحت الحكومة الهولندية أيضا مناقشة عدم المساس بالملكية الخاصة فى البحار . بيد أن الآراء كانت منقسمة الى حد كبير جدا وتأجلت المناقشة للمؤتمر التالى . وقد ظهر أن الخبير البحرى البريطانى الاميرال سيرجون فيشر ، كان من أنصار النزعة العسكرية بدمه ، وإن كان نشاطه من وراء الستار فحسب . وعقد مؤتمر ثان فى لاهى سنة ١٩٠٧ تلاه ، مؤتمر فى لندن سنة ١٩٠٩ . واهتمت حكومة الأحرار فى بريطانيا اهتماما أكيدا بالسلام وتخفيف وطأة الحروب ، وكانت على استعداد للقيام بتنازلات كبيرة فيما يتصل بالحروب البحرية . ولا حاجة بنا للدخول هنا فى تفاصيل القانون الدولى ، وكل ما نريده هو التدليل على مدى قوة العناصر التى كانت تعمل من أجل حكم القانون فى كثير من البلاد . فحتى فى ألمانيا عارضت وزارة الخارجية فى النزعة العسكرية العدوانية التى أبدتها قادة البحر والقيصر .

وحطم اندلاع الحرب فى سنة ١٩١٤ جميع الآمال فى تحقيق السلام عن طريق التعاون الدولى . فقد كان غزو بلجيكا المحايدة وبعض الأعمال الأخرى ضربة قاسية ضد القانون الدولى وضد الثقة فى تعهدات الدول . كما أن الطريقة التى أدارت بها ألمانيا الحرب أظهرت لأول مرة صورة الحرب الشمولية بجميع الوسائل الفنية الحديثة وعلى أوسع نطاق (١) . وقد قضى هذا النوع من الحروب على كل فرق بين الجنود والمدنيين . فجميع السكان ، وفيهم النساء والأطفال ، وضعوا فى خدمة آلة حربية هائلة ليس فيها للفرد وحقوقه أية قيمة . وقد كانت دكتاتورية لوردنوف الفعلية اإذانا بمجىء دكتاتورية زميله هتلر ، وإن لم تبلغ بآى حال ما بلغته من الوحشية من عدة جوانب . وبعد الحرب حاولت عصبة الأمم اقامة حكم القانون الدولى . ولست أنوى هنا مناقشة العلاقة بين « العصبة » ومشاكل الجنسية ، ويجب أن نترك هذا الموضوع الى فرصة أخرى .

(١) جيمس جارنر « القانون الدولى والحرب العالمية » مجلدان .

٧ - الإرادة القومية

ان بعض الأفكار المعينة المرتبطة بالجنسية مثل الشخصية والطابع القوميين والسيادة القومية وحق تقرير المصير الذاتى والرسالة والمسئولية القوميتين تلعب دورا فى غاية الأهمية فى السياسة الحديثة . فكلها تنطوى على وجود ارادة قومية ، بيد أن هناك اختلافا كبيرا جدا حول معنى هذا التعبير . فان كلا من لفظى « الارادة » و « القومية » يمكن فهمها بطرق مختلفة ، كما أنه من العسير فهم كيف أن جمهرة كبيرة من الناس الذين يختلفون فى المصالح والآراء والاتجاه يمكن أن تتكون منهم ارادة مشتركة بأى حال ، وبخاصة اذا كنا لا نعتبر « الارادة » مجرد نزعة عابرة تثيرها الانفعالات العمياء ، بل ارادة معقولة تتكون على أساس التفكير بعناية فى كل الظروف وطبقا للمصالح الحقيقية للشعب ، أى الارادة التى تقابل مايريده الناس حقيقة . والأفراد الناضجون والمدربون على اصدار الاحكام كثيرا ما يقعون فريسة للأوهام والتحيزات والانفعالات التى قد تمنعهم عن تكوين ارادة معقولة ، كما أن الاغلبية العظمى من الأفراد لاتزال تحت سيطرة العوامل اللاعقلية . واذا كانوا برغم ذلك ينجحون فى تدبير أمورهم الخاصة بطريقة معقولة فان ذلك يرجع الى أن هناك فى معظم الحالات ما يحدد لهم مايفعلونه ، أو مالا يفعلون ، بواسطة القوانين والرأى العام وتدريبهم الفنى وتجربتهم ومشورة الخبراء ، واذا هم تصرفوا ضد هذه القواعد فانهم يقعون تحت طائلة عقاب الدولة أو يتعرضون لخسارة معينة . أما فى الشئون القومية فان المخاطر التى تنجم عن الخطأ فى الحكم أكبر بما لا يقاس . فمن ناحية هذه الشئون فهى أكثر تعقيدا بكثير من الشئون الخاصة ونتيجة الخطأ قد تؤدى الى تدمير أمة بأكملها . ومن ناحية أخرى ليس لدى الأغلبية الساحقة من الناس أى تدريب خاص فى الحكم على مثل هذه الشئون ، بل هم يتسأثرون الى حد كبير جدا بالتحيزات والأوهام ، والقانون الدولى تنقصه الجزاءات الفعالة .

ومشكلة الارادة القومية هى عقدة علم السياسة الحديث (١) . وقد ظهرت مع نمو الوعى القومى وفكرة ان الأمة هى صاحبة السيادة . وكان

(١) هارولد لاسكى « قواعد السياسة » و « أسس السيادة » ١٩٢١ ص ٢٠٩ . و ت . برايس « الديمقراطيات الحديثة » مجلدان ١٩٢٩ . هانز دلبروك Regierung und Volkswille ١٩١٤ .

القانون العام فيما مضى يميز بين قطاعات مختلفة من السكان بأسماء خاصة تشير الى مركزها السياسى . ففي البلاد التى كانت فيها حواجز محددة بين المراتب الاجتماعية كانت الطبقات العليا والحاكمة كثيرا ما تسمى « الأمة » ، فى حين كانت المراتب الدنيا « الشعب » . بيد أن هذه التفرقة لم تصر فى انجلترا عملية قط ، وإن كان لا شك فى أن الطبقات كانت مختلفة تماما فى نفوذها السياسى . وقد عرف أحد رجال السياسة فى عهد اليزابث ، وهو سير توماس سميث ، فى كتابة عن الكومنولث الانجليزى (١٥٦٥) الكومنولث أو الأمة بأنهما مجتمع من الرجال الأحرار يوجد بينهم الاتفاق المشترك . أما الأرقاء أو الأقنان فليسوا جزءا منهما . وفى البرلمان كل انجليزى من الملك الى أدنى الناس مفروض انه موجود أو ممثل . ويشيد سميث بصفة خاصة بطبقتى السادة (الجنتمان) والزارعين الذين يبدو أنه يعتبرهم لب الأمة . وكانت أدنى الطبقات ، التى أطلق عليها الرومان « البروليتاريين » لا حق لهم فى التصويت ولكنهم كانوا يشاركون بنصيب ما فى الادارة المحلية .

وفى الوثائق الألمانية فى القرن الخامس عشر يعنى تعبير « الأمة الألمانية » المدن الحرة والأمراء الذين يتألف منهم المجلس الامبراطورى (الدايت) . ويقول لوثر فى ندائه الى النبلاء المسيحيين ان « الأمة الألمانية ، أى الأساقفة والأمراء ، ينبغى أن تتصرف كمسيحيين وتحمى الشعب الذى عهد بمقاليدهم اليهم » . والأمة هنا غير الشعب بوضوح . وفى القانون الدستورى الهنغارى ، الذى جمعه فيربوتشى ، أطلق على النبلاء لفظ « الناس » Populus وعلى الطبقات الدنيا ، التى كانت بلا حقوق سياسية لفظ « العامة » (Plebs) (١) ويقول أولارد : ان تعبير « أمة » فى القرن الثامن عشر كان يعنى فى فرنسا الطبقات الثرية والمتقفة . وفى سنة ١٨٧٥ قال أحد المتحدثين الثالثة ، البورجوازية : انه أمر مشين أن يعتبر المحامون والمؤلفون والفنانون والتجار ورجال المال من الشعب، فهم ينتمون حقيقه للطبقات العليا من الأمة . وقد كتب أحد المؤرخين الألمان هو آرشنهولتز - وكان من كبار المعجبين بالحرية الانجليزية ، فى سنة ١٧٩٢ : « انى أفهم بلفظ الأمة الطبقات العليا من الشعب فقط . أما الطبقات الدنيا أى الحرفيين والفلاحين ، فهم بصفة عامة مخلوقات شبه آدمية فى كل مكان » . وقد ظل مفهوم أن الطبقات العليا والمتوسطة وحدها هى التى تتألف منها الأمة باقيا حتى القرن التاسع عشر فى ألمانيا . وقد

(١) أ . فون تيمون «Ungarische Verfassungs- und Rechtsgeschichte»

وضع أحد الكتاب الفرنسيين ، هو فيفييه ، الفرق مع إضافة حجج أخرى ،
فكتب سنة ١٨٠٢ يقول (١) :

« ان روسو وقع في خطأ وضلل كل العقول بكلمة واحدة هي
« الشعب » . فكلما صادفك في « العقد الاجتماعي » لفظ « شعب » ضع
بدلا منه لفظ « أمة » وسندهش كثيرا عندما تجد أن ما كان يؤثر فيك من
قبل فقد معناه . والسبب بسيط . أنا لا أقول : ان كلمة « الشعب » في
فرنسا وفي جميع البلاد تقريبا تمثل فكرة ذلك القسم من الأمة الذي
استبعد بطريقة طبيعية من مناقشة مسائل الدولة الكبرى لفقره ونقص
تعليمه . اني أقول أكثر من ذلك بكثير وأود أن أشير الى أن الشعب
الفرنسي لا يعنى الأمة الفرنسية . فالأمة تنطوى على المواطنين والحكومة
والقوانين ، بل والعادات ، في حين أن كلمة « شعب » بأوسع معانيها
لا تدخل فيها الحكومة ، الأمر الذي أدى الى جميع الأخطاء في العقد
الاجتماعي » .

ويحاول فيفييه بعد ذلك أن يدلل على أن الشعب لا ارادة له لأنه
ليس وحدة . ولكن الأمة يمكن أن تكون لها ارادة لانها تضم الشعب
والحكومة التي تحكمه .

وكثيرا ما استخدم المدافعون عن الملكية صعوبة تصور كيف أن
مجموعة من الارادات المختلفة يمكن ان تتحد في ارادة عقلية واحدة ، في
القول بأن النظام الملكي وحده هو الذي يستطيع أن يضمن وحدة الارادة
القومية . بيد أن بسمارك أشار في مذكراته الى أن القرارات التي يتخذها
الملوك في الملكيات المطلقة كثيرا ما تكون نتيجة المؤثرات مختلفة تماما من
جانب أشخاص غير مسئولين (٢) ، ويظهر التاريخ أن السياسة في الدول
المحكومة أو توتقراطيا كثيرا ما تنذبذبا جدا تبعا لتغير نفوذ الجماعات والأفراد
المتنافسين .

وينطوى تكوين ارادة جماعية معقولة على مهمتين : أولاها هي وضع

(١) ج . فيفييه «Lettres sur l'Angleterre et reflexions sur la

philosophie de XVIIIe siècle» ص ١٥ .

(٢) بسمارك «Gedanken und Erinnerungen» ١٨٩٨ المجلد الاول ص ٢٧٨

وكذلك ص ١٥ .

خطة يغلب أن تدعم المصالح الحقيقية للمجتمع ، والثانية هى حمل أعضائه على قبولها • ويزيد الأمل فى حل هاتين المشكلتين أو ينقص مع صعوبة المشاكل الاجتماعية والسياسية التى تتعلق بها الأمر ومع عدد الناس الذين يشتركون فى تحديد السياسة • وتواجه الأمم الآن فى المجتمع الحديث مشاكل أكثر عددا وتعقيدا من أى وقت مضى • فنشاط الحكومات زاد كثيرا وظهرت مشاكل كثيرة من الصعب جدا اصدار حكم فيها ، مثل مشاكل السياسة الدولية • ومن ناحية زاد عدد الناس الذين يشتركون فى السياسة اليوم أكثر بكثير مما كان فى العهود الماضية ، وقليلون جدا من الناس هم من لديهم الوقت والقدرة على التفكير السياسى المعتنى • وفى مثل هذه الظروف لا أمل فى أن يتوقع من الناس أن يكونوا ارادة قومية معقولة واحدة ، وينطبق هذا على الطبقات المثقفة ذات التعليم العالى أكثر مما ينطبق على الجماهير • ووظيفة الأحزاب أن تكون ارادة موحدة فى قطاع من الناس على الأقل ، أو على الأصح أن تكسب ثقة قطاع منهم وتحصل على توكيل ضمنى بتكوين ارادة لاعضاء الحزب قد لا تكون بالضرورة متفقة تماما مع ما يريده هؤلاء الأعضاء حقيقة • ومع ذلك فان البحث فى السيكلوجية السياسية للطبقات والجماعات المختلفة يؤدى الى أن الأغلبية الكبرى ما زالت تظهر قدرا كبيرا من الأفكار الغامضة غير المتناسق بعضها مع بعض ، والجنوح الى التفكير فى القياس والرمز والتأثر بشدة بالأوهام والتحييزات (١) •

وفكرة الارادة القومية بوصفها ارادة الشعب كله لم تتحقق قط بعد • وقد حلت محلها فكرة أن ارادة الأغلبية تمثل ارادة الأمة كلها ، وواضح أن ذلك غير حقيقى • فضلا عن أن هناك حالات معينة تستثنى من قاعدة أن الأغلبية هى التى تقرر ، مثل حقوق الأقليات القومية • ومبدأ الأغلبية بصفة عامة ينطوى ضمنا على شرط عدم استخدامه بطريقة اضطهادية • بالإضافة الى أنه حتى فى البلاد الديمقراطية كثيرا ما استبعدت قطاعات كبيرة من الأمة من حق الانتخاب ، كالنساء مثلا ، وأحيانا كان أسلوب التصويت يؤدى الى حصول أقلية من أصحاب الأصوات على أغلبية المقاعد فى البرلمان •

وفى الولايات المتحدة انتخب الرئيس عدة مرات بواسطة الأقلية ،

(١) جراهام واللاس « الطبيعة البشرية فى السياسة » ١٩١٠ • ج • برايس « الديمقراطيات الحديثة » المجلد الثانى ص ٦٠١ •

مما يرجع السبب الرئيسى فيه الى نظام الانتخاب غير المباشر (١) . وقد كان أهم انتخاب عرفه التاريخ الأمريكى هو انتخاب ابراهام لنكولن فى سنة ١٨٦٠ . وقد انتخب لنكولن بواسطة ١٨٨٦٤٥٢ من أصحاب الأصوات فى حين حصل منافسوه على ٢٧٨٧٧٨٠ ، أى بزيادة ما يقرب من المليون صوت . وفى سنة ١٨٧٦ انتخب هيز بواسطة أقلية وكذلك هاريسون فى سنة ١٨٨٠ . وفى سنة ١٩١٣ صار وودرو ويلسون رئيسا بحصوله على ٦١٥٧٨٠٠ صوتا فى حين حصل المرشحون الآخرون على ٨١٣٩٠٠٠ صوتا ، ولم يصوت ثلاثة ملايين من الناخبين لأحد . ومن ثم فاذا كانت الارادة القومية تعنى ارادة مجموع الناخبين ، فانه لم يكن ممثلا الا ثلثهم فحسب . واذا اعتبر السكان البالغون من النساء والرجال معا وباستثناء الأجانب ، هم الأمة فان ويلسون كان يمثل ١٢ فى المائة منها فحسب .

وأكبر أداة لتكوين ارادة الأمة اليوم هى نظام « مجلس الوزراء » الذى نما فى فترة حكم الأحرار فى القرن الثامن عشر . ولكن من المشكوك فيه جدا ما اذا كانت الأمة كلها كانت تريد حقيقة هذا التطوير الضخم فى ذلك الوقت . فلو لم يتخلص الارستقراطيون الأحرار من ذلك العدد الكبير من « الدوائر العفنة » لكان المحافظون حصلوا على الأغلبية ، ويغلب أنهم كانوا يحظون بتأييد الأغلبية العظمى من الشعب (٢) . وما كان المحافظون ليؤكدوا سلطة البرلمان بتنمية حكم « مجلس الوزراء » . فضلا عن انهم كانوا يعتقدون أن « التجارة فيها دمار للأمة الانجليزية وعارضوا تحويل انجلترا الى جمهورية تجارية مثل هولندا » (٣) .

ويخلص برايس فى مؤلفه الضخم عن الديمقراطية الى أن « الحكم الحر لا يمكن أن يكون الا حكم قلة داخل ديمقراطية ، ولم يكن فى أى وقت من الأوقات غير ذلك » - لا حكم قلة طبقي ولكن حكم قلة يقوم على الموهبة الطبيعية . ووظائف الشعب أساسا هى الرقابة ، وهى سلبية أكثر منها ايجابية ، بمعنى أن « الشعب يسهل عليه أن يرفض سياسة مقترحة

(١) وحتى روسو كان من رآيه أن الديمقراطية لاتضم بالضرورة جميع الشعب . فيمكن أيضا قصرها على نصفه . وفى فرنسا لم تحصل النساء قط على حق التصويت .
(٢) ليكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » الفصل الاول والثانى . وفيما يتصل بالتكوين الانتخابي لانجلترا أنظر ل . ب . ناميه « البناء السياسى عند تولى جورج الثالث العرش » ١٩٢٩ المجلد الاول ص ٧٩ .
(٣) جورج ماكولى تريفيليان « انجلترا فى عهد ملوك سنشوارث » ١٩٠٦ ، ص ٤٧٧ .

أكثر مما يستطيع اقتراح سياسة أفضل » . وبرغم هذه الحدود فإن الديمقراطية الحديثة لها سجل مجيد وبخاصة فيما يتعلق بالتقدم الاجتماعى والثقافى للشعب . والرأى المنتشر من أن حكم الديمقراطية يحول دون صعود الشخصيات العظيمة الى الزعامة ينقضه ذلك العدد الذى لا يحصى من الساسة الديمقراطيين المبرزين . وصحيح أن الديمقراطية وحدها لا تكفى ، فلا بد أن تتعاون قوى تاريخية واجتماعية ومعنوية عديدة لكى تحقق نموا ناجحا . وقبل كل شئ آخر يجب ألا يزيد التنافس بين الطبقات بحيث يؤدي الى استبعاد قدر معين من التضامن والثقة بينها . وقد كانت الرغبة فى الوحدة الداخلية والاتساق مصدر الوحي لكثير من المفكرين والزعماء فى تكوين فكرة الأمة بوصفها تضامنا وثيقا ذا ارادة واحدة . وهذا المثل الأعلى لا يمكن أن يتحقق ، الا فى حالات استثنائية ، ولكن يمكن أن تحل محله روح الحل الوسط والتسامح . بل ان فكرة الارادة القومية الموحدة كانت سببا فى أضرار كثيرة ، وبخاصة فى الحكم على الأمم الأخرى وتفسير تصرفاتها باعتبارها نتاج طابع قومى لا يتغير .

ان فكرة الأمة تضم كلا من التنظيم السياسى للدولة والتنظيم الاقتصادى والثقافى للمجتمع ، والمفروض أن الارادة القومية وظيفة كليهما . وهناك عدة أنماط من مفهوم الأمة كل منها ينطوى على وجهة نظر خاصة فى الارادة القومية . فقد كانت الدولة قبل ظهور الجنسية تتصور على أنها نظام قدسى صاحب السيادة الوحيد فيه هو الله . وعندما صارت الأمة تعتبر صاحبة السيادة أخذت عن الملكية طابعها الصوفى المقدس وعزا بعض الفلاسفة الى الأمة طابعا قدسيا ورسالة وسلطة قدسيتين .

وترى النظريات المحافظة فى الدولة شخصية تاريخية مكونة من مراتب مختلفة لكل منها وظيفتها المنفصلة . فهى توحد بين الارادة القومية والتقاليد القومية وحكمة الآباء ، وتفسرها هو مهمة الملك والارستقراطية . والمجتمع فى هذه النظريات لا يكاد ينفصل عن الدولة . فالكنيسة والدولة والحقوق الخاصة والعامة متشابكة بعدة طرق . وتوحد البرالية بين الدولة والمجتمع للمحافظة على « حكم القانون » و « حقوق الانسان » المتأصلة فى العقل البشرى . وتفترض أن الجنسية تخضع للعقل والأخلاقيات ولا تكاد تعنى أكثر من العضوية الاختيارية فى المجتمع للدفاع المتبادل . ولكن المجتمع بالنسبة للتحريين (البراليين) أهم بكثير جدا من الدولة . والمتحدثون باسم الأمة هم الطبقة الوسطى المستتيرة وأصحاب المهن

الذهنية والبورجوازيون الأغنياء ، ولكن كثيرين من التحررين كانوا يتوقعون أن توزيع الثروة وانتشار التعليم سيؤدي الى توسيع المشاركة السياسية . وتعتبر أيديولوجية الديمقراطية جميع سكان الدولة هم الأمة وتنبذ فكرة الطبقة الرائدة ، وان كان المواطنون المختلفون في اللون أو اللغة كثيرا ما أنكر عليهم أنهم جزء من الأمة حقيقة في بعض الدول الديمقراطية . ويعتبر المجتمع خاضعا للدولة ويؤدي ذلك الى تحويل الديمقراطية الى اشتراكية . ثم يوحد ثانيا بين الأمة وطبقة معينة ذات رسالة . ان ماركس أعلن في « بيانه الشيوعي » أن العمال لا وطن لهم . فالبروليتاريا عليها أولا أن تستولي على السيطرة السياسية ، وترفع نفسها الى مرتبة الطبقة القومية ، وتجعل من نفسها الأمة ، وتظل بذلك قومية ولكن بمعنى غير المعنى البورجوازي . ولكن ماركس يتنبأ بأن الغاء التقسيمات الطبقيّة الداخلية عن طريق انتصار البروليتاريا سيؤدي الى اختفاء العداء بين الأمم . وأخيرا ، ان النزعة القومية الحديثة ترى جوهر الأمة في شرفها وقوتها وتجعل الجنس أساس الجنسية . ونظريتها في الدولة تسلطية بحثة والمجتمع خاضع تماما للدولة . وفي هذه الناحية ، وفي غيرها أيضا ، تختلف النزعة القومية عن التسلطية المحافظة . فليس الملك والارستقراطية التاريخية هما اللذين يمثلان روح الأمة ولهما الحق في التعبير عنها ، بل ارستقراطية عنصرية مؤلفة من عناصر من مختلف الطبقات . ولكن القوة الدافعة الحقيقية للنزعة القومية كانت في كل مكان قطاعا من المثقفين والطائفة العسكرية مع معاونين من الطبقات الأخرى .

وفي أيديولوجية كل أمة تجتمع بصورة تزيد أو تنقص عدة مفاهيم مختلفة عن الأمة . وكما أشرنا من قبل ، تتماشك الأمة برباط من التقاليد والمصالح والمثل العليا . ويؤكد المفهوم المحافظ على التقاليد ، ويحس أنصاره بأنهم أعضاء في أمة ما لأنهم أساسا فخورون بماضيها المجيد ، واذا نبذت دولة ما هذا التراث بدا لهم ذلك كأنه نهاية للأمة . ويؤكد المفهوم الديمقراطي على المصالح ، ويميل الى الرأي القائل بأنه لا يكاد يكون هناك أمة ما دامت جماهير الشعب الكبرى ليس لها نصيب مناسب في الثروة القومية والمدنية القومية (١) . ويؤكد المفهوم الليبرالي المثل الأعلى « للحقوق » . ففي هذا الرأي ليست هناك أمة اذا لم يوجد « حكم القانون » . بالاضافة الى أن كثيرين من التحررين عزوا الى الأمة رسالة نشر مثل عليا معينة في العالم ، وهي حق تقرير المصير القومي وتحقيق

(١) أوتوباور . «Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie» ١٩٠٧

النظام الدولى الذى يؤدى الى السلام والنوايا الطيبة . ويتحقق اثبت تضامن قومى اذا استخدمت المفاهيم الثلاثة جميعا فى بناء الأيديولوجية القومية .

والارادة القومية من عمل نخبة رائدة مؤلفة من عناصر مختلفة مثل البيت المالك وخدامه أو الكنيسة أو الطبقة الحاكمة أو الحزب . ولكى تستحق الارادة وصف « القومية » يجب أن يقبلها ، أو على الأقل لا يعارضها ، قطاع كبير من الأمة لابد أن تكون لديه القدرة والسلطة على جعل هذه الارادة ، سائدة بين الأمة . ولا بد أيضا أن تكون متسقة مع وجود الأمة ، لأنه لا يمكن تصور أن الأمة لديها ارادة الانتحار ، وتتطوى هذه الشروط على وجود قدر معين من الوحدة فى التطلعات بين الأحزاب والطبقات المختلفة فى الأمة تسمو على ما بينها من عدا . فعندما لا تكون هناك عوامل مشتركة بينها لا تكون هناك ارادة قومية ولا أمة .

٨ - تقرير المصير القومى

لقد أصبح تقرير المصير القومى عقيدة رئيسية فى السياسة الحديثة فجميع الأمم والأحزاب تقريرا تعترف بذلك ، نظريا على الأقل ، ولكنها تضع تفسيرات مختلفة تماما للمبدأ . وتقرير المصير يعنى أن الأمة فى ذاتها هى السلطة النهائية فى شئونها دون تدخل أجنبى ، ولما كان الإقليم مرتبطا ارتباطا وثيقا بفكرة الأمة فإن ذلك يعنى الحق فى استخدام إقليم معين . ويبدو تقرير المصير بهذا المعنى العام طبيعيا للإدراك العادى بحيث أن مناقشته تكاد تكون غير ممكنة ، إلا من جانب أولئك الذين يدعون لأنفسهم رسالة مقدسة أو حق التفوق العنصرى ، أو مجرد حق القوة ، فى فرض ارادتهم على شعب آخر . والواقع أن مبدأ حق الشعب فى أرض موطنه كان معترفا به باستمرار، وإن لم يطبق عمليا دائما (١) . والمفهوم الجديد مجرد تفسير جديد لمبدأ قديم .

ومطلب تقرير المصير يقدم عادة كمطلب للحرية . ومع ذلك فإن تقرير المصير القومى ليس نفس الشيء كالحرية السياسية . فهو لا ينطوى

(١) يقول ماثيو باريس ، برغم أنه كان يعيل إلى العدا نحو أهل ويلز ، فى كتابه « التاريخ الانجليزى » (ترجمة جايلز المجلد الثالث ص ٢٣٨) أنهم فى صراعهم ضد الاضطهاد الانجليزى بدت قضيتهم عادلة حتى لأعدائهم ، وكان العامل الذى أيدهم وشجعهم هو فكرة أنهم إنما يكافحون ، مثل أسلافهم الطرواديين ، فى عزم وقوة جديرين بالاعجاب من أجل القوانين والحريات التى ورثوها عن آبائهم .

بالضرورة على فكرة النظام الديموقراطى ، بل مجرد الاستقلال عن التدخل الاجنبى . فالارلنديون لم تنقصهم الحرية السياسية عندما كانوا متحدين مع انجلترا واسكتلندا وويلز . بل الواقع أنه كان لهم عدد من المقاعد فى البرلمان أكبر مما يقابل نسبتهم فى السكان (١) ، كما زاد نفوذهم السياسى أكثر لأنهم كثيرا ماكانوا فى وضع يجعل فى وسعهم ترجيح احدى الكفتين بين الحزبين الكبيرين . ولم تهمل مصالحهم القومية والاجتماعية بأى حال فى العصر الحديث ، حيث بذلت الحكومة البريطانية جهودا كبرى لكسب الايرلنديين بالاستجابة الى مطالبهم فى التحسين الاجتماعى . بيد أن ماكان الايرلنديون يريدونه ليس الحكم الصالح بل حكومة قومية (٢) .

وتنطوى فكرة تقرير المصير على ثلاث مسائل :

- ١ - معيار تحديد الجنسية .
- ٢ - وسيلة تكوين الارادة القومية والتعبير عنها .
- ٣ - أغراض الارادة القومية وحدودها .

ويمكن أن يتم تحديد الأمة اما على أساس المبدأ الاقليمى أو المبدأ الاتنوغرافى . فهو اما أن يجعل الأمة هى سكان اقليم بالذات ، أو يجعلها جماعة معينة بصرف النظر عن الاقليم ولكن لها سمات اتنوغرافية معينة .

والاقليم يمكن أن يعنى دولة أو مقاطعة تاريخية ، أو منطقة تتكون منها وحدة طبيعية بصرف النظر عن الحدود التاريخية . والجماعة الاتنوغرافية يمكن أن تتميز بالجنس أو اللغة والدين أو المدنية أو المهنة ، ويمكن اما الاستناد الى الأوضاع الحاضرة أو الى أوضاع عصر أسبق . والآن ، ان نتيجة الارادة القومية ، سواء أخذت عن طريق الاستفتاء أو عن طريق آخر ، تتوقف بوضوح على تحديد الجماعة التى تعتبر أمة .

وقد جرت العادة فى أغلب الحالات على الاستناد الى الأقاليم التاريخية،

(١) فى ١٨٨٤ كان عضو البرلمان يقابل ٤٦٥٠٠ من السكان فى ايرلندا و ٥٣٢٠٠ فى انجلترا و ٦٢١٠٠ فى اسكتلندا . وفى ١٨٨٥ ارتفعت النسبة فيما يتعلق بالاسكتلنديين انظر س . باكستون « مرجع للمسائل السياسية . الراية » ١٩٠٣ ص ٥ .
(٢) انظر . مانسرج « ايرلندا فى عصر الاصلاح والثورة » ١٩١٠ .

وان كان الغزاة العظام مثل نابليون كثيرا ما استخدموا قوتهم فى خلق حدود جديدة تماما على أسس استراتيجية أو سياسية أو ادارية أو اقتصادية . فاذا كانت هذه الأقاليم متجانسة اتنوغرافيا أيضا فان ذلك كثيرا ما اعتبر حجة اضافية ، وان بدا أحيانا من المرغوب فيه أكثر ضم شعوب مختلفة فى دولة واحدة حتى يمكن الاستعانة بالواحد منها ضد الآخر . بيد أنه مع نمو قوة المشاعر الديموقراطية والقومية أثر مطلب ممارسة تقرير المصير القومى بصرف النظر عن الاقاليم . فالدول والأقطار القائمة تقسم تبعاً لمعايير اتنوغرافية وتكون كل من الوحدات الجديدة عندئذ حرة فى الانضمام الى الأمم التى تحس باتصالها بها . ولكن لسوء الحظ ظهر أنه من المستحيل عمليا العثور على معيار يقبله الجميع . والمثال الكلاسيكى للصراع بين وجهات النظر التى لا يمكن التوفيق بينها فى هذه النقطة هو مقدونيا (١) . ففى سنوات ما قبل الحرب الكبرى الأولى كانت هناك ست أمم تطالب بالمقدونيين أو بقطاعات منهم ، باعتبارهم منها ، وحاربت بعضها بكل سلاح فى متناول يدها . وكانت مسألة تحديد الجنسية التى ينتمى اليها المقدونيين حقيقة عقدة العقد التى يؤس منها الاتنوغرافيون وصارت كابوساً بالنسبة لكل حكومات أوروبا . وأقدم المطالب هو مطلب اليونانيين الذين سيطروا على الكنيسة والمدارس أمدا طويلا وما زال لهم مركز قوى فى الميدانين . ولكن العدد الأكبر من المقدونيين لا يتحدث اليونانية ، غير أن الدعاة اليونانيين يشيرون الى أن مدينتهم يونانية . وقال البلغاريون : ان الأغلبية بلغارية اللغة والعواطف . وقد جادل الصربون فى ذلك وقالوا : ان بعض السمات المعينة فى اللهجات المقدونية ، وكذلك الادب الشعبى ، أقرب الى الصربية منها الى البلغارية . وذهب الالبانيون الى أن الأمر الجوهرى هو الجنس ، والمقدونيون ينتمون الى الجنس الالبانى الحشن لا الى اليونانيين المخشين وقال الرومانيون : ان قطاعا معينا من السكان مرتبط بهم فى اللغة والمدينة وأخيرا ، فان للأتراك أيضا ، وكانوا حكمهم ، بعض الأقارب والاتباع بين السكان . بيد أن حجتهم الرئيسية كانت أنهم وحدهم يستطيعون توفير الحكم غير المتحيز لأى من الجنسيات المتصارعة . وقامت جميع الجنسيات بدعايات لا تنقطع تتسم بأقصى عنف وقسوة . واستخدم الارهاب والرشوة على نطاق واسع ، وبنجاح كبير أحيانا . فكثيرا ما تتحول قرية بأكملها من

(١) انظر . بريلزفورد « مقدونيا ، أجناسها ومستقبلهم » ١٩٢٤ .

جانب الى جانب لتتجنب التعرض للاغتيال او ، وهو أكثر ، لمكسب مادي .
وقد لعبت الدوافع المثالية أيضا دورها بطبيعة الحال . ولكن كان من
الواضح أن قسما كبيرا من السكان ليس لديه وعى قومى راسخ يحدد
جنسيته ، فالقرية بالنسبة لهم كانت هى الأمة . وآخرون كانوا يتحدثون
أكثر من لغة واحدة أو لديهم ارتباطات بأمم مختلفة فى مجالات مختلفة .

وكثيرا ما زادت مجموعة المعايير المتصارعة فى تحديد الجنسية بالقول
بأن الوضع الحاضر لنسبة الجنسيات فى السكان ليس هو المهم ، بل الوضع
الذى كان موجودا قبل أن تخضع البلاد لنفوذ سيطرة أجنبية . ويذهب
أصحاب هذا الرأى الى أن كل أولئك الذين جاءوا بعد هذا التاريخ دخلاء
لابد من طردهم أو اخضاعهم لاجراءات المصادرة ويجب استبعادهم من
الاشترك فى الاستفتاء . بيد أنه فى الحالات التى استمر فيها الحكم الأجنبى
مدة طويلة يكاد يكون من المستحيل تنفيذ هذا المبدأ دون قدر كبير من
التحكم والظلم .

وهناك صعوبة أخرى فى تحديد الأساس الاقليمى لأمة ما تبعا
للمبادئ الاتنوغرافية وهى أنه كثيرا ما يحدث أن تعيش جنسيات مختلفة
مختلط بعضها ببعض بحيث يستحيل تكوين أقاليم كبيرة دون ادخال
أقليات كبيرة فيها . ويمكن طبعاً من الناحية النظرية منح حق تقرير
المصير لهذه الجيوب أيضا . بيد أن ذلك يؤدى الى أوضاع مستحيلة عمليا .
فالدولة الحديثة والمجتمع الحديث لا يمكن بناؤهما فى اقليم صغير جدا
محوط بجيران أعداء . وقد كان للدول الصغيرة فرصة أفضل للبقاء فى
الوقت الذى كان التوازن الأوروبى وحرية التجارة فيه ما زالا موضع
التطبيق . ولكن بعد الحرب الأخيرة ضعفت هذه الفرص بسبب القضاء
على توازن القوى وصعود النزعة القومية الاقتصادية العدوانية . فضلا عن
أنه يجب التأكيد على أن تقرير المصير القومى يقصد به بصفة عامة الأمم
وليس شذرات من أمم . فانه يكون بالتأكيد من السخف أن يسمح لكل
مقاطعة أو مدينة أو قطر بالادعاء بحق الانفصال . فان ذلك يؤدى الى عدم
استقرار يشل كل شئ والى الانحلال السياسى والاجتماعى . بيد أن
هذا التحديد لحق تقرير المصير يفترض تحديد الجنسية بصورة
واضحة لا نزاع حولها . فنحن لا نستطيع أن نحدد ما هو الجزء اذا لم تكن
لدينا فكرة مستقرة عما هو الكل .

ان دعاة القومية الارلندية يقولون : ان ارلندا كلها تكون اقليما طبيعيا

لا يمكن تقسيمه . وتبعا لوجهة نظرهم يؤلف شعب الستر - الذى يعارض ثلثاه فى الاندماج فى دولة ايرلندا الحرة الحالية - جزءا من الأمة الأيرلندية التى لا تنقسم ومن ثم لا حق له فى ممارسة تقرير المصير الذاتى الذى لا ينطبق الا على الأمة ككل . ويقال أيضا : ان شعب الستر من أحفاد الاسكتلنديين والانجليز الدخلاء الذين استوطنوا فى ايرلندا فى عهود الاضطهاد . وتنبذ الستر طبعا هذه التفسيرات لتقرير المصير الذاتى وتطالب بتطبيق مبدأ الشخصية الاتنوغرافية . وموقف « سين فين » لا يختلف عن مطالب دعاة القومية الألمانية فى الالزاس . فهذا البلد كانت اللغة السائدة فيه دائما هى الألمانية ، وكانت مشاعره ألمانية أيضا قبل أن يضمه لويس الرابع عشر ضد ارادة الشعب . ولكن الأغلبية صارت فيما بعد فرنسية المشاعر دون اكراه مباشر . ومن ثم فان الالماني يقولون الآن : انه بالإضافة الى وحدة اللغة تعتبر الارادة الشعبية قبل الضم لفرنسا هى العامل الحاسم ، فى حين يذهب الفرنسيون الى أن ارادة السكان الأخيرة هى التى تحسم الموقف . وقامت حرب البوير بسبب مطالبة عناصر قريبة بالاستيطان بالحقوق السياسية فى الترنسفال - وهى مطالبة ايدتها الحكومة البريطانية . ويطالب اليهود أيضا بفلسطين على أسس تاريخية ، فى حين أن العرب ينبذون هذه الحجة . ومطالبة التشيكين بالسيطرة فى سيليزيا ، وليس فحسب فى بوهيميا ومورافيا حيث يؤلفون أغلبية السكان ، برغم أنهم أقلية صغيرة فيها (١) كانت تقوم على أساس الوحدة التاريخية الطبيعية لجميع بلاد تاج بوهيميا ، وبحجة أن الالماني استوطنوا هناك فى العصور الوسطى أو بعد ذلك فى حين أن المطالبة بسلوفاكيا قامت على المبدأ الاتنوغرافى المضاد . وفى مملكة هنغاريا السابقة انحدرت الأقلية الصربية من لاجئين جاءوا الى هنغاريا عندما غزا الأتراك الصرب . وفى هذه الحالة لم تعترف « معاهدة الصلح » بالوحدة التاريخية والقومية لهنغاريا ، بل ضمت السكان غير المجريين الى أقاربهم طبقا للمبدأ الاتنوغرافى ، مع قسم كبير من الأقليات المجرية .

بالإضافة الى أن تحقيق « تقرير المصير الذاتى » يتوقف على أسلوب تكوين الارادة القومية والتعبير عنها . ففي العصور السابقة كانت هذه الارادة هى ارادة الطبقات الحاكمة الى حد كبير . فحتى اليوم تفترض

(١) فى إقليم سيليزيا النمساوى السابق كان التشيكيون يؤلفون ٢٤ فى المائة والبولنديون ٣٢ فى المائة والالماني ٤٤ فى المائة من السكان .

الأيديولوجيات القومية لدى كثر من الأمم الديموقراطية أنه فى صراعات العصور السابقة كان النبلاء يقاتلون أساسا فى سبيل القضية القومية . فتمرد البارونات الانجليز ضد هنرى الثالث بسبب تفضيله للأجانب فى خدمته يبدو فى عصرنا صراعا قوميا ، برغم أن البارونات أنفسهم انحدروا من الغزاة الأجانب وهوجم زعيمهم سيمون دى مونفور من جانب أعدائه على أساس أنه أجنبي ويريد الاستيلاء على السيادة فى المملكة كلها ، كما يقول ماتيو باريس . والصراع من أجل استقلال ارنلدا كان فيما سضى صراع الطبقات العليا الانجلوارلندية أساسا . وفى تمرد نبلاء بوهيميا ضد حكم هابسبورج فى سنة ١٦١٨ كان بعض المبرزين جدا من زعماء التمرد ألمانا ، مثل تيرن وفلز ، فى حين كان زعماء الحزب الامبراطورى هم التشيكيين : زدندك لبيكوفيتز ومارتينتز وسلفاتا (١) .

ومع صعود الديموقراطية بدت طريقة الاستفتاء هى الطريقة السلمية أكثر فأكثر لتحقيق تقرير المصير الذاتى . ومع ذلك فإن الاستفتاء لم يطبق الا فى حالات قليلة بعد الحرب الكبرى الأولى . فلم يعتبر اجراء استفتاء ضروريا للتأكد من ارادة الشعب كقاعدة عامة واستخدم الحلفاء أدلة أخرى . بل ان الرئيس ويلسون رأى أنه ينبغى اعطاء سيليزيا العليا كلها لبولندا بدون استفتاء ، ولكن لويد جورج أصر على أخذ الأصوات ، وكانت النتيجة أن ٦٠ فى المائة من الأصوات ذهبت الى ألمانيا . وقسم البلد بين ألمانيا وبولندا تبعا للحدود الاتوغرافية بقدر الامكان ، برغم أنه نجمت عن ذلك صعوبات اقتصادية كبيرة . وفى هذه الحالة بذلت عناية كبيرة لتأمين حرية التصويت وتخفيف عواقب التقسيم . بيد أن الاستفتاءات بصفة عامة نادرا ما أثبتت أنها أسلوب يمكن الاعتماد عليه فى التأكد من الارادة الحقيقة للناس . فالتاريخ يبين أنه استخدم أساسا بواسطة الدكتاتوريين لضمان الموافقة الشعبية لاستيلائهم على السلطة أو الضم . وكان نابليون الأول والثانى ناجحين جدا فى استخدام الاستفتاءات التى كانت تسفر دائما عن أغلبية ساحقة لمصلحتهما ، كما أدخل هتلر تحسينات على أسلوبهما . وقد لعب الارهاب طبعا دورا كبيرا فى استفتاءات هتلر ، ولكن تنويم الجماهير مغناطيسيا بواسطة أساليب ماهرة جدا من الايحاء كان له أكبر الأثر . فالخطابات الحماسية والمقالات الزاخرة بالشعارات التى تدير الرؤوس والاغراءات الماهرة والتهديدات المستترة والراديو بمكبرات صوت فى كل شارع واللافتات الهائلة والرموز المجسمة والدعاية

(١) آدم وولف «Geschichte Bilder aus Oesterreich» ١٨٧٨ ص ٢٠٩ .

بالسينما وسحر الجماهير وهي تسير بخطى عسكرية تهتف وتغنى وصوت
الطبل الكبير والموسيقى العسكرية وسيل الأعلام والأنوار الباهرة وزئير
قاذفات القنابل في الهواء وقعقة العربات المصفحة والمدافع في الشوارع
والاحساس بأن المرء محاط بأعين متجسسة في كل لحظة ، ليلا ونهارا ،
كل ذلك يخلق جوا تتطلب مقاومته مزيجا من الذكاء الناقد والطاقة غير
العادية والاستعداد للتضحية بكل شيء .

وواضح أن تقرير المصير الذاتي يفترض سبقا ظروفا تجعل في وسع
الناس أن تكون رأيا حرا بلا ضغط أو ارهاب أو ايجاء أو تحيز أو جهل .
وفي الأوقات العادية لا يوجد ارهاب والأخطاء في الحكم السياسى يمكن
اصلاحها دون ضرر كثير ، ولكن قضايا تقرير المصير تثير دائما الانفعال
الى درجة كبيرة ويكون حساب النتائج عسيرا في حالات كثيرة والأخطاء في
الحكم نادرا ما يمكن اصلاحها بطريقة سلمية .

والأمر الثالث الذى تنطوى عليه مشكلة تقرير المصير الذاتي هو
أهدافه وحدوده المشروعة . فالأمة لا تستطيع تفسير هذا الحق بمعنى
السلطة المطلقة فى أن تفعل ماتشاء ، على الأقل دون أن تجلب على نفسها
خطر الدمار . وقد نمت فى هذه المجال عدة قواعد فى القانون الدولى
ولا حاجة بنا هنا للدخول فى التفاصيل . فاعادة حكم القانون بعد هذه
الحرب « الحرب العالمية الثانية » ستواجه الضرورة الملحة لتقييد
السيادة القومية أكثر مما حدث فى أى وقت مضى . فتجربة
التاريخ القريب المريبة لا تترك مجالا للشك فى أن فكرة السيادة غير
المحدودة التى كانت تختفى وراء ستار تقرير المصير الذاتى أسفرت
عن كوارث . فعندما أعاد هتلر تسليح أرض الراين بالرغم من القانون
الدولى اعتبر الراى الديموقراطى فى بعض البلاد أن ذلك له ما يبرره
فى مبدأ تقرير المصير الذاتى . والآن يدرك كل الناس أنه كان الخطوة
الأولى نحو هدف هتلر لاستعباد العالم . وقبل الحرب الأخيرة لم تنبذ
الامبراطورية الروسية الضخمة قط التزاماتها بمقتضى معاهدة باريس
بالامتناع عن تحصين جزائر الآلاندى ، كما احترمت فرنسا حياد سافوى
العليا الذى أقره مؤتمر فينا . ان فكرة حكم القانون تنطوى على أنه
لا يحق لاحد أن يمارس حقوقه بطريقة تضر المصالح الحيوية للآخرين .
فلا يحق لاحد أن يشعل النار فى منزله اذا كان ذلك من الممكن أن يدمر
منازل مجاورة .

والواقع ان المرات التى أنكر فيها حق تقرير المصير كثيرا ما كانت

حجة الدفاع عن هذا الإنكار على أساس أن المصالح الحيوية لأمة أخرى تصبح مهددة بالخطر إذا أقر ، وكثيرا ما أسئ استخدام هذه الحجة في أغراض التوسع والسيطرة . وكان أكثر هذه الحالات متعلقا بالمطالبة بخدود استراتيجية أو بطريق الى البحر أو بامتلاك موارد طبيعية . بيد أن اختراع الطائرات والمصفحات والغواصات قلل كثيرا من قيمة الحدود الاستراتيجية ، ويعتمد الدفاع الآن أولا على الامكانيات الصناعية والقوى العاملة .

ولن يكون في وسع الأمم الصغيرة أن تقاوم معتديا قويا الا بتكتيل قواها وتكوين فدرالات واقامة حكم القانون الدولي . فالوصول الى البحر والمواد الأولية يمكن أيضا تحقيقه بوسائل غير ضم الاقاليم وانكار حق تقرير المصير .

هذا بالإضافة الى أن حق تقرير المصير كثيرا ما أنكر على أساس أن أمة أخرى اما فتحت البلد في الماضي للمدنية أو أنها خير من يستطيع أن يفعل ذلك في المستقبل . ويتوقف وزن هذه الحجة على عدة ظروف . وقد يكون لايقاف حق تقرير المصير ما يبرره أيضا عندما تصير أمة غير قادرة مؤقتا على تكوين ارادة قومية سليمة . وسيكون هذا هو وضع ألمانيا وبعض الدول الأخرى بعد هذه الحرب . إذ أن هتلر قد سار شوطا كبيرا في استئصال تلك العناصر من خصومه التي يعد وجودها ضروريا لتكوين ارادة قومية ، وسيطلب الأمر وقتا حتى تعوض هذه الخسارة . فالارادة القومية الحقيقية لا يمكن أن تتكون بواسطة كتلة متميعة غير محدودة الكيان ، إذ هي تعتمد على تكوين قومي معقد جدا لا يمكن إعادة بنائه على الفور اذا تعرض للدمار .

٩ - حقوق الأقليات القومية

ان البلاد التي تضم سكانا متجانسين في الجنسية قليلة في العالم . فكثير من البلاد فيها أقليات قومية نشيطة وبعضها فيه أقليات كامنة . ففي أوروبا تعد أمم الغرب بصفة عامة أكثر تجانسا من أمم الشرق (١) ، ويرجع ذلك الى أن شرقى أوروبا في الماضي كثيرا ماتعرض لغزوات من شعوب حربية من آسيا ولحركات كبرى واختلاط في الأجناس من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى أن الدولة القومية نمت في الغرب قبل

(١) انظر بصفة خاصة العرض الممتاز لهذه الظروف الذي كتبه ش.أ. ماكارنتي

في « الدول القومية والأقليات القومية » ، ١٩٣٤ .

الشرق بكثير ونجحت في ادماج شعوب صغيرة كثيرة في وحدات قومية كبيرة . وعندما حاولت الأمم الشرقية فيما بعد أن تحذو حذو الغرب بدمج أقليتها فشلت بسبب أن كل شعب في هذه الأثناء كان قد نمت لديه وعى قومي شديد وأن صعود المبادئ التحررية جعلت امتصاص أية أقلية كبيرة بالضغط الرسمي مستحيلا تقريبا .

وأفضت « معاهدات السلام » في ١٩١٩ - ١٩٢٠ إلى تكوين عدد من الدول القومية الجديدة ، ولما كانت هذه الدول تضم أقليات قومية كبيرة فإنها فرضت عليها أيضا التزامات معينة قصد بها حماية هذه الأقليات ضد التجريد من القومية . وقد جاءت هذه الالتزامات ضمن عدد من المعاهدات والبيانات ، وعهد إلى عصبة الأمم بالرقابة العليا على تنفيذها . بالإضافة إلى إبرام بعض الاتفاقات بين دول مختلفة بهدف المحافظة على وضع أقليات معينة . والواقع أن عصبة الأمم بذلت جهودا كبيرة لحماية حقوق الأقليات ، ولاشك في أنها تركت أثرا مفيدا (١) وإذا كان دورها مع ذلك قد تعرض لكثير من النقد ورئي أنه غير فعال ، فإن ذلك لا يرجع إلى نقص الحماسة أو الكفاية لدى العصبة ، بل للصعوبات الضخمة المتأصلة في المشكلة .

وكانت حقوق الأقلية التي تضمنها معاهدات الصلح مقتصرة على مجال ضيق جدا ، ولا شك أن القدر الفعلي من الحماية الذي حظيت به الأقليات مثلا في الدولة النمساوية السابقة كان أكبر مما تضمنته المعاهدات ، وإن كانت بعض الدول المنبثقة منها قد منحت أقلياتها حقوقا أوسع شيئا ما من الحد الأدنى الذي وضعته المعاهدات . بيد أن معظم الدول المنبثقة نفرت من القيد على سيادتها الذي تنطوي عليه معاهدات الأقليات ، وعارض بعضها بشدة الخضوع لأية رقابة دولية على أساس أنها لا تتفق مع استقلالها القومي ، ومن ثم حاولت التهرب من التزاماتها . بل إن بولندا نبذت علنا التزاماتها بمقتضى المعاهدة . وتدمرت الدول المنبثقة بصفة خاصة من أن الدول الكبرى لم تفرض عليها أية التزامات ماثلة لمصلحة الأقليات . والواقع أن إيطاليا ارتكبت أسوأ أعمال الاضطهاد ضد الألمان النمساويين والسلوفينيين من الأقليات

(١) وصفت إنجازات عصبة الأمم وأسلوب عملها بواسطة لوسي ب. ماير « حماية الأقليات » ١٩٢٨ . ونوقشت الإجراءات بتفصيل في كتاب يوليوس ستون « الضمانات الدولية لحقوق الأقليات » ١٩٣٢ . وانظر كذلك و. أسوليفان مولوني « الجنسية ومعاهدات الصلح » ١٩٣٤ .

التي ضمت اليها بعد الحرب . ولم تخضع ألمانيا أيضا لمثل هذه القيود باستثناء في سيليزيا العليا ، ومن ثم استطاع النازيون معاملة الأقليات بوحشية . وأخيرا ، كانت سياسة العصبية عامة تتسم بالتردد والضعف في معاقبة التصرفات التحكيمية من جانب الدول الأعضاء واصلاح الأخطاء . وكان ذلك نتيجة لابد منها لدستور العصبية نفسه ونقص أية سلطة حقيقية فيه .

ان بنود المعاهدات التي وعدت الأقليات حقوقا مدنية مساوية وتسهيلات لاستخدام لغتهم في المحاكم وفي مدارسهم الابتدائية (ولكن ليس . . الثانوية) وما الى ذلك برغم أنها ثمينة فانها لم تمس سوى اطراف المشكلة . وحتى عندما عقدت اتفاقات خاصة منحت الأقليات أكثر من الحد الأدنى من الحقوق ، فان مركزها الفعلي ظل في حالات كثيرة سيئا . فهي تشكو من أنها لا تحصل على نصيبها المناسب في الخدمة المدنية ، وبخاصة في المراكز العليا ، وأن مصالحها الاقتصادية والثقافية الخاصة تهمل أو يعتدى عليها ، وأنها لا تملك أى نفوذ سياسى ، وأن توجيه السياسة الخارجية متعارض مع عواطفها القومية، وأن كثيرين من الموظفين يظهرون تحيزا كبيرا وعداء في معاملتهم . ولاشك أن كثيرا من هذه الشكاوى له ما يبرره وأن كثيرا منها أيضا مبالغ فيه بشكل متطرف . ان العلاقات بين الأمم يسرى فيها عدم الثقة والغيرة والمحاولة المستترة أو الصريحة للسيطرة الى حد ان الأمم المتنازعة تنظر الى كل مسألة من زاوية مختلفة تماما . ومصاعب حماية الأقليات ناجمة عن أن الدول اليوم لديها سلطة السيطرة على حياة المواطن بأكملها تقريبا وأنها بذلك تملك امكانيات لا نهاية لها فى التمييز ، وأن أية حماية خاصة للأقليات تحت الرقابة الدولية تنطوى على تحديد لكل من انسيادة القومية ومبدأ الأغلبية الذى يعتبر ضروريا للديموقراطية . ومن ثم فان حل المشكلة يتطلب أن تتشرب كل من الأغلبية والأقلية بروح الاحترام لحقوق الانسان وبالفهم المتعاطف كل منهما نحو الأخرى، وهو أمر مع الأسف لا يتحقق الا نادرا جدا . ان الديموقراطية من الناحية النظرية ذات اتجاه عالمى ، ولكنها ، عملا ، كثيرا ما تعجز ، حتى فى الأمم ذات التقاليد الديموقراطية والانسانية الراسخة ، عن التغلب على التحيزات والعداوات القومية . ويبدو ذلك واضحا فى معاملتها العنصرية للعناصر التي تختلف فى اللون أو التي يفترض أنها من « دم » مختلف . وهناك مثال آخر فى موقف كثير من الديموقراطيات الحديثة بالنسبة للأجانب الذين لا يؤلفون أقلية قومية ولكنهم يريدون الاستقرار

في البلد كأفراد ليكسبوا عيشهم بالعمل الشريف وليصيروا مواطنين وأعضاء في الأمة . ان موقف قطاعات كبيرة وذات نفوذ من هذه المشاكل كثيرا ما اتسم بضيق غير عادي في الأفق من مزيج من الفيرة الاقتصادية والعجرفة القومية . وهناك قطاعات أخرى من نفس الأمة كثيرا ما أظهرت في نفس الوقت روحا مختلفة تماما وفعلت كل ما في وسعها المقاومة التحيزات العنصرية والقومية ولتتيح للأجنبي فرصة عادلة .

والأفراد الذين انبثقوا من أمة أقلية أو عاشوا بين أمة أجنبية أسهموا بنصيب كبير جدا في صعود النزعة القومية . ففي ألمانيا كان انتشار مشاعر الوحدة الألمانية ونمو العداء نحو روسيا والسلافيين قبل الحرب الكبرى الأولى الى حد كبير من عمل الألمان من اقاليم البلطيق التابعة للامبراطورية الروسية . فألمان البلطيق كانوا يؤلفون مجموعة نشيطة جدا وحية ثقافيا ، ذات تقاليد ارستقراطية ، وقد ظلوا مدة طويلة يمدون قياصرة روسيا بضباط ممتازين كثيرين ورجال ادارة وعلماء وصناعيين . وقد حدد نمو النزعة القومية الروسية من دورهم كثيرا وأدى الى اجراءات اضطهادية ضد الاقليات الألمانية . وهاجر كثيرون منهم الى ألمانيا حيث كانت لهم علاقات عائلية مع النبلاء وحصلوا على مراكز ذات نفوذ في الجيش وفي الخدمة المدنية والحياة الثقافية . وكان نصيبهم في اثار النزعة القومية الألمانية كبيرا جدا . وقد قام المثقفون الألمان من الأقاليم المختلطة في النمسا والمجر ، الذين تحدوهم ذكريات عدد لا يحصى من النزاعات المحلية مع السلافيين والمجريين وملؤهم العداء المرير نحوهم ، بدور كبير مماثل . ان أدولف هتلر لا يمكن فهمه على أساس سليم الا كنتاج لعقلية هذه الجماعة وقد كيفت نفسها مع الطبقة الدنيا من أشباه المثقفين . وقد كان الألمان المقيمون بالخارج أيضا ، أو على الأقل قطاع كبير منهم ، من الدعاة المتحمسين بصفة خاصة للنزعة القومية ، وبجانب هتلر نفسه كان عدد كبير من أقرب معاونيه ، مثل روزنبرج وهيس وداريه ، من هذه الفئة .

بيد أن هذه الظاهرة ليست مقتصرة على الألمان وحدهم . ففي الأمم الأخرى تظهر لدى الافراد الذين يعودون الى وطنهم الاصلي بعد اقامة طويلة في الخارج ، حيث كثيرا ما احتلوا مراكز متميزة وواجههم العداء القومي والموجة الصاعدة لشعب آخر ، كانوا قد أصبحوا ينظرون اليه على أنه أدنى . ويقال : ان كثيرين من الموظفين والضباط المتقاعدين الذين كانوا يعملون في المستعمرات لديهم احتقار نحو الأجناس الملونة بصفة خاصة .

الخلفية الاجتماعية للنزعة القومية الحديثة

١ - الآراء المختلفة في أسباب ظهور النزعة القومية : أثر الطبقات الحاكمة

تختلف الآراء حول أسباب صعود النزعة القومية العدوانية في عصرنا اختلافاً بينا بسبب الاختلافات في الأيديولوجية السياسية أو في الاتجاه الفلسفي أو الاجتماعي . والأحزاب السياسية مرغمة على تبسيط الوقائع الاجتماعية أكثر مما ينبغي وأن تنظر إليها من زاوية واحدة . وكذلك المفكرون التجريديون أيضاً كثيراً ما ينجحون إلى إضفاء أهمية أكثر مما ينبغي على عامل واحد . بيد أن الصعود الأخير للنزعة القومية لا يمكن إرجاعه إلى سبب واحد فحسب ، والبحث الموضوعي يجب أن يدخل في اعتباره عدة قوى كثيرة .

إن التحرريين والديموقراطيين يعززون هذه الظاهرة إلى مطامع الملوك والارستقراطيين والجنود المحترفين ، وهم يرون في صعود النزعة العدوانية نكسة إلى روح الماضي ، ويؤكدون أيضاً تأثير الضائقة الاقتصادية ونقص التربية السياسية . ويشير المحافظون إلى أن صعود النزعة القومية اتفق حدوثه مع هبوط الملكيات والدين وأن ما جعل في حيز الإمكان هذه الثورة الجامحة للعداوات القومية والحروب القومية الحالية هو بالذات بعض تلك الانجازات الحديثة مثل أساليب الإنتاج الحديثة والدعاية .

ويحمل الاشتراكيون الرأسمالية العبء فيفسرون المنافسات الدولية باعتبارها صراعا بين الرأسماليين من مختلف الأمم لاحتكار الأسواق ، واعتبروا شعارات الشرف القومي والوحدة القومية مجرد وسائل لتحطيم قوة الطبقة العاملة . أما دعاة القومية فانهم من ناحيتهم



يحبون وصف سياستهم بأنها تهدف الى تحقيق الحرية السياسية والاقتصادية لامتهم .

وعند مناقشة هذه الأقوال سنجد أنها جميعا تمزج الحقيقة بغير الحقيقة وأنها جميعا تبسط المشكلة أكثر مما ينبغي . ففيما يتعلق بالنزوع الى القتال لدى الحكام والطبقات الحاكمة يعطينا التاريخ في الواقع عدة أمثلة بارزة . ففي العصور السابقة كانت الارستقراطية أساسا طبقة من المحاربين ، وكثيرا ما كان الملوك مضطرين الى شن الحروب لكي يستخدموهم في الخارج ويمنعوهم من تدمير ممالكهم نفسها وبذلك يقضون على الوحدة القومية . بيد أن الملوك كانوا أحيانا أكثر ميلا الى القتال من الطبقات المتميزة . وبصفة عامة كان البيت المالكي الجديد ، وبخاصة اذا بدأ بمغتصب للعرش ، في حاجة الى الحروب لاستقرار حكمه وبسط نفوذه أكثر من البيت المالكي القديم . لقد قال نابليون في ١٨١٢ للسفير الأسباني ، الأمير شوارزنبرج الذي عرض وساطته : انه لن يقبل قط صلحا مهينا لأن ذلك يقلب عرشه . لقد كان مغتصبا ويعتمد على الرأي العام . والفرنسيون لديهم خيال حي ، وكانوا يحبون المجد والاستشارة ومزاجهم عصبي . ان السبب الحقيقي في قلب حكم البوربون على يد الثورة الفرنسية هو هزيمة روسباخ (١) . ويرجع جزء من عدم الشعبية الذي تعرض له بيت

(١) جون هولاندورث « نابليون الاول » المجلد الثاني الفصل ٢٣ .

سيتوارت المالك ، وأدى الى الوثرة الانجليزية ، الى سياسة جيمس الأول السلمية والهزائم العسكرية التى لحقت شارل الأول . وكان السبب الرئيسى فى سقوط لويس نابليون سنة ١٨٤٨ هو عدم رضا اليسار عن سياسة الحكومة السلمية . ويقول بسمارك فى مذكراته (١) : انه بين شعوب أوروبا بصفة عامة كان أكثر الملوك شعبية هم أكثرهم ميلا للقتال، مثل شارل الثامن ملك السويد ولويس الرابع عشر ونابليون . ثم يقول : انه لا توجد حالة واحدة فى تاريخ الشعوب الأوروبية رضيت فيها هذه الشعوب عن الاهتمام الدائب برفاهيتها سلما بقدر ما ارضى مجد الحرب والمعارك المنتصرة وغزو الأقاليم الأجنبية شعورها .

وقد تغيرت روح الطبقة الأرستقراطية المحاربة مع الوقت تغيرا كبيرا ، وتكيفت مع العقلية العامة فى بلاد مثل بريطانيا وفرنسا . وكان هذا هو الوضع أيضا بدرجة تزيد أو تنقص بالنسبة للجنود المحترفين، ولا يمكن أن يؤخذ رأى السلميين من أن الروح العدوانية متأصلة فى كل جيش وأسطول وأن جميع الأمم التى لم تنزع سلاحها تحدوها النزعة الحربية ، مأخذ الجد . فالجندى يميل بطبيعة الحال الى النظر لسياسة من زاوية عسكرية ، الأمر الذى يؤدى بسهولة الى النزعة العسكرية ، ولكنه من الواضح أن القوى المضادة فى رأى العام فى بلاد مثل بريطانيا وفرنسا تأثرت بها تماما . وحتى فى ألمانيا لم تشارك الأرستقراطية كلها فى التقاليد الحربية لليونكرز البروسيين . فالمجموعات « الضخمة » من الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بأصل الحرب الكبرى الأولى تدل على أن الأغلبية العظمى من الدبلوماسيين الأرستقراطيين كانوا أصدقاء مخلصين للسلام فعلوا كل ما فى طاقتهم لمنع وقوع الحرب . وينطبق هذا حتى على ممثلى ألمانيا الرئيسيين فى بريطانيا مثل هاتزفلد وايكارد شتاين ورولف مترنيخ وليكنوفسكى .

ومع ذلك فإن الملوك ومسشاريهم كان لهم دور ضخم من وقت لآخر ، حتى فى العصور الحديثة ، فى زيادة حدة التوترات القومية واشعال الحروب . فليس هناك باحث معتن للوثائق الدبلوماسية المتعلقة بالحرب الكبرى يستطيع انكار أن الامبراطور وليم الثانى يقع عليه عبء المسؤولية البالغة فى العداء العميق بين الألمان والأمم الأخرى والانفجار الكبير . ولم يكن طبعا المذنب الوحيد فى ألمانيا ، ويستطيع

(١) بسمارك «Gedanken und Erinnerungen» الجلد الثالث ١٩١٩ ص ١٢٣ .

المرء أن يجادل فى أنه كان يريد الحرب حقيقة . ومع ذلك فإن دوره فى حتمية اشعالها كان حاسما . ويجب البحث عن الأسباب العميقة لسياسته فى تخيلاته الشديدة ونفسيته المريضة وتأثير الأفكار القومية والعسكرية على عقله . وفى رغبته فى ايقاف التقدم السريع للروح الديموقراطية فى ألمانيا بسياسة براقة من التوسع والمجد الحربى . ومن المفيد أن تقارن موقف القيصر هذا بموقف ابن عمه القيصر نقولا الثانى الذى كان يخشى أيضا نمو القوى الديموقراطية فى امبراطوريته . لقد كان نيقولا أقل ذكاء بكثير من وليم ، ومع ذلك فقد أدرك أن الحرب قد تدعم ، الى حد كبير جدا ، الحركة الثورية وبذل كل ما فى وسعه لتجنبها . وقد دلت الأحداث على أنه كان أبعد نظرا فيما يتعلق بنتائج الحرب من قيصر ألمانيا .

والرأى القائل بأن نمو النزعة القومية العنيفة يرجع الى بعض الانجازات التى يشاد بها كثيرا فى مدينتنا ينطوى على بعض الحقيقة ، بيد أنه يجب عدم المبالغة فيه . فلا يكاد يكون هناك أى أنجاز حضارى لم يسأ استخداما فى الحرب أو فى أغراض شريرة أخرى . ومع ذلك فليس هناك بديل لذلك . وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نبين أن هناك خطرا ونحاول تجنبه ، ولكن ليس هناك انسان مالك لقواه العقلية يقترح أن ندمر كل المصانع الكيماوية لأنها قد تستخدم فى صنع الغازات السامة .

٢ - أثر الرأسمالية . الحرب والرأسمالية

هناك رأى منتشر على نطاق واسع جدا بين الناس يذهب الى أن النزعة القومية العدوانية ليست أكثر من شعار أيديولوجى للمصالح الرأسمالية الأنانية . فالرأسمالية ، تبعا لهذا الرأى ، هى التى تؤدى بالضرورة الى الحروب ، ولما لم يكن هناك من يقاتل لمجرد زيادة مكاسب المشروعات الاقتصادية الكبرى فإن أقطاب المال لا بد أن يستخدموا شعارات تجتذب الجماهير مثل الأمن القومى أو المصالح القومية أو الشرف القومى . ولا يبشر بهذه النظرية الشيوعيون والاشتراكيون وحدهم ، بل انها وجدت قبولا أيضا فى دوائر واسعة من الطبقة الوسطى لا تعتبر اشتراكية صراحة ، وبخاصة بين المثقفين ودعاة السلام ، كما يجب دعاة القومية أيضا أن يستغلوا النفور العام ضد الرأسمالية . ان هتلر وموسوليني ينددان بالديموقراطيات الغربية على أنها « ديموقراطيات زائفة » أو باعتبارها أدوات لليهود

الرأسماليين مشيرى الحروب . ولكن فيما يتعلق بتحديد ما هي الرأسمالية ولماذا تؤدي الى الحرب ، وكيف تؤدي اليها ، تختلف الآراء الى حد كبير .

ويبدو أن أوضح صلة بين مصالح الرأسماليين والحرب هي حالة صناعات الأسلحة (١) . اذ يبدو جليا لمعظم الناس أن صانعي المدافع لابد أن تكون لهم أكبر مصلحة في زيادة الطلب على المدافع وأن الدعاية من أجل الحرب هي افضل استثمار بالنسبة لهم . وهناك مجموعة أخرى من النظريات لا تقتصر فيها المسئولية على هذه الصناعة بالذات بل تحاول اثبات ان النظام الرأسمالى في ذاته يولد الحروب . وبعض هذه التفسيرات أساسها نظرية العجز في الاستهلاك التى وضعها الاقتصاديون فى صور مختلفة . ولب هذه النظرية هو أن الرأسمالية تعمل على تخفيض أجور العمال الى أدنى حد وبذلك تقلل من قوتهم الشرائية أيضا . وتكون النتيجة أنهم لا يستطيعون شراء سلع كافية من المنتجين الصناعيين والزراعيين وتحدث الأزمات الاقتصادية وتنتشر البطالة . والصناعيون الذين لا يستطيعون بيع كل منتجاتهم للطبقات العاملة ذات الأجور المنخفضة فى بلادهم مضطرون للبحث عن أسواق فى الخارج ، ويشير ذلك المنافسة بين الأمم الصناعية فى سبيل اكتساب أقاليم جديدة وينتهى الأمر بالحرب . وأهم ممثل لأصحاب هذه النظرية فى البلاد التى تتحدث الانجليزية هو : ج . أ . هوبسون (٢) . بيد أن بعض الاقتصاديين استخدموا هذه الحجة لمجرد تفسير البطالة دون أن يصلوا الى حد تأكيد أن عجز الاستهلاك يؤدي الى التسابق على التوسع والحرب .

وتقدم هيلفردنج ولنين بنظرية أخرى تعزو مسئولية الحروب الى مصدرى رأس المال ، الى رأس المال المالى ، أو المصارف الكبرى وليس الى مصدرى السلع . فهما يذهبان الى أن تركيز الانتاج ورأس المال يؤدي الى تكوين مشروعات كبرى تحاول الحصول على احتكارات بتنمية انتاج المواد الحيوية فى جميع أنحاء العالم وتركيزه فى أيديها . وينتج عن هذه المحاولات تصادم بين الجماعات المتنافسة ثم الحرب فى النهاية للاستيلاء على الأقاليم الغنية بالموارد والصناعات . وهناك نظرية ثالثة تضع الثقل الرئيسى على محاولة الرأسماليين اخماد الحركة العمالية

(١) عالج فيليب نوبل بىكر نظرية ان صناعات الاسلحة هى سبب الحرب بعناية وبطريقة مفيدة فى كتابه « صناعة الاسلحة الخاصة » المجلد الاول ١٩٣٦ .
(٢) ج . أ . هوبسون « الامبريالية » الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٨ .

في بلادهم . فالخوف من الاشتراكية والنقابات هو الذي يدفعهم الى تأييد حركات من شأنها أن تحول أنظار الجماهير عن مصالحها الحقيقية ، وتعمل على القضاء على الحرب الطبقيّة باثارة الأحقاد القومية والحروب ضد الأمم الأخرى واقامة الديكتاتورية .

والواقع أن صناعات الأسلحة لابد ، حتى تباع منتجاتها ، أن تظل على صلة وثيقة بالدوائر العسكرية العليا ويغلب أن تشارك هذه الدوائر في اتجاهها وتؤيد سياستها الى حد معين . وصحيح أيضا أن كثيرا من الحروب كانت مصدر ثراء كبير ، لا لمنتجي الأسلحة وحدهم ، بل أيضا لموردي السلع الأخرى الضرورية للحرب وكذلك لرجال المال (١) . ولكن في عهدنا الحالي تغيرت الظروف كثيرا ، مما يرجع بعضه الى التجارب التي تجمعت من الحروب القديمة وبعضه الى صعود الديمقراطية . فالصناعات الحربية الخالصة ليست سوى جزء صغير من صناعات أى بلد ، وما تكسبه عن طريق الحرب يقل كثيرا عما تخسره الصناعات الأخرى بسبب ظروف الحرب . فضلا عن أن معظم الأسلحة تنتجها مصانع تنتج في نفس الوقت سلعا لا تلقى رواجاً الا في وقت السلم . ومن ثم فإن مصلحتها منقسمة ، وقد تخسر بسبب هبوط الاستهلاك المدني والاستثمار في انتاج سلع مثل السيارات أو مواد البناء أو عربات السكك الحديدية ، أكثر بكثير مما يمكن أن تكسبه من زيادة انتاج الأسلحة . ان وقت الأرباح الكبيرة بتوريد مؤن الجيوش قد انتهى . لقد كانت ممكنة في وقت لم تكن فيه الحكومات قد اكتسبت خبرة كبيرة في المحافظة على مصالحها المالية ولم يكن في وسعها ، أو لم ترد ، أن تسير شوطا بعيدا في السيطرة على الصناعات . ان رد الفعل لدى الجماهير من فضائح مكاسب الحرب والتطور السياسي بعد الحرب الكبرى الأولى أحدثا تغييرا جذريا في الموقف . ففي البلاد الديمقراطية اتخذت اجراءات قاسية لتقييد مكاسب الحرب الى ادنى حد ممكن بواسطة ضرائب الأرباح الزائدة وتثبيت الأسعار والحد من الائتمان لأغراض المضاربة ومنع التضخم ، وهكذا . وأوضح دليل على أن الرأسماليين بصفة عامة لا يؤمنون بالحرب كوسيلة لزيادة أرباحهم هو واقعة أن مجرد خطر قيام الحرب ، وأكثر من ذلك نشوبها فعلا ، كان يؤدي في العقود الأخيرة الى سقوط كبير في أسعار الأسهم

(١) وصف فرنر سومبارت العلاقة بين الرأسمالية والحرب بتفصيل كبير في «Krieg und Kapitalismus» ١٩١٢ ، ثم في «Der moderne Kapitalismus»

في ستة مجلدات .

الصناعية في السوق المالية ، حتى أسعار صناعات الأسلحة ، وإلى فترات طويلة من الهبوط الاقتصادى العام .

وقد يعمل منتجو الأسلحة أحيانا على زيادة التوتر باستغلال عدم الثقة القائم بين بعض الأمم المعينة لحملها على شراء مدافع أو أدوات حربية أخرى كثر . بيد أن دراسة الأدلة المتاحة تدل على أن تأثيرهم في اشعال الحروب بولغ فيه كثيرا . وما كان امتلاك الدولة لمصانع الأسلحة ليغير من الموقف فى أى شئ . ان فكرة أن زيادة الأسلحة هي السبب الرئيسى الذى يؤدى الى الحرب تنبثق من أيديولوجية تسمى فهم الدوافع الحقيقية للنزعة القومية العدوانية .

كما أن البحث التاريخى لا يؤيد رأى القائل بأن الحروب الحديثة هي أساسا صراع من أجل الحصول على الأسواق أو على الموارد الطبيعية . لقد كانت هذه الدوافع تلعب فعلا دورا كبيرا فى اثاره الحروب فى العصر المركاتيلى ، ولكن الظروف الأساسية للتجارة تغيرت تماما منذ ذلك الوقت كما سنبين حالا . كما أن نظرية عجز الاستهلاك بصفة خاصة أماد حضتها فى جميع صورها أبحاث التحليل الاقتصادى (١) ، أو لاتؤيد هذه الأبحاث التهمة الموجهة الى الرأسمالية بل تدين النظام النقدى فحسب . وثانيا : يدل البحث التاريخى فى أصل الحروب الحديثة على أنه فى الأغلبية الساحقة من الحالات لم يكن لهذه الحروب شأن بالصراع من أجل الاسواق ، او كانت صلتها به ضعيفة جدا . ويعرض الأستاذ روبينز فى كتابه الممتاز ، المشار اليه فى الهامش ، أمثلة كثيرة تجعل ذلك الرأى واضحا تماما ، ومن السهل أن يعثر المرء على أضعاف هذه الأمثلة .

فبعد الحرب الكبرى ، وكذلك بعد بعض الحروب الأخرى ، نشرت جميع المراسلات الدبلوماسية والعديد من المذكرات فى البلاد التى يتعلق بها الامر لتوضيح موضوع « جريرة الحرب » . ودراستها بعناية ضرورية تماما لإصدار حكم صحيح فيما يتصل بأسباب الحرب . ومع ذلك فان هذه الوثائق لا تنطوى على أدلة تثبت أنه كان هناك تأثير صناعى أو مالى كبير فى اشعال الحروب . وصحيح أن الحكومات اتخذت أحيانا من ضرورة حماية تجارة الصادر حجة للتسليح أو لاتباع سياسة

(١) ليونل روبنز « الأسباب الاقتصادية للحرب » ١٩٣٩ ، وهيلموت جوتشالك « Die Kaufkraftlehre » ١٩٣٢ .

حربية ، ولكن فى معظم الحالات كان ذلك مجرد دعاية لاكتساب تأييد قطاعات من الشعب لاتهمها سياسة النفوذ والقوة . وفى حالات المشروعات الاستعمارية الكبرى كثيرا ما كانت الحكومات هى التى دفعت فى مبدأ الأمر المصارف أو المشروعات الصناعية الى القيام بهذه المغامرات ، وكثيرا ما كانت هذه المصارف والمشروعات لا تقدم عليها الا فى تردد . وكانت الدوافع الحقيقية لدى بعض الحكومات هى زيادة القوة والهيبة القوميتين وكانت المصالح الاقتصادية المزعومة مجرد أعذار . ان رجال المال والصناعيين من أهم مختلفة كانوا عادة راغبين فى التعاون بعضهم مع بعض وأن يشتركوا فى مخاطر تنمية موارد البلاد المتخلفة ، وكانت الحكومات هى التى كثيرا ما اعترضت لأسباب سياسية . وتدل الوثائق بالاضافة الى ذلك على ان كبار المالىين ورؤساء المشروعات الكبرى ، مثل آل روتشيلد (١) وكاسل وباليين وشواباخ وسيمنز وجوينر وويجاند وكايو ، كانوا ينفرون بشدة من السياسة التى قد تؤدى الى حرب ، وبذلوا ما فى وسعهم لتهدة التوترات الدولية وتحقيق السلام .

وكانت هناك حالة خاصة هى التى دافع فيها أقطاب صناعة الحديد الالمان فى أرض الراين ووستفاليا وبعض الصناعيين الالمان الآخرين الذين كانوا يؤيدون « رابطة الجامعة الألمانية » عن سياسة تقوم على النزعة القومية العدوانية . فقد حاول الاخوة مانزمان ، بمساعدة « الرابطة » ، حمل الحكومة الألمانية على الدفاع عن حقوقهم فى التعدين فى مراكش ضد الحكومة الفرنسية ، وكان ذلك فى الواقع من المحتمل أن يؤدى الى صراع خطير . ولكن الحكومة لم تؤيدهم ووجه المستشار بشمان هوللويج تقريرا شديدا الى « الرابطة » بسبب دعايتها وذهب الى حد رفض احتجاجها . ومما له مغزى أن هيجو ستينز ، الذى كان أبرز رجال الصناعة من أنصار « رابطة الجامعة الألمانية » وقف الى جانب المستشار تماما وندد بهجماتنا عليه . ويقول رئيس « الرابطة » وزعيمها ، هينريخ كلاس ، فى مذكراته : ان ستينز قال له صراحة : ان سياسته كلها القائمة على وضع الثقل على القوة السياسية خطأ . وقال : ان القوة الاقتصادية أكثر أهمية بكثير ، وكان يشتري باستمرار مناجم وصناعات فى جميع أنحاء أوروبا . ولم يكن الأمر يتطلب ، كما يقول ، سوى بضع سنوات من السلام حتى تحصل ألمانيا

في هدوء على السيطرة الاقتصادية على أوروبا . وكانت الدعاية الصاخبة التي أثارها « الرابطة » للحصول على نصيب في موارد مراكش أمرا مزعجا . وقد اتخذ الاخوة مانزمان طريقا بدائيا واقرب الى تصرف البهائم . ولر لم تثر « الرابطة » الرأى العام في الخارج فيما يتصل بموارد مراكش الفنية لحصل ستينز في هدوء على المناجم ومعها مساحات كبيرة من الأرض (١) . وقد انزعج كلاس طبعا لهذا التقرير ، وقال : ان هذا الموقف كشف عن أن المرء يستطيع أن يضير لأكبر تاجر وانجح رجال الصناعة في ألمانيا بحيث يتفوق على الآخرين بشوط كبير ومع ذلك تنقصه قدرة الحكم في الشؤون السياسية تماما . والواقع ان هذه الواقعة ذات مغزى كبير ، وان كان ذلك في غير المجال الذى يعنيه كلاس . لقد كان ستينز من أنصار الجامعة الألمانية وأيد في أثناء الحرب خطط الضم . ولكنه كان منظما صناعيا ذا تجربة واسعة أكثر منه داعية قوميا ، ولهذا السبب كانت عقليته تختلف تماما عن عقلية الداعية القومى العادى الذى يعتقد أن الوسيلة الوحيدة لدعم المصالح القومية هى التهديد باستعمال العنف . وقد ظهر ذلك بدرجة كبيرة عند أصحاب المصارف الذين كانوا أقل تأثرا بفكرة الجامعة الألمانية . وقد ذكر أحد وزراء الخارجية الألمان : « بمجرد أن تذكر مراكش تقوم المصارف على الفور باضراب » .

وقد ساعد كثير من أعداء بريطانيا بصفة خاصة على نشر الاعتقاد بأن السبب الأساسى في الحروب هو صراع مصالح الرأسماليين ، وقد أرادوا بذلك اخفاء جشعهم وتلهفهم على الغزو بوضع المسؤولية على عاتق الجانب الآخر . والحجتان التلقيديتان اللتان استخدمتا مئات المرات هما : الحسد المزعوم من جانب انجلترا نحو منافسيها وحرب البوير . وقبل الحرب الكبرى الأولى كان دعاة القومية الألمانية هم الذين استخدموا بلا تورع هاتين الحجتين ، وان لم يكونوا وحدهم فى ذلك . كما أن السياسيين الانجليز الذين عارضوا سياسة شمبرلين وضعوا الثقل هم أيضا على فكرة أن أصل حرب البوير المصالح الرأسمالية . ومع ذلك فان الحركة ضد حكم القلة الذى اقامه كروجر لم يكن العامل الأول فيها من عمل الرأسماليين . فالزعماء كانوا فى أول الأمر من الطبقة العاملة وهاجموا الرأسماليين الذين ظلوا بمعزل عن

«Wider den Storm. Vom Werden und Kacksen (١) هاينريخ كلاس
der Nationalen Opposition in Alten Reich» ١٩٣٢ ص ٢١٧ .

الحركة . وقد تغير هذا الوضع فيما بعد بتدخل سيسل رودز الذي حمل بعض أصحاب المناجم على تأييد الحركة ، في حين ظل غيرهم محايدا ، بل ان بعضهم اتخذ منها موقف معاديا . ووصف رودز بأن دوافعه الأساسية رأسمالية هراء . ان الحرب في الحقيقة كانت صراعا بين حركتين قوميتين تسعى كل منهما الى السيطرة (١) . وأسطورة أن الحسد التجارى من جانب بريطانيا هو السبب في الصدام بين ألمانيا وإنجلترا لا أساس لها أيضا من الصحة . وقد تناولت هذا الموضوع بتفصيل في كتاب آخر (٢) ، وأثبت أن هذه الأسطورة لا تتفق مطلقا مع الوقائع . وبعد الحرب الكبرى نبذت هذه الأسطورة حتى من جانب المؤرخين الألمان .

وهناك قدر أكبر من الحقيقة في حجة أن أصحاب الأعمال ايدوا الحركات الفاشية ماليا لتحطيم قوة العمال المنظمين ، بيد أن ذلك لا يثبت أنهم كانوا يريدون الحرب : ولعل الراى القائل بأن هتلر هو مجرد أداة الرأسماليين الذين أيدوه ماليا لأغراضهم الاقتصادية هو أكثر الآراء انتشارا فيما يتصل بأسباب النازية . ومع ذلك فان هذا الراى خطأ تماما . انه يخفى الطبيعة الحقيقية للحركة ويجنح الى أن يؤدي الى موقف سياسى من شأنه اضعاف الكفاح ضد النزعة القومية والفاشية . فبرغم أن هتلر كان شغوبا دائما بعقد صلات مع الأغنياء الذين كان يحصل منهم على نقود (٣) فانه لم يكن العوبة في يدهم قط ، كما ان تمويل حزبه لم يكن وقفا عليهم . فالقسم الاكبر من الأرصدة التى كانت تتطلبها حملة الدعايات الضخمة كان يجىء من أعضاء الحزب نفسه وبتأثير هتلر كخطيب ومنظم سياسى . ففي ١٩٣١ كان الحزب يضم ٨٠٠.٠٠٠ عضو مسجل كان كل منهم يدفع على الاقل ١٢ ماركا فى السنة ، كما كان الحزب يحصل على مبالغ ضخمة اخرى من بيع الكتب والصحف « وتذاكر » الاجتماعات . ومع ذلك فان الحزب كاد يفلس فى ١٩٣٢ ، وقدرت ديونه بمبلغ ١٢ مليون مارك . وفى هذا المأزق

(١) وتوجد الأدلة على ذلك فى كتاب ادوارد كوك « الحقوق والاختفاء فى حرب الترنسفال » ١٩٠٢ ص ٢٥٠ ، وكذلك فى كتابى «Recht und Unrecht im Boerenkriege»

الذى عارضت فيه تشويه انتصار الجامعة الألمانية لاسباب الحرب بهدف اعداد الشعب الألماني للصراع مع بريطانيا .

(٢) ف . هرتز «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ المجلد الاول ص ٢٦٢ .

(٣) كونراد هايدن «هتلر» (ترجمة انجليزية) ١٩٣٦ ص ١٠٠ و ٢٢٢ - ٢٤١ .

بذل هتلر جهودا جبارة لاجتذاب رجال الصناعة للحصول على مساعدات مالية على نطاق واسع . وكان وسيطه هو أوتو ديتريش ، الذى كانت له صلات قريى بأقطاب الحديد والفحم وكان قد قدمه فعلا الى بعضهم . ويعطينا ديتريش وصفا شائقا للطريقة التى اجتذب بها هتلر رجال الصناعة (١) . وكما يقول : رفضت الأغلبية العظمى منهم قبل ١٩٣٢ أن يثقوا فى هتلر وتمسكوا بنظام جمهورية ديمار . وفى ٢٧ يناير ١٩٣٢ ، عقد النادى الصناعى فى دسلدورف اجتماعا القى فيه هتلر خطابا . وكان معظم الأعضاء قد جاءوا الاجتماع لمجرد حب الاستطلاع وبروح الشك ، وفى البداية كانت الاغلبية الكبرى تنظر باستعلاء وبحفظ فى برود . « واستقبل هتلر استقبالا فاترا » ، ولكن الاجتماع بدأ يأخذ طابعا آخر بعد ذلك . فقد قارن هتلر بين مثالية الشباب الالماني وأنصاره من العمال وانكارهم لذاتهم بمادية البورجوازية الثرية وعدم تفهمها للأمور . وفى النهاية ، كما يقول ديتريش ، « نجح هتلر فى اختراق درع اقطاب صناعة المانيا الغربية » ، وكانت النتيجة مماثلة فى اجتماعات تالية عقدت فى أماكن أخرى . بيد أن هايدن يؤكد عن ثقة أن ثلث المستمعين فحسب أبدوا موافقتهم . أما الأغلبية فقد ظلت عازفة أو سلبية (١) . وأيا كان الأمر فإن هتلر منذ ذلك الوقت تلقى مساعدات مالية ضخمة من منظمات أصحاب الأعمال . فقد أعطاه فرتيزتسن ، أكبر أقطاب الحديد وأغنى رجل فى المانيا - وكان من انصاره المتحمسين - مبالغ وصل مجموعها الى مليون مارك فى عدة سنوات ، كما أن بعض الصناعيين الآخرين أعطوه مبالغ ضخمة (٣) . فقد أسهمت اتحادات أصحاب الأعمال فى رصد جمعه هوجنبرج ووضع خمسه تحت تصرف هتلر . وكان مجموع ما تلقاه النازى من الصناعة الثقيلة ، كما يقول يتسن ، حوالى مليونى مارك سنويا الى جانب بعض المساهمات الأخرى فى أغراض خاصة .

وقد أرضى هتلر توقعات بعض رجال الصناعة بأن قضى على النقابات والاشتراكيين وادت سياسته الاقتصادية الى زيادة نصيب الأرباح فى الدخل القومى فى حين ظل نصيب الأجور ثابتا تقريبا (٤) . بيد أن الأرباح كانت أساسا من نصيب صناعات الأسلحة ، فى حين

(١) أوتو ديتريش « مع هتلر فى الطريق الى السلطة » ١٩٣٤ .

(٢) كونراد هايدن « Geburt des Dritten Reichs » ١٩٣٤ ص ٤١ .

(٣) فرتيزتسن « دفعت لهتلر » ١٩٤١ ص ١٣٣ .

(٤) س. جيلبيود « انتعاش ألمانيا الاقتصادى » ١٩٣٩ ص ٢٤٤ .

ظل انتاج السلع الاستهلاكية متخلفا جدا . ولكن سياسة هتلر الاقتصادية فى المدى الطويل اغضبت رجال الصناعة الى حد كبير جدا . وقد هرب يتسن الى فرنسا وهاجم النظام النازى بشدة فى مذكراته . وانهى الى أن هذا النظام دمر الصناعة الألمانية (ص ١٨٨) ، وهو يؤيد رأيه بأدلة كافية .

ومن ثم فان الوقائع التاريخية تثبت أن هتلر تلقى معونات كبيرة من رجال الصناعة الأغنياء أنقذته من مشاكل مالية كبيرة ودعمت قوته الضاربة . ولكن هذه المعونات أعطيت عندما كانت حركته قد صارت فعلا اكبر حزب سياسى فى ألمانيا كما ظهر فى انتخابات سنة ١٩٣٢ . وواضح أن كثيرين من رجال الصناعة اعتقدوا أن المراهنة على الحصان الرابع صفقة طيبة . أما معظم المال الذى جعل فى وسع هتلر أن يفوز فى السباق من أجل السلطة فجاء من الجماهير . ويين كونراد هايدن، الذى كتب أفضل تاريخ لصعود هتلر (١) ، أن موجة عاتية من مناهضة الرأسمالية والمثاعر الاشتراكية هى التى حملت هتلر الى مقاعد السلطة . فقد أستغل هتلر بمهارة كل من قوى الاشتراكية والرأسمالية، ولكنه لم يقع أسيرا لأى منهما . ويستطيع المرء أن يقول : انه خان الرأسمالين والاشتراكيين من أنصاره وقادهم فى طريق لم يتوقعوه ولم يريدوه ، وان كانت أعداد كبيرة من القطاعين أدارت انتصاراته التى لم يكن لها مثيل رؤوسها وجرفها التيار .

ان رجال الأعمال المتزنين وبعيدى النظر كانوا يدركون عادة أنه ما من شئ أخطر على مصالحهم من السياسة العسكرية . وفى ظروف وقتنا لا تلبث مكاسب الحرب أن تتبدد ، فهى وهمية الى حد كبير ، فضلا عن أن كل حرب تنطوى على احتمال أن النصر له ثمنه فى شكل تنازلات ، للطبقات العاملة وأن الهزيمة قد تؤدى الى ثورة اجتماعية (٢) . وقد دفعت هذه الاعتبارات الطبقات المحافظة والرأسمالية فى بريطانيا وأمريكا

(١) ك. هايدن «Geburt des Dritten Reichs» ص ٣٨ و ٤٨ و ٨٨ و ٢٢٣ .

(٢) قال وزير خارجية ألمانيا كيدرلن واشتر فى حديث سرى ١٩١٠ ان من الاسباب التى تجعله ضد الحرب تماما هو ان النصر كان دائما من صنع الشعب الذى يجب أن يتقاضى الثمن بتوسيع حقوقه . فقد اضطرت ألمانيا أن تدفع ثمن نصر ١٨٧٠ بمنح حق الانتخاب العام ، وأى نصر جديد سيجلب الحكم البرلمانى الذى يعتبره ضررا لا يعوض . انظر كيدرلن واشتر «Briefwechsel und Nachlass hsg. von E. Jackh»

١٩٢٤ ص ٢٣٤ .

في السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الثانية الى تأييد سياسة التهدئة والانعزالية بأى ثمن تقريبا وحتى آخر لحظة ممكنة . وكان هتلر يعرف جيدا أنه يستطيع الاعتماد على خوف كل من الرأسماليين والطبقات العاملة في البلاد الديمقراطية من الحرب . وهناك أيضا أمثلة كثيرة لرأسماليين كبار ، مثل : كارنيجى وروكفلر ونوبل ورودز ونفيلد وروزنوالد ، اقتنعوا بأن السلام العالمى هو الضرورة الأولى للتقدم والمدنية ، وقدموا معونات سخية لمؤسسات تعمل لهذا الهدف أو ساعدوا أنشطة هذا هدفها . و « جمعية الاصدقاء » التى تنادى بالسلام الى حد متطرف تضم أيضا عددا كبيرا من رجال الصناعة الأثرياء جدا .

ولاشك أن هذه الجماعات المختلفة من الرأسماليين المحيين للسلام أكثر من ذوى النزعة الحربية بينهم .

أما موضوع ماذا كان النظام الاقتصادى الحاضر ، وهو رأسمالى جزئيا فقط ، يدعم بصورة غير مباشرة ولا واعية نمو القوى التى تهدد السلام فهو موضوع مختلف تماما . فنظام الحماية المتطرف السائد فى وقتنا لاشك أنه يسهم فى إثارة النزاعات الاجتماعية والبطالة على نطاق واسع وهما اللذان مهدا السبيل لهتلر . بيد انه ليس من الاكيد مطلقا ان هذه الظواهر ترجع أساسا الى الرأسمالية ، كما أنها لا توجد فقط فى البلاد الرأسمالية . فالاتحاد السوفيتى يقيد الواردات والهجرات أكثر منها ، وليس خاليا من البطالة المقنعة .

ووجهة النظر القائلة بأن النزعة القومية العدوانية والحروب . . مصدرها الوحيد هى الرأسمالية جعلت الناس يغفلون عن القوى التى تؤدى الى الحرب حقيقة . فكثير من الاشتراكيين مثلا لم يصدقوا أن خطر النزعة القومية يمكن أن تنتقل عدواه الى الطبقات العاملة ، وكانوا على ثقة من أنها فى مأمن من شعاراتها بحيث لم يروا من الضرورى ان يتخذوا الاحتياطات الضرورية .

٣ - العلاقة بين النزعة القومية والديموقراطية والتحررية والاشتراكية :

ان روح التحررية (الليبرالية) والديموقراطية والاشتراكية دخلت عليها مع الوقت تغيرات كبرى . فالديموقراطية لم تكن قديما تحررية وعالمية ومحبة للسلام ، بل كانت متعصبة وقومية عدوانية . وكانت

اشتراكية افلاطون والفلاسفة الآخرين ارسطراطية . والأصل القديم للتحربية هو «الرواقية» ، وكانت الرواقية عالمية وعقدت آمالها على الروح المستنيرة للحكام المطلقين في الامبراطوريات العظمى . والأسباب الرئيسية لهذه الاختلافات بالمقارنة بوقتنا هي أن الاغريق والرومان لم تكن لديهم اوضاع تقارن من اية ناحية بالتصنيع والتجارة العالمية ، وأن روحهم الدينية كانت مختلفة . وترجع نزعة السلام التي تنطوى عليها الديموقراطية الحديثة ، واعترافها بحقوق الانسان التي لاتنفصم عنه ، أساسا الى تأثير المسيحية والنمو الاقتصادي الحديث . فقبل الثورة الفرنسية كانت التحربية تتسم بطابع ارسطراطي وعالى ، ولكنها صارت فيما بعد حركة الطبقة الوسطى تحدوها الاتجاهات الديموقراطية وانغمست في مذهب « الأمة » والاشادة الرومانسية بالفردية القومية .

ففى القرن التاسع عشر ارتبطت الحركات التحربية والديموقراطية والقومية بعضها ببعض بصورة وثيقة (١) وقام تحالفها على أساس عدائها المشترك نحو الامبراطوريات الاوتوقراطية التي تحكم عدة جنسيات مختلفة وضرورة مقاومة قوى «الفردية» السياسية التي كانت تهدد بأن تؤدى الى فوضى . فقد كانت الملكيات القديمة تقوم على دعامة الولاء للأسرة المالكة الذى يستمد مشروعيتها من الدين ، ولكن مع هبوط هذه القوى أصبح الأمر يتطلب ولاء جديدا . وصارت الجنسية « دينا » .

وآمن التحريرون والديموقراطيون بأن كل أمة تتحرر من السيطرة الأجنبية وتؤلف دولتها القومية الخاصة بها ستكون محبة للسلام والتسامح ، وأن انتصار مبدأ الجنسية سيفتح عهدا جديدا من الحرية والاخاء والمساواة . وكان ظهور الاشتراكية ينطوى على تغيير جديد فى الأيدولوجية اذ احتل مبدأ التضامن الطبقي مركز الأولوية بالنسبة للتضامن القومى، ولكن فى السياسة العملية استمرت الاشتراكية الديموقراطية الى حد كبير فى تقاليد الديموقراطية التحربية فيما يتصل بالجنسية .

وبرغم أن الديموقراطية الحديثة تعارض العدوان والغزو ، فانها جذبت الحرب دفاعا عن الديموقراطية أو التحرير القومى . فضلا عن أن الثورة الفرنسية لجأت الى الحرب لكى تحول دون هبوط الروح الثورية . فقد أراد اليعاقبة الحرب كأداة للدعاية والاثارة ، ولكن حروب التحرير التى قاموا بها سرعان ماتحولت الى حروب غزو . وقد سيطر

(١) ج . فيل «L'Europe du XIXe siècle et l'idée de nationalité»

التقليد اليعقوبى على الفكر الديموقراطى فى فرنسا وغيرها أمدا طويلا .
ويعد لويس بلان نموذجا لهذا الاتجاه ، وهو أحد الاشتراكيين المبرزين فى
ثورة ١٨٤٨ ، وكان يدعو الى شن حروب لاشعال الثورة فى أوروبا وكذلك
للفزو على نطاق واسع . ووجه نقدا شديدا لاتجاه لويس فيليب
والسياسيين البورجوازيين السلمى ، وتبدو دعوته الى الحرب مثل
عبارات الشوفينيين المسعورين وان كان يستعمل حججا ديموقراطية
واشترائية (١) .

وعقد مؤسسو الاشتراكية الألمانية : ماركس وانجلز ولاسال
وليبخت وغيرهم ، أملهم على حروب كبرى تؤدى الى هزيمة روسيا
والدول الرجعية الأخرى عسكريا وتتيح لهم فرصة اشعال الثورات .
فكانت أفكارهم كلها عن السياسة الدولية تهدف الى قيام مثل هذه
الحروب . ولم يعترف ماركس بحق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وكان
رأيه فى كل أمة بذاتها يتوقف على قدرتها فى دعم الثورة العالمية . ولما
كانت معظم الشعوب السلافية فى الامبراطورية النمساوية تبدو له مؤيدة
للمحافظة والرجعية ، فانه تحدث عنها بازدراء شديد وأنكر عليها حق
تقرير المصير القومى . وقد تقدم كل من ماركس ولاسال أحيانا بأفكار
تشبه الى حد كبير أفكار الجامعة الألمانية وان كانت دوافعها مختلفة .
وكذلك الراديكاليون الايطاليون والسلافيون كثيرا ماجمعوا فى مذاهبهم
بين الأفكار الديموقراطية والاشترائية والقومية وبشروا بحروب عدوانية
وتوسعية . وفى الحروب بين الولايات المتحدة وبريطانيا (١٨١٢) وبينها
بين أسبانيا (١٨٩٨) لاشك فى أن الديموقراطية الأمريكية كانت هى
المعتدية .

وبرغم أن الديموقراطية الحديثة تحدوها الرغبة فى السلام ،
وبرغم ايمانها بالمساواة بين الأمم ، فانها مع ذلك أسهمت بطرق كثيرة فى
صعود النزعة القومية العدوانية . فالعقيدتان الرئيسيتان فى الديموقراطية
هما : سيادة الشعب والمساواة ، وقد أدى كلا المذهبين الى مذهب
السيادة المطلقة للدولة الذى يشجع صعود النزعة القومية . وكثيرا مابدأ
لديموقراطيين والاشتراكيين ان مطلب التحرر من تدخل الدولة بمثابة

(١) يعرض كارل كاوتسكى موقف الديموقراطية والاشتراكيين من الحرب والجنسية
بعناية ويناقشه فى كتابه المسمى «Krieg und Demokratie» ١٩٣٢
و «Sozialismus und Krieg» ١٩٣٧ .

المطالبة بوضع متميز ، ومن ثم فهو مناقض لكل من سيادة الشعب والمساواة . بالإضافة الى ان العمل على تحقيق المساواة كثيرا ما كان مغالى فيه الى حد أن نتائجه بدت لحصومه نوعا جديدا من عدم المساواة ، مثل محاولة تجاهل التفاوت المفروض أن جذوره متأصلة فى حقوق الفردية وفى التكوين الوظيفى للمجتمع . وكثيرا ما أدت الاتجاهات التى تعمل على القضاء على التفاوت الى صراعات عنيفة بين الطبقات وإلى تفكك الوحدة القومية ، ويجعل ذلك عادة فى وسع الحاكم الطموح أو القائد أو الزعيم الديماغوجى أن يستولى على السلطة العليا ويصير دكتاتورا باثارة الانفعالات القومية ضد الأمم الأجنبية وباستخدام الحروب أداة لاعادة الوحدة القومية .

وتتطلب الديمقراطية والاشتراكية مساواة الأفراد فى مجتمع معين ، ولكنهما تتراجعان عادة عن توسيع هذا المطلب ليسرد فى العلاقات الدولية ، أو تقتصران على تقديم مقترحات ليست فعالة أو مستحيلة التحقيق . والواقع أن هناك تفاوتاً ضخماً بين الأمم ، وهو يرجع الى حد كبير اما الى الغزو أو الى النمو الاقتصادى فى الصورة الرأسمالية . وليست الطبقات العليا فى الأمم المالكة هى وحدها المستفيدة من هذا التفاوت ، بل ان الأمم ككل هى التى تتأثر بكون بعضها يملك أرضاً وافرة ورأسمال وموارد طبيعية وبعضها لا يملك الا النزر اليسير ، وبأن بعضها متقدم فى المدنية وبعضها متخلف ، بأن بعضها دائن والبعض مدين . وفى عصر التحرر لم يعتبر هذا التفاوت ضاراً فى نظر الرأى العام فى معظم الأمم . فالتحرريون لم يحقدوا على أمة لأن ثروتها أكبر أو انها أكثر تقدماً فى مضممار المدنية ، أو على الأقل لم يعتبروا مثل هذا التفاوت سبباً مشروعاً لاتباع سياسة عدوانية . بالإضافة الى أن بلداً كثيرة كانت مفتوحة ، بدرجة تزيد أو تنقص ، للاجانب الذين يريدون بيع سلعهم أو الحصول على عمل . وكان من نتيجة هذه الاوضاع أن بريطانيا ، التى كانت فى ذلك الوقت متفوقة على جميع الأمم الأخرى فى الثراء والاتساع الاقليمى وحرية التجارة ، صارت محل عطف الكثيرين ، وان كان الشعور بالتنافس موجوداً فى بعض البلاد . وزاد هذا الشعور بالتدرج مع صعود النزعة القومية لدى الأمم الأجنبية وداخل الامبراطورية البريطانية نفسها ، كما دعمه أيضاً موقف الاشتراكيين من الرأسمالية الانجليزية . فماركس وانجلز مثلاً كثيراً ما صوروا انجلترا على أنها أمة رأسمالية تستغل كل الأمم

الأخرى وتحط من قدرها بحيث تصل الى مرتبة البروليتاريا (١) . وأشار أيضا الى أن الطبقة العاملة الانجليزية استفادت من هذا الوضع، ومن ثم صارت غير مهتمة بالاشتراكية فترة ، وان كان ذلك سيتغير عندما يهبط العمال الانجليز أيضا الى مستوى منخفض بفعل التطورات التالية للنظام الرأسمالي . بيد أن ماركس وانجلز لم يرجع ذلك الى امتلاك انجلترا للمستعمرات ، ولم يهتما باعادة توزيعها . فهو في نظرهما يرجع الى ان انجلترا كانت رأسمالية أكثر من أى بلد آخر في العالم . ولم يدع ماركس او الديمقراطيون الاشتراكيون الألمان قط الى استخدام القوة لتحرير الأمم البروليتارية من «الاستغلال» الانجليزى . فهذه الحجة استخدمها فيما بعد دعاة القومية الألمانية وغيرهم ممن رفضوا الاكتفاء بالفرص الاقتصادية التى اتاحتها سياسة «الباب المفتوح» البريطانية ، ونددوا بالامبراطورية البريطانية باعتبارها احتكارا اضطهاديا . ووصف الفاشيون صراهم ضد بريطانيا في عبارات الصراع الاجتماعى بوصفه قومة الأمم البروليتارية التى لا تملك ضد الأمم الرأسمالية التى تملك وكانت هذه الحجة طبعاً مجرد شعار للدعاية فى الحقيقة ، وان كان شعاراً فعالاً جداً . واذا سلمنا بأن عدم المساواة فى الثراء يبرر تجريد الاغنياء بصرف النظر عن الطريقة التى حصلوا بها على ثرواتهم أو الغرض الذى يستعملونها فيه (٢) ، فان كثيراً من الناس سيجدون من الصعوبة بمكان أن يفهموا لماذا لايجب أن يطبق هذا المبدأ على العلاقات بين الأمم . وقد دعا بعض ذوى النوايا الطيبة الى فكرة جعل المستعمرات دولية وبذلك تضمن المساواة فى الفرص لجميع الأمم . ولكن هذه الخطة لأمل فى نجاحها مطلقاً فى عصر النزعة القومية ، فهى لن تنجح ولن ترضى دعاة القومية ، كما أنها ستضر بحق السكان الوطنيين فى الحكم الذاتى . وعدم المساواة فى امتلاك المستعمرات هو مجرد شكوى واحدة من شكاوى دعاة القومية ، وفى كثير من حالات الصراع لادور لها مطلقاً . وفى صراعات قومية كثيرة ، كصراع الارلنديين والهنود وأمم وسط وشرقى أوروبا المختلفة مثلاً ، تتهم كل أمة الأمة الأخرى بأنها رأسمالية مستغلة وأنها حصلت على مركزها بالغزو والاضطهاد . فالهندوس فى الهند يستخدمون

(١) انظر أقوال انجلز وماركس فى هذا الصدد فى كتاب هينريخ جونغ «Die Marxsche Geschichts Gesellschafts und Staatstheorie» - ١٩٢١ المجلد الثانى ص ٢٥ . ويتضمن هذا الكتاب أيضاً عرضاً طيباً لأفكار ماركس وكبار الماركسيين عن الجنسية .
(٢) صاغ ت. هـ. هكسلى هذه الحجة فى صورة ماهرة . انظر موراي المجلد الثانى

هذه الحجة ضد البريطانيين ، ولكن المسلمين الذين يكافحون ضد ادعاء الهندوس بحق السيطرة في الهند كلها ، والذين يريدون دولة اسلامية مستقلة ، يتهمون الهندوس بأنهم مفتصبون وأسماليون يعيشون على جهد الفلاحين المسلمين الفقراء (١) .

وفي العقود الأخيرة صارت الحركات الديمقراطية والاشتراكية تنفر من الحروب الثورية . ويرجع بعض السبب في ذلك الى أن نمو الحرية السياسية أحرز تقدما كبيرا نحو المساواة الديمقراطية التي استبعدت دوافع الثورة . ومن ناحية أخرى حدث تغيير كبير في الزعامة . ففي العقود الماضية كان زعماء الديمقراطية والاشتراكية من المثقفين الذين كان معظمهم من تلامذة روسو وفيخته وهيغل ، وكانت ميولهم الثورية راجعة الى خلفيتهم الثقافية والاجتماعية . ولم يكن بين مؤسسي الاشتراكية الحديثة بصفة خاصة أى بروليتاريين تقريبا ، فقد كان معظمهم من الطبقات العليا . وبعد ذلك نمت النقابات والتنظيمات العمالية الأخرى . وصعد عدد كبير من العمال أو العمال السابقين الى مراكز الزعامة في الحركة العمالية . وكانت هذه الطبقة الجديدة من الزعماء تتسم بالامانة وحسن التدريب والكفاية ، وليست لها مصلحة في النشاط الثوري وإن كانوا كثيرا ما يتشدقون بالمذاهب الماركسية . وكانوا قبل كل شيء سلميين تماما ويدعون الى السلام والعالية . وموطن الضعف فيهم أنه لم يكن لديهم فهم كاف لقضايا السياسة الدولية وسياسة القوة ، وهم يكرهون النزعة العسكرية والنزعة القومية ويعتبروهما مجرد ستار للمصالح الرأسمالية أو الأرستقراطية التي لا يمكن أن تفزو مطلقا جمهرة الناس ولا تستطيع أن تنافس قوى الديمقراطية . وعندما حدث تهديد بخطر الحرب كانوا مقتنعين بأن عمال البلاد التي يتعلق بها الأمر سيضربون ويجعلون الحرب مستحيلة .

وقد ظهر عدم واقعية هذه الاتجاهات في سنة ١٩١٤ عندما استخدم العسكريون الالمان فجأة الصراع النمساوى الصربى لجر أوروبا الى الحرب ،

(١) ان العداء نحو السامية الذي تتسم به جميع الحركات القومية العنيفة كثيرا ما يساق في الدفاع عنه أيضا حجج الحرية الاجتماعية والمساواة . وقد أعلن الحزب الديمقراطي الاشتراكي في ألمانيا في مؤتمر كولونيا سنة ١٨٩٣ ان العداء للسامية منبثق من الثورة ضد الرأسمالية. بيد أنها ثورة سارت في الطريق الخطأ . وقال زعيم بارز من الزعماء الاشتراكيين في مناسبة أخرى ان العداء نحو السامية هو اشتراكية البلهاء .

وفي ٢٥ من يولية احتج الحزب الديموقراطى الاشتراكى فى بيان قوى جدا ضد سياسة الحرب التى اتبعتها الحكومة النمساوية ووصفوها بأنها وحشية مشيرة واجرامية . وطالبوا بأن تستخدم الحكومة الألمانية كل نفوذها من أجل السلام ، وأن تمتنع عن الاشتراك فى هذه الحرب الشائنة اذا نشبت وكان هذا الموقف مخلصا تماما . ومع ذلك فان الديموقراطيين الاشتراكيين صوّتوا بالاجماع فى ١٤ من أغسطس الى جانب اعتمادات الحرب فى البرلمان (١) . وكان السبب الأساسى فى هذا التحول هو أن الحكومة أقنعت الشعب بمهارة كبيرة بأن روسيا هاجمت ألمانيا فجأة وبخيانة . وكان ذلك كذبا ، ولكن الحيلة نجحت تماما .

وكانت النتيجة انفجار هائل للانفعال الشعبى حمل موجته الاشتراكيون فى البرلمان . فقد رأوا فى أذهانهم بلادهم وقد اجتاحتها العدو وبيوتهم وأسرههم تحت رحمة عدو قاس يكرهه جميع الديموقراطيين لطفيانه . ومن ثم فان الخطأ الأساسى من جانب الزعماء أنهم لم يقاوموا وقع هستيريا الجماهير ، ومن الناحية الأخرى واضح ان جماهير الشعب كانت غير قادرة بتاتا على معرفة الحقيقة والتصرف على هديها فى تلك اللحظة الحرجة . فالأغلبية الساحقة لم تهتم أى اهتمام بالشئون الدولية ولم تكن لديها أية فكرة عن حقيقة الموقف . وحتى معظم الزعماء الديموقراطيين كانوا جاهلين الى حد ما فى هذا المجال وتأثر بعضهم بعدوى النزعة القومية . فضلا عن أن رجل السياسة الديموقراطى المتوسط نشأ على الاعتقاد بأن الشعب على حق دائما ، وأن واجبه ببساطة هو أن يفعل مايريده الشعب - وفى الأوقات العادية ليس فى هذا الوهم خطر كبير لأن أخطاء الرأى العام يمكن نقدها بجميع وسائل المناقشة العامة وبذلك تنتشر الآراء الصائبة قبل فوات الأوان . ولكن فى تلك اللحظة كان ذلك مستحيلا حيث كانت الحكومة تملك قوة اخماد كل نقد . بيد أن المسؤولية الكبرى تقع على كاهل أكبر العلماء والكتاب والفنانين الألمان الذين تنافسوا فى التعبير عن أعنف النزعات القومية وتوجيه أشنع الشتائم الى الأعداء والاغراق فى اسخف أنواع مدح الذات (٢) .

(١) انظر فيما يتصل بأسباب هذا التغير الفجائى ك. كاوتسكى Sozialisten

und Krieg» ص ٤٢٨ وما بعدها . وك. جروينج Die Internationale und der Weltkrieg Materialien» المجلد الاول .

(٢) توجد أدلة كثيرة على ذلك فى مؤلف عالم عارض العقيدة الحربية لدى الاغلبية العظمى من زملائه . انظر جورج ف. نيقولاى «Biologie des Krieges» المجلد الاول ص ٣١١ .

وظهر العجز الفاضح للأحزاب الديموقراطية الكبرى في لحظة حرجية جدا مرة أخرى بعد الحرب . ففي ١٩٣٠ كان الديموقراطيون الاشتراكيون لايزالون يسيطرون على الحكومة المركزية في ألمانيا . وأرغمت الأزمة الاقتصادية الحكومة على التقدم بمشروع قانون يتعلق بالتأمين ضد البطالة ولو أنه نفذ لكان العمال أرغموا على التضحية بما يوازي اثنين في المائة من أجورهم .

ووافق جميع الوزراء الاشتراكيين باستثناء وزير العمل على المشروع ، ولكن معارضة النقابات أرغمت الاشتراكيين على الاستقالة . ومن ثم استقالوا نهائيا مختارين وبذلك مهدوا السبيل لأعداء الديموقراطية (١) . وفي بروسيا بقيت حكومة ديموقراطية اشتراكية بعض الوقت ، ولكن بابين عزلها ولم يعرف الوزراء الاشتراكيون أسلوبا للمقاومة أكثر فعالية من الالتجاء الى المحكمة العليا لاعلان أن هذا التصرف من أعمال العنف غير المشروعة . بيد ان هذا العجز لم يظهر من جانب الديموقراطيين الاشتراكيين وحدهم . ان العالم لديه سنوات أخرى يحكم فيها على أهداف هتلر ووسائله . ومع ذلك فان الأمم ورجال السياسة في الديموقراطيات الغربية الكبرى تمسكوا بوهم أن هتلر يطلب السلام ويمكن الثقة فيه ، وأنه يمكن تهدئة الوحش النازي بالكلمات الطيبة وقطع السكر . وحتى بعد ان أصبحت أهداف هتلر واضحة بما لا شك فيه ظلت أمم ديموقراطية كثيرة كبيرة وصغيرة ، تؤمن بحكمة اخفاء الرؤوس في الرمال والانعزالية .

الا أن البلشفية كانت عاملا أقوى في تمهيد السبيل للفاشية والهتلرية . ففي روسيا القيصرية جاء نمو الحركة العمالية الديموقراطية ، وظهور طبقة من الزعماء من بين الجماهير متأخرا جدا . وكانت الاشتراكية

(١) يلقي أوتو براون ، الزعيم الاول للاشتراكيين ، اللوم على التصلب المذهبي لتلك النقابات التي أرادت البعد عن مسؤولية الحكم خوفا من الشيوعيين . انظر أوتوبراون «Von Weimar zu Hitler» ١٩٤٠ ص ٢٩٢ . وفي النمسا بعد الحرب حدث في مبدأ الأمر تحالف بين الحزبين الكبيرين ، الديموقراطيين الاشتراكيين والاجتماعيين المسيحيين ، وقام الديموقراطيون الاشتراكيون بالدور الرئيسي . بيد أنهم سرعان ما تركوا الحكم وتحولوا الى المعارضة تحت ضغط جناحهم اليساري أساسا ، وبرغم أنه بدا من جانبهم ميل فيما بعد الى تكوين ائتلاف جديد فان ذلك لم يتحقق بسبب مقاومة الزعيم الاجتماعي المسيحي د. زيبيل . ولكن زيبيل في سنة ١٩٣١ أراد من الاشتراكيين الانضمام الى الحكومة ولكنهم رفضوا . وشجع عدم التعاون بين الحزبين على صعود الحركة الفاشية التي صارت من القوة بتأييد ايطاليا ، بحيث انتهى الامر باخماد الديموقراطية بالعنف .

الروسية تحت السيطرة الكاملة للمثقف الثورى من النمط القديم . ويقول اسكندر كيرنسكى ، أحد زعماء الديموقراطيين فى مذكراته (١) : ان الاشتراكية الروسية ليست حركة طبقية بروليتارية ، بل هى حركة مثالية وأخلاقية . فالزعماء الذين احتلوا الصدارة جاءوا جميعا من طبقة أعلى ، ولم يكن بينهم عمال أو فلاحون تقريبا . وعندما تحطمت القوة العسكرية الروسية فى الحرب مع ألمانيا والنمسا تألفت حكومة برياسة كيرنسكى وانتخبت جمعية تأسيسية بالانتخاب العام وكان البلاشفة فيها لا يتجاوزون الخمس . واستولى لينين ، الذى كان قد وصل الى روسيا فى سنة ١٩١٧ ، على الحكم بالقوة ، وهجر الحلفاء الذين كانوا قد دخلوا الحرب وبذلوا تضحيات كبيرة لكى يساعدوا روسيا ، وأقام النظام البلشفي بالارهاب على نطاق لم يسبق له مثيل . وقد وضع البلاشفة مبادئ الاسلوب الارهابى التى حاكها فيما بعد الفاشيون والنازى . ولا يدخل فى نطاق هذا الكتاب سرد تاريخ البلاشفة أو مناقشة مزايا ونقائص هذا النظام (٢) . ان ما يهمنا هنا هو أثر البلشفية فى صعود النزعة القومية العدوانية . ويعبر هذا التأثير عن نفسه بطرق مختلفة . فالبلشفية قسمت الحركات الاشتراكية فى كثير من البلاد الى قطاعات مختلفة أخذ بعضها يصارع البعض بقسوة بسبب تعصب الشيوعيين . وفى ألمانيا وجه الشيوعيون هجومهم الرئيسى ضد الديموقراطيين الاشتراكيين وضد الجمهورية الديموقراطية . وبذلوا كل ما فى طاقتهم لتدمير الديموقراطية وعملوا لمصلحة النازى . واضطر الديموقراطيون الاشتراكيون الى التعاون مع دعاة القومية والرجعيين من أجل تكوين أغلبية فى البرلمان وللحيلولة دون وقوع الفوضى ، وشل ذلك الدفاع عن الديموقراطيين . وفى بلاد كثيرة انضمت قطاعات كبيرة من الشعب ، ولا سيما الفلاحين والطبقات الوسطى والمثقفين ، الى معسكر الأحزاب الرجعية كارهة ، وكانت من قبل تعطف على الديموقراطية بدرجة تزيد أو تنقص ، أو على الأقل لا تقف منها موقف العداء . بالإضافة الى أن البلاشفة بينوا كيف تستطيع أقلية صغيرة أن تحكم ، بالدعاية التى لا تقف عند حد ، بلدا ضخما دون أن تسمح

(١) أ . كيرنسكى « صلب الحرية » ١٩٣٤ .

(٢) ولكن انظر كولن كلارك « نقد الاحصائيات الروسية » ١٩٣٩ و « شروط التقدم الاقتصادى » ١٩٤٠ ص ٨٦ . ود . ادوارد آمند « الحياة البشرية فى روسيا » ١٩٣٦ . ووليم هـ . شميرلين « الطوبيا الكاذبة » ١٩٣٧ . وسير والتر كيترين « انى أبحث عن الحقيقة فى روسيا » ١٩٣٨ . وسير جون ماينارد « الفلاح الروسى ودراسات أخرى » ١٩٤٢ .

بأية حرية سياسية . ففكرة حكم القانون ، بصرف النظر عن الطبقة والحزب ، التي لم يجرؤ حتى أكثر السياسيين رجعية على انكارها صراحة ، اعتبرت سخفا . وقد تعلم الفاشيون هذا الدرس من البلاشفة ، وصار البروليتاريين ، موسولينى وهتلر تلميذى المثقفين ، لنين وتروتسكى . وبعد صعود الفاشية فى بلاد كثيرة بدأت قطاعات من السكان تعطف على الدكتاتورين وواجهت الديمقراطية خطر وجود أعداء سرين أقوياء داخلها .

وكان من نتيجة هزيمة الديمقراطية أن كثيرا من الناس فى بعض البلاد اما صارت فكرتهم سيئة جدا عن الأحزاب الديمقراطية المهزومة بل واتهموها بأنها لم تأخذ الديمقراطية مأخذ الجد قط ، أو ألقوا اللوم على الديمقراطية نفسها . وكلا الرأيين خطأ ومضلل . ولا ريب فى أن انجازات الديمقراطية فى كثير من الميادين أكثر من نقائصها ، بل أن السبب الرئيسى فى هذه النقائص لا يبرر الخط من قيمة الديمقراطية ذاتها . ولكنه يكون من الخطأ أيضا افتراض أن الأحزاب الديمقراطية التى دمرها أعداؤها لم تفعل شيئا دفاعا عن الديمقراطية . فقد بذلت فى الحقيقة عدة محاولات جادة ومخططة وإن كان الناقد يستطيع الآن أن يقول عندما ينظر الى الوراء : كان المجهود متأخرا عما ينبغى وأقل مما ينبغى . ولكن بصرف النظر عن هذه القضية التاريخية ، يوحى استعراض السياسات الديمقراطية فى جميع أنحاء العالم بأن أيديولوجية الديمقراطية وأجهزتها السياسية فى حاجة الى اصلاحات كبرى . فالديموقراطيون فى البلاد المختلفة ينبغى أن ينبذوا أوهام الانعزالية السياسية والاقتصادية وأن ينبذوا التحيز العنصرى والاجتماعى ، وأن يتخذوا وجهة أكثر واقعية فى الطبيعة البشرية وتعقيد المشاكل السياسية والاقتصادية وسيكولوجية الأمم الأخرى بصفة خاصة .

٤ - القوى العقلانية واللاعقلانية فى النزعة القومية

يظهر فى النزعة القومية الحديثة خليط عجيب من العناصر العقلانية، واللاعقلانية ، وتعتمد قوتها ذاتها على اتحاد البدائية العقلية مع جميع الأدوات التى يقدمها العلم والتكتيك الحديث . وفى جميع الحركات القومية كان الدور الرائد للطبقات المثقفة من الأساتذة والطلبة والمحامين والموظفين والأطباء والمدرسين والكتاب والصحفيين ، وكانت قطاعات منهم أيضا هى القوة المحركة فى النزعة القومية العدوانية فى حين كانت الجماهير غير المتعلمة أدوات فى يدها . وبرغم الطابع المثقف للنخبة الرائدة كانت

مذاهبها عادة تندد بالعقل وتشيد بالانفعالات والغرائز ، ومع ذلك فان النزعة القومية لا يمكن أن تكون مجرد نتاج الغرائز ، حيث أنها في هذه الحالة تكون متساوية القوة في جميع الأوقات ولدى جميع أفراد النوع . فلا بد أن تكون هناك عوامل اجتماعية تفسر تنوعها تبعاً للوقت والامة والطبقة . ويرى كثير من الكتاب أن النزعة القومية من بقايا البربرية البدائية في حين يفسرها آخرون على أنها نتاج المجتمع الحديث وقد أتحمتها نزعته المثقفة ونفرتها نتائجه .

والمثل النموذجي للمدرسة القائلة بأنها بقايا البربرية البدائية هو ه . هاكنز ، الذي يعرف النزعة القومية في كتابه بأنها تأكيد الذات من جانب ذلك الكائن الشائن « رجل الكهف في داخلنا » (١) . ففي رأيه أن عقلية النزعة القومية نمت استجابة لظروف عصر سابق وظلت باقية في « العقل الجماعي » الذي يوجد « مستقلاً عن العقل الفردي » وخارج « الجهاز العصبي للفرد وجسده » . ويحاول المؤلف دعم هذه النظرية بمقابلات مستمدة من عادات القبائل البدائية وعرفها وسلوك الحيوانات . ومن ممثلي المدرسة الاخرى كأولين بلاين التي فسرت النزعة القومية وروح القتال في عدة كتب هامة (٢) على أنهما « مرض عصابي اجتماعي سببه ضغط الحياة وتوترها » . ويبدو لها تفسير الميول البدائية والتعصبية التي تظهر اليوم بأنها رجوع الى البربرية ، أبسط مما ينبغي . والمرضى العصابي الذي تنبثق منه الحرب يعود الى « ما تتعرض له الاجهزة العصبية لدى الناس من استهلاك بسبب الضغط والتعقيد وامتلاء الحياة بصفة عامة » . وقد وضعت هذه النظرة في صورة تفصيلية محكمة بواسطة تحليل الآثار السيكولوجية للتغيرات الاجتماعية . وقد تتبع كارل ما نهائم في دراسة عميقة لمجتمع الجماهير الحديث وأرجع نمو النزعة العدوانية الى التحلل الاجتماعي (٣) .

وقد عبر أيضا بعض رجال السياسة عن وجهة النظر التي تربط العدوانية بالعوامل الاجتماعية . فقد كان سير ادوارد جراي يعتقد أن الحرب

(١) هانز بوري هاكنز « النزعة القومية والعقل الجماعي » ١٩٣٧ ص ١٥١ و ١٨٣

و ١٨٧ و ١٩٣ .

(٢) كارولين أ . بلاين « الامراض العصبية في الامم ، المرض العصبي الألماني والفرنسي قبل الحرب » ١٩٢٥ . و « عقل ما قبل الحرب في بريطانيا » ١٩٢٨ . و « المجتمع في الحرب » ١٩٣٠ .

(٣) كارل ما نهائم « الانسان والمجتمع في عصر التعمير » ١٩٤٠ ص ١٢٦ وما بعدها .

الحديثة ، وهى أبشع الأشياء عنده ، هى النتاج المنطقى لعقل الآلة (١) . فضلا عن أنه كان مقتنعا بأن كل أمة ترغب فى الحرب من وقت لآخر لمجرد القتال . وقد كتب فى سنة ١٩٠٦ فى كتاب الى الرئيس روزفلت : « اننا ينبغي أن نكره الحرب فى كل مكان . وليس ذلك لأننا صرنا ضعفاء أو جبناء ، بل لأننا شعبنا من الحروب فى جيل واحد . فقبل حرب البوير كنا نتلطف على القتال وأية حكومة خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضى كانت تستطيع أن تدخل حربا معنا بأن ترفع أصبعها . وكان الشعب سيرحب بها . فقد كان الناس يتشوقون الى الاثارة وصعود الدماء الى الرؤوس . أما الآن فان هذا الجيل قد شبع اثارة وفقد شيئا من الدماء وصار عاقلا وطبيعيا » .

وهناك حجج كثيرة يمكن الاستعانة بها فى تأييد كل من المدرستين . فهناك فعلا أوجه شبه كثيرة بين النزعة القومية الحديثة وسلوك القبائل البدائية ، مثل فاعلية القوى اللاعقلانية ، والانفعالات والتقاليد ، والاعتقاد فى الغيبات والجماعية . وقد كان كثير من البدائيين يعتقدون أن أسماءهم أو ظلالهم مقدسة ، ويعتقدون أنها تتعرض لعطب اذا داس شخص على ظلهم أو نطق أسماءهم بشر . ويزيد البدائيون من كثافة مشاعر الجماعة وروابطها بالاحتفالات والرقص واستخدام المواد المخدرة لانتاج درجة مرتفعة من الاثارة العصبية . وهذا يشبه أساليب النزعة القومية ، التى بلغت درجة الكمال على يد هتلر ، فى اثارة انفعالات الجماهير ودفعها الى حالة من الهياج الجنونى بواسطة انرموز والأردية العسكرية والموسيقى والرقص والطبل والترديد المستمر للشعارات والطواير الجماهيرية وما الى ذلك . ولا تجتذب مثل هذه الوسائل القطيع العام وحده . فكثير من كبار الفلاسفة الألمان والكتاب والرجال العاملين ممن بلغوا أعلى درجة من الثقافة أشادوا المرة تلو المرة بالحرب ، على أساس أنها تولد نوعا من البهجة الصوفية وتجعل الافراد أكثر وعيا بتكاملهم القومى .

والنزعة القومية الحديثة والراديكالية الحديثة على استعداد دائما لنبذ حجج العقل والتجربة والاشادة ببناء روح الجماعة والدافع الغريزى وصوت الدم . ويتفق كل من دعاة القومية الحديثين

(١) جورج ماكولى تريفيليان «Grey of Fallodon» ١٩٣٧ ص ٥٣ . وفيما يتصل

بالفقرات التالية انظر ص ١١٥ و ١٥٥ .

والبدائيين الى حد ما في رفض التجديدات التي تعتبر غريبة أو متعارضة مع التقاليد . فالنازيون مثلا ينددون بالديموقراطية على أنها اختراع انجليزى فرنسى يهودى دخيل تماما على العبقريّة التوتونية القديمة . وفى كثير من القبائل البدائية تلعب الجمعيات السرية دورا كبيرا ، وكثيرا ما تكون هذه الجمعيات مؤلفة من شبان يقومون برقصات روحانية ويتدربون على أعمال القسوة بسفك الدماء وتحمل الألم ، ويرهبون من هم أضعف منهم ويغتصبون ما لهم ، ويحاولون الحصول على مركز متميز لانفسهم . وفيهم أوجه شبه كثيرة ببعض منظمات الشباب التوميين وبخاصة فى ألمانيا .

ومع ذلك فلا يمكن أن تفسر النزعة القومية الحديثة بأنها مجرد رجوع الى البربرية البدائية . فهي تنطوى أيضا على قدر كبير من الثقافة التي يساء استخدامها وتستخدم نتائج التقدم الفكرى . فتأملات كثيرين من كبار المفكرين وتقدم العلم واتساع المعرفة أسىء استخدامها جميعا فى تكوين أيديولوجيات قومية . ويبدو أن هناك عوامل بيولوجية أسهمت أيضا فى تقدم النزعة القومية . والشباب عادة أسهل تأثرا بالنزعة القومية ممن هم أكبر سنا وأكثر رزانة ، بسبب فورة مزاج الشباب ونقص تجربته وميله الى الأساليب البسيطة العنيفة . فالأولاد يفرمون بالقتال بلا سبب خاص ، كمجرد تعبير عن مزاج معين . ويبدو سن المراهقة مواتيا بصفة خاصة لعدوى النزعة القومية . وقد بدأ صعود هتلر باستيلائه على قسم كبير من الشبان . وكانت القوة الرئيسية للنازيين فى مبدأ الأمر تتألف من أولاد المدارس وصغار الشبان . أما جمهرة الكبار فقد تم غزوها فيما بعد ، عن طريق نشاط المراهقين الى حد كبير . ومن العوامل المهمة الأخرى فى استيلاء هتلر على القوة أصوات النساء ونفوذهن وبخاصة غير المتزوجات . فقد أشعل هتلر بديماجوجيته الهستيرية عواطف النساء ، كما آثارها الشبان بضوضائهم واستعراضهم لانفسهم كأبطال يحملون الخناجر والمسدسات . ان كتاب النازى أنفسهم كثيرا ما تباهوا بأن أتباع هتلر يكادون يكونون جنسا منفصلا ، نخبة من الشبان الشجعان ذوى الاقدام الذين لا تقيدهم العقد النفسية . ومن المؤكد أن دعوة هتلر التي وجهها الى غرائز الجماهير والى العنصر المتوحش المختفى وراء طلاء المدنية ، كانت نتيجتها انتقاء أكثر العناصر وحشية وقسوة من جميع طبقات المجتمع . فقد تكتلت القوة الفاشمة ضد العقل . وكان من الطبيعى ان الجماعات التي تضم نسبة أكبر من هذه العناصر وفرت لهتلر عددا

من الأعوان أكثر من غيرها . ولكن بصفة عامة لا يمكن القول بأن أتباع هتلر الحقيقيين جاءوا أساسا من هذه الطبقة أو تلك . فقد جاءوا من جميع الطبقات ، وبذلك دحضوا نظرية أن الطبقة هي العامل الحاسم انوحيد في السياسة . الا أنه يبدو أن الانتقاء تم الى حد كبير على أساس المعيار البيولوجي المشسار اليه . وتدل الاحصائيات الخاصة بالانتخابات التي جعلت في وسع هتلر الاستيلاء على السلطة (وان لم يحصل قط على أغلبية الأصوات) ، على أن الاصوات التي كسبها لم تكن على حساب الحزبين الكبيرين المنظمين : الاشتراكي والكاثوليكي . فقد جاءت الزيادة في الأصوات اما من الأحزاب القومية الأخرى ، ولم يكن لها مغزى سوى انتشار التطرف بين دعاة القومية ، أو من أشخاص كانوا يعطون أحزابا صغيرة من المخرفين أصواتهم قبل ذلك أو لم يعطوها لأحد أصلا .

هذا بالإضافة الى أن هناك طبقات معينة من المثقفين تؤلف عنصرا هاما في كثير من الحركات القومية . بيد أن الأمم تختلف من هذه الناحية . ففي حين كانت الجامعات وقطاع كبير من الطبقات التي تمتعت بالتعليم العالي - مهذا للنزعة القومية في ألمانيا ، فانه لا يمكن أن يقال ذلك عن انجلترا مطلقا . وحتى في ألمانيا كانت النزعة القومية التي انتشرت بين رجال الجامعات من النوع المحافظ وليست من النوع الهتلري المبتذل . وكان ذلك النوع من النزعة القومية الذي اعتنقته الطبقات المثقفة في ألمانيا الى حد كبير من أعراض العقلية الطبقيّة والعنجهية . فكانت تعنى معارضة الاتجاهات الديمقراطية والتحررية والاشتراكية والدولية التي اعتبرت مما لا يتفق والوقار الاجتماعي . غير أن اتجاه الطبقات المثقفة نحو النزعة القومية له أيضا جذور أعمق .

ان النمو الاجتماعي والثقافي يقترن بزيادة الرغبة في الفردية . وفي العصور السابقة كانت حياة الجماعة كلها تنظمها التقاليد . فالآباء كانوا يحددون من يتزوج أبناءهم أو بناتهم وأى المهن يشتغلون فيها . ولا يقبل الشباب الحديث مثل هذا التدخل ويعترض على حكم التقاليد والعرف حتى اذا كان لمصلحتهم ويريد أن يعيش « حياته الخاصة » . ويؤدي اكتساب المعرفة ونفوذ الصحافة والديموقراطية وعدة عوامل أخرى الى زيادة تقدير الناس لأهمية أنفسهم ورغبتهم في تأكيد ذواتهم . ولكن ظروف الحياة الحديثة تجعل من الصعوبة بمكان كبير جدا بالنسبة

للأفراد أن يصيروا أكثر من جزء صغير جدا في آلة هائلة . فبرغم أن الديموقراطيات الحديثة تحاول أن تجعل في وسع المواطنين أن ينموا شخصياتهم وتجعل الكنوز الثقافية للأمة في متناول الجميع ، فإن التطلع الى المثل العليا في الشخصية كثيرا ما يتعرض للاخفاق لأسباب اجتماعية .

وهذا الاخفاق في السعى نحو استكمال الشخصية الفردية يعوضه جزئيا التأكيد على الشخصية الجماعية ، وبخاصة شخصية الأمة أو الحزب . فالشخصية والنفوذ اللذان لا يستطيع الفرد تحقيقهما باسمه شخصا قد تتاحان له في صورة شخصية جماعية له فيها نصيب . والأفراد الذين تكونت لهم شخصية ثقافية غنية خاصة بهم وحصلوا بها على اعتراف كاف بشخصيتهم لا يهتمون عادة بالمشاركة في هيبة الجماعة . بيد أن معظم الناس يحسون أنهم مضطرون الى التأكيد على انتمائهم الى جماعة أكبر للحصول على الاعتراف بوجودهم .

وقد لعبت أيضا بعض التيارات الفكرية المعينة دورا كبيرا في جعل المثقفين يميلون الى النزعة القومية بتحطيم الايمان بالمسيحية وبالعقل والتقدم والانسانية والحقوق الطبيعية للانسان وتضامن جميع الأمم التي تقوم عليها الليبرالية ؛ فكثير من المثقفين خاب أملهم في ثمار المدنية ، وبصفة خاصة في نتائج مجهوداتهم . وحتى أولئك الذين كرسوا جزءا كبيرا من الوقت والتفكير بحثا عن الحقيقة كثيرا ما أحسوا أنهم فشلوا . وبدا لهم أن العقل غير قادر على حل معميات العالم وعلى تحقيق حالة مرضية للمجتمع ، وبدا أنه لم ينجح الا في تدمير المعتقدات دون أن يقدم لها بديلا . وبدا أن الفكر لا يؤدي الا الى نزاعات لا نهاية لها وشكوك ، وانتهى كثير من المثقفين الى العدمية المعنوية واليأس . وكثيرا ما بدعوا يحنون الى العودة الى البدائية ، واعتقدوا أنهم سيجدون ديننا جديدا في الاحساس بحماسة الجماهرة ، وفضيلة جديدة في الخضوع للنظام الحديدي لنوع من الجماعة العسكرية ، وبديلا للعلم في روحانية الجنس والعنصر . فضلا عن أن هذه العقلية دعمتها زيادة الاحساس بالقوة والوعى بالانتماء الى الجماهرة المتأصلين في عصرنا .

ان الميل الى النزعة القومية يعد الى حد كبير نتاج روح العصر ، ومن ثم فهو يتسرب الى جميع الطبقات بدرجة تزيد أو تنقص ، ولكن مدى تحول هذا الميل الى عمل يتوقف على الظروف الخاصة بالأمة . وانتشار النزعة القومية الكامن على هذا النطاق الواسع عامل ذو مغزى

خاص كثيرا ما لا يحظى بالتقدير الكافي . فقبل ظهور الدكتاتوريين لم يكن عدد دعاة القومية المتطرفين كبيرا جدا في بلادهم . وكان تطرفهم يتيح لخصومهم حججا طيبة ضدهم . بيد أنه كانت هناك أعداد كبيرة من جماهير الناس الذين كانت نزعتهم القومية مبهمة الى حد يصعب معه ايجاد حجج قوية ضدها ، أو لم تكن لديهم أية آراء سياسية واضحة وبذلك كانوا ضحية سهلة للديماغوجيين الذين لديهم موعبة إثارة انفعالاتهم الكامنة . وفي بلاد أخرى أيضا أثبتت التجربة أن هناك نوعا من النزعة القومية المعتدلة تصعب مهاجمتها أكثر من النوع المتطرف . وينطبق ذلك أيضا على النزعة القومية الداخلية مثل اضطهاد الأقليات ونزعة مناهضة السامية والنزعة ضد الغرباء . فليس المناهضون للخطر للسامية مثلا هم الذين ينددون باليهود ، بل هم بعض الأشخاص المتسللين الذين يسممون الجو ويمهدون السبيل للهتلرية .

بالإضافة الى ان انتصارات النزعة القومية المتطرفة والعنصرية المتطرفة في وقتنا ساعد في تحقيقها موقف كثيرين من رجال الدولة والسياسيين الذين لم يكونوا أصلا من العاطفين على أهدافهما ، ولكنهم اما اعتقدوا أن اتخاذ اجراءات قوية ضدهما خطر جدا على مراكزهم أو مراكز أحزابهم ، أو اعتبروهما من الشرور الضرورية . والحقيقة أن السياسية تنطوي على عوامل كثيرة هي في ذاتها شر ولكن لا يمكن استئصالها دون التعرض لشرور أكبر . فكثير من رجال الدولة ينغفرون من النزعة القومية ، ولكنهم مع ذلك يعتقدون أنها أخف الضررين . كما أن من العادات الأخرى المتأصلة في السياسة الحديثة اتجاها الى تبسيط أكثر مما ينبغى للقضايا المعقدة . فمعظم القضايا السياسية اليوم معقدة جدا، فهي تنطوي على خليط معقد من الصواب والخطأ ومن الحجج المتعارضة وعلى مخاطر لا حصر لها . ومن الناحية الأخرى لابد من جعلها مفهومة لدى جميع من لهم نفوذ على السياسة ، ولابد أن تكون الحلول المقترحة مهضومة لدى عقلية الناخبين ، وذلك يجعل من الضروري طرحها في صورة مبسطة جدا . وليست جماهير عامة الناس وحدها هي التي لا تستطيع أن توفر اهتمامها للخطط المعقدة التي لا تمس مصلحتها الحيوية المباشرة . بل ان المعلمين تعليما عاليا أيضا كثيرا جدا ما يعزفون عن التفكير طويلا في المشاكل السياسية ، وبخاصة مشاكل

الأمم الأخرى ، ويفضلون تصديق ما يتفق مع رغباتهم هم (١) .

ه - اقتصاديات النزعة القومية

ان كلا من اللبرالية والاشتراكية يعتبران النشاط الاقتصادي وسيلة لتوفير أكبر قدر ممكن من السلع المطلوبة للناس بالعمل السلمي والتعاون ، في حين ينظر اليه دعاة القومية على أنه أساسا وسيلة لزيادة قوة الأمة وهيبتها . بل ان انتاج الثروة لمجرد غرض تحسين ظروف المعيشة يبدو للمتطرفين من ذوى النزعة القومية مهنة حقيرة ، ويأخذ النشاط الاقتصادي في أيديولوجيتهم طابع الصراع من أجل السيطرة والاستغلال بالقوة . ومذهب اللبرالية هو أن جميع من يعملون في انتاج السلع المفيدة وتبادلها يكسبون من هذا العمل ، وأن الزيادة في ثروة أمة من الأمم فيه ميزة لجميع الأمم الأخرى أيضا لأن الأمة المزدهرة تستطيع أن تشتري منها أكثر . فضلا عن أن اللبرالية تفترض أن اتساع نطاق التجارة العالمية هو أكبر ضمان للسلام لأنه يجعل كل الأمم يعتمد بعضها على بعض أكثر فأكثر . أما النزعة القومية فانها تنجح الى المذهب المركانتيلي الذي يذهب الى أن الأمة لا تصيب ثراء الا على حساب أمة أخرى ، وأن ما تكسبه واحدة لا بد أن تخسره أخرى . وكان الهدف الأساسي من المذهب المركانتيلي هو زيادة قوة الدولة . وقد قام هذا المذهب داخل الدولة القومية الناشئة بوظيفة التوحيد الاقتصادي عن طريق تحطيم الحواجز الداخلية والاحتكارات المحلية ، ولكنه شجع على احتكار الاسواق فيما يتصل بالعلاقة بين الأمم ، وكثيرا ما ساعد على قيام الحروب .

وفي خلال القرن الثامن عشر هاجم كثير من المفكرين المذهب المركانتيلي ، وأثبت آدم سميث أن الحرية في الانتاج أجدى من التنظيم « بواسطة » الدولة وأن المنافسة أفضل من الاحتكار ، وأن هناك تضامنا كبيرا بين المصالح الاقتصادية لجميع الأمم لأن الرخاء يعمها كلها بتبادل سلعها بحرية . وفي القرن التاسع عشر حل محل الانعزالية الاقتصادية بين الأمم قدر أكبر من الحرية في التجارة والاتصال . وكسبت حرية التجارة أكبر انتصاراتها في بريطانيا ، كما اتبعت دول

(١) انظر التحليل الدقيق للمقالية التي كانت الى حد كبير السبب في فشل الامم الديمقراطية في المحافظة على السلام في كتاب ادوارد هـ . كار « أزمة العشرين عاما » ١٩١٩ - ١٩٢٩ .

أخرى كثيرة سياسة تجارية لبرالية . الا ان موجة جديدة من الجنوح الى « الحماية » جاءت بعد حرب الانفصال الأمريكية وبعد الحرب الفرنسية الألمانية في ١٨٧١ . وكانت الحرب الأخيرة بداية عهد من الزيادة السريعة في التسليح ، ودافع أنصار هذا الاتجاه عن الزيادة في التعريفات المفروضة بأن العائد منها سيساعد في دفع نفقات التسليح وأن الأمن القومي يتطلب أن يتم صنع السلع الأساسية في الداخل . ولكن نمو « الحماية » خفف من حد الرأي العام اللبرالي ، فقد كانت كل أمة الى حد كبير تنتج السلع التي تلأئم ظروفها أكثر من غيرها واستفاد الجميع من تبادل سلعهم . وأصبح العالم كله يؤلف نظاما اقتصاديا واسعا تعاونت فيه كل الأمم تعاوناً وثيقاً لمنفعتهم المتبادلة . وكانت السلع والعمل ورأس المال تنتقل بحرية من بلد الى بلد . وكان كل انسان يستطيع أن يذهب الى أي بلد تقريبا دون حاجة الى جواز سفر ويكسب عيشه هناك بالعمل الشريف . وأدى هذا النظام للاقتصاد العالمي اللبرالي الى زيادة كبيرة في الدخل القومي ، وبخاصة في الأجور . ولم يكسب بلد في ظل هذا النظام أكثر من ألمانيا . فكانت سلعها تستطيع أن تدخل بريطانيا ومستعمراتها (وان لم تدخل بلاد « الدومينيون ») دون دفع أية رسوم ، في حين كانت السلع الانجليزية المستوردة في ألمانيا تدفع رسوما عالية وأحرزت التجارة الألمانية تقدما هائلا في جميع أسواق العالم . فكان الألمان يملكون في كل مكان صناعات مزدهرة ومصارفا وخطوطا بحرية ومناجم ومشروعات أخرى . وكان الموظفون والكتبة الألمان يجدون أعمالا ذات أجور طيبة في كل البلاد . ومن ثم فإن الاقتصاد العالمي اللبرالي أتاح مجالا واسعا جدا للحياة للشعب الألماني ، ولم يكن تقدمه الاقتصادي مضرا بالأمم الأخرى لأنها كانت مزدهرة أيضا . وبرغم ذلك هاجم دعاة القومية الألمانية بعنف الاقتصاد العالمي وتقسيم العمل الدولي باعتباره خطرا يهدد ألمانيا لأنها كانت تعتمد على سلع أجنبية مستوردة قد يقف ورودها في الحرب . ومن الواضح أنهم لم يقدروا المكاسب الاقتصادية والاجتماعية التي كان الشعب الألماني يتمتع بها في ظل هذا النظام . لقد كانوا يريدون القوة حتى يصيروا في المرتبة الأولى بين العالم بحد السيف ، وكانوا مقتنعين بأن ذلك هو السبيل الى ثروات العالم أيضا .

وكثيرا ما أدى نظام الحماية الذي طبق قبل الحرب الكبرى الأولى الى اساءة استخدام التعريفات الحامية لأغراض عدوانية . فقد جعل

ارتفاع التعريفة في وسع المنتجين أن يرفعوا أسعارهم في السوق الداخلي ، وبخاصة عن طريق تكوين الكارتل ، وأن يستخدموا أرباحهم للبيع بأسعار أقل من منافسيهم في الأسواق العالمية عن طريق ما يسمى « بالاغراق » . وكانت خسارتهم في الخارج تعوض بأكثر منها بالمكاسب في الداخل ، واستطاعوا بغزوهم للأسواق العالمية الانتاج على نطاق أوسع بكثير وبتكاليف أقل بكثير . وقد بلغت صناعات الحديد الكبرى في ألمانيا قوتها الضخمة بواسطة مثل هذه الأساليب التي اعتبرها المنتجون في البلاد الأخرى التي تأثرت بها أساليب غير عادلة . فقد اشتكوا من أن « الحماية » الألمانية لا تقفل في وجوهم الأسواق الألمانية فحسب ، بل تساعد رجال الصناعة الألمان أيضا على هزيمتهم في أسواقهم ذاتها . بيد أن النزعة القومية الاقتصادية لم تنتصر في ألمانيا وحدها . ففي عقلية دعاة القومية في جميع الأمم تلعب الغيرة من الدول الغنية دورا مهيما .

إن تشجيع الصناعات الجديدة بواسطة التعريفات قد يحقق أهدافه في ظروف معينة لا نستطيع مناقشتها هنا . ولكن الأثر الطيب للتعريفات محدود جدا في الوقت والدرجة . ومن السمات المميزة للنزعة القومية الاقتصادية أنها تنبذ هذه الحدود وتحاول استبعاد السلع الأجنبية بصفة دائمة وتحقيق أكبر قدر ممكن من الكفاية الذاتية أو التحكم من جانب واحد . ويجد الاقتصاديون اثبات أن هذه الطريقة لا تؤدي إلى ارتفاع في الدخل القومي أو تحسين الأجور الحقيقية أمرا سهلا . ولكن حججهم لا تجدي لأن دعاة القومية لا يعلقون الأهمية الأولى على الأهداف الاقتصادية . فهم من ناحية يفضلون القوة على الثروة ، ومن ناحية أخرى يعتبرون أن انتاج كل شيء داخليا بصرف النظر عن التكلفة مسألة قومية . وأكثر حججهم ترديدا هي : لماذا لا نصنع جميع السلع بأنفسنا بدلا من شرائها من الأجانب ؟ اليس من الشائن أن يعتقد الناس أننا لا نستطيع انتاج ما نحتاج إليه ؟ (١) وبالإضافة إلى ذلك ، ألا يخلق ذلك أعمالا ويرفع الأجور ؟ وهذه الحجة بدائية من وجهة النظر الاقتصادية ولكن يبدو مع ذلك أنها لا تقاوم .

(١) منذ القرن الثامن عشر فرضت فلورنسا تعريفات عالية جدا على السلع الأجنبية ودافعت عن ذلك بحجة « أنه لما يحط بكرامة الصناعات الفلورنسية وسمعتها إذا قيل أنه في بلد مثل فلورنسا لا يوجد من يستطيع أن يصنع الاقمشة على طريقة بريجنان رغم أنها تصنع في كل مكان آخر في إيطاليا » .

والسبب في أن حجج أنصار الحماية ذات فعالية أكثر من حجج أنصار حرية التجارة أنها أكثر اجتذابا للعقل غير المدرب على التفكير الاقتصادي وأن وراءها أنانية أفراد أقوى وجماعات قوية وأنانية المشاعر القومية . ان النظرية الاقتصادية تبحث في آثار السياسة الاقتصادية على رفاهية الشعب ككل ، ولكن ذلك أصعب مما ينبغي بالنسبة للرجل المتوسط ، بالإضافة الى أن انتشار النزوع الى « الحماية » تدعمه جدا ضرورة الرد على الاعتداء الحقيقى أو المزعوم . والنزوع الى « الحماية » مرض معد جدا . فاذا طبقت الحماية على صناعة طلبت كل الصناعات الأخرى نفس المعاملة ، وهى تحصل عليها عادة برغم أن كل انتشار لمبدأ الحماية الى صناعات أخرى لابد أن يقلل أرباح الصناعات المحمية فعلا ، وبرغم أن الحماية الشاملة تقضى على كل المكاسب الفردية تقريبا . كما أنه عندما ترفع أمة التعريفات أو القيود تحذو كل الأمم الأخرى حذوها عادة . وحتى اذا لم تكن الأسس الاقتصادية التى يقوم عليها هذا الاحتذاء غير مقنعة فان الخوافز السيكولوجية لا تغلب . وأخيرا ، دلت التجربة على أنه يكاد يكون من المستحيل تحويل التيار والغاء الحماية متى قررت لأنها تكون قد خلقت مصالح قائمة لا سبيل الى مقاومتها . وبرغم أن مزايا الحماية كثيرا ما تكون وهمية ، فان الطبقات التى تنعم بها تتمسك بها باصرار قوى ويعلو صوتها وضجيجها على أصوات من يقاسون من آثارها . والخلاصة ، أن تحالف الأنانية الفردية والأنانية القومية يبدأ حركة متزايدة فى أبعاد كل شيء غريب . وهى تستمر بطريقة آلية فى زيادة مستمرة ، كثافة ومدى .

وبعد الحرب الكبرى انتشرت النزعة القومية والجنوح الى الحماية انتشارا كبيرا كان العامل الأكبر فيه هو نتائج الحرب ومعاهدات الصلح والأزمة الاقتصادية الكبرى التى اندلعت فى سنة ١٩٢٩ . ومن بين العوامل التى أسهمت فى هذا التطور بصفة خاصة خلق عدد كبير من الدول الصغرى أرادت كلها أن تؤكد استقلالها القومى باتباع سياسة الإبعاد (١) .

وأدت زيادة قوة الحركة العمالية الى فرض قيود على هجرة العمال الأجانب والى استبعاد الأجانب من العمل . وهذه السياسة فى جوهرها هى سياسة الحماية التى يلجأ اليها أصحاب الأعمال الصناعيون .

(١) ليوبافولسكى « النزعة القومية الاقتصادية فى دول الدانوب » ١٩٢٨ .

والزراعيون ،وتقوم على أسس خداعة بنفس القدر . وعمت سياسة إعطاء كل طبقة مركزا احتكاريًا أو متميزًا جدًا ، ولعبت دورا حاسما في وقوع أزمة ١٩٢٩ التي أنهكت العالم عدة سنوات . وكانت أخطر سمات هذه الأزمة هي انتشار البطالة على نطاق لم يسبق له مثيل ، مما مهد السبيل للهتلرية وللحرب الحالية . لقد كان من الدلائل المؤسفة جداً على الحجاب العقلي الذي تفرضه النزعة القومية أن علاج الأزمة أتجه الى حد كبير الى زيادة الحماية والاحتكار ، وذلك برغم التحذيرات التي لا عدد لها من جانب أكبر الثقات الاقتصاديين .

وكان من بين العواقب المميتة للحرب الكبرى التضخم الذي رجع بعضه الى انحلال التنظيم الاقتصادي بسبب الحرب ، وبعضه الى عوامل سياسية . وكان للتضخم نتائج اجتماعية وسياسية كبرى في كثير من البلاد عملت على نمو النزعة القومية المتطرفة . فقد بلغ انخفاض قيمة العملة أحيانا الى حد الإفلاس اللارادي الذي فرضته على الناس ضرورة لا قبل لهم بها ، ولكن في عصر النزعة القومية كثيرا ما كان راجعا الى انحلال في الأخلاق الاقتصادية ويمكن ان يسمى بحق افلاسا بالغش . وكان التضخم مخدرا خطرا يجعل التداول أسرع ويخلق انطبعا بأن الأمور مزدهرة ، ولكنه بعد ذلك يتجه الى الهوة والخراب الكامل . وكانت من نتائجه محق قطاع كبير من الطبقات الوسطى وانتشار المذاهب المتطرفة بين الشباب . ومهد كلا الأمرين لمجيء الدكتاتوريين الذين اختلف أتباعهم بعضهم عن البعض بلون قمصانهم ولكنهم لا يعرفون مبدأ ولا رحمة ويحدوهم الازدراء الكامل لكل التزام أخلاقي .

ومن أسوأ عواقب النزعة القومية الاقتصادية بعد الحرب زيادة الاحساس بعدم الأمن في جميع البلاد . فالإنتاج والتجارة لا يزدهران الا في ظل حكم القانون واحترام قواعد الأخلاق المبدئية . وقد هاجمت النزعة القومية المتطرفة هذه الشروط الأساسية هجوما متزايدا وعملت على تدميرها . وكانت النتيجة أن الاستثمارات الجديدة تعرضت لمخاطر غير عادية في كثير من البلاد بسبب أن المستثمر لا يستطيع الاعتماد على حماية القوانين القائمة وعلى عدم تحيز الموظفين وحسن الثقة بالدولة . وكانت حالة عدم الشعور بالأمن العامة هذه وما نجم عنها من نقص في الاستثمارات الجديدة من العوامل الأخرى التي أدت الى البطالة . وعامل آخر هو اتفاق أجزاء كبيرة من الدخل القومي ورأس المال في أوجه غير اقتصادية ، في الأسلحة بكميات هائلة والانتاج بدون مبرر

اقتصادى والمباني العامة الضخمة لمجرد أغراض الدعاية والهيبة . وصحيح أن الدكتاتوريين من دعاة القومية يفخرون بأنهم قضوا على البطالة بهذه الوسائل نفسها ، وصدقهم بعض السياسيين الديموقراطيين فى تأكيداتهم . ومع ذلك فإن هذه الدعوى وهمية وباطلة . فالبطالة لم ينقش عليها بمثل هذه الوسائل ، بل أخفيت فحسب . لأنه إذا أنفق قسم أكبر مما ينبغي من العمل القومى فى أعمال غير منتجة فسيقل مقدار السلع الاستهلاكية . وإذا أدت سياسة وضع الاستقلال العسكرى فى مركز الأولوية الى انتاج سلع بديلة كثيرة التكلفة بدلا من استيراد السلع الأجنبية الرخيصة ، كانت نتيجة ذلك أيضا نقص المقادير ، وفى الظروف العادية يودى ذلك الى بطالة . ولكن الدكتاتوريين كانت لديهم القدرة على اخفائها باستخدام العمال فى جميع أنواع الأعمال الكاذبة وبتوزيع العمالة الأقل والمقادير الأقل على مجموع العمال . فمن السهل جدا « إلغاء البطالة » اذا كانت لدى الحكومات سلطة ارغام كل عامل على قبول أى عمل فى أى مكان وبأى أجر وبأية شروط . وقد بدا أن كثيرين من مثل هؤلاء العمال يعملون وهم فى الحقيقة لا يعملون بالمعنى الاقتصادى ولا فرق هناك مطلقا بين أن يأخذ الانسان أجرا عن عمل غير اقتصادى أو أن يأخذه بلا عمل . لقد أخفيت البطالة فى الدول الدكتاتورية وراء شعار من الأعمال غير الاقتصادية وان كانت على حساب خفض مستوى معيشة الشعب . وأدى النقص فى استهلاك الشعب الى رد فعل فى البلاد الأخرى التى كانت حتى ذلك الوقت تمدّها بالسلع . اذ انكمشت الواردات وكان من نتيجة ذلك أن هذه البلاد أيضا تأثرت بالبطالة . وقد ظلت العواقب الوخيمة لهذه السياسة خافية بعض الوقت نتيجة لاجراءات مختلفة مثل نهب الطبقات التى لا حول لها مثل اليهود ، أو نهب الدائنين الأجانب بعدم دفع القروض أو بوسائل تنطوى على استهلاك رأس المال القومى ، ثم أخيرا بغزو البلاد الأضعف .

وفى النهاية أدت النزعة القومية الى تدمير الثروة وكل الأسس المعنوية الضرورية لانتاج الثروة ، وهى السلام وحكم القانون وحسن الثقة والاحساس بالأمن ، تدميرا كاملا . ان نظامنا الاقتصادى الحديث كان نتاج حرية الابتكار والمبادأة والعمل . ومع صعود دول العبودية الشمولية الحديثة صار الاقتصاد العالمى أنقضا أكثر فأكثر . فقد اضطرت معظم الدول الى أن تحول نفسها الى قلاع مجهزة لحصار أبدى وهجمات مفاجئة من الأرض والبحر والجو .

ومن العوامل التي ساعدت أيضا على قيام الحواجز بين الدول وعلى القضاء على التعاون الدولي ، نمو صناعات الدولة والقواعد الضيقة التي تضعها الدول للصناعات على حساب المشروع الفردي . ومن المستحيل أن ندخل هنا في مناقشة حول ما اذا كان التخطيط المركزي أو التخطيط الفردي أكثر إنتاجية وأفضل من الناحية الاجتماعية . فأكبر الثقات الاقتصاديين اليوم متفقون على أن لكل من النظامين مزاياه وعيوبه وأن الجمع بينهما بصورة ما أمر مرغوب فيه أو حتمي . أن ما سنناقشه هنا هو أثرهما فيما يتصل بالنزعة القومية . والآن لا ريب في أن وجود نفوذ بعيد المدى للدولة على الإنتاج يجنح الى نقص التبادل الدولي للسلع ورأس المال والعمل . وفي عدة فروع لا يستطيع انتاج الدولة أن ينافس المشروع الفردي في السوق الحرة ، ومن ثم فانه يؤدي الى اجراءات يقصد بها استبعاد السلع الأجنبية من اسواق الداخلى أو اغراق الاسواق الأجنبية بالصادرات بخسارة ، ومن الطبيعي أن يثير ذلك الدول التي تتأثر بهذه المعاملة الى حماية نفسها ضد المنافسة غير العادلة . وفضلا عن ذلك فان مجرد دخول دولة أجنبية في منافسة مع أبناء البلاد يثير غيرة قومية أكثر مما تثيره منافسة التجار الأجانب . وكقاعدة عامة يفسر هذا الدخول فورا على أنه حركة سياسية ذات أهداف شريرة . فالتاجر الخاص على استعداد للبيع أو للشراء حيثما كان في ذلك ربح له ، في حين أن احتكار الدولة للتصدير يؤدي الى عزوف شديد عن أخذ القدر المناسب من البضائع الأجنبية في مقابل صادراته . كما ان خطط «المقايسة» التي تمت بين الدول بنوايا طيبة لم تؤد حتى الآن الى نتائج طيبة الا فيما ندر .

ومن نتائج زيادة نشاط الدولة في الانتاج وفي تنظيم الانتاج تضاعف عدد الموظفين الذين يؤلفون في كثير من البلاد طبقة سريعة التأثير بالنزعة القومية . اذ أن سيكلوجية موظفي الدولة كثيرا ما تنطوى على تغلب الاحساس بالقوة ، ويميل كثيرون منهم بطبيعة الحال الى استعراض وظائفهم بوصفهم أصحاب القوة . وصغار الموظفين والأقل تعليما بينهم معرضون لذلك عادة أكثر من أولئك الذين يتحملون مسؤوليات كبرى (١) . والآن ان تطورنا الاجتماعى يؤدي الى زيادة

(١) لقد اقتنعت بعد ملاحظة طويلة في بلاد مختلفة في وسط أوروبا وشرقها أن أكثر طبقة تضم نسبة ضخمة من ذوى النزعة القومية المتعصبين في طبقة صغار موظفي الدولة . وقد انبثقت معظم الصراعات القومية في هذه المناطق أساسا من التنافس بين أشباه المثقفين على وظائف الحكومة .

سريعة فى عدد الأفراد الذين يملكون قدراً من التعليم ويمكن أن يطلق عليهم اشباه المثقفين . وهذا الانتشار فى التعليم مفيد جداً من وجوه كثيرة ، والأمل أن يزيد بنسبة أكبر . ولكن يجب ألا نفعل عن أن من نتائجه أيضاً زيادة عدد الأشخاص الذين لديهم طموح للحصول على مركز ذى نفوذ وسلطة . وفى حالات كثيرة كانت حالة طبقة شبه المثقفين الذين لا يجدون فرصاً مناسبة لاشباع طموحهم مشكلة اجتماعية كبرى . والنظام الاقتصادى الذى يتيح مجالاً للابتكار الفردى يوفر لكثيرين منهم فرصة النجاح فى مهنة ما وأن يصيروا قیاصرة فى متجر أو مصنع بقدر ما يسمح البرلمان والنقابات . بيد أن تركيز النشاط الاقتصادى فى يد الدولة أكثر فأكثر يضيق هذا المجال ولا بد أن يحول الطموح الى السياسة وخدمة الدولة ، الأمر الذى قد ينطوى على زيادة حدة النزعة القومية والصراع من أجل السلطة . وأنه لمن المشكوك فيه أن تكون الشيوعية الكاملة مما يتفق مع أية صورة من صور الديموقراطية . فضخامة مشكلة تنظيم حياة الشعب كلها وتعقيدها لابد أن تشير انقسامات واختلافات لا نهاية لها فى الآراء ، ويشند الصدام بين المصالح والمطامح بحيث لا يمكن التغلب عليها الا بالكثاتورية .

الفكر السياسي والأيدولوجية القومية

١ - تأثير الفكر على السياسة

ان الفلاسفة والمؤرخين كونوا عدة وجهات نظر مختلفة فيما يتعلق بالصلات بين الفكر والحياة ، وبدور الأفكار في وضع السياسات (١) . وفي الأزمنة السابقة كثيرا ما كانوا يغالون في دور الأفراد في توجيه مصير الامم ، وأدى ذلك الى وجهة النظر القائلة بأن التاريخ أساسا نتيجة للاستهداف والتخطيط الفرديين ، أما في العهود الحديثة فان هناك ادراكا متزايدا لتأثير القوى الاجتماعية الجماعية في التاريخ ، وينطوى ذلك على الاعتراف بأثر الانفعالات والمصالح . وقد أثبت علماء الاجتماع الحديثون أن برامج الأحزاب ، بل ونظريات كبار المفكرين ، تتحدد الى حد كبير ببيئتها الاجتماعية ، وبالأوضاع التاريخية الخاصة بها . بيد أن القوى العقلانية واللاعقلانية متشابكة كقاعدة عامة بحيث لا يكاد يمكن فصلها . والعالم الحقيقي يحاول وضع الحقيقة فوق أعز مثله العليا ومصالحه الجوهرية ،

(١) أرنست ترولتشي «Der Historismus und seine Probleme»
١٩٢٢ ، وفردريك ماينكه مجلدان
١٩٣٦ ، و ج . جولد فريدريك «Die Historische Ideenlehre in Deutschland»
١٩٠٢ . كما أن الأهمية الكبرى للأفكار أكدها لورد آكتون في كثير من تأملاته التي جمعها أولريخ نواك وفسرها في «Geschichtswissenschaft und Wahrheit»
١٩٣٥ . وقد أجيب عن السؤال الخاص بدور فلاسفة الاستنارة في قيام الثورة الفرنسية بصفة خاصة بعدة طرق مختلفة . انظر كنجسلى مارتن « الفكر الفرنسي التحرزي في القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ص ٦٦ .



ولكن حتى هو لا ينجح تماما فى القضاء على التحيز دائما • بيد أن الداعية يستخدم الفكر والمعرفة كمجرد أدوات للدفاع عن أهدافه المتصورة • ونوع تفكيره يسمى عادة أيديولوجية اليوم لتمييزه عن التفكير العلمى غير المتحيز • وفى حالات كثيرة لا يكون الفرق الا فى الدرجة ويصعب تحديد الحد الفاصل •

وكانت الطبقات المثقفة هى دائما القوة الدافعة فى السعى من أجل الجنسية ومنها زعماء هذا السعى ، ومن الجلى أن هذه الطبقات معرضة بصفة خاصة لتأثير المذاهب التى يكونها المفكرون والحالمون ويدافع عنها كتاب وخطباء وفنانون كبار • وكثيرا ما اجتذبت حماسة المثقفين التى يزيدها الفلاسفة اشتعالا فكر الجماهير وحملته معها ، برغم أن الجماهير لا تكاد تعرف شيئا عن الخلفية الفلسفية لمذهبهم • بيد أن الأفكار الاصلية للمفكرين السياسيين فيما يتصل بأهداف الجنسية ومقارها كانت تتغير عادة فى اثناء تحقيقها الى حد أن النتيجة كانت تحيى مختلفة ، بل ومناقضة ، لما توقعوه • ومن ثم فانه من الضرورى عند محاولة تحديد مدى تأثير المذاهب على عقلية الشعوب الا يقتصر البحث على نظريات الفلاسفة ، بل يشمل ايضا تعديلاتها فى أيديولوجيات الطبقات والشعوب •

وقد اكد الكثيرون أن كل طابع قومى يعبر عن نفسه فى خطبة

فلسفية معينة ، ولكن فى الحقيقة نجد أن النمو الفلسفى لكل أمة ينطوى على أنواع كثيرة مختلفة من الفكر . ومع ذلك فإنه صحيح أن نوعا معينا من الفكر كانت له الغلبة عند كل أمة ، وأن هذا الفكر تأثر بقوة عوامل سياسية واجتماعية معينة ، وأن كل أمة اليوم تعتبر نمطا معيناً سمة مميزة لجنسيتها ، فيما يتعلق بكل من المدنية والسياسية . فالانجليز يعتبرون التجريبية والنفور من النظريات المجردة من سماتهم القومية المميزة ، ويربطونها بتفضيلهم للحلول الوسطى والتحررية والديمقراطية . ويفخر الفرنسيون بتقليدهم العقلانى العظيم والدور المسيطر الذى يحتله العقل فى سياستهم . ويفخر الألمان بفلاسفتهم الميتافيزيقين العظماء وبالعناصر المثالية والتصوفية والرماسية فى فكرهم ، ويؤكدون أيضا الارتباط الوثيق بين فلسفتهم القومية وسياستهم .

بيد أن الارتباط بين الفلسفة والسياسة لم يقل به الكتاب الذين تحدوهم روح الفخر القومى وحدهم ، بل كثيرا ما كان موضع التأكيد بقصد القاء مسئولية السمات الشريرة فى التطور القومى لأمة ما على فلسفتها . وفى الحرب العالمية الأولى بصفة خاصة اتهم كثير من العلماء الألمان الانجليز والفرنسيين بأنهم وضعوا نظما من الفكر تدعم نمو الرأى العام والمذاهب السياسية التى تؤدى الى الحرب . ومن الناحية الأخرى أكد بعض العلماء الفرنسيين والانجليز المبرزين أن الفكر الفلسفى الالمانى بالذات هو الذى صاغ العقلية السياسية التى انبثقت منها الحرب الكبرى . ومن ثم فإن كلا من الطرفين حاول اثبات أن الحرب لم تكن مجرد حادث نجم عن أخطاء رجال الدولة والدبلوماسيين ، بل انها متأصلة الجذور فى العداء القائم بين المثل العليا والمعتقدات التى تدين بها الشعوب والتى يتعلق بها الأمر (١) ، وقد تأكدت هذه الحجة

(١) من الناحية الألمانية انظر

«Die Nationen und ihre Philosophie»	ويلهلم واندت ١٩١٥
«Der Genius des rieges und der deutsche Krieg»	ماكس شيلير ١٩١٥
«Nation und Weltanschawung»	ماكس شيلير ١٩٢٣
«Handler und Helden»	فرنر سومبارت ١٩١٥
«Rousseau, Kant et Hegel»	أما من الناحية الفرنسية فانظر ليون ديغوى ١٩١٧
«Revue du droit public et de la science polit.»	ليون ديغوى ١٩٢٧
«Revue des deux Mondes»	لويس برتراند ١٩١٥
	فكتور باسك ١٩٢٧
«Les doctrines politiques des philosophes classiques de l'Allemagne»	

فى ألمانيا بصفة خاصة وحظيت فكرة ان الحرب هى فى نهاية المطاف صدام بين عقليتين لا تتفقان ، كثير ما وصفتا بأنهما المثالية الألمانية والمادية الغربية ، بانتشار واسع بين المثقفين (١) .

وكل هذا الجدل بين ممثلى الامم المتعادية كان مصدر وحيه طبعاً هو الانفعالات السياسية والتحيزات . ومع ذلك فلا يمكن انكار أن هناك صلة ما بين الفكر الفلسفى والأيدولوجيات السياسية . وصحيح أن بعض الفلسفات قامت بدور أكبر من غيرها فى صعود النزعة القومية العدوانية . ولكن من الناحية الأخرى من الخطأ أن نفترض أن نوعاً من الفكر الفلسفى هو الذى شجع هذا التطور . فمن الحقائق الغربية أن عدداً كبيراً من التيارات الفكرية والمشاعر والمصالح اشتركت كل منها فى نمو النزعة القومية من ناحية وقاومت آثارها من ناحية أخرى . فالمثالية والمادية والحمية واللاحتمية والعقلانية واللاعقلية والتفؤل والتشاؤم والفردية والجماعية والدين واللادين - كلها شجعت الزيادة فى العدوانية القومية وعبادة الذات من ناحية وعارضتها من ناحية . إذ أن كل مدرسة فكرية تنطوى على اتجاهات مختلفة فى النمو ، وكثيراً ما أيقظ بعض المفكرين الكبار افكاراً فسرت فيما بعد بواسطة اتباعهم بمعنى مختلف تماماً عما قصدوه .

وليس الغرض من الملاحظات التالية هو تتبع الارتباط بين بعض الفلسفات بذاتها وجميع جوانب الطابع القومى . فهذه المهمة تتطلب كتاباً منفصلاً لكل مفكر بمفرده . ان هدفنا هو مجرد عرض أفكار كبار الفلاسفة عن بعض المشاكل الرئيسية فى الجنسية . بالإضافة الى أن الطابع القومى تأثر بالفكر فى صورة الدين والشعر والفن ، وكان تأثير مثل هذه العوامل عادة أقوى بكثير جداً من تأثير الفلسفة نفسها . وقد ناقشنا دور الدين فى فصل منفصل ، ولكن دور الشعر والفن لا يمكن مناقشتها هنا الا بصورة عابرة من وقت لآخر .

٢ - الفكر فى العصور الوسطى عن الجنسية والدولة والسلام والحرب

كثيراً ما يقال اليوم : ان العصور الوسطى لم تعرف الجنسية ، وان

(١) من أكثر دعاة هذه النظرية تعصباً ستون ستيوارت شميرلين فى كتابات مختلفة نشرها ابان الحرب وفى مراسلاته مع القيصر وليم (نشرت ١٩٢٨) .

كان الأقرب الى الصحة القول بأن فكرة العصور الوسطى عنها تختلف عن
الفكرة الحاضرة . فالناس بالتأكيد كانت تشعر بعاطفة نحو أرض الموطن
ونحو العشيرة والقبيلة والعادات القديمة ، وكانوا يفخرون بموطنهم الصغير
وهيبته ويبدون الكراهية والتحيز نحو الأعداء . ولكن التضامن كان قليلا
بين مراتب الناس المختلفة ، ولم توجد فكرة الولاء غير المحدود للقضية
القومية ، وكان الدين يعتبر قطعاً فوق المشاعر القومية ، على الأقل من
ناحية المبدأ ، وإن انتشرت في أواخر العصور الوسطى حركة قومية ضد
أساءات البابوية . وكان السعى العدواني للتوسع والسيطرة كثيراً ،
ولكنه نادراً ما كان ينطوي على اتجاه قومي صريح ، ولم يكن الهدف هو
فرض جنسية المنتصر على الشعب المهزوم . كما لم يكن هناك تعصب كثير
تجاه الأجانب المسلمين لمجرد لغتهم (١) أو عاداتهم ، وكثيراً ما سمح لهم
بأن يعيشوا في جماعات منفصلة كادت تكون دولا داخل الدول . وكانت
لغة الدولة والكنيسة والجامعات هي اللاتينية . وكانت المشاعر القومية
الموجودة في الغالب أكثر تلقائية وإخلاصاً من كثير من مظاهر النزعة
القومية الحديثة التي تعتبر الى حد كبير نتاج الاثارة المصطنعة بواسطة
الدعاية .

وكان العامل الرئيسي في تحديد الفكر السياسي هو تعاليم الكنيسة ،
وتعبر عن موقفها الأساسي هذه الكلمات التي استعملها في سنة ١٠٩٥
البابا يوربان في خطابه الشهير الذي يبحث فيه المسيحيين على القيسام
بالحروب الصليبية : « لا تدعوا التصاقكم بأرض مواطنكم يقف عائداً :
لأن من وجهات النظر المختلفة تعد الأرض كلها منفى للمسيحي وكل العالم
موطنه » (٢) .

وينطوي هذا الموقف على مبدئين : أن وحدة المسيحية لها الأولوية
على الاختلافات القومية ، وأن السلطة الروحية للكنيسة مفروض أنها فوق
السلطة الزمنية للحكومات . فالوطن الحقيقي للمسيحي هو النعيم ، ومن
ثم فإن الموطن الأرضي ثانوي في الأهمية . فضلاً عن أن العقل في العصور

(١) وإن كانت الأسباب المالية والتجارية أدت أحياناً الى صراعات عنيفة .
(٢) ولیم أوف مالمسبری (كرونیکل) ترجمة جابلز ١٩١١ ص ٣٦٣ . ويؤكد
مسجل التقويم « كرونیکل » أن النص أخذ من مصادر موثوق بها . والغالب أن وجهة
نظره الخاصة لم تكن مختلفة تماماً . ففي مكان آخر (ص ٢٨٥) يذكر كيف أن ادجار ،
وهو انجلوساكسوني من دم ملكي هرب الى القارة بعد مقاومة غير ناجحة لوليم النافع ،
لقي ترحيباً عظيماً وتكريماً ولكنه مع ذلك عاد الى انجلترا « لأن حب الوطن يخدع حقيقة
بعض الناس الى درجة أنهم لا يبرون بشيء الا اذا كانوا يتنفسون هواء بلادهم » . ويقول
مسجل التقويم أن ادجار « كان مخدوعاً بهذه الرغبة السخيفة » .

الوسطى تأثر بعمق بتصور القديس أوجستين للدولتين على الأرض :
مجتمع الله ومجتمع الشيطان . ورغم أن أوجستين لم يحدد هذين
المجتمعين بأنهما الكنيسة والدولة ، فإنه افترض صلة معينة بين كل
منهما . فالدولة الأولى أسسها قاتل أخيه ، وهو قابيل ، وجاءت كل
الدول بعد ذلك ملوثة وتحدوها بالدماء شهوة السلطان والمجد والسيطرة
والاغتصاب .

وقد بينا من قبل أن الصراع بين السلطتين الروحية والزمنية كانت
له أهمية كبرى فى نمو الدولة القومية . فقد حاول البابوات والأباطرة
والملوك ، كل بدوره ، أن يكسبوا تأييد الشعوب ضد خصومهم ، وبذلك
عملوا - برغم ارادتهم - على نحو أفكار الاستقلال القومى والحرية والسيادة
القوميتين . وكانت وحدة الكنيسة تتطلب امبراطورا عالميا يدافع عن هذه
الوحدة بالسيف عندما يتهددها الخطر . ولكن ذلك لم ينطو على فكرة
السيطرة العالمية بالمعنى الحديث ، بل كان أقرب الى سلطة الحكم الأعلى بين
الحكام المسيحيين والى سيادة الشرف ، وإن كان بعض الأباطرة سعى الى
تحقيق أهداف أكثر طموحا . ففكرة السيادة بمعنى السلطة غير المحدودة
والسعى الى التوحيد ، وهو المعنى الذى يسيطر على أيديولوجية الجنسية
الحديثة ، كانت غريبة عن الفكر فى العصور الوسطى . فكان المجتمع
يعتبر مؤلفا من جماعات كثيرة ، لكل منها بعض الحقوق الخاصة التى تعد
مقدسة مثل حقوق الحكومة ، وكانت سلطة جميع الحكام الدنيويين مقيدة
«بقانون الناس» والعادات القديمة والامتيازات الفيوذالية ، وفوق كل شيء
آخر بالقانون الإلهى والطبيعى الذى يعتبر وحده معقد السيادة (١) .
وصحيح أن البابوات ادعوا سلطة غير محدودة ابتداء من جريجورى
السابع ومن بعده ولكنهم كانوا يتصرفون بوصفهم ممثلين لله ، وكانوا
بطبيعة الحال مقيدين بمبادئ المسيحية والقوانين الأساسية للكنيسة ، ولم
تحظ ادعاءاتهم ولا ادعاءات منافسيهم ، التى تقدم بها الفقهاء باسم
الأباطرة ، بقبول عام .

ان البناء الفدرالى لمجتمع العصور الوسطى لم يكن متفقا مع فكرة

(١) انظر ر . وا . كارلايل « تاريخ النظرية السياسية فى الغرب فى العصر
الوسطى » المجلد الرابع ١٩٢٢ ص ٣٦ و ٦٨ و ٨٥ . وأوتو جيركه « النظريات السياسية
فى العصر الوسطى » ترجمة ومقدمة بقلم ف . و . ميتلاند ١٩٠٠ ص ٧٣ . وكذلك عدة
مقالات بقلم كتاب مختلفين فى « الأفكار الاجتماعية والسياسية لبعض كبار مفكرى العصور
الوسطى » . أشرف على تحريرها أ . هيرنشو ١٩٢٣ .

«الأمة الموحدة ذات السيادة» الحديثة . ومع ذلك فإن مبدأ السيادة الشعبية لم يكن غير معروف . فقد كانت له جذور في القانون الروماني والقانون الجرمانى ، وكان تأييده بالأمثلة من الانجيل والتاريخ السابق ممكنا . فقد اعتبر أن الملك منتخب بواسطة الشعب ، ممثلا في أقطابه ، وإذا هو خرق واجباته أمكن عزله .

وأعلن جريجورى السابع أن السلطة الروحية للبابا أعلى من كل الحكومات الزمنية ، ووصف حكم الملوك في خطابه الشهير الى أسقف متر في الفاظ فظيعة على أنه من عمل الشيطان أصلا وطبيعة معتبرا الدولة ومدينة الشيطان ، التى قال بها أوجستين ، شيئا واحدا تقريبا . وصاغ جون سالسبورى النظرية الرئيسية لجريجورى فى صورة أكثر اعتدالا وبروح عملية ، ووصف الدولة الطيبة ككائن عضوى يمثل فيه رجال الكنيسة الروح ، والحاكم الرأس الذى لا بد أن يخضع لحكم الروح (١) . وقورنت أجهزة الدولة والمجتمع المختلفة بالأجزاء الأخرى للجسم . وقد أخذت هذه المقابلة من مصدر قديم زائف هو أحد المؤلفات التى عزيت الى بلوتارخ ، وقد حذا عدد كبير من الكتاب حذو جون سالسبورى . وتبعا لما يقوله هدف الدولة هو أن تجعل فى وسع كل فرد أن يحقق خلاصه بأن يعيش عيشة مسيحية حقة فى وضعه الخاص . ومن ثم فإن دولته دولة دينية ولا علاقة بينها وبين الدولة القومية الحديثة . فهو لا يكاد يعرف الأمة ، وقد اخضع حكمها على أى الأحوال للسلطة العليا التى يمارسها رجال الكنيسة . وبرغم أن جون كان من عدة وجوه انجليزيا حقيقيا فانه عاش فيما بعد فى الخارج بوصفه أسقف شارتر بالقرب من باريس . وعندما قام البارونات القوميون فى سنة ١٢٨٥ بقيادة مونفورت وبيجود بطرد الاساقفة الاجانب من انجلترا ، برروا ذلك فى خطاب الى البابا بالاستشهاد بقول جون سالسبورى : ان الدولة ينبغى أن تكون وحدة عضوية وأن التناسق يجب أن يسود بين أعضاء الجسم الواحد (١) .

(١) انظر فيما يتصل بجون أوف سالسبورى كارلايل المجلد الرابع ص ٣٣٠ . والمقال الذى كتبه أوف جاكوب فى كتاب هيرنشو السابق ، وبول جنريخ «Die Staats- und Kirchenlehre Johannis von Salisburys» ١٨٩٤ .

(٢) يملأ الصراع ضد الاجانب فى عهد هنرى الثالث صفحات قسم كبير من كتاب مايتو باريس «التاريخ الانجليزى» (ترجمة جايلز ثلاثة أجزاء ١٩٥٤) . ويظهر فى هذا الكتاب أشد عداوة ممكن ضد جميع الاجانب سواء كانوا من نبلاء بواتان أو غسقونيا ، أو كبار الشخصيات والماليين الايطاليين ، أو التجار الألمان . ويوصف الاسبان بأنهم « حشالة البشر وجوهم قبيحة وسلوكهم مزر وأخلاقهم كريهة » . وينمى المسجل =

وعندما عرف كتاب السياسة لأرسطو على نطاق واسع بالنص الأصلي وترجمته أدى ذلك الى اثاره الفكر السياسي فى القرون الوسطى والى دعمه ، وحاول توماس الأكوينى (١٢٢٦-١٢٧٤) الجمع بين اتجاه أوجسطين لما وراء الطبيعة وآراء أرسطو . وقد تأثرت فكرته الاجتماعية أيضا بروح الجمهوريات المدن فى ايطاليا وبالعهد القديم والفلسفة العربية واليهودية (١) . فالمسيحيون جميعا يؤلفون شعبا واحدا أولا عنده ، أما انقسامهم الى دول فهو أمر ثانوى ، وكل الدول المسيحية تؤلف عائلة واحدة . والاشترك فى حرب عادية خطيئة وان كان من يقاتلون فى سبيل الله لا لوم عليهم . والمجتمع تنظيم تنازلى عضوى من المراتب الوظيفية ، وأفضل نوع من الحكم هو الملكية المنتخبة . وما زال فكر الأكوينى هو مذهب الكنيسة الكاثوليكية . وتحدوه روح النفور من الدولة الموحدة القوية التى تقوم على السيطرة والهيبة ، وتفضيل المجتمعات المسالمة الصغيرة التى تعيش على العمل بالذهن واليد والطوائف المهنية المستقلة تحت توجيه الكنيسة . أما آجيدىوس أوف روما فبرغم أنه من المدافعين الأشداء عن سيادة البابا فانه يؤكد مزايا الملكيات الوراثية الكبرى كما يعتنق مبدأ سيادة الشعب ، الذى قال به ارسطو ، وهو المبدأ الذى سرعان ما سيعلنه كل من مارسيلىوس أوف بادوا ونيقولا أورزميوس (٢) فى صورة أكثر تطرفا . وكانت الدولة القومية النامية قد أثبتت فعلا أنها

= باستمرار استعباد الاجانب لانجلترا بأخذهم كل ما فيها من مال الى الخارج . ويندد بالزواج بالاجنبيات ، بل ويقول ان الاجانب قاموا بمؤامرة لتسميم الانجليز ، وبخاصة النبلاء ، وان كثيرين ماتوا فعلا . ويؤكد ان السم ، وهو سائل أزرق ، مزج فى منزل الياش بيشوب وبرضا ، وهو يهودى من لندن أنقذ حياته بأن اعتنق المسيحية (المجلد الثانى ص ٢٩٦ و ٣١٤) . ويذكر ماتيو باريس أيضا (فى المجلد الثانى ص ٢٤٨) أن ملك فرنسا أوفده الى هاكون ملك النرويج يعرض عليه قيادة الاسطول الفرنسى كله فى حرب مقدسة ولكن هاكون رفض هذا الشرف لأن النرويجيين والفرنسيين ذوى طبيعة تجعل أى نزاع يؤدي حتما الى أضرار لا اصلاح لها . ويكفى ماتيو باريس وحده لدحض أسطورة أن الكراهية القومية لم تكن معروفة فى العصور الوسطى .

(١) انظر بخاصة ١ . ترولتش «Die Soziallehren der Christlichen Kirchen» ١٩١٢ ص ٢٥٦ (وهو مترجم الى الانجليزية أيضا) و ١٠ شيلمنج — «Die Staats und Soziallehren des hlg. Thomas von Aquin» ١٩٢٣ .

(٢) انظر فيما يتصل بالكتاب السياسيين فى آخر فترة من العصور الوسطى كارلايل المجلد الخامس . وهينرشو المرجع السابق . وبول جانيه «Histoire de la Sc. Polit.» المجلد الخامس . وهينرشو المرجع السابق . وبول جانيه «Die Publizistik zur Zeit Philip des Schönen» ١٩٠٢ .

أقوى من الامبراطورية العالمية التي نادى بها البابا والامبراطور . وقد دافع دانتى عن الملكية العالمية التي يرأسها الامبراطور على أساس أنها وحدها تستطيع المحافظة على السلام والوفاق بين الشعوب . وأعلن أسفه لتمييز الجنس البشرى شذرا بالنزاع المستمر . وقال : ان الرجل الذى ينظر الى موطنه ولغته الأصلية باعتبارها أسمى من جميع اللغات والمواطن الأخرى أحق . وأضاف دانتى أن حبه لفلورنسا جلب عليه النفى والظلم ، وأنه يفضل من ناحية رفاهته الشخصية أن يعيش فيها أكثر من أى مكان آخر ، ولكنه ينظر الى العالم باعتباره موطنه وهو مقتنع بأن شعوبا كثيرة لديها بلاد أجمل وأنبل ولغات أجل وأكثر فائدة .

وكان التنافس والمباهاة والأزدراء كثيرة بين شعوب القرون الوسطى ، وان كانت الوحدات وقتئذ أصغر حجما من الأمة الحالية (١) . كما كانت توجد أيضا أيديولوجيات لتبريرها ، وبخاصة فكرة الرسالة القومية . ولما صارت الامبراطورية الرومانية فى أيدي الألمان جعلهم ذلك يتيهون فخرا وأدى الى ظهور نظريات مختلفة عن حقهم فى السيطرة العالمية . وأعلن الكتاب الألمان أن الامبراطورية « أعطيت » للألمان ورياسة الكنيسة للايطاليين والقيادة فى المعرفة للفرنسيين . بيد أن هذه الرسالة وحدها لم تكن كافية لطموح الفرنسيين الذين كانت تحدوهم فكرة قيام فرنسا القوية العظيمة .

وممن يمثلون وجهة النظر هذه تماما الفقيه الملكى بيير ديبوا (٢) . وكان أحد تلامذة توماس الأكويني . ولعل نفوذ أستاذه هو الذى يظهر فى تأكيده على السلام بوصفه الخير الأسمى ، وفى خطته لتكوين فدرال بين جميع الحكام المسيحيين وانشاء محكمة دولية للمحافظة على السلام والقيام بجهد مشترك ضد الأتراك . ولكنه يختلف عن القديس توماس اختلافا كبيرا فى أنه حاول تبرير السيطرة العالمية ، أو على الأقل السيادة فى

(١) فى الجامعات الكبرى مثل باريس وأوكسفورد حيث اختلط الطلبة من بلاد عديدة وأنحاء مختلفة من البلد الواحد كانت تقوم صراعات عنيفة بين الطلبة الذين ينتمون الى أصول مختلفة . وفى جامعة باريس كان الطلبة يعززون رذائل معينة الى كل أمة ، وقد سجل هذه الرذائل جاكوبوس دى فيتريكو . انظر أ. بوندسكى Die Universität

»Paris und die Fremden an derselben in Mittelalter« ١٨٧٦ ص ٤٦ .

(٢) أنظر فيما يتصل بديبوا ايلين باور مرجع هيرشو السابق ص ١٣٩ ، وجاكوب ترمويلن Der gedanke der internationalen Organisation in seiner
»Entwiklang« ١٣٠٠ - ١٥٠٠ - ١٩١٧ وكريستيان لانج
»Histoire de l'internationalisme«

أوربا ، الملك فرنسا وفى اقتراحه توسيع السيطرة الفرنسية بشكل كبير
جدا على حساب البابا وألمانيا واسبانيا .

وقد أثار مشكلة الطابع القومى أيضا انتباه كتاب العصور
الوسطى . ففي القرن الثالث عشر كان الانجليز مينورايت بارثلميو ، وهو
عالم مبرز عمل أستاذًا فترة ما فى ألمانيا وفرنسا، وقد وصف طابع عدة
شعوب أوربية (١) . وبدا له الألمان بصفة خاصة عنيفين وميالين الى
القتال ، وإن كان قد استثنى منهم شعوب أرض الراين والأراضى الواطئة
وميسينا ، ساكسونيا الحالية ، الذين كانوا متمدينين . واسترعى نظر
روجر بيكون الاختلاف فى الطابع القومى حتى بين الشعوب المتجاورة مثل
البيكارديين والفرنسيين والنورمانديين والفلمنكيين والانجليز . وانتهى
الى نتيجة أن الاختلاف راجع الى ترتيب النجوم (٢) . وقرابة نهاية
العصور الوسطى دعمت الدراسات الانسانية وصعود الشعور القومى
الاهتمام بهذه المشاكل الى حد كبير .

وكانت الصراعات العنيفة كثيرا ما تناقض وجهة نظر العصور
الوسطى من أن المسيحية كلها تؤلف شعبا واحدا ، ولكن هذه النظرة لم
تكن بلا تأثير تماما على العلاقات بين الشعوب . فقد تناول المدرسيون
والعلماء مشاكل القانون الدولى بالبحث ، وكان للتحكيم الدولى دور
ضخم . ويناقش نوكوفيتش ، الذى قام بدراسة خاصة لهذا الموضوع ،
أكثر من ١٥٠ رسالة وحالة من حالات التحكيم وقعت فى الفترة من
١١٤٧ : ١٤٧٥ ، ولا تعتبر قائمته كاملة (٣) . وقد كان السبب
الرئيسى بالتأكيد هو عدم وجود أية دول قومية كبرى بعد . فقد كانت
الأقطار صغيرة ويحكمها أمراء تحدوهم التقاليد الفدرالية بدرجة تزيد أو
تنقص . وكثيرا ما أثرت فكرة التضامن بين جميع الأقطار المسيحية
وبخاصة فى مواجهة الخطر التركى . وقد تقدم ملك بوهيميا ، جورج
أوف بوديبرادى ، بخطة تنظيم فدرالى لأوربا عرضها على لويس الحادى

(١) أنظر «علوم العصور الوسطى ، منتخبات من دائرة معارف بارثولوميو انجليكوس»
بقلم روبرت سنيل ١٨٩٣ . وانطون شونباخ «Mitteilungen des Instituts für
Oesterreichische Geschichtsforschung» ١٩٠٦ .
(٢) أنظر روجر بيكون «Opus Majus» اشرف على تحريره ١٥٠٠ . بریدجز ١٨٩٧
المجلد الاول ص ١٣٨ و ٢٥٠ و ٢٥٤ و ٣٧٩ و ٣٩٣ والمجلد الثانى ص ٣٦٦ .
(٣) نوكوفيتش «Les compromis et les Arbitrages internationaux du
12e au 15e siècle» ١٩٠٥ (أورده لانج ص ١٢٣) .

عشر ملك فرنسا (١) . وبعد العصور الوسطى بفترة قصيرة وصل الأمر الى حد وضع مبدأ الفدرال الدائم في وثيقة رسمية هامة هي وثيقة « السلام العالمى » التى تم الاتفاق عليها فى لندن سنة ١٥١٨ ، بدعوة من البابا ليو العاشر والكاردينال ولسلى ، بين الملك هنرى الثامن ملك انجلترا والملك فرانسيس الأول ملك فرنسا ، وانضم اليهم شارل الأول ملك اسبانيا (الامبراطور شارل الخامس فيما بعد) والبابا . وفى هذه المعاهدة اتفق الملوك على سلام وتحالف دائمين ، لا ضد الأتراك فحسب بل ضد كل معتد . فاذا هوجم أحدهم بواسطة دول أخرى تقرر المعاهدة أن حلفاء الآخرين عليهم أولا أن يتدخلوا دبلوماسيا وان فشل ذلك أن يرسلوا اليه مساعدة عسكرية على الفور . وكانت كل الدول الأخرى تستطيع الانضمام الى الحلف . بيد أن هذا الاتفاق « بالأمن الجماعى » لم يوضع موضع التنفيذ سوى فترة قصيرة . فقد تحطم بموت الامبراطور مكسيمليان الأول واندلاع الصراع الطويل على القوة بين فرنسا واسبانيا . فجنوح الملوك الى السلام لم يكن قط عاملا موثوقا به فى السياسة الدولية ، لا بسبب وجود بعض الملوك فى كل وقت يسعون الى توسيع سلطتهم بالحرب فحسب ، بل كذلك لأنهم كانوا مضطرين الى الالتجاء الى الحرب اذا أرادوا المحافظة على السلام فى الداخل . ان لويس التاسع (القديس لويس) كثيرا ما شكك من أن اعتزاز الفرنسيين ، وبخاصة كبار النبلاء ، يهدد سلام العلاقات الدولية . فقد كان بناء الدول القومية يتطلب سلاما داخليا ، وكان من الضرورى استنفاد الانفعالات الحربية فى حروب خارجية ، وكانت هذه الحروب ، فضلا عن ذلك ، تساعد على تكوين وحدة القومية ودعمها باثارة الانفعالات القومية ضد عدو مشترك . ولكن الى جانب الشك فى أن الملوك سيجنحون الى السلام كانت هناك رغبة مغلصة وشديدة فى السلام والاخاء الانسانى فى الدوائر الدينية والانسانية .

فقد شغل الفكر المسيحى باستمرار بمشكلة الحرب وحاول أن يجد لها حلا تحلوه روح المسيح . وفى القرن الثانى نبد مارسيون العهد القديم بأكمله بسبب ما يشيع فيه من روح حربية ، فى حين حاول أوريجين أن ينقذه بتفسير هذه الحروب على أنها رمزية تعنى الصراعات

(١) انظر لانج ص ١٠٨ ، وتيرمويلن ص ١٠٨ . وقد وضع المشروع انطونيوس مارينى ، أحد رجال الصناعة الفرنسيين ، الذى كان مستشارا لملك بوهيميا . بيد أن الملك كانت لديه خطط طموحة جدا حاول دعمها بهذه الحركة . وقد فشلت الخطة بجهود حزب البابا فى البلاط الفرنسى . وفيما يتصل « بالسلام العالمى » فى ١٥١٨ انظر لانج ص ١١٨ .

بين المؤمن والاغراءات والخطايا الدنيوية . وفي العصور الوسطى اعتنقت عدة شيع ، مثل : الكاثاريين والوالدانيين وقسم من الاخوة المورافيين واللامعبدانيين ، الدعوة الى السلام المسيحي وعدم القتال ومارسته .

وعلم وايكليف أنه تبعا لتعاليم الانجيل يعتبر سفك الدماء مما لا يتفق مع روح المسيح (١) . وقد تركت تعاليمه أثرا كبيرا فى بعض الشيع المشار اليها . وفى انجلترا أعلن أول «معترض على القتال بسبب الضمير» ، وهو وليم هوايت الذى اختبره أسقف نورويتسن فى سنة ١٤٢٨ ، أن قانون المسيح يحرم قتل الكائنات البشرية ، حتى المجرمين الذين أدينوا ، وأنه لا يسمح بالقتال حتى دفاعا عن ميراث الانسان أو وطنه . وكان هناك مصدر آخر لمعارضة الحروب والعنف هو المعتقد الانساني فى كرامة الانسان وفى ضرورة السلام لنمو ملكاته الروحية .

٣ - النزعة القومية والعالية فى عهد « الانسانية »

ان الفترة التى حول سنة ١٥٠٠ تحدد مرحلة مهمة جدا فى نمو الدول القومية والتطلعات القومية . وفى بلاد كثيرة قويت الوحدة القومية على يد الملوك الذين دخلوا فى خصومات دولية كبرى من أجل السلطة والهيبة مستخدمين اختراعات جديدة ضخمة فى الأساليب الحربية . وكان اكتشاف العالم الجديد بداية مرحلة جديدة من التجارة والاستعمار تنطوى على بذور التنافس بين الأمم . وتقدم العلم والمعرفة بسرعة ، وأتاح اختراع آلة الطباعة للمصلحين والكتاب أداة ذات قوة ثورية ، وبلغت مدنية عهد « النهضة » ذروة بهائها . ولم تكن « النهضة » مجرد احياء للدراسات الكلاسيكية ولكن كان يحدوها تطلع نحو ميلاد جديد للجنس البشرى (٢) . ونمت طبقة جديدة من المثقفين اعتنقت فكرة « الانسانية » ، التى تعنى الجوانب الفلسفية والأدبية من « النهضة » وتؤكد « الانسانية » فى الطبيعة البشرية بوصفها مصدرا للقيم بدلا من وحى ما وراء الطبيعة . وكانت الكنيسة وفلسفة العصور الوسطى تبشر الى حد كبير بعدم الثقة فى الطبيعة البشرية ، وحاولا أن يقيدا العقل والعواطف والارادة بنظام مشدد ، وكانت « النزعة الانسانية » تمردا فكريا ضد هذا الكبت للطبيعة البشرية أثارته الحماسة للفكر والحياة القديمين .

(١) انظر فيما يتصل بنزعة السلام فى العصور الوسطى لانج ص ٥٩ . ومن المفيد مقارنة موقف وايكليف بموقف لوثر الذى كان كثير التردد والارتباك . انظر فيما يتصل بلوثر هانز بروتز «Die Friedensidce» ١٩١٧ ص ٧٣ ولانج ص ٢٢١ .

(٢) ل . ك . بورداخ «Reformation, Renaissance, Humanismus» ١٩١٨ .

وقد أثار بحث « الانسانيين » عن فلسفة جديدة للحياة بدلا من الصيغ « المدرسية » الجامدة مشكلة : كيفية تفسير الطبيعة البشرية . هل الانسان فى جوهره كائن عقلانى أو لا عقلانى؟ هل هناك «كرامة للانسان» من نوع خاص يميزه عن كل المخلوقات الأخرى ؟ وهل تشيع فى وجوده شرارة من العقل الالهى ، أم هل الانسان مجرد حيوان أعلى مرتبة تدفعه الشهوات الحسية والغرائز العمياء وشهوة القوة ؟ وتفرعت « الانسانية » الى عدة فلسفات مختلفة ذات دلالات ثقافية وسياسية واسعة الاختلاف . بيد أن بعض الاهتمامات المعينة ظلت مشتركة بين أغلبية « الانسانيين » وبخاصة الاهتمام بالدراسة المقارنة للفردية البشرية وللأنماط المختلفة من البشر ولاختلافات الأمم . وبدأ ينمو قدر ضخم من الكتابات عن الطابع القومى ، وصفا لعادات الشعوب وتقاليدها وبعضها محاولة فى تفسير أصلها وبعضها أيضا تعبير عن أحكام على مزايا وعيوب الأمم (١) .

كما تأثرت النزعة « الانسانية » نفسها بالاختلافات القومية وبالتطلعات القومية . فقد كانت وطنية الاغريق والرومان موضع اشادة فى كل مكان واعتبرت نموذجا ، ولكن نزعتها « العالمية » أيضا كانت موضع اعجاب ومحاكاة . وأسهمت وجهات النظر القديمة فى طابع الشعوب فى تكوين الأيديولوجيات القومية . وربط الايطاليون بالرومان والفرنسيون بأهل الغال والتوتون بالألمان ، وحث الكتاب فى كل مكان شعوبهم على الاقتداء بفنائل أسلافهم المزعومين وعلى أن تصيغ طابعها على نمطهم . وفى كل بلد أضفى التكوين الاجتماعى والتقاليد الثقافية لونا معيناً على « الانسانية » .

وكانت صفوف « الانسانيين » ورعاتهم فى المجتمع تضم البابوات والباطرة والملوك ورجال الدولة والموظفين والمؤرخين وعلماء وشعراء وخطباء آخرين . ففى ايطاليا كان بلاط الملوك والأمراء كلهم وقصورهم والجامعات تزخر بهم . وكان كثير من « الانسانيين » لا يكلون من مديح الحكام والنبلاء واستدراار فضلهم ويعدونهم بتخليد أسمائهم فى كتاباتهم . وقد لام آنيا سيلفيوس الأمراء الألمان لانصرافهم عن الاهتمام بالمحافظة على الأخلاق . وقال : انهم يهتمون بخيولهم وكلابهم فحسب وأن الأجيال التالية ستنسأهم كما تنسى الحيل والكلاب . وبالإضافة الى أن كثيرين من « الانسانيين » كانوا من دعاة السعى لتحقيق الهيبة القومية ، فقد أعلن

(١) انظر عرض تاريخ هذه النظريات فى كتابى «Archiv für Sozialwissenschaften»

« الانسانيون » الايطاليون أن شعبهم ينحدر من الرومان ومن ثم فهو متفوق على جميع الشعوب الأخرى ، التي اتهموها بأنها برابرة وحكموا عليها بعداء وازدراء شديدين . وأثار ذلك ثائرة « الانسانيين » في البلاد الأخرى وسارعوا بالرد على هذه الاهانات وتأكيد تفوق أممهم (١) .

وفي ألمانيا كان الامبراطور مكسمليان من كبار رعاة « الانسانيين » واستخدم كثيرين منهم في تحقيق طموحه السياسى والثقافى . وكتابات هذه المجموعة تشيع فيها روح الفخر القومى الشديد (٢) . وقبل ذلك بفترة قصيرة كان أحد « الانسانيين » الايطاليين قد اكتشف في دير ألماني النسخة الباقية الوحيدة من كتاب تاسيتوس « جرمانيا » الذى يصف فيه حياة الألمان القدماء وعاداتهم بطريقة تجعلها مثالا عليها وبمقارنة واضحة بفساد المجتمع الرومانى . وأثار هذا الكتاب حماسة هائلة بين « الانسانيين » الألمان الذين سرعان ما كتبوا مؤلفات كثيرة تشيد بالفضائل التوتونية القديمة وتعلن تفوق الأمة الألمانية على جميع الأمم الأخرى بروح تذكرنا بدعوة الجامعة الألمانية الحديثة . بل ان بياتوس رينانوس يذكر فعلا في خطاب كتبه سنة ١٥٣١ جماعة من « الانسانيين » فى أوجسبورج يطلق عليها جمعية « الجامعة الألمانية » (٣) . ووجدت حركة « الانسانيين » الألمان اتباعا أيضا بين النبلاء ورجال المدن ، ولكنها ظلت بصفة عامة محدودة فى دوائر العلماء الذين كان بعضهم ، مثل سباسيتان فرانك من أنصار « الكونية » صراحة (٤) . ولكن لوثر كان يقف موقف العداء الشديد

(١) انظر فيما يتصل بالمشاعر القومية والعداء القومى لدى كثيرين من الانسانيين « ج . فويت «Wie der belebung des Klassischen Altertums oder das erste Jahrhundert des Humanismus»

الطبعة الثالثة ، ١٨٩٣ المجلد الثانى ص ٣٠٩ وأماكن أخرى كثيرة . وجاكوب بوكهارت «Cultur der renaissance in Italien» الطبعة الثامنة ١٩٠١ ص ١٣٦ او ٣٢٩ .

(٢) ج . كننبر «Nationaler gedanke und Kaiseridee bei den elsassischen Humanisten» ١٨٩٨ .

وبول يواشيمسن «Geschichtsauffassung und Geschichtsschreibung in Deutschlandunter dem Einfluss des Humanismus» وفيما يتصل بوصف الطابع القومى انظر اريك شميدت «Deutsche Volk skunde im Zeitalter des Humanismus und der Reformation» ١٩٠٤ .

(٣) تيوبالد بيدر «Geschichte der Germanenforschung» المجلد الاول ص ١١ .

(٤) ج . كننبر «Keltanschawung und Analyse des Menschen seit Renaissance und Reformation» ١٩١٤ ص ٨١ . ويتضمن هذا الكتاب تحليلا عميقا « للانسانية » ونموها التاريخى .

من « الانسانية » ، وسرعان ما أخذت فى ألمانيا تحت وطأة عواصف حركة
الاصلاح الدينى والحركات المضادة .

ولم يبق سوى الدراسات الكلاسيكية التى كانت بمعزل عن القضايا
المناهضة للأورثوذكسية والسلطات الحاكمة . وفى ايطاليا نفى «الانسانيون»
المفكرون الأحرار أو أخذت أصواتهم . بيد أن نوعا من النزعة «الانسانية»
المسيحية وجد تربة طيبة فى انجلترا والأراضى الواطئة وبولندا ، كما
اعتنقه أيضا المصلح السويسرى زوينجلي . وقبل مناقشة المغزى القومى
« للانسانية » فى فرنسا وانجلترا يجب أن نركز الانتباه على مفكرين اثنين
يمثلان نوعين متعارضين من التفكير الانسانى فى مشاكل الجنسية .

٤ - ميكافلى وارايموس

شهد نيكولو ميكافلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) غزو ايطاليا بواسطة
الفرنسيين وما أدى اليه هذا الغزو من صراعات لا نهاية لها بين الدول
الكبرى كانت ضحيتها ايطاليا .

وكان أكثر ما يتوق اليه هو أن يرى مدينته فلورنسا وايطاليا
كلها حرة ومحترمة مرة أخرى ، ولكنه أدرك أن الموقف يكاد يكون ميئوسا
منه وأن أكبر عقبة تكمن فى الطابع القومى للايطاليين . وكانت عظمة
روما القديمة تملأ جوانحه بالاعجاب والفخر ، والفرق بين دورها فى العالم
ودور ايطاليا يثير الأسى لديه .

وكان يرى أن الرومان مدينون بخلودهم « لفضيلتهم » ، وكان يقصد
بهذه الكلمة الطاقة السياسية والطموح العظيم والجرأة والحكمة والمهارة
فى تحقيق الخطط الكبرى والقدرة على السيطرة والبطولة والتضحية
بالنفس والولاء للوطن . وأهم عنصر من عناصرها المختلفة هو الدين الملائم
كما أثبت الرومان من قبل . بيد أن هذا العنصر هو ما كانت تفتقده
ايطاليا قبل كل شئ آخر - فالكنيسة كانت فاسدة تماما عن طريق
البابوية ، كما أن سياسة البابوات تقع عليها المسئولية الأولى فى عدم
الوحدة القومية فى ايطاليا . فضلا عن أن المسيحية لم تكن الدين الملائم
مطلقا لدعم البطولة الوطنية . ان عبادة الأوثان خلقت من الرجال آلهة
كسبت المجد الدنيوى مثل القادة ورجال الدولة . أما المسيحية فقد توجت
فضائل التواضع والتأمل أكثر من العمل الإيجابى ، فقد حظى فيها
بالتقدير التواضع واحتقار عروض الدنيا ، لا العقل العظيم والقوة البدنية

وكل الصفات التي تجعل الرجال مهيين والتي مجدها عبادة الأوثان، القديمة . وذهب إلى أن الدين المسيحي أوهن عزائم الناس وجعلهم عرضة لأن يقعوا ضحايا في أيدي الأشرار . وقد بدأ التاريخ والسياسة لكيافلي مجرد آثار لفعل قوى طبيعية لا تسمح بمجال لفعل القانون الأخلاقي ، وإن كان بعض الحكماء قد يستغلون هذا الوهم لتحقيق أغراض سياسية . وكان من نواحي الضعف المميتة في السياسة الإيطالية تلك الحرب الطبقيّة التي تدور رحاها في الجمهوريات ، المدن ، بين الأغنياء والفقراء . بيد أن مكيافلي اعتبرها عملية تكاد تكون حتمية ، بل وأن لها ميزة إثارة الناس إلى سياسة توسعية عدوانية كما ثبت من أمثلة الرومان .

والشعب الفاسد لاسبيل إلى إصلاحه بالوسائل المعنوية . وكان الخلاص الوحيد في نظر مكيافلي هو قيام أمير عظيم يغير طابع الشعب بأن يثبث فيه فضائل الرومان . وكل وسيلة عنده لها ما يبررها في هذا الهدف . فللأمير أن يستخدم الكذب والخداع والقسوة : أن له أن يستخدم الإرهاب والحيانة على شرط أن يكون ذلك في خدمة الهدف الكبير . ويجب عليه أولاً أن يجعل الأمة حربية ويدربها على حمل السلاح . فضعف إيطاليا مرجعه الرئيسي هو عادة ترك الحرب للجنود المرتزقة ، ومن ثم كان مكيافلي يتطلع إلى مجيء زعيم أو دكتاتور عظيم يحرر إيطاليا ويوحدها ، ربما في صورة فدرال ، زعيم يجعل الإيطاليين أمة ويمنحهم القوة والهيبة اللتين كانتا لأسلافهم الرومانيين . والعداء العميق بين نزعتي القومية والمباير المسيحية واضح . وقد أعلن موسوليني أن هذا الفلورانس العظيم من آباء الفاشية . بيد أن هذا غير صحيح إلا بصورة جزئية . فمكيافلي كان ينظر إلى دكتاتورية الأمير باعتبارها أداة مؤقتة فحسب . أما في صميم قلبه فكان جمهورياً ، وإن لم يضع ثقته في الشعب . أنه كان يكره قيصر أشد الكره باعتباره قاتل الحرية في روما ، في حين أن موسوليني يمجده بوصفه ذروة مجد روما .

إن مفهوم الطبيعة البشرية الذي يقوم عليه هذا المذهب هو أن الإنسان أساساً كائن لاعتقاني تدفعه أولاً شهوة القوة والنفوذ . ويجعل ذلك كل الدول في تنافس مستمر لا تستطيع أية دولة أن تنسحب منه دون أن تعرض نفسها للتدمير . وسرعان ما سمي مذهب مكيافلي بمذهب « حجة الدولة » « Raison d'Etat » وقد هاجمه ودافع عنه وعدله كتاب

لا حصر لهم (١) . وهو يتضمن نواة النظرية الأساسية للنزعة القومية التي تعتبر الدولة كائنا عضويا لا تنطبق عليه المعايير العادية التي تنطبق على الأفراد ، بل له معايير وأخلاقيات خاصة به أسمى من معايير الفرد وأخلاقياته .

أما أرازموس أوف روتردام (١٤٦٥ - ١٥٣٦) فقد كان أعظم ممثل « للانسانية » المسيحية وأول عالم فى عصره (٢) . وكان ناقدا شديدا للوطاة لكل المساوىء التي شوهت الكنيسة والدين، مثل المعتقدات الخرافية والطقوس الميكانيكية والجدل حول الموضوعات التي لا حل لها واثارة الحرب والجشع المادى وشهوة القوة من جانب البابوات وكبار رجال الكنيسة والرهبان . وكان السلام والوثام بالنسبة له هما جماع الدين ، وبدا له أن الحياة بروح المسيح أكثر أهمية من جميع القضايا اللاهوتية . ان أعظم المفكرين فى العصور القديمة كانوا يعيشون بروح مسيحية حقيقية ولعلمهم كانوا قديسين دون اعتراف رسمى من جانب الكنيسة . وعندما أراد البابا جوليوس الثانى أن يطرد الغزاة الأجانب من ايطاليا بحرب كبرى عهد ان أرازموس أن يكتب كتابا فى تأييد سياسته ولكن أرازموس كتب كتابا يندد فيه بالحرب بقوة ، الأمر الذى أغضب البابا بشدة .

وتشيع فى كتابات أرازموس كلها كراهية الحرب . فهى فى نظره تدعم العنف والطغيان فى الخارج وفى الداخل . والغاء الحرب يتوقف على التغلب على العداء القومى بروح المسيح والتضامن الدولى . ان نهر الربن يفصل الفرنسيين عن الألمان ولكنه لايفصل المسيحي عن المسيحي . والأمراء ينبغي ألا يكون لديهم حق اعلان الحرب بدون رضا الأمة كلها . ويقترح أرازموس انشاء محكمة تحكيم دولية وتجنيده كل القوى المعنوية فى المجتمع للمحافظة على السلام . وينبغى ضبط تعليم التواريخ فى المدارس الذى يثير الانفعالات القومية ، ومثله الأعلى السياسى هو الملك المستنير الذى تحدوه

(١) هناك وصف ممتاز لنمو فكرة « حجة الدولة » من ميكافلى الى العصر الحديث فى كتاب فردريك ماينكه «Die Idee der Staatsraison in der neueren geschichte» ١٩٢٤ . ويحاول الاستاذ ماينكه فى كتابه أيضا أن يتتبع أصول الاختلاف فى الفكر السياسى بين الامم الغربية والألمان .

(٢) ج . فرود « حياة أرازموس وخطاباته » ١٨٩٥ . س . هيس «Erasmus von Rotterdam» مجلدان ١٧٩٠ . وبير مستار «L'essor de la philosophie politique au XVIe siècle» ١٩٣٦ .

العدالة والرحمة والتسامح والاخلاص لواجباته ويستمتع الى اراء أحكم
المستشارين ويحترم حقوق الشعب والبرلمانات المحلية .

وكان تأثير ارازموس على الفكر السياسى كبيرا ، برغم أنه لم يضع
مذهبا أو يؤسس مدرسة . ولكن روحه أثرت فى العديد من المفكرين
والمصلحين الذين كانوا يتطلعون الى حكم العدالة والسلام وحسن النوايا
بين الكائنات الآدمية والذين يؤمنون بتضامن الجنس البشرى ويعملون على
تحقيق هذه المثل . ومما يسترعى الانتباه أن نقد اراموس وهجومه ، اللذين
بلغا أقصى درجات المصارحة ضد الفساد فى الكنيسة ، وتنديده بالحرب لم
يمنعا حكام الكنيسة والدول من الاعجاب به وحمايته . وكان البابا ليو
العاشر والامبراطور شارل الخامس بصفة خاصة يميلان اليه . وكان فى
وسع ارازموس أن يحتل مركزا كبيرا فى الكنيسة ، ولكنه رفض . وكان
البابوات والأباطرة والملوك ورجال الدولة من عدة أمم يتنافسون فى
الاستئناس برأيه ومحاولة كسبه الى جانب قضاياهم . وكان ارازموس
عالميا تماما ويصعب جدا تحديد الأمة التى ينتمى اليها ، اذا كان انتمى لأمة
وكان يحب انجلترا أكثر من غيرها ، وان أشاد بأشياء طيبة كثيرة فى غيرها
ولكنه لم يعرف الانجليزية ولا الايطالية ولا الفرنسية ولا الالمانية . وفى
كتاباتة يسجل عدة ملاحظات عن السمات القومية ، ولكنه لم يتحيز قط .
ومع ذلك فانه ينج من تهمة العداء القومى . فعندما نقد المبالغة فى رفع
قيمة شيشرن ومحاكاته أثار ذلك عاصفة من الهجوم فى فرنسا وايطاليا ،
وأطلق عليه اتيين دوليه اسم عدو الأمة الفرنسية . ودفعت ملاحظة
ارازموس عن أن الايطاليين نادرا ماكانوا شعبا حربيا بسر كيرسيوس الى
مهاجمته بوصفه عدوا للأمة الايطالية . وقد رد عليه ارازموس بالتعبير عن
اعجابه الكبير بالانجازات الثقافية التى حققها الايطاليون .

٥ - الانسانية والجنسية فى فرنسا : بودان وبوستل ومونتاني

فى حين كان الحكم والنبلاء ورجال المدن الأغنياء والعلماء فى ايطاليا
تسودهم روح النهضة واشتركوا جميعا بدرجة تزيد أو تنقص فى الانجازات
الثقافية فى هذه الفترة ، كانت فرنسا متخلفة بالمقارنة بمعظم الأمم الكبرى
الآخرى . فلم يبد البلاط والنبلاء اهتماما كبيرا « بالانسانية » فى مبدأ
الأمر ، بل وذهبوا الى أن الفرنسيين جنس محارب ولا اقبال له على

الدراسات والآداب التي يصلح لها الايطاليون أكثر بكثير (١) . وتمسكت الجامعة « بالمدرسية » ووقفت موقف العداء الشديد من « الانسانية » . والى سنة ١٥٢٧ أصدرت السوربون حكما ضد رسالة ارازموس ، بما فيها وجهات نظره عن الحرب ، باعتبارها « هرطقة » وبائية وفي ١٥٢٩ أعدم لويس دى بيركان ، أحد المستشارين الملكيين العلماء ، على المحرقة لأنه ترجم بعض كتابات ارازموس ولوثر الى الفرنسية . وفي سنة ١٥٣٠ حرم تفسير النص الاغريقي والنص العبري للانجيل (٢) . اذ أن قوة الملكية الصاعدة كانت تعمل ضد الابتكار الثقافي الذي اعتبر موضع ريبه كقوة هدامة . ولم يكن الملك فرانسيس الأول يعرف اللاتينية ، وفي سنة ١٥٣٥ حرم طبع أى كتاب وجعل عقوبته الاعدام ، وان كان برلمان باريس قد خفف من حدة هذا الاتجاه (٣) .

ومع ذلك فان « الانسانية » سرعان ما شقت طريقها بأن تحالفت مع السياسة الملكية في عملية التوحيد والتوسع والهيبة ، ومع التطلعات القومية بصفة عامة (٤) . وسرعان ما حلت محل الانسانية المسيحية التي عبر عنها أمثال جاجين وليفيغر ديتابل وبوديه وغيرهم ممن ازدروا التطلع الوثني للمجد ، انسانية دافعاها الأول المطامع القومية ، وبخاصة الرغبة في اثبات أن العبقريّة الفرنسية ليست أدنى من الأمم الأخرى في المعرفة والشعر ، والعمل على تنمية اللغة الفرنسية وانتزاع الإيطالية من مركزها المسيطر في المجتمع الراقي ، وهدف السيادة الثقافية والسياسية في العالم .

وصارت الفرنسية اللغة الوحيدة في المحاكم القضائية ، وانتصرت « الانسانية » على السوربون عن طريق انشاء الكوليج دى فرانس . وسرعان

(١) لويس ديلارويل و ج . بوديه « Etudes sur l'humanisme français »

١٩٠٧ ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(٢) س . هيس « ارازموس » ١٧٩٠ المجلد الاول ص ٤١٧ . و ش . ينسار « Le triumvirat (J. Lipse, F. Scaliger, J. Casaubon) littéraire »

« Histoire de la Civilisation française » ١٨٥٦ ص ١١ .

(٣) أ . راميو « Histoire de la Civilisation française » ١٩١١ المجلد

الاول ص ٤٨٢ .

(٤) ك . فوسلر

« Frankriches Kultur im Spiegel Reiner Spachentwicklung »

١٩١٣ ص ٢١٩ . و ٢٤٩ ، وفيما يتصل بالشعور القومي انظر ديلارويل ص ٣٤ و ٩٠

و ١٣٢ . و أ . رينوديه « Péréforme et Humanisme à Paris pendant les premières guerres de l'Italie »

« Le sentiment . جاكيه . ٢٥٩ ص ١١٩٦ » و « rational au 16ème siècle, la Revue des questions historiques » ١٨٩٥ (ع)

seyssel أساسا) .

ما تفوقت فرنسا على جميع البلاد الأخرى فى الدراسات الكلاسيكية ، وكن ذلك أكبر الأثر فى المدنية الفرنسية بأكملها ، وأثرت اللغة بادخال كلمات لاتينية كثيرة ، مثل كلمة « الوطن » ، وصارت أكثر طواعية بالترجمات للمؤلفين القدماء . بل ان بعض « الانسانيين » حاولوا الربط بقدر الامكان بين الفرنسية واللاتينية ، وانتشرت فكرة أن القدر أعد للفرنسيين دور الرومان الجدد . وفى ١٧٥٩ نشر هنرى أتيين كتابا يحاول اثبات أن الفرنسية أفضل من الايطالية ومن جميع اللغات الحية الأخرى (١) .

وكان الضرر الذى ألحقته حركة الاصلاح الدينى « بالانسانية » فى فرنسا أقل مما أصابها فى ألمانيا . وقد كان كالفرن نفسه فى شبابه « انسانيا » وكتب تعليقا على سينيك ، وكانت عقليته متأثرة بالقانون الرومانى . فضلا عن أن الكلفنية التى ارتبطت بسياسة قطاع كبير من النبلاء ، كانت بذلك تهدد الوحدة القومية وبدأت للأغلبية فى الأمة ضد القومية ، فى حين كانت « الانسانية » أداة طيبة جدا فى خدمة قضية الملكية والوحدة القومية .

ويمكن تمييز عدة أنماط مختلفة من « الانسانيين » فى القرن السادس عشر ، لعبت جميعها دورا عظيما فى نمو الفردية القومية الفرنسية . وفى ذلك الوقت تفوقت فرنسا على كل الأمم فى دراسة القانون الرومانى والرياضيات ، كما تفوقت من قبل فى « المدرسية » ، وشجع ذلك الاتجاه الى التفكير الحاد المجرد الذى مهد السبيل لصعود العقلانية الفرنسية فى القرن السابع عشر . ومع ذلك فقد كانت هناك عدة صور مختلفة من اللاعقلانية ، مثل الصوفية ورفع قيمة القوى اللاعقلانية فى التاريخ والمذهب الحسى .

وكان جين بودان « ١٥٣٠ - ١٥٩٦ » عالما أتقن كل معرفة عصره ، وكان كذلك رجل دولة ومفكرا . وهو مشهور فى تاريخ السياسة بنظريته فى السيادة التى تصورها باعتبارها السلطة التشريعية العليا التى لاتنقسم ولا بد منها للوحدة القومية والتناسق (٢) . بيد أن السيادة عنده لم تكن سلطة تحكمية ، فقد كان يؤمن بالملكية المحدودة بالدين والالتزام الأخلاقى وبالقانون الطبيعى وبالتقاليد الأساسية لفرنسا . والفكرة المركزية فى

(١) هـ. أتيين « Le precellence du langage français » طبعة جديدة باشراف

١٠ هيجويه ١٨٩٦ ص

(٢) روجر شوفيرييه « J. Bodin » ١٩١٤ . ون. رنز « J. Bodin » ١٩٠٥ .

وبياتريس رينولدز « دعاة الملكية المقيدة فى القرن السادس عشر » ١٩٣١ .

تفكيره هي حكم القانون ، وهو يقاوم بشدة اتجاه مكيافلى فيما يتصل بال قانون والأخلاق . فالملك عنده أول خادم للدولة عملا ، وقد تصور الدولة كعائلة كبيرة تهدف الى السلام والتقى والعدالة والفتنة .

وكان لديه احساس قوى بالبناء العضوى والفردية التاريخية للأمم، ووضع نظرية عن الطابع القومى كنتاج للقوى الطبيعية والاجتماعية كان لها تأثير كبير على مونتسكيو والمؤسسين الآخرين لعلم الاجتماع الحديث . وكان بودان فخورا بالمدينة الفرنسية ، ولكنه أحب مدينة الأمم الأخرى وأعجب بها ، وتنبأ بأن التقدم السريع الذى لم يسبق له مثيل فى التجارة العالمية واكتشاف أمريكا سيؤديان الى السلام العالمى والوفاق . وعندئذ ستؤلف الدنيا كلها جمهورية كبرى يكون لكل أمة فيها وظيفتها تبعاً لقدراتها الخاصة .

وكان جيوم بوستل (١٥١٠ - ١٥٨١) من علماء الرياضيات وأستاذاً للغات الشرقية وصوفيا ومن علماء الفلك وكاتباً سياسياً (١) . وقد راوده الأمل فى تحقيق السلام والوفاق بين جميع الأمم فى العالم بانتشار دين عالمى واحد وقانون واحد ولغة واحدة . وعنده أن رسالة الجنس الفرنسى، أو العالمى ، أن يقود العالم نحو الهدف ، وأطلق على نفسه « العالمى » ، وعقد أملاً على اتساع سلطة الفرنسيين . ورأى أن ملك الفرنسيين له الحق فى السيطرة على العالم ، وينبغى ارغام من يقاومون على ذلك أو حتى استئصالهم . بيد أن الملك لم يهتم بمشروعه . وقد شارك بوستل كثير من الكتاب الفرنسيين اللاحقين فى الاعتقاد الغيبى فى رسالة فرنسا فى تحقيق الوحدة العالمية بنشر لغتها ومدينتها ، والربط بين هذه الرسالة وسياسة التوسع السياسى .

وكذلك كان الاهتمام بالطبيعة البشرية والفردية الذى أثارته « الانسانية » مصدر وحى « المقالات » التى كتبها ميشيل دى مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢) . وكان مونتاني من أهل غسقوينا من أسرة بورجوازية حصلت على لقب نبالة كانت لها صلات قرابة فى انجلترا ، وكانت أمه أسبانية يهودية اعتنقت المسيحية . واستخدم والد مونتاني مدرسا ألمانيا لا يعرف كلمة من الفرنسية للإشراف على تربية ابنه ، وتكلم مونتاني الصغير اللاتينية قبل الفرنسية بكثير . وكان بين المشرفين التربويين الآخرين عليه

(١) بييرستار «L'Essor de la philosophie politique au XVI^e siècle»

عدد من العلماء المشهورين من جنسيات مختلفة، وكان المبدأ الذى قامت عليه تربيته هو التربية عن طريق الحنان والرفقة • وكان مونتاني من أنصار مذهب الشك فى كل المبادئ السامية التى يقاتل الناس بعضهم البعض فى تعصب واضطهاد من أجلها ، واعتبر الانسان كائنا تحدوه الحياء السخيفة والتقلب المستمر • وكانت قاعدة حياته ابيقورية - « أحصد حديقتك » - المبدأ الذى فضله كذلك فولتير وأنتول فرانس ، والذى يعد المثل الأعلى للشعب الفرنسى - بصورة روحية أقل • وقد بدت الحياة لمونتاني حلما ، وجزء كبير منها كابوس (١) • وقد كره مونتاني الحرب والعنف والقسوة أكثر من أى شئ آخر ، وأحس بعطف عميق على الناس العاديين وكل المضطهدين والمظلومين • وكان اهتمامه شديدا بحياة البدائيين وعاداتهم ، وانتهى الى أن الأمم المتعدنية أشد بربرية ممن يسمون بدائيين • وقد هاجم الحياء القومية بشدة فى مقالاته وهزأ منها • وقال مونتاني : ان اللغة الفرنسية أفقر من الأسبانية ، واعترف بأنه فرنسى بسبب باريس وحدها لأنه أحبها من كل قلبه • وهو يستشهد بملاحظة للمستشار العظيم أوليفيه دى لوفيل الذى قارن الفرنسيين بالقردة التى تتسلق شجرة وتتفر من فرع الى فرع ولا تقف حتى تصل الى قمته ومنها يستعرضون أردافهم بفخر • وكان مونتاني مغرما جدا بالسفر الى البلاد الأجنبية حيث يدرس طابع شعوبها • ويصدر أحكامه على الأمم الأخرى فى انصاف عظيم وعطف ويعلن أنه مواطن عالمى بكل قلبه •

وفى القرن السابع عشر ابتكر ديكارت نظاما عقليا ترك أثرا حاسما فى الفكر الفرنسى وامتزج بالمحاكاة « الانسانية » للشعر والفن القديم فأدى الى ظهور أسلوب قومى عظيم سمي « بالكلاسيكية » • وكانت سيادة العقل والمنطق الواضح والقواعد الثابتة والميل الى الأنماط المجردة والمثل الأعلى للفخامة المهيبة وازدراء كل ما هو مبتذل وشعبي وغامض هى المعايير التى تصدر على أساسها الأحكام فى اللغة والشعر والفن والحب والدين والمجتمع والسياسة •

(١) وقد عبر شيكسبير أيضا عن هذه الفكرة فى « هاملت » و « العاصفة » • ولقد أتى جون م. روبرتسن فى (فونتاني وشيكسبير ١٨٩٧) بأدلة مقنعة على وجهة نظره من أن الكاتب الفرنسى أثر الى حد كبير جدا فى فكر شيكسبير • انظر أيضا اليزابيث روبينز « صلة شيكسبير بمونتاني » (مطبوعات اتحاد اللغة الحديثة فى أمريكا المجلد التاسع عشر ١٩٢٠) • وقد انتهل هوكر الى رأى أن روبرتسن بالغ فى تقدير تأثير مونتاني ، ولكن يبدو أنها هى نفسها تبالغ فيما قاله روبرتسن حقيقة •

وكانت خلفية أسلوب « الكلاسيكية » هذا هي الملكية المطلقة القوية.
التى نجح ريشيليو أخيرا فى بنائها •

٦ - « الانسانية » والجنسية فى انجلترا : يكون وشكسبير

حظيت « الانسانية » فى انجلترا منذ وقت مبكر برعاية قوية بين النبلاء المتنورين وكبار رجال الكنيسة ، وصارت النمط السائد فى بلاط هنرى الثامن واليزابث • وقد أعجب أرازموس بعلم « الانسانيين » الانجليز الذين كان يدين لهم بجزء كبير مما عرفه عن الاغريق والذين أثاروا لديه روح الانسانية المسيحية ، وقد تركت فى نفسه مجموعة الأشخاص المبرزين الذين يحيطون بالبلاط وقعا عميقا ، وأعلن أنه لا يوجد بلد فى العالم يقارن بانجلترا • وفى حين أن صعود الملكية المطلقة فى القارة ونمو التعصب البروتستانتي والكاثوليكي وضعت قيودا على حرية نمو الفكر والفن ، استطاعت « الانسانية » فى انجلترا أن تبلور نفسها بحرية، وأدى ذلك مع الوقت الى تطور روح كل من الاستنارة والرومانسية •

وكان هنرى الثامن مطابقا الى حد بعيد لنموذج الأمير الذى وصفه مكيافللى • فكان نظامه ينطوى على الفكرة الجوهرية فى الدول الشمولية ، وهى فكرة أن الدولة فى ذاتها هى أسمى الأهداف وأنها تفوق بكثير أخلاقيات الأفراد ورفاهتهم ، وأنها تتضمن الارادة القومية ، وأن هذه الارادة يضعها دكتاتور • وكان الملك فى الواقع دكتاتورا (١) ، ولكنه استعمل البرلمان والرأى العام بمهارة بحيث بدت دكتاتوريته، زعامة وكان بصفة عامة مقبولا بل محبوبا • وكانت وسيلته فى ذلك هى استخدام مشاعر الكرامة الوطنية ودعم الرفاهية المادية ، وبخاصة لدى النبلاء والطبقة الوسطى الغنية • واتبعت اليزابث نفس السياسة • وكان كبار « الانسانيين » فى عهد تيودور تحدوهم فى الغالب روح العالمية المسيحية والرواقية ، ولكن نزعة مكيافللى القومية « الانسانية » حظيت أيضا بأنصار ممن اعتقدوا أن الانجليز هم الرومان الجدد (٢) •

ويقول فرانسيس بيكون ، وهو أحد كبار المعجبين بمكيافللى : ان

(١) أ.ف. بولارد « هنرى الثامن » ١٩١٩ ص ٦٢ ، ٤٣٥ •

(٢) أنظر فيما يتصل بمظاهر الشعور القومى ايزميه وينجفيلد ستراتفورد « تاريخ الوطنية الانجليزية » المجلد الاول •

النقطة الرئيسية فى بلوغ العظمة لأية دولة هى أن تكون لديها سلالة من الرجال العسكريين . فانجلترا متفوقة جدا على فرنسا فى القوة العسكرية لان أوساط الناس جنود ممتازون ، فى حين أن الفلاحين الفرنسيين ليسوا كذلك . ويستطرد الى أن من أهم الأشياء للامبراطورية والعظمة أن تتخذ الأمة السلاح شرفا ودراسة ومهنة . فالأمم التى تطلب العظمة ينبغى أن تكون سريعة الاحساس بالأخطاء التى ترتكب ضدها وألا تتهاون فى أى تحد . ولا يستطيع الانسان أن يظل صحيح الجسم الا بالتدريب ، والتدريب الحقيقى للمملكة أو الدولة هو الحرب العادلة المشرفة . ويعبر بكون فى هذه الكلمات عن آراء صارت السمات الرئيسية للنزعة القومية الحديثة . ومع ذلك فانه لم يكن داعية قوميا خالصا . فهو يعتبر أن بلد الانسان له عليه بعض الحقوق الخاصة أكثر من بقية العالم ، وحبد العمل على توسيع سلطة بلد الانسان وامبراطوريته على الجنس البشرى كله ، ولكنه كان يرى أن الأسلم والأنبى هو العمل على توسيع امبراطورية البشر عموما على الكون عن طريق تقدم المعرفة والعلم . وفى السياسة العملية لم يدع الى سياسة عدوانية . وفى أخريات حياته أعرب عن اشمئزاه لأنه ضيع وقته فى تأليف الكتب الانجليزية بدلا من اللاتينية ، انتهى اعتبرها اللغة العالمية . وقال : ان الكتب الانجليزية لن تستطيع أن تكون مواطنة فى العالم كله .

أما شيكسبير فانه لم يقتصر على التعبير عن سمات الطابع الانجليزى والاسهام فى تنميته ، ان بداهته السيكلوجية شملت الطبيعة البشرية مكتملة) وكانت «انسانيته» الفنية عاملاقويا جدا فى صوغ الروح الحديثة . وقد ظهرت مشاعره الوطنية أساسافى مسرحياته التاريخية . ان مديح جون جونت وهو على فراش الموت لانجلترا وخطاب الملك هنرى الخامس قبل يوم آجينكورت يعتبران من أعظم نماذج الشعر الوطنى فى أدب العالم . ولكن شيكسبير كان يؤمن مثل جميع كبار الشعراء والمفكرين بالوحدة الأساسية للجنس البشرى وكان متحررا من الحياء والعدوان القوميين . وعندما يقدم الأجانب فى مسرحياته كثيرا ما يميزهم بسمات قوميه فريدة (١) . وكان أحيانا يردد التحيزات الانجليزية السائدة . بل انه فى مسرحيته المبكرة « هنرى السادس » يوجه أقذع الألفاظ لشخصية جان دارك ، وقد يكون أحد أعوانه هو الذى كتب هذا الجزء . ومن الناحية

(١) كمبرلاند كلارك «شكسبير والطابع القومى» ١٩٣٢ و «شكسبير وعلم النفس»

الأخرى كثيرا ما ينتقد عيوب الانجليز ، وفي « هاملت » يقول ان هاملت
انما أرسل الى انجلترا لأن الناس هناك مجانين مثله .

وكثيرا ما اتهم الشاعر بأنه متحيز للأرستقراطية ، ومن الطبيعي أنه
ما كان ليستطيع أن يتجنب الحدود التي تفرضها بيئته وعصره (١) . ولكنه
كقاعدة عامة تسامى الى حد كبير جدا عن مستوى السياسة وفسر الطبيعة
البشرية بعطف وفهم لجميع جوانبها . وهو يصور ديناميكية الانفعال
وعواصف الطموح ، وعدم جدوى التحيزات الاجتماعية وبشاعة الشهوات
الحيوانية في الانسان ، وأنانية جميع الطبقات والأحزاب الضيقة وغرورها
البدائي ، والستار الأيديولوجي بالألفاظ الضخمة باسم الشرف والحرية
والمساواة ، وفردية أمثال ريشارد الثالث وكوريولانوس المبالغ فيها التي
تدمر ذاتها ، وكذلك العقلية الجماعية التي يثيرها ديماجوج مثل جاك كيد
أو انطونيوس التي تدمر أيضا ذاتها . وفي « العاصفة » يسبق جونزالو
العجوز روسو في تصور مجتمع مثالي يعيش فيه الناس على الفطرة البريئة
لم تفسدهم المدنية والملكية الخاصة والحكم . بيد أن المثل الأعلى لدى
شيكسبير لم يكن المساواة الكاملة . ففي كوريولانوس يقص السيد المرح
مينيوس أجريبا على الشعب المتمرد قصته المشهورة التي يقارن فيها ألوان
التفاوت الاجتماعي باختلافات الوظيفية بين أعضاء الجسم ويدافع عن الحل
الوسط . وفي « ترويلوس وكريسيديدا » يفسر أوليسس أن العالم كله
يعتمد على تفاوت منظم بين الناس ، على التفاوت في الدرجة والأولوية
والمركز ، والفصول والصور ، والوظائف والعادات . فإذا قضى على هذا
التفاوت نجمت الفوضى والحرب . وبعد ذلك يتحدث أوليسس عن فن الحكم
قائلا :

هناك سر غامض في روح الدولة

لا يجزؤ أحد على التحرش به

سر ذو فعالية أكثر قدسية

من أن يستطيع اللسان أو القلم التعبير عنه .

ولم يفكر شيكسبير في وضع مذاهب سياسية . . ومع ذلك فإن

(١) انظر فيما يتصل بهذا الجدل ه.ب. شارلتون « سياسة شيكسبير وسياسته »
١٩٢٩ . والبرت تولمان « هل شيكسبير أرستقراطي ؟ » في مطبوعات اتحاد اللغة الحديثة
الأمريكي ١٩١٤ . وف. تابير « غوغاء شيكسبير » في نفس المطبوعات ١٩١٢ .

ملاحظاته العميقة عن الطابع الانساني لابد أنارت الفكر السياسى أيضا • وكانت وجهة نظره العامة فى البشر والمجتمع ضد التبسيطات المجردة والأوهام من أى نوع • فالخير والشر والخطأ والصواب ، مختلطان فى كل قضية بصورة متشابكة لا فكاك منها • • ويستبعد ذلك فكرة تحقيق المثل العليا الطوبائية على الأرض ، ولكنه يجعل فى وسعنا أن نشعر بشيء من العطف على خصومنا السياسيين ويشجعنا على الوصول الى حل وسط معه أكثر مما يدفعنا الى فرض ارادتنا بالقوة •

٧ - التطهيرية والمركانتيلية والنزعة القومية فى القرن السابع عشر

ان الحركات الثورية التى أدت الى انشاء الكومنولث الانجليزى لم تكن نتاج ضائقة اجتماعية أو مصالح اقتصادية ، ولا كانت تنطوى على صراع بين الطبقات • ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية لعبت طبعاً دوراً معيناً ، ولكنه لم يكن حاسماً قط • وبين العوامل التى أدت الى الثورة كانت التطهيرية تحتل مركز الصدارة • وتضم التطهيرية صوراً كثيرة مختلفة تشترك فى قدر معين من الفردية الدينية وفى شعور قوى بالمسئولية نحو الله وعدم الثقة فى الطبيعة البشرية • وكان معظم التطهرين متأثرين بروح «العهد القديم» أكثر مما تأثروا بروح المسيح، وبروح القتال المقدس أكثر منهم بالحب ، ووضعوا الثقل الأكبر مثل اليهودية على مسئولية كل فرد عن خلاص المجتمع باتباع السنن الإلهية حرفياً ، وليس عن خلاص روحه هو وحده • وبدأ أن هذا التركيز على الأهداف فوق الطبيعية، وهو نقيض «الانسانية» ، يحط من شأن الجنسية ، ولكن التطهيرية كانت مرتبطة بالتطلعات القومية عملياً من عدة نواح • فقد كان كثير من الناس متطهرين أساساً لأنها رمز للاستقلال القومى عن روما والعداء العنيف للسلطات الكاثوليكية فى أسبانيا وفرنسا ، اللتين كانتا العدوتين القوميتين لانجلترا وخصميهما فى الصراع من أجل السيطرة البحرية والاستعمارية • ولم يحظ ملوك ستيوارت بشعبية بسبب أصلهم الأجنبى الاسكتلندى ، وبسبب محاولاتهم فى تهدئة التوتر الدولى ، ولأنهم لم ينجحوا فى الحروب التى أرغموا على القيام بها لارضاء المشاعر القومية •

وقد عبر عنصر القومية العبرى فى التطهيرية عن نفسه فى الاعتقاد بأن الأمة الانجليزية هى « الشعب المختار » الجديد ، وفى المحاولات المتعددة لبناء كومنولث انجلى أو « القدس الجديدة » التى كان لها أثر كبير فى

إنشاء مستعمرات المتطهرين في أمريكا (١) . وأدى العنصر فوق القومي المسيحي ، الذى كان أيضا من أصل عبرى ، الى فكرة رسالة انجلترا في أن تصير زعيمة الأمم البروتستانتية كلها وحاميتها . ومن الناحية الأخرى أثارت الفردية المسيحية والمذهب الكالفينى الاعتقاد بأن من يختارهم الله ، « القديسين » ، هم وحدهم الذين يحملون هذه الرسالة ، ومن ثم فهم الذين يمثلون الأمة . بيد أن فكرة الرسالة القومية لم تكن مقتصرة على التطهيرية بل لقد دعمها أيضا الإعجاب « الانسانى » بروما ورسالتها الامبراطورية . فضلا على أن عناصر تطهيرية وانسانية على السواء أسهمت فى صعود الأفكار الجمهورية والديموقراطية والتحررية التى صارت تيارات قوية فى الفكر السياسى الانجليزى واندمجت على نطاق واسع فى فكرة الرسالة القومية . وقد جنحت معارضة الحق الالهى للملوك الى تحويل انجلترا الى جمهورية برلمانية ، وهدفت التطلعات الديموقراطية الى جعل الشعب كله أو قطاعات كبيرة منه ، معقد السيادة الحقيقى ، وكانت المطالبة بالتسامح وبحقوق الانسان تنطوى على فكرة أن السيادة القومية محدودة « بقانون الطبيعة » ووضعت أسس الفكر التحررى (٢) . وهناك عامل ثالث ذو أهمية قصوى هو المركاتيلية التى تنطوى على نزعة قومية اقتصادية ذات اتجاه احتكارى ، وعدوانى فى كثير من الأحيان . وكان نمو الدولة القومية مصحوبا فى كل مكان بالمركانتيلية ، وفى انجلترا يرجع تاريخ كليهما الى عهد سحيق (٣) بيد أن القرن السابع عشر كان ذروة هذا التطور ، ففي ذلك الوقت كانت السياسة الدولية متأثرة بدوافع مركانتيلية . ولب السياسة المركاتيلية هو أن التجارة أولا وسيلة لزيادة قوة الدولة وعظمة الامة ، وليست وسيلة لربح التجار الافراد أو مد الشعب بالسلع المطلوبة بأفضل طريقة ممكنة (٤) . وكان الهدف الأسمى لكل من تنظيم التجارة والسياسة الاستعمارية هو جعل الدولة مستقلة عن البلاد الأخرى وزيادة قوتها العسكرية والبحرية والسياسية (٥)

-
- (١) يؤكدارنست باركر الاتصال بين الطابع العبرى للتطهيرية والجنسية فى كتابه « كومويل والشعب الانجليزى » ١٩٣٧ ص ٢٤ و ٨٢ و ١٠٤ .
(٢) ج.ب. جوش « الأفكار الديموقراطية الانجليزية فى القرن السابع عشر ١٩٢٧ ، و « الفكر السياسى الانجليزى من بيكون الى هاليفاكس » ١٩١٤ - ١٩٦٥ .
(٣) ج.و. هوروكس « تاريخ قصير للمركانتيلية » ١٩٢٥ . و أ. هكشير « المركاتيلية » ١٩٣٥ .
(٤) انظر ما أورده هكشير عن كنتجهام وآخرين ص ٢٨ .
(٥) انظر فيما يتصل بهدف القوة فى المركاتيلية الاستعمارية ج.ن. بير «أصول النظام الاستعمارى البريطانى » ١٩٠٨ .

وبرغم أن بعض القطاعات فى التجارة استفادت من هذا النظام فان التجارة ككل كانت الحاسرة بالتأكيد وبخاصة باندلاع الحروب التى أسهمت فى قيامها المركاتيلية . وقد تعرضت تجارة الصوف ، وهى أهم فرع بما لا يقاس فى التجارة البريطانية ، للخسارة الشديدة بصفة خاصة بسبب الحروب التى شنتها اليزابث وكرومويل ضد أسبانيا لأسباب سياسية ، ومن ثم فان التجار كثيرا ما احتجوا ضد السياسة الحربية (١) . وقد وضع سير توماس رو قاعدة لشركة الهند الشرقية أن تتجنب استخدام القوة للحصول على الامتيازات التجارية حيث أن التجارة والحرب لا يتفقان ، كما عبر كثير من الكتاب عن هذا الرأى أيضا . ولكن مذهب القوة والهيبة القومية الذى تتألف منه النزعة القومية حظى بتأييد قوى من أشخاص من جميع الطبقات . وكان أحد مبادئه الرئيسية هو الادعاء القديم بالسيادة على البحار الذى أكدته ملوك ستيوارت والكونولث . وكان يراد به فى أول الأمر البحار الضيقة حول انجلترا ، ولكن سرعان ما امتد على نطاق أوسع بكثير (٢) ، وفى حالات كثيرة فرض بطريقة عدوانية تماما . وفى عهد « عودة الملكية » أعلن موللو أن القوة البحرية هى القوة العالمية وأن انجلترا حذت حذو الرومانيين الذين أقاموا صرح امبراطوريتهم على التجارة والأسطول .

وكانت سياسة كرومويل تجمع بين دوافع دينية وسياسية وتجارية الى حد أن المؤرخين اختلفوا حول أى هذه الدوافع كان هو السائد . بيد أنه يمكن أن يقال عنه على أى حال انه كان قوميا . وصحيح أنه قال هو نفسه ان مصلحة المسيحية لها الأولوية على المصلحة القومية ، ولكن دينه كان يشيع فيه الايمان برسالة أمته العظيمة واستخدام قوتها لنشر الدين الحقيقى فى العالم وحمايته فى كل مكان . وقد أراد أن يجعل انجلترا زعيمة فدرال من جميع الدول البروتستانتية ضد بيت هابسبورج . وادعى حق حماية البروتستانتين فى فرنسا وفى البلاد الاخرى ولكن مع التحالف مع فرنسا الكاثوليكية ضد أسبانيا . وقد احتلت دنكرك « لكبح جماح الهولنديين و . . . باب يفتح الطريق الى القارة » ، وهوجمت المستعمرات الفرنسية والاسبانية وتم الاستيلاء عليها برغم أن انجلترا كانت فى حالة سلام معهما . وجلبت أول حرب هولندية الى انجلترا

(١) جين ماكلاكلاان «التجارة والسلام مع أسبانيا القديمة منذ ١٦٦٧ الى ١٧٥٠ . ١٩٤٠» ص ١٩ . وهوروكس ص ٩٤ . وبوللارد « هنرى الثامن » ص ١٣٧ و ٢٥٠ . وجيمس وليامسون « عصر دريك » ١٩٣٨ ص ١٣ و ٤٩ . وفيرث «كرومويل» ص ٣٨٧ . (٢) سير بتلروس . ماكوبى « نمو القانون الدولى » ١٩٢٨ ص ٤٠ .

أسطولا قويا ، أسر معظمه من الهولنديين ، وتداول كرومويل مع مجلسه : هل تعطل هذه السفن أو تستعمل فى مشروع مفيد ؟ وفى هذه الحالة هل تستعمل ضد فرنسا أو أسبانيا ، وأشار كرومويل الى أن المشروع لن يكلف أكثر من نفقات تجهيز السفن كثيرا ، وأن هناك فرصة لربح ضخمة ، وأنه مما لا شك فيه أن وجود هذه القوة البحرية فى يد انجلترا ينطوى على توجيه من العناية الالهية (١) . وليزيل الشك الذى ساور ملك أسبانيا بسبب ارسال الأسطول الى البحر الأبيض ، أكد له أن ذلك لا ينطوى على أية نية سيئة وأن الحكومة تعتبره من أصدقائها . وقد وضع كرومويل سياسته الخارجية بقصد تحقيق ما كان يباهى به من أنه أراد أن يجعل اسم الانجليز موضع رهبة فى العالم . كما كان اسم الرومان من قبل . وأدى نجاحه فى زيادة هيبة انجلترا ونفوذها الى نمو الشعور بالفخر القومى . وقد أشاد ادموند وللر به لأنه جعل من انجلترا دونه مجيدة ومركزا لامباطورية ولأنه أرغم جميع الأمم على تحية كل سفينة من السفن الانجليزية . وقال : ان العناية الالهية أرادت لانجلترا « أن تضع قوانين لحفظ التوازن فى أوروبا ودولها بالرهبة » وان المضطهدين من جميع البلاد سيلجئون الى انجلترا فى طلب العدالة ، وأن حاميتها سيعرف عندئذ بأنه حامى العالم .

وكانت فكرة ميلتون عن رسالة انجلترا هى أنها ستنتشر الحرية والمدنية بين المواطنين والممالك والأمم ، ورأى فى مخيلته « أمة نبيلة قادرة تقوم مثل رجل قوى بعد النوم وتنثر سهامها التى لا تغلب » . وقد بنيت له انجلترا روما أخرى فى الغرب . ومع ذلك فقد خص الطابع القومى الالماني والفرنسى والأسباني والايطالى أيضا بكلمات الاعجاب . وكتب هارينجتون فى ١٦٥٦ أنه واجب الكومنولث الحر هو تحرير الشعوب المضطهدة ونشر الحرية والدين الحقيقى فى البلاد الأخرى . « فانجلترا لم توجد لنفسها فحسب ، بل ينبغى أن تكون منفذة للارادة الالهية على الأرض بهدف أن تسود التقوى فى حكم العالم كله » . ثم قال : ان الدولة الجامدة مصيرها الحتمى أن تضعف . ويجب أن تهدف سياسة الجمهورية الى الزيادة لا الى مجرد المحافظة على ما هو قائم . فإذا قيض لها البقاء يجب أن تشيد أسسا عظيمة للأبدية . وإذا أريد لها أن تكون قوية يجب أن يتوفر لها مجال للنمو . « انك لا تستطيع أن تزرع شجرة بلوط فى

(١) جون مورنى « كرومويل » ١٦٠٠ ص ٤٥٨ .

اناء زهور ، فلا بد أن تتوافر التربة لجذورها والسماء لفروعها » (١) .
ويقول فيرت : ان هارينجتون عبر بهذه الآراء عن اتجاهات معاصريه .
ويبدو أنه كان أول من وضع نظرية « المجال الحيوى » للأمة ذات الرسالة
العظيمة . وكتب نيقولا باربو فى ١٦٩٠ أن انجلترا ، بواسطة
أسطولها وروح القتال لدى شعبها الحر المزدهر ، هى أصلح الدول لتأسيس
امبراطورية عالمية . واقترح اصدار قانون بمنح الجنسية لجميع الأجانب
الذين يشترون أرضا فى انجلترا . وسيكون ذلك حافزا لأعداد كبيرة من
الأشخاص الأجانب الذين كانوا مضطهدين ومستبعدين بواسطة حكاهم أن
يهاجروا الى انجلترا وبذلك تزيد قوتها بحيث تنشأ امبراطورية لا تقل
عظمة وتزيد ضخامة من امبراطوريتى الاسكندر وقيصر (٢) .

ويمكن أيضا تتبع فكرة رسالة انجلترا العالمية لدى كتاب كثيرين
آخرين فى ذلك العهد ، وكانت مرتبطة أحيانا بالنزعة القومية وأحيانا
أخرى « بالعالمية » (٣) . وسرعان ما جنح اتساع التجارة العالمية الى اثاره
النقد ضد النزعة القومية الاقتصادية وبدأ التجار بعيدو النظر يقترحون
تحرير التجارة من أغلال الميركانتيلية . فقد كتب سيردود لى نورث فى
١٦٩١ « ان العالم كله فيما يتصل بالتجارة ليس سوى أمة واحدة أو
شعب واحد والأمم فيه كالأفراد » (٤) .

وكانت وجهات نظر توماس هوبز فى الطبيعة البشرية تشبه آراء
سكيافللى ، وكانت متأثرة الى حد كبير جدا بتجربة الحروب الدينية
والأهلية التى لا نهاية لها والتى دمرت أوروبا فى حياته الطويلة . فقد بدا له
الانسان أنانيا ومغرورا وعدوانيا تتسلط عليه شهوة القوة والهيبة .
وأعتقد أنه لا يضمن الأمن والسلام الا دولة ذات سلطة شاملة . ولكن
هذه الدولة ليست كائنا عضويا علويا ، وأهدافها ليست العمل على زيادة
هيبتها وسيطرتها ، ولا تنظيم جميع الشئون . فالدولة لا توجد الا لرعاية
مصلحة الأفراد وينبغى ألا تتدخل بقدر الامكان فى شئون المواطنين وألا

(١) فيرت « كرومويل » ص ٣٨٩ و ٣٩٣ . انظر أيضا جيمس هارينجتون « أوسيانا
وأعمال أخرى » طبعة جديدة ١٧٣٧ ص ١٩٤ . و « ف. رسل سميت » هارينجتون
و « أوسيانا » ١٩١٤ .

(٢) نيقولاس باربون « حديث التجارة » ١٦٩٠ (طبعة جديدة ١٩٠٥ ص ٣١) .
(٣) ف. براى « Imperialistische Stroemengen in der englischen literatur »
فى دورية « انجليا » المجلد الاربعين ١٩٤٦ .

(٤) سير ددلى نورث « احاديث عن التجارة » ١٦٩١ (طبعة جديدة ١٩٠٧) .

تتورط فى حروب عدوانية • ومن ثم فان هوبز لا يتفق مع ميكافلى فيما يتعلق بأهداف الدولة •

٨ - نمو النزوع الى السلام والقانون الدولى

أثارت الثورة الدينية أيضا حركات تستبشع الحرب وأى عنف باعتباره شيئا لا يتفق مع روح المسيحية مطلقا • وكان اللامعمدانيون فى ألمانيا والمينونيون فى هولندا والأخوة البولنديون والسوسينيون فى بولندا والأخوة المورافيون فى بوهيميا والكويكريون فى انجلترا هم أكثر الشيع التى اعتنقت هذه الأفكار أهمية • وبعض الشيع لم تقتصر على رفض الخدمة العسكرية ، بل دعت أيضا الى رفض دفع الضرائب التى كانت تستخدم فى تكوين الجيوش ، أو حتى نبذ كل حكم يقوم على الاكراه وكل أنواع عدم المساواة الاجتماعية • وأنكر فاونستو سوتزينى أن المسيحي ينبغي له أن يفضل وطنه على البلاد الأخرى اذا كانت هذه البلاد أفضل من ناحية ما • وأعلن أن وطنه الحقيقى هو السماء (١) •

وكذلك أدت الحروب المدمرة ونمو الرغبة فى السلام الى نمو فكرة القانون الدولى • وكان رواد هذه الروح من العلماء الأسبان ، وبخاصة فرانسيسكوز فكتوريا الدومينيكانى وفرانسيسكوز سواريز الجزوينى • وأكمل الايطالى البريكوجنتيليس عملهما وأضاف اليه ، وكان أستاذًا فى أوكسفورد ، وكذلك الهولندى هيجوجروتيوس الذى صار أول مرجع كلاسيكى «لقانون الأمم» وكانوا جميعا متأثرين جدا بتقاليد ارازموس (١) • وسار بعض المصلحين شوطا أبعد حتى من ذلك بأن وضعوا خططا لتنظيم محكمة دولية أو لعصبة أمم أو لفدرال من الدول المسيحية • وقد أشرنا من قبل الى اقتراح البابا ليو العاشر بتأليف فدرال شامل للأمراء المسيحيين لاقرار السلام فيما بينهم • وفى القرن السادس عشر والثامن عشر اقترحت عدة خطط من هذا النوع بواسطة علماء كاثوليك ، مثل ، كامبا نيللا وكروتشه وبوستل والقديس بيار ، كما اقترحتها أيضا بروتستانتيون ، مثل : جروتيوس وبين وبللرز وآخرين (٣) •

(١) كريستيان لانج «Histoire de l'internationalisme» ١٩١٩ ص ٢٣٠ -

٢٥٢ ، وهو يصف نمو الشيع ذات النزعة السلمية وأفكارها •

(٢) لانج ص ٢٦٢ • وب • مسار «L'Essor de la philosophie politique

au 16e siècle» ١٩٢٦ ص ٤٥٤ و ٦١٧ •

(٣) لانج ص ٢٧٢ • وت • ترمويلن «Der Gedanke der internationalen

Organisation in seiner Entwicklung» ١٩١٧ ص ١٢٨ • فيت والنتين

«Geschichte des Voelkerbundgedamkens in Deutschland» ١٩٢٠ •

٩ - الجنسية والاستنارة فى انجلترا : لوك وشافيسبرى وبولنجبروك

كانت الصراعات العنيفة بين الأحزاب الدينية والسياسية وبين الأمم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مصحوبة بنمو صامت للفلسفة والعلم . ففى جميع الأمم شغل مفكرون عظام بالتفكير فى أصل المجتمع والحكم وطبيعتهما . وقد تصوروا المجتمع اما على أنه عقد بين المواطنين وبينهم وبين الملك ، أو قارنوه بكائن عضوى . وأمكن تفسير هذين الاتجاهين على السواء اما بمعنى ملكى أو بمعنى جمهورى ، وان بدا أن نظرية العقد تؤيد قضية الشعب - الذى كان يعنى عمل الطبقات العليا . بيد أنه كانت هناك أيضا فكرة تذهب الى أن المجتمع فيه شئ من كل من العقد والكائن العضوى ، وأنه ينطوى على كل من الخضوع الارادى وادراك الضرورة الوظيفية ، وكان لكلا الرأيين تأثير كبير على أفكار السيادة القومية .

وقد انتصر هذا المبدأ فى الثورة الانجليزية الثانية ، وقد أذهلت النتائج العالم . فقد بدا أن انجلترا عثرت على حل المتناقضات التى بين الحرية القومية والوحدة القومية ، وبين الحرية والسلطة . ففى خلال القرن الثامن عشر نما فيها الحكم البرلماني ، وصارت دولة قوية فى العالم ، وأثرت ثراء ضخما ، وأنتجت مدنية براقة ، وفتحت آفاقا واسعة جديدة للفكر . وصحيح أن نموها كان له جانب آخر أيضا . فالحرية القومية لم تعن حكم الأمة كلها ، بل حكم فئة قليلة ، وكانت الوحدة القومية مهددة فى كثير من الأحيان بالنزاع الحزبى العنيف ، وتعرضت فيما بعد للخطر بسبب الهوة العميقة التى خلقتها الثورة الاقتصادية بين الطبقات . وأثارت سياسة انجلترا فى القارة وتوسعها الاستعماري والاحتكار الاقتصادى الذى بلغته العداوات والانفعالات القومية . ولكن الانجازات الايجابية فاقت جوانب الضعف بكثير فقد صارت انجلترا موضع الاعجاب والحسد باعتبارها نموذج الأمة الفخورة الحرة المتحدة ، وعندما كان الفرنسيون يشكون من أنهم ليسوا أمة وانغمسوا فى التطلع والتفكير المستمر فى « الوطن » ، كان نموذج انجلترا يراود أخيلتهم .

بيد أن أعظم الانجازات جميعا كان دورا انجلترا فى صعود روح الاستنارة التى بدت لجميع الناس المتمدينين كانجيل جديد ، والتى بدأت بسرعة تحول أفكار الأمم كلها ومعتقداتها . وقد استمرت الاستنارة فى وجهة النظر العامة « للانسانية » وثقتها فى الطبيعة البشرية ، وانبثقت

منها عدة فلسفات مختلفة تماما مثل « الانسانية » . لم تكن مذهباً واحداً بل حركة من أجل التحرر من سلطان التقاليد والأنظمة التي لم تعد صالحة . وكان المفكرون المنتمون اليها يختلفون بعضهم عن بعض فى عدة نقاط ، ولكنهم اتفقوا فى ثقتهم فى قدرة العقل على ادراك الحقيقة ، وكان هذا العقل هو عقل الفرد وليس أى عقل جماعى تتضمنه القوانين والمعتقدات القديمة . فلم يكن هناك قانون أو معتقد مقدس الى حد يجعله بئامن من التفكير الناقد . بالإضافة الى أن روح الاستنارة كانت تنطوى على الاعتقاد بوجود قوانين للطبيعة والمجتمع يمكن دراستها بالأساليب التجريبية ، وعلى الأمل فى أن حكم العقل سيؤدى الى التقدم والسعادة . وكان معظم فلاسفة الاستنارة ، وليس كلهم ، ذوى اتجاه متفائل ، وأيدوا كلهم التسامح والانسانية العملية (١) .

وقد صورت الاستنارة بواسطة أعدائها على أنها مبالطة فى الجنوح الى الفكر ، بمعنى الحساب الآلى البارد ، واهتموها باهمال القوى اللا عقلانية مثل العاطفة والخيال . وأشادوا بالرومانسية لأنها تغلبت على النفعية الضيقة والمفهوم ذى الجانب الواحد للطبيعة البشرية اللذين عزوهم الى فلسفة الاستنارة . بيد أن الحقيقة هى أن كبار ممثلى هذه الفلسفة لا تنطبق عليهم هذه الصورة المشوهة . فكثير منهم كانوا يدركون وجود القوى اللا عقلانية فى الانسان ، وقدروها حق قدرها مثل العقل تماما . فقد كانت العقلانية واللا عقلانية على السواء تحاولان تحرير الفرد من أغلال الماضى . وقد شهد عصر الاستنارة أيضاً أصل المحاولات اللا عقلانية التى سميت فيما بعد بالرومانسية ونموها ، ولكنها لم تكن قد اعتبرت بعد عدوة لحكم العقل اذ ظلت فى مكانها اللائق وداخل اطار الحدود الصحيحة لها .

وقد صاغ لوك المذاهب الأساسية للتحررية . ففكرته عن الأمة تنطوى على حكم القانون والحقوق الطبيعية للانسان والحكم بالرضا وفصل السلطات واخضاع المصالح القومية لمصلحة البشرية . وهو يقول : ان الجنس البشرى كله يؤلف بمقتضى قانون الطبيعة مجتمعا واحدا ، ولولا الفساد والدناءة التى يتسم بها المنحطون بين الناس لما كانت هناك حاجة لأى مجتمع آخر ، ولا ضرورة لأن ينفصل الناس عن هذا المجتمع الطبيعى العظيم ويتجمعوا فى اتحادات أصغر منقسمة على نفسها .

(١) انظر التفسير العميق لروح الاستنارة الذى كبه ارنست كاسير

«Die Philosophie der Aufklärung» ١٩٣٢ .

وكانت فلسفة شافتسبرى ينبوعا ضخما من اللا عقلانية التي تخفف الاستنارة من حدتها . فهو ، مثل لينتز وسبينوزا وهردر ، يجمع بين المبادئ الأساسية للاستنارة والأفكار التي صارت فيما بعد انجيل الرومانسيين . وقد تعلم على يد لوك وعمل معه من أجل الحرية الدينية والتسامح . ولكنه يختلف مع كثيرين من أصحاب المذهب الفكري المتشددين في تأكيده لأهمية العواطف والخيال والانفعالات . فالفضيلة عنده ليست نتيجة التأملات العقلية ، بل مثل الجمال توافق في الروح وحماسة نبيلة . والانسان ليس مدفوعا الى الحياة الاجتماعية أساسا بحساب المصالح ، ولكن بغرائزه الاجتماعية المتأصلة ، وهو يملك احساسا معنويا يجعله يشعر بالحق والخطأ دون حاجة الى تفكير عقلي كثير . وتبدو الطبيعة والشخصية البشرية والمجتمع لشافتسبرى وحدات حية تحدوها روح قدسية خلقة ، أو كما ينبغي أن نقول ، كائنات عضوية وليست آلية . والمجتمع لا يقوم على عقد ، فحتى الحيوانات تعيش في مجتمع .

ويرى شافتسبرى الصفة الجوهرية في الأمة في « الروح العامة » أو « الاحساس بالخير العام » الذي يسميه باختصار « العموم » ، والذي يمكن أن نعرفه بأنه وطنية روحية . والمجتمع ، أى « الأخوة القومية » ، توحد بين الناس لسعادة كل منهم ومساندته ومن أجل أسعى نوع من أنواع السعادة والمتعة « اللقاء بين العقول ، والاستخدام الحر لعقولنا ، ولتبادل الحب والصدقة » . والحكم الصالح والروح العامة مرتبطان ارتباطا وثيقا بالأخلاق . فليس هناك حب حقيقى للفضيلة دون معرفة « الصالح العام » . ويقول شافتسبرى : ان حب الوطن هو أنبل العواطف البشرية جميعا . ولكن ذلك لا يعنى المكان الذى نعيش فيه . فهو حب لشيء معنوى واجتماعى « لحالة من حالات المجتمع البشرى المدنية والسياسية بطبيعتها تسمى الشعب » . و « الجمهرة التى تربطها القوة ليست متحدة اتحادا حقيقا ، ولا تؤلف مثل هذه المجاعة شعبا . انها العصابة الاجتماعية ، والاتحاد القائم على الرضا المتبادل ، اللذان يستهدفان الخير المشترك أو المصلحة المشتركة ، هما ما يربط أعضاء المجتمع ويؤلف الشعب . والسلطة المطلقة تقضى على الروح العامة ، وحينما لا توجد روح عامة أو دستور لا يوجد فى الحقيقة وطن أو أمة » . ويشكو شافتسبرى من أن اللغة الانجليزية ليس فيها لفظ مثل « الوطن » ، وان كان فخورا بأن لانجلترا روحا عامة ، ومن ثم فهى أمة بفضل دستورها وما ينطوى عليه من توازن سعيد للقوى بين الأمير والشعب . فالحكم المطلق مدمر للأخلاق والدين « والصالح العام » .

ومع ذلك فان شافتسبرى يعارض كل خيلاء قوميسة أو أنانية
قومية (١) .

« ما الدناءة سوى ضيق الأفق ، أى أن يكون شخصى ومالى ضد المال
العام وعائلتى ضد العائلة العامة ، وما الفرق بين هذا وأن تكون أمتى
أو مجتمعى ضد العالم وقوانين بلادى ضد قوانين الكون أو أوهامى ضد
ارادة الكون ؟ »

« هذه الخصومات حول التجارة والأسبقية والشرف والعلم . انجلترا،
سيده العالم ! تعطى العالم القوانين ! ولكن أين العدالة والايمان والأمانة
والروح العامة » .

« انك تريد أن تخدم بلدك . . حق . ولكن فكر كيف تفعل ذلك
واسأل نفسك : هل أنت على استعداد للتجيز والرياء والكذب والتملق وأن
تنحط وتنحل لتخدمها ؟ أما أنا فلا . ولكنى اذا فكرت فى خدمتها كما هو
مطلوب منى الآن ، فلا بد أن يحدث كل هذا بالضرورة . لأنى لابد أن
أمتهن عقلى . فلا بد أن أصير فاسدا وذا مصلحة ومرايا ، وأين اذن هذه
الخدمة التى سأقدمها ؟ » .

ويعلن شافتسبرى ان الامبراطوريات الكبرى غير طبيعية لان السلطة
فيها كلها لا بد أن تقع فى يد قلة ولا بد أن تؤدي ذلك الى تدمير الروح
العامة . والامبراطورية الرومانية دليل واضح على ذلك .

ان بولنجبروك يقول فى « رسائل عن دراسة التاريخ واستخدامه »
« ان من المزايا الرئيسية التى يمكن الحصول عليها من دراسة التاريخ أن
التاريخ يظهر العقل من تلك التحيزات والتجنيات القومية التى نتعرض
لها فى تربيتنا والتى تؤيدها تجاربنا فى الغالب بدلا من أن تزيلها » .

« لا تكاد توجد رذيلة أو حماقة أكثر انتشارا بين الناس من الخيلاء
السخيفة المضرة التى قد تجعل شعب كل بلد يفضل نفسه على كل شعب
آخر ، وأن يجعل سلوكه وأفكاره وعاداته معايير الخطأ والصواب والحق
والباطل . . والآن ، ليس هناك ما يمكن أن يسهم فى الحيلولة دون تلوثنا
بهذه الخيلاء أكثر من أن نعود أنفسنا مبكرا التفكير فى أمم الأرض المختلفة ،

(١) « حياة انطوني ، إيرل شافتسبرى وخطاباته غير المنشورة ونظامه الفلسفى » ،
بإشراف ب . راند ١٩٠٠ ص ١٠٣ و ١١٥ . وشافتسبرى « سمات » ١٧٣٢ المجلد الاول
ص ١٠٦ والمجلد الثالث ص ١٤٣ .

فى تلك الخريطة الشاسعة التى يعرضها التاريخ أمامنا ، وفى صعودها وسقوطها ، وفى حالاتها المتمدنية والبربرية ، وفيما بينها جميعا من أوجه شبه وأوجه اختلاف ، وبالتحديد هذا المفهوم باستمرار فى أذهاننا لن يبدو لنا المكسيكى بقبعته المصنوعة من الريش وهو يضجى بقربان بشرى لربه أكثر وحشية من الأسبابى بقبعته على رأسه والمحزمة على كتفيه وهو يضجى بألم بأكملها لمطامعه وجشعه ، بل ولمجرد اشباع ما فيه من قسوة » .

ثم يستطرد قائلا : ان التاريخ لا يسهم الى حد كبير جدا فى تحرير عقولنا من التحيز السخيف لبلدنا فحسب ، بل انه يخلق أيضا فى عقولنا تفضيلا عاطفيا له . وليس هذا الشعور غريزيا ، بل تكونه التربية والعادة والالتزام والمصلحة ، ولا غنى عنه لرفاهة جميع المجتمعات وعظمة بعضها (١) .

١٠ - الجنسية والاستنارة فى فرنسا : لويس الرابع عشر ومفتسكيو وفولتير

فى فرنسا صار لفظا : « الأمة » و « الوطن » شعارا لمعارضة الملكية المطلقة . فقد أكد لويس الرابع عشر أنه وحده صاحب القوة التى تنطوى عليها كلمة « أمة » قائلا : « ان الأمة ليس لها كيان خاص فى فرنسا . انها تنحصر كلها فى شخص الملك » وفى تعليماته الى ابنه . ان الرأس فى الجسم هو وحده صاحب حق التأمل واصدار الأحكام ، وجميع الأعضاء الأخرى ليس لها سوى وظيفة تنفيذ أوامره (٢) . وتبعا لوجهة النظر هذه يعد « الملك » هو فعلا الأمة أو الدولة . بل ان لويس الرابع عشر كان يعتبر تكرار لفظ «دولة» فى حضرته أمرا غير لائق كما يقول بولنجبروك . وهو يتحدث أحيانا فى مذكراته عن الشعوب الأجنبية كأهم . ولكنه يطلق على الفرنسيين باستمرار لفظ «شعوبى» وعلى فرنسا «ولاياتى» . ومن ثم فانه حتى ممثل المركزية المطلقة هذا كان يعزف عن استعمال لفظ ينطوى على الوحدة القومية التى قد تعرض سلطته لخطر . وفى سنة ١٧٥٤ كتب ماركيز دارجنسون : « لم يحدث من قبل أن تكرر استعمال لفظى : أمة

(١) هنرى سان جون « فيكونت بولنجبروك » أعماله ١٨٠٩ المجلد الثالث ص ٣٣٢ .

(٢) انظر «Oeuvres de Louis XIV» ١٨٠٦ المجلد الثانى ص ٢٦ . وكان هذا

هو مذهب بوسويه أيضا ، انظر كنجسلى مارتن « الفكر التحررى الفرنسى فى القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ص ٢٦ .

ودولة بكثرة مثل الآن . ان هاتين الكلمتين لم تستخدمتا قط في عهد لويس الرابع عشر ، بل ان فكرتهما لم تخطر على بال أحد .

ان الغاء « مرسوم نانت » ، الذى كان هنرى الرابع قد منح البروتستانتين بمقتضاه التسامح ، وما تلاه من اضطهاد الهيجونوت ، أدى الى هرب ٤٠٠٠٠٠ منهم الى الخارج . ووجد معظمهم ملجأ فى انجلترا وهولندا وسويسرا وبروسيا حيث أدخلوا صناعات جديدة كثيرة .

بالاضافة الى أنه كان بينهم عدد كبير من المثقفين المتحمسين اعجابا بانجلترا التى بدت لهم بلد الحرية والانسانية والتسامح . وصاروا دعاة لا يكون لانجلترا وأفكار الاستنارة الانجليزية التى قارنوها بالحكم المستبد وظلام الجهل فى فرنسا (١) . وانتشر اللاجئون الهيجونوت فى جميع أنحاء أوروبا بكتبهم ودورياتهم وترجماتهم عن الأدب الانجليزى . وسرعان ما انتقلت عدوى الاعجاب بانجلترا الى فرنسا بصفة خاصة بل وبلغ حد الجنون بكل ما هو انجليزى . وسار أكبر الكتاب الفرنسيين ، من أمثال: فولتير وديدرو وروسو ومنتسكيو ، فى الطريق الذى رسمه الهيجونوت . وحتى عندما اشتبكت انجلترا وفرنسا فى حروب كبرى عانت فيها فرنسا الهزيمة المهينة ، كان المثقفون الفرنسيون متحمسين الى حد كبير للأنظمة والأفكار والمدنية الانجليزية .

وحاول الكتاب الفرنسيون فى ذلك العهد الجمع بين الوطنية والعالمية (٢) . وكانت صورة الأمة فى مخيلتهم صورة شعب حر مستنير متحد فى وفاق ، وكان اعتقادهم أن الانسان لا وطن له فى ظل النظم

- (١) انظر بصفة خاصة جوزيف تكست (١٨٩٥) . وكذلك ش. باستير «Anglais et Français du XVIIe siècle»
«Reaousseau et les origines du Cosmopolitanism»
١٩١٢ ص ١٦٧ . وكان مركز الهيجونوت فى لندن فى مقهى رينبو . وقد أثر كتاب «Histoire de l'Angleterre» الذى كتبه الهيجونوتى اللاجئ ، راين دى مويراس ، تأثيرا حاسما فى وجهات النظر السائدة فى ذلك العهد فى التاريخ الانجليزى .
انظر ا. فوتير «Geschichte der newren Historiographic» ١٩١١ ص ٢٢٠ .
(٢) ان أفيد تحليل للفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر فيما يتعلق بالجنسية بقلم ايفا هوفمان لنيك فى كتابها «Zwischen Nationalismus und Demokratie, Gestalten der franzoesischen Vorr evolution» ١٩٢٧ . وكذلك ه. ستيوارت و ب. ديجاردان « الوطنية الفرنسية فى القرن التاسع عشر (١٨١٤ - ١٨٣٣) » ١٩٢٣ وهو يتضمن عرضا مفيدا لآراء القرن الثامن عشر أيضا . ومن الامثلة الواضحة على الاتجاه الحديث الى التشديد بأكثر فترات الروح الفرنسية تميزا نظرية العالم الفرنسى العظيم اميل فاجيه التى تذهب الى أن القرن الثامن عشر كانت تنقصه الروح الوطنية ولا يعرف الجنسية الفرنسية . انظر اميل فاجيه «Dix-huitième siècle, études littéraires» ١٨٩٠ .

الاستبدادية • وكانوا فخورين بانجازات فرنسا الممتازة ، وأرادوا المحافظة على تفوقها الثقافي ، ولكنهم كرهوا الحرب والغزو والتحيز القومي • وكان كثيرون منهم ارسطراطيين ويؤمنون برسالة الطبقات المتعلمة في قيادة الشعب • وكان يحدوهم أعمق العطف على الطبقات الدنيا وما تعانيه ، وكثيرون منهم كان على استعداد للتنازل عن امتيازاتهم لمساعدتها •

وكان أبرز دعاة الفكر التحرري هو منتسكيو (١) • فقد أثبت للعالم أن الحرية هي المبدأ الدافع للتقدم في كل ميدان ، وأن الحرية تعتمد على توازن السلطة في الشئون الداخلية والخارجية على السواء •

وكان الدستور الانجليزي بالنسبة له أفصح نموذج لهذا الحكم • وجاء تفسيره للسياسة الانجليزية كشفا جديدا حتى للانجليز ، وأشاد به أعظم علماءهم وساستهم بحماس • وقد تعلم منتسكيو كثيرا من إنجلترا ، وكان له أيضا تأثير عميق جدا على الفكر والسياسة الانجليزين (٢) • وكان قد درس أنظمة أمم كثيرة بروح مقارنة ، واعترف بأنه أحس بنفس العطف الشديد نحو كل شعب رحل بينه • وبرغم إعجابه بإنجلترا لم يكن في اعتقاده من الممكن وجود نظام سياسي واحد صالح لجميع الأمم ، بل يجب أن يطابق الدستور روح الشعب ، وأن المشرع لا يستطيع تغيير العادات والتقاليد الا ببطء وحذر شديدين • وقد علم بودان وغيره من الكتاب ذلك أيضا ، وحاولوا تفسير السمات القومية بتأثير البيئة الطبيعية ، وبخاصة تأثير « الطقس » ، على المزاج البشري • وقبل منتسكيو هذه النظرية ، وهي نقطة من أضعف نقاط نظرياته • ولكنه ابتكر وجهة نظر ذات أهمية كبيرة بتأكيد له أهمية تأثير الأنظمة الاجتماعية والتقاليد التاريخية على روح الأمم أكثر مما فعل سابقوه • فالدول والمجتمعات لا تصنع ولا تصاغ بعقد ، بل تتأثر الى حد كبير بظروف خارج متناول سيطرة الأفراد : انها تظل قائمة بواسطة التضامن العضوي ولكل نظام سياسي عقليته الخاصة • وحالت المبالغة في أهمية العوامل الجوية وغيرها دون ادراك منتسكيو لكامل دلالات النظرة العضوية ولكنه كان من رواد تفهم السياسة والتاريخ بعمق أكثر •

(١) أ. سوريل «Montesquieu»

(٢) ج. ذدييه. «Montesquieu et la tradition politique anglaise» ١٩٠ وقد بين فيه تأثير إنجلترا في منتسكيو ، وكتاب ف. فلتشر « منتسكيو والسياسة الانجليزية » ١٩٣٩ يذكر تأثير منتسكيو في إنجلترا •

وكثيرا ما قورن فولتير بارازموس لشمول معرفته وحدة ملاحظاته وتهكمه وصلاته بالحكام الأقوياء . ولكن كان ينقصه الايمان الدينى العميق الذى يتسم به ارازموس فقد كان لا أدريا ومن أهل الشك . فهو لم يشد بقدرة العقل ولم يؤمن بأن الطبيعة البشرية خيرة ، وإن أظهر الكثير من العطف العملى على المعانين والمضطهدين .

فضلا عن أنه كان يكره المتعصبين والمتطرفين ، ولا يثق بالشعب ، واعتبر حكم الملك المتنور المتسامح أفضل حكم . ولسوء الحظ كان معظم الملوك يحبون الحرب والمجد . وكان هو يعتبر الحرب شيئا بشعا . وقد كتب عبارات مريرة عن المطامح الحربية للملوك ، وعن غباوة الناس فى اعجابهم بالغزاة . وكان من رأيه أن الفلاسفة لا ينتمون الى أى وطن أو حزب . ومع ذلك فقد كان فخورا بتفوق فرنسا فى المدنية ، ومن وقت لآخر كانت الحروب تنتزع منه الرغبة فى نجاح فرنسا أو الفخر بالانتصارات الفرنسية . وكانت رغبته فى السلام حقيقية ووصلت أحيانا الى حد قريب من النزعة المتطرفة الى السلام . ومع ذلك فقد كان يشك فى قيمة خطط السلام الدائم ، واعتقد أن نزع السلاح والايمان بقانون الأمم يؤديان الى دمار الدولة (١) .

وقد عرض فولتير وجهة نظره فى مقال فى مؤلفه «القاموس الفلسفى»

قائلا :

« من الذى له وطن حقيقة ؟ هل هو اليهودى الذى يعدم على المحرقة ؟ أم هم القتلة فى ملابسهم الرسمية الذين يبيعون أنفسهم لأى أميركان ؟ أو العامل الشاب الذى لا يملك أى شئ فى أرض مولده ، بل وليست لديه أية فرصة لأن يملك شيئا ؟ أو هو الباريسى المنغمس فى لذاته الذى لا يحب سوى حياته للمتعة ؟ أو لعله رجل المال الذى يحب وطنه ؟ أو الضابط والجنود الذين ينهبون الفلاحين اذا لم يمنعهم مانع ؟ .. ان يوربيدس كان أول من كتب : ان الوطن هو كل تربة تمنحك الغذاء . بيد أنه كلما كان الوطن أكبر قلت قدرة الانسان على حبه . فالحب يقل مع الاتساع . ان الأسر الكبيرة العدد جدا بحيث لا يكاد الواحد من أبنائها يعرف الباقين لا تثير فى النفس الحب العميق . فضلا عن أن الوطنية كثيرا ما تجعل ، الانسان عدو الناس الآخرين كلهم . فمن الواضح أن أى بلد

«Voltaires Geistesart und Gedankenwelt»

(١) بول ساكمان

١٩١٠ • جورج براندز «فولتير»

لا يكسب الا على حساب آخر . ورغبة المرء في عظمة بلاده تعنى الرغبة في الاضرار بجيرانه . وليس هناك من هو عضو في المجتمع الا من يملك نصيبا في أرض حوله أو يملك شيئا آخر مطمئنا لحماية القانون ، ونصيبا في الحقوق السياسية ، وهو وحده الذى له وطن « (١) » .

ومن ثم فان فولتير يعتقد أن الناس الذين يملكون شيئا ويتمتعون بالأمن والحرية هم وحدهم الذين يستطيعون الشعور بالوطنية ، وهم الذين يؤلفون الأمة . وهو أحيانا يتحدث عن « الطبقة الثالثة » باعتبارها الأمة .

١١ - روسو والجنسية

لعل جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) ، بين الكتاب السياسيين في جميع العصور ، هو أكثر من كان له نفوذ على عصره ومن بعده على جميع العصور بصورة غير مباشرة . فآثره في أيديولوجية الديمقراطية الحديثة والاشتراكية والجنسية ضخمة ، وإن كان ربما سينكر بعض نتائجه لو عاش ليراها . وينطوى مذهبه كذلك على معظم الأفكار الجوهرية في الفلسفة السياسية عند فيشته وهيجل ومازينى والاشتراكيين . فضلا عن أنه كان من أشد نقاد الاستنارة عنفا ومؤسس الرومانسية التي ارتطبت بنمو الأفكار الحديثة عن الجنسية . ولم يؤلف روسو مذهباً منسقا تماما ، مثله في ذلك مثل جميع المفكرين الكبار ، وتضم فلسفته اتجاهات مختلفة تعكس الاتجاهات المتصارعة في شخصيته وفي الطبيعة البشرية عموما . ولم يكن فكره موجها بدراسة منتظمة ، فهو مدين بالفضل في معظمه لحساسيته البالغة وبداهته ، ولتجارب حياته الغريبة . فهو من عدة جوانب نموذج لقطاع من المثقفين الحديثين الذين كثيرا ما كان لهم تأثير غير عادى على العقل العام .

وكانت روح الاستنارة قد أثارت عدة وجهات نظر مختلفة عن الدولة والمجتمع قبل أن يبدأ روسو في الكتابة . فكان هوبز قد وضع نظرية الحاكم المستبد المستنير التي تقوم على مفهوم متشائم تماما للطبيعة البشرية .

(١) أنظر « كتابات ج.ج. روسو السياسية » مع مقدمة وهامش بقلم ش.أ. فوجهام مجلدان ١٩١٥ . وج. مورلى « روسو » مجلدان . وأميل فاجيه « Rousseau Penseur » ١٩١٠ . ويول جانيه Histoire de la science politique المجلد الثانى . وج. لانسون Histoire de la littérature française الطبعة العاشرة ١٩٠٨ . وهارالد هوفدينغ « Rousseau » ١٨٩٧ ، وفرانز هايمان « Rousseau's Sozialphilosophie » ١٨٩٨ . وارنست سير « Philosophie de l'impérialisme » المجلد الاول .

فلا يمنع الانسان من قتل ونهب الآخرين الا الرعب من السلطة . ودولته ، كما قال ج . جوش ، « مجرد رجل شرطة أضخم من الانسان حجما وفي يده عصا » (١) . وكانت وجهة نظر لوك في الطبيعة البشرية على النقيض من ذلك : فقد كان يؤمن بأن الانسان في جوهره مسالم معقول ودولته في جوهرها هي حماية للملكية ، ويمكن مقارنتها بشركة تأمين ذات سلطات محدودة جدا ، فهي تقابل المثل الأعلى للحكم لدى « الهويج » الأحرار .

وكان منتسكيو قد وضع نظرية نسبية ، فكان الناس في نظره لاهم أشرار ولاهم أخيار ولكن طابعهم يتوقف على بيئتهم ، فروح الامة نتاج الجو والبيئة الجغرافية والتاريخ . وكانت لجميع هذه الآراء ميزات ولها ولكن ليس من بينها ما يشجع الروح الوطنية الايجابية والشعور القومى . فلم يكن لنظرية هوبز أو لوك في الدولة صلة بالجنسية . فلا رجل الشرطة ولا شركة التأمين من الشخصيات التي يمكن المرء أن يحبها ويفخر به ويضحى من أجلها بكل شيء . وصحيح أن منتسكيو أدخل في الاعتبار إلى حد كبير عنصر الاختلافات القومية ، ولكنه نظر إليها أساسا باعتباره عالم اجتماع يحاول تفسير أسبابها دون الانحياز إلى أى جانب ، وليس في نظريته تبرير للشعور القومى ، بل لعلها أميل إلى تشجيع « العالمية » .

أما روسو فكان كيانه كله يتحرق إلى الحب والحماسة ، وكان يكره الحساب العقلى البارد وتمرد على طغيان المجتمع وسطحيته القاسية . وكان الذوق السائد بين فلاسفة وقته هو عدم الثقة في الحماسة وتسخيفها والاشادة بالعقل ، وكانوا يؤمنون بأن التقدم والمدنية سيجعلان الانسان حكيما وسعيدا . وجاء روسو فهاجم مذهب العقل ونمو المدنية أعنف هجوم واعتبرهما لعنة على البشرية . ان الطبيعة جعلت الانسان طيبا ومسالما ومتساويا وحرا وسعيدا ، ولكن المجتمع والمدنية جعلاه شريرا وأنانيا ومغرورا وغير متساو وغير حر وغير سعيد . والأسباب الرئيسية في الفساد العميق في الانسان هي عدم المساواة الاجتماعية ، وبخاصة نشو- الملكية الخاصة والجنوح إلى المغالاة في الفكر . ان نمو الانقسامات الطبقيه بين الأغنياء والفقراء وبين الحكام والمحكومين ، وبين المتعلمين والأميين ، وظهور الحكومات والمراتب الاجتماعية والحرب والزراعة والصناعة والتجارة والعلم والفلسفة والفنون والترف وحياة المدن دمرت البراءة الأصلية في

(١) ج . جوش « هوبز والدولة المطلقة » (في دراسات في الدبلوماسية وسياسة الدول « ١٩٤٢ ص ٣٥٩) .

الحياة الطبيعية جعلت الانسان فى شقاء وانحراف متزايدين • فالبدائيون
والفلاحون والأطفال وحدهم فيهم الخير الأصلى فى الانسان (١) •

والى هنا يبدو أن فردية روسو العاطفية تؤدى الى الفوضى ، ولكنه
يتحول فجأة ويعلن أنه لا ينقذ الانسان سوى اندماج الفردية الخاصة فى
الكائن العضوى الجماعى لدولة قومية • اذ كان بلوتارك قد أشعل فيه
الحماسة للوطنية البطولية فى العالم القديم الذى رآه فى صورة رومانسية •
فيطالب المواطن بضرورة اخضاع مصالحه الخاصة اخضاعا كاملا « للصالح
العام » • والمواطنون اذ يفعلون ذلك يظنون أحرارا لأنهم يطيعون قانونا
صنعوه بأنفسهم ويمثل ارادتهم الحقيقية • فالحكم يجب أن تحدده الارادة
العامة ، التى تعنى ارادة الجميع واردة المصلحة الجماعية العامة • ولكنها
ليست دائما ارادة الأغلبية ، التى قد تضللها الانفعالات والجهل • وقد نبذ
فكرة الحكم البرلمانى الذى كان ينمو فى انجلترا وفكرة توازن القوى
داخليا ، وبدا كأنه يعتبر التشريع المباشر بواسطة الشعب - كما هو
الحال فى بعض كنتونات سويسرا - هو الحكم النموذجى •• ان المساواة
السياسية والاجتماعية هى الهدف الأسمى من تنظيم الدولة ، ومن مهام
المجتمع أن يربى جميع أعضائه على المواطنة والأخلاق والجنسية • وقد
سبق روسو هيجل فى رأيه من أن الحرية هى الحرية المعنوية وأن للدولة
الحق فى ارغام المواطنين على أن يكونوا أحرارا حقيقة بتكوين ارادتهم فى
اتجاه الأخلاق وأنه ليس هناك أخلاق خارج الدولة ، وأن اختصاص الدولة
غير محدود تقريبا ، بل انه سار أحيانا أبعد من هيجل • ففى مشروعه
لدستور كورسيكا يقول : انه أراد أن يجعل صلاحيات الدولة أكبر وأقوى
ما يمكن ، وأن تكون صلاحيات الفرد أقل وأضعف ما يمكن ، الامر الذى
ينطوى على الاشتراكية ، وان كان مدى اشتراكيته موضع جدل • ومن
المحتمل أنه كان يريد مجرد المساواة فى توزيع الممتلكات بين جميع أعضاء
الدولة وليس تأميم الانتاج • واعتقد روسو ، مثل هيجل فى شبابه ، أن
المسيحية لا تتفق مع الوطنية المتحمسة • فهى تعتبر السماء الوطن الحقيقى
وتبشر بالخشوع والعدالة والسلام والاخوة العالمية التى تفيد الانسانية ككل ،
ولكنها تؤدى الى ضعف الدولة وتحلل المجتمع • ومن ثم أراد أن تحدد
الدولة حدا أدنى من الدين المدنى ثم تتسامح فيما عدا ذلك فى جميع

(١) يشير فاجيه الى أن روسو اتخذ قصة الانجيل الخاصة بخطيئة آدم أساسا عن

غير وعى منه • فالانسان يغريه الشيطان ويعدده بأن المعرفة ستجعله مثل الله ومن ثم يفقد
البراءة وسعادة الحياة فى النعيم •

المعتقدات باستثناء الكاثوليكية والاحاد واللادية ، وكان روسو يكره المسيحية لأنها تجنب الى اقامة دولة داخل الدولة .

وكانت روح الاستنارة تميل الى اعتبار الدولة مجرد شر ضرورى والشعور القومى تحيزا . أما روسو فعلى النقيض من ذلك رأى فيهما أكبر القيم . فقد عاد الى نظرية أفلاطون التى بدت فيها الدولة كائنا عضويا معنويا هو منبع الأخلاق كلها ، والى وجهة نظر أرسطو الذى نظر الى الدولة باعتبارها سابقة الوجود على الفرد والضامن الذى لاغنى عنه للحياة الطيبة . ان « فرديته » حولت نفسها من كل جانب الى « جماعية » متصلة .

والوطنية فضيلة بطولية عظيمة . فهى الحب الفعال الوحيد للبشرية ، لأنه ليس من الممكن أن يشمل المرء العالم كله بحبه . ولذا يجب أن يركز عواطفه على مجال أضيق هو الوطن . ففي المجتمع البدائي كان وطن الانسان هو القبيلة . وكانت الحرية والمساواة والاخاء سائدة ، ومنها يتألف الوطن . ولكن ظهور الملكية فى الأرض أثار الجشع وأدى الى الحروب والى نمو طائفة المحاربين وتدمير الحريات القومية والمواطنة . وفى النهاية لم يعد هناك من يهتم أى اهتمام بالوطن . فبالنسبة للخاضعين كان الأمر لديهم سيات أن يكون مضطهدهم طاغية من أهل البلاد أو أجنبيا . ولم يعد للوطن وجود . فالحرية والمساواة وحدهما يثيران الوطنية الحقيقية .

وكان روسو يعجب بصفة خاصة بأسبرطة فى عهد ليكوجورجوس بنظامها الجديد ووطنيتها الجارفة وبطولة التضحية بالنفس - أسبرطة التى استبعدت الفنون والعلم وصارت فى مستوى أعلى من أثينا ، ومن روما بعد ذلك ، اللتين اهتمتا بهما ونسيتا نظامهما الحربى ووطنيتهما وحرصهما . ان ليكوجورجوس علم شعبه الوطنية فى كل شئ ، فى القوانين وفى الألعاب والاحتفالات وفى الشئون الخاصة ، وحتى فى الحب . فلم يترك لأبنائه لحظة راحة يهتمون فيها بأنفسهم فحسب ، وانبثق من هذا الاكراه المستمر حب قوى للوطن كان أقوى عاطفة لدى الاسبرطيين ، أو العاطفة الوحيدة ، وجعلهم كائنات فوق الآدميين . وأغمض روسو ، فى تحمسه لأسبرطه ، عينيه عن أنها لم تقم على حرية الجماهير ومساواتها . بل كانت تحكمها طائفة حربية تضطهد السكان الخاضعين ، الذين ربما بلغ عددهم عشرين مثل عدد سادتهم ، اضطهادا بلا رحمة .

وفضلا عن ذلك يؤكد روسو ضرورة التقاليد القومية كأداة لزيادة

التضامن بين المواطنين ودعمه • وينبذ اتجاه « العالمية » السائد الذى لفائدة منه سوى اتخاذه عذرا للتخلص من واجبات الانسان تجاه أمته ، ويهاجم بصفة خاصة تلك العادة الضارة السائدة فى أوربا كلها من تقليد العادات الفرنسية تقليدا أعمى • والوطنيون بالضرورة متحيزون وغير عادلين وخشنون فى معاملتهم للأجانب ، ولهم العذر فى ذلك لأنه نتيجة لحبهم الجارف لأمتهم • والأنظمة والتقاليد القومية والعرف والعادة هى ما يتألف منه طابع الشعب ، والتفرد بهذا الطابع عماد الوطنية • وعندما سأل البولنديون المشورة فى وضع دستورهم اهتم اهتماما بالغاً بمنحهم ملامح خاصة تميزهم عن كل الشعوب الأخرى • فالبولندى الذى بلغ العشرين يجب أن يكون بولنديا ولا شئ آخر • والطفل عندما يفتح عينيه يجب أن يرى الوطن ولا شئ آخر حتى يموت • بيد أن روسو فى بعض كتاباته الأخرى يلجأ الى نغمة أكثر اعتدالا من عدة جوانب • فهو لا يعارض كلية فى الأهداف التى تسمى على القومية ، ويعترف بأن رفاهة البشرية فوق رفاهة أية أمة بذاتها • وبصفة عامة يخفف روسو كثيرا من حدة عدوانيته النظرية عندما يناقش موضوعات محدودة • فهو عندئذ يدخل فى الاعتبار الاختلاف والتفاوت بين الشعوب ودخلها ويعقد الآمال على التحسن التدريجى • فلم يكن مثله الاعلى عمليا فى الحياة هو الرجل البدائى ، بل ربما مجتمع الفلاحين الحر بدون استغلال اجتماعى ولا مطامح مغرورة ، يعيشون فى سعادة وتدبير • ويقول : « ان أهل الريف هم الذين تتألف منهم الأمة » • فالحياة فى المدن تفسد الانسان • ومع ذلك فان « حديث فى أصل عدم المساواة » الذى يتضمن هجومه على المدنية والذى جعل روسو مشهورا ، أهدها الى مدينة جنيف التى يشيد بدستورها فى تقرير طويل اشادة فائقة باعتباره أقرب شئ الى مجتمعه النموذجى ، برغم أن جنيف فى ذلك الوقت كانت تخضع لحكم كله رأسمالى •

وبرغم أن روسو أشاد بالتحيز القومى و « الانغلاق » (exclusiveness) فانه كان معارضا تماما للمبدأ الجوهرى فى النزعة القومية الحديثة ، وهو عبادة القوة والهيبة • اذ أن أصله السويسرى وحماسته للجمهوريات المدن القديمة جعلاه يؤمن ايمانا راسخا بالدولة الصغيرة التى لا يحقق الحرية والمساواة سواها • فقد كان مقتنعا بأن الدولة الكبيرة لا يمكن أن تكون الا استبدادية ، وتظل دائما حربية عدوانية • وكان روسو يستبشع الحرب والاضطهاد ، ويرحب بتقسيم الدول الكبيرة الى دول صغيرة تؤلف فيما بينها فدرالا للمحافظة على السلام •

ان نقد روسو الشديد للمجتمع ودعوته الى المساواة الاجتماعية ، وبخاصة أفكاره عن التربية أثارت ضمائر الناس وأفكارهم مما أدى الى تحقيق اصلاحات مفيدة جدا . ومن الناحية الأخرى شجع الاتجاهات العدوانية التي كانت السبب الرئيسى فى الضعف البالغ فى الديمقراطية الحديثة فى صراعها مع عدوها المميت . لقد كان فكره ينطوى على كل من الفردية المتطرفة والجماعية المتطرفة ومن ثم اتجه تلامذته اما الى مذهب من الفوضى أو الى مذهب الدولة المطلقة القوة . وقد جعله ايمانه بطبيعة الانسان المسالمة الحيرة لايقدر عنصر العدوانية والمقاتلة فيها، فلم يدرك بدرجة كافية أن المطالبة بالمساواة الاجتماعية الكاملة قد تؤدى الى حرب طبقية مريرة والى خسارة كاملة للحرية والوحدة القومية ، كما لم يتبين الخطر الذى تنطوى عليه اثاره المشاعر القومية المتحيزة وزيادة قوة الدولة . بيد أن بعض ملاحظاته تبين أنه لم يكن غافلا تماما عن هذه الأخطار . ففى مواجهة الموت اعترف بأنه « منذ طفولته حالت ظروف كثيرة بينه وبين العالم الحقيقى وصعد الى مناطق « أثيرية » حيث كون آراء رومانسية غير صحيحة عن الناس والمجتمع ، لا تنفع جميع الكوارث فى علاجها تماما » .

١٢ - الثورة الفرنسية والجنسية

يتلخص انجيل روسو فى شعار الثورة الفرنسية « الحرية ، المساواة ، الاخاء » . فتعاليمه كانت مصدر وحى لزعماء الثورة . لقد آمنوا بأن الحروب والاضطهاد والسيطرة سببها الوحيد هو الحاكم المستبد والطبقات المتميزة ، وأن جميع الأمم ، بعد أن تحصل على حريتها ، ستحقق حكم المساواة والاخاء داخل كل أمة وبين الأمم . وكان كثير من المثقفين فى البلاد الأخرى يشاركونهم فى هذا الأمل .

وقد نشر الأب سيز كتيبه المشهور « ما هى الطبقة الثالثة ؟ » فى بداية الثورة . وهذا اللفظ يعنى نظريا الطبقة الوسطى ، من سكان المدن والريف ، وان كانت عمليا تعنى المثقفين والبورجوازيين الذين هم أحسن حالا . والكتيب وثيقة اتهام عنيفة ضد الطبقتين المتميزتين ، الارستقراطية ورجال الدين . وهو يصف ألوان الظلم والشقاء الفاضحة بسبب امتيازاتهما ، ويؤكد أن الطبقة الوسطى هى العنصر السليم الذى له قيمة فى الدولة . أما الارستقراطيون فهم أحفاد الغزاة الأجانب ، كما يفخرون هم أنفسهم ، ويجب طردهم . والطبقات المتميزة بسم يسرى فى الكائن العضوى القومى . وينبذ الكتيب فكرة الدستور على النمط الانجليزى

بمجلس البرلمان • فوقت الحلول الوسط قد فات • ان « الطبقة الثالثة » وحدها هى الأمة ولا بد أن تؤلف « الجمعية الوطنية » . والأمة صاحبة السيادة وسلطاتها مطلقة وقراراتها لاتخطئ •

وسرعان ما جعلت « الطبقة الثالثة » نفسها « الجمعية الوطنية » • واقتراح ميرابو أن تختار لنفسها اسم « تمثيل الشعب الفرنسى » ، ولكن خيلاء البورجوازية جرحها لفظ «شعب» الذى تفوح منه رائحة «الفوغاء» فى لغة ذلك العهد . ورد ميرابو بأن الانجليز والامريكيين يستخدمون لفظ «شعب» دائما بمعنى أنبل . ويجب اختيار هذا اللفظ واضفاء طابع النبيل عليه لأنه لا يلقي التقدير الكافى فى فرنسا بالذات • بيد أن خطابه أثار عاصفة بين المندوبين . وكان الخلاف فى قراراته خلافا حول معنى (الأمة) . فلقد كان الاتفاق عاما على أن الأمة هى صاحبة السيادة . ولكن أى الطبقات تتألف منها الأمة ؟ وكيف يمكن التأكد من الارادة القومية ، « الارادة العامة » عند روسو ؟ ومن الجلى أن فكرة الأمة التى يقوم عليها النظام البرلمانى الانجليزى فى ذلك الوقت تختلف عن فكرة الشوربين •

وكان سيميز قد أشار الى ادعاء بعض المتحدثين باسم الارستقراطيين بأنهم حفدة الغزاة الفرنك ، ومن ثم فهم الامة الحقيقية ولهم الحق فى حكم الجنس الذى غزوه (١) • ولكن عندما قامت الثورة عطف قسم كبير من الارستقراطيين ورجال الدين على أهدافها ، وكان منهم بعض أحسن كتاب الثورة وسياسيها • بالاضافة الى أن الطبقتين المتميزتين سرعان ما انضمتا الى الجمعية العمومية • ومع ذلك فان فكرة الاختلاف العنصرى بين الارستقراطية والطبقة الوسطى ، ودلالاتها فيما يتصل بفكرة الأمة ، استمرت تلعب دورا ضارا فى مناقشات السياسة الفرنسية طوال جزء كبير من القرن التاسع عشر •

وقد عقد تلامذة روسو الأمل فى تحقيق المثل الأعلى للوحدة الروحية الوثيقة والاخاء العام بوسيلتين : الأولى هى فرض المساواة على الفور باخماد كل امتياز • واستخدمت الطبقة الوسطى البورجوازية هذه السياسة للتخلص من نفوذ الارستقراطية • وقد أيدتها فى ذلك الطبقات الدنيا ، البروليتاريا الوليدة • ولكن سرعان ما وجدت هذه الطبقات زعماء بدءوا يهاجمون الطبقة المتميزة الجديدة ، البورجوازية . وأعلن «مارا» أن الفقراء لاوطن لهم وقد حكم عليهم بالعبودية والاضطهاد على يد الطبقات المالكة •

(١) هذا الكتاب ، الفصل الثانى ، (٦) •

وصارت المطالبة بالمساواة موجهة ضد البورجوازية، وأدت فى النهاية الى ظهور فكرة الشيوعية . وأصبح مبدأ المساواة صاحب الصدارة فى أيديولوجية الثورة . ولكنه لم يؤد الى الحرية والوحدة والاخاء ، بل سرعان ما أدى الى اندلاع الحرب الطبقيّة والفوضى وصعود حكم استبدادى عسكري جديد .

وكانت الوسيلة الثانية فى تحقيق الوحدة القومية ، التى أوصى بها روسو نفسه هى تشجيع الناس على حب تقاليدهم والفخر بها واستبعاد النماذج الأجنبية ونبذ العالمية . وقد أعلن الثوريون أنهم من أنصار العالمية، ودعوا الى مبدأ تقرير المصير ، ونادوا جميع الأمم أن تنفض عن نفسها نير طغاتها . ولكن سرعان ما ظهر فى كلماتهم وتصرفاتهم تيار من التعصب القومى والعذوانية . وقد وصفنا من قبل كيف حاولوا القضاء على جنسية الأقليات التى تعيش فى فرنسا ، والامر الذى لم يحاول النظام القديم أن يفعله قط (١) . وكانت سياستهم هى السبب فى الحرب ضد الملكيات . وقد أثبت جين جوريه مرة أخرى فى مؤلفه العظيم عن الثورة أن الجيرونديين ، حزب البورجوازيين الأثرياء والمتقفين ، هم الذين فعلوا كل ما فى وسعهم لاشعال الحرب فى حين كان خصومهم -الدول الملكية الأجنبية- تنفر نفورا شديدا من السياسة الحربية .

وكان هدف الجيرونديين هو إتاحة دفعة جديدة لروح الحماسة الثورية التى كانت قد أخذت تخبو ، وأن يدعموا قبضتهم على الأمة . ومن أجل هذا الغرض أثاروا الفرور القومى والرغبة الجارفة فى الهيبة والقوة ، وادعوا أن الأمة مهددة بالخطر من جانب أعدائها ، وأعلنوا أن الحرب ستؤدى الى تحرير جميع الشعوب .

ويقول جوريه :

« وبهذه الطريقة أراد الجيرونديين استخدام الحرب مناورة ضخمة فى السياسة الداخلية . فأية مسئولية فظيعة هذه ، وعندما نفكر فى أن تصرف لحظة كان ثمة عشرين عاما من الحكم القيصرى الدموى ، وأن فرنسا بعد ذلك ظلت من ١٨١٥ الى ١٨٤٨ ، أو حتى من ١٨١٥ الى ١٨٧٠ ، أقل حرية

(١) جين جوريه «La Législative» (Histoire Socialiste. Tome II) ص ٧٩١ - ٩٥٨ . بيد أن جزءا من المسئولية يقع على عاتق جماعة حول الملك كانت تأمل أن تؤدى الحرب الى استعادة السلطة الملكية ، وعلى عاتق الملك الذى قبل مشورتهم .

مما كانت فى ظل دستور ١٧٩١ .. واذا أدرك الإنسان أن الدعاية المسلحة للمبادئ الثورية أثارت ضدنا الشعور القومى لدى الشعوب الأخرى وحملتنا تلك الأعباء العسكرية الفظيعة التى ترزح تحت وطأتها جميع الأمم ، فإن المرء يتساءل هل كان للجيروند الحق فى القيام بهذه المغامرة * .

وفى خضم الحرب سرعان ما صرف النظر عن كل النوايا الطيبة لمنح حق تقرير المصير لجميع الأمم المحررة ، وصارت سياسة الجمهورية الفرنسية نحو بلجيكا وإيطاليا قومية واضطهادية صراحة .

١٣ - بيرك وفكرة الجنسية

تعرضت مبادئ الثورة الفرنسية وفلسفة روسو السياسية لنقد قاس على يد آدموند بيرك (١) . وقد كتب مؤلفه المشهور « تأملات فى الثورة الفرنسية » سنة ١٧٩٠ فى وقت لم تكن الثورة فيه قد انحطت بعد فصارت حكم ارباب وحروب غزو ، ويشب ذلك أن تأملاته لم تثرها مجرد مشاعر الاستبشاع وخيبة الأمل مثل كتابات كثيرين من الناقدين اللاحقين . وينبثق رفض بيرك للتجربة الكبرى ، التى كانت وقتئذ موضع عطف جميع ذوى العقول المتحررة تقريبا ، من خطة مختلفة تماما فى التفكير السياسى يمكن وصفها بأنها تمرد ضد عقلانية القرن الثامن عشر وتفاؤله وإيمانه بالقدرة اللانهائية لعقل الفرد وبطبيعة الطبيعة البشرية وإمكان التقدم السريع بتحطيم جميع أغلال الماضى .

وكان منتسكو قد بدا فعلا الاتجاه الى نبد الأسلوب التجريدى فى الفكر السياسى وأكد النسبية التاريخية والاجتماعية لجميع المبادئ والنمو العضوى للمجتمع والأثر القوى للطابع القومى فى تحديد الدساتير والتشريع . وقد لقى مذهبه ترحيبا حماسيا فى انجلترا وصار بيرك تلميذه المتحمس (٢) .

وعند بيرك أن الشعب أو الأمة ليس مجرد جمهرة من الكائنات البشرية تعيش معا ، بل شخصية تاريخية ذات بناء سياسى واجتماعى خاص بها ويوحدها نوع من الرضا الضمنى وتقودها طبقة صغيرة مدربة

(١) جون مورلى « بيرك » ١٨٨٨ ، وجون ماكون « فلسفة بيرك السياسية » ١٩١٣ .
والفرد كوبان « ١ . بيرك والتمرد على القرن الثامن عشر » ١٩٢٩ ، هارولد لاسكى « بيرك » ١٠ .

(٢) ف . فلتشر « منتسكو والسياسة الانجليزية » ١٩٣٩ .

على السياسة والخدمة العامة وتتجسد فيها التقاليد القومية . وقد استخدم بيرك مصطلحات لوك التى ألفها « الهويج » (الأحرار) فوصف المجتمع بأنه عقد ، بل ويقارنه بشركة محدودة تتحدد فيها الحقوق بواسطة الميثاق الأصلي وتتناسب مع مقدار الاسهم التى تحملها كل فئة .

بيد أن دولة لوك محدودة بحماية الأمن والملكية ، وأعضاؤها هم الجيل الحى من المواطنين الذين لديهم مطلق الحرية فى أن يفعلوا ما شاءوا بالدولة . أما مفهوم بيرك عن الدولة فهو مفهوم المشاركة فى جميع المساعى الروحية والمعنوية التى تربط الأحياء واسلافهم ومن يأتون بعدهم . فالدولة بالنسبة له مقدسة بقدر ما هى مقدسة عند هيجل . وهى تخضع لقوانين معنوية أبدية ، وأعضاؤها ليسوا أحرارا فى حلها أو تعديل دستورها تعديلا جذريا لأنه يتضمن تجربة وحكمة أجيال كثيرة .

وأهم عنصر فى الأمة أرستقراطية طبيعية تملك كل الصفات اللازمة للزعامة . تؤلف روح الأمة وبدونها لا تكون هناك أمة . وعندما هرب كثيرون من الارستقراطيين فى أثناء الثورة الفرنسية الى ألمانيا وأنشؤا مفر قيادة فى جوبلنز قال بيرك فعلا : ان الأمة الفرنسية هناك . وتضم هذه الطبقة الرائدة النبلاء وسادة الريف والتجار وأصحاب المصانع المزدهرة وأوساط الناس . والأرستقراطية الطبيعية بالمولد والثراء والعبقرية تحمل أمانة بالنيابة عن الشعب وتمارسها تبعا لما تراه هى ولا تقيدتها تعليمات ناخبها . وقد عارض بيرك باستمرار أى توسيع لحق الانتخاب ، بل وكان يفضل تقليل عدد الناخبين . وبداله الدستور البريطانى مزيجا طيبا جدا من القوى والمبادئ يفوق كثيرا أى دستور صيغ طبقا لمذاهب مجردة . وهو يشيد بصفة خاصة فى طابع الشعب الانجليزى « رهبة من الملوك والقساوسة » و«مقاومته الباسلة لكل تجديد» و « اصراره على التمسك بحكمة التحيز » .

وبمصطلحاتنا الحاضرة تعنى وجهة نظر بيرك فى الأمة أنها كائن عضوى روحى نتاج نمو عضوى طويل . بيد أنه كان يدرك تماما مخاطر مقارنة الأمة بكائن عضوى طبيعى التى تنطوى على أن الأجزاء ليست لها ارادة مستقلة وأن الكل ليس له هدف سوى بقائه . ففى وجهة نظره ،

للأرستقراطية الطبيعية ارادة مستقلة، وهدف الدولة هو رفاهة مواطنيها .
ورأيه الخاص فى أن الأنظمة الانجليزية هى نتاج النمو العضوى صحيح فى
جوهره، ولكنه بالغ فى هذه النقطة . فانجلترا أيضا مرت بثورات وعزلت
أو قتلت عددا من ملوكها ولم تكن أقل من الثورة الفرنسية فى مصادرة
أموال الكنيسة : بيد أن خوف برك من الثورات كان ينصب فقط على
الثورات التى تهدد بأن تتحول الى ثورات اجتماعية ، فى حين أنه وافق
صراحة على عدة ثورات قامت بزعامة الأرستقراطية .

وكانت روح الاستنارة تجنح الى اعتبار كل معتقد لايقوم عليه
دليل من المنطق الواضح أو ضد معايير «الادراك العقلى» تحيزا أو
خرافة . وينقد هيوم فى مقاله « عن التحيزات المعنوية » تلك « المحاولات
الفلسفية الجادة فى سبيل الكمال التى تهاجم ، بحجة اصلاح التحيزات
والأخطاء ، أقرب المشاعر الى القلوب وجميع التحيزات والفرائز المفيدة
التي يمكن أن تحكم المخلوق البشرى » . بل ان كثيرين من دعاة الاستنارة
لم يوافقوا على تنوير الطبقات الدنيا التى اعتقدوا أنها فى حاجة الى
تحيزات معينة من أجل سعادتها وليظل حكمها ممكنا .

وكانت هذه هى التربة التى نبتت فيها الرومانسية . وقد دافع
برك بقوة عن التحيزات بشرط أن تكون قد ثبتت بالعرف الطويل
وبالاختبار . وقد كان بينه وبين روسو عدة أوجه شبه برغم أنه قاتله
كعدو شديد .

فهو يؤكد مثل روسو أهمية المشاعر والتحيزات باعتبارها روابط
للمجتمع ، ويقدر الجنسية (١) ، ويجنح الى وجهة نظر عضوية فى
الدولة ويؤمن بأن الحرية الحقيقية لا تتحقق الا عن طريق الدولة . وفى
حين أشاد بالبدائى النبيل أشاد برك بفروسية العصور الوسطى .
ولكن روسو يدعو الى المساواة ويندد بالملكية الخاصة فى حين يرى برك
فى عدم المساواة سنة الهية ويعتبرها كما يعتبر الملك ضمانا لا بد منه
للمجتمع المتوازن السليم .

(١) فيما يتعلق بالتفاصيل انظر كوبان ص ٩٧ .

وكان بيرك أساسا من المؤمنين بقيمة التقاليد وببجل الحكمة الجماعية المنحدرة من الماضي ولا يثق بحكمة الافراد ، في حين كان روسو رومانسيا يؤمن بالخير الجوهري في الطبيعة البشرية وافترض أن عامة الناس الذين لم تفسدهم المدنية أكثر من احتفظ بهذا الخير الأصلي . فضلا عن أن روسو لم يكن متسقا في رومانسيته وغرق الى حد كبير في التأملات التجريدية واعتقد أن الدولة المطلقة الساطة ستجعل المواطنين أحرارا وفضلاء وسعداء .

وقد بذل بيرك كل ما في وسعه لاثارة انجلترا الى الحرب ضد فرنسا الثورية ، ولكنه لم يكن من الدعاة القوميين ذوى النزعة العدوانية . فموقفه من مسائل الثورة الامريكية والعدالة نحو الهند يشبت أن الهيئة والقوة لم تكونا بالنسبة له أهدافا أولى .

وكانت لديه نظرة أوضح في طبيعة المشاعر القومية من روسو ، وأدرك تماما أن التطلع الى التفوق والسيطرة يمكن أن يوجد في كل الطبقات (١) . « ان الرغبة في أن يكون هناك من هو أدنى تصل الى أدنى الناس جميعا » .

وقد نشر في شبابه كتابه «تبرير المجتمع الطبيعي» الذي يقول فيه ان مجرد انقسام الناس الى مجتمعات منفصلة في ذاته مصدر احقاد وخلافات دائمة بينهم . فالتاريخ يبين أن الاغلبية الساحقة من النزاعات بين الأمم المختلفة لا يكاد يكون لها من سبب سوى أن هذه الأمم مؤلفة من مجموعات مختلفة من الناس وتطلق عليها أسماء مختلفة . فبالنسبة للانجليزى يثير طبعا اسم فرنسى أو اسباني أو ايطالى أفكار الكراهية والازدراء . ومع ذلك فان مجرد اسم رجل ما ، اذا استخدم بطريقة سليمة لا يثير الا أثرا طيبا .

ومن المعترف به الآن أن هجمات بيرك ضد مبادئ الثورة الفرنسية كان يحدوها تعصب بالغ بحيث تجاوزت هدفها . ومع ذلك فيجب القول بأن التقليد الانجليزى الذى اتبعه بيرك في تعريف الأمة أثبت في المدى الطويل أنه يؤدى الى الوحدة والتضامن والحرية القومية أكثر من تقليد الثورة الفرنسية ، وان كان يجب ألا نغفل أن هذا التقليد الاخير كان له تأثير ضخم على انجلترا أيضا . وعندما جاء فردريك جنتز ، أحد كبار

المعجبين ببرك ، الى انجلترا غمره الانطباع الذى تركته القومية الانجليزية فى نفسه باعتبارها كائنا عضويا . وهو يشيد فى خطابه بانجلترا بوصفها كلا كاملا والامة الحقيقية الوحيدة الموجودة ذات الطابع المحدود والدستور الشامل لكل شىء والمتداخل فى كل شىء . وقال: انه اذا ضاعت انجلترا فى أى وقت من الاوقات فان ذلك المشهد البهيج للعظمة القومية والسعادة لن يتحقق ثانية قط فى أى مكان على وجه البسيطة .

وقد ظل تأثير بيرك مدة طويلة أعمق فى المفكرين السياسيين فى القارة منه فى البريطانيين (١) . اذ رأى الرومانسيون الالمان والتقليديون الفرنسيون فى كتاباته انجيلهم . وتمائل فلسفة هيجل السياسية الى حد كبير جدا فلسفة بيرك ، وإن كان هيجل يجمع بينها وبين بعض تقاليد الثورة ونابليون .

١٤ - الفكر الالمانى قبل الثورة الفرنسية وبعدها

فى أثناء القرن الثامن عشر تسربت أفكار الاستنارة والرومانسية المبكرة ، كما عبرت عنها كتابات الفلاسفة والشعراء وكتاب القصة الانجليز ، والفرنسيون ، الى الطبقات العليا والوسطى فى المانيا والبلاد المجاورة وقوبلت بحماسة . وسرعان ماحدثت حركة احياء غير عادية فى كل ميدان فى الفكر والادب الالمانيين . وكان الكتاب الالمان الى حد كبير متأثرين بنماذج أجنبية ، ولكن كثيرين منهم لم يستمروا مجرد مقلدين بل أظهروا أصالة عظيمة . وبذلك دخلت ألمانيا عصرها الكلاسيكى فى كل من الفلسفة والادب .

وكان الشعور العام بين الطبقات المتعلمة عالميا وبعيدا تماما عن أية نزعة قومية سياسية . فالتعصب المحلى والتنافس بين الأقطار الألمانية الكبرى ، وحتى بين الأقطار الصغرى (٢) ، والصلات الأسرية

(١) فريدا براون «Burke in Deutschland» ١٩١٥ . مولى ص ٣١٢ .
(٢) وحتى فى القرن الثامن عشر كانت هناك حروب صغيرة كثيرة بين الامراء الصغار .
وقد أعلن أحد البارونات ، بارون فلمنج ، الحرب على دوقه ساخن ويستفلز لانها أمرت بدبح كبش فى اقليمه . وفى ١٧٤٧ نشبت حرب بين ساخن جوتا وساخن ماينتجن بسبب شجار بين اثنين من النبلاء حول حق التقدم فى البلاط . وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع فى كتاب ماكس فون يوهن «Deutschland im 18 Jahrhundert, Das heilige Roemische Reich» ص ١٣ .

بين ألمانيا والاقاليم الاجنبية ، وعوامل أخرى استبعدت كل احتمالات اتباع سياسة عدوانية . وقد شكك بعض الكتاب من عدم وحدة الشعوب الألمانية وعدم وجود سلطة مركزية مناسبة وتدخل الدول الأجنبية في شئون ألمانيا ، ولكن لا يكاد يوجد أثر للنزعة القومية السياسية بمعنى التطلع الى القوة القومية . كما لم تكن هناك أية نزعة حضارية بمعنى التحيز ضد المدنيات الاجنبية والمبالغة في الاشادة بالنفس . بل ان الطبقات العليا كانت تفضل كل ماهو فرنسي ، وعندما أسس فردريك الثانى أكاديمية برلين جعل الفرنسية لفتها الرسمية وعين لها سكرتيرا فرنسيا . وفى سنة ١٧٨٣ وضعت الاكاديمية جائزة لمقال عن أسباب انتشار اللغة الفرنسية عالميا ، وحصل على الجائزة انطوان ريفارول (١) الذى عزا انتشار اللغة الفرنسية عالميا بين الطبقات المتعلمة الى صفاتها المتفوقة ولا سيما وضوحها ومنطقها اللذين تفوقت فيهما على جميع اللغات الاخرى . وحظى ريفارو بتكريم عظيم من الملك والاكاديمية من أجل مقاله .

بيد أن المركز المسيطر الذى احتلته اللغة والادب الفرنسيان سرعان ما دفع الكتاب الى تأكيد مزايا لغتهم ، ويمكن تفسير اشادة فيشته المبالغة باللغة الألمانية كرد فعل متأخر لريفارول .

وقبل الثورة الفرنسية كانت المشاعر والافكار التحررية والجمهورية منتشرة فعلا بين الطبقات العليا والوسطى فى الامبراطورية ، وان كان المجال ضيقا للنشاط السياسى فى الهيئات النيابية . وفى سنة ١٧٩٠ عرض الامبراطور ليوبولد الثانى مذهبه السياسى بتفصيل كبير فى خطاب الى أخته ماريا كريستينا (٢) . وكان مذهبه برنامجا من الدستورية

(١) ١. ريفارول «Oeuvres choisies» ١٨٨٠ المجلد الاول . وكانت معرفة اللغات الاخرى منتشرة جدا فى ألمانيا أيضا أكثر من أى بلد آخر . وقد جاء فى تقرير رسمى أعد لنابليون « لا يكاد يكون هناك ألماني يتعلم لا يستطيع قراءة الفرنسية والىطالية والانجليزية واللاتينية أيضا » . انظر ١٨٠٥ ل. فيشر « دراسة فى السياسة النابليونية فى ألمانيا » ١٩٠٣ ص ٥ . ويتضمن هذا الكتاب كثير من الوقائع المفيدة عن ظروف ألمانيا قبل الثورة وبعدها .

(٢) ١. ولف «Leopold II und Maria Christine, ihr Briefwechsel»

ص ٨٠ و ١٠٠ ولف و. تسويدنك سود نهورست
«Oesterreich unter Maria Theresia, Joseph II und Leopold II»
١٨٨٤ ص ٣٢٥ ومما له مغزى أن كبار الموظفين فى الحكومة النمساوية كان معظمهم يحبذون منح حق التمثيل فى الدايت للطبقات الوسطى وحتى للفلاحين . انظر ولف وتسويدنك ص ٣٦٧ . وحتى الارشيدوق فرانز - الذى صار فيما بعد وهو امبراطور من غلاة الرجعيين - كان يميل فى ذلك الوقت «للحزب الديموقراطى» .

التحررية . فقد اعتبر الامبراطور نفسه نائبا أو موظفا لشعبه مقيدا بأن يراعى بكل دقة العقد الاصلى الذى منحه الشعب به السلطة ، وعرضه للعزل فى حالة اخلاله بالعقد . وقال ان السلطة ، التنفيذية بيد الحاكم ولكن السلطة التشريعية والاشراف على السلطة التنفيذية بيد الشعب أو ممثليه . بيد أن ليوبولد لم يحكم سوى عامين ، فقد مات فجأة مباشرة قبل أن تعلن فرنسا الثورة الحرب التى بذل جهده لتجنبها . وقد أينعت الآراء التحررية والجمهورية فى بروسيا وأجزاء أخرى من ألمانيا أيضا ، وكثيرا ما طرحت بصراحة غريبة برغم الرقابة (١) . فقد شجع تعدد الاقطار المنفصلة على نوع من حرية التعبير . اذ كان هناك حكام يسمحون بنشر كل الآراء التقدمية بدافع من الاستنارة من ناحية ، ولكي يزعجوا الأمراء المجاورين الذين كانت تهرب الكتب الى بلادهم أيضا .

كان جوهان جوتفريد هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) من كبار رواد الفكر الرومانسى مثل روسو ، وقد ظل كذلك مخلصا للمبادئ الأخلاقية الجوهرية للاستنارة (٢) . وكان البادئ بالاهتمام الحماسى « بروح الشعب » كما تعبر عنه اللغة والشعر والفن والتقاليد . وقد بجل بصفة خاصة التراث الثقافى العظيم الماضى المائى ، وكان يتوق بحرارة لحياء مجدها فى ميدان الادب والفن والعلم . ولم يجذبه الجانب السياسى الجنسية كثيرا . فقد اعتبر الدولة مخلوقا مصطنعا جمعبته الحرب والغزو للذان كرههما . وكانت عواطفه مع الامة ، التى رأى فيها نمو طبيعيا مثل العائلة التى اعتبرها مجتمعا مسالما أساسا . وقد تركزت فلسفة هردر التاريخية فى فكرة الانسانية ، وكان اهتمامه بالجنسية ثقافيا فى الغالب وكان مقتنعا بأن كل شعب مهما كان صغيرا ومتخلفا يملك شعلة مقدسة من الجمال والخير ، وهى شعلة لم تخمد فى الشعوب البدائية الى الحد الذى بلفته فى المجتمعات المتمدينة المعروفة . وكان السلافيون حتى ذلك الوقت يعتبرون فى نظر الأمم الأخرى أقرب الى البرابرة وأن مصيرهم هو أن يظلوا أقنانا الى الأبد . ولكنه اكتشف فيهم أحب الصفات ، وبخاصة الرغبة فى السلام وتنبا لهم بمستقبل عظيم . وهكذا

(١) «Deutschland vor 100 Jahren, Politische Meinungen und Stimmungen beim Anbruch der Revolution» ولف وتسويدنك ١٨٨٧ - المجلد الاول ص ١٨ و ٤٧ و ٦١ و ٦٩ و ٢٠ و ٢٣٢ والمجلد الثانى ص ١٠ و ١٥ و ٢٧ و ٨٢ الخ .

(٢) ف. ر. هايم «Herder» ١٨٨٠ - ١٨٨٥ . وأ. كونمان «Herder» ١٩١٢ .

صار حامل لواء البعث القومي السلافى وكان له تأثير قوى جدا على افكار الاحياء الثقافى للشعوب السلافية .

وكان اهتمام الكتاب الكلاسيكيين الالمان بالدلالات السياسية للجنسية ضعيفا جدا اذ كانوا قد اهتموا بها أصلا ، وكانوا فى ذلك يعكسون روح عصرهم (١) . فقد كتب ويلاند فى سنة ١٧٩٣ أنه لم يسمع قط فى شبابه عن أى واجب بأن يكون وطنيا ألمانيا وأن لفظ المانى بالمعنى السياسى لم يكن معروفا . وكتب لسنج سنة ١٧٥٨ فى خطاب ، « ليست لدى أية فكرة عن حب الوطن ويبدو لى أن هذا الحب على أحسن الحالات ضعفا بطوليا يسرنى أنى لا أعانيه » . وأعلن شيللر أن الروح المثقفة للفرد ذات قيمة اكبر من أعظم مجتمع أو دولة بوصفهما هذا . وكتب فى ١٧٨٩ : ان الاهتمام بالوطن مهم بالنسبة للامم غير الناضجة فحسب أى لشباب العالم . أما الرجل الحديث فأهدافه أسمى ، والكتابة عن أمة واحدة مثل أعلى صغير وتافه ، فحتى أهم أمة فى العالم ليست سوى شظية متغيرة وعرضية وتحكمية من الانسانية ، ولايستطيع العقل الفلسفى الاهتمام بها الا فى حدود ما تخدم تقدم الانسانية .

وعندما غزت الجيوش الفرنسية المنتصرة أرض الراين الالمانى فى سنة ١٧٩٥ واحتلتها لم يزعج ذلك شيللر كثيرا . فقد كتب فى خطاب : « لابد أن نظل بأجسامنا مواطنين لعصرنا حيث لا يوجد أمامنا بديل لذلك . ولكن فى الروح من واجب الفيلسوف والشاعر الا ينتمى الى أى شعب أو عصر وان يكون معاصرا لكل العصور بالمعنى الحقيقى للكلمة» . وفى السنوات التالية هددت انتصارات نابليون البناء السياسى لألمانيا بالانحلال : ففى فترة قصيرة انتهت أيام الامبراطورية ووقعت ألمانيا

(١) فيما يتصل بالافكار السياسية والقومية والعالية للشعراء الكلاسيكيين أنظر كارل برجر «Schiller» المجلد الثانى ص ٥٧٤ . و ج . فولتر «Staatideale unserer Klassiker» ١٩١١ . وأوتو جونتر «Schiller über Volk, Staat» و «Schiller Einfluss auf die Entwicklung des deutschen Nationalgefühl, und des Gesellschaft» ١٨٨٧ - ١٨٩٢ . وفردريك جاندولف «Goethe» ١٩١٦ ص ٥٣٦ و ٦٨١ . والبرت بيلشوفسكى «Goethe» الطبعة الثلاثين ١٩١٧ المجلد الاول ص ٣٢٣ والمجلد الثانى ص ٢٥١ و ٣٢٦ . وهانريخ شميدت «Goethe Lexicon sub, Internationalismus» و ج . وينتر «Goethe deutsche Gesinnung» ١٨٨٠ . ورينهولد آريس « تاريخ الفكر السياسى فى ألمانيا من ١٨٧٩ الى ١٩١٥ » ١٩٣٦ ص ١٦٦ . وكونر فرانكه « تاريخ الادب الالمانى وتأثره بالعوامل الاجتماعية » الطبعة العاشرة ١٩١٦ .

تماما تحت أقدام نابليون . فى ذلك الوقت فكر شيللر فى كتابة قصيدة عن مصير ألمانيا ، ولكنه نبذ الفكرة ، وقد وجد بين أوراقه مشروع غير كامل لها بعد وفاته بعدة سنوات . وفيها يحاول الشاعر أن يقنع الألمان بالرضا بمصيرهم بالإشارة الى أن الشرف الألماني والعظمة الألمانية ليسا مرتبطين بدولتهم ولكن بثقافة الأمة وطابعها . وللألمان أن يفخروا بإنجازاتهم الروحية والمعنوية ، بأنهم أول من بدأ حركة الإصلاح الدينى ، وبحماسهم للقيم المثالية كالحرية الفكرية ، وبفلسفتهم ، وبصفة خاصة بلغتهم التى ستسيطر على العالم فى المستقبل . فمن يتفوق فى تثقيف الروح سيسيطر فى النهاية ، ويجب على الألمان ألا يحذوا حذو الأمم الأخرى فى تمجيد أوثان الثراء المادى والمظاهر البراقة ، فمهمتهم هى أن يتبنوا كل الانجازات الثقافية العظيمة لدى الأمم الأخرى ويصنعوا منها كلا متكاملا ، « أن يوحدا كل أشعة الضوء فى صورة جميلة واحدة للإنسانية » . ولا تكاد هناك ضرورة للقول بأن تصويره خال تماما من أى أثر للنزعة القومية السياسية .

وقد أعرب جوته كثيرا عن اتجاهه العالمى وتقديره العميق لإنجازات الأمم الأخرى وعدم رضاه عن التحيز القومى . وقرب نهاية حياته أعلن أن الكراهية القومية توجد فى أقوى وأعنف صورها لدى المستويات الدنيا من الثقافة ، وأنها تختفى كلية عند مستوى عال معين . فالمرء يقف عندئذ فوق الجنسية ويشعر بالأمم المجاورة وأفراحها بنفس الطريقة التى يشعر بها اذا حدثت لأمته . وقال : ان ذلك هو ما يلائمه (١) . وكثير من الأقوال الأخرى أيضا تجعل من الواضح أن جوته أحس أولا بأنه مواطن عالمى بوصفه عضوا فى تلك الجماعة الروحية الكبيرة التى تؤلف من الفن والفكر والتطلعات السامية لجميع الأمم .

ولكن ذلك لا يعنى أنه كان عديم الاهتمام بألمانيا ، ولكن فكرته عن الوطنية هى التفكير فى رفاهة مواطنيه وثقافتهم وليست العداء نحو الأمم الأخرى . وحتى واقعة « أن نابليون أخضع ألمانيا » لم تزعجه ، وظل معجبا بحماسة بالامبراطور وصديقا لفرنسا . وعندما اندلعت حرب التحرير لم يشارك فى المشاعر القومية ضد الحكام الفرنسيين فقد ظل بمعزل عنها ومنع ابنه من الانخراط فى الجيش .

وعندما رجحت كفة حرب التحرير وأصبحت فى حكم المنتهية فى

(١٤) من مارس ١٨٣٠

(١) ج.ب. إيكارمان «Gespraeche mit Goethe»

مصلحة الألمان أعرب في حديث مع الأستاذ لودن عن أنه لا يستطيع أن يرى فائدة ذلك كله . فصحيح أن ألمانيا تحررت من نير أجنبي .

ولكن هل ضمن ذلك الحرية من كل سيطرة أجنبية ؟ لقد اختفى الفرنسيون ، ولكن حل محلهم الآن جنود روس ونمساويون وبروسيون . وكان جوته قد أصبح يكن كراهية عميقة لبروسيا . وقال للودن أيضا : أنه يفهم الشعور بالفخر في الانتماء لأمة كبيرة قوية مهيبة ، وأنه يؤمن بمستقبل ألمانيا العظيم . ولكن ربما كان ذلك لمجرد ارضاء الأستاذ الذي كان داعية قوميا متحمسا . فبعد ذلك بخمسة عشر عاما ناقش جوته ، في سنة ١٨٢٨ ، موضوع وحدة ألمانيا مع ايكلمان وقال : انها لابد أن تتحقق عن طريق التحسن في الطرق وانشاء السكك الحديدية في المستقبل ، وليحب الألمان بعضهم بعضا وليتكاتفوا ضد الأعداء الأجانب ، ومن المرغوب فيه أيضا أن تكون لهم عملة واحدة وموازن ومقاييس واحدة وأشياء كثيرة من هذا النوع . ومن المفيد جدا أن تمر أمتعه عبر حدود جميع الأقطار الألمانية الست والثلاثين دون أن تفتح ، وأن يكون جواز سفر المواطن من فيمار ساريا في جميع ألمانيا - ولكنه وقف تماما ضد أى مركزية سياسية . فقد كان يؤمن ايمانا راسخا بأن اللامركزية في ألمانيا هي العامل الرئيسى في انتشار التربية والمدنية على أوسع نطاق . فكل حاكم قد حاول انشاء مؤسسات ثقافية مثل الجامعات والمكتبات والمتاحف والمسارح والمدارس الفنية ومدارس الشعب .

ومثل هذه الاقوال تبين أن جوته كان يرحب بالوحدة القومية في حدود مصلحة الأمن والتجارة والانتقال فحسب ، ولكنها تبين أيضا أنه لم يكن راغبا مطلقا في المركزية السياسية وزيادة السلطة .

وقد افترض أمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) ، الذي كان جده اسكتلنديا ، صفحة جديدة في تاريخ الفلسفة (١) وقد فسرت بعض

(١) كان أعظم سابقه هو ليبنيز الذي تجب الإشارة اليه هنا بوصفه مؤسس اتجاه فكري قومي تميزت به الفلسفة الألمانية عن فلسفة فرنسا وإنجلترا ، وأيضا لدفاعه عن الجنسية الألمانية ضد الخطط الفرنسية للسيطرة العالمية وإن كانت معظم كتب ليبنيز باللغة الفرنسية واللاتينية . انظر كونو فيشر «Leibniz» ١٩٢٠ . وف . باش .
«Les doctrines politiques des philosophes classiques de l'Allemagne» ١٩٢٧ . وويلهم مترجير
«Gesellschaft, Recht und Staat in der Ethik der deutschen Idealismus» ١٩١٧ . وك . فيشر «Kant» مجلدان ١٨٩٨ . وأريس .
المرجع السابق . ورودلف كريس Die Soziologischen Gedanken Kants ١٩٢٩ .

نقاط فلسفته السياسية ، التى لم يعرضها الا فى شيخوخته ، بطرق مختلفة ، والغالب أنه كانت لديه أسباب تدعوه الى التحفظ فيما يتصل ببعض المسائل . ولكن الامر الذى لا ريب فيه هو أن هدف «كانت» الرئيسى فى السياسة هو «حكم القانون» الذى فهم به أن يتوفر للفرد أكبر قدر من الحرية يتفق مع حرية كل الآخرين .

ومن ثم فإن «كانت» كان تحرريا وصارت فلسفته فيما بعد انجيل التحريرية الألمانية . وليس هناك أسخف من رأى الذى قيل أحيانا من إن «كانت» هو رائد الجامعة الألمانية الحديثة أو أن مفهومه عن «الانزام الجغرافى» متطابق تماما مع الدولة البروسية العسكرية (١) . فقد رحب «كانت» بالثورة الأمريكية والفرنسية ، وبرغم أنه فيما بعد أعلن اشمئزاه من ارهاب اليعاقبة ، وندد فى محاضراته بكل تمرد ، فإن أصدقاءه المقربين يعرفون أنه كان لا يزال يؤمن بأن الثورة الفرنسية كانت فى جوهرها حق ويأمل أن تستمر فى طريقها التقدمى نحو مثله العليا .

وكانت تحدوه رغبة جارفة فى السلام الدائم ووضع مشروعا لتحقيقه يقول فيه : ان الجمهوريات وحدها هى التى يمكن أن تكون مسالمة . بيد أنه اعترف أيضا بأن الحرب قد تربي أيضا فى الناس صفات نبيلة ويمكن ان تكون أداة تقدم .

وقد كان مثل جميع كبار المفكرين والشعراء الالمان فى ذلك العصر مواطنا عالميا ويعادى كل صور النزعة القومية . وهو يشير فى وصفه المثير للطبائع القومية الى أن من الجوانب الطيبة فى الطابع الالمانى أنهم لايشعرون بالفخر القومى وانهم عالميون (٢) . ومع ذلك فهو يفترض أن العناية خلقت الفخر القومى والتحيز القومى لتقسيم الجنس البشرى الى أمم مختلفة . وكل أمة يحدوها وهم أنها افضل من الأمم الأخرى فى ناحية ما ، وتحبذ الحكومات مثل هذه الأوهام .

بيد أن مثل هذه الفرائز العمياء التى تعمل فى الجانب الحيوانى

(١) ان مفهومه عن الواجب مختلف تماما عن النظام الالى الذى فرض فى بروسيا . انظر ١٠١٠ ماير «Kants ethik und der preussische Staat in der Festschrift für Erich Narhs»
(٢) جمعت هذه الاوصاف فى كتاب له . فورلاندر «Kants Weltanschauung aus seiner Werken» ١٩١٩ ص ٢٥٧ - ٢٦٨ .

من طبيعتنا لابد أن يتحكم فيها العقل . « ومن ثم فإن هذا الجنون القومى يجب ازالته وأن تحل محله الوطنية والعالمية » . ومن رأى « كانت » أن الفرائز والصراعات القومية قد تكون ضرورية للتقدم فى المراحل البدائية من النمو ، ولكن على أن يتولى العقل القيادة مع تطور المدنية .

وكانت التحررية هى مذهب « ويلهلم فون همبولت » (١٧٦٧ - ١٨٣٥) أيضا ، وهو مفكر عميق وعالم كبير ورجل دولة بروسى مبرزا (١) . وهو يعبر فى كتابه « حدود الدولة » عن عدم ثقته المطلقة فى كل توسيع لنشاط الدولة خارج نطاق المحافظة على الأمن والعدالة . وكان هدف الحياة عنده هو النمو المتناسق لكل قوى الفرد .

وبعد سقوط نابليون أدرك أن ألمانيا فى حاجة الى قوة ما لأغراض الدفاع ولارضاء الوعى الذاتى لديها ، ولكنه لم يرد أن يجعلها موحدة أكثر مما ينبغى لأن ذلك سينطوى على المخاطرة بتحولها الى دولة غازية « الأمر الذى لا يريده أى ألماني حقيقى » والذى يعرض النمو الفكرى والعلمى للشعب الألماني للخطر (٢) .

وعندما قامت الثورة الفرنسية أثارت حماسة فى ألمانيا (٣) . وقد سجل « هيجل » ، الذى صار منذ وقتها الداعية لمجد الملكية « البروسية » وللدولة القوية ، انطباعه عن الثورة الفرنسية فى عقله كشاب بعد ذلك بعدة سنوات قائلا : « ان فكرة الحق أكدت ذاتها وانهار نسيج الظلم القديم ، لقد كان اشراقا مجيدا . وقد احتفلت كل الكائنات العاقلة بهذا الحدث . وساد فى هذه الفترة شعور نبيل وانتعش العالم بحماسة روحية .

وكان « فردريك جنتز » ، الذى صار فيما بعد أحد عمد سياسة مترنيخ الرجعية ، من المعجبين المتحمسين بالثورة أيضا ، ولكنه تحول الى روح الدستور الانجليزى بتأثير « بيرك » . وكان « جنتز » موظفا حكوميا فى بروسيا ولكنه غادرها أساسا اذ بدا له أن الروح الثورية قد غزت الدوائر العليا أكثر مما ينبغى . فقد أكد أن الأمر لم يقتصر على

(١) ١ . هارناك « W. von Humboldt » ١٩١٣ .

(٢) ف . ماينكه « Weltburgertum und Nationalstaat » ص ١٩٥ .

(٣) ج . ب . جوش « ألمانيا والثورة الفرنسية » ١٩٢٠ .

ان رجال الدولة ذوى النفوذ ، مثل ، «بيم» «ولومبارد» أصبحوا من أصدقاء الثورة ، بل ان تسعة أعشار موظفى الحكومة صاروا أيضا من الثوريين صراحة بجانب عدد لا يحصى من الناس الآخرين بينهم علماء وأعضاء من طبقة النبلاء العليا والجيش (١) .

وقد خيب العنف المتزايد فى الثورة واندلاع حكم الارهاب أمل كثير من المتحمسين للمبادئ الثورية . ومع ذلك فان عددا كبيرا لم يراوده اليأس حتى عندما صارت السياسة الفرنسية سياسة غزو وأسلاب واضطهاد قومى بصورة متزايدة . وحتى صعود نابليون الى السلطة واستبداده السافر لم يؤدى مباشرة الى التمرد القومى . فقد ظل قسم كبير من الطبقات العليا والوسطى فى المانيا سنوات خاضعة طواعية للسيطرة الفرنسية وغرقت فى اعجاب لاحد له «بنابليون» باعتباره سوبرمان .

فقد انتشرت بين المثقفين فكرة أن الفرنسيين ، «الرومان الجدد» سيسيطرون على العالم فى حين ستمتع المانيا بمزايا السلام والنظام وتتفوق فى المدنية كما فعل الاغريق فى الامبراطورية الرومانية . ومضى وقت طويل قبل أن يصير رد الفعل القومى للسيطرة والاضطهاد الاجنبيين قوة لاتقاوم ، ولكن عندما اندلعت حرب التحرير انتشرت الكراهية القومية وبلغت ذروة عالية .

١٥ - فيشته والجنسية

يعتبر الكثيرون فى الوقت الحاضر الفيلسوف «جوهان جوتليب فيشته» (١٧٦٢ - ١٨١٤) أهم الرواد الاول للنزعة القومية الألمانية الحالية ، ويمجده القوميون الالمان باعتباره منهم ومن أنشط أجهزة دعايتهم جهاز يسمى «عصبة فيشته» . بيد أن هذا الرأى لا يشارك فيه العلماء الذين قاموا بدراسة وثيقة لحياته وفكره .

فقد انتهى الاستاذ فكتورباش ، وهو عالم فرنسى مختص بصفة

(١) فريدا براون «Burke in Deutschland» ١٩١٥ ص ١٦٨ . ويتضمن هذا الكتاب عرضا طيبا تماما لتأثير بيرك على الرأى فى ألمانيا فيما يتصل بالثورة ، ولنمو الافكار السياسية الألمانية عموما . وقد كان تأثير بيرك على الرومانسية الرجعية الألمانية ضخما . بيد أنه مما له مغزى ان معظم أتباعه والمعجبين به وجدوا ان هجماته على الثورة مغالى فيها وأعنف مما ينبغى .

خاصة ، الى أن جميع أفكار الجامعة الالمانية الحالية غريبة عنه ، وأنه نبذها جميعا وقا تلها (١) . ويقول عالم فرنسي آخر ، هو اكسافيين ليون الذي يعتبر مؤلفه الكبير عن « فيشته » الكتاب المرجع ، أن فيشته ظل منذ شبابه حتى موته تلميذ المثل العليا التي أعلنتها الثورة الفرنسية والداعية المتحمس لها في المانيا .

وقد نشأ « فيشته » من الطبقات الدنيا من المجتمع وعمل في صباه راعي أوز . وساعده أحد النبلاء الخيرين ، الذي أعجب بموهبة الفتى الخطابية ، على الدراسة - ونمى « فيشته » مذاهب « كانت » في الحرية الانسانية والخلق والطاقة المعنوية الى أقصاها - وكان شجاعا متهورا قوى الشخصية ، وكانت تشيع في أفكاره المثالية الصلبة . فضلا عن أنه كان خطيبا انفعاليا ، الامر الذي يجب أن ندخله في الاعتبار عند دراسة أفكاره . وعندما اندلعت الثورة الفرنسية امتلأ حماسا ودافع عنها ضد أعدائها من الألمان . وسرعان ما اكتسب شهرة بأنه يعقوبى خطر .

وعندما غزا الفرنسيون ألمانيا رغب في انتصارهم الساحق وأعرب عن عدم اهتمامه المطلق بمصير الألمان . بل ان هناك خطابات اكتشفت حديثا تثبت أنه كان يريد بشدة أن يصير مواطنا فرنسيا وأن يكرس حياته لخدمة الثورة . فقد كانت رغبته ان يكون استاذًا في جامعة تحت الحكم الفرنسي حيث يربى الطلبة الألمان على أن يكونوا مواطنينا ألمانا صالحين وأن يعملوا من أجل « الثورة » في المانيا . وقد ظلت افكار الثورة من كراهية للأمرء والطبقات المتميزة والجنود وعدم المساواة الاجتماعية تحدوه طوال حياته .

وكان يجنح ، مثل روسو - الذي يبدو فيه كثير من أوجه المقابلة معه - نحو الاشتراكية بمعنى المساواة الاقتصادية عن طريق عمل الدولة .

وفى سنة ١٨٠٠ نشر « فيشته » كتابا عن الدولة الكاملة اقترح فيه نظاما من المساواة الاجتماعية الكاملة والاكتفاء الذاتى وسيطرة الدولة

(١) فيكتوربا ش «Les doctrines politique de philosophes Classiques d'Allemagne» ١٩٢٧ ص ٩٧ - ١٠٢ .

(٢) يثت اكزافيه ليون أن « فيشته » قد نأثر الى حد كبير في أفكاره بالاشتراكي الفرنسي بأبيف وبتشريعات الثورة .

على الحياة الاقتصادية . ويجب ضمان العمل والمعيشة للجميع . وتعزل الأمة عن الأمم الأخرى للقضاء على المنافسة التجارية التي اعتبرها مصدر حرب . وكان يعتقد ، مثل افلاطون ، أن التجارة تفسد الأخلاق وتخلق عدم المساواة الاجتماعية وتهدد أسس المجتمع . ولهذا السبب طالب بأن تحتكر الدولة التجارة وبعملة منفصلة . ورأى أن خطته تدعم الوحدة والاتجاه الروحي وتخلق درجة عالية من الأخلاق والطابع القومي . ولم يكن الهدف من الاكتفاء الذاتي الاستقلال العسكري والقوة ، كما في الدول القومية والعسكرية الحالية ، بل هو هدف أخلاقي بحت .

ومع ذلك فان « فيشته » يقترح أيضا أن على الدولة ، قبل أن تعزل نفسها ، أن تحتل قدرا كافيا من الاقليم داخل الحدود الطبيعية ، ثم تعطي بعد ذلك جميع الحكومات ضمانا أكيدا بأنها لن تحاول التوسع بعد ذلك ولا تشترك في أى حرب أو شئون خارجية . وقد فسر ر . بتلر (١) هذه الفكرة على أنها الصيغة التي تقوم عليها سياسة هتلر في الحصول على « مجال حيوى » بواسطة الغزوات الفجائية بالخدعة . بيد أن « فيشته » كان أساسا معارضا في سياسة الغزو والهيبة وكثيرا ما ندد بها في عبارات عنيفة جدا . وإذا بدا أنه انحرف عن هذا المبدأ في هذه الحالة ويضع مبدأ الحدود الطبيعية في مستوى أعلى من مبدأ تقرير المصير ، فان ذلك يتفق مع مذهب روسو وزعماء الثورة ونتيجة من نتائج اشتراكية الدولة . وقد أعلن الثوار أن فرنسا لها حق مقدس في حدودها الطبيعية التي تضم أرض الراين الألماني ووافق فيشته على هذه الفكرة ، بل وفكر في أن يستقر في أرض الراين تحت الحكم الفرنسى . فضلا عن أنه من الواضح أن الدولة الاشتراكية يجب أن تعزل نفسها ضد تجارة العالم الحرة وتحتكر التجارة الخارجية والداخلية . ولكن الاكتفاء الذاتي وإشراف الدولة الشامل لا يمكن أن يتحققا إلا في اقليم كبير يؤلف وحدة طبيعية من نوع ما . وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مؤلفة من حوالى ١٨٠٠ قطر كان معظمها مكونا من بضع قرى ولا تختلف كثيرا عن الضياع الخاصة . وحتى معظم الأقطار الكبيرة كانت مؤلفة الى حد كبير من تجميع ممتلكات لا رابط بينها مع قدر كبير من الفجوات الأجنبية والحدود التي لا تتفق مع مطالب الادارة الحديثة . ولم يكن لدى معظم السكان أى شعور قومي

(١) ر . بتلر « جذور الاشتراكية الوطنية » ١٩٤١ ص ٤٣ .

حقيقى . كما أن الاشتراكية فيما مضى كان لا يمكن تصورها دون توسع بصورة دورية ، ويتضح ذلك من « طوبيا » توماس مور التى لعلها كانت مصدر الوحي لفيلسوفه . فشعب « طوبيا » ، برغم نفوره من الحرب ، اعتبر غزو المجال الحيوى لتوطين الفائض من سكانه فى البلاد المتخلفة أمراً مشروعاً (١) . بيد أن مور يقترح هذه السياسة بصفة دورية تبعا لزيادة السكان ، فى حين يرفض فيلستيه أى توسع جديد بعد الحصول على الاقليم المطلوب .

وفى كتابات مختلفة فى هذه الفترة عرض فيلستيه عدة خطط أخرى مثل تأليف « عصابة أمم » بل وحتى خطة لدولة عالمية موحدة . كما أعلن أيضاً أنه من المستحيل أن تعلن أمة حرة الحرب لمجرد الحصول على أسلاب ، فان ذلك لا يجدى أصلاً . ان من يشعلون الحروب هم عدد قليل من المضطهدين وحتى ذلك الوقت كان ينظر الى الدولة باعتبارها شراً ضرورياً ، وتصور ذوالها تدريجاً مع نمو حرية الفرد . بيد أنه فى كتاباته المتأخرة أكد أن مصير الفرد أن يخضع ، بل أن يضحي بنفسه ، للمجتمع . ولكن ذلك لا يعنى أن الدولة أو الأمة فى صراع لا حل له مع البشرية . فقيمة الجنسية فى نظره إنما يحددها السعى الى الأهداف التى تشترك فيها كل الأمم . وفى سنة ١٨٠٤ أعلن أن وطن كل أوربى متمدين حقيقة هو أوروبا ، وبخاصة تلك الدولة التى هى أكثر الدول مدنية ، وتحدث فى ازدياد عن الوطنية التى ترتبط بالتربة . وبعد ذلك بعامين حدد العلاقة بين النزعة العالمية والوطنية . ففكرة الانسانية سامية ، ولكننا لا نستطيع أن نخدمها الا فى وطننا . ومن ثم فان الوطنية هى العمل على تحقيق الخير ، بين أمة المرء أولاً ، ثم نشره بين البشر عندما تصبح الوطنية نزعة عالمية . ووضع وطنية أثينا الواضحة ذات النزعة العالمية فوق الوطنية الضيقة الجامدة فى دولة أسبرطه العسكرية .

وفى هذه الأثناء كان نابليون يصعد كالشهاب فى أوروبا . وقد قاومت النمسا وبريطانيا وروسيا مظامعه بشدة وحاربتة المرة تلو المرة .

(١) يعتقد هرمان أونكر فى مقدمة لطبعة ألمانية من « طوبيا » ترجمة جيرهارد ريش (١٩٢٢) أن موراس له علاقة بمشروع توطين المستعمرين الانجليز فى ايرلندا عرض على الحكومة ، ويبدو ذلك من أن بعض العبارات فى « طوبيا » تتشابه مع مذكرة تتعلق بهذا المشروع .

بيد أن بروسيا اتبغت سياسة حياد وبذلت كل جهدها للاحتفاظ بعلاقات طيبة بالدكتاتور بأمل الحصول من وراء رضاه على هانوفر وبعض الأقاليم الأخرى كمكافأة . وكان فردريك وليم الثالث ومعظم وزرائه يكرهون الحرب ويؤمنون بسياسة السلام بأى ثمن تقريبا ، وأهملوا المحافظة على القوة العسكرية والأمن وكانوا يعطفون على الاتجاهات الفرنسية (١) . وهكذا نظرت بروسيا فى هدوء الى نابليون وهو يغزو البلد بعد البلد ويسيطر على قسم كبير من المانيا . وفى النهاية بلغ به الأمر أن جعل جيوشه تزحف عبر الأراضى البروسية ، وعندما احتج الملك طلب نابليون نزع سلاح بروسيا وغزاها وحطم جيشها فى جينا « ١٨٠٦ » . وصارت بروسيا بعد صلح تيليسيت فى نصف حجمها الأول وتعرضت لمطالب مالية فادحة وبقيت البلاد محتلة فترة طويلة .

وكان وقع ما وصل اليه مصير البلد الذى اتخذه فيشته موطنا شديد العمق فى نفسه وجعله يتحول تحولا مذهلا . فحتى ذلك الوقت كان يتصور الدولة مجرد نظام للدفاع عن حكم القانون وتربية المواطنين على الأخلاق ، وبدت الدولة له ، بصرف النظر عن الجنسية ، أفضل من يقوم بهذه المهمة بكفاية .

واذا انهارت دولة تقدمية لسوء حظها السياسى فان ذلك لا يعد خسارة لا تعوض ، لأن دولة أخرى ستحل محلها سريعا .

بيد أن الكارثة التى حاقت ببروسيا وألمانيا علمته أن الدولة فى حاجة أيضا الى القوة ، وعندئذ درس كتابات مكيا فى التى تركت فى نفسه أثرا كبيرا .

وكانت المقابلة بين ظروف إيطاليا فى عهد مكيا فى ألمانيا فى عهد فيشته واضحا .

وفى سنة ١٨٠٧ نشر بحثا يتضمن فقرات مترجمة من مكيا فى ، وكان القصد من تعليقاته عليها أن تكون درسا فى سياسة الدولة لملك بروسيا (٢) .

وفى هذا البحث قبل فيشته وجهة نظر مكيا فى أنه لا وجود

(١) هانز بروتر «Preussische Geschichte» ١٩٠١ المجلد الثالث ص ٣٥٢ - ٣٥٦ .

(٢) فيشته «Machiavell» تحت اشراف هـ شولتز ١٩١٨ . وهـ فراير فى

«Verhandlungen der sächsischen Akademie der Wissenschaften» ١٩٣٦ .

لحكم القانون الثابت بين الأمم ، بل أن بينها حربا مستمرة سافرة أو كامنة . « فكل أمة تريد أن تنشر السمات الطيبة التي تفردت بها على أوسع نطاق ممكن ، وأن تدمج في ذاتها الجنس البشرى كله بقدر ما يستطيع تحقيقه » . وقد غرس الله هذا السعى في الطبيعة البشرية وهو الذى يحدد طابع مجتمع الأمم وانقساماتها وتقدمها .

ويجعل هذا السعى الصراع على مجالات النفوذ حتميا ، حتى اذا سادت أنقى الاتجاهات الروحية وبرغم النيات الطيبة وكانت كل أمة مقتنعة باخلاص بحقها .

ومن ثم فإن الدول مرغمة على الاحتفاظ بقوتها وزيادتها باستمرار اذا أرادت أن تهرب من اندمار . فهي لا تستطيع أن تنتظر ببساطة حتى يهاجم عدو حدودها ، بل يجب أن تبذل عناية فى المحافظة على قوتها وهيبتها عموما .

كما أنها لا تستطيع الاعتماد على وعود الدول الأخرى وتضع ثقنها فى حسن نواياها ، أو تحاول تهدئة هذه الدول بالخضوع لها . فتوازن القوة بين الدول هو أفضل ضمان للسلام . فبين الدول لا يحسم الأمور سوى « حق القوة » والحاكم لا يخضع للصيغ الأخلاقية التى يخضع لها الأفراد . ومع ذلك فإن « فيشته » لم يرد مطلقا أن تكون هناك حربا دائما بين الدول المتمدنة . فالشباب الأوربى يجب أن يحتفظ بقوته الحربية للصراع مع البرابرة ، فى القارات الأخرى ، الذين اعتبر أن مصيرهم على أى الأحوال هو الاندماج فى المدنية الأوروبية ، فى حين يعم السلام الوطن الأوربى . وكان هذا الوصف للعلاقات الدولية متفقا تماما مع الواقع التاريخى لعصره . إذ أن نابليون وسابقيه الجمهوريين كانوا قد اتبعوا سياسة من الغزو بلا تورع ، فضلا على الحروب بين الأسر المالكة فى القرن الثامن عشر . وكان المقصود بهذا البحث أن يكون نداء للعمل فى ساعة حرجة وليس معالجة علمية شاملة للعلاقات الدولية . بالإضافة الى أنه لم يستمر فى هذا الاتجاه من التفكير ، فقد غير الاتجاه فى كتاباته المتأخرة .

وفى سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ ألقى فيشته « خطباته » المشهورة الى الأمة الألمانية . وعزا فيها الكارثة المروعة التى حاقت بألمانيا الى انحطاط الخلق الألمانى ، وبخاصة الى أنانية الطبقات العليا والى عدم تقدمية الجيل الأكثر تقدما فى السن . (١) وعقد كل آمانه ، مثل روسو ، على الطبقات الدنيا

(١) فى موضع آخر يعتبر فيشته من عروق الشرائع منسبين فى السن ويقول « انه لمن الأفضل لسمعتهم الخاصة وللعالم كله أن يموتوا » انظر ليه فىشر ص ٦١٥ .

والشباب الذين لم يفسدوا نسبيًا . بيد أن ما كان يفكر فيه ليس إعادة بناء الأمة الألمانية فحسب . فالشعب الألماني به رساله روحية وأخلاقية كبرى عليه أن يحملها لمصلحة الجنس البشرى . وهي وحدها التي تصلح للقيام بهذه المهمة حيث أنها احتفظت بلغتها الأصلية في حين أن الفرنسيين والانجليز ، الذين انحدروا ايضاً من اصل الماني ، هجروها الى لغات مختلطة جزء منها اجنبى . ويقول فيشته ان الألمان وحدهم لديهم لغة حية وشعبية وخلقة ، أما الأمم الأخرى فقد لحقها العجز في التفكير الدينى والفلسفى وفى الشعر بلغاتها . فمدنيتها مقتصرة على الطبقات العليا ، فى حين كان الشعب محروما من التعليم بلغة تعتبر غريبة على فكره ومشاعره . وقد سرت الى الألمان أنفسهم عدوى الاعتقاد بأن هناك لغة أجنبية وثقافة أجنبية تفوق لغتهم ومدنيتهم . وعزلت الطبقات العليا المتعلمة نفسها عن الشعب باستخدام لغة أجنبية (الفرنسية) بدافع التعالى ، واحتقرت الشعب باعتباره « غوغاء » .

وقد كانت وجهة النظر الخاصة بأن « اللغة الأصلية » خلاقة متأصلة الجذور فى الفكرة الرومانسية بوجود علاقة وثيقة بين اللغة وروح الشعب . اذ كانت فلسفة الاستنارة موجهة أساسا الى الطبقات العليا المتعلمة ، ودعمت بين هذه الطبقات روح العالمية وفضلت لغة عالمية على اللغات المحلية . وعندما بدأ الرومانسيون يجدون الشعب والجنسية ولغة الشعب كان من الطبيعى أن يعزوا قيمة خاصة لكل لغة محلية مؤكدين أنها وحدها يمكن أن تعبر عن روح الشعب . ومن ثم فان اشادة فيشته باللغة الألمانية كان لها مغزى قومى واجتماعى . ويغلب أنه أخذ أفكاره عن تفوق اللغة الألمانية والرسالة العالمية للشعب الألماني من أ.و. شليجل رائد الرومانسية الألمانية . ولكنه كان يعارض الرومانسيين بقوة فى معظم الجوانب الأخرى ، وبخاصة فى أحلامهم باعادة الامبراطورية العالمية التى عرفتھا القرون الوسطى الى الحياة ، وفى كاثوليكيته الجديدة ، والمزيج الذى عرفوا به من الروحانية والحسيه ، واعتقادهم فى رسالة صاحب العبقريه العظيم رجل القدر ، وكذلك فى ميلهم الى الملكية والارستقراطية .

وأهم سمة مميزة فى الروح الألمانية فى رأى فيشته هي تلك الجدية فى الأخلاق والدين التى عبرت عن نفسها فى حركة الاصلاح الدينى والمثالية الألمانية . فضلا عن أن ألمانيا وحدها استطاعت أن تحل مشكلة الدستور الجمهورى الصالح ، وذلك فى مدن الجمهوريات التى قامت على

روح التقى والأمانة والتواضع والايثار التى اتسم بها تجار المدن وحرفيها .

ثم يناقش فيشته طبيعة الوطنية والطابع القومى . وعنده أن الشعب لا يكون شعبا الا اذا كان لديه طابع قومى ، أى الاعتقاد فى مهمة أو رسالة خاصة هى تعبير عن الارادة الالهية . « ان الالماني وحده - أى الرجل الأصلى الذى لم تخنقه القواعد التحكيمية - له شعب حقيقى فى حين أن الأجنبى ليس له شئ من ذلك . ومن ثم فالروح الألمانية وحدها هى التى تستطيع أن تنطوى على حب لشعبها حقيقة ولديها الوطنية الحقيقية » . والفرد باندماجه فى روح الشعب أو الطابع القومى يجعل حياته دائمة ويبلغ الأبدية فى هذه الأرض .

فالوطنية شعور دينى .

ولكن حب المرء لبلاده لا يتعارض مع حب الانسانية . ويعتبر « فيشته » أن الشعب الالماني قد قدر له أن يعيد بناء الجنس البشرى دينيا وفلسفيا وأخلاقيا ، وذلك وحده هو ما يجعل له قيمة خاصة . ولم يهتم بالوطنية العادية والفخر القومى الذى لا يرتبط بالرسالة الروحية للشعب .

ويتحقق خلاص الأمة الالمانية ، والجنس البشرى كله ، عن طريق التربية العامة التى تتركز فى تكوين ارادة نقية غير أنانية قائمة على التفكير ، مع استخدام أفكار بتسالوتزى التربوية وعلى أن تقوم الدولة بتنظيمها . وكان العالم التربوى السويسرى بتسالوتزى ، الذى كان فيشته يكن له اعجابا عظيما ، يريد مساعدة الفقراء عن طريق التربية على أسس واقعية حديثة على هدى ما اقترحه روسسو ، وأكد الاهمية التربوية للمشاهدة الشخصية والعمل اليدوى . وأراد فيشته أن تنظم المدارس على هيئة مجتمعات صغيرة تنفق على نفسها وتتمتع باستقلال ذاتى ويتكون فيها التلاميذ على أساس الايثار والتضحية بالنفس من أجل البشرية .

وخطته التربوية ديموقراطية تماما .

وهو يرفض بشدة النظام الملكى والمركزى فى ألمانيا ، لا بسبب أى تعلق ببيت من البيوت الحاكمة أو تقاليد التعصب المحلى ، ولكن لان التنظيم الفدرالى « لجمهورية الشعوب الألمانية » هو وحده الذى يسمح بالنمو الحر لجميع اتجاهات الشعب .

ويكرر فيشته تحذيراته ضد الأوهام السياسية التي بدت له كريهة وأبعد ما تكون عن الاتفاق مع الطابع الألماني ، وهي سياسة القوة ، المتنكرة في ثوب المحافظة على ميزان القوى ، والمشاركة في التجارة العالمية التي تشجع على الأنانية والحرب والسعى الى السيطرة العالمية . وهو يؤكد أنه ما من شيء تنفر منه الروح الألمانية مثل الامبراطورية العالمية التي تدمر الحياة الروحية وتقضى على نفسها بنفسها ، لأنه لا يمكن ربطها بعضها ببعض الا بالضراوة والقسوة البربرية والأنانية التي لا تتورع عن شيء . فبهذه الطريقة قد يكون من اليسير نهب العالم واشاعة الخراب فيه وسحقه ، ولكن لن يمكن قط اقامة ملكية عالمية جييدة التنظيم . وهو يندد أيضا بالعادة المنتشرة على نطاق واسع من الاعجاب «بصاحب العبقرية العظيم» الذي بيده السلطة ، أى نابليون ، فهو ينطوى على نوع من العظمة ليس ألمانيا . فالنوع الألماني هو الحماسة للأفكار المفيدة للشعوب .

وفي سنة ١٨١٣ اندلعت حرب التحرير التي كان فيشته يتلهف عليها . ولكن حماسة الوطنيين لم تجرفه في التيار ، فهو لم يجدد الحرب أو يثير المشاعر ضد العدو .

وفكر في موضوع ما اذا كانت الحرب قومية حقيقية أو هي مجرد حرب أسرية . فالامة يفترض فيها نظام للتمثيل النيابي الذي يقوم على الحرية والمساواة المدنية والثقة المتبادلة ، في حين ينطوى النظام الارستقراطي على العبودية والاضطهاد واستغلال الشعب .

وكان الأمل يراوده في أن يوحد ملك بروسيا ألمانيا ، ولكن على أن تقوم بعد وفاته جمهورية بلا أمراء ولا نبلاء . وستعود بروسيا ، وهي أكثر الأقطار في ذلك الوقت استنارة ، الى السلام وتقنع باستعادة أقاليمها القديمة . وقال في نفس المشروع أيضا : ان الأمر لا يتعلق بمصير ألمانيا وحدها .

فاذا كانت مصالح ألمانيا وحدها هي موضع الاعتبار فلا فرق بين أن يحكم قسما من ألمانيا قائد فرنسي مثل برنادوت الذي مر على الأقل بتجربة تخيل فيها رؤيا الحرية ، وأن يحكمها نبيل ألماني منتفخ الأوداج وغير متمدين وتملؤه الوحشية المخجلة والعجرفة . وفي مؤلف آخر قال فيشته في سنة ١٨١٣ : ان الهدف النهائي للنمو السياسي هو بلوغ عهد من العدل الشامل .

عهد ينتصر فيه حب السلام على الروح الحربية .

ويكون حكم القانون والعقل هو أول خطوة في تحقيق مملكة المسيح .

وكان فيشته ينوى الاشتراك في الحرب كمبشر بمبادئه ، كما تدرب أيضا في « الحرس الوطني » وان كان يحس بأن استخدام الأسلحة شيء غريب عليه .

بيد أنه سرعان ما راح ضحية لمرض وبائي .

وقد أثار فيشته مثل جميع كبار المفكرين عدة تيارات مختلفة تماما من الفكر ، ولم يكن فكره خاليا من التناقض وعدم الاتساق . وقد أساء بعض دعاة القومية اللاحقين لأفكاره (١) .

ولكن مثله العليا الأساسية كانت تتعارض تماما مع عقلية النزعة القومية الحاضرة القائمة على القوة والهيبة . ويعد مازيني أكثر زعماء القومية الحاضرة اللاحقين شبهاً بفيشته ، والواقع أنه تأثر به كثيرا . بيد أن فيشته لم يكن رجل سياسة ، فهو بصفة خاصة ما كان يستطيع قط أن يوافق على بعض تنازلات بذاتها ، في حين أن رجل السياسة لا يستطيع أن يهرب منها . فقد بنى ، أولا وقبل كل شيء ، مذهبا جديدا يؤمن بقدرة الإرادة البطولية النقية والعقل الواضح على تغيير الجنس البشرى وتحقيق المثل العليا للإنسانية . ولا يضيره أن تلاميذه شوهوا آراءه تشويها شديدا فهذا مصير يشترك فيه مع كثير من الأنبياء .

(١) تمثل الكتابات النازية مثلاً فيشته بوصفه حاقداً على اليهود . وصحيح أنه في بعض كتاباته الأولى ندد باليهود والضباط والنبلاء بعنف شديد لانفصالياتهم بحيث صارت كل فئة منهم دولة داخل الدولة . بيد أنه غير وجهة نظره في اليهود فيما بعد . وعندما انشئت جامعة برلين كان أول مدير منتخب لها . وقد تدخل بقوة بوصفه مديراً للجامعة ضد مناهضة السامية التي كان يدعو إليها قطاع من الطلبة الذين أساءوا معاملته اليهود ودخل في نزاع حاد مع مجلس الشيوخ الذي حاول التخفيف من جرم هؤلاء الطلبة وأراد أن تكون العقوبة بسيطة . انظر ماكس «Geschichte der Universität Berlin» ١٩١٨ . رج . ليفي «Fichte und die Juden»

وقد ظل فيشته طوال حياته الأكاديمية يحارب بلا هوادة العادات الوحشية والفساد بين الطلبة الألمان « السكر والعريضة والمبارزة والارهاب .. الخ » .. وجعله ذلك يتورط في نزاعات كبرى مع الطلبة وحمايتهم . ومع ذلك فإن تعاليمه في هذا الجانب أيضا أدت إلى آثار لم يكن يقصدها . ويقول تريتسكه إن فيشته مسئول إلى حد ما عن « البربرية النبيلة » لدى الألمان . انظر تريتسكه في «Historische und Politische Aufsatz» ١٨٦٥ ص ١٤٩ .

١٦ - مذهب هيغل في الدولة وموقفه من القومية .

كان جورج وليم هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) من أهالى دور تمبرج في جنوبى ألمانيا . والتركيب الفريد لفكره ، ذلك المزيج من العقلانية واللاعقلانية ، والراдикаلية والمحافظة ، تبدو فيه صلة الشبه بثقافة موطنه بما تنطوى عليه من خليط من الانسانية العقلانية والاورثوذكسية والتقوى الروحاني ، والايمان بالتقدم وحب الماضى . وقد أثارت لديه الظروف الدينية والسياسية فى بلاده تفكيراً ناقداً منذ وقت مبكر .

وكان يحكم وورتمبرج دوق ، ولكن برلمانها كان له نصيب كبير فى الحكم . وكان يتألف من ممثلين للمدن ورجال الكنيسة البروتستانت ، فى حين لم يكن للنبلاء ممثلون (١) . وقد قارن عضو الهويج (الاحرار) العظيم شارلس جيمس فوكس دستورها بدستور انجلترا . والواقع أن الدستور كان على الأقل يمثل حكم قلة بقدر ما يمثل الدستور الانجليزى برغم أنه كان أكثر بورجوازية من الدستور الانجليزى بكثير .

ودرس هيغل علوم اللاهوت البروتستانتية والفلسفة وصار يكن اعجاباً عميقاً بالثقافة الاغريقية والحياة انعاماً عندهم، وبعقلانية الاستنارة وبفلسفة كانت وبالحماسة للثورة الفرنسية (٢) . وكان بين زملائه أكثرهم حماسة فى الحديث فى المطالبة بالحرية والمساواة . وقد بدت له الدولة الحديثة طغياناً يضطهد الفرد فى حين أن المواطنين فى الدولة المدنية الاغريقية اخضعوا أنفسهم طواعية للمجتمع . وأوحت اليه كل هذه المؤثرات بموقف ناقد للمسيحية الأرثوذكسية وكل فكرة الحياة فيها ، وزادت معارضته عندما عرف مذهب سبينوزا فى وحدة الوجود . وقال : ان تعاليم المسيح قد أفسدت اليهودية والكنيسة اللتان أدخلتا أفكاراً شرقية على عقول الشعوب الأوروبية وبذلك أفقدتاها جنسيتها . والعقائد

(١) ك. ويلمر «Württembergische Geschichte» ١٩٠٩ ص ١٢٧ .

(٢) ويلهلم ديلتى «Die jugen geschichte Hegels» ١٩٠٦ . وفيما يتصنن بهيغل بصفة عامة انظر كونوفيسر «Hegels Leben werke und Lehre» مجموعتان . وهرمان جلوكتر «Hegel» مجلدان ١٩٢٩ . ولا. روزنكرانز «Hegel als deutscher Nationalphilosoph» ١٨٧٠ وبصفة خاصة النقد الذى جاء فى كتاب رودلف هايم «Hegel und seine Zeit» ١٨٥٧ . وتوجد الكتابات السياسية فى «Hegels Schriften zur Politik und Rechtphilosophie» تحت اشراف ج. لامون ١٩١٢ . وفيما يتعلق باتجاهات هيغل السياسية انظر فرانز روزنفاييم «Hegel und der Stät» ١٩٢٠ .

المسيحية الدوجماسية نتاج عهد زائل حاول أن يهرب من هذا العالم الى عالم من ورائه . أما الأديان القديمة فانها كانت عقيدة الشعوب الحرة التي جسدت أفكارها الأخلاقية في آلهتها ، انها كانت تشتعل حماسة للوطن ، في حين أن المسيحية جاءت نتيجة ذبول الحرية والجنسية ، ولعلها لا تتفق مع الدولة . وكان كثيرون من مفكرى عصر الاستنارة يعتقدون آراء مماثلة ، وقد تأثر هيجل بصفة خاصة بجيبون . كما أن مونتسكيو وهررد أثارا احساسه التاريخى ، وأشعل روسو وشيللر وفيشتة لديه الرغبة فى العمل من أجل نظام اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الايمان بكرامة الانسان وخيره وقدرته على الخلق وتكون دعامته دينا وأخلاقا جديدة متحررة من العقائد الجامدة التى عفى عليها الزمن وتتفق مع حياة المسيح والمثل المجيد الذى ضربته اليونان وتعاليم سبينوزا وشافيتسبرى وكانت .

وبهذه الطريقة اتخذ هيجل منذ وقت مبكر مذهب وحدة الوجود الغيبى فكرة أساسية فى فلسفته . فقد بدت له الدنيا كلها تعبرا عن الروح ، ككائن عضوى تام تتفتح فيه الأفكار السكامة فى الروح بحركة جدلية ، فكل فكرة لابد أن تلد نقيضها وأن تتحد معه مرة أخرى فى فكرة أعلى . وعلى هذا الأساس بنى هيجل بناء فخما ساحرا من المفاهيم التى جمعت فى أسلوب جدلى الاستنارة والرومانسية ، وهدفت الى الحكم المتناسق لروح العقل والحب فى العالم (١) .

والفلسفة التى ترى كل شىء تعبرا عن « المقدس » تنجح بطبيعة الأمر الى انكار المفهوم المألوف للأخلاق ، وبخاصة تطبيق المعايير الأخلاقية العادية على التطور التاريخى . فضلا عن أن معظم معتنقى وحدة الوجود من الميتافيزيقيين لا يهتمون كثيرا بالتاريخ . بيد أن هيجل كان من كبار دارسى التاريخ والسياسة ، وكانت لديه معرفة واسعة جدا بوقائعهما وأعمق الفهم لمشاكلهما . وقد كان من أثر حكم الارهاب فى فرنسا أن قضى بسرعة على حماسه للثورة فى شبابه . ولكنه لم يفعل مثلما فعل معظم الرومانسيين من تمجيد الماضى والاشادة بالقوى التى أطاحت بها الثورة . اذ أقنعتة ملاحظاته الخاصة فى سويسرا والمانيا ودراساته بأن الحكم الملكى المطلق وحكم القلة الفيودالى ليس لهما تبرير ، وأن الديموقراطية لا يمكن تحقيقها فى الأمم التى لم تتعلمها قط .

(١) فيما يتصل بالحب انظر هايم ٩٨ - ١٠١ .

وفى ذلك الوقت بزغ نجم نابليون بونابرت من بين الانقراض التى انتهت اليها الثورة • وحطمت انتصاراته البناء الأوربى كله وانهارت الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت وطأة ضرباته •

وقد فكر هيجل فى دمارها وسجل أفكاره فى مقال هام (١٨٠٢) يقول فيه : ان ألمانيا لم تعد دولة • فالدستور السياسى الألمانى ينطوى على كثير من السخافات التاريخية وعدم تنظيم شديد وأقصى درجات الضعف • والسبب فى نهاية المطاف هو الرجل الألمانى العنيد الذى يسعى للحرية ، وعدم القدرة على اخضاع بعض المصالح بذاتها للمصلحة العامة • وقد حول الدستور الشئون العامة الى تيه من الحقوق الخاصة التى أدت فيما بعد الى قيام العديد من الامارات الصغيرة ذات السيادة • والدولة لا تستطيع البقاء اذا لم تكن لديها قوة الدفاع عن نفسها • ولكن هيجل لم يعجب بالدولة القوية لذاتها • وقد بدت له الدول التى سادت فيها المركزية أكثر مما ينبغى مثل فرنسا الجمهورية وبروسيا ذات الحكم المطلق مجرد آلات تنظم فيها الشرطة كل شئ ولا تترك حرية للفرد • وكان هيجل يرغب فى أن يتمتع المواطنون بحكم ذاتى فى جميع الشئون التى لا تمس الأمن العام ، حيث أن اشتراكهم المباشر فى الحكم كما كان الحال فى المدن الاغريقية ليس ممكنا فى الدول الحديثة الكبيرة • ولكن النظام النيابى الجرمانى لا غنى عنه من أجل الحرية •

وقد تأثر هيجل مثل فيشته بحجة مكيافللى - أن علاج الانحلال السياسى والأخلاقي للأمة لا يمكن أن يتم الا « بواسطة » دكتاتور قوى • ولا سبيل الى وحدة ألمانيا الا باستيلاء بروسيا أو النمسا على السلطة العليا • وكان هيجل يفضل النمسا ، أساسا لأنها احتفظت بمجالسها الاقليمية القديمة (دايت) وأنها كانت أقل خطرا على الاقطار الصغرى ومنحت الشعب حقوقا وفتحت الطريق أمام الجميع للوصول الى أسنى المراكز • وكانت بروسيا قد أخدمت الجمعيات النيابية وعقدت صلحا منفصلا مع فرنسا وهجرت كل الألمان الآخرين وأثارت بينهم نفورا شديدا • ولم ينشر هيجل هذا المقال لأن الأحداث سرعان ما سبقته •

وكان روسو قد علم هيجل ان الأخلاق والحرية توجد بالدولة وعن طريق الدولة فحسب وأنهما والارادة العامة شئ واحد • فالحرية هى الخضوع الارادى لهذه الارادة العامة التى تتضمن الارادة الحقيقية لفرد خالية من خداع الانفعالات والانانية • وكانت الثورة قد أخفقت فى

تحقيق هذه الارادة العامة وأدت الى الفوضى . وبدا الآن نابليون كمخلص للمجتمع ، وريث المبادئ العظيمة للثورة ، وتجسيد العقل والارادة العامة . وصحيح أن سياسته لم تكن متفقة مع القواعد المألوفة للأخلاق الخاصة ، ولكن من الجلي أن الدولة لا تخضع لهذه القواعد ، فهي التعبير الذاتى للعقل الكبير الذى يلهم العالم ، وأدواته هم عظماء الرجال الذين يسوقهم القدر .

وعندما حطم نابليون بروسيا سنة ١٨٠٦ فى معركة جينا كان هيجل فى جينا ونهب الجنود الفرنسيون كل ماله من مال . ورأى الامبراطور راكبا عبر المدينة وأذهله ، كما كتب فى خطاب له ، أن يرى روح العالم على ظهر جواد . ثم أضاف : « ان الجميع يرجون الآن ، كما فعلت أنا من قبل ، التوفيق للجيش الفرنسى ، وبالنظر للفارق الضخم بين قادته وجنوده وبين أعدائهم لا ريب فى أنهم سيوفقون . ومن ثم فان مكاننا سرعان ما سيتحرر من هذه الطغمة » . وكتب فيما بعد أن الانتصار الفرنسى « هو الدليل المقنع على أن المدنية تهزم الفجاجة ، والروح تنتصر على الرياء والحداع » وهناك خطابات أخرى تثبت عطفه على الغزاة الفرنسيين .

وعاش هيجل من ١٨٠٧ الى ١٨١٦ فى بافاريا ، كمحرر لجريدة يومية فى مبدأ الأمر ، ثم فى خدمة الحكومة كناظر مدرسة . وكان نابليون قد وسع بافاريا جدا وجعلها مملكة ، وكانت من أخلص البلاد التابعة له . وانتشرت فى ذلك الوقت بصورة رسمية نظرية أن البافاريين ليسوا من أصل ألماني بل من السلت ، ومن ثم فهم أقارب الفرنسيين . وكان عمل هيجل كمحور هو أساسا إعادة طبع الأنباء ومقالات الدعاية من صحيفة « المونيتور » فى باريس ، وهى صحيفة نابليون الرسمية ، بكل ما تنطوى عليه من تمجيد للامبراطور . وقد هاجم هيجل نفسه معارضة الألمان لنابليون واعتبرها « وطنية شمال ألمانيا » . وليس هناك أى شك فى أن ولاءه للنظام النابليوني كان مخلصا تماما . فهي فى نظره قد حفظت الأفكار المعقولة فى الثورة الفرنسية ونمتها ، وبخاصة «حقوق الانسان» ، وتساوى الفرص لكل مواطن تبع لما يستحقه .

وكان يتلهف على تطبيق مجموعة قوانين نابليون فى ألمانيا ودعا الى القيام بدعاية واسعة فى كل شئون الدولة ، كما كان الحال فى إنجلترا وفرنسا ، لتربى الشعب على الوطنية . بالاضافة الى أنه كان يريد بحماسة أن يمنح الشعب نوعا من التمثيل البرلماني على نمط الدساتير التى منحها

نابليون في فرنسا وإيطاليا واستفاليا (١) . وكانت هذه البرلمانات تتألف من ممثلي أصحاب الأراضي والتجار والصناعيين والمهن الثقافية ، وكانت تعتمد على الحكومة اعتمادا كليا . وقد أدخلت حكومتا بافاريا وورتمبرج عدة اصلاحات أثارت مقاومة عنيدة من جانب الطبقات المتميزة، التي أثارت شعارات أن الحرية والتقاليد ودين الشعب معرضة للخطر . وقد انحازت الجماهير العريضة في البلدين الى جانب الطبقات المتميزة بصورة عنيفة ، برغم أن الاصلاحات المقترحة كانت بالتأكيد لمصلحتها . وفي هذه الصراعات دافع هيغل عن قضية الحكومتين اللتين كانتا تمثلان في نظره التقدم الحقيقي .

وقد حدث انتصار نابليون في نفس الوقت الذي وضع فيه هيغل المذاهب الأساسية في مذهبه نهائيا . وكان الوقع العميق الذي تركه نابليون في عقل هيغل هو خليفة تفكيره ، وبخاصة في فلسفة التاريخ والسياسة . ولم يغير هيغل ، كما لم يغير جوته ، موقفه الأساسي قط ، وفي سنة ١٨١٣ عندما أقل نجم نابليون لم يصدق هيغل مطلقا امكان حدوث ذلك . وقد تحدث في سخرية عن « التحرير » الذي حمل من أجله الشعب الألماني السلاح ، وحاول اقناع الشباب من أصدقائه بعدم الانضمام الى الجيش (٢) . وعندما هزم الامبراطور نهائيا أحس هيغل باخفاق عميق ، وفسر سقوطه على أساس أن بعضه يرجع الى تدمير الرجل العظيم لذاته ، بعد أن حقق رسالته ، وبعضه الى انتصار الجماهير التافهة على العبقرية .

وبعد هزيمة بروسيا وضع مصلحون كبار، مثل : شتاين وهاردنبرج والتنتشتاين وهيمبولت أسس بروسيا جديدة تلهمهم الأفكار التقدمية ومتأثرين الى حد كبير بالنموذجين الانجليزى والفرنسى . وبدا أن بروسيا صارت أكثر أقطار ألمانيا استنارة ، وكان هناك أمل في أنها ستطبق أيضا الأساليب البرلمانية ، ولكن قوى الرجعية كانت قوية أيضا ، وقد انتصرت في النهاية . وفي سنة ١٨١٧ عين هيغل أستاذا للفلسفة في جامعة برلين وسرعان ما بلغ ذروة شهرته . وأصبح يعتقد الآن في رسالة بروسيا في تحقيق الأفكار السياسية التي كان قد صاغها في الفترة السابقة .

(١) لقد اعتبر دستور مملكة وستفاليا أكمل ما أنتجته سياسة نابليون ، انظر ل . فيشر « دراسات في سياسة نابليون في ألمانيا » ١٩٠٣ ص ٢٤٤ .
(٢) روزنفايج المجلد الثاني ص ٢٧ .

ولم يكن للجنسية في فكر هيجل نفس المغزى الذى لها في فكر فيشته ، فالدولة هى التى يتجسد فيها العقل والأخلاق الموضوعية . بيد أن الفيلسوف كان مدركا تماما لأن روح الدولة تحدد لها الفردية القومية ومرحلة نموها . وهدف الدولة هو تحقيق « العقل » كما تحدده العوامل الطبيعية والتاريخ والتكوين الاجتماعى ، وليس « العقل » كفكرة مجردة . وليست الدساتير والقوانين هى التى تضمن تحقيق «العقل» ، بل روح الشعب كلها . وكانت فكرة تدخل الدولة بصورة مطلقة تحكيمية ، أو سياسة القوة والهيبة الطموحة بعيدتين عن تفكير هيجل ، فقد علم أنه فى الدولة المتمدينة لا يمكن أن يكون التشريع سوى تنمية القوانين القائمة ، وأن ما يطلق عليه القوانين الجديدة يجب أن يقتصر على تحديد التفاصيل والحالات الخاصة التى يكون السبيل قد مهد لها من قبل أو فصلت فيها المحاكم فعلا بصورة مؤقتة . والدولة تحتاج الى القوة فى أغراضها ، ولكن هيجل لم يعتبر القوة هدفا فى ذاتها . ولم يكن لديه اهتمام خاص بقيام وحدة سياسية وثيقة لألمانيا أو بقوتها . ولكنه آمن بأن رسالة الشعب الألمانى هى قيادة العالم فى الفلسفة .

ولقد كانت الدولة فى فكر هيجل كائنا عضويا روحيا وتعبيرا عن «ذكاء العالم» ومن ثم فإن لها سلطة وجلالة قدسية . وهى لا تخضع لقواعد الأخلاق البورجوازية المألوفة ولكن أهدافها تجسيد الروح الأخلاقية وحرية الأفراد وإرادتهم الأساسية . فغرض الفرد هو أن يعيش حياة كونية ، أى أن يعيش فى اتصال عضوى مع جيرانه . وصحيح أن دولا كثيرة لا تحقق هذا الهدف تحقيقا كاملا ويشوه نشاطها الخطأ والحوادث التاريخية . بيد أن الدولة لا تعتبر منظمة حقيقية الا عندما يتحالف هدفها الكونى مع حرية الأفراد الكاملة ورفاهيتهم . فالدولة التى تكبت حرية مواطنيها واهتمامهم هى قلعة بنيت فى الهواء . اذ أن مجرد القوة الخارجية لا فعالية لها فى المدى الطويل (١) . وليست إرادة أغلبية الشعب بالضرورة هى الإرادة العامة الحقيقية . فالشعب بدون تنظيم الدولة كتلة لا صورة لها

(١) « الأخلاق عند هيجل » منتخبات مترجمة من كتابه «Recht philosophie» بقلم ج . ماكريد ستيريت ١٨٩٣ ص ١٨٩ و ١٩٤ و ٢١٤ . وقد استخدمت هذه الترجمة فى أماكن أخرى أيضا . انظر كذلك هيوريون « نظرية الاخلاق عند هيجل » ١٩٢١ ص ٢٢٠ و ٢٢٨ فيما يتصل بموقف هيجل من الحقوق الأساسية للانسان . وينبغى الا نفعل عن ان هيجل يفهم الحرية على أنها حرية الروح لا حرية الانفعالات التحكيمية اللاعقلانية .

ولا يستطيع التعبير عن ارادته الحقيقية . وهذا هو مهمة ممثلة الذين ينبغي أن يكونوا أحكم الناس فيه . والجمعية النيابية يجب أن تتألف من مندوبين عن الطبقات الاجتماعية المنظمة وينبغي أن يكون لهم نصيب فى تكوين الارادة القومية ، وان كان ذلك لا يتم الا عن طريق المناقشات العامة والنقد . وتتمثل وحدة الارادة فى العاهل ، الذى لديه سلطة مطلقة . ولكن الملك لا يفعل كقاعدة عامة سوى اصدار الأمر . أما الجهاز الرئيسى للتأكد من الارادة العامة وصياغتها عند هيجل فهو « الحكومة » المؤلفة من أشخاص مختارين بعناية ولديهم شعور ضخم بالواجب والمسئولية ومؤهلات علمية وعملية واسعة . انها صيغة حديثة من تصور أفلاطون لحكم الرجال ذوى الحكمة .

وقد بدا هذا النوع من الحكم لهيجل أصلح بكثير لتحقيق المصلحة العامة من النظام البرلمانى الانجليزى الذى لا يؤدى فى نظره الا الى نمو المصالح الاقتصادية أكثر مما ينبغي والتأكيد المبالغ فيه لحقوق الملكية .

وفى مقال عن « مشروع اصلاح الدستورى » وصف الظلم والفساد اللذين كانا فى ذلك الوقت يشوهان صورة انجلترا السياسية والاجتماعية . وقد اعترف بأن اصلاح الانتخابى المقترح سيجعل الأحوال أفضل ، ولكنه ينطوى من ناحية أخرى على خطر الديمقراطية التى يمكن أن تؤدى بسهولة الى الثورة .

وللسيادة المطلقة أثر حاسم أيضا على العلاقات بين الدول المختلفة . فليس هناك أساس ثابت للقانون الدولى ، والحرب هى الوسيلة الوحيدة لتسوية النزاعات الخطيرة بين الدول . بالإضافة الى أن هيجل يعزو الى الحرب وظيفة انعاش الأخلاق الموضوعية والوطنية ، لدى المواطنين ، التى تعرضت للخطر بسبب طول فترة السلام وسيادة المصالح الأنانية . وأشار الى ما ذكره جيبون عن أثر عصر الأنطونين على الطابع الرومانى . وقد قال جيبون انه مما لا شك فيه أن هذا العصر كان أسعد فترة فى تاريخ البشر وأكثر فترات رخاء ، ولكن السلام الطويل والحكومة الموحدة أدخلت أيضا سما بطيئا وخفيا فى عصب حياة الامبراطورية وجرد طابع الشعب من العزيمة . وقد عرض آدام فيرجسون أيضا ، الذى درس هيجل بعثه «مقال عن تاريخ المجتمع المدنى» ، فكرة أن روابط المجتمع تنهار أو تضعف بدون الحرب .

ولكن برغم أن هيجل اعترف بفائدة الحرب فى اثارة الوطنية

والرجولة أو تقويتها فانه لم يكن بأى حال متحمسا للحرب أو للمجد والغزو . ولم تكن فكرته عن الوطنية من النوع البطولى . فهو يعرف الوطنية بأنها نشاط متناسق مع عادات الدولة وأنظمتها وبأنها ثقة فى الدولة ، تصل الى درجة البصيرة المثقفة الى حد يزيد أو ينقص . ويستطرد قائلا : اننا لا ينبغي أن نفهم الوطنية على أنها أعمال وتضحيات غير عادية . فهى أساسا انجاز الواجبات اليومية للمواطن . ولكن لما كان الناس يجدون أنه أسهل عليهم ان يكونوا ذوى شهامة من أن يكونوا عادلين فانهم يقنعون أنفسهم بسهولة أن لديهم وطنية بطولية لكى يوفروا على أنفسهم وطنية العمل اليومى .

وكان من ثمار عمل هيجل فى برلين فلسفته فى التاريخ التى لعلها أبعد أعماله أثرا فى عصره وفى الأجيال التالية . والتاريخ فى نظره يتألف من تطور « روح العالم » نحو وعى متزايد باستمرار بالحرية ، أى « الحرية الروحية » . ويظهر فى تطور العالم تقدم منتظم من حكم الغرائز المظلم الى حكم العقل الواضح وتتم هذه العملية بترتيب منطقى ، ولكن تدفعها الى حد كبير قوى لا عقلانية . أى أن « روح العالم » تستخدم الانفعالات البشرية لتنظيم العالم على أساس عقلانى بصورة متزايدة باستمرار . وهذا التناقض طبعاً مجرد صيغة جديدة للفكرة القديمة من أن الله يسمح بوجود الشر لتحقيق خطته . والأبطال العظماء بصفة خاصة مثل نابليون ، يعملون بدافع من طموحهم كأدوات غير واعية « لروح العالم » ويحققون أيضاً الارادة الحقيقية لشعوبهم . ولكل شعب روحه المتميزة التى تسرى فى مدنيته كلها ، وهى نتاج الجو والتربة والجنس والدين والتنظيم السياسى والاجتماعى . فضلا عن أنه فى كل عصر يتفوق شعب بذاته على كل الشعوب الأخرى عن طريق تحقيق مستوى أعلى من العقل ويبدو ممثلاً « لروح العالم » فى عصره . وليس للشعوب الأخرى حقوق قبل الشعب القائد ، الذى يسيطر على العالم ولكنه يسقط بعد أن يحقق رسالته ويحل محله فى قيادة العالم شعب آخر . ومنذ نهاية العالم القديم تحتل الشعوب الجرمانية التى تضم معظم الأمم الحديثة مركز الصدارة ، وتتصدرها الأمم البروتستانتية وبخاصة بروسيا . بيد أن ذلك لا ينطوى على ادعاء بالسيطرة السياسية على العالم ، اذ أن تأملات هيجل فيما يتصل بكثير من الأحداث التاريخية ، وبخاصة صعود الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، لاتدع مجالاً للشك فى أنه اعتبر سياسة التوسع على نطاق كبير كتدمير للذات . فقد بدأ الرومان كدولة تقوم على السلب ، وحدد ذلك معايير دولتهم كلها ، ونتج عن ذلك تلك الروح

المجردة التى وصفها هيجل بأنها تراث الرومان المميت فى العالم الحديث وبخاصة فى المدنية الفرنسية .

وتتضمن فلسفة التاريخ هذه عدة أفكار عميقة وصيغ باهرة . بيد أن الحجج التى يسوقها هيجل لا تؤيد نظرياتها الرئيسية ، وكثيرا ما كانت هذه الحجج مجرد تلاعب سفسطائى بالألفاظ . ولكنها مع ذلك أثرت كالسحر فى كثير من الفلاسفة والعلماء والكتاب فى جميع أنحاء أوروبا . وبرغم أن هيجل لم يكن من دعاة القومية فإن بعض تعاليمه أسهمت فى ظهور الأفكار التى يتألف منها لب النزعة القومية ، مثل تقديس الدولة ومذهب سمو أخلاقياتها ومحو العقل الفردى والأخلاق والمصالح الفردية ، والاشادة بالحرب وبالسوبرمان ، وفكرة الأمم ذات الرسالة المقدسة . ومن الناحية الأخرى كانت فلسفة هيجل لا تتفق مع المعتقدات الأساسية فى النزعة القومية . فقد كان يحكم على الأمم بدرجة العقل التى بلغت دولها ومدنياتها ، وكان بعيدا عن التطلمات القومية الألمانية فى عهده كما نبذ الرومانسية السياسية بشدة . وكانت البيروقراطية العليا ، التى بدت له أداة الإرادة القومية ، غير محتمل فى ذلك الوقت أن تشجيع النزعة القومية العدوانية ، بل انها حاربت الحركة القومية الألمانية ، وقد حذب هيجل هذا الموقف تماما .

وكان فكر الفيلسوف يتضمن بدورا نمت فى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف . فقد جمع بين عناصر محافظة وتحررية وكان جوهره هو الاعتقاد فى النمو العضوى البطئ المستمر للعادات والأنظمة الصالحة . وحتى فى شيخوخته حافظ هيجل على عادة الاحتفال كل عام بيوم سقوط الباستيل بزجاجة من الخمر الطيب ، وتظهر فى تعليقاته على نشوب الثورة فى « تاريخ الفلسفة » عواطف عميقة .

وكان بين تلامذة هيجل محافظون وأحرار وراديكاليون ، واعتبر كل فريق منهم نفسه المفسر الحقيقى لتعاليم الأستاذ . بيد أن الراديكاليين سرعان ما تفوقوا وأثروا فى رأى العام أكثر بكثير من الباقين .

وكان بينهم علماء مبرزون هاجموا الأسس التاريخية للمسيحية ، فى حين نقد آخرون منهم الأخلاق المسيحية ودلالاتها السياسية . إذ أن مذهب الوجود يطمس الفرق بين الخطأ والصواب (١) . وصار كثير من

(١) انظر نقد اکتون للهجلى فى كتاب أولريخ نواك .

١٩٣٥ ص ٧٠ - ٧٣ - ١٠٧ - ١٤٣ - ١٥٨ - ١٨١ .

«Geschichtswissenschaft und Wahrheit nach den Schriften von John Dalberg-Acton»

المثقفين الألمان اما فرديين متطرفين ، مثل : شتيرنر ونييتشه ، وكرسوا أنفسهم لمذهب السوبرمان ، أو صاروا جماعيين متطرفين ، وجعلوا من العنصر أو الأمة أو الطبقة آلهة . وقد اختفى سحر أفكار هيجل بصعود العلوم الطبيعية وبعوامل أخرى ، وأعقب دمار كل مذهبه المثالي الشامل ازدهار عام للمثالية والفلسفة ، ومذهب النجاح وسباق القوة المالية أو العسكرية . واستخدم كارل ماركس ، أحد تلامذة هيجل ، صولجان الجدل السحري الذى اخذه عن استاذه وحول تفسيره المثالى للتاريخ الى تفسير مادي .

١٧ - الرومانسية والسياسة

نما الفكر الرومانسى فى الفن والحياة فى عصر الاستنارة كتيار سفلى فى أول الأمر تحت سطح من العقلانية ثم تمرد على سيطرتها مع الوقت (١) . وفى حين كان العقلانيون يطالبون بتحرير عقل الفرد من أغلال الماضى التى علاها الصدد ، تاق الرومانسيون الى حرية الخيال والعواطف والانفعالات . وقد كرسوا سعيهم فى أول الأمر لاصلاح الشعر ثم وجه بعد ذلك ضد متواضعات المجتمع أيضا ، ثم امتد أخيرا الى السياسة . وأصبح روسو هو لواء الرومانسية السياسية .

ومن وجهة النظر الاجتماعية تنطوى الرومانسية على تمرد من الشباب ضد الشيخوخة وعلى رد فعل من المثقفين ضد المتواضعات المصطنعة التى تقوم عليها المجتمعات والمدنية وحنين الى نعيم الرجل الطبيعى المفقود ، وان كان كثيرون من الرومانسين ليسوا من السداجة بحيث يصدقون أن هذا النعيم وجد حقيقة فى أى وقت من الأوقات . ومع ذلك فقد أحبوا أن يتوهموا وجوده ، أو « الأسطورة » على حد قول خلفائهم الحديثين . فمأساة الثورة الفرنسية قضت الى حد كبير على الاعتقاد فى الخير الطبيعى فى الانسان وفى قدرة الأمم على تحقيق خيرها . وسرعان ما أثار غزو نابليون وسيطرته الاحساس بالجنسية والطموح القومى فى جميع أنحاء أوروبا .

وتحولت الرومانسية ، التى كانت قد بدأت كمذهب ثورى ، الى قوة محافظة ، بل ورجعية الى حد كبير فى السياسة على الأقل .

(١) فيما يتصل باصل الرومانسية أنظر بول فان بيجم، «Le mouvement romantique» «Le preromantisme» ١٩٢٣ . و ج . ر . روبرتسون «دراسات فى أنواع النظرية الرومانسية فى القرن الثامن عشر» ١٩٢٣ .

وكثيرا ما رأى الملاحظون السطحيون الرومانسية فى هذه الصورة الأخيرة فحسب . وحاول آخرون أن يعثروا على خطة من المذاهب المتسقة تتميز بها ، ولكن ليس هناك تعريف على أساس مذهبى محدود يمكن أن يشمل كل الظواهر التى تندرج تحت هذا الاسم . ومن الجلى أن الرومانسية هى مجرد نمط سيكولوجى يجمع بين السعى الانفعالى نحو الحرية العاطفية وخيبة الأمل فى العقل الانسانى ، ومحاولة التغلب على النتائج المتشائمة والفوضى الناجمة عن هذه التجارب . وتستطيع هذه العقلية لدى المثقفين الذين آذاروا ظهورهم للعقل ، والتى تبحث فى يأس عن مذهب ما ، أن تعتنق أى برنامج سياسى تقريبا . ومن ثم فإن الرومانسيين يظهرون عادة خليطا من الاتجاهات غير المتناسقة مطلقا وتغيرات فجائية فى الأيديولوجية ، كما يعكسون أيضا الاختلافات فى الاتجاهات السائدة فى الأيديولوجيات القومية .

ولم يكن معظم الرومانسيين سياسيين عمليين أو دارسين جادين لعلم السياسة . اذ كانوا فى الغالب شعراء ونقادا أدبيين وفلاسفة ، أو مثقفين يعملون بمهنة أخرى ويكتبون فى السياسة عرضا . وقد بدأت الحركة الرومانسية فى الأدب كاحتجاج ضد القواعد الصلبة للكلاسيكية وضد العقلانية الباردة التى تكتب حرية الخيال والعواطف . وكان الرومانسيون يكرهون أكثر من ذلك المجتمع المتحذلق والأفكار البورجوازية عن الحياة السعيدة الفاضلة . ان ما كانوا يتوقون اليه هو الغريب والغامض واللاعقلانى والخيالى ويأملون الحصول عليه فى البلاد الأجنبية والشعوب البدائية ، فى الطبيعة والانسان البريئين من الفساد ، وفى الأطفال والشباب والفلاحين الذين لم يفسدوا ، وفى المنبوذين من المجتمع وفى أحط طبقاته وفى العصور الوسطى ، فى الأناشيد القديمة والقصص الخرافية والاداب الشعبية الأخرى ، وفى عصر ذهبى طوبائى فى الماضى أو المستقبل ، وفى النساء المتحررات وفى التصرفات غير المألوفة ، وفى أنتصوف وفى العاطفية المختلطة بالسخرية والتهكم على الذات . وكان العقلانيون لا يصفون أية قيمة الا على الأفكار الأبدية المتماثلة فى جميع الأمم وكل الأزمنة . أما الرومانسيون فوضعوا الثقل على الفردية القومية أو التاريخية أو الشخصية وعلى السمات المتميزة فى الشخصية الفريدة . وفى حين أن العقل المحلل ينجح الى تصور المجتمع والطبيعة كالات ، كان الرومانسيون يحبون وصفهما باعتبارهما من الكائنات الحية . وبدت عقلية الرجل المتوسط . وأخلاقياته للرومانسيين كشيئين . وقد أشادوا بالحماسة والبطولة والعبقرية الخلقية لدى السوبرمان الذى يرتفع فوق التزامات

الأخلاق العادية • وكان كثير من الرومانسيين المشهورين في شبابه
حليعين ومستهزين تماما ، في حين مجد غيرهم - ممن كانوا أشخاصا
خجولين وضعفاء - الحرب والقسوة والتحرر من كل قيد أخلاقي • وقد
منحهم مذهب وحدة الوجود وعبادة قوة الطبيعة المقدسة رداء ملائما ، وكثيرا
ما انتهى نموهم « بالعدمية » الكاملة واليأس الشامل ، ثم تحولوا فجأة
فهاجموا ونددوا بكل صور الفردية وأغرقوا شخصيتهم في الجماعة
باحثين عن ملجأ أما في الكنيسة أو التصوف الديني أو في مذهب الدولة
أو في دين النزعة القومية •

وكان بين الرومانسيين ثوريون ورجعيون ، ومؤمنون بجلالة الشعب
أو بجلالة الملوك ، ومجدون للتعصب المحلي الفيودالي أو دعاة نظام
اشتراكي جديد ودعاة الجنسية ودعاة الاخاء العالمي • وكان أقل المذاهب
قبولا لديهم هو التحررية ، وبخاصة الديموقراطية التحررية • فهذا
النظام الأخير يقوم من ناحية المبدأ على العقل والتفاهم والتسامح ، ولكنه
بدا لمعظم الرومانسيين ممثلا لحكم النزعة التجارية الحاسبة •

١٨ - الرومانسية والجنسية في ألمانيا

في الأيديولوجية القومية الأخيرة في ألمانيا صار نوعا من الدوجما
أن الرومانسية هي التعبير الحقيقي للروح الألمانية • وحاول كثير من
الكتاب أن يثبتوا أن الألمان كان لديهم طوال تاريخهم اتجاهات رومانسية
الكتاب أن يثبتوا أن الألمان كان لديهم طوال تاريخهم اتجاهات رومانسية ،
وأن هذه الاتجاهات ، بناء على ذلك ، لا بد أنها تقابل طابعا أصيلا فيهم •
وفي الحقيقة أن نمو التصوف ، الذي يرتبط إلى حد ما بالرومانسية ، وجد
تربة ملائمة في بعض المراحل المعينة في الظروف السياسية والاجتماعية
في ألمانيا وكان له بعض التأثير على اللوثرية • ولكن الرومانسية الحديثة
جاءت متأخرة شيئا ما في ألمانيا (١) ، وقد استوردت في مبدأ الأمر من

- (١) فيما يتصل بالرومانسية الألمانية أنظر رودولف هاب «Die romantische Schule»
الطبعة الرابعة ١٩٢٠ • وأوسكار والزل Deutsche Romantik الطبعة الخامسة ١٩٢٣
ويوليوس بترسن «Die Wesensbestimmung der deutschen Romantik»
١٩٢٦ • وكونفرانكه « تاريخ الأدب الألماني وتأثيره بالقوى الاجتماعية » الطبعة
العاشر ١٩١٦ ص ٣٩٩ • وفردريك مايتكه «Weltbürgertum und Nationalstaat»
١٩٠٥ • ويلهم ميتزجر «Gessellschaft, Recht und Staat in der Ethik des
deutschen Idealismus» ١٩١٧ • وجاكوب باكسا «Gessellschaft, Recht und Staat in der Ethik des
deutschen Idealismus» ١٩٢٤ • وهانز تيمه «Deutscher Staat im Spiegel deutscher Romantik»
A.W. Volksgeist in der Zeit der Romantik ١٩٢٥ • وأوتوبراندت
Schlegel der Romantik und die Politik ١٩١٩ •

الحارج وبخاصة من انجلترا ، ونظرت اليها السلطة برية . ففي ١٧٢٥ قررت الكنيسة في زيوريخ أنه لا يمكن السماح بطبع ترجمة بودمر لكتاب « النعيم المفقود » حيث انه يتناول الموضوعات المقدسة بأسلوب رومانسي أكثر مما ينبغي (١) . ولم تكن الريبة الرسمية بلا أساس لأن الادعاء بالحرية العاطفية في الأدب كانت بالنسبة لكثير من الشباب المثقفين بديلا للمطالبة بالحرية السياسية التي لم يكن في وسعهم العمل من أجلها بعد . وقد كانت العقلانية في الفكر والكلاسيكية في الفن المذهبين المرتبطين ارتباطا وثيقا بالسلطات الحاكمة، الملوك والارستقراطية . وكانت الاتجاهات الرومانسية في القرن الثامن عشر عادة رداء السعى الانفعالي من أجل الحرية الأدبية والفنية والاجتماعية . وقد أدت هذه الاتجاهات أحيانا الى اهتمام جديد تماما بماضي ألمانيا ، وان كانت فيودالية العصور الوسطى أقل جاذبية للشباب من الأبطال التيتونيين ، مثل هرمان ، الذين اعتبروا أنصارا للحرية القومية والسياسية .

وقد شارك معظم الرومانسيين الألمان طبعاً في الحماسة للثورة الفرنسية والنزعة العالمية السائدة في ذلك الوقت . وتحت حكم نابليون صاروا أكثر قومية ، وفي حرب التحرير ضد الامبراطور كتب كثير من الرومانسيين ، مثل أرندت وكلايست وكيرنر وآرنيم وكيرينز ، قصائد أو كتيبات تفوح منها رائحة الكراهية نحو الفرنسيين وتمجيد الفضائل الألمانية . بيد أن الاسهام الرئيسى للفكر الرومانسى فى الأيدلوجية القومية كان التأكيد على الفردية القومية ومحاولة وصف فردية الألمان ومقارنتها بغيرها من الأمم . ولكن عرض أفكارهم يتطلب مكانا أكبر بكثير مما يتاح هنا (٢) . ولم تكن الرومانسية نظاما محدود المعالم بل روح حزين لا يقر له قرار وتخمر عبر عن نفسه بطرق مختلفة تماما كثيرا ما كانت غير متسقة . ونادرا ما وضع أنصارها أفكارهم السياسية بطريقة منظمة ، بل كانوا يرمزون اليها عرضا فى قصائد أو روايات أو مقالات نقد . وأدرك الفلاسفة منهم أن العاطفية الرومانسية ليست كافية لفلسفة وحاولوا أن يدمجوا مع أفكارهم عناصر عقلانية ولا عقلانية . ومن ثم كان

(١) ج . جنى Miltons Verlorenes Paradies in der deutschen Literatur des 18 Jahrhunderts ١٨٩٠ ص ٢١ .

(٢) لقد عرضت بعض أفكار الرومانسيين عن الطابع القومى فى دراسات نشرت «Archiv für Socialwissenschaft» فى المجلد ٤٥ لسنة ١٩٢٦ ص ٦٧٠ - ٧١٥ .

من العسير ، ان لم يكن مستحيلا ، تحديد أين تبدأ الرومانسية وأين تنتهى ، ومن ينتمى إليها (١) .

وقد احتفظ أهم المفكرين الرومانسيين ، مثل الأخوين : أوجست ويلهلم وفردريك شليجل ، بقدر كبير من النزعة العالمية باستمرار . وقد كتب أ . و . شليجل فى ١٨٠٣ :

« هل نقص الفخر القومى عيب كبير حقيقة ؟ أليس من الواضح أنه لدى الأمم الأخرى كثيرا ما يقوم على التفكير من زاوية واحدة وضيق الأفق بل وحتى مجرد الأوهام ؟ واعتقادى أنه فيما يتصل بأسمى الاهتمامات للطبيعة البشرية ، ونمو أنبل قواها مثل الفن والمعرفة ، يكون أقرب الى الروح الألمانية ألا يسأل المرء : هل هذا الشئ ألمانى أو أجنبى ؟ وأن يكتفى بالسؤال : هل هو أصيل وعظيم وممتاز فحسب ؟ وألا يخشى أن يحط الاعتراف المتحرر بالانجازات الأجنبية من قدر الانجازات الألمانية . أن النزعة العالمية والكونية هى السمة الألمانية الحقيقية » .

وقال نوفاليس : « ان الألمانى يوجد فى كل مكان ، والنزعة الألمانية مثل الرومانية والاغريقية والبريطانية ليست محدودة بدولة معينة . فهى أنماط بشرية عامة . ان النزعة الألمانية هى العالمية ممزوجة بفردية قوية » . وأشار العديد من الرومانسيين والمفكرين المثاليين الى أن القدر أعد الألمان لتنمية عالمية الطبيعة البشرية وجماعيتها ، ولاعتناق أسس القيم الثقافية لدى كل الشعوب وتنميتها ، وللسيطرة عن طريق الروح لا عن طريق السيف . وكثيرا ما عبروا عن أملهم فى أن يقود الألمان كل الشعوب الى أسس مراتب البشرية وأن تصير الألمانية لغة الثقافة العالمية .

وقد عرض فردريك شليجل فى كثير من كتاباته أفكاره عن الفردية القومية التى لحصتها فى مكان آخر . وتقوم وجهات نظره على دراسات تاريخية واسعة وتنطوى على فهم سيكلوجى واجتماعى عميق . ولم يضاف على الطابع القومى التاريخى فى ذاته قيمة كبيرة . فالفكرة الألمانية ليست مجرد نتاج ماض بل مثل أعلى للمستقبل . « يقولون ان الألمان هم أول شعب فى العالم فيما يتعلق بالاحساس بالفن والعلم . هذا صحيح

(١) يقول كونوفرانكه فى فصوله الممتازة عن الرومانسية : « ان تكوين عصبنة دولية للقضاء على تمبىرى « الرومانسية » و « الكلاسيكية » يبدو لى عملا خيرا حقيقة » .

ولكن ليس هناك سوى ألمان قليلين جدا » • « ليس هرمان ووطن هما الآلهة القومية للألمان ، بل الفن والعلم » • وقد وضع فردريك في مبدأ الأمر الفن فوق مستوى السياسة بكثير • ولكنه فيما بعد ندد بشدة « بالحلم العالمي الجماعي » و « خداع وحدة الوجود » للذين كانا قد سادا أنبل الأرواح الألمانية طوال السنوات الخمسين السابقة بلا استثناء تقريبا ، والذين يرجع أصلهما الى كبت الحياة السياسية • وقال مرة ان الأسد الألماني القائم قد يستيقظ يوما ويزخر تاريخ المستقبل بالانجازات الألمانية •

وكان فردريك شليجل أكثر المفكرين تفوقا بين الرومانسيين وبدأ داعية جمهورية قويا • وفيما بعد صار كاثوليكيًا ومحافظا مثل كثيرين غيره من نفس المدرسة ، ودخل السلك الدبلوماسي النمساوي • وترجم أوجست ويلهلم شيكسبير وشعراء أجانب آخرين الى الألمانية ، واتصل مدة طويلة بـ « دى ستايل » ، ويبدو أن له بعض التأثير في كتابها الشهير عن ألمانيا • وقد صار فيما بعد أستاذًا جامعيًا في بروسيا •

وقد حدث انشقاق بين صفوف الرومانسيين أيضا بسبب الجدال الكبير حول من الذي ينبغي أن يحقق وحدة ألمانيا - بروسيا أو النمسا • فقد راود الأمل الكثيرين في عودة الامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة وروح العالمية والفيودالية التي سادت العصور الوسطى في ظل سيادة النمسا ، في حين وضع آخرون آمالهم في الرسالة القومية لبروسيا • وكان الجناح المناصر للنمسا محافظا وكاثوليكيًا ويفكر في إطار فوق الدول ، في حين كان أنصار بروسيا ، بصفة عامة ، أكثر تحررية وقومية من القطاع الآخر • وكان عالم اللاهوت شلاير ماخر من كتاب الفريق الثاني ، وفي وقت حرب التحرير كان يؤكد على الفردية القومية • ولكنه سرعان ما أعلن بعد ذلك أن الفيلسوف لا يمكن أن يكون ألا عالميا ، وأن الجنسية مجرد مرحلة من مراحل التطور ، وأنه من المؤكد أن تختفى الاختلافات القومية تدريجيا (١) •

وكان أهم أصحاب النظريات السياسية والاقتصادية الرومانسية هو آدم موللر (٢) • وقد ولد في برلين ابنا لموظف حكومي ودرس في

(١) مترجم ص ٢١٦ و ٢٨٩ و ٢٩١ وتودور كلبشتاين «Schleirmachers Weltbild und Lebensanschauung» ١٩٢١ ص ١٤٩ و ٢٩٨ •

(٢) لقد ظل آدم موللر فترة طويلة نمسيا تقريبا ثم أعيد البحث في دراساته مؤخرا واعتبر أعظم ممثل للفلسفة الألمانية ، وبخاصة من جانب أوتمارسيان ومدرسته • وقد نشرت طبعه مختصرة لاهم كتاباته بواسطة فردريك بولوف بعنوان Adam Muller Vom Geiste der Gemeinschaft ١٩٣١ • انظر كذلك ملخص نظرياته في البحث الذي نشر لي في «Archif für Sozialwissenschaft» ١٩٣٦ ص ٦٦٦ •

جامعة جوتنجن حيث عرف نظريات آدم سميث ومنتسكيو وبيرك . وقد ظل فترة شديد الإعجاب بسميث ، ومعارضاً بروحه لفكرة فيشسته عن الدولة شبه الاشتراكية المكتفية بذاتها . بيد أنه تحول فيما بعد بصراحة متزايدة الى العداء نحو تحررية سميث الاقتصادية ، وصار بيرك مثله الأعلى في السياسة . وأشاد به باعتباره أعظم سياسي فى القرون الثلاثة السابقة ، وفى محاضراته حث المستمعين اليه على قراءة بيرك المرة بعد المرة ، بل وحفظ كتاباته عن ظهر قلب . وأخذ آدم مولر عن أستاذه معارضته لمبادئ الثورة الفرنسية (١) ، ومفهوم الدولة والأمة ككائن عضوى روحى ، والإعجاب بالأنظمة الفيدرالية ، وتبجيل التقاليد القومية القديمة . وبدت انجلترا له ، كما بدت لصديقه الوثيق جنتز ، أكمل أمة تمثل الكائن العضوى ، فى حين كثيرا ما انتقد بشدة ونفور كبير « الدولة الآلة » التى خلقها فردريك الثانى الذى كان يزدريه . وقد عارض أيضا فى إعادة تنظيم بروسيا ، بعد هزيمتها ، على أسس تحررية ، واختلط باليونكرز الرجعيين الذين عارضوا اصلاحات هاردنبرج . وحال ذلك دون الحاقه بالخدمة الحكومية البروسية ، وفى ١٨١٥ دخل السلك الدبلوماسى الألمانى حيث صار أداة فى يد مترنيخ . وكان قبل ذلك بعشر سنوات قد صار كاثوليكيًا واختلطت بأفكاره السياسية مسحة صوفية متزايدة .

وكانت لدى آدم مولر فكرة سامية جدا عن الجنسية ، اذ تصورهما تناسقا مقدسا وتفاعلا متبادلا بين جميع المصالح الخاصة والشخصية ، وحلقة تربط الفرد بالانسانية والسمة القومية المتميزة هى أسمى قيمة بالنسبة للأمة ، وهى ذات اتجاه توسعى . والحرب وسيلة لا غنى عنها لتحقيق الوحدة ودعمها وللتربية والنمو . والدولة كائن عضوى يتضمن كل قوى الأمة ، ويجب على الفرد أن يضحي من أجلها بأى شئ . وفى محاضراته سنة ١٨١٠ انتقد بروسيا بصفة خاصة لأن حكومتها اعتبرت الجيش شرا لا بد منه كوسيلة لتجنب الحرب . ولكنه كان يعتقد أن الدولة القومية لا يمكن أن تقوم الا فى اقليم غير كبير جدا . فالدولة الكبيرة جدا لا يمكن أن تبلغ الوحدة القومية الحقيقية . وكان مولر يرغب ، الى جانب ذلك ، فى قيام فدرال عظيم من الشعوب الأوروبية بزعامه الألمان .

(١) فيما يتصل بتأثير بيرك انظر فريدا براد «E. Burke in Deutschland» ١٩١٧ ص ١٨٢ . بيد أن مولر حكم على الثورة الفرنسية باعتدال أكثر من بيرك وبروج منزهة أكثر منه .

وقد بدت له الفدرالية والاهتمام بالزراعة تحقيقا للمبادئ الألمانية والموسوية ، فى حين بدت حركة الاصلاح الدينى والاستنارة والدولة الآلة المركزية والسعى الى السيطرة العالمية والتصنيع والرأسمالية والثورة الفرنسية كلها نتائج الروح الرومانية الكثيرة كما تتجسد فى الامبراطورية الرومانية والقانون الرومانى .

ومن العسير أن نقول كيف تتفق وجهات النظر هذه مع اعجابه بانجلترا التى كانت بروتستانتية تماما وتحررية ومركزية وقوة عالية ورأسمالية . وقد وضع أيضا نظاما اقتصاديا مناهضا للفردية تماما ومركزا فى مصالح الدولة القومية والثقافة القومية اللتين كانتا تبدوان له متقابلتين الى حد كبير مع المصالح الزراعية ضد التصنيع . ومن النقط الرئيسية فى نظريته تفضيل العملة الورقية القومية على العملة الذهبية الدولية .

ولم يكن الرومانسيون هم زعماء الحركة القومية الصاعدة ، ولم يكن لهم نفوذ كبير على الرأى العام فى المسائل السياسية ، فقد كانوا يؤلفون نخبة مثقفة صغيرة . وكانوا من ناحية يفضلون الفن والأدب على السياسة، ومن ناحية يؤيدون نظام مترنيخ والحكومات الرجعية الأخرى فى الفدرال الألمانى ، وهى الحكومات التى حاولت اخماد الحركة القومية . ومع ذلك فقد أسهموا فى تكوين أيديولوجية صارت فيما بعد أساس النزعة القومية الألمانية . فقد ساعدت مدرسة الفقه التاريخى وكثير من العلماء الآخرين فى ميدان التاريخ والفلسفة فى ألمانيا على نمو الفردية العضوية للأمة واثارة الحماسة لتقاليد ألمانيا القومية ، وعلى العمل من أجل توحيد الشعب الألمانى روحيا وسياسيا .

وتقهقرت الحركة الرومانسية عندما وضعت الحركة القومية مطلب الحرية السياسية فى الصدارة . ولكن هزيمة ثورة ١٨٤٨ جعلت كثيرا من المثقفين يبتسون مرة ثانية من العقل وشجعت التشاؤم ، الذى كانت له أسباب أخرى أيضا . وفى هذا الوقت صار شوبنهاور أكثر الفلاسفة شعبية ، ولم يحظ أى كاتب فلسفى آخر بما حظى به من قراء فى ألمانيا . وكان شديد الازدراء للميتافيزيقيين والرومانسيين الألمان ، وان كان هو نفسه لابد من اعتباره واحدا منهم (١) . وقد بدت له الدنيا كابوسا

(١) عرض كارل جوبل لرومانسية شوبنهاور ونيته فى كتابه «Nietzsche und die Romantik» ١٩٠٥ .

كثيرا لا يحكمه العقل بل الغريزة الجشعة العمياء البدائية التى تسمى ارادة الحياة ، والمهرب الوحيد من هذا الجحيم هو الرحمة بالنسبة لجميع الكائنات الحية والخلق الفنى وبخاصة الموسيقى . وكان لوثر أيضا من المعتقدين بأن الطبيعة البشرية شريرة فى أساسها ، ويؤدى هذا الاعتقاد بصورة طبيعية الى نبذ الحرية السياسية . ويحارب شوبنهاور بعنف فكرة الله والمسيحية والتربية والتقدم والديموقراطية . وأعلن أن اشادة هييجل بالدولة بوصفها تجسيدا للأخلاق ودفاعه عن الحرب هراء تماما . وكره شوبنهاور الحرب وسخر بالفخر القومى واعتبره صفة نموذجية فى الشخص الأبله الذى ليس لديه شيء آخر يفخر به .

وكان يعطف على الانجليز أكثر من أية أمة أخرى باستثناء كنيسةهم وريائهم الدينى ، وكان حكمه سيئا جدا على الألمان ، وأعلن فى ورقة عشر عليها بعد وفاته أنه يحتقرهم لغباوتهم الشديدة ويخلجه الانتماء اليهم . بيد أنه فى كتابات أخرى اعترف بأن هناك على الأقل بعض المزايا فيهم ، وهى لغتهم وعدم وجود الاحساس بالفخر القومى لديهم ، وهى دليل على اخلاصهم ، وكذلك حقيقة أنه يوجد ملحدون بينهم أكثر من أى شعب آخر .

وكان نيتشه وريثا آخر للرومانسية على غير ارادة منه . وكان هو أيضا يعتقد أن العالم لا يسيره العقل بل الارادة ، التى عرفها بأنها ارادة القوة . وقد جاءت هذه الفكرة فى حرب ١٨٧٠ عندما رأى الجنود الألمان يهرعون الى ساحات القتال . وبرغم أنه كان معجبا بالبطولة الحربية من زاوية جمالية ويحترم النظام العسكرى ، فقد أعلن شكه فى أن الحرب لها أثر نبيل . وأيا كان الأمر فان الروح الألمانية انحطت فى رأيه بالانتصار على فرنسا . وأعلن ازدراءه للميتافيزيقيين والرومانسيين الألمان ونبذ مذهب الدولة واعتبر الوطنية والجنسية سخافة وعقبات فى سبيل نمو الفردية والثقافة الحقيقية . وبرغم أنه كان عازفا عن الديموقراطية تماما فانه كان يذكر من وقت لآخر بعض المزايا فيها وبخاصة فى حدود ما تفسح الطريق للأفراد الأقوياء .

وروح العسكرية من الأعراض المكروهة فى المجتمع البربرى ، وكان نيتشه يحلم بشعب فى ذروة قوته ويحطم سيفه طواعية . والمرض الأكبر فى العصر هو النزعة القوية ، وقد اشمأز بصفة خاصة لاعجاب الألمان بذاتهم عنصريا . ويعلن أنه أوربى طيب ويرغب فى القضاء على الاختلافات القومية . وكل عبقرى عظيم كان يسمو على القوميات فى مزاياه ويعتبر

قوميا فى رذائله • والانجازات الثقافية الفرنسية أعظم من الالمانية • واحتقر
النفعية الانجليزية والديموقراطية الانجليزية • فالانسان لا يسعى الى
السعادة بل الى القوة ويحب القسوة • والمسيحية والأخلاق المسيحية أيضا
ستار للسعى الى القوة من جانب الضعفاء ورجال الدين • وكان غرضه
الرئيسى هو تحطيم الايمان بالأخلاق والمسيحية •

ويزخر فكر نيتشه بالمتناقضات الظاهرية والحقيقية ، ويستطيع
المرء أن يفسر فلسفته بصور مختلفة تماما • ولا شك فى أن بعض وجهات
نظره الرئيسية أثارت الى حد كبير الازدراء للعقل البشرى وللسعادة والتمرد
ضد كل « الكوابت » الاخلاقية التى أصبحت سمة نموذجية فى النزعة
القومية الالمانية • وانها لسخرية ومأساة أنه بهذه الطريقة دعم عقلية
النزعة القومية الالمانية التى ازدراها وكرهها أكثر من أى شىء آخر •

وكان ريتشارد فاغنر ونيتشه فى وقت ما صديقين وثيقى الصلة •
وفيما بعد هاجم نيتشه فاغنر بشدة ورأى فى موسيقاه وأفكاره أخطر
تعبير عن النزعة القومية الالمانية والخداع الرومانسى •

وكان نيتشه على حق فيما يتصل بالتأثير العام لفاغنر على العقل
الألمانى ، وإن لم تكن موسيقاه هى التى تضمنت بذرة الشر • فقد تأثر
فاغنر نفسه بفلسفة شوبنهاور ، التى لم تكن قومية بالتأكيد بل تتركز فى
الرحمة • ومع ذلك فإن فاغنر كان يؤمن أيضا بالرايكية ، وقد كان
تأثير كل من جوبينو وهوستون ستيوارت شميرلين سينا فى الشعب
الألمانى عن طريق صلتها بفاغنر والدائرة المحيطة به • وبعد موته بوقت
طويل صار هتلر هو الشخص المفضل لدى عائلة فاغنر وتلاميذه ، وكان
لرعايتهم له فضل كبير عليه •

ويمثل كل من شوبنهاور ونيتشه نوعا من الرومانسية عدله المذهب
الطبيعى الحديث • وفلسفة المثالية والرومانسية تقوم على الاعتقاد بطبيعة
الانسان الروحية العليا التى تعبر عن نفسها اما فى العقل الفردى أو
العقل الجماعى • ولكن فى فلسفة المذهب الطبيعى الرومانسى يبدو الانسان
حيوانا بلغ درجة كبيرة من النمو تدفعه غرائزه ، فنيشه ينتعش اعجابا
بالوحش الأدمى الكاسر العجيب • وقد لعبت أفكار البيولوجيا الحديثة ،
وبخاصة فكرة « الصراع من أجل البقاء » فى غير ما انقطاع وقوة الوزاة
كأداة فى القوة والتقدم العنصرين ، دورا كبيرا فى نمو ايديولوجية
النزعة القومية الحديثة • وبعد الحرب الكبرى نشر أوزوالد شبنجلر كتابه:

« أفول الغرب » ودعا فيه ، وفي كتابات أخرى له ، الى فكرة دكتاتورية عسكرية قومية على أساس فلسفة المذهب الطبيعي والرومانسية . وكان لكتابات تأثير كبير على المثقفين الألمان . ودعت كتب أخرى تسودها نفس الروح بقلم مؤلفين آخرين لقضية النزعة القومية وضد الديمقراطية (١) ، وأسهمت في تسميم عقل الشباب الألماني مما جعل في وسع هتلر الاستيلاء على السلطة . وكانت الروح الرومانسية في مبدئها الجو السائد بين نخبة من المثقفين المثاليين . وفي النهاية أدت الى شعارات ديماغوجية استخدمت في تخدير شباب ينقصه كل احترام للروح وصار فيما بعد أدوات في يد أقوى نخاسي العبيد في التاريخ وأشدّهم مناهضة للثقافة .

١٩ - الفردية والرومانسية والجنسية في بريطانيا

كان منتصف القرن الثامن عشر بداية لحركات اصلاحية كبيرة بدأها انتعاش النزعة الانسانية المسيحية وصعود « النفعية » . وكان كلاهما الى حد يزيد أو ينقص رد فعل ضد العقلانية ذات الجانب الواحد التي سادت بين كثيرين من دعاة الاستنارة . كذلك كثيرا ما نمت الرومانسية التي تمثل تمرد المشاعر ضد العقل وضد المدنية المصطنعة في نفس الوقت وفي تحالف وثيق مع التقليدية . وكانت كل هذه القوى الروحية تنطوي على فهم أفضل لبعض جوانب الجنسية والعطف على القوميات التي تسعى الى الحرية والرغبة في دعم الوحدة بين الطبقات داخل الأمة الواحدة وتحسين العلاقات بين الأمم . فضلا عن أنها كانت ذات أثر كبير في تشكيل شخصية الأمة . ففي القرن التالي تميز الطابع القومي الانجليزي أساسا بثلاث سمات ظهرت فيه بوضوح أكثر من الأمم الأخرى : النفعية والانسانية المسيحية والتقليدية .

ويشير هيوم في مقاله « عن الطابع القومي » الى أن السمات القومية كثيرا ما تتغير بسرعة شديدة، ويدل على ذلك بمثال أن الانجليز في القرن السابع عشر كانوا « مشتعلين بحماسة ضارية ، واستقر بهم الحال الآن على عدم مبالاة باردة تماما فيما يتصل بالشئون الدينية أكثر مما تتسم به أية أمة في العالم » . بيد أنه حدث في ذلك الوقت بدايات انتعاش في الحماسة الدينية مهدت لها كتابات جون وشارلس ويسلي وهوايتفيلد وتلامذتهم . وكان للنظامين والكويكرين النصيب الأوفى في ايقاظ

(١) رومان بترل « جذور الاشتراكية الوطنية » ١٩٤١ . و س . د . ستيرك

« الروح البروسية » ١٩٤١ .

الضمير المسيحي وما أدى اليه من ثورة أخلاقية لا تقل ضخامة عن الثورة الصناعية في ذلك العهد (١) .

وكان جون ويسلى لا يثق بالحكومات والسلطات الحاكمة وبالشعب ، « ذلك الوحش ذو الرؤوس المتعددة » ، كقوة سياسية . وفى نظره كان اصلاح الانسان أخلاقيا أهم بما لا يقاس من الاصلاحات السياسية . ولكن انجازاته الكبرى فى اثارة مشاعر الاخوة والطاقة المعنوية مهدت السبيل لفكرة أوسع نطاقا وأنبأ عن الأمة وساعد على انقاذ بريطانيا من مذاهب الحرب الطبقيّة المسمومة والثورة .

وفد عرض كثير من المفكرين البريطانيين مبدأ «أكبر قدر من السعادة» فى القرن الثامن عشر (٢) . ولكن نبيهه الحقيقى كان جيريمى بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) الذى كان له نفوذ مسيطر فى جزء كبير من القرن التاسع عشر (٣) . وكان هو وتلامذته هم الذين جعلوا «النفعية» سمة قومية لبريطانيا الحديثة فى الفكر والسياسة . وقد بدأ بنتام بوجهات نظر محافظة ثم تحول أكثر فأكثر الى العداء نحو كل التقاليد التى أصبحت غير ذى موضوع ووضع قسما كبيرا من أيديولوجية الأحرار والديموقراطيين فيما بعد . بيد أن النفعية ليست هى التحررية فحسب . فقد كان مبدأ السعادة مصدر وحى لكثير من الحكام الأوتوقراطيين الحيرين وهو يؤلف اليوم الصورة الخلفية للاشتراكية . كما أن بنتام لم يشارك فى المذهب الأساسى للتحررية ، وهو الاعتقاد فى الحقوق الطبيعية للانسان والقيمة السامية للحرية (٤) ، ولم يدع الى توسيع حق الانتخاب الا فى أخريات حياته . وكانت عواطفه عالمية بقوة وأراد أن يكون خادما لجميع الامم التقدمية . وقد عرضت عليه الجمعية الوطنية الفرنسية أن يكون مواطن

(١) و . وارنر « حركة ويسلى فى الثورة الصناعية » ١٩٣٠ . وروبرت فيرماوت « حركة المنهجيين الدينية وحركات الطبقة العاملة فى إنجلترا ١٨٠٠ - ١٨٥٠ » ١٩٣٧ .
(٢) أنظر فيما يتعلق بتاريخ الفكر السياسى الانجليزى البحث الممتاز بقلم روبرت موارى « دراسات فى المفكرين السياسيين والاجتماعيين الانجليز فى القرن التاسع عشر » مجلدان ١٩٢٩ . وفيما يتصل بالحماسة الوطنية أنظر ايزمه وينجفيلد ستراتفورد « تاريخ الوطنية الانجليزية » ١٩١٣ المجلد الثانى الانجليزى ويقول وينجفيلد فى كتاب تال ، هو « أسس الوطنية البريطانية والجنسية فى إنجلترا » انه أعاد النظر فى رايه .

(٣) يطلق ديبى على الفترة من ١٨٢٥ الى ١٨٧٠ عهد البنتامية أو الفردية ، أنظر ف . ديبى « محاضرات عن العلاقة بين القانون والرأى العام فى إنجلترا » ١٩٠٥ .
ص ٦٣ .

(٤) اتكنسون « جيريمى بنتام ، حياته وعمله » ١٩٠٥ ص ١٠٤ - ١٠٨ .

شرف فرنسا ، وقد قبل ذلك محتفظا بولائه لبلاده الأصلية . وبرغم أنه أعلن أنه أمريكي أكثر منه انجليزي وفضل دستور الولايات المتحدة على الدستور البريطاني ، فإنه كان فخورا بالمثل العليا البريطانية واللغة الانجليزية (١) . وقد دافع عن حق تقرير المصير القومي وعن تحرير المستعمرات . وذهب الى أن الأمم ينبغي أن تحكمها مبادئ أخلاقية ، وكان أول من استخدم مصطلح « القانون الدولي » ، وإن كان قد أشار الى أنه يسمى قانونا من باب الرمز فحسب لأنه لا يملك نفس قوة القانون القومي . وكانت وجهات نظره في نزاع السلاح والأمن الجماعي والدبلوماسية السرية و « الاخاء الأوربي » بين الأمم هي وجهات نظر النزعة العالمية الحديثة . وقد اعترض بنتام على مصطلحات مثل « بلادي على حق أو خطأ » كما تبدو في « سوء التصرف على نطاق واسع » الذي يأخذ أحيانا اسم « روح الفريق » في الجنسية وأحيانا أخرى اسم « الوطنية الرفيعة » .

وقد وضعت هزيمة نابليون سنة ١٨١٥ حدا لصراع بين بريطانيا وفرنسا استمر أكثر من ١٢٦ سنة كان أكثر من نصفها سنوات حرب سافرة . وكانت بريطانيا قد حصلت في هذه الفترة على امبراطورية شاسعة وصارت أكبر دولة صناعية عظمى . وفي خلال القرن أدت التغييرات التي حدثت في التكوين الاجتماعي الى تحويل جذرى للبناء السياسى فى بلاد كثيرة . وفى بريطانيا وحدها حدثت هذه التغييرات دون ثورة ، وأثبت ذلك أن وحدتها القومية تقوم على أساس راسخ أكثر من الأمم الأخرى . وقد وفر عليها تاريخها السعيد كثيرا من المشاكل التي أدت فى أهم أخرى الى مناقشات لا نهاية لها . وحمتها حدودها التى صنعها البحر من الغزو ، ولم يكن هناك بريطانيون يعيشون فى مكان آخر تحت سيطرة أجنبية ، وباستثناء ايرلندا لم تكن لديها صعوبات خطيرة مع أقليات قومية أو دينية . ولم يكن المفكرون السياسيون فى بريطانيا مضطرين الى التفكير فى حقوق الولاءات المتعارضة ، كما فى ألمانيا وإيطاليا حيث كان التعصب المحلى يتصارع مع مشاعر الوحدة القومية الصاعدة ، كما لم يكونوا مضطرين الى تكريس وقت طويل فى التفكير فى مشكلة كيفية تهدئة الشقاق الاجتماعى كما فى فرنسا . ولم ينغمس الشعب البريطانى ، على خلاف الأمم الأخرى ، فى التأملات حول طابعه القومى ورسالته

(١) المر . ل . كابر « المشروع الاجتماعى العظيم » دراسة عن بنتام فى علاقته بالنزعة القومية التحررية « ١٩٣٢ ص ٣٢ .

القومية (١) ، فمركزهم فى العالم كان يجعل مثل هذه التأملات تبدو بلا مسوغ . وكانت هناك وجهات نظر أساسية معينة فى الطابع القومى مسلم بها من الجميع تقريبا . ففى مواجهة العقلانية الفرنسية والميتافيزيقية الألمانية أكد البريطانيون حقيقة أنهم تجريبيون فى طريقتهم القومية فى التفكير وأنهم ينفرون من المبادئ المجردة ويؤمنون بالادراك السليم والحلول الوسط . بيد أن مبدأ « أكبر قدر من السعادة » النفعى لم يكن بأى حال أقل تجريدا وإبهاما من المذاهب الفرنسية الثورية فى الحرية والمساواة ، كما لم يكن الضمير المسيحى الذى تقوم عليه النزعة الانسانية البريطانية أقل تأصلا فى الافتراضات الميتافيزيقية من النظم الأخلاقية الألمانية . وبرغم أن المحافظين والأحرار على السواء كانوا يخشون الديمقراطية تماما (٢) وبذلوا ما فى وسعهم لمنع تقدمها ، فإن تحويل النظام الأرستقراطى الى حكم الطبقة الوسطى ، والتقدم التالى نحو الديمقراطية تما بسهولة مذهلة ، فقد اقتنعت الأمة كلها كنتيجة لنمو الثروة وتقدم الديمقراطية أن المصلحة الأولى هى السلام . بيد أن الزيادة التى لم يسبق لها مثيل فى الثروة صاحبها نمو فى البروليتاريا الصناعية التى تعيش فى ظروف بشعة . وكان مصدر وحى مجهودات روبرت أوين تفسيراً اشتراكيا للمذهب النفعى . ولكن التفسير السائد لهذا المذهب كانت تشيع فيه روح الرأسمالية الراضية عن نفسها التى كان لها تأثير كبير على الأفكار السائدة عن الطابع القومى البريطانى . ويقول لسلى ستيفنسن : ان الانسان عند بنتمام هو « المواطن المحترم ما دام رجل

(١) نشر بولوير ليتون (لورد ليتون فيما بعد) كتابا فى ١٨٣٣ عن الطابع القومى الانجليزى « انجلترا والانجليز » يعد من الكتب الممتازة ويتضمن عدة ملاحظات سيكلوجية دقيقة . وقد أعيد طبعه بعد نشره مباشرة ، ولكن لم يطبع ثانية الا بعد واحد واربعين عاما . وهو يقول : « الرجل الانجليزى فى نظر نفسه هو محور كل شئ - مركز المجموعة الشمسية » . « فى بعض البلاد تعد المتعة هى الهدف الاسمى ، وفى بعضها يعد المجد وتطلعات الفخر الدينوى هى الهدف ، ولكن عندنا المال هو أعظم الآلية » . « فى البلاد الاخرى يعد الفقر من سوء الطالع ، أما عندنا فانه جريمة » والعيشة المحترمة على قدر كاف من الثراء هى الفضيلة العليا . ويسجل المؤلف بعض الملاحظات المهمة عن السيطرة الضخمة التى تمارسها الارستقراطية على عقل الأمة وتأثيرها على طابع جميع الطبقات .

(٢) وحتى ماكولى داعية الحرية بالمعنى التحررى كتب أنه لا يوجد لديه أى شك فى أن الحكم الديمقراطى فى انجلترا ، كما فى أى بلد آخر ، ستؤدى الى نهب الاغنياء بواسطة الفقراء والى تدمير الحرية والمدنية . انظر آرثر بريان « ماكولى » ١٩٣٢ ص ١٤٤ .

الشرطة بالمرصاد . ومثل هذا الرجل يغلب حقا أن يعتقد أن الأمانة هي خير سياسة ، ولديه قدر كاف من العطف ليكون رفيقا بأمة العجور ويعاون صديقا في ضيق ، ولكن الحاجة الى السلوك السامى والرومانسى نادرا ما تخطر له على بال ، ويبدو له العمل البطولى استثناء لا يختلف كثيرا عن الحماسة » (١) . وبصفة خاصة كان معظم النفعيين يعتقدون أن كل حكومة هي في ذاتها شر كبير واسع النطاق . وكانت هذه العقلية هي ما هاجمه الرومانسيون بعنف .

وقد بدا وردزورث وكولريديج وساوثى جميعا دعاة متحمسين للثورة الفرنسية ، بل ان وردزورث أراد أن يكون نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية (٢) . وعندما نشبت الحرب مع فرنسا كانت عواطفهم في الجانب الفرنسى ، ولكن الاتجاه تغير عندما صار اليعاقبة ونازيون أكثر عدوانية واضطهادا بصورة متزايدة . وكانت الحرب في اسبانيا وموجة التمرد القومى الصاعدة ضد السيطرة الفرنسية علامة على مغزى الجنسية كقوة تعمل للتحرير . وأعلن وردزورث رغبته في إعادة بناء أوروبا على أساس مبدأ الجنسية ، وبخاصة فيما يتصل بالوحدة القومية في إيطاليا وألمانيا . « ان الأقطار الصغيرة يجب أن تختفى وتندمج في أمم كبيرة ولغاب منتشرة على نطاق واسع » . وفى ذلك الوقت ربط الجنسية بالحرية ، ولكن في فترة رد الفعل بعد الحرب عدل الشاعر عن هذه الأفكار وصار معارضا لكل اصلاح . وصار ساوثى وكولريديج أيضا من غلاة المحافظين . ووقع كولريديج تحت تأثير قوى من الصوفية والميتافيزيقية الالمانية وصار من أنصار ألمانيا . وفى ذلك الوقت كان الرومانسيون قد صاروا يكرهسون التصنيع والنفعية والتجارية وأخذوا يشيدون بالعهود الفيودالية القديمة والأرستقراطية من سادة الأراضي والريفيين البسطاء . وقد تأثر ساوثى وكولريديج تأثرا عميقا بمعاناة العمال الصناعيين وأسهموا في إيقاف البرعى الاجتماعى . وبدا لهما أن استعمار الامبراطورية بواسطة العمال البريطانيين المتعطلين مهمة ملحة ، وبهذه الطريقة ساعدا أيضا على تمهيد السبيل للامبريالية الجديدة . ومنذ ١٨١٢ كانت تراود ساوثى رؤى

(١) لزلى ستيفن « النفعيون الانجليز » ١٩٠٠ المجلد ص ٢١٤ .

(٢) انظر فيما يتصل بالرومانسيين كرين برينتون « الافكار السياسية لدى الرومانسيين الانجليز » ١٩٢٦ . والفرد كوبان « بيرك والتمرد على القرن الثامن عشر ، دراسة في التفكير السياسى والاجتماعى لدى بيرك ووردزورث وكولريديج وساوثى » ١٩٢٩ . ومواوى ص ١٦١ . وجورج برانديز « التيارات الرئيسية في أدب القرن التاسع عشر » ١٩٠١ .

لكومنولث الأمم البريطانية • وكان لفكرة يترك عن الدولة والامة بوصفهما كلا عضويًا نفوذ كبير في تفكيرهما • وهناك تقابل وثيق بين نمو هذه المدرسة والرومانسية الألمانية، ولدى هناك كتاب انجلز اخرون، مثل : بيرون وشيللى ، ظلوا على اخلاصهم للروح الثورية الأصلية فى اىرومانسيه •

وقد بلغ الفكر الرومانسى ذروة قوته وبهائه فى شخصية توماس كارلايل • وكثير من اتجاهاته الاجتماعية والسياسية مشتركة بين معظم الرومانسيين ، مثل كراهية المادية والنفعية ، والنقد المبرير للإنجازات الحديثة والعطف على الماضى • وقد تصور كارلايل المجتمع ككائن عضوى ، ولكنه ظل مع ذلك فرديا ، على الأقل فيما يتصل « بالرجل العظيم » ، والرجال الذين ولدوا زعماء ، فى حين كانت فكرته عن الجماهير سيئة جدا • وفى عدة مرات عرض مذهب « الحق للقوة » (١) • وكان أول كاتب حديث كبير يشيد بالبطل ، بالسوبرمان ، ومؤلفاته عن عبادة البطولة ، عن فردريك الأكبر وكرومويل ، وضحت مذهبه • وكان يعتقد أن الجماهير تتوق الى الزعيم العظيم ، ولكن هذا الزعيم لا يمكن اختياره بواسطة أصوات الأغلبية • وكانت الحرية والبرلمان والديموقراطية موضع سخريته ، وعندما منح دزرائيل فى ١٨٦٧ حق الانتخاب للعمال الصناعيين بدت له هذه الخطوة الجريئة مثل « اطلاق النار على نياحرا » • وفى ١٨٥٠ طالب بتأليف مجلس وزراء تنفيذى من أحكم الناس فى الشعب البريطانى تحت قيادة دكتاتور يطرح البرلمان جانبا ، اذا تطلب الأمر ، ويعالج المشاكل القومية بصورة حاسمة ، وبخاصة البطالة والهجرة • وبداله سير روبرت بيل الرجل الصالح للدكتاتورية ، ولكنه مات فى هذا الوقت بالذات وتأثر كارلايل وغرق فى يأس كبير • وبعد ذلك بوقت قصير أعرب عن أمله فى أن يكون ملوك بريطانيا فى المستقبل من نوع فردريك الأكبر ، الذى كان حاكما مطلقا (٢) • وكان كالاريل شديد الإدراك للشروع الاجتماعية البشعة فى عهده وطالب بتدخل الدولة لتحسين حال العمال ، عن طريق الهجرة المنظمة الى الأجزاء المتخلفة فى الامبراطورية أساسا • ولكنه أعرب عن كراهيته للنزعة الانسانية ، مثل وردزورث التى أدت الى تحرير العبيد وشجعت على اصلاح القانون الجنائى والسجون • وذهب الى أن العبيد يجب أن يضربوا بالسياط

(١) جون نيكول « كارلايل » ١٨٩٢ ص ١٩٩ • وجون م روبرتسون « الانسانيون

المحدثون » ١٨٩٥ ص ١٩ •

(٢) امرى نيف « كارلايل » ١٩٣٢ ص ٢٣٢ و ٢٤٢ •

ويحكموا بيد حديدية ، بل كان يريد اخضاع العبيد المحررين لعبودية من نوع جديد . وكان وصفه لزئوج جامايكا المتمردين والهندوس والشعب الارلندي بازدرء كبير ، وبدا له التشيكيون الذين قابلهم فى رحلة فى بوهيميا أسوأ حتى من الارلنديين . ولم تثر فيه الحركة الايطالية فى طلب الحرية والوحدة أيضا سوى الاستهزاء ، وان كان قد أحب مازينى كرجل .

وكانت صيحة « الجنسيات المضطهدة » بالنسبة له مجرد رياء . فأولئك الذين سمحوا لأنفسهم بأن يخضعوا يستحقون مصيرهم . فان طبيعة قد جعلت مصيرهم العبودية ، وكان كثير العطف على الحكم الاوتوقراطى الروسى الذى اضطهد البولنديين والجنسيات الأخرى بقسوة ، وبدت له سياسة روسيا الطريقة الصحيحة لحكم البرابرة . وكان كارلايل متحمسا للأدب الألمانى والفلسفة الألمانية وأغرق فى تمجيد الجنس التيوتونى الذى اعتبره متفوقا بكثير على السلت . وفى ١٨٧٠ عندما انتشر فى إنجلترا الشعور بالعطف على فرنسا لهزيمتها ، دافع كارلايل بقوة عن قضية ألمانيا وسياسة بسمارك . ولكن برغم اعجاب كارلايل بالأبطال الحربيين فانه كان يكره الحرب ، وقد ندد بالسياسة البريطانية التى أدت الى حرب القرم وأعرب عن تحييده الكامل « لمؤتمر السلام بلندن » فى ١٨٥١ (١) . بيد أننا يجب أن نشير الى أنه برغم تنديده العام الشديد بالحركات الانسانية فانه قام بأعمال خيرية شخصية كثيرة . ويغلب أن عبادة القوة وحكمه القاسى على معظم عظماء الرجال فى عهده وما الى ذلك من شذوذ ترجع الى حد كبير الى مزاجه العصبى وسوء الهضم المزمن وتلك الحساسية الشديدة التى يتميز بها كثير من الرومانسيين .

ولم يكن كارلايل من دعاة القومية برغم ما كان لديه من تحيزات قومية وعنصرية ، ولكن لا شك أن فلسفته ساعدت على ضعف الروح التحررية والانسانية وانتشار الرغبة فى دكتاتورية الأبطال الأقوياء . وفى بريطانيا حالت التقاليد القومية ونمو الديمقراطية دون نمو هذه الاتجاهات . ولكن تعاليم كارلايل استخدمت فى بلاد أخرى بواسطة دعاة القومية فى صياغة أيديولوجيتهم (٢) .

(١) لخص جاك باردو موقف كارلايل وكثير من الكتاب الانجليز الآخرين من موضوع الحرب والهيبة القومية فى «Essai d'une psychologie de l'Angleterre Contemporaine, Les crises bellicieuses» ١٩٠٦ ص ١٧٩ و ٢١١ . وقد وصف تأثير الرومانسيين الألمان على كارلايل بتفصيل ليون تلنتر فى «Die englische

Literatur der neuesten zeit» ١٩٢١ ص ٨٣ .

(٢) فى الوقت الذى كان الفاشيون والنازيون يستعدون فيه للاستيلاء على السلطة حدث اهتمام كبير جدا بكارلايل فى ايطاليا وألمانيا .

ويجب دراسة نمو الفكر فيما يتصل برسالة بريطانيا في العالم وبالعلاقات الدولية بصفة عامة على ضوء السياسة الخارجية التي ظلت تسيطر عليها مدة طويلة أفكار كاننج وبالمستون . وكان هدف هذه السياسة هو المحافظة على أمن بريطانيا ومركزها بوصفها الأمة الأولى عن طريق مبدأ توازن القوى التقليدي . وأدى ذلك الى تورط بريطانيا في عداء مستمر مع الاوتوقراطيات الأوروبية الكبرى ، والى سياسة قصد بها الحد من توسع هذه الدول وتحرير الأمم الصغرى من سيطرتها وضغطها . ومن هذه الناحية كانت سياسة بالمستون متفقة الى حد ما مع تحررية عصره وتطلعات الشعوب التي تسعى في طريق القومية ، وأشاد بها الأحرار في كثير من البلاد . بيد أن هدف بالمستون لم يكن أساسا مساعدة الجنسية والحرية في الخارج بل تأكيد هيبة بريطانيا . ومن ثم فإن سياسته كانت تنطوي على عنصر قوى من النزعة القومية ، وإن لم تهدف الى التوسع الاقليمي أو المجد العسكري . وكانت نتيجةها حرب القرم ، وكثيرا ما ورطت بريطانيا في توترات دولية خطيرة ودفعتها الى حافة الحرب مع فرنسا وبروسيا وأمريكا . وكان أقوى خصوم هذه السياسة هما كوبدن وبرایت .

وقد هوجمت أفكار ريشارد كوبدن وعمله من جانب أنصار الحماية ودعاة القومية والاشتراكيين بحيث يبدو أن جيلنا يفسرها الى حد كبير على أنها أيديولوجية فات أوانها قصد بها خدمة مصالح الرأسماليين البريطانيين (١) في عهده . ولكن برغم أن كوبدن كان يشايح في الآراء السائدة المدرسة التحررية بين الاقتصاديين من أن مصالح جميع الطبقات متوافقة وأن أى تدخل في السير الطبيعي للعرض والطلب خطأ ، فإن دافعه الأساسى لم يكن العطف على الرأسمالية . فهو لم يكن أساسا من رجال الاقتصاد الرأسمالى ، كما لم يكن داعية لحكم طبقة مثل بيرك وماركس . فقد كان أولا عالميا متحمسا وداعية للسلام وحسن النية بين الأمم ، ويرى أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بواسطة حرية التجارة (٢) . وكان كوبدن يعتبر نفسه كما قال هو نفسه منسجيا وعالميا أكثر منه بريطانيا ، وإن كان لا يمكن وصفه قط بعدم المبالاة نحو أمته . وتنطوى مراسلاته وكتاباتاته

(١) قال ماركس في خطاب عن حرية التجارة في بروكسل ١٨٤٩ ان الشعب يعتبر دعاة حرية التجارة « أشد أعدائه وأكثر المنافقين فحة » .

(٢) ثبت ذلك بصورة حاسمة في الكتاب الممتاز الذى كتبه - أ. هويسون « كوبدون ، الرجل الدولى » ١٩١٩ . انظر كذلك ج . مورلى « حياة كوبدون » الطبعة العاشرة ١٩٠٣ .

على هجمات كثيرة على أمته (١) ، بل انه كتب أن بلاده فى الحروب الخارجية « أكثر أمة تحت الشمس تتسم بالعدوانية والميل الى المشاحنة والنزعة الحربية الدموية » ، وكان مثل كل تحررى حقيقى شديد الريبة فى الدولة لذاتها . فالدولة تعنى تراكم سلطة متزايدة فى أيد قليلة وما ينطوى على ذلك من اغراء لا يقاوم لسوء استخدام هذه السلطة فى الاضطهاد ، وتضليل الأفراد وفسادهم فيبعثرون حياتهم ومالهم وتتورط الأمم فى الحروب والعداوات والغيرة المستديمة . ولهذا السبب وضع قاعدة : « أقل قدر ممكن من الاتصال بين الحكومات ، وأكثر صلات ممكنة بين أمم العالم » . وفى سنة ١٨٥٩ كتب : « انى يائس تماما من تحقيق السلام والوثام عن طريق جهود الحكومات والدبلوماسيين . ان شعبى الأمتين (فرنسا وبريطانيا) يجب أن يزداد الاعتماد المتبادل بينهما على تزويد كل منهما الآخر بحاجاته . وليس هناك سبيل آخر لمواجهة العداء اللغوى والجنسى . أن أسلوب الله نفسه يؤدى الى (وفاق ودى) ، وليست هناك خطة أخرى تستحق التشجيع » . وكان هذا هو الدافع الذى حفزه الى بدء المعاهدة التجارية مع فرنسا وإبرامها فى ١٨٦٠ ، وقد كان لها فعلا أثر طيب جدا على العلاقات بين الأمتين .

وبرغم ايمان كوبدن بالسلام وقيمته التى لا تقدر فانه لم يكن من رجال « السلام بأى ثمن » . فهو لم يكتف بتبرير الحروب التى تثار دفاعا عن النفس ، بل انه حبذ أيضا فى حالات نادرة حتى الحروب التى يفصد بها حماية أمة أضعف أو تحرير شعب مضطهد . ولكنه عارض بشدة الاتجاه الشعبى الى تبني قضية كل أمة مضطهدة وتعريض السلام للخطر بقذف الاهانات فى وجه الخصوم أو تشجيع التمردات القومية والثورات . وقد ندد أكثر من ذلك بسياسة بالمروستون القائمة على توازن القوى والهيبة القومية متكررة فى ثياب حماية الجنسيات التى تكافح من أجل الحرية . وقد ذهب أحيانا الى حد الاعراب عن دهشته كيف أن الناس العاديين يفضلون حكومة سيئة من أبناء جنسهم على حكومة أفضل بواسطة أجانب . وكتب يقول : « ان الوطنية أو الجنسية صفة غريزية تحرق أحيانا ألم ما فى العقول البدائية التى لا تفكر ، ولا تتناسب تعبيراتها مع قيمة الممتلكات التى يدافع عنها أو الغرض المراد تحقيقه » . وفى رأى كوبدن أن اهتمام بريطانيا يجب أن يتجه أولا الى جعل

(١) ان عادة الأمريكين فى المبالغة فى الاشادة بالذات قويا مثلا أثارت « دماء البريطانيين » ودفعته الى الدفاع بحرارة عن الانجازات البريطانية . مورلى ص ٣٣ .

شعوب امبراطوريتها حرة وسعيدة . وأراد أن يعطى « ايرلندا للارلنديين » بتحطيم الضياع الكبرى فى أيدى الملاك الانجليز ونقل الأرض الى أيدى الفلاحين(١) . ولكندا أن تقرر بنفسها هل تبقى فى الامبراطورية أو تنضم الى الولايات المتحدة . وقد أثار ضرب كانتون بالمدافع والحرب مع الصين غضبا شديدا لدى كوين وأعلن أن المصلحة المركاتيلية هى المسئولة عن ذلك . وبدا له الحكم البريطانى فى الهند أمرا غير طبيعى وينطوى على اضطهاد ومصييره الفشل . وكان يخشى أنه لا بد أن يفسد الطابع القومى كما أفسد الرومان ودمرهم غزوهم وسيطرتهم على امبراطورية عالمية .

والواقع أن معيار كوين النهائى فى السياسة كان أخلاقيا . فكان يحكم على كل اجراء أولا تبعا لما اذا كان سيثير غرائز العدوان والاضطهاد والقسوة فى الطبيعة البشرية أو يخدمها . وكان فى مبدأ الأمر يرى أن الارستقراطية أساسا هى « التى استغلت الروح العدوانية فى الجيش الانجليزى لأغراضها الخاصة » وأن أفرادها « يستعرضون عطفهم على شكاوى الأجانب بدلا من أن يقوموا بأعمال الحرية فى الداخل » . ولكن حرب القرم أثبتت له أن حمى الحرب يمكن أن تسيطر على الأمة كلها (٢) . فقد كانت جميع الطبقات ، وبخاصة تلك التى تسمى الطبقة الوسطى المحترمة ، فى حالة هياج جنونى وفى « نوبة شيطانية » . وفى عام ١٨٥٧ نشبت الحرب الثانية مع الصين واندلعت حركة التمرد الهندية . وعندما انتصر كوين فى مجلس العموم بإصدار قرار يلوم الحكومة فى سياستها نحو الهند ، التجأ بالمرستون الى الناخبين . وفى الانتخابات تعرض كوين

(١) فيما يتصل بموقف كوين من ايرلندا انظر مورلى ص ٣٨٨ و ٥٥٢ .

(٢) لقد أثبت كنجسلى مارتن بشكل حاسم ان نشوب حرب القرم لم يكن السبب الاساسى فيه الحكومتين البريطانية والروسية اللتين بذلتا جهودا كبيرة لتجنبها ، ولا تصادم المصالح بصورة لا يمكن التوفيق بينها ، بل ضغط الرأى العام الذى كان تأثرا ضد القيصر بسبب سياسته الاضطهادية والمناهضة للديمقراطية بصفة عامة . وقد كان « لتوازن القوى » طبعاً دوره ايضا ، واستغل بالمرستون اتجاه الرأى العام لمجده الشخصى وفى معارضة الاتجاه المسالم تماما من جانب رئيس الوزراء لورد أبردين وزملائه ، ولكن العامل الحاسم كان انفجار التعصب العام لدى الشعب ضد روسيا مضطهدة الحرية والعطف على « الاثراك المناضحين » الذين لم تكن معاملتهم للشعوب الخاضعة بالتأكيد أقل اضطهادا من معاملة القيصر . وعندما نشبت الحرب اشاد كتاب مشهورين مثل تينسون وكنجسلى وكثير من رجال الكنيسة بالحرب ومجدوها باعتبارها بركة ، وعلى أنها تبعث روح البطولة وتنفذ الامة من التحلل بسبب النزعة التجارية الشريرة السائدة ، وعلاج ضد « سرطان السلام الذى دام طويلا جدا جدا » انظر كنجسكى مارتن « انتصار لورد بالمرستون » ١٩٢٤ .

وأصدقاؤه لهزيمة ماحقه - فقد جاءت استفتاء شعبيا بالمرستون الذي كان أكثر من يتمتع بالشعبية في البلاد لأنه استطاع ، كما قال أحد الكتاب الحديثين ، أن يمثل الأسد البريطاني . وحتى منشستر ، مركز مصالح حرية التجارة ، تخلت عن كوبدن في جهوده من أجل سياسة سلام . وأظهرت برمنجهام ، موطن راديكالية منتصف العهد الفكتوري الصاعدة ، أنها أكثر اخلاصا للمبادئ الديمقراطية . ووجد كوبدن أن ذلك يرجع الى أن صناعة الأدوات المعدنية « يقوم بها صغار أصحاب المصانع والحرفيون في حين يؤلف الرأسماليون الكبار في منشستر أرسنقراطية تشربت « بالتعاطف الارستقراطي » والتحييزات المضادة للديمقراطية (ص ١٩٤) . ويقول هوبسون(ص ٣٩٤) : ان اقتناع كوبدن بأفضلية تفوق الطبقة الوسطى « تغير بطريقة محسوسة في السنوات المتأخرة من حياته بسبب خيبة الأمل في المشاعر الحربية والامبريالية التي أبدوها كثيرون من أنصاره في حركة « حرية التجارة » من ناحية ، وكذلك بسبب تزايد ادراكه لأن توسيع حق الانتخاب ، الذي كرس له صديقه برايت جهوده ، حق ومفيد » . وصار أكثر أملا في الادراك السليم للطبقة العاملة واتجاهاتها السلمية أكثر من القطاعات الأخرى في المجتمع . بل انه كتب في ١٨٦١ : « اني لأعجب كيف يحتفظ الشعب العامل بهذا الهدوء في مواجهة الاثارة والاهانات الموجهة اليه . ألا يوجد بينهم سبارتكوس يقود تمرد طبقة العبيد ضد معذبيهم السياسيين ؟ »

وفي حرب الانفصال الأمريكية وقف ، بعد تردد قصير ، الى جانب الشمال الذي كان يدعو الى الغاء الرق ، برغم أن المصلحة الاقتصادية لتجارة القطن البريطانية وقضية حرية التجارة ومبدأ تقرير المصير كانت كلها تدفعه الى جانب الجنوب . وهذا يثبت مرة أخرى أن المعايير الأخلاقية لا الاقتصادية ، كان أثرها حاسما في تفكير كوبدن . وفي هذه الحرب عارض بقوة المشاعر المناهضة لأمريكا السائدة بين الطبقات الوسطى والعليا وعمل من أجل التحكيم واصلاح قانون الأمم البحري .

ويعد فكر كوبدن أكمل نموذج للتحيرية . فاتجاهه نحو السياسة الدولية كان يقوم على عدم التدخل ، أو الانعزالية ، ونزع السلاح وتنمية القانون الدولي والتحكيم . بيد أننا ينبغي أن نذكر ان سياسة الانعزالية كان لها ما يبررها في ذلك الوقت أكثر من الوقت الحاضر . فلم يكن أمن بريطانيا قد صار معرضا بعد للخطر بواسطة الغواصات والطائرات

وظهور الدول القومية الشمولية العدوانية . وكانت الليبرالية صاعدة في كل مكان ، وكان من الممكن أن يأمل المرء في أن تتشرب الامم تدريجيا بحسن النية بعضها تجاه بعض . ولم تساعد روح كوبدن وبرايث على تشكيل حزب الأحرار وتمهيد السبيل لانجازات جلادستون فحسب ، بل انها أثرت في الأحزاب الاخرى أيضا وبذلك اسهمت في نمو آراء وتطلعات مشتركة بين الأمة كلها .

وقد رفع جلاد ستون وذررائيلي الى مصاف الاوثان القومية بواسطة المعجبين بهما وقبلت قطاعات كبرى من الأمة هذا التبجيل . ومن ثم فاننا نستطيع أن نعتبر أفكارهما ممثلة للعقلية القومية في عهدهما .

وبرغم الاختلاف الكبير بين شخصيتهما وبين فلسفتيهما فانه لا يوجد تعارض كبير بين المبادئ الأساسية لسياستهما العملية (١) . ففي فكر جلادستون كانت المعايير الأساسية للمسيحية تحتل أسمى مركز . فقد كان يؤمن ، مثل ميلتون ، برسالة انجلترا النبيلة ، وكثيرا ماوضع الاخاء الانساني والعدالة فوق اعتبارات القوة والهيبة ، وبخاصة في محاولة رفع المظالم القديمة التي تعرضت لها ارلندا . وكان دزرائيلي تقليديا أكثر ، ومع ذلك فقد كان هو الذي منح عمال المدن حق الانتخاب وأتاح لهم قدرا كبيرا من الحقوق الاجتماعية التي تهدف الى خلق أمة واحدة من الأمتين اللتين وصفهما في احدى قصصه . وقد ساعد العنصر الرومانسي لديه على اقناعه بأن الخيال هو الذي يحكم الجنس البشرى وليس العقل البارد ، اذ ظهرت لديه كمؤلف روائى عدة سمات رومانسية ، ولكنه سياسى كان أحرص في واقعيته من ان ينغمس في أية تجارب رومانسية . وقد أظهر جلادستون أيضا قدرة ضخمة على الخيال من بعض النواحي ، وان كان بشكل مختلف عن دزرائيلي . فقد كان قميئا باستمرار بأن يشتعل حماسة من أجل قضية الجنسيات المضطهدة . أما دزرائيلي فكان يدرك أكثر المخاطر التي تنطوى عليها الجنسية ، وقد تحدث في ١٨٤٥

(١) انظر المفاصلة بين حياتي رجلى السياسة بقلم د . سومرفل « دزرائيلي وجلادستون » ١٩٢٠ . وكان كلاهما شديدي الاهتمام في ميدان السياسة الدولية بالمحافظة على السلام ، وان كانا قد اختلفا شيئا ما في آساليهما . انظر اقوال جلادستون فيما يتصل بوجهات نظره في كتاب ج . مورلى « حياة جلادستون » ١٩٠٥ ص ٩٥٠ الجزء الاول و ص ١٨٧ الجزء الثاني ، وآراء دزرائيلي في كتاب ه . ا . ايجرتون « سياسة بريطانيا الخارجية في أوروبا » ١٩١٨ ص ٢٧٨ . وفي كتاب والتر سيشل « دزرائيلي » ١٩٠٤ ص ١٩٩ و ٢٠٩ و ٢٢٣ .

بسخرية عن « مبدأ الجنسية العاطفى الحديث » . وكان اعتقاده أن السمة السائدة فى السيكلوجية القومية الانجليزية منذ حركة الاصلاح الدينى هى تراكم الثروة الذى أدواته الصناعة . والحرية وحكم القانون قيمتها الاساسية عند الشعب الانجليزى انهما يوفران الظروف لاقتناء الثروة - وهى وجهة نظر ليس فيها شئ من الرومانسية مطلقا .

وقد ثبت أن الفردية المتطرفة التى اعتنقها معظم النفعيين لا يمكن الدفاع عنها فى المسائل الاجتماعية وفيما يتعلق بالامبراطورية . وقد تعدلت أكثر فأكثر بصعود اتجاهين جديدين : الاشتراكية والامبريالية . وقد أشرنا من قبل الى علاقتهما بمشاكل الجنسية . بيد أن الامبريالية مصطلح غامض تماما . ولا نجدها فى صورتها العدوانية لدى المفكرين الانجليز المبرزين . فبريطانيا الحديثة لم تنتج أية فلسفة عسكرية أو قومية يمكن القول بأنها أثرت فى الأيديولوجية القومية . فامبريالية ذرائيل ودليك وشيللى وفردو وكثيرين غيرهم كانت مجرد سعى لدعم الامبراطورية وتنميتها . وكانت امبريالية رودس وتشمبرلين تنطوى فعلا على التوسع ، ولكن الأفكار التى قامت عليها لا تمكن مناقشتها الا فى ضوء سياسة هذين السياسيين بأكملها ، وهذا خارج نطاق هذا الفصل (١)

٢٠ - نمو الأيديولوجية القومية الفرنسية منذ الثورة

دازت فى فرنسا ، طوال القرن التاسع عشر وبعده ، مناقشات مستمرة حول مدى تحقق الأهداف التى تنطوى عليها فكرة الأمة بواسطة الثورة التطورات السياسية اللاحقة (٢) . ففى أيديولوجية الثورة كانت الأمة مجتمعا مترابطا داخل حدود طبيعية ويقوم على احرية والمساواة والاخاء ويتسم بتضامن قوى ورسالته أن ينشر هذه المثل العليا فى العالم . وكان الاعتقاد الراسخ أن الأمة الحرة تستطيع أن تكون

(١) انظر مع ذلك العرض الذى جاء فى كتابى «Nationalgeist und politik» المجلد الاول ص ٣٠ و ٢٤٠ ، وكذلك الفصل الرابع (١٣) من هذا الكتاب .

(٢) انظر فيما يتصل بالفصل التالى كله كتاب أ. فاجيه «Politiques et Moralistes au 19e siècle» مجلدات وهنرى ميشيل . «L'idée de l'Etat, essai critique sur l'histoire de théories sociales et politiques en France depuis la Révolution»

١٨٩٦ . وروجر سولتاو « الفكر السياسي الفرنسي فى القرن التاسع عشر » ١٩٣١ . وفيما يتصل بالتقليديين انظر ألفونسي روش « أفكار التقليديين فى فرنسا من ريفال انى موراى » ١٩٢٧ . وج . براندير « التيارات الرئيسيه فى أدب القرن التاسع عشر » ١٩٠١ . وهارولد لاسكى « السلطة فى الدولة الحديثة » ١٩١٩ .

ارادة هامة حقيقية تمثل ارادة جميع المواطنين وتضمن سعادتهم وفضيلتهم . ولكن سير الأحداث خيب أمل كثيرين من أنصار الثورة . فأعلن ل . كارنو ، اليعقوبى الوطنى ، فى ١٨٨٤ أنه لا توجد فى فرنسا روح قومية كما فى انجلترا ولا استعداد لتضحية بالمصالح الخاصة فى سبيل المصلحة العامة . وسار المدافعون عن النظام القديم شوطا أبعد ونبذوا الفكرة الثورية عن الأمة بأكملها . وعلم كونت جوزيف دى مايستر أن هناك « عقلا قوميا » متفوقا بكثير على العقل الفردى ، وانه يتألف من « العقائد القومية » و « التحيزات المفيدة » . والعقل البشرى لا يستطيع ابتكار أنظمة سياسية صالحة . والعوامل الفعالة الباقية الوحيدة هى الحقوق والعادات القديمة التى يكشفها الله عن طريق الابطال والانبياء والملوك والمشرعين والتى تتأصل جذورها فى طابع الشعب . ومن الافكار المفضلة لديه ان الله يستخدم الشر فى خلق الخير ، بل انه يشيد بالجلاد بوصفه أداة العدالة السماوية . وقد وضعت الدساتير الثورية للانسان بصفة عامة ، ولكن الانسان المجرد لا وجود له . فالانسان دائما فرد من أمة معينة والدستور الحقيقى للأمة يتحدد بتقاليدها التى تتجسد أساسا فى الأرستقراطية . بل ان هذا المؤلف يقول : « ما هى الأمة ؟ انها الحاكم والنبلاء » .

وكان من أكثر دعاة الفكر التحررى تفوقا مدام دى ستايل (١) . ولم يكن دورها العظيم فى مشكلة الجنسية فى ميدان النظرية بل فى ميدان علم النفس . فكثير من كتاباتها تتضمن ملاحظات قيمة عن السمات القومية وأرادت بذلك أن تشجع نمو روح أوربية فوق القومية . وأشهر أعمالها هو كتابها عن ألمانيا الذى نشر لأول مرة فى ١٨١٣ . وقد عرضت فيه صورة مثالية للمدنية الألمانية التى كانت فى ذلك الوقت فى عصرها الذهبى ، وقارنت بينها وبين الروح الفرنسية ، وسبقت بذلك الى نظرية تين فى « الروح الكلاسيكية » . وكانت أشد رغبات مدام دى ستايل هى أن تقدر كلا من الأمتين : الفرنسية والألمانية الصفات الطيبة فى طابع الأخرى وأن تندمج معرفة الفرنسيين بالعالم وذوقهم ووضوحهم مع العمق والاخلاص والحماسة الألمانية .

وقد تعرض دستور فرنسا ابان السنوات المائة التى أعقبت سقوط نابليون خمسة تغيرات عنيفة جذرية ، دورات من الثورة وعودة النظام القديم ، وبدت البلاد عدة مرات على شفا الثورة أو الدكتاتورية . وبين

(١) البرت سوريل «Mme de Staël» ١٨٩٠ . وفاجيه وبراندنز « المرجع السابق » .

هذه الأحداث عوق النزاع الداخلي دعم أى نظام للحكم وكثيرا ما أدى الى عدم استقرار الحكومات . وكانت جميع هذه الثورات من صنع أقلية صغيرة . أما الأغلبية العظمى من الشعب ، ولا سيما الفلاحين الذين كانوا أكثر من استفاد من انجازات الثورة العظيمة ، فقد أظهروا عقلية محافظة تماما . وعندما أنشئت « الجمهورية الثالثة » فى ١٨٧١ كان للملكيين أغلبية فى الجمعية الوطنية ، ولكنهم كانوا منقسمين الى بونابرتيين وأنصار أسرة البوربون وأولئك الذين أرادوا ملكا من أسرة أورليانز . وكان الجمهوريون أيضا منقسمين الى أحزاب متعددة . وفى الانتخابات التالية سرعان ما حصل الجمهوريون على أغلبية الأصوات ، وإن كان السبب فى الغالب هو أن قسما كبيرا من الناخبين لم يدلوا بأصواتهم وإن النساء لم تكن لهن أصوات . وقد حصلت الأحزاب الجمهورية أولا على الأغلبية بين أصوات الناخبين فى ١٨٩٣ ، وحصل اليسار على أول أغلبية فى مقاعد البرلمان ١٩٠٢ .

وفى ميدان الشؤون الخارجية ظلت فرنسا تتمسك مدة طويلة بمذهب انقوة العسكرية والمجد . وبعد هزيمة نابليون بذل الحلفاء عناية كبيرة فى تجنب ما قد يسيء الى المشاعر القومية الفرنسية فى تسويات الصلح (١) . ومع ذلك ، وبرغم ماعاناه الشعب تحت حكم نابليون ، فإن اسمه لم يفقد سلطته السحرية على عقول قطاع اوسع من الشعب . فقد أحرزت الأسطورة النابليونية التى تمثل الامبراطور باعتباره الصديق الوحيد للشعب شعبية ضخمة (٢) . واستمر الجمهوريون فى التقاليد اليقوبية الخاصة بالحدود الطبيعية ورسالة فرنسا فى تحرير الأمم الأخرى من طغاتها والعداء نحو انجلترا وروسيا والنمسا . وبدأ فى أيديولوجيتهم خليط غريب من الاشادة بالديموقراطية والسلام والمدنية ، والنزعة القومية العسكرية المقنعة فى صورة رسالة قومية للسيطرة على العالم (٣) . وقد وجه تير فى ١٨٥٣ نظر ناساوسينيور الى : « الحاجة المتأصلة فى الفرنسيين الى الانارة وكيف تعبر عن نفسها طوال التاريخ الفرنسى من حروب ايطاليا الى حروب لويس الرابع عشر ونابليون ، مكتفية أحيانا بالتعبير فى صراع الأفكار ولكنها عادة تتطلب تعبيرا نهائيا فى الحرب فعلا » ، وأضاف أن الحكم

(١) ك . ويبستر « السياسة الخارجية لكاستلى » ١٩٢٥ .

(٢) البر جيرار « تأملات فى الاسطورة النابليونية » ١٩٢٤ . وجولز ديكامب « Sur la legende de Napoléon » ١٩٣١ .

(٣) سولتاو ص ٩٧ و ١٠٨ و ١٢١ و ١٢٦ . وه . سيتوارت وب . ديجاردان

الوطنية الفرنسية فى القرن التاسع عشر (١٨١٤ - ١٨٣٣) ١٩٢٣ ص ٢٥٤ .

المطلق « للإمبراطورية الثانية »، وقد جاء عقب الصراعات البرلمانية ، جعل الأمر يتطلب حربا جديدة . ولم يكتف جيزو فى حديث آخر مع سينيور بتأييد تحليل تيير ، بل أعلن أنه « فى حين تكره الامم الأخرى الحرب ، تحبها فرنسا فعلا . وأنه لمن الممتع أن نرى فرنسا وهى مضطرة الى رفض الحرب ، ولكنها تفعل ذلك دائما بأسف . انها تخضع للسلام بنفس النفور الذى تخضعون (الانجليز) به للحرب . ان سياسة السلام توصف، وهى بمعنى ما كذلك ، بأنها ضد القومية » .

بيد أن عصر « الملكية البورجوازية » والامبراطورية الثانية تميزت أيضا بصعود القوى العاملة من أجل السلام . فقد قويت المعارضة ضد نابليون الثالث ، ووجه بعض السياسيين من ذوى النفوذ نقدا شديدا لسياسة الامبراطور الخارجية ولنزوعه العسكرى . وهاجم مؤرخون كبار الأسطورة النابليونية وحاولوا اظهار كيف دمر نابليون فرنسا بسياسته العدوانية . وكان اعظم العلماء والكتاب الفرنسيين متحمسين بشدة للعلوم الألمانية والشعر ورغبوا باخلاص فى صداقة وثيقة بين الشعبين الفرنسى والألماني (١) . وكان النمو الاقتصادى على أشده ، ودخلت البلاد فترة من الرخاء لم يسبق لها مثيل ، وكانت الطبقة الوسطى الصناعية والتجارية تريد السلام لتكسب وتتمتع بالحياة . وانتشرت الاشتراكية والنزعة الى السلام . وعارض برودون، أكثر المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين أصالة، الحماسة العامة لتحرير ايطاليا وبولندا والأمم الأخرى وتوحيدها ، اذ لم ير فى مبدأ الجنسية سوى أنه اداة لدوام سلطة النزعة العسكرية وزيادتها حدة ونواة لحرب لا نهاية لها . وقد كره الدولة المركزية ذات السلطة المطلقة وسخر من روسو واليعقوبية وكانت سويسرا هى مثله الأعلى ، وكان هو من الرواد الاول للسندكالية . وكانت الامة الفرنسية فى نظرة تتألف من عشرين أمة متميزة على الأقل لكل منها سماتها الواضحة المتميزة ، ولا يجمعها سوى القوة . وأراد أن تنقسم فرنسا الى اثنى عشرة دولة مستقلة وأن تتكون أوروبا من فدرال للفدرالات . وكان برودون يكره الحرب ، ولكنه فى كتابه « الحرب والسلام » (١٨٦١) أشار الى أن الحرب عامل من اقوى العوامل المؤدية الى تقدم المدنية ، وان غريزة الجماهير فيما يتصل بأن الحرب مشروعة أحكم من العقل الفردى الذى ينهها . والامة كائن جماعى لديه ارادة التوسع ولا يعترف بأية سلطة قضائية فوقه . . . بيد أنه كان يأمل أن تنظيم المجتمع على أسس عادلة سيؤدى الى اختفاء أسباب الحرب ويحل العمل محل

(١) فيما يتعلق بالتفاصيل انظر كتابى «Nationalgeist und politik» ١٩٣٧

العنف • وقد أراد أوجست كونت أيضا تقسيم الأمة الكبرى الى عدد كبير من الجمهوريات المستقلة تتألف كل منها من حوالى ٣٠٠.٠٠٠ عائلة ولا تربطها سوى الروابط الروحية • فتقسم فرنسا الى سبع عشرة جمهورية ، وعليها أيضا أن تسرح جيشها وأن ترد الجزائر الى العرب • وكأى عقلية قومية كانت عقلية فرنسا فى ذلك الوقت تنطوى على اتجاهات متناقضة ، فمن ناحية كانت هناك رغبة مخلصه فى السلام ومن ناحية أخرى مثل أعلى من الهيبة القومية ينطوى على خطر الحرب • وفى ١٨٧٠ كان بسمارك هو الذى أشعل الحرب التى أرادها لتحقيق الوحدة الألمانية تحت السيطرة البروسية • ولكن الحيلاء القومية الفرنسية والانفعال الفرنسى أسهم بنصيب كبير فى اشتعالها ، اذ أن فرنسا هى التى أعلنت الحرب دون أن تبذل جهدا كافيا لتجنبها • فقد لوح بسمارك بخبث بخرقه حمراء أمام ثور النزعة القومية الفرنسية فأثاره وجعله يندفع برأسه الى المصيدة •

وأثارت هزيمة فرنسا الرغبة القوية فى « الانتقام » ، واستعادة الاقليم المفقود وهيبة الجيش الفرنسى • وقد ظلت النزعة القومية العنيفة متحالفة مع جميع قوى الرجعية زمنا طويلا ومصدر تهديد للنظام الجمهورى ، ولم ينته الخطر تماما الا بعد أزمة دريفوس (١) • ثم أثار الصراع مع الألمان حول المغرب النزعة القومية شيئا ما ، ولكنها نادرا ما سيطرت على الموقف ثانية • فتقدم الروح الديموقراطية والاشتراكية والنزعة الدولية قطعت السبيل على قوى النزعة العسكرية والقومية •

ولم يتميز عهد الجمهورية الثالثة بالانجازات الثقافية والاقتصادية الفائقة فحسب ، بل كذلك بالتوسع العظيم فى امبراطورية فرنسا الاستعمارية وباستعادتها لمركز قوى ومحترم بين الأمم • مع ذلك فان الروح العامة كانت تتميز باستمرار بعدم استقرار شديد والنزاع الداخلى • وقد انتهى أحد الدارسين الانجليز للسياسة الفرنسية ، هوج • بودلى ، فى تحليل نفاذ لفرنسا الحديثة (٢) الى أن « الفرنسيين يبدون عداوة ووحشية وظلما نحو أنفسهم أكثر مما يبدون نحو أى شعب أو جنس آخر » • ويرجع بأصول هذه الروح الى « الثورة » التى أعلنت مبدأ الاخاء بوصفه الهدف الأسمى • « وعندئذ اكتسب الشعب الفرنسى عادة ، لم

(١) فيما يتعلق بتفاصيل هذه الموضوعات أنظر ج • جوش «العلاقات الفرنسية الألمانية ١٨٧٠ - ١٩١٤ » فى « دراسات الدبلوماسية والسياسة » ١٩٤٢ ، وكذلك « Nationalgeist und Politik » كتابى ١٩٣٧ ص ٢٧٢ •
(٢) جون أ • بودلى «فرنسا» (طبعة منقحة ١٨٩٩) •

يفقدونها قط ، هي اعتبار كل جدل سياسى صراعا بين عناصر لا تتلاقى ، كل سلاح مشروع فيه ، وتتجاهل فيه كل روابط القربى » . والنتيجة ، كما يقول بودلى ، أن الجو يسوده التشاؤم وأن الأغلبية العظمى صارت لا تبالي بأى شئ له صلة بالسياسة .

ويمكن تتبع العنف البالغ فى النزاعات الداخلية خلال قرون طويلة من التاريخ الفرنسى . وقد كان السبب الرئيسى مدة طويلة هو عقلية الأرستقراطيين التى تنظر الى الحياة السلمية بازدراء على أنها لا تليق بقدر الرجل النبيل ، والتى اعتبرت الأرستقراطيين من دم أسمى من الطبقات الأخرى . وفى القرن الثامن عشر وبعده كان أنصار الأرستقراطية لا يزالون يدافعون عن امتيازاتها ويدعون أنهم من سلالة الغزاة الفرنك (١) وأثاروا بذلك احتجاجات عنيفة من جانب البورجوازية . وأدى ذلك الى نزاع طويل ناقش فيه كثير من المؤرخين المشهورين والكتاب السياسيين موضوع ما اذا كانت الامة الفرنسية تتألف من جنسين أو أمتين : جنس الغزاة وجنس المهزومين . وبعد ثورة ١٨٤٨ عدل كونت جوبينو وآخرون النظرية الأرستقراطية القديمة الى نظرية عامة للجنس ، وجعل الطبقات العليا من الآريين النبلاء والدنيا من عناصر أدنى سابقة على الآريين . بيد ان هذه النظرية لم تحظ بانتشار كبير فى فرنسا قط .

غير أن التقاليد المسيطرة على عقلية قطاع من الارستقراطية لم تكن السبب الوحيد فى مراة النزاع الحزبى . فبعد الثورة الكبرى رأى كثيرون من الكتاب السبب الرئيسى فى ذلك فى أثر الروح الثورية ، وبخاصة المبالغة فى مبدأ المساواة وإيمان بالحلول الحاسمة بواسطة العنف . وحملت كل ثورة أو كارثة سياسية بعد ذلك كبار المفكرين على البحث فى التقاليد القومية الأساسية . وانتهى ارنست رينان فى ١٨٥٩ الى أن « الفلسفة الثورية ، برغم عظمتها ودعوتها للحرية ، تنطوى على سم خفى : اعتقاد فى العنف وفكرة عن العدالة تقوم على مفهوم مادى للملكية وإهمال الحقوق الخاصة ولكنها تحمل بذور الدمار وتؤدى الى سيادة التفاهة واختفاء الابتكار، وكل ذلك من أجل راحة جثمانية سطحية شروطها فى الواقع تدمر ذاتها » . وبعد هزيمة ١٨٧١ سجل تفكيره فى أسبابها فى كتاب ، وانتهى الى آراء مشابهة . وسرعان ما بدأ تين ينشر مؤلفه العظيم « أصول فرنسا الحديثة » (ستة مجلدات ١٨٧٦ - ١٨٦٣) وتبعه عدد

(١) الفصل الثانى (٤) من هذا الكتاب .

لا يحصى من الكتاب يناقشون تأثير تاريخ فرنسا ، وبخاصة « الثورة » على العقلية السياسية فيها . وفي رأى تين أن مصدر مصائب فرنسا كلها هو « الروح الكلاسيكية » وبخاصة صورتها المتميزة: روح اليقوبية (١) . وقد وجه نقد كثير الى أرائه ، ولكنها تركت آثارا عميقة . ورأى سيبيل فى جميع الأحداث الكبرى فى تاريخ فرنسا نوعان ، نوع تحدوه الروح التسلطية والآخر تحدوه الروح الثورية ، واعتبرهما تنوعا لنفس « العقلية الرومانية » ، التراث الروحي للامبراطورية الرومانية الذى أقحمته الكنيسة على الروح القومية الفرنسية (٢) . والنوعان على السواء يسودهما التعصب والدوجماسية ومناهضة التحررية .

وكثيرا ما قارن نقاد التقاليد القومية الفرنسية هذه التقاليد بالتقاليد الانجليزية . لماذا تجنبت إنجلترا ذلك التقلب المستمر بين الفوضى والاستبداد ، ومرارة النزاع الحزبى ، واذلال الهزيمة ؟ لماذا استطاعت إنجلترا أن تتفوق على فرنسا فى نمو الرثوة وبناء امبراطورية عالمية وفى الهيبة الدولية ؟ وقد جعل المؤرخ والسياسى الكبير جيزو الثورة الانجليزية والثورة الامريكية موضع دراسة عميقة وطويلة انتهت الى بعض أعماله الكبرى ونشر مجموعة كبيرة من المصادر التاريخية . وقد وجد أن الثورة الانجليزية تختلف اختلافا كبيرا عن الفرنسية بسبب روحها الدينية واحترامها للماضى وتأكيدها على حكم القانون وخلوها من الصراع المرير بين الطبقات الاجتماعية (٣) . وعندما انهارت جمهورية ١٨٤٨ وجد كثير من الجمهوريين ملجأ فى إنجلترا وتوفرت لهم فرصة مقارنة السياسة الانجليزية والفرنسية . وكتب الزعيم الديموقراطى المبرز ليردو رولان كتابا (٤) يصف فيه الظروف السياسية والاجتماعية الانجليزية فى صورة كالحة . فأنجلترا يحكمها الأرستقراطيون والرأسماليون الذين يستغلون العالم كله ويضطهدونه ، ونظامها يتميز بعدم المساواة البالغة ، فى حين أن فرنسا تحدوها روح المثل العليا للمساواة والعدالة والانسانية . وتنبا ليردو رولان بالدمار العاجل لقوة إنجلترا وثروتها . ونشر لويس بلان زعيم الاشتراكيين أيضا انطباعاته التى كانت أبعد عن التحيز وأكثر عطفًا

(١) ج. جوش « التاريخ والمؤرخين فى القرن التاسع عشر » ١٩٢٠ ص ٢٣٨

و ٢٥٨ .

(٢) بول سيبيل « Les deux Frances et leurs origines historiques » ١٩٠٥

(٣) جوش ١٨٧ م . باردو « جيزو » ١٨٩٤ ص ١١٩ و ١٢٢ و ١٣٥ .

(٤) ليردو رولان « De la Decadence de l'Angleterre » مجلدان ١٨٥٠ .

على انجلترا (١) . وقام تين في عدد من مؤلفاته بتحليل المدنية الانجليزية والتأكد من سماتها المميزة (٢) . وقد كان من كبار المعجبين بانجلترا وتأثر الى حد كبير ببيرك وهيكل في أرائه عن الطابع القومي . وقرابة نهاية القرن كان الرأي المنتشر في فرنسا أن انجلترا قد تفوقت عليها في التقدم الاقتصادي والسياسي وأن ذلك راجع الى اختلاف أساسى في طابعهما القومي . وقد ناقش ديمولان ، تلميذ ليبلاي ، هذا الموضوع في كتاب حظى بانتشار كبير (٣) . وعزا تفوق الانجلوساكسون أساسا الى نظام التربية عندهم وحياتهم المنزلية وتقاليدهم السياسية التى تدعم كلها روح الفردية الجادة والابتكار ، فى حين يتطلع الفرنسيون فى كل شئ الى الدولة . وبحث المؤلف أيضا فى تأليف البرلمانين الفرنسى والانجليزى تبعاً للمهن ووجد أن ثلثى النواب تقريبا فى فرنسا من المشتغلين بالمهن الحرة ، أكثرهم من المحامين والصحفيين والموظفين السابقين ، فى حين أن أغلبية أعضاء البرلمان الانجليزى من المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة . ومن ثم فإن الحياة السياسية فى فرنسا سيطر عليها المثقفون الذين يلعب بينهم اليساريون دورا بارزا . والاختلاف فى تأليف البرلمانين الانجليزى والفرنسى له مغزاه فيما يتصل باختلاف الروح ، وقد بحث كتاب كثيرون آخرون أيضا فى الانظمة والتقاليد البريطانية وقارنوها بالانظمة والتقاليد الفرنسية وحاولوا تتبع السمات القومية (٤) .

وقد كرس الفرد فوييه ، وهو عالم ممتاز ، عدة كتب لمشكلة الطابع القومي وبخاصة الطابع الفرنسى (٥) . وهو يفترض أن للمزاج

-
- (١) لويس بلان «Lettres sur l'Angleterre» مجلدان ١٨٦٦ .
 (٢) هـ . تين «Histoire de la France» «Notes sur l'Angleterre, 1872»
 . ١٨٦٣ Littérature Anglaise
 (٣) ادموند ديمولان «A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons»
 (ترجمة انجليزية من الطبعة العاشرة الفرنسية ١٨٩٩) وهناك كتاب آخر بقلم كاتب من
 مدرسة ليبلاي يناقش أصل الاختلافات الاساسية فى سيكلوجية الامة الانجليزية
 الفرنسية وبعض الامم الأخرى هو كتاب هنرى دى توكفيل «Histoire de la formation
 particulariste, l'origine des grands peuples actuels»
 (٤) ماكس ليكليرك «L'éducation des classes moyennes et dirigeantes en Angleterre»
 ١٩٠١ ، «Les professions et la société en Angleterre» ١٩٠١
 واميلى بوتى «Essai d'une psychologie politique du peuple anglais au XIXe siècle»
 «Essai d'une psychologie de l'Angleterre» ١٩٠٣ وجاك باردو
 «contemporaine» مجلدان ١٩٠٦ - ١٩٠٧
 (٥) الفرد فوييه «Psychologie des peuples européens»
 «L'idée moderne du droit en France, en Angleterre et en Allemagne»
 «Psychologie du peuple français»

والجو تأثيرا قويا على الطابع القومي ، وهى وجهة نظر سادت فى فرنسا أكثر من البلاد الأخرى . وينتهى المؤلف الى « أن فرنسا عهد ثورة ١٧٨٩ هى التى ستسود فى النهاية وتثبت صحتها برغم أخطائها ونقائصها ونكساتها » . وعلى النقيض من ذلك كون جوستاف لوبون نظرية عن السيكلوجية الجماهيرية تتسم بالطابع اللاديموقراطى بشكل حاسم ، كما أكد أيضا أهمية الجنس (١) . ومن الجلى أن وصفه المتشائم جدا لعقلية الجماهير متأثر الى حد كبير جدا ببعض المراحل المعينة من الثورة الفرنسية .

وكان أهم ممثلين للنزعة القومية الفرنسية الحديثة هما : موريس باريه وشارل مورا . وكان باريه كاتباً قصصياً ممتازاً كما اشترك أيضاً فى السياسة (٢) . وقد بدأ حياته العاملة عالمى النزعة وفردياً متطرفاً ، وقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن والفلسفة الألمانيتين . وأيقظت أزمة بولانجيه وصعود النزعة القومية الألمانية الشعور القومى لديه وحاول وضع مذهب للقومية يصلح مذهباً لحركة تهدف الى اقامة دكتاتورية . وكتابات المتأخرة تتميز بكرامية البرلمانية والديموقراطية والنفور من الألمانية والأجانب واليهود والبروتستانت ، والتطلع الى إعادة ادماج الازناس واللورين وبشوفينية مهذبة بصفة عامة . وكان شعار نزعته القومية هو : الموتى والتربة . ويدين باريه فى تفكيره بالكثير للرومانسية الألمانية وكان أساساً من النوع الرومانسى ، وان كان قد أعلن أن الكلاسيكية هى التقليد الفرنسى الحقيقى . وكان معبوده هو نابليون وأشد بتقاليد فرنسا الحربية العظيمة ، ولكنه لم يدع الى سياسة عدوانية . وقبل الحرب الأولى كان له بعض النفوذ على الشباب المثقف . ولكن النزعة الجمالية والرومانسية عنده لم تجدا صدى لدى الجماهير ، وكانت نزعته القومية أساساً محاولة لنهرب من خطر الفوضى والعدمية الذى تنطوى عليه ذاتيته المتطرفة . وكون شارل مورا مذهباً سماه « القومية المتكاملة » صار بعد ذلك برنامج حركة أطلق عليها « العمل الفرنسى » (٣) . وهو يرى مصدر كل

(١) فيما يتعلق بجوستاف لوبون أنظر الفصل الاول (٥ - ١) من هذا الكتاب .

(٢) هناك عرض مفصل لآراء باريه فى كتابى «Nationalgeist und Politik»

ص ٢٩٥ ، م . باريه «Scènes et doctrines du Nationalisme» مجلدان .

وسيلفراكنج « م . باريه » ١٩٣٣ . وأ . كيرتوس « باريه » ١٩٢١ . وفيما يتصل

ودعاة القومية الآخرين أنظر د . بارودى «Traditionalisme et démocratie»

١٩٠٩ . وجورج جى جران «La philosophie nationaliste» ١٩١١ .

(٣) شارل مورا «Romantisme et revolution» ١٩٢٥ . وم .

دى رو «Maurras et le Nationalisme de l'Action Française» ١٩٢٧ .

الشروع التي تشوه الحياة السياسية والاجتماعية في فرنسا الحديثة في الفردية المتطرفة التي تؤدي الى الفوضى . وتظهر هذه الفردية في صور متعددة مثل الرومانسية والفلسفة الألمانية والتقليد الثوري والماسونية والبروتستانتية والمسيحية واليهودية . والتقليد الحقيقي لفرنسا هو الكلاسيكية كما تتمثل في الانجازات العظيمة في عهد الملكية القديمة ، الكنيسة الفرنسية والأدب والفن في القرن السابع عشر . فالفرنسيون هم الحلفاء الروحيون للاغريق القدامى والرومان ومن ثم هم ضد الروح العبرية في المسيحية والروح الألمانية والفرنسية في حركة الاصلاح الديني والرومانسية . ويكره مورا بصفة خاصة روسو ، أبا الرومانسية والثورة . وهدف « العمل الفرنسي » هو اقامة دكتاتورية تمهد السبيل لعودة الملكية التي لا يتفق مع الروح الفرنسية غيرها . ولكن هذه الحركة لم تلق نجاحا قط . وهناك كتاب آخرون عرضوا أيضا فكرة أن روسو هو المسئول الأساسي عن الرومانسية والديمقراطية والانحلال القومي (١).

ولم يكن الهجوم على تقاليد الجمهورية الفرنسية من جانب كتاب اليمين وحدهم ، بل ان كتابا من اليسار المتطرف هاجموا أيضا . فجورج سوريل في كتبه يعرب عن أشد ازدراء للبرلمانية وللإيمان بالعقل والحل الوسط . وبدت له التحررية والديمقراطية من نتاج الطبقة البورجوازية الوجلة والمخدوعين فيها ، الاشتراكيين المعتدلين (٢) . وكان سوريل مثقفا واعتنق برنامج السند كاليه الثورية . وطالب أن توقف النقابات الحياة الاقتصادية كلها باعلان اضراب عام وأن تستخدم فترة الفوضى الناجمة عن ذلك في الاستيلاء على الحكم بالقوة واقامة دكتاتورية بواسطة الارهاب . فالبروليتاريا لن تستطيع قط الاستيلاء على الحكم بالأساليب السلمية ولا بمجرد الحجج العقلية . وكل ما يمكن أن تأمله هو تحقيق الاشتراكية بالعنف تحت تأثير نزعة من الإيمان الصوفي المسكر أو الرؤيا التي أطلق عليها سوريل « الأسطورة الاجتماعية » .

وقد تأثر فكره أساسا بماركس ونييتشه ، كما اعتنق أيضا بعض أفكار من هيجل وبرودون وبرجسون . ورفض الاشتراكيون أفكار سوريل ،

(١) أرنست سير «Le péril mystique dans l'inspiration des démocraties

contemporaines» ثلاث مجلدات . وبير لاسير «Le romantisme Français»

(٢) جورج سوريل «Reflexions sur la violence» ١٩٠٨ . وبير لاسير

«Sorel théoricien de l'impérialisme» ١٩٢٨ . وسلتاو ص ٤٤٢ .

ولكن اليمين المتطرف اهتم بها اهتماما بالغا . وقرابة نهاية حياته أعرب سوريل عن اعجابه بالبلشفية . بيد أن أكثر تلامذته تحمسا كان موسولينى الذى يدين بأيدولوجيته السياسية كلها تقريبا لسوريل وباريتو .

وقد هاجم كل أعداء النظام الجمهورى ، اليمينيين واليساريين على السواء ، البرلمان بوصفه المصدر الرئيسى لعدم الاستقرار والفساد وانعدام التنظيم . وكانت فى حججهم طبعاً مبالغات شديدة (١) ، ولكن المشكلة تظل مع ذلك لماذا تظهر فى الروح العامة كل هذه العداوة الحزبية وعدم الرغبة فى التعاون ، وكذلك ذلك القدر الكبير من التشاؤم والشك واللامبالاة فيما يتعلق بالسياسة عموماً . وقد رأى بعض الملاحظين السبب فى وجود ميول أصيلة افترضوها فى المزاج والعقل الفرنسيين ، وأكد آخرون قوة تأثير التقاليد أو الصراعات الاجتماعية . وكان من العوامل الغريبة التى ذكرت الكنيسة . فطوال القرن كان قسم كبير من الصراعات السياسية يدور بين المدافعين عن الكنيسة وأعدائها بصورة لا نجد لها مثيلاً فى التاريخ الانجليزى أو الألمانى المعاصر (٢) . وكان روسو قد فكر فى وضع دين مدنى جديد بدلا من الكاثوليكية يحقق الوحدة القومية والوفاق ، وحاول روبسبير تطبيق فكرته . ويرجع بعض السبب فى عدوانية الصراعات السياسية الى أنها كانت صراعا بين مذهبين ، الكاثوليكية واليعقوبية . بيد أن بعض المفكرين انتهوا الى أن الدين القديم قضى عليه فى قلوب الناس دون أن يجدوا معتقداً جديداً حقيقة ، وأن عدم وجود أى روح دينية هو أعمق الأسباب فى العدمية الأخلاقية والفوضى السياسية السائدة . ان كونت أعلن أن التاريخ يتألف من احلال العلم محل الفكر الدينى والميتافيزيقى ، ولكنه كان هو نفسه داعية دين جديد . وأراد مورا ، وان لم يكن من المؤمنين بالمسيحية ، التى كان ينفر منها بوصفها «اختراعاً يهودياً» ، أراد أن يعيد سلطة الكنيسة الكاثوليكية التى اعتبرها ضرورية للوحدة القومية والنظام والعظمة . ولا ريب أيضاً فى أن التفوق الساحق فى العدد للمحامين والصحفيين والمثقفين الآخرين فى البرلمان دعم اتجاهات الجموح والتأمر الطموح . فقد كان كثير من المثقفين

(١) ج . برايس «الديمقراطيات الحديثة» ١٩٢١ - المجلد الاول عن الديمقراطية الفرنسية .

(٢) باستثناء الـ «Kulturkampf» فى عهد بسمارك ، وهو لم يستمر الا لفترة

لأسباب مختلفة غير مبالين بالديموقراطية أو يقفون منها موقف العداء .
فالأكاديمية الفرنسية ، ذلك المجمع الرفيع المؤلف من أعظم العلماء
والكتاب ، كانت فترة طويلة معقل نزعة قومية وعسكرية مهذبة ، وكان
كثير من أعضائها يتوقون الى دكتاتورية قائد عسكري . بيد انه مع مرور
الوقت زاد عدد المثقفين المبرزين الذين اعتنقوا قضية الديمقراطية
والتقدم الاجتماعى والنزعة الدولية . ولعل أعظم شخصية فى ميدان الفكر
كانت شارل رينوفيه ، وكان أعظم ممثل للروح الجديدة فى ميدان العمل
هوجين جوريه بشخصيته العظيمة (١) . وبعد الحرب الأولى أدى صعود
البلشفية والفاشية فى العالم الى تدهور الجو السياسى ثانيا . ويرجع
السبب الأساسى فى كارثة سقوط فرنسا فى هذه الحرب الى بعض التقاليد
المعينة فى حياتها السياسية .

وقد عرض أندريه سيجفريد بعد الحرب الأولى وصفا شائقا للعقلية
الفرنسية (٢) . فهو يؤكد أهمية أن فرنسا لا تزال أساسا بلد صغار
الفلاحين الملاك وأصحاب الحرف ، وإن كانت الصناعات الكبيرة زادت فى
العصر الحديث زيادة ضخمة . والطابع القومى متأثر الى حد كبير جدا بعقلية
الفلاحين وصغار التجار ، وهو يختلف تماما عن الصورة التى لدى معظم
الأجانب عن الطابع الفرنسى بانطباعاتهم بالحياة فى باريس . والأغلبية
الكبرى ليست مستهترة ومتقلبة وثورية ، بل متشعبة باحساس قوى
بالأسرة والملكية والتطلع البورجوازى الى التميز الاجتماعى « من أجل
الأولاد » والشك السياسى والنزعة الفردية واللامبالاة الكاملة بالشئون
الخارجية والأسواق الأجنبية والمستعمرات . والشعب الفرنسى ، كما يقول
سينوبوس ، يستبشع الحرب ولكنه لا يعرف مطلقا كيف يتجنبها . ويقول
الأستاذ سيجفريد أيضا أن المبادئ والمثل العليا هى قلب السياسة
الفرنسية وروحها ، وبخاصة كموضوعات للبلاغة ، ولكن النخبين يعطون
أحد الأحزاب الكثيرة أصواتهم لأنهم يحبون أو يكرهون أسلوبا معيناً من
الحياة ، وبخاصة لأنهم يحتقرون أى تمييز فى الملبس والمهنة والأفكار .
والراديكالية السياسية كثيرا ما تقترن بالمحافظة الاجتماعية ، فالرجل
الفرنسى يضع قلبه فى اليسار وكيس نقوده فى اليمين ، ولكل فرنسى
تقريبا كيس .

(١) انظر فيما يتصل بنقد رينوفيه الشديد ضد النزعة القومية سلتاو
المرجع السابق ص ٣٠٦ و ٣١٦ - ٣١٩ .

(٢) أندريه سيجفريد « فرنسا ، دراسة فى الجنسية » ١٩٣٠ . وهناك دراسة
مهمة جدا أيضا كتبها كرلتون هيز فى « فرنسا ، أمة الوطنيين » ١٩٣٠ ، وهى
نصف أساسا الاساليب التى تكونت بواسطتها الوطنية الفرنسية واشتجرت بواسطتها .

مهد كثير من المفكرين السبيل لتوحيد ايطاليا ، ومن بينهم روسمىنى وجيوبرتى وكلاهما من رجال الدين الكاثوليك ، وكانا يدعوان لانشاء كونفدرال ايطالى يتولى البابا رياسته الشرفية . وقد أعلن جيوبرتى فى مؤلفه «التفوق الاخلاقى والمدنى للايطاليين» (١٨٤٣) أن رسالة الامة الايطالية هى أن تقود العالم روحيا نحو الوحدة والوفاق ، وتصور قيام عصبة أمم تحت رئاسة البابا .

وكان جيسبى مازينى (١٨٠٥-١٨٧٢) من أكثر شخصيات عصر البعث الايطالى سحرا (١) . وقد كرس حياته كلها لتحرير ايطاليا وتوحيدها ، وكان يأمل أن تتولى ايطاليا قيادة تحرير جميع الشعوب المضطهدة وتوحيد الجنس البشرى فى صورة اتحاد من الامم الحرة تحت زعامة ايطالية . ولهذا الغرض عمل باستمرار فى وضع الخطط، وتنظيم الجمعيات السرية والمؤامرات والثورات، لا فى ايطاليا وحدها بل فى بلاد أخرى أيضا . وفى ١٨٤٩ كان روح «الجمهورية الرومانية» ولكنه عاش الجزء الأكبر من حياته فى المنفى ، فى انجلترا غالبا ، وحتى بعد تحرير ايطاليا ظل منفيا رسميا ولم يستطع زيارة ايطاليا الا متنكرا فى هيئة رجل انجليزى .

وكانت الجنسية عند مازينى دينا . ومن الافكار الاساسية فى مذهبه أنه لا يمكن وجود مجتمع ولا تقدم مهم دون اعتقاد دينى قوى . فلا مذهب حقوق الفرد الذى أعلنته الثورة الفرنسية ولا مبدأ أكبر قدر من السعادة الذى علمه بنتام ولا مادية الاشتراكيين يمكن أن يقوم عليها أساس فلسفى لمجتمع منظم يستطيع الناس أن ينموا فيه كل ملكاتهم . فاذا كانت حرية الفرد وسعادته هما الهدف الأسمى فكيف يطالب الافراد باخضاع مصالحهم لمصلحة المجتمع ويضحون بأنفسهم لرفاهته ان واجبات الانسان نحو المجتمع تسبق حقوقه ، وفكرة الواجب تنطوى على مشروعية دينية فوق الطبيعية . فالناس لا توجد لتكون سعيدة أو لتفعل ما تراه ، بل لتحقيق رسالة فى خدمة الانسانية . والحرية هى القدرة على

(١) تاريخ حياته بقلمه «حياة جوزين مازينى وكتابات» (بالانجليزية) ستة مجلدات ١٨٦٤ - ١٨٧٠ و «خطابات مازينى الى عائلة انجليزية» تحت اشراف ا ، ف . ريتشاردز ، ثلاثة مجلدات ١٩٢٠ - ١٩٢٣ . وبولتون كنج «مازينى» ١٩٠٢ . وجويليم جريفيت «مازينى : نبى أوروبا الحديثة» ١٩٣٢ .

الاختيار بين الاساليب المختلفة فى تأدية الواجب على أفضل صورة تتفق وميولنا الخاصة .

بيد أن الدين عند مازينى ليس دين الكنائس التى عاشت أكثر مما ينبغى فى نظره . وكان يكره البابوية واعتبرها مقضيا عليها ، وانتقد المسيحية لأنها فردية أكثر مما ينبغى وتنقصها الوطنية والاهتمام السياسى والاجتماعى بصفة عامة . والثورة الفرنسية وما تمخضت عنه من «حقوق الانسان» نتاج المسيحية ، وسرعان ما أدت الى المادية . والمادية والفردية لا يتفقان مع الديمقراطية . فهما يؤديان اما الى الفوضى أو الاستبداد . وقد ظل مازينى يكافح باستمرار من أجل وضع دين جديد تتوحد فيه الانسانية والجنسية فى وئام تام . وبدأ له تقدم المدنية أسمى هدف ، والجنسية هى الوسيلة التى أعدها الله لتحقيق هذا الهدف ، ومن ثم فهى مقدسة . بيد أن محاولته من أجل وضع دين جديد لم تؤد الى اتجاهات واضحة محددة ، بل انتهت بموقف متردد بين المسيحية ومذهب وحدة الوجود . وتقدم المدنية هو دلالة الذات الالهية على نفسها فى جنسيات مختلفة ، لكل منها رسالتها المنفصلة .

وهناك تقارب واضح بين فلسفة مازينى والميتافيزيقين الالمان ، وبخاصة فيشته وهيجل (١) . والواقع أن مازينى بذل جهودا فى دراسة بعض أعمالهما كما تشرب الهيجيلية عن طريق كوزان . وقد أشعل هردروفيكو الحماسة الصوفية نحو الانسانية لديه . وكذلك كان للرومانسية الالمانية والفرنسية أيضا تأثير كبير جدا فى صياغة أفكاره . وقد كان مازينى يفضل ، مثل جميع المثاليين ، التفكير المجرد على الدراسة التجريبية للحقائق الاجتماعية والتاريخية المجسمة . وكان مثل الرومانسيين قميئا بأن يضع البصيرة الداخلية والخيال فوق العقل الجاف ، وآمن بأن عبقرية الشعب وادراكه العادى كافيان لاكتشاف الحقيقة دون دراسة كبيرة . وكان هو نفسه واسع الاطلاع ومفكرا سياسيا ثاقبا .

وفكرة الامة التى كان مازينى يفكر فيها هى المجتمع الوثيق الترابط المؤلف من أكفاء يتعاونون فيما بينهم ومع الامم الأخرى من أجل السمو بالجنس البشرى روحيا ومعنويا . وتتكون الأمم بارادة الشعوب فى تكوين أمة وبرسالة أخلاقية معينة . ومن ثم فإن الامة ليست نتاجا تحكيميا من الدولة ، فهى متأصلة الجذور فى الظروف الجغرافية والتاريخية وفى التقاليد التى تكونها هذه الجذور . وأول ضرورة للأمة هى الوحدة ،

(١) أوتو فوسلر «Mazzini's politisches Denken und Wollen» ١٩٢٧ .

بالمعنى السياسى القائم على توحيد كل الشعب الذى يتكلم نفس اللغة وله نفس التقاليد فى دولة واحدة ، وبالمعنى المعنوى القائم على تحويلهم الى كل متجانس عن طريق وحدة المبادئ . وقد بدت الوحدة لمازىنى أهم هدف ، وحارب بشدة خطط توحيد ايطاليا فى صورة فدرال . وكان اعتقاده أن ايطاليا الفدرالية ستظل دائما ضعيفة لا تستطيع تحقيق رسالتها . فضلا عن أن الامة يجب أن تكون مستقلة لا تخضع لحكم أو نفوذ أجنبى . وحدة فى أنظمتها الداخلية التى لا يمكن أن تكون الا ديموقراطية .

وقد وضع مازىنى حدا فاصلا بين الجنسية والنزعة القومية . فالجنسية تعنى المساواة والسلام والتعاون الأخوى بين جميع الامم . وكل أمة حرة عليها واجب أن تساعد الامم المضطهدة على نيل حريتها . وقد هاجم بشدة سياسة انجلترا القائمة على العزلة وعدم التدخل واعتبرها سياسة مادية أنانية قصيرة النظر وتحط من قدرها وتجعلها دولة من الدرجة الثالثة .

ويرجع التنافس والحروب بين الامم فى رأيه الى مجرد طموح الملوك والارستقراطيين . ومتى تحررت جميع الامم فستعيش فى سلام كامل وتؤلف فدرالات اقليمية كبرى وعصبة أمم . وكان مازىنى يكره العمل من أجل القوة القومية والسيطرة على حساب الامم الاخرى ووصف ذلك بأنه انحراف للجنسية ونزعة قومية ضيقة تعسة . هذه « الجنسية المتوحشة العدوانية المشاكسة » التى خلقها الملوك وأنصارهم أصبحت الآن من ظواهر الماضى . وقد سرت العدوى الى الشعوب أيضا ، ولكن « النزعة القومية لدى الشعوب كانت تختفى بسرعة » . وفى مكان آخر يقول مازىنى « ان جنسية الشعوب لم توجد بعد - فهى من أمور المستقبل ونحن لا نجد جنسية فى الماضى باستثناء تلك التى يحددها الملوك » .

وقد أظهر مازىنى فى كل كتاباته غير من فرنسا التى بدت له تمثل « المعارضة » لماديتها وشهوة القوة والسيطرة والخيلاء لديها . ولا شك أن هذه المحاولة فى تبرير موقفه كانت مغلظة وصحيحة الى حد ما . ولكن خلفيتها كانت بالتأكيد الشعور بالحسد نحو المركز التاريخى العظيم الذى تحتله فرنسا والرغبة فى تحقيق التجانس الروحى على الأقل لاطاليا . وكان مازىنى يعتقد أن مهمة ايطاليا هى تحقيق الوحدة المعنوية لأوربا والجنس البشرى كله . فمجلس الامم مركزه فى روما ، المدينة الأبدية ذات الجلالة . فقد تصور أنه ستوجد بعد روما الاولى فى

عهد القياصرة وروما الثانية فى عهد البابوات روما ثالثة فى عهد الشعب الايطالى ، وستكون « روح العالم » و « كلمة الله بين الامم » ، ومركز دين انسانية جديد .

وعندما أنشأ مازينى جمعيته السرية «ايطاليا الفتاة» حدد الهدف من الثورة التى يسعى اليها بهذه الكلمات « ما الذى نريده ؟ اننا نطالب بأن نوجد . اننا نطالب باسم . نحن نرغب فى أن نجعل بلدنا قويا ومحترما وحرا وسعيدا » . وطالب بالوحدة لأنها تنطوى على قوة أكبر ، وأعلن أن قوة الامة غير محدودة . ويجب أن تكون الدولة قوية ، وقد رفض مازينى الفكرة التحريرية التى تنكر القوة على الدولة بانشاء توازن قوى داخلى وبالكوابح والوسائل التى تمنع تركيز القوة فى يد واحدة .

وصحيح أن رغبة مازينى فى قيام دولة قوية لم يكن هدفها الغزو والسيطرة . لقد كان كل ما يريده هو تحقيق الاستقلال القومى واستخدام سلطة الدولة فى تحسين حال الجماهرة الكبرى من الشعب . فقد كان مازينى يعطف بانفعال على جميع المضطهدين وخصوصا من لا نصيب لهم فى المجتمع ، وأدرك ضرورة الاصلاحات الاجتماعية الكبيرة وتنبا بصعود العمال للاستيلاء على السلطة السياسية . وقد دعا أيضا الى حد ما الى الاشتراكية وان لم يرد الشيوعية المطلقة . ولكنه عارض بشدة وجهة النظر المادية فى الماركسية والمذاهب الاشتراكية الاخرى وفكرة صراع الطبقات . والثورة الفرنسية أيضا اعتمدت على مصالح الانسان الانانية والشخصية ووعدت الناس حقوقا وسعادة أدت الى فشلها . أما الثورة الايطالية فانها ستهدف الى مثل أعلى أسمى من ذلك بكثير .

ولم يضح مازينى بالاخلاقيات الفردية فى مقابل أخلاقيات جماعية أسمى كما فعل هيجل ، فشكل من الحياة الخاصة والعامة يحكمها قانون أخلاقى واحد لا تستطيع حتى ارادة الشعب أن تلغيه . فحرية الشعب مقدسة فى حدود ما تتفق مع الحريات الاساسية للانسان ، اذ كان مازينى يدرك خطر ارادة الشعب عندما تضلل . وأشار محذرا الى أمثلة الجمهورية الفرنسية الثانية حيث باع الحرفيون حقوقهم السياسية للويس نابليون مقابل وعد ببعض الميزات الاجتماعية ، بضع قطرات من الاشتراكية . ومن ثم فان أكبر مهمة للدولة هى التربية . فالديموقراطية ليست مجرد وجود أنظمة حرة فحسب ، بل توجد فى روح الشعب التى لا يمكن خلقها الا بسياسة تربوية كبرى . وتتطلب ذلك اصلاحات اجتماعية بعيدة المدى .

وقد عقد مازينى كل آماله مثل معظم الرومانسيين على الشباب والشعب . وقد استبعدت الرابطة « ايطاليا الفتاة » التى أسسها للدعوة لمبادئه من عضويتها كل من تجاوز الاربعين . وقد كتب «ضع الشباب على رأس الجماهير المتمردة ، فانت لا تعرف مقدار القوة الكامنة فى هذه العصابات الشبابية ، ومدى التأثير السحري لأصوات الشباب على الجماهرة . انك عندئذ تجدهم وقد تحولوا الى رهط من الأنبياء يدعو لدين جديد . ولكن الشباب يحيا فى الحركة ويصير عظيمًا بالحماسة والايمان . كرسهم لرسالة سامية ، وأشعل حماسهم بالثناء والتقدير ، وانشر بين صفوفهم كلمات النار وكلمات الالهام ، تحدث اليهم عن الوطن والمجد والقوى والذكريات العظيمة » .

وكان مازينى يعتقد أن الشعب أيضا كثيرا ما تكون لديه بصيرة جماعية تستوعب الحقيقة أفضل من عقل الفرد . والثقة فى الشعب والشباب تنطوى على الثقة فى العواطف والانفعالات والحماسة والتطرف والنشاط والبطولة . أما الدبلوماسية الحذرة والحساب اليقظ لكل الظروف فهما أسلوب الشيوخ وهم قلة . فالجماهير لا تستشيرها الحجج المتوازنة بعناية والعمل لا يثيره سوى العمل والطاقة لا تثيرها الا الطاقة . وقد دعا مازينى الى تجنب الحلول الوسط ، فهى لا أخلاقية دائما تقريبا .

وكانت الضرورة الاولى لتحقيق خطط مازينى هى الاستقلال القومى ، وكان لا بد من الحرب مع النمسا لتحقيق ذلك . وكان مازينى يتوق لهذه الحرب ، وأمل أن تكون إشارة لفورات فى كل البلاد التى تعيش فيها شعوب يضطهدها الملوك والأرستقراطية . فكان يتعجل باستمرار اثاره الشعوب الى التمرد حتى تدخل ايطاليا الحرب ضد النمسا دون حساب للقوى العسكرية فى الجانبين أو الحصول على حلفاء أقوياء . فالشعب الايطالى فى رأيه سيحقق الحرية بقوته وحدها دون مساعدة من أية دولة أجنبية أو ملك ايطالى . واقترح لتحقيق ذلك شن حرب عصابات « بالخناجر ضد المدافع » اذا تطلب الامر . وسيستطيع الشعب فى أثناء الحرب الاستيلاء على مخازن السلاح وسيفر الجند ، ومعظمهم من السلافيين والهنغارين والايطاليين ، من الجيش وسرعان ما ستثور الشعوب المضطهدة فى كل مكان وتحطم الامبراطورية . والحرب ليست الأداة التى لا غنى عنها للتحرير فحسب ، بل هى أيضا وسيلة للبعث الاخلاقى . فستعيد لاطاليا احترامها لذاتها مرة أخرى وحققا فى احترام الشعوب الاخرى . وقد سخر مازينى من دعوة أنصار كوبدن السلامية . وأثارت الاساليب

التي دعا اليها مازيني في حرب التحرير كثيرا من النقد حتى بين أصدقائه . فتبعيا لتعليماته ، التي طبعت بين « مجموعة أعماله » ، يجب على عصابات المقاتلين أن تحارب بدون لباس رسمي أو علامة مميزة تمكن رؤيتها من بعيد ، على الأقل في الفترة الاولى من الحرب . بالاضافة الى أنه يجب اشعال الحرب بهجوم مفاجيء على ضباط العدو وجنوده وقتلهم تبعا لأمثلة الصقليين في تمرد ١٢٨٢ . ويذكر أروسيني في ذكرياته عن مازيني التعليمات التي أصدرها في ١٨٥٤ باغتيال جميع كبار الضباط النمساويين فجأة كمقدمة للثورة (١) . وقد فشلت هذه الخطة ولكن بعض المدنيين طعنوا جنودا وأثار ذلك عدة انتقامات . وفي ١٨٥٦ هاجم البطل القومي الكبير دانييل مانين علنا « نظرية الخنجر » وقال : انها « من أكبر أعداء ايطاليا » . واحتج مازيني على هذا النقد وحاول أن يثبت أنه لا يعتقد في الاغتيال السياسي ، الا في حالات استثنائية جدا ، وأن الهجوم على الجنود النمساويين حرب مشروعة وان لم تكن نظامية . وكان هو شخصا رقيق القلب جدا ، وقد عدل عن دراسة الطب لأنه كان يغمى عليه في غرفة التشريح .

وفي السنوات التالية أعرب عن اشمئزازه من اراقة الدماء وجميع أنواع الارهاب الذي تقوم عليه خطط مثل أفكار الانتقام والعقاب في القانون الجنائي . ولكنه فشل في ادراك الفرق بين قتل طاغية قاس خارج على القانون ، الذي أقره أو تسامح فيه كتاب دينيون كبار في الماضي ، والهجوم على أفراد لمجرد أنهم دعاة نظام سياسي . بيد أننا ينبغي أن نؤكد ان مازيني كان يريد قصر هذه الاعمال على أقل قدر ممكن ، وأنه رفض الاغتيال لمجرد الانتقام ، وان كان قد اعترف في مذكراته بأن بعض الجماعات المحلية من اتباعه قد تجاوزت تعليماته . ولم يتشوه البعث الايطالي بكثير من أعمال العنف . بيد أن فكرة أن قضية حركة التحرير القومي تبرر أية وسيلة ، وأن رسالة الشباب هي اثارة الجماهير بأعمال بطولية ، كان لها نفوذ كبير فيما بعد في كثير من الحركات القومية ، وكان

(١) ف . أروسيني « ذكريات ومغامرات » (ترجمة انجليزية) ١٨٥٧ ص ١٢١ . وفيما يتصل بموقف مازيني من الاغتيال السياسي عموما أنظر كتاباته المجلد الاول ص ٢٢١ ، المجلد السادس ص ٢٦٦ ، وبولتون كنج « تاريخ الوحدة الإيطالية » و « مازيني » ص ١٦٤ . ومن المفيد مقارنة مؤامرة مازيني في ميلانو وموقف فيشته في مناسبة مماثلة . فعندما اكتشف فيشته ، الذي يوجد في أفكاره وأعماله تشابه قوى بأفكار وأعمال سارزني في ١٨١٣ ، ان الوطنيين الالمان يعدون خطة للهجوم على الحامية الفرنسية في برلين واغتيال أفرادها أبلغ الشرطة على الفور وفشلت الخطة وان كان اهتم بالأمر يتعرض القائمون بها لخطر .

لها أثر ضخم في مصير الانسانية . ففي سنة ١٩١٤ أطلق شاب ، عمره ثمانية عشر عاما ، النار على وريث عرش النمسا المجر وزوجته ، بعد عدد كبير من الاغتيالات ومحاولات اغتيال ارتكبتها في الغالب طلبة ، وأدى ذلك الى نشوب الحرب الكبرى التي قضت على حياة عشرة ملايين أو أحد عشر مليوناً من الجنود (١) ، بالإضافة الى ألوان المعاناة الأخرى ، وبصورة غير مباشرة ، الى الحرب العالمية الثانية التي انبثقت عن الاولى .

وكان من نتيجة اهمال الواقع في كثير من الحالات أن مازينى اتخذ مواقف من المسائل السياسية العملية تبدو متعارضة تماما مع مثله العليا . وكما أشرنا من قبل كان مازينى يعتقد أن لكل أمة مهمتها الخاصة ورسالتها . ولعل هذه الفكرة جاءت من هرردر وفيشته وهيجل . ولكن هؤلاء المفكرين لم يعلموا أن الامة التي بلا رسالة لا حق لها في البقاء ، وان كان هيجل على الاقل فكر أن الامة ، التي تعبر في مرحلة ما عن « الارادة المقدسة » ، تستطيع أن تطالب بالزعامة . وكانت أفكار مازينى عن الرسائل المحدودة للأمم مبهمة شيئا ما . فرسالة انجلترا كانت « الصناعة والمستعمرات » وروسيا « استعمار آسيا » وبولندا « قيادة السلافيين » . ووظيفة ألمانيا الخاصة هي « الفكر » وفرنسا « العمل » وإيطاليا « الفكر متحداً بالعمل » . وكان مازينى كذلك يجنّد تكوين أمم كبيرة ، واعتبرها أكمل من الامم الصغيرة . وأنكر على الشعب الارلندى حق تكوين أمة منفصلة لانه رأى أنها لا تملك فكرة معنوية معينة تمثلها ولا رسالة تاريخية (٢) . ومن الجلي أن هذا المبدأ يفتح الباب الى أحكام تجكمية تماما على حق الامم وأنه يمكن استخدامه في تبرير أى انكار تقريبا لحق تقرير المصير الذاتى .

واعتقد مازينى أن معظم الامم الصغيرة اما ستندمج مع أمم أخرى أو تدخل معها في فدرال ، وأن أوروبا ستتألف من عدد صغير من الفدرالات الكبرى . فكل من إيطاليا وألمانيا ، وكانتا مقسمتين وقتئذ الى عدد كبير من الاقطار الصغيرة ، ستؤلف أمة . وبدا له السلافيون أيضا وحدة ، وان كان فيما بعد افترض أن هناك أربعة أفرع للعائلة السلافية ، وهي البولنديون والروس والتشيكيون والسلافيون الجنوبيون ، سيكون

(١) س. ديماس وك. فيدك بترسن « الخسائر في الحياة بسبب لحرب » (نشرته مؤسسة كارينجى) ١٩٢٣ ص ٣٨٠ .

(٢) ب . كنج « مازينى » ص ١٠٧ . ونيقولا مانسير « ارلندا في عصر الاصلاح والنورة » ١٩٤٠ ص ٤٦ و ٥٥ . ويبين هذا الكتاب أن دعاة الجنسية الايطالية كانوا يمارضون عادة مطلب - ارلندا القومى ، وان السبب الرئيسى في ذلك هو شعورهم الماعدى للبابا والموالى للانجليز . وقد أطلق كافور أيضا على التطلعات الايطالية انها وهم .

مصريها ان تؤلف كل منها أمة ثم تتحد في كونفدرال سلافى كبير . ومن ثم فان عددا كبيرا من الشعوب السلافية مثل الأوكرانيين والكروات والصرب والسلوفينيين والبلغار والسلوفاك ستضحي بجنسيتها المنفصلة من أجل جنسية أوسع . وكان يتوقع من الهنغارين والرومانيين أن ينضموا الى السلافيين الجنوبيين . ولم يأت ذكر لشعوب البلطيق مثل الفنلنديين واللاتفيين والاستونيين . ولكن الليثوانيين يؤلفون جزءا من بولندا . وتتحد الشعوب السكندنافية الثلاثة في أمة اسكندنافية موحدة . وليس لبلجيكا مستقبل كأمة وان لم يقل مازينى شيئا عن مصريها . ولعلها كانت ستقسم بين هولندا وفرنسا . ويتحول الاسبانيون والبرتغاليون الى أمة واحدة . وتجاهل مازينى القطلونيين وأهل الباسك . وينبغي أن تتحد مع اليونانيين جميع الشعوب التى تتحدث اليونانية فى الامبراطورية العثمانية وأن يغزوا القسطنطينية ، وبعد ذلك يؤلفون فدرا لا مع السلافيين الجنوبيين . وتصير سويسرا نواة لفدرال ألبى يكون حاجزا بين الدول الكبرى المجاورة ، الامر الذى لا يتفق مطلقا مع فكرة أن هذه الدول ستصير أما حرة ومسألة عن طريق صعود الديمقراطية . وبصفة عامة كان مازينى يعتقد أن الجنسيات الصغيرة حازر ضد عدوان الدول الكبرى . وقد جربت هذه الفكرة فى معاهدات الصلح فى ١٩١٩ ولكنها لم تنجح . وستدمر الامبراطوريتان : النمساوية والعثمانية . وفى الحرب الاهلية الامريكية دافع مازينى عن قضية الشمال ، برغم انها كانت معارضة لمبدأ حق تقرير المصير . ولكنه رأى أيضا ، بصورة متناقضة تماما ، ان أمريكا من الاتساع بحيث تكفى تكوين كونفدرالين أو ثلاثة . ويبدو انه لم يتطرق الى ذهنه قط ان شعوب آسيا وافريقيا يمكن أن تطالب أيضا بحق الامم . ومن الواضح أن رأيه كان أن يستعمر الاوربيون آسيا ، وبخاصة الانجليز والروس .

وعندما تم تحقيق الوحدة الإيطالية بواسطة قدرة كافور السياسية رفض مازينى الاعتراف بالالوضاع الجديدة . اذ كانت فى نظره « شبح وأضحوكة إيطاليا » . بل انه عارض فى اتحاد روما مع مملكة ايطاليا لأنه رفض التضحية بمثله الأعلى لروما الجمهورية ورسالتها العالمية من أجل الوحدة القومية مع ملك . وفى الحرب الفرنسية الالمانية فى ١٨٧٠ وقف مازينى الى جانب بروسيا . وكان منذ عدة سنوات يتآمر مع بسمارك ، الذى كان موضع اعجابه الكبير ، ضد ملك ايطاليا الذى كان يشك فيه على أن لديه ميولا فرنسية ، وكان على استعداد لو أمده بسمارك بالسلاح والمال أن يشعل ثورة ضد الملك ويبدأ حربا أهلية . واشتكى من أن

إيطاليا الجديدة تلقت وحيها من مكيافللي لا من دانتى . وسخر من السياسة التي تتركز في الرفاهة الاقتصادية والتي ضحت رسالة إيطاليا العالمية من أجلها في رأيه . وقد كتب قائلا : « ان نصيبى أن استغرق أيامي الأخيرة في حزن عميق حقيقة بالنسبة لشخص يحب حقيقة ، أو أرى الشيء الذي أحبه أكثر من أى شيء آخر أقل من مستوى رسالته » .

٢٢ - النزعة القومية الألمانية في القرن التاسع عشر

أدت سيطرة نابليون وحرب التحرير ضده الى حركة لاقامة ألمانيا قوية موحدة . بيد أن هذه الخطة واجهت صعوبات كبرى . فقد كان الالمان يعيشون في أقطار كثيرة وكانت تعرقل التوحيد الوثيق مصالح الاسر الحاكمة فضلا على الولاء الاقليمي لدى شعوبها . بالاضافة الى أن الصراع الكبير بين الدولتين القويتين النمسا وبروسيا وقف حاجزا ضد الوحدة حيث لم يكن من الدولتين من تريد اخضاع نفسها للأخرى أو لدولة ثالثة . وأخيرا ، فإن الشعور القومي كان الى حد كبير مرتبط بتقاليد الامبراطورية الرومانية المقدسة ومن ثم تصور الاتحاد الجديد في صورة فدرال فضفاض من أمم ألمانية وغير ألمانية مختلفة أكثر منه في صورة دولة قومية ألمانية . وقد استطاعت الامبراطورية القديمة الاحتفاظ بطابعها فوق الدولى وصلاتها بالأسر المالكة مع جميع دول أوروبا تقريبا لمجرد أن تكوينها كان يسمح لكل من أقطارها بالتصرف في شئونه الخاصة والاهتمام بها وحدها . ولم يكن رجال السياسة البروسيين الذين حملوا لواء الاحياء القومى قد فكروا بعد في تأليف ألمانيا كدولة قومية بحتة مستقلة تماما عن كل الدول الأخرى . فقد أراد جنيسناو مثلا في ١٨١٢ أن يغرى انجلترا بالقتال ضد نابليون بحصولها على أقاليم واسعة في شمال ألمانيا تصبح بعد ذلك جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية وتبقى سعيدة في ظل دستور حر . وبعد سقوط نابليون أراد شتاين أن يؤلف فدرالا ألمانيا تحكمه « ادارة » مؤلفة من النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر . وبذلك يكون الملك بريطانيا العظمى ، بوصفه ملكا لهانوفر نفس النفوذ في الشئون الألمانية مثل ما للنمسا أو بروسيا . وعندما أسس الكونفدرال الألماني في مؤتمر فينا ، وقع ثلاثة حكام أجنبي على الاتفاق وصاروا أعضاء بسبب ممتلكاتهم الألمانية ، وهم ملك بريطانيا والدانمارك والأراضي الواطئة . بالاضافة الى أن الاتفاق أدمج في بنود مؤتمر فينا وأصبح بذلك تحت ضمان الدول الكبرى كلها ، ومن ثم كان

من الممكن بالنسبة للدول العظمى أن تطالب بحق التدخل في الشؤون الألمانية (١) . واقترح القانون الكبير ثيبو وضع قانون مدنى مشترك لجميع الأقطار الألمانية كخطوة نحو الوحدة، ولكنه اقترح أيضا أن تضمن جميع دول الحلفاء ، وفيهم انجلترا وروسيا هذا التقنين . وفى كتابه عن هذا الموضوع أشاد بالتعصب المحلى الألمانى بوصفه نعمة ، وقال : ان الوحدة السياسية الكاملة قد تحط من ألمانيا وتجعلها دولة أدنى فكريا .

وقد حمل تقليد الامبراطورية القديمة كثيرا من الكتاب أيضا على التقدم باقتراحات لادماج بلاد كثيرة كانت فى وقت ما تنتمى للامبراطورية، مثل : هولاندا وبلجيكا وسويسرا والألزاس وحتى بورجنديا . بالإضافة الى أن بعضهم تجاوز فى المطالبة حتى بأقاليم لم تكن متصلة بالامبراطورية فيما مضى ، واقترحوا اتحادا مع الأمم الألمانية أو إتساعا لألمانيا فى الشرق وانشاء مستعمرات ألمانية . ومن ثم فان بذور تطلعات النزعة القومية اللاحقة والرغبة الشديدة فى القوة والسيطرة كانت موجودة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢) . وفى أوقات التوتر عبرت عن نفسها فى انفجارات بلاغية أو شعر وطنى أو تأمل فى ماضى الأمة العظيم ومستقبلها . ولكن هذا الشعور لم يكن قد صار بعد عاملا فعلا فى السياسة العملية . لقد كانت الحكومات وجمهرة المحافظين تعارض فى انتهاج السياسة العدوانية ، التى بدالها أنها تدعم القوى الثورية وتهدد تضامن القوى الرجعية الكبرى الذى يعتبر العمود الفقرى « للحلف المقدس » . والواقع أن بعض دعاة الثورة كانوا يأملون نشوب حرب بين الدول الرجعية قد تؤدى الى تدمير كل منها للأخرى ، ولكن هؤلاء الكتاب لم يجدوا وراءهم حزبا . أما التحرريون فكانوا بطبيعة الحال يكرهون سياسة العدوان لأنهم كانوا يخشون النزعة العسكرية أكثر من أى شىء آخر .

(١) عندما أقرت الجمعية العامة للكونفدرال الألمانى فى اجراءات قاسية ، تحت تأثير النمسا وبروسيا ، ضد حركة الحرية السياسية احتج بالمرستون رسميا منبرا الى هذا الضمان ، وتحدث الدبلوماسيون الفرنسيون بأسلوب تهديدى. بيد ان وترينج رفض لاحتجاج انجليزى. انظر لفردستين «Geschichte Europas von 1830 bis 1848» المجلد الاول ص ٢٢٠ .

(٢) هناك أمثلة كثيرة لذلك فى كتاب شارلس آندلر «الرابطة الألمانية» ١٩١٥ . وفى «Collection des documents sur le pangermanisme» مجلدات ١٩١٥ -

وقد اتجه الشعور القومي بعد سقوط نابليون أساسا الى الحصول على الحرية السياسية والوحدة القومية . وكان أنصارها متذمرين بمرارة من أن الأمم الأخرى تزدرى الألمان لأنهم بلا حرية ولا وحدة (١) . وتخصت الرغبة في الحرية السياسية عن تخمر ثوري وفورات (٢) ، ورواد الأمل كثيرا من الراديكاليين الألمان في أن تساعدتهم فرنسا في تأسيس جمهورية ألمانية بالقوة المسلحة . وفضل كثيرون أيضا الحرية على الوحدة . وبعد تحرير ألمانيا من نير نابليون سرعان ما انتشرت الأسطورة النابليونية ومذهب الامبراطور بين الطبقات الوسطى الألمانية ثانية على نطاق واسع (٣) . بيد أن كثيرين من التحررين أدركوا أن الفرنسيين لن يأتوا كمحررين بلا أنانية ولكن أساسا لاعادة غزو أرض الراين .

وكانت ثورة ١٨٤٨ في ألمانيا محاولة لتحقيق الوحدة القومية والحرية والقوة بوسائل سلمية وبروح أخوية نحو الأمم الأخرى (٤) . وكان بين زعمائها عدد كبير من المؤرخين والمحامين المبرزين والمديرين والرجال الممتازين الآخرين . ومع ذلك فقد فشلت الثورة لعدة أسباب .

(١) لاجابة لنا هنا الى مناقشة ما اذا كان ذلك هو الحقيقة او الى أى مدى هو صحيح . فقد كان التذمر على أن الأحوال عاملا أيديولوجيا . ويعلق أحد الوطنيين المتحمسين ، الناشر فردريك بيرتس ، فى العشرينات على هذه المشاعر فى مراسلاته . وهو يحاول أن يدحض تفصيلا وجهة النظر السائدة من أن ألمانيا كانت فى موقف مدلل ، ويذكر أنه يبدو أن كثيرين لا من الشباب فحسب ، بل كذلك بين الرجال ذوى المعرفة والتجارب ، هجروا القضية الوطنية يائسين ، وأخذوا يعززون أنفسهم بالخمر والشعر والعلم والحياة العائلية . فيقول : « ان جذور هذا الشعور يبدو لى أنه جنون المجيد القومى الكاذب الذى لا يهدأ مادامت ألمانيا لاتلعب دورا كبيرا فى أوروبا ، وربما أن تسيطر على أوروبا . بيد أن هؤلاء الرجال بالذات سيتراجعون مشعثزين اذا واجهوا ماتنتطوى عليه السيطرة على أوروبا » أنظر المجلد الثالث ص ٢٧٣ - ٢٧٥ من

«Friedrich Perthes Leben»

(٢) وقد هزم الثوريون ألمان وهرب معظمهم الى سويسرا حيث أسسوا فى سنة ١٨٣٤ مع الثوريين الإيطاليين والبولنديين جمعية « أوروبا الفتاة » . وأعلنوا أن الجنسية مقدسة على أن تعيش كل الشعوب فى حرية ومساواة وإخاء . أنظر أ . ب . باور ١٨٤٥ المجلد الثالث ص ٣٥٨ .

«Geschichte der constitutionellen und revolutionären Bewegungen im südlichen Deutschland in den Jahren 1831-34»

(٣) بيرتس ص ٢٨١ . وكان هذا الشعور مرتبطا بكراهية انجلترا لدورها فى حزيمة نابليون . ومن الحالات النموذجية فى ذلك موقف هاينه .

(٤) أنظر المؤلف العظيم الذى كتبه فيت فالنتين «Geschichte der deutschen Revolution»

١٨٤٨ - ١٨٤٩ مجلدان ١٩٣٠ .

فبرغم الرغبة الحادة فى اقامة علاقات دولية طيبة وحكم العدل فانها أثارت على الفور الانفعالات القومية فى كل مكان . وأعادت الثورة الفرنسية ، التى كانت قد بدأت أيضا بالدعوة للاخاء بين الأمم ، نفسها . فقد صعدت قوى النزعة القومية اللاعقلانية والتى لا ضابط لها ، لا بين الألمان وحدهم بل كذلك بين الأقليات القومية فى ألمانيا والدول المجاورة وأدت الى نزاعات حادة هددت بتوريط أوروبا فى حرب (١) . فضلا عن أن الثورة أيقظت قوى الراديكالية السياسية والاجتماعية التى أحدثت انقساماً بين أصدقاء الحرية . وقد أخمدت فى النهاية بواسطة الرجعية بالقوة المسلحة ، وبخاصة الجيش البروسى .

وكانت عواقب هذه الكارثة مميتة مثل انهيار تطلعات الثورة الفرنسية عن طريق الفوضى والنزعة العدوانية والاستبداد العسكرى . وفى السنوات العشر التالية للثورة الألمانية هاجر أكثر من مليون ألماني الى أمريكا . وقد غادر أفضل الديموقراطيين والتحررين ألمانيا يائسين ، ولعبوا فيما بعد دوراً فى حياة الولايات المتحدة (٢) . وانسحب كثيرون آخرون من السياسة كلية ، فى حين بدأ آخرون أيضاً يتجهون نحو اليمين وعقدوا آمالهم فى الوحدة القومية على العسكرية البروسية المنتصرة . وصار بسمارك وريث هذه الثورة ، كما كان نابليون وريث الثورة الفرنسية .

لقد انهار الأمل فى تحقيق الوحدة القومية بوسائل انسانية وسلمية ولم يعد هناك فيما يبدو سوى الحرب . وكان لفكرة أن ألمانيا لن تتوحد الا بالحرب أنصار من قبل ، ولكنها منذ ذلك الوقت انتشرت انتشاراً واسعاً حتى دوائر ليست متشعبة بالنزعة العسكرية . فأول شيء كان موضوع من الذى تكون له السيطرة فى ألمانيا : بروسيا أم النمسا ؟ مما لا يمكن تسويته الا بالحرب . وثانياً بدا لكثير من الألمان أن الحرب مع

(١) وقد نشبت هذه الصراعات أساساً بسبب تحول الدول الاسرية القديمة الى دول قومية . ومن الامثلة النموذجية لعدد كبير من النزاعات الصراع الالماني الدنمركي . ففى ظل النظام القديم كانت دوقيتى شليفين وهولشتاين ، واللغة السائدة فيهما على الالمانية - وان كانت بهما اقلية دنماركية كبيرة العدد ، تحت حكم ملك الدنمارك الذى كان باعتباره دوقاً عليهما عضواً فى الكونفدرال الالماني . بيد أن النزعة القومية الصاعدة فى الدنمارك والمانيا أرادت ضمهما بصورة نهائية الى دولة واحدة فحسب ، وأدى ذلك الى حربين كادت تنتهيان بانفجار فى أوروبا :

(٢) فالنتين ، المجلد الثانى ، ص ٥٥٢ .

دولة كبرى ثانية ضرورية للتغلب على التعصب المحلى الألماني . وصحيح أن التاريخ يدل على أن كل الأمم تغلبت على التعصب القطرى واندمجت عن طريق حروب كبرى . وفى ألمانيا كانت العدواة الشديدة لا تزال قائمة بين كثير من شعوبها (١) ، ولم يكن أى شعب منها على استعداد للحصول على الوحدة القومية بضمن الخضوع للسيطرة البروسية . وكانت هناك أسباب أخرى تجعل الحرب تبدو مما لا يمكن تجنبه اذا أريد تحقيق الوحدة القومية ، وهى التنافس بين الدول الكبرى الأجنبية ، الذى كان ينطوى على تعارض فى المبادئ السياسية الأساسية . فكان كثيرون من التحرريين يعتقدون أنه يمكن توحيد ألمانيا بحرب ضد روسيا، التى كانت فى ذلك الوقت حامية الرجعية فى كل مكان . وبالتأكيد لم تكن روسيا لتتسامح فى قيام ديموقراطية فى ألمانيا ، الأمر الذى كان ينطوى على تشجيع للقوى الثورية فى عقر دارها . وإبان الثورة الفرنسية عرض وزير خارجية بروسيا ، كونت فون ارينم ، على حكومة فرنسا الثورية خطة للقيام بحرب مشتركة ضد روسيا وتحرير بولندا وتوحيد ألمانيا تحت سيطرة بروسيا (٢) . بيد أن فرنسا لم تقبل هذا الاقتراح . وفى حرب القرم حاول التحرريون والسفير البروسى فون بونسسن ، تحقيق هذه الفكرة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على بسمارك . وكان المحافظون طبعاً يستفزعون أى حرب مع روسيا وحذوا الحرب مع فرنسا ، التى كانت تبدو لهم كرية بسبب اتجاهاتها التحررية . واختار بسمارك فيما بعد هذا الطريق لتوحيد الشعوب الألمانية تحت زعامة بروسيا وتأسيس الامبراطورية .

وسياسة بسمارك وأثرها فى النزعة القومية الألمانية معروفان تماماً ولا حاجة بنا الى تسجيلهما هنا (٣) . وقد أثار ضم الأقاليم التى يسكنها فرنسيون فى ١٨٧١ هواجس فى نفسه ولم يوافق الا تحت ضغط العسكريين الألمان . ورفض أيضاً أية سياسة تؤدى الى تصادم مع روسيا أو إنجلترا . وبعد سقوطه زادت النزعة القومية الألمانية تطرفاً باستمرار بزعامة « الرابطة الألمانية » . ونميت أيديولوجيتها على يد

(١) ١ . فايزر «Briefwechsel zweier Deutschen» ١٨٣٢ ص ٣٢٣ .

(٢) فالنتين ، المجلد الاول ، ص ٥٣٨ - ٥٤٤ .

(٣) لقد وصفت تاريخ النزعة الألمانية وسيكولوجيتها فى عهد بسمارك ووليم الثانى

فى كتاب «Nationalgeist und Politik» ١٩٣٧ المجلد الاول .

تربتشكه وعدد كبير من الأساتذة والكتاب الألمان ، واتخذت طابعا عدوانيا عن طريق انتشار العنصرية .

٢٣ - هنريخ فون تريتشكه

لقد خلقت النزعة القومية الألمانية بواسطة تطلعات المثقفين الى حد أكثر مما حدث في كثير من الأمم الأخرى ، ويفسر ذلك الدور الكبير للفلاسفة والمؤرخين في نموها . بيد أن هذه التطلعات كانت مختلفة تماما . فكثير من التحرريين وضعوا الحرية فوق الوحدة ، ونظروا الى كل خطة لاقامة سلطة مركزية قومية لألمانيا كلها بريية ونفور . وفي ١٨٤٨ أعلن أحد زعمائهم في ساكسونيا أنه بفضل أن يكون ساكسونيا حرا على أن يكون عبدا لألمانيا . واعتقد آخرون أن الوحدة والقوة تأتيان بالضرورة في المكان الأول ثم تعقبهما الحرية .

وأعلن عدد من المؤرخين المبرزين أن رسالة بروسيا هي خلق ألمانيا القومية. الموحدة التي تتمتع أيضا بالحرية السياسية (١) . وكان أبدهم صيتا هو هنريخ فون تريتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) (٢) . وقد ولد في ساكسونيا وكان أبوه ضابطا في جيشها وصار فيما بعد جنرالا . وكان أجداده من البروتستانت التشيكيين الذين هاجروا الى ساكسونيا بعد انتصار الحركة المضادة للإصلاح الديني في بوهيميا ، وبدا شعره الأسود وملامحه وسماته الأخرى لصديقه هاوسترات « سلافية لاشك فيها » . وبرغم أن تريتشكه كان متحيزا جدا ضد السلافيين فانه كان فخورا بأجداده وأشاد بالتشيكيين لأنهم حاربوا آل هابسبورج الذين كان

(١) فيما يتعلق بهذه المدرسة انظر ج . جوش « التاريخ والمؤرخين في القرن التاسع عشر » الطبعة الثالثة ١٩٢٠ ص ١٢٠ . و أ . فريشر *Geschichte der neueren Historiographie* ١٩١١ ص ٤٩٢ و ٥٣٣ . و أ . جاند *L'Allemagne nouvelle et ses Historiens* ١٨٩٩ . وقد أدلى لورد أكتون بكثير من الملاحظات المفيدة عن المؤرخين الألمان، وجمعت في كتاب أولريخ نواك *Geschichtswissenschaft und Wahrheit* ١٩٢٥ .

(٢) انظر فيما يتعلق بتريتشكه الفصل الممتاز جدا عنه في كتاب ج . جوش - المرجع السابق - ص ١٤٧ . وهناك تقييم لآعمال تريتشكه بالانجليزية بقلم أدولف هوسرات في «تريتشكه، حياته وأعماله» ١٩٤٠ ، وكذلك ت. شيمان *Trietschke's Lehr- und Wanderjahre* ١٨٩١ . وقد نشر كورنيسيليوس خطاباته في ثلاثة مجلدات ١٩١٣ - ١٩٢٠ . كما يوجد تحليل مفيد جدا لفكر تريتشكه في كتاب أرنست أرنست *Trietschke im deutschen Geistesleben des 19 Jahrhunderts* ١٩٣٠ . ويضم كتاب أرنست ليراند «Trieschke im englischen Urteil» ١٩٢١ عرضا لشكيب الانجليزية عن تريتشكه .

يكرههم • وقد كان من أسباب حزنه العميق أنه حرم الدخول في السلك العسكري بسبب صممه ، الذي أصيب به في شبابه ، ومن ثم صار أستاذا وعلم التاريخ والعلوم السياسية في عدة جامعات ، وأخيرا في برلين • وكان له بوصفه هذا نفوذ ضخم على الشباب الأكاديمي والطبقات المثقفة بصفة عامة • وكان تريتشكه من أقوى الكتاب والمتحدثين السياسيين في تاريخ ألمانيا • وكانت موهبته البلاغية بصفة خاصة ساحرة وكان المستمعون اليه يقعون تحت تأثيره تماما • ولم يكن نفوذه ككاتب أقل من ذلك كثيرا • وقد اكتملت الانتصارات التي أحرزها بسمارك في السياسة بانتصارات تريتشكه المقابلة لها ، ونجح مجهودهما المشترك في وضع أسس النزعة القومية الألمانية الحديثة •

بيد أن الرجلين لم يتفقا في مبدأ الأمر فيما يتعلق بالخطط السياسية • فقد كان تريتشكه تحرريا ، وإن كان تحرريا محافظا جدا ، وظل فترة ما يعارض سياسة بسمارك المناهضة للتحررية • ولكنه فيما بعد انضم الى أفكار بسمارك وصار أكثر اتباعه حماسة • والسبب في هذا التحول هو أن تريتشكه كانت تسيطر عليه رغبة جارفة من أجل ألمانيا القوية الموحدة تحت زعامة بروسيا وكان على استعداد لاختضاع كل شيء آخر لتحقيقها •

وفي ١٨٦١ كتب تريتشكه مقالا ممتازا عن الحرية قال فيه : ان كل شيء جديد خلقه القرن التاسع عشر هو نتاج التحررية • بيد أن فكرته عن الحرية لم تكن فكرة الثورة الفرنسية التي جعلتها والمساواة شيئا واحدا وانتهت بحكم استبدادي بشع • فقد كانت فكرته هي المفهوم الانجليزي عن الحرية والحكم الذاتي المحلي الذي بدا له مفهوما مثاليا • وبعد ذلك بعامين صار تريتشكه أستاذ العلوم السياسية في جامعة فرايبورج • وكان الرأي العام في جنوب ألمانيا كله وما وراءه يسيطر عليه الولاء للوطن الأصغر تحت حكم الحكام التقليديين • وكانت الكنيسة الكاثوليكية المسيطرة على الناس تعارض بطبيعة الحال في سيادة بروسيا البروتستانتية على ألمانيا ووقفت الى جانب قيام رابطة وثيقة بين الأقطار الألمانية الصغيرة والنمسا • بالإضافة الى أن الآراء التحررية والديموقراطية كانت واسعة الانتشار في جنوبي ألمانيا وكثيرا ما كانت متصلة بعطف شديد على فرنسا • وقد اجتمعت كل هذه العوامل لخلق جو معاد تماما لبروسيا ولتقاليدها ولفكرة رسالتها القومية في ألمانيا • وقد كانت هذه التجربة سببا في غضب تريتشكه الشديد • وفي خطاب الى

جوستاف فريتاخ كتب أنه صار من الواضح له تماما أنه لا سبيل الى تحقيق وحدة ألمانيا في مواجهة هذا التعصب المحلي في جنوبي ألمانيا الا بالغزو ولهذا السبب فان سياسة بسمارك في زيادة قوة بروسيا صحيحة . وحتى اذا كانت بروسيا تملك أفضل حكومة مؤلفة من رجال من نوع شتاين وهمبولت ، فان كراهية المان الجنوب وغيرتهم من بروسيا لن يقلا . فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم الألمان الحقيقيون ، أما الشمال فمازال نصفه غارقا في الهمجية . « صدقني أن سيف الغازي وحده هو الذى يستطيع دمج هذه البلاد مع الشمال » .

وفى سنة ١٨٦٤ كتب تريتشكه مقالته المشهور عن « الدولة الفدرالية والدولة الموحدة » وكان نداء قويا لتوحيد ألمانيا برياسة بروسيا ، وكان له أثر ضخم على الرأى العام . وقد حارب بقوة جميع حجج اللامركزية فى تاريخ ألمانيا . وكانت رغبته أن تكتسح بروسيا الأسر المالكة المختلفة والأقطار الصغيرة وتوحد ألمانيا كلها تحت حكم أسرتها المالكة . فالكونفدرال الألماني الذى خلقه مؤتمرا فينا ليس اتحادا حقيقيا . فهو مجرد تحالف الأسر المالكة ضد حرية الشعوب ، ولا يستطيع أن يمنح ألمانيا مركزا قويا محترما . وفكرة انه يمكن تحويله الى وحدة حقيقية ، وشعار التطور العضوى ، اللذين قال بهما الرومانسيون مضللين ، فالدولة يمكن أن تكون فى حاجة الى طاقة ثورية . وكذلك اهتم تريتشكه بدحض حجة أن التعصب القطرى الألماني مفيد للحرية والثراء والثقافة وحاول اثبات أن التوحيد القومى وحده يستطيع أن يضمن تقدمها . وألمانيا لا تستطيع منافسة الأمم البحرية الاستعمارية الكبرى ، ولكنها تستطيع على الأقل أن تبلغ مركزا محترما ، وان لم يكن مسيطرا ، فى أوروبا . ولهذا الغرض يجب أولا استبعاد النمسا من ألمانيا . فالنمسا دولة الطابع الغالب فيها غير ألماني ، ومنذ قرون أخذت تبعد عن الأمة الألمانية ونمت لها تقاليد خاصة وولأوها الخاص . وبروسيا وحدها هى التى قدر لها أن تحقق الوحدة الألمانية فمنذ قرون كانت الانجازات السياسية الكبرى من صنعها ، وهى نفسها أعظم انجازات الشعب الألماني .

وبحث تريتشكه بالاضافة الى ذلك فى المقال موضوع ما اذا كان ممكنا تحقيق الوحدة الألمانية فى صورة فدرال ، وانتهى الى جواب سلبى . وكان الاعتقاد السائد أن الحرية والقوة لا تجتمعان الا فى فدرال من الاقطار الصغرى . وفى الجمعية الوطنية فى ١٨٤٨ أراد اليسار المتطرف أن يقسم الاقطار الألمانية الكبرى الى جمهوريات صغرى .

وكانت هناك مدرسة من مدارس الفكر السياسى ، وهى التى مثلها بصورة ممتازة المؤرخ التحررى جيرفينوس ، تأمل أن تتحول دول أوروبا الكبرى كلها الى فدرالات . بيد أن الجماعات الصغيرة لا تستطيع القيام بأعباء المهام المتعددة الملقاة على الدولة ، ولا يمكن أن تكون قوية . والمنظرون الذين تجاهلوا الفروق التاريخية بين الدول نسوا الحقيقة الأساسية للتجربة من أن طبيعة الدولة هى القوة أولا وثانيا وثالثا . ولكن تريتشكه طالب بروسيا بأن تعود الى أوضاع الدستورية الشرعية التى خرقها بسمارك حتى تكسب الراى العام وتزيد بذلك قوتها . وقال : « ان الأغلبية الساحقة من الألمان مشبعون أساسا بالتحررية ويعتبرون قوة الوطن مسألة ثانوية » . وقد يكون ذلك مما يؤسف له ولكن يجب ألا يغفل عنه . وأدرك تريتشكه « أن اسم بروسيا يبدو كريها للشعب الألماني » . وحركة الوحدة القومية لا تتمتع بتأييد قوى من الجماهير ومن المشكوك فيه أن يكون لدى الشعب فى أى وقت من الأوقات الطاقة للقيام من أجلها . والسبيل الوحيد الى الوحدة الألمانية هى السياسة التى اتبعها ملك سردينيا وكافور فى تحقيق وحدة إيطاليا ، أى الغزو المقرون بالتحررية .

وفى هذه الأثناء كان بسمارك قد صار فى ١٨٦٢ رئيسا للحكومة البروسية . واشتبك على الفور فى صراع حاد مع التحرريين الذين كانوا يسيطرون على ثلثى الأصوات فى البرلمان ، ولم يأبه بالقانون الدستورى فى القضاء على مقاومتهم . وهاجمه تريتشكه بعنف باعتباره « اليونكر الذى يفخر بالحديد والدم » . بيد أن بسمارك سرعان ما حقق ادعاءه فى عدة حروب متعاقبة انتهت الى انتصار لا مثيل له وحطم بذلك أيضا قوة التعصب القطرى والتحررية . والتغير فى الاتجاه الذى ظهر عند تريتشكه يشاركه فيه قسم كبير من الطبقة الوسطى الألمانية . وزعزعت الحرب ضد الدانمارك وما تمخضت عنه اعتقاده التحررى فى السياسة التى تقوم على المشروعية والأخلاق وأثارت أمله فى تحقيق الوحدة القومية بحد السيف البروسى . وفى ١٨٦٦ عرض عليه بسمارك مركزا مغريا جدا ، وكان عليه فى هذا المركز أن يستخدم قلمه القوى فى خدمة قضية بروسيا . ولكن برغم الاغراء الكبير رفض تريتشكه المنصب بسبب بقايا التحررية فيه . وكتب فى خطاب أنه يبدو ان رجل الدولة هذا لا فكرة لديه عن قوة القوى المعنوية فى العالم ، ولكن بسمارك كان يدرك تماما تأثير سياسة الدم والحديد السحرى على العقول .

ويمكن تصوير التحول الضخم في العقلية السياسية الألمانية تحت تأثير نجاح سياسة بسمارك بالعديد من الأمثلة . وقد استمر ج . ج . جيرفينوس ، أكثر المدافعين عن اللامركزية الألمانية اتساقا ، في المعارضة وتنبأ مصيبا بأن سيادة بروسيا تنطوي على أكبر خطر على السلام في أوروبا وكذلك على السلام الداخلي . فهي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الاستبداد والنزعة العسكرية والراديكالية الاجتماعية في أوروبا . وقال جيرفينوس انه لم يكن أحد تقريبا يحذ هذا الحل قبل أن يشرع بسمارك في سياسة تحقيق الحكم الألماني الموحد بالقوة . ولكن نجاحه حول عددا كبيرا من الناس إلى جانب برنامجه ، برغم أن ذلك كان مناقضا لأقوى اتجاه في الطابع القومي الألماني (١) . ولم يقتصر التغيير على السياسيين وعلى قطاع كبير من الرأي العام . بل انه أثر أيضا في تفكير علماء جادين فيما يتصل بمشاكل سياسية رئيسية . ولا بد أن بذور الأفكار الجديدة كانت موجودة في بعضها من قبل . ولكن الأحداث السياسية دفعتهم إلى وضع مذاهب واعتناق مذاهب كانت من قبل كامنة في عقولهم . ومن الأمثلة البارزة على ذلك ج . ه . فون كيرشمان ، وهو قاض بروسى كبير، كانت الحكومة قد عزلته لآرائه المتطرفة وكان سياسيا مبرزا من سياسى اليسار . ونشر أيضا كثيرا من الكتب الفلسفية وأشرف على تحرير سلسلة كبيرة من أعمال الفلاسفة العظماء مع تعليقاته، وظلت هذه السلسلة تستخدم فترة طويلة بواسطة طلبة الفلسفة . وفي سنة ١٨٦٩ أبدى في تعليقه على كتاب « جروتشوس » قانون الحرب والسلام أكبر ازدياد بالقانون الدولى وحب جروتشوس للسلام ، ومجد الحرب بحرارة على أساس أنها أعظم متعة للجنس الجرمانى الهنذى الذى يحتاج إليها ليتمتع بطاقاته . والفضيلة لا تسرى على الأمم . وأشار كيرشمان المرة تلو المرة إلى حرب بسمارك فى ١٨٦٦ كدليل على هذه النظرية (٢) . وفى ١٨٦٨ نشر أ . لاسون كتابا عن الحرب باعتبارها أكثر العوامل فائدة فى التطور الثقافى .

(١) ج . ج . جيرفينوس «Hinterlassene Schiften» ١٨٧٢ ص ١٣ . وفيما يتصل بجيرفينوس أنظر جوش ص ١٠٨ .
(٢) ما أورده من كتاب كيرشمان فى كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول ص ١٢٨ : وفيما يتعلق بكيرشمان كفيلسوف أنظر كتاب موريتز براخ «Die philosophie der gegenwart» ١٨٨٨ ص ٥١١ .

وسرعان ما صار تريتشكه من أنصار بسمارك المتحمسين ، برغم انه لم يسر في اخماد التعصب القطري الى المدى الذى أراده تريتشكه وترك قدرا معيناً من الاستقلال الذاتى للأقطار التى لم تضم الى بروسيا . بيد أن بسمارك سار فى سياسة اجتذاب الجماهير بمنحها حقوقاً سياسية مدى أكثر مما يقبله تريتشكه . إذ أن أمثلة نابليون الثالث كانت قد أقنعت به بأن أفضل وسيلة لسحق التحررية هى الالتجاء الى الجماهير ، وكان هذا هو السبب فى أنه طبق حق الانتخاب لجميع الرجال . بل انه حاول كسب الاشتراكيين واتصل بلاسال وقام بمحاولة غير ناجحة بعد موته للاتصال بماركس .

وليس من الضرورى أن نبين هنا بتفصيل كيف تحول تريتشكه عن مبادئه التحررية خطوة بخطوة ، وتقدم فى أواخر حياته بوجهات نظر على النقيض تماماً من تلك التى تقدم بها فى أوائلها . وفى محاضراته المشهورة عن السياسة التى ظهرت بعد وفاته ككتاب (١) ، وفى مقالاته ، وأخيراً فى أعظم مؤلفاته « التاريخ الألمانى » الذى لم يكمل ، نرى أفكاراً صارت الأساس الذى قامت عليه النزعة الألمانية الحديثة وكان لها أثر مدمر على عقلية قسم كبير من الطبقات الوسطى والعليا فى ألمانيا . وصحيح أن تريتشكه لم ينبذ من فكره قط قدراً ما من بقايا ماضيه التحررى . فحتى ١٨٧٩ كان ينتمى لحزب الأحرار القومى وأخذ نوابه فى الرايخستاغ . وكان من وقت لآخر يشير الى الأثر السيئ على الأخلاق للحروب الطويلة ، ويظهر فهماً لانهجازات الأمم الأخرى ويعطف عليها ، كما ظل فترة طويلة من المدافعين الأشداء عن حرية التجارة . وبدت له «التيوتونية السخيفة» التى ينادى بها ياهن وأتباعه وتعصبهم ضد فرنسا انحرافاً (٢) ، وقد حاول أيضاً معارضة محاولة « اليتيوتونيين المفترسين » فى تنقية اللغة الألمانية من كل الألفاظ التى من أصل أجنبى . وكذلك بدا له اعتراف مكيفالى بأن السعى الى القوة هو هدف السياسة ، دون أى تبرير أخلاقى شيئاً فظيلاً . وفى نظره لا يبرر القوة سوى الهدف الأخلاقى . ولكن مذاهب تريتشكه فى التطبيق لم تختلف كثيراً عن مبادئ مكيفالى . فقد كانت سياسة القوة والهيبة التى تنتهجها بروسيا صحيحة دائماً ، فى حين

(١) فون تريتشكه «Politik» مجلدان ١٨٩٧ - ١٨٩٨ .

(٢) يوجد فى كتاب إيرمجارد لودفيج «Treitsche und Frankreich» ١٩٢٤ وصف لموقف تريتشكه من فرنسا ، وكان يسود موقفه منها العداء .

هاجم بعنف الدول الأخرى إذا فعلت ما تفعله بروسيا . وكان القانون الدولى ، والأخلاق فى السياسة ، والإنسانية فى القانون ، والحرية السياسية ، والمساواة الاقتصادية ، وحقوق المرأة ، والحركة العمالية ، ونشر الثقافة بين الجماهير ، والكنيسة الكاثوليكية كلها كريمة لديه . وقد وصف ألمان الجنوب والنمساويين والأمم الأخرى بعداء شديد . وكانت صعود موجة جنون الخوف من الانجليز ومناهضة السامية أيضا من صنع تريتشكه الى حد كبير .

ولم تحظ آراء تريتشكه فى معظم نواحيها بتحييد الأغلبية الكبرى من العلماء والمثقفين الألمان ، الذين كانوا لا يزالون متشبعين بالأفكار التحررية ، وتعرض مؤلفه فى التاريخ لنقد شديد واعتقد كثير من المؤرخين أن تريتشكه كان صحفيا سياسيا لديه معلومات ضخمة عن التاريخ أكثر منه مؤرخا منزها . وفى ١٨٧٢ ألف بعض كبار علماء الاقتصاد « اتحاد الإصلاحات الاجتماعية » ووضع مقترحات للتشريع الاجتماعى وبذلك تخف حدة التوتر الاجتماعى ، وسرعان ما اتهمهم تريتشكه بالميل الى الاشتراكية ، وأكد أن تخفيف الصراع الطبقي ليس أمرا مرغوبا فيه . فالتفاوت الاجتماعى شئ سليم . فالملايين يجب أن تكبح لتجعل فى وسع بضعة آلاف أن تحكم وتنتج ثقافة . وأثار هذا الموقف معارضة شديدة وانضم معظم علماء الاقتصاد الى « الاتحاد » وتعاونوا فى الأبحاث الاجتماعية التى مهدت السبيل لكثير من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المهمة . وفى ١٨٧٩ بدأ تريتشكه يهاجم اليهود . وفى مبدأ الأمر أكد أنه يعارض الكراهية العنصرية وأى تمييز فى الحقوق المدنية ، وأن كل ما يريده هو أن يهجر اليهود سماتهم المميزة ويصيروا ألمانا طبيين . بيد أن عداءه للسامية زاد مرارة فيما بعد . وقد ساد الشعور ، وكان على حق ، بأن هدفه الحقيقى من حملته ليس اليهود بل التحررية (١) ، وأن اليهود دائما استخدموا كوسيلة لاثارة الرأى العام ضد مبادئها الأساسية . ولم تحظ هذه الحملة بقبول واسع بين كبار المثقفين ولم يقف الى جانبه عالم مبرز واحد . وظهر بيان عام وقعته عدد كبير من الشخصيات المبرزة يعبر عن عدم القبول المطلق لها . ولام أعظم علماء الألمان ، تيودور مومسن ، تريتشكه على موقفه ومعاداته للسامية عموما فى عدة تصريحات بلهجة

(١) وقد أقر ذلك ليبراند الذى يتفق مع تريتشكه فى وجهات نظره . انظر Treitschke «im deutschen Geistesleben» ص ١٧٨ و ١٨٦ حيث توجد تفاصيل كثيرة عن هذه الحملة ورد الفعل لدى الرأى العام بالنسبة لها .

شديدة وازدراء كبير (١) . وأعلن برنس فردريك ، ولى العهد ، أن عداة السامية فضيحة لألمانيا . ومع ذلك فقد قبلها قسم من طلبة الجامعات بحماسة . واستخدمها ستويكر وبعض رجال الدين البروتستانت للدعاية بين الطبقة العاملة التي كانوا يريدون اجتذابها ، وإن ذهب جهودهم أدراج الرياح . وانضم تريتشكه ، الذى كان دائما من أنصار مذهب وحدة الوجود وكان مفكرا حرا وهزا بالكنائس، الى هذه الجماعة «للدفاع عن المسيحية» .

وكانت ألمانيا قد صارت ، بواسطة سياسة بسمارك ، امبراطورية قوية واحتلت مركز الصدارة فى التقدم المادى . بيد أن جميع من راودتهم الآمال فى أن توحيدها سيؤدى الى نهضة أخلاقية وروحية كبرى خاب ظنهم . وقد رأى جاكوب بيركهارت ذلك من البداية وأعلن أن التفوق السياسى والثقافى لا يتفقان . ووصف صديقه فردريك نيتشه الانحطاط الروحى فى ألمانيا فى أبشع صورة ، وأصيب كثيرون غيره بخيبة أمل مماثلة . وحتى تريتشكه وجد أن حرب ١٨٧٠ قتلت المثالية فى ألمانيا ، وتحدث فى مرارة عن انتصار الفوغائية والمادية والديماجوجية . وبدا له الملق البيزنطى الذى وجه الى الملك الشاب وليم الثانى عرضا من أعراض العبودية .

وأكثر جوانب ميراث تريتشكه ضررا لعصرنا الحاضر هو التعصب ضد الانجليز الذى نما لديه فى أواخر حياته ، والذى كان له نصيب كبير فى تمهيد السبيل للحرب العالمية الأولى . وقد كان تريتشكه فى فترته التحررية من المعجبين المتحمسين بالحرية الانجليزية ووحدة انجلترا القومية . وأشاد بالنظام البرلمانى الانجليزى والحكم الذاتى وبالطابع القومى والثقافة الانجليزيين . وفى ذلك الوقت كان يكره روسيا وفرنسا والنمسا ، وبدا له أن أفضل سياسة لألمانيا هى التحالف مع بريطانيا . ولكنه منذ الحرب الفرنسية الألمانية اتخذ موقفا عدائيا من انجلترا . فقد أثار ثائرتة حيادها فى الحرب والعطف السائد فيها على فرنسا ، وزاد غضبه حدة سياسة انجلترا فيما يتعلق بالشرق . وكانت العوامل الرئيسية

(١) وبخاصة فى رسائله . انظر أيضا رأيه فى هرمان باجر

«Der antisemitismus»

١٨٩٤ ص ٢٨ . بيد أن العداء للسامية لم يكن له قط دور كبير فى السياسة الألمانية قبل هتلر ، وإن كان له نفوذ اجتماعى معين . وبوجد وصف لأصل العداء للسامية فى ألمانيا ودوافعه فى كتاب كورت فارسنيك «Die Entstehung des deutschen Antisemitenpartein» . ١٩٢٧

فى هذا التحول فى المشاعر تحوله عن التحررية ونمو الديموقراطية فى بريطانيا ، وكذلك توسعها الاستعماري ، وخيبة أمله فى تحقيق رغبته الجارفة فى قيام امبراطورية استعمارية ألمانية كبرى . اذ كان من الواضح أن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق الا على حساب الامبراطورية البريطانية . وكان تريتشكه قد وضع أمله فعلا فى البوير ، الذين أراد استخدامهم فى اخراج الانجليز من جنوبى افريقيا واقامة محمية ألمانيا هناك . بيد أن رغبته فى التوسع لم تقتصر على الممتلكات البريطانية . اذ عندما حصل بسمارك على الكمرون لألمانيا قال تريتشكه : « الكمرون ؟ ماذا نفعل بهذه الرمال الجرداء ؟ دعنا نأخذ هولندا ، وعندئذ ستكون لنا مستعمرات » . وفى ١٨٧٦ كان قد كتب فى خطاب أن الأسطول الألماني عليه أن يحصل على أول أكاليل الغار بمحاربة الأسطول البريطانى ، حيث أن بريطانيا تريد تدميره . وأعرب فى محاضراته فى السياسة عن أمله فى أن تصير ألمانيا يوما ما أكبر قوة بحرية . وصار عداؤه لانجلترا جنونا ، وصار يرسم صورة السياسة البريطانية والطابع البريطانى زاخرة بالسمات المنفرة . واتهم انجلترا بأنها كانت تعمل منذ قرون على إثارة العداوات بين أمم القارة لتطلق يدها فى الحصول على امبراطورية ضخمة بالسرقة وحدها . وكان السبب الحقيقى لغضب تريتشكه الجائح هو طبعا أن بريطانيا كانت عقبة فى سبيل صعود ألمانيا الى السيطرة العالمية .

٢٤ - الرابطة الألمانية والرايخالية فى القرن العشرين

فى سنة ١٨٩١ تألف اتحاد فى فرانكفورت بغرض الدعوة لسياسة من النزعة القومية العدوانية ، وفى ١٨٩٤ اتخذ اسم « عصبة الرابطة الألمانية » (١) . وكان المؤسس الرئيسى هو الفرد هوجنبرج موظفا بروسيا صغيرا فى ذلك الوقت ، وفى ١٩٠٩ كان أول مدير لمؤسسة كروب . ولم يكن للعصبة فى أى وقت أعضاء كثيرون ، ولكنها كانت

(١) انظر كتابى «Nationalgeist und Politik» المجلد الاول من ٤٥٢ . وأ. يونهارد «Geschichte des alldeutschen verbandes» ١٩٢٠ . م . س . فيرنايمر «عصبة الرابطة الألمانية» ١٩٢٤ . وشارلس آندلر «الرابطة الألمانية» ١٩١٥ . و «Collection des documents sur le pan-Germanisme» ١٩١٥ - ١٩١٧ . و «20 Jahre alldeutscher arbeit und Kampf» ١٩١٠ . وه . كلاس «Widerden Storm» ١٩٢٢ وجونيوس آلتر «Nationalisten» ١٩٣٠ . وأرنيم بيلو «Deutschantionale Köpfe» ١٩٢٨ .

تضم عددا غير صغير من الاعضاء ذوى النفوذ ، مثل قواد الجيش وكبار الموظفين وكبار الصناعيين ورؤساء تحرير الصحف والأساتذة وما الى ذلك . وفى وقت من الاوقات كان ٨٤ عضوا فى الرايخستاج من المنتمين اليها . وكان رئيسها حتى ١٩٠٧ البروفسور أرنست هاس ، وعندما توفى خلفه هانريخ كلاس . وقد لعبت « العصبة » دورا شريرا فى السياسة الالمانية بالحث على انتهاج سياسة لا تحررية فى الشؤون الداخلية ، وعلى التوسع العدوانى فى الخارج . وكانت مركزا لمجموعة الجمعيات الوطنية ، مثل « عصبة الأسطول » و « ألمانيا الفتاة » الخ ، التى كانت تضم فيما بينها ملايين الاعضاء ويوجهها أو يشرف عليها موظفون من قبل « عصبة الرابطة الالمانية » . ونستطيع أن نقارن « العصبة » بهيئة اركان حرب النزعة القومية المتطرفة . وكانت علاقاتها بحكومة الامبراطورية غريبة فى طبيعتها . فقد كانت « العصبة » فى المعارضة باستمرار تقريبا لأن الحكومة لا تستجيب الى طلباتها بدرجة كافية . والواقع انه ما من حكومة كانت تستطيع تنفيذ مطالب « العصبة » دون التعرض لخطر الحرب والأزمات الخطيرة . وكان معظم السياسيين المسئولين عن سياسة ألمانيا الخارجية ينظرون الى « العصبة » باعتبارها مصدر ازعاج وخطر ، وأحيانا كانوا ينتقدون نشاطها عندما تثيرهم بهجومها على سياستهم . بيد أنهم كانوا يدركون من الناحية الأخرى أن « العصبة » تحظى بتأييد دوائر قوية يخشون استشارة غضبها ، ومن ثم حاولوا تجنب الصدام معها . فضلا عن أنه كان هناك دائما وزراء وقواد « وشخصيات كبيرة أخرى » يميلون جدا الى العصبة ، حتى عندما كان زعماءها يهاجمون السياسة الرسمية . وكان رئيس البحرية الاميرال تيربيتز بصفة خاصة على علاقة وثيقة بانصار الرابطة الالمانية واستخدمهم للقيام بالدعاية على نطاق ضخم من أجل التسليح البحرى . وكان ولى العهد أيضا يميل الى «العصبة» بصفة خاصة .

وقد وضع الأفكار التى قامت عليها العصبة رئيسها الاستاذ هاس ، أولا فى محاضراته فى جامعة ليبزيغ ، ثم فى مؤلفه «Deutsche Politik» فى اجزاء كثيرة . واعلن هاس ان المانيا لابد ان تحصل على امبراطورية كبرى فى أوروبا وعبر البحار ، وقد أخل توسع بريطانيا بميزان القوى ، وهو ينطوى على انكار للحقوق المساوية لالمانيا . وصحيح أن التجارة الالمانية أحرزت تقدما ضخما برغم احتكار انجلترا الاستعماري ، ولكنه تقدم مبنى على أسس غير ثابتة . فهو يعتمد على استمرار

سياسة « الباب المفتوح » من جانب بريطانيا والأمم الأخرى ، ولابد أن تلجأ هذه الأمم الى مقاطعة البضائع الألمانية مما يؤدي الى دمار ألمانيا واجبارها على الحرب . ومن ثم ينبذ هاس مبدأ « الباب المفتوح » « التعس » كلية وطالب بأن تقصر ألمانيا نشاطها الاقتصادي على منطقة اصغر خاصة بها وحدها . ودعا الى تكوين اتحاد جمركى أوروبى من ألمانيا والنمسا والمجر وبلجيكا وهولندا ومعظم الدول الصغيرة الأخرى فى أوروبا . ولكن هذا الاتحاد لن يقتصر على الاهداف الاقتصادية وحدها . وتقوم فيه ألمانيا بدور « الحامى » . بالإضافة الى حصولها على أجزاء كبيرة من الصين وتركيا وتكون هى صاحبة النفوذ الوحيد فى هذه المنطقة الشاسعة . وقد وسع بعض كتاب الرابطة الألمانية هذا البرنامج الطموح اكثر من ذلك ، وليست هناك أجزاء كثيرة من العالم لم تعتبر من مناطق النفوذ الألماني فى نظر كاتب أو آخر منهم .

وهناك كتاب آخر يمثل عقلية أنصار الرابطة الألمانية بقلم أحد خلفاء هاس ، هو هاينريخ كلاس ، ظهر فى ١٩١٢ تحت اسم مستعار هو دانييل فريمان بعنوان : « لو كنت امبراطورا ، وصدرت منه عدة طبعات وأثار ضجة كبرى . ويقول كلاس : ان موقف الأمة الألمانية خرج للفاية . فجميع الطبقات أصيبت بخيبة أمل عميقة وشاع فيها التذمر بسبب السياسة الوجلة الضعيفة التى تنتهجها الحكومة . وحتى القيصر اتهمه بتفضيل يحط بالكرامة للسلام والهدوء . فجميع الدول المجاورة لألمانيا توسع مجالات نفوذها ، وألمانيا وحدها خاوية الوفاض ، برغم انها فى حاجة ماسة للتوسع . بالإضافة الى أن الموقف الداخلى كئيب جدا ، بل وميئوس منه . وأسباب ذلك هو صعود الديمقراطيين الاشتراكيين والتأثير الانحلالى للرأسمالية واليهود وانهيار الطبقات الوسطى . ومن الضرورى جدا الفاء حق الانتخاب لجميع الرجال المعمول به ، بالعنف اذا لزم الأمر . وأفضل وسيلة لتحقيق ذلك هى الحرب ، وكل شخص يحب الشعب الألماني لابد أن يرغب فى الحرب . فاذا كسبت ألمانيا الحرب فستعم موجة من الحماس الوطنى بحيث يحصل القوميون فى الانتخابات على أغلبية فى البرلمان ، ويجب استخدام هذه الأغلبية فى الفاء حق الانتخاب الديمقراطى . بيد أنه اذا هزمت ألمانيا فى الحرب فان ذلك سيكون سوء حظ عابر . والهزيمة تؤدي الى الفوضى الداخلية ، ولا يمكن استعادة النظام الا بواسطة دكتاتور قوى يؤيده الجيش ، وهذا أيضا يتيح الفرصة للحد من حق الانتخاب . وفى حالة عدم امكان قيام حرب فان حق الانتخاب ينبغى

تحديده بأية وسيلة ولو بانقلاب . وعندما يتم ذلك سيتعين على الامبراطور أن يسمح بالحكم البرلماني ، حيث أن النظام الحالي للحكم «غير محتمل» وبرنامج النظام المقبل يتضمن اخماد «النشاط الثوري» (أى الاشتراكيين) بقوة ومعاملة اليهود كأجانب ، واخماد الأقليات القومية بلا رحمة ، وتقييد الهجرة الداخلية وتحريم انشاء المتاجر الكبرى ، وأهم من ذلك جميعا زيادة الجيش والأسطول الى أقصى حد . فوجهة النظر التي تذهب الى أن الغرض منهما هو مجرد الدفاع شائنة ويرثى لها . ان أكثر ما تريده ألمانيا هو « سياسة نشيطة - أو بصراحة عدوانية » . فتوسع المانيا ينطوى على عداء نحو انجلترا ، والحل الوحيد هو الحرب . ويشير كلاس الى أن كل شخص متعلم فى ألمانيا يحب انجلترا ويعجب بها ، ولكن ليس سياستها . ولم تكن الصناعة فى أى من الدولتين مصدر ضرر حقيقى للصناعة فى الأخرى ، والغالب أن ذلك لن يحدث . ومن ثم فانه بعد الصراع الكبير يمكن أن تصبح انجلترا وألمانيا صديقتين مرة أخرى . ويشيد المؤلف أيضا ببعض السمات الطيبة فى فرنسا . وبخاصة وطنيتها واستعدادها للقيام بتضحيات للضرورات الحربية . ومع ذلك فان أمن ألمانيا يتطلب سحق فرنسا وأن تتنازل لها عن أقاليم واسعة وأن يجلو السكان الفرنسيون عن هذه الأقاليم لتوطين الألمان فيها . وليس لبلجيكا وهولندا الحق فى البقاء ، وينبغى ادمажهما فى ألمانيا برغم أن الألمان ليس لديهم ما يدعوهم الى الترحيب بذلك لأن سكانهما قد انحلوا أخلاقيا الى أقصى حد بسبب سيادة المصالح التجارية فترة طويلة . فاذا خضعوا بارادتهم ربما أمكن السماح لهم باستخدام لغاتهم الى حد ما والافلا . والنمسا وهنغاريا فى حاجة الى دكتاتورية ألمانية لكبح جماح السلافيين والهنغاريين ، وفيما يتعلق بروسيا ليس هناك ما يدعو الى العراك معها . فكلاس ، مثل هاس ، لا يحسد روسيا على امبراطوريتها ، بل أنه ينصح المان البلطيق بالهجرة اذا عملت روسيا على خنق جنسيتهم . ولكن فقد روسيا على كل ما هو ألماني سيؤدى فى الغالب الى الحرب . ويعتبر المؤلف الحرب علاجاً لا غنى عنه لمنع الانحلال الأخلاقى .

وقد تقدم كثير من الكتاب الآخرين بمثل هذه الآراء أو ما يماثلها فأعلنوا حق المانيا فى السيطرة على العالم وأغرقوا فى الاشادة بمزايا

الحرب سياسيا وأخلاقيا ولكن لا حاجة بنا الى أمثلة جديدة حيث أنها لم تضاف جديدا لأفكار تريتشكه وهاس وكلاس (١) .

وقد ركزت « عصبه الرابطة الألمانية » كل جهودها في زيادة قوة ألمانيا . ففي أيديولوجيتها بدت القوة في ذاتها الهدف الأسمى ، وهي وجهة نظر حتى تريتشكه أعلن أنها فطرية ومنفردة عندما ناقش فلسفة مكيافلي . وهي لا تتفق مطلقا مع مبادئ المسيحية والروح العالمية للمفكرين الكلاسيكيين والشعراء الكلاسيكيين في ألمانيا - القوى الروحية التي كانت لا تزال تملك تأثيرا ضخما على قطاعات كبيرة من الشعب الألماني . وكان هوستون ستيوارت شميرلين هو أكثر من عمل على شل هذا التأثير بواسطة نزعة قومية ثقافية جديدة تتركز في فكره التفوق الكبير « للجنس الآري » على كل الأجناس الأخرى (٢) . وكان جوبينو وغيره قد دعوا من قبل الى هذه الفكرة ولكن في صورة لا تتيح لها أية فرصة للنجاح . ففي رأى جوبينو كان المصير الحتمي للجنس الآري هو الانحطاط بسبب الاختلاط الذي لا يمكن تجنبه مع الأجناس الأدنى وكانت وجهة نظره متشائمة بالاضافة الى أنه لم يقل ان الألمان لديهم نصيب كبير من « الدم الآري » واعتبر الانجيز أفضل أصلا . أما شميرلين فبرغم أنه انجيزي فقد اعتبر الألمان « الشعب المختار » وانغمس في توجيه الاتهامات الى انجلترا الحديثة (٣) ، ووضع خطة عنصرية كانت أكثر ملاءمة من أية خطة أخرى لاجتذاب العقل الألماني . وأهل دعوته للرابطة كانت أكثر تعصبا وضرا حتى من دعوة تريتشكه ، ولكنها لم تكن سياسية وبروسية مثلها ، وكانت أكثر جاذبية بالنسبة للعقول المهتمة بالقضايا الثقافية . وترك كتب شميرلين في عقل معظم

(١) هناك أمثلة عديدة في كتابي «Nationalgeist und politik» المجلد الاول ص ٦٤ وكذلك م . هوبوم و ب . روبراخ «Chauvinismus und weltkrieg» مجلدان ١٩١٩ . و أ . نيوبولد «Der Deutsche Chauvinismus» ١٩١٣ .

(٢) هذا الكتاب ، الفصل الثاني (٤) .

(٣) انظر رأيه في الطابع الانجيزي في كتابه «Kriegsaufsätze» ١٩٤١ ص ٤٤ . وفي مقال آخر (ص ٢٤) أعاد نظرية فيشته الغربية عن التفوق الفريد للغة الألمانية وقال ان الشعب في انجلترا لا يصل اليه اثر للثقافة لان اللغة غير صالحة لذلك . ومن ثم فان أهم المهام هي فرض اللغة الألمانية على العالم . فكل الأمم يجب أن تدرك ان من لا يعرف اللغة الألمانية منبوذ . وفي مقال آخر ذهب الى حد القول بأنه لا يمكن التعبير عن أية فكرة سامية باللغة الانجليزية .

القراء انطباعا بأن كان كاتبها ذا عقلية موسوعية ، بواسطة رجل عميق الدراية بكل ميادين الثقافة والمعرفة . والواقع أنه كان واسع الاطلاع جدا ولديه موهبة تفسير مختاراته من التاريخ والفلسفة والدين والفن والأدب بحيث تؤيد العنصرية . ولكن هذه الواجهة المضخمة أقيمت باهمال تام للتفكير الناقد وعدم اهتمام حقيقي بالحقيقة (١) .

وكان شمبرلين مثل ترينتسكه كاتبا ذا قدرة غير عادية ، فأسلوبه ساحر ومقنع ويشيع فيه انفعال شبه ديني . وفي كتابه : « أسس القرن التاسع عشر » وفي كتبه عن المسيح وجوته وكانت حاول أن يبين أن جميع العبقريات الحقيقية كانت تعبيرا عن الروح الآرية ، وأن تعاليمها لا تتفق مع المعتقدات الأساسية للحررية والديموقراطية ، وأن اليهود هم أشد أعداء الآريين وأنهم يمثلون كل شيء دنيء ومنحرف . وكان الامبراطور ويلهلم الثاني صديقا وثيق الصلة بشمبرلين ومؤمنا متحمسا لنظرياته التي عمل على نشرها بكل الوسائل الممكنة . ولا عجب أن شمبرلين نجح في تخدير قطاع كبير من المثقفين الألمان وجعلهم يتشعبون بقدر هائل من الفخر بالجنس والجنسية والازدراء « للأفكار الغريبة » الانجليزية والفرنسية ، التي جعلها تبدو الى حد كبير نتاج الرأسمالية اليهودية ، وبهذه الطريقة صار شمبرلين أهم رائد للهتلرية وتنبأ هو نفسه بأن هتلر سيصير « منقذ ألمانيا » .

(١) هناك أدلة كافية على ذلك في كتابي « الجنس والمدنية » ١٩٢٨ .

الخاتمة

سيتوقع كثيرون من قراء هذا الكتاب ان يجدوا الفصل الأخير تلخيصا موجزا لمحتوياته ، وعرضا لنظرياته الرئيسية ومقترحاته العملية لعلاج الشرور التي ناقشها . وتشير « المقدمة » الى أن المؤلف يعتبر هذا الكتاب دراسة في الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ، وقد يبدو أن ذلك ينطوى على وعد بنظرية أو خطة من التعميمات تحدد اتجاهات أساسية . والواقع كان هدف المؤلف أن يسهم بنصيب فى وضع مثل هذه النظرية ، ولكنه يرى أنه من الخطأ جدا محاولة صياغة ما انتهى اليه من آراء فى بضعة تعميمات قليلة ، فى حين أن تسجيل الاتجاهات العامة بعناية يتطلب مجالا أوسع بكثير مما يسمح به المجال الحالى . بالإضافة الى أنه لما كان المؤلف يعد للنشر قريبا دراسات أخرى عن موضوع الجنسية فانه يبدو أن التلخيص والمقترحات العملية ينبغى تأجيلها . بيد أنه قد يكون من المفيد تلخيص بعض النتائج السلبية على الأقل ، وكشف طرق تناول الموضوع التى ثبت أنها مضللة ، وإضافة بعض ملاحظات أخرى .

ومشكلة الجنسية تنطوى على مجموعة من المشاكل المحيرة التى تمتد عبر كل ميادين الحياة وفى جميع العصور ، وهى معقدة وعسيرة بحيث ان محاولة وضعها فى صيغة موحدة تنطوى على جراءة . والحقيقة الأساسية هى الوعى القومى الذى اتخذ عبر التاريخ عدة صور مختلفة ، من شعور غامض بالقرابة الى السعى المتميز لتحقيق الشخصية القومية الى مثل أعلى للمجتمع الوثيق الصلة على أساس التضامن غير المحدود . والوعى القومى النامى ينطوى على هيكل من الأفكار فيما يتصل بحدود الأمة وتكوينها وطابعها ورسالتها ، وبالعلاقاتها بالأمم الأخرى . وهذه الأفكار تؤلف الأيديولوجية القومية . وتتألف سيكلوجية الوعى القومى من بناء معقد جدا من التطلعات وتظهر فى صور مختلفة تماما ، فقد تكون مسالمة أو عدوانية ، تقدمية أو رجعية ، متسامحة أو متعصبة .

ولا بد أن تكون أول خطوة نحو الفهم الحقيقى هى الوصول الى مصطلحات ملائمة غير غامضة . ومعظم الكتاب فى المسائل العامة الخاصة بالجنسية أهملوا هذه القاعدة واستخدموا مصطلحات متعددة المعانى .

وكانت نتيجة ذلك أن الكتاب والقراء سرعان ما فهم ضباب كثيف ، لم يكن دائما موضع نفور من جانب الكتاب . ومن الأشياء التي يؤسف لها بصفة خاصة عادة اطلاق لفظ (Nationalisme) النزعة القومية - على كل مظاهر الوعي القومى .

وفي هذا الكتاب تعنى النزعة القومية نوعا معينا من الوعي القومى يتركز فى التفوق والهيبة والقوة والسيطرة . ومثل آخر فى هذا الموضوع نراه فى طريقة استخدام « الطابع القومى » . ويفهم معظم الناس من هذا المصطلح أنه ينطوى على طابع خلقى يتكون من عدد من الغرائز ، ويؤدى ذلك الى اكذوبة العنصرية لعنة البشرية . والنزعات الأولية طبعا وراء جميع ألوان النشاط البشرى ، تماما كما أن الانسان لا يستطيع أن يعيش أو يفكر أو يتصرف بدون الطاقات التي تولدها العناصر الكيميائية فى جسمه . ولكن من السخف أن تصف أعمال شيكسبير واتجاهات الأمة وانجازاتها على أساس أنها غرائز ، بقدر ما هو سخيف أن نصفها على أساس أنها كربون وأيدروجين وأكسجين . ومع ذلك فإن عادة تفسير التطلعات والاختلافات فى الأمم والصراع باعتبارها نتاج ميول عنصرية ، تسيطر على أيديولوجية كل الأمم . ان بدائية هذه الفكرة هى التي تجعلها شعبية ولا تقاوم .

وقد دفع سوء تفسير لفظ « الطابع القومى » النقاد الى مهاجمة المصطلح ، بل ومهاجمة فكرة أن الأمم بينها اختلافات عميقة الجذور ، وبذلك انتقلوا من أقصى طرف الى أقصى الطرف الآخر . فمثل هذه الاختلافات لا شك موجودة ولها أثر كبير فى مصير الأمم . وهى متأصلة فى التقاليد والبناء الاجتماعى للأمم . ولعل لفظ « التقاليد القومية » هو أفضل بديل ممكن « للطابع القومى » . بيد أن التقاليد وحدها بالضرورة قوية ومستمرة . فهى تكتسب قوتها كعوامل سياسية عن طريق ارتباطها بمصالح الجماعات الاجتماعية ذات النفوذ . ويجد معظم الناس صعوبة فى فهم المغزى الكامل للتقاليد بالنسبة للحياة السياسية للأمم ، وحتى اذا اعترفوا بتأثيرها فانهم عادة لا يستطيعون أو لا يميلون الى تكريس وقت كاف لدراسة التاريخ كما يتطلبه الفهم الحقيقى للتقاليد ، التي تعد مشكلة من أصعب مشاكل البحث التاريخى .

ويمكننا أن نلاحظ تفصيل التفسيرات البدائية أيضا فى الآراء عن أسباب اكتساب النزعة القومية العدوانية كل تلك السيطرة لدى شعوب معينة ، برغم أن المصالح الحقيقية للأغلبية الساحقة متعارضة بالتأكيد مع

هذه الأهداف • وأى شخص يعرف عقلية العمال والفلاحين فى بعض البلاد المعينة ، مثل إيطاليا ، يجد صعوبة فى تصديق أنهم كانوا يتحرقون للتضحية بحياتهم فى سبيل المجد وأسلاب الحرب • فالمشكلة إذن هى أية قطاعات المجتمع تقع عليها المسئولية الأساسية ؟ وما دوافعها ؟ وكيف استطاعت أن تحمل الطبقات الأخرى على التضحية بكل شئ فى سبيل أهداف من الواضح أنها غريبة عن رغباتهم الحقيقية الى حد يزيد أو ينقص ؟ وقد يفسر الارهاب والغش ذلك الى حد ما ، ولكن لا شك فى أنها ليسا العاملين الوحيدين • وقد أجيب عن هذه الأسئلة عدة اجابات مختلفة •

فلكل حزب سياسى أو طبقة اجتماعية ولكل مدرسة من مدارس التاريخ أو الاجتماع أو علم النفس تفسيرها الخاص بها ، أو التفسير الذى تميل اليه • بيد أن كل هذه التفسيرات تقريبا تخط بعض الحقيقة بقدر كبير من غير الحقيقة • وكلها ترتكب خطأ المبالغة فى تبسيط الأمور وتأكيد عامل ما بوصفه السبب الوحيد أو الرئيسى فى النزعة القومية • وأكثر الطرق استخداما هىلقاء المسئولية كلها على أمة أخرى أو طبقة أخرى • وانى أأمل أن يكون هذا الكتاب قد أوضح أن النزعة القومية ليست نتاج عصر واحد أو أمة أو طبقة أو حزب أو دين أو فلسفة واحدة ، بل ان كل جانب أسهم فى نموها ، واعترض نموها جزئيا ، وان كان ذلك بدرجات مختلفة تماما • وفى حالات كثيرة دعمت طبقة أو حزب أو مدرسة فكرية ، على غير وعى منها ، اتجاهات غريبة عن أهدافها ، وان كانت بعض قطاعات الأمم كان لها دور خاص فى نمو النزعة القومية ، مثل الطوائف العسكرية والمثقفين والأجيال الشابة • بيد أن بذور النزعة القومية توجد فى جميع مراتب المجتمع ، وعندما تحدث أزمة كبرى فقد ينفجر الانفصال القومى بقوة لا يستطيع أحد أن يتنبأ بها • والعامل الحاسم هو الأيديولوجية القومية التى يمكن أن نقارنها بشبكة هائلة وقعت فى حبالها جميع الطبقات فى حين تمسك بحبالها فئة قليلة • فضلا عن أن « روح العصر » هى التى لها النفوذ الأول على مصير الجنس البشرى • وكلتا هاتين القوتين نتاج مجموعة لا تعد من العوامل •

ومن ثم فلا يمكن تشخيص أسباب النزعة القومية أو صعود روح الجنسية عموما فى بعض عبارات قليلة • فكلاهما مرتبط ارتباطا وثيقا بجميع فروع الحياة والفكر بحيث كأننا نحاول أن نضغط تاريخ العالم كله فى بضعة سطور • ومن الممكن طبعا وضع بعض النتائج العامة ، ولكنها لن تنقل فهما حقيقيا للمشكلة • والصين المجردة التى تنطوى على ضغط قدر ضخم من الملاحظات فى أوجز صورة ، يرحب بها المنظرون ، ولكن فائدتها

لدارس الجنسية قليلة. فالتنافسات القائمة بين الأمم أو السمات الفريدة التى تتميز بها تقاليدها وتطلعاتها لا يمكن فهمها الا بدراسة التاريخ بروح مقارنة واجتماعية دراسة معتنية .

وهناك أسباب مماثلة تثبط أية محاولة لصياغة « علاجات » مختصرة للنزعة القومية . وقد أصبح من المعترف به عموما أن مجرد وجود جهاز لمنظمة دولية لا يحدى اذا لم توجد الروح الملائمة . ولكن كيف يمكن خلق هذه الروح وتقويتها ؟ واضح أن مجرد اعلان مبادئ عامة غير كاف . كما لا يكفى أن نقول : انه يجب تربية الأمم فى اتجاه هذه الروح اذا لم تكن هناك خطة عملية لتنفيذ ذلك أو عدد كاف من المربين الصالحين . وعادة تناول مثل هذه المسائل بطريق غير واقعية وبعدم اكتراث لا بد أن يؤدى الى الفشل وخيبة الأمل و « الكليية » .

فضلا على أن التربية من أجل المواطنة العالمية ليست مجرد شأن من شئون المدارس . فهى مرتبطة بجميع القضايا الكبرى فى الحياة السياسية والاقتصادية ، ولا سبيل الى حلها الا اذا انتهجت جميع الأمم الرائدة خططا تفصيلية تقوم على مبادئ متماثلة . ولعل هذه الملاحظات توضح لماذا قاومت اغراء التقدم باقتراحات عملية فى فصل قصير أخير . ومع ذلك فحتى النتائج السلبية من النوع النظرى قد تكون لها قيمتها فيما يتعلق بأغراض السياسة العملية . فالمرض لا يمكن علاجه بالطريقة الصحيحة الا بعد اكتشاف أسبابه . وعلم الدواء الحديث لم يستطع النمو ما دام الناس يؤمنون بأسباب خيالية للأمراض ، مثل الأرواح الشريرة . والخطوة التالية ، وان لم تكن الأخيرة ، هى تقييم شامل للأسباب الحقيقية . والصعوبة الرئيسية هى قوة التميزات والأناية والتمنيات وعدم استعداد كثير من السياسيين لانتهاج خطط معقدة لا تؤتى ثمارها الا فى المستقبل والتى يمكن أن تثير التحيز القومى والانفعالات القومية .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول :	
صور الوعى القومى وتكوينه	٦
الفصل الثانى :	
الجنسية والأجناس	٦٢
الفصل الثالث :	
الجنسية واللغة	٩٢
الفصل الرابع :	
الدين والجنسية	١١٤
الفصل الخامس :	
الاقليم القومى	١٧٠
الفصل السادس :	
الدولة القومية والارادة والطابع القومى	٢٣٨
الفصل السابع :	
الحلفية الاجتماعية للنزعة القومية الحديثة	٢٨٦
الفصل الثامن :	
الفكر السياسى والايدىولوجية القومية	٣٢٢
خاتمة	٤٦١

